إميل زولا



ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت لبنان

الطبعة الاولى ١٩٦٩

مقدمة

يجب ان تتألف روغون – ما كار[1] *Les Rougon- Macquart* من عشرين رواية   وقد توقف المخطط العام منذ سنة ١٨٦٩ ، واتبعته بشقة متناهية ورواية « الحانة » جاءت في وقتها ، وقـد كتبتها ، كما سأكتب الأخريات ، دون ان احيد لحظة عن خطي المستقيم . وهذا ما يشكل قوتي . ان لي هدفاً اسير اليه

حين ظهرت « الحانة » في صحيفة هوجمت بشراسة لا مثيـل لها ، وكانت موضع شكوى ، واثقلت بكل الجرائم . فهل من الضروري ان اشرح هنـا مقاصدي ككاتب ، ببضعة اسطر ؟.. لقد اردت ان اصور الانحطاط المشؤوم لعائلة من العمال في محيط ضواحينا الموبوء . ففي نهاية السكر والتكاسل يوجـد ارتخاء روابط العائلة ، وفساد الاختـلاط غير المنظم ، والنسيان التصاعدي للعواطف الفاضلة ، ثم العار والموت كنهاية   انها ، بكل بساطة ، اخـلاق في حالة العمل .

---

(١) اسم اطلقه المؤلف على العائلة التي درسها في كتابه « التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة في عهـد الامبراطورية الثانية »   وقـد ظهر منـه عشرون مجلداً بين ١٨٧١ و ١٨٩٣ ، والمعروف من هذه الروايات اكثر من غيره   غلطـة الاب موريه ، الحانة ، نانا ، جرمينـال ، الارض . الحـلم . ويطبق الكاتب الطبيعي الاسلوب العلمي على دراسة الظاهرات الاجتماعيـة وخصوصاً قوانين الوراثة .   « المعرب »

ومن المؤكد أن رواية « الحانة » هي اعف كتبي   وفي اغلب الاحيـــان اضطررت ان المس جراحاً رهيبة بشكل آخر . والشكل وحده قد اضطرب . وقد تثير الكلمات الغضب   وجريمتي كائنة في انني املك الفضول الادبي لالتقط لغة الشعب واسكبها في قالب متقن الصنع . آه !.. الشكل ، هنا الجريمة الكبرى ! مع ذلك فهناك معاجم موجودة لهذه اللغة ، وادباء يدرسونها ويتمتعون بريعان شبابها ، وبمفاجأة وقوة صورها . انها وليمة لعلماء قواعد اللغة المنقبين ، لا يهم ، فما من احد توقع انني كنت اريد ان اعمل عملا لغوياً صرفاً اعتقده ذا فائدة تاريخية واجتماعية قوية

ومع ذلك فأنا لا ادافع عن نفسي . فعملي سيدافع عني . انه عمل يتعلق بالحقيقة ، اول رواية لا تكذب عن الشعب ، وفيها رائحة الشعب   ولا يجب الاستنتاج ان الشعب بكامله رديء ، لان الاشخاص ليسوا بأردياء ، فهم ليسوا سوى جهلة ، افسدهم محيط العمل القاسي والشقاء حيث يعيشون . فقط ، يجب قراءة رواياتي ، وفهمها ، والنظر الى مجموعها بوضوح ، قبل اصـــدار الاحكام الجاهزة ، المضحكة والبغيضة التي تدور حول شخصي وحول مؤلفاتي   آه ! لو كانوا يعلمون كم يبتهج اصدقائي من الاسطورة المذهلة التي يتلهى بها الجمهور ! لو كانوا يعلمون كم ان شارب الدماء الروائي الضاري ، هو بورجوازي فاضل ، ورجل درس وفن ، يعيش بحكمة في زاويته ، ومطمحه الوحيـــد هو ان يترك اثراً كبيراً حياً بقدر ما يستطيع !.. انني لا اكذّب اية حكاية ، انني اشتغل . واترك للزمن ولحسن النية العامة ان يكتشفاني اخيراً تحت كدسة الحماقات المتراكمة .

اميل زولا

باريس ، اول كانون الثاني ١٨٧٧

١

كانت جرفيز قد انتظرت لانتيه *Lantier* حتى الساعة الثانية صباحاً . ثم غالبها النعاس وهي ترتعش لبقائها بالصدرة في هواء النافذة الشديد ، فارتمت محمومة على عرض السرير ، وخداها مغمسان بالدموع . فمنذ ثمانية أيام ، عند خروجهما من مطعم « العجل ذو الرأسين » حيث تناولا الطعام ، ارسلها لتنام مع الاولاد ولم يعد الا متأخراً في الليل ، قائلاً انه كان يبحث عن عمل . وفي هذا المساء ، بينما كانت ترقب عودته ، ظنت انها رأته يدخل الى حفلة « الشرفة الكبرى » الراقصة ، حيث النوافذ العشر الملتهبة كانت تنير خط الشوارع الخارجية الاسود المائل بغطاء من اللهب ؛ وشاهدت وراءه اديل الصغيرة ، وهي سمراء كانت تتناول غداءها في مطعمها ، تسير على مسافة خمس او ست خطوات ، متدلية اليدين كأنها تركت ذراعه لكي لا يمرا سوية تحت النور الفائض من مصابيح الباب .

وعندما استيقظت جرفيز نحو الساعة الخامسة ، متوترة ، محطمة الاصلاب ، انفجرت بالنحيب ، فلانتيه لم يكن قد عاد . للمرة الأولى ينام خارج البيت . وظلت جالسة على حافة السرير ، تحت قطعة نسيج زال لونها كانت تتدلى من السهم المربوط بالسقف بواسطة خيط . وبتمهل قامت عيناها المقنّعتان بالدموع بدورة في الغرفة الحقيرة المفروشة المؤثثة بخزانة ذات ادراج من خشب الجوز ينقصها درج ، وثلاثة كراسي من القش ، ومنضدة صغيرة ملوثة بالشحم عليها اناء مثلوم للماء . وقد اضيف للأولاد سرير حديدي يسد الخزانة ويملأ ثلثي

الغرفة . وفي احدى الزوايا صندوق جرفيز ولانتيه مفتوح يظهر جوانبه الفارغة ، وفي اعماقه قبعة رجل قديمة مخبأة تحت قمصان وجوارب قذرة ؛ بينما على طول الجدران ، وعلى مسند الاثاث يتدلى شال مثقوب ، وبنطلون أكله الوحل ، وآخر ثياب رثة اباها بائعو الثياب . وفي وسط المدخنة ، بين مصباحين من الزنك غير متشابهين ، يوجد رزمة من ايصالات محل الرهونات ، ذات لون وردي . انها الغرفة الجميلة في الفندق ، غرفة الطابق الأول التي تطل على الشارع

الا أن الولدين كانا ينامان جنباً الى جنب على وسادة واحدة . كلود البالغ الثامنة من العمر ، ويداه الصغيرتان ملقاتان خارج الغطاء ويتنفس تنفساً بطيئاً ، بينما اتيين ، وعمره اربع سنوات، كان يبتسم ، وقد ألقى ذراعه على عنق اخيه. وحين توقف نظر والدتهما الغارق بالدمع عليهما ، انتابتهـا ازمة بكاء ، فسدّت فمها بمنديل لتخنق الصرخات الخفيفة التي كانت تنفلت منه . وعادت تستند الى النافذة ، عارية القدمين ، دون ان تفكر باحتذاء نعليها الساقطين ، وعادت الى انتظارها الليلي ، سائلة الارصفة في البعيد .

كان الفندق في شارع لاشابيل ، الى شمال حاجز بواسونيير . انه بيت صغير من طابقين مدهون باللون الاحمر الخمري حتى الطابق الثاني، مع شبابيك خارجية أفسدها المطر . وفوق مصباح ذي زجاج بشكل نجوم ، يتوصل المرء الى ان يقرأ بين النافذتين : « فندق بونكير : بإشراف مارسوليه » ، بحروف كبيرة صفراء حيث عفونة الجبس ذهبت بقطع منها . وجرفيز الذي كان القنديل يزعجها ، كانت تتطاول، ومنديلها على شفتيها، وتنظر الى اليمين من ناحية شارع روشيشوار ، حيث كان جماعة من الجزارين امام المسلخ يقفون بوزرات ملوثة بالدم ، وكان الهواء البارد يحمل النتانة بين لحظة وأخرى ، رائحة حيوانات مذبوحة. وكانت تنظر الى الشمال حيث يمتد شريط طويل من الشارع، ويتوقف امامها تقريباً على الكتلة البيضاء لمستشفى لاريبوازيير الذي لا يزال قيد البناء. وبتمهل ، ومن طرف الافق الى الطرف الآخر ، كانت تتبع جدار الجمرك حيث كانت تسمع خلفه ، ليلاً ، صراخ مقتولين : وتنقبت في المنعطفات المنفردة ،

والزوايا القـاتمة، السوداء من الرطوبة والقذارة ، خائفة ان تكلشف فيها جثة لانتيه مبقورة البطن بطعنات سكين وحين رفعت عينيها ، فيما وراء ذلـــك الجدار الاربد اللامنتهي الذي يحيط المدينـة بعصابة من القفار ، شاهدت ألقاً كبيراً ، غبار شمس ، مليئاً بزمجرة باريس الصباحية . ولكنها كانت تعود دائماً الى حاجز بواسونيير ، مادّة العنق ، معللة النفس برؤية سيلان موجة لا تنقطع، بين غرفتين مربعتين في جناح الجمرك ، من الرجال ، والحيوانـــات ، والعربات الهابطة من مرتفعات مونمارتر ولاشابيل وكان هناك وقع خطى قطيـــع ، وجمهور نشرته الوقفات الفجائية كمستنقعات صغيرة على الأرض المرتفعة ، وسير متتابع لا نهاية له لعمال ذاهبين الى العمل ، وأدواتهم على ظهورهم ، وخبزهم تحت آباطهم؛ وكان هذا الجمع الغفير يغوص في باريس حيث يغرق ، بشكل مستمر . وحين كانت جرفيز تظن انها عرفت لانتيه بين هؤلاء الناس، فانها كانت تزيدمن انحنائها متعرضة للسقوط ؛ ثم تزيد من ضغط منديلها على فمها كأنها تريد ان تعض ألمها

وجعلها صوت شاب مرح تترك النافذة

– اذن فالبورجوازي ليس هنا يا سيدة لانتيه !

فأجابت محاولة الابتسام

– ولكن كلا يا سيد كوبو .

انه عامل في صناعة الزنك كان يشغل في اعلى الفندق غرفة بعشرة فرنكات. وكان كيسه معلقاً بكتفه . وقد وجد المفتاح بالباب فدخل كصديق وتابع

– انت تعرفينني الآن انني اشتغل هناك في المستشفى... ما اجمل شهر ايار ! البرد قارص هذا الصباح

وكان يتطلـــع الى وجه جرفيز المحمر من الدموع . وحين رأى السرير غير مدعوك ، هز رأسه بلطف ؛ ثم جاء الى مضجع الولدين حيث كانـا لا يزالان نائمين بهيئة الكروبيم الوردية ؛ وقال خافضاً صوته

ـ هيا ! البورجوازي ليس عاقلاً ، اليس كذلــك ؟ لا تحزني يا سيدة

لانتيه . انه يهتم كثيراً بالسياسة . فقد كان كالمجنون يوم جرى التصويت لاوجين سو ، وهو صالح كما يبدو. من الممكن انه قضى ليلة مع اصدقاء يقولون السوء في ذلك الوغد بونابرت .

فتمتمت بجهد :

ـ كلا ، كلا ، ليس كما تظن . انا اعرف اين هو لانتيه .. ان لنا همومنا كجميع الناس ، يا الهي ! ..

فطرف كوبو بعينه ، ويبدو انه لم ينخدع بهذه الكذبة . وذهب، بعد ان عرض عليها ان يذهب ليجلب لها الحليب اذا لم تكن تريد ان تخرج كانت امرأة جميلة شجاعة ، تستطيع الاعتماد عليه يوم تصاب بالضيق . وما ان ابتعد حتى عادت جرفيز الى النافذة .

عند الحاجز ، كان وقع اقدام القطيع مستمراً في برد الصباح وكان صانعو الاقفال يُعرفون ببلوزاتهم القصيرة الزرقاء ، والبناءون بدروعهم البيضاء ، والرسامون بستراتهم التي يرتدون تحتها بلوزات طويلة . وكان هذا الجمهور ، من بعيد ، يمّحي كالجبس ويحتفظ بنبرة جامدة حيث يسيطر الازرق الزائل اللون والاربد القذر واحياناً ، يقف احد العمال ، ويولع غليونه ، بينما يواصل الآخرون حوله سيرهم ، دون ضحكة ، ودون كلمة تقال لرفيق ، بخدودهم الترابية ، وبالوجه المتطلع الى باريس التي كانت تلتهمهم واحداً واحداً بواسطة شارع بواسونيير الفاغر فاه . ومع ذلك ، في زاويتي شارع بواسونيير ، وعلى باب بائعي خمر رفعا المصاريع ، كان رجال يتمهلون ؛ وكانوا يظلون ، قبل ان يدخلوا ، على حافة الرصيف ملقين على باريس نظرات زوراء ، مسترخي الاذرع ، فقد ربحوا يوم عطلة وامام مناضد الباعة جماعات تطوف ، وقد نسيت نفسها هناك ، واقفة ، مالئة القاعة ، باصقة ، ساعلة ، تجلي نحورها بجرعات من كؤوس صغيرة .

وكانت جرفيز تراقب قاعة الاب كولومب الى شمال الشارع ، حيث كانت تفكر انها رأت لانتيه ، عندما سألتها امرأة ضخمة عارية الرأس ، ذات مريلة

من وسط الشارع

– قولي اذن ، يا سيدة لانتيه ، انت مبكرة جداً .

– هذا انت يا سيدة بوش !. اوه ! عندي اليوم كثير من الاعمال .

– نعم ، اليس كذلك ؟.. ان الامور لا تتم من تلقاء نفسها .

وانعقد حديث من النافذة الى الرصيف . كانت مدام بوش هي حارسة باب البيت الذي يشغل مطعم « العجل ذو الرأسين » الطابق الارضي منه وكانت جرفيز قد انتظرت لانتيه عدة مرات في منزلها حتى لا تجلس وحدها الى المنضدة مع جميع الرجال الذين يتناولون طعامهم الى جانبها وقصّت حارسة الباب انها كانت ذاهبة مسافة خطوتين الى شارع لاشاربونيير في طلب مستخدم لا يزال نائماً ، وزوجها لا يستطيع ان يرتق معطفاً . وبعد ذلك تحدثت عن احد المستأجرين عندها الذي عاد الى البيت مع امرأة في السهرة ، ومنع الناس من النوم حتى الساعة الثالثة صباحاً . ولكنها وهي تثرثر كانت تتطلع بالمرأة الشابة بفضول شديد ؛ وبدت انها لم تأت الى هنا وتقف تحت النافذة الا لكي تعرف . وسألت فجأة

– الا يزال السيد لانتيه نائماً ؟..

فأجابت جرفيز التي لم تستطع منع نفسها من الاحمرار :

– نعم ، انه ينام

ورأت مدام بوش الدموع تصعد الى عينيها ، وقد ارضاها ذلك دون شك فابتعدت وهي تنعت الرجال بالكسل ، ثم عادت لتصرخ

– انك تذهبين الى المغسل هذا الصباح ، اليس كذلك ؟.. عندي بعض الاشياء للغسيل ، وسأحفظ لك مكاناً بجانبي وسنتحدث .

ثم قالت وكأن قد اجتاحتها شفقة مفاجئة

– يا صغيرتي المسكينة ، من الافضل الا تبقي هنا ، فستصابين بسوء انت بنفسجة .

واصرت جرفيز على البقاء في النافذة طوال ساعتين مميتتين ، حتى الساعة الثامنة .

وكانت الدكاكين قد فتحت ، وموجة البلوزات المنحدرة من المرتفعات قد انقطعت ؛ وبعض المتأخرين فقط كانوا يجتازون الحاجز بخطوات كبيرة ولا يزال الرجال انفسهم عند بائعي الخمور واقفين يواصلون الشرب والسعال والبصاق . وتبع العاملات العمال ، وصاقلات المعادن ، وبائعات الثياب وبائعات الزهور ، محصورات في ملابسهن الرقيقة ويسرن خبباً على طول الجادات الخارجية . كن يسرن شراذم تتألف كل منها من ثلاث او اربع ، ويتحدثن بحرارة ، ويضحكن ضحكات خفيفة ، ويلقين حولهن نظرات متألقة وفي البعيد واحدة بمفردها ، هزيلة ، ذات هيئة شاحبة وجدّية ، كانت تسير على محاذاة جدار الجمرك متجنبة مسيل القذارات . ثم مر المستخدمون نافخين في اصابعهم ، آكلين خبزهم الذي اشتروه بفلس اثناء سيرهم ؛ وشبان ناحلون ، بملابس قصيرة جداً ، وعيون متكسرة ، متعكرة من النوم؛ وكهول يكرجون على اقدامهم ،والوجه شديد الشحوب انهكته ساعات المكتب الطويلة ،متطلمين الى ساعاتهم ليضبطوا سيرهم على بضع ثوان .واتخذت الشوارع سلامها الصباحي ، وكان اصحاب الايرادات من الجوار يتنزهون في الشمس ، والامهات ، بشعرهن وتنوراتهن القذرة ،يهدهدن بين اذرعهن اطفالا في الاقمطة كن يغيرنها على المقاعد، وجماعة اطفال لم يمتخطوا جيداً ، مختلي الثياب ، كانوا يتدافعون وينسحبون على الارض خلال العياط والضحك والبكاء . وعندئذ شعرت جرفيز انها تختنق ، وانتابها دوار من القلق الشديد ،وكادت تفقد الامل ، فقد خيل اليها ان كل شيء انتهى ، وان الازمنة انتهت ، وان لانتيه لن يعود ابداً الى البيت كانت تسير ، تائهة النظرات ، من المسالخ القديمة السوداء بمجازرها ونتانتها ، الى المستشفى الجديد ، الشاحب ، الذي يُظهر ، بواسطة ثقوب صفوف نوافذه الفاغرة الفم ، قاعات عارية اعمل فيها الموت منجله . وفي الجهة المقابلة لها ، وراء جدار الجمرك ، كانت تبهرها السماء الزاهرة وبزوغ الشمس المتزايد فوق اليقظة الضخمة لباريس .

كانت المرأة الشابة جالسة على كرسي، مرتخية اليدين ، لا تبكي عندمادخل

لانتيه باطمئنان . فصرخت وهي تريد ان ترتمي على عنقه :

– اهذا انت ؟

فأجاب :

– نعم ، هذا انا ، وبعد ؟ .. ربما لن تبدئي حماقاتك .

وأبعدها عنه . وبحركة دالة على مزاج سيء قذف في الهواء قبعته المصنوعة من اللباد الاسود على الخزانة . انه غلام في السادسة والعشرين من سنه ، صغير ، شديد السمرة ، ذو وجه جميل مع شاربين رقيقين يلمسهما دائماً بحركة آلية من يده . وكان يرتدي صدرة عامل ، ومعطفاً قديماً مبقعاً يشد على قامته ، ويتكلم بلهجة ريفية ملفوظة جيداً .

وكانت جرفيز التي سقطت على المقعد ، تشتكي بهدوء وبعبارات قصيرة :

– لم استطع اغماض عيني . اعتقدت انك اصبت بضربة سيئة .. اين ذهبت ؟ اين قضيت الليل ؟ ياالهي ! لا تعد الى ذلك ، سأصاب بالجنون .. قل يا اوغست ، الى اين ذهبت ؟

فقال هازاً كتفيه

– بالتأكيد ، حيث كان عندي شغل . في الساعة الثامنة كنت في غلاسيير عند ذلك الصديق الذي يشيد مصنعاً للقبعات . وتأخرت .. عندئذ فضلت ان انام .. ثم انك تعرفين انني لا احب ان يتجسس احد علي . دعيني بسلام !

فأخذت المرأة الشابة تنتحب . وقد أيقظت الولدين ضوضاء الاصوات وحركات لانتيه العنيفة حيث كان يقلب الكراسي ، فاستويا جالسين ، نصف عاريين ، مرتبين شعرهما بايديهما الصغيرة . وقد سمعا امهما تبكي فأطلقا صرخات راعبة ، باكيين هما ايضاً بعيونهما التي تكاد لا تكون مفتوحة .

وهتف لانتيه مهتاجاً

– آه ! اليكم الموسيقى ! انني انذرك بأنني ساخرج ! سأفعل ما يحلو لي هذه المرة .. الا تريدين ان تصمتي ؟ اسعدت مساءً ! ساعود من حيث اتيت

وكان قد استعاد قبعته عن الخزانة . ولكن جرفيز اسرعت متمتمة
– كلا ، كلا !

واخمدت دموع الصغيرين بملاطفاتها ، وقبلت شعرهما ، وأنامتهما بكلام حنون، وهدأ الصغيران فجأة وضحكا على الوسادة وأخذا يلهوان بتبادل القرص. الا ان الاب ارتمى على السرير دون ان يخلع حذاءه، بهيئة تعبة، ووجهه كالرخام بسبب ليلته البيضاء . ولم ينم ، فقد ظلت عيناه مفتوحتين تطوفان في الغرفة . وتمتم

– انه نظيف ، هنا !

ثم اضاف بخبث بعد ان تطلع لحظة بجرفيز

– الا تغسلين وجهك ابداً ؟

لم يكن عمر جرفيز سوى اثنتين وعشرين سنة. كانت كبيرة ، رقيقة قليلاً ، ذات قسمات ناعمة اتعبتها قساوة الحياة مشعثة الشعر ، تنتعل حذاء باليـاً ، وترتجف من البرد تحت صدرتها البيضاء التي ترك اثاث البيت عليهـا شيئاً من غبائره وشحومه ، وقد بدت كأنها كبرت عشر سنوات في تلـك الساعة التي امضتها بالقلق الشديد والدموع . وقد جعلتها كلمة لانتيه تخرج من موقفهـا الخائف الخانع ، فقالت منتعشة

– لست عادلاً . فأنت تعلم انني اعمل كل ما بوسعي ، وليس الخطـأ مني اذا كنا وقعنا هنا كان بودي ان اراك مع الولدين في غرفة لا يوجد فيها حتى ولا موقد للحصول على المياه الساخنة .. وكان يجب عند وصولنا الى باريس ان تسكننا حالاً كما وعدت بدلا من ان تأكل مالك .

فصرخ :

– قولي اذن ! لقد قضمت المال معي ، ولا يليق بك اليوم ان تبصقي على القطع الطيبة !

ولكنها لم تبد انها تسمعه ، وتابعت

– واخيراً ، بالمستطاع الخروج من هذا المأزق بالشجاعة ... لقـد رأيت

مساء البارحة مدام فوكونيه ، الغسالة في الشارع الجديد، ستأخذني نهار الاثنين. فاذا استملت صديقك في لاغلاسيير فسنغنتني بعد الفقر قبل ستة اشهر ، الوقت الذي نتجهز ونستأجر جحراً في احدى النواحي ، حيث نصبح في بيتنا ... اوه ! يجب ان نشتغل ، نشتغل ...

والتفت لانتيه نحو الزقاق متضجراً ، فاحتدت جرفيز عندئذ

– نعم ، الامر هكذا ، فالمعروف ان حب الشغل لا يضايقك . انت تموت طمعاً ، وتريد ان ترتدي كسيد وتنزه زانيات بتنورات حريرية . اليس كذلك ؟.. انت لا تجدني بحالة جيدة منذ ما اودعت كل ملابسي في محل الرهونات اسمع يا اوغست ، لم اكن اريد ان اكلمك عن ذلك ، وكان عليّ ان انتظر ايضاً ، ولكنني اعلم اين قضيت الليل ، فقد رأيتك تدخل « الشرفة الكبرى » تجر اديل وراءك . آه ! انك تحسن اختيارهن ! انها نظيفة تلك المرأة ، وهي على حق في ان تبدو كالأميرات فقد نامت مع جميع زبائن المطعم .

وبوثبة ، قفز لانتيه عن السرير . كانت عيناه قد اصبحتا بسواد الحبر في وجهه الكثير الشحوب . كان الغضب يهب كالزوبعة عند هذا الشاب .

وكررت المرأة الشابة

– نعم ، نعم ، مع جميع زبائن المطعم ! وستطردهما مدام بوش ، هي واختها الزانية ، بسبب وجود صف من الرجال على الدرج بصورة دائمة

ورفع لانتيه قبضتيه ، ثم قاوم حاجته الى ضربها ، وامسك بذراعيها ، وهزها بعنف ، وقذفها لتسقط على سرير الطفلين اللذين عادا الى الصراخ ، وعاد هو الى النوم ، قائلاً بشيء من اللجلجة ، وبهيئة وحشية لرجل صمم على امر ولا يزال متردداً في تنفيذه :

– انت لا تدرين ماذا فعلت يا جرفيز ... لقد اخطأت ، وسترين .

وظل الطفلان ينتحبان برهة ، وامهما المنطوية على حافة السرير كانت تمسكهما بأحضانها ، مرددة هذه العبارة بصوت رتيب ، عشرين مرة :

– آه ! لو لم تكونا موجودين يا صغيري المسكينين ! لو لم تكونا موجودين !. لو لم تكونا موجودين !

اما لانتيه المتمدد باطمئنان على قطعة النسيج الكامدة اللون وعيناه مرفوعتان الى ما فوقه ، فلم يكن يسمع شيئاً لانه كان مستغرقاً في فكرة ثابتة . وقد ظل هكذا مقدار ساعة دون ان يخضع للنوم رغم التعب الذي يثقل جفونه وعندما استدار مستنداً على مرفقه ، قاسي الوجه جسوراً ، كانت جرفيز قد اكملت ترتيب الغرفة وسوت سرير الولدين اللذين نهضا يرتديان ثيابها . ورآها تكنس ، وتمسح الاثاث ، الا ان الغرفة ظلت سوداء تستحق الرثاء بسقفها الداخن، وورقها المنفصل عن الجدران بسبب الرطوبة ، ومقاعدها الثلاثة ، وخزانتها العرجاء ، حيث ظلت الاقذار تعاند وتنتشر تحت الممسحة . وفيما كانت تغتسل بكثير من الماء ، بعد ان ربطت شعرها امام المرآة الصغيرة المعلقة بالمشجب ، والتي يستعملها عندما يحلق ، بدا انه يتفحص ذراعيها العاريين ، وعنقها العاري ، وكل ما يظهر من عريها كأنه يقوم بمقارنة في ذهنه . ومط شفتيه مكشراً فقد كانت جرفيز تعرج من الساق اليمنى ولكن ايام التعب كانت تغيب عنه حين تستسلم له محطمة الخواصر وكانت في ذلك الصباح تجر ساقها وتستند الى الجدران بعد ان انهكها الليل .

وخيم الصمت ، ولم يتبادلا اية كلمة ، وبدا هو منتظراً . وحاولت هي ان تبدو بوجه لامبال بعد ان اخفت ألمها ، وأسرعت . ولما كانت قد جهزت صرة من الثياب المتسخة ملقاة في زاوية وراء الصندوق ، فانه فتح شفتيه اخيراً وسأل :

– ماذا تفعلين ؟ الى اين ذاهبة ؟

فلم تجب اولاً وحين اعاد سؤاله ، صمت وقالت بغضب :

– بامكانك ان ترى جيداً سأغسل كل هذا ... فالاولاد لا يستطيعون العيش في القذارة .

وتركها تلتقط منديلين او ثلاثة وقال في نهاية صمت جديد

– أمعك نقود ؟

فنهضت دفعة واحدة ، وتطلعت في وجهه دون ان تترك قمصان الصغيرين القذرة التي كانت تمسكها بيدها

– نقود ، من اين تريد ان اسرقها ؟ انت تعلم انه كان معي اول البارحة ثلاثة فرنكات قيمة رهن تنورتي السوداء . وأكلنا مرتين هنـاك فوق . وذهب كل شيء بسرعة في دكان بائع لحم الخنزير .. كلا ، دون شك ، ليس لدي نقود. معي اربعة فلوس لأجل المغسل .. وانا لا اربح كبعض النساء .

فلم يتوقف عند هذا التلميح . وكان قد هبط عن السرير ، واستعرض تلـك الخرق القليلة المعلقة في جوانب الغرفة . واخيراً اخذ البنطلون والشال ، وفتح الخزانة واضاف الى الرزمة صدرة نسائية وقميصين نسائيين ، ثم قـال بعد ان القى الجميع على ذراع جرفيز

– خذي ، احملي هذا الى محل الرهونات

فسألت

– الا تريد ان احمل الولدين ايضاً ؟ لو انهم يقرضون مالا على الاولاد لكان ذلك تخلصاً عظيما من الورطة

الا انها ذهبت الى محل الرهونات وحين عادت ، في مدى نصف ساعة ، وضعت قطعة نقدية بمائـــة فلس على الموقد ، وضمت الايصال الى رفاقه بين المصباحين وقالت

– هذا ما اعطوني كنت اريد ستة فرنكات ولكن لم يكن هنـاك اية وسيلة . اوه ! انهم لن يصابوا ابداً بالافلاس .. ودائمـا يوجد عندهم اناس في الداخل .

ولم يأخذ لانتيه حالا قطعة المئة فلس . كان يريد أن تأتي بالمـال لتترك له شيئا لكنه صمم على إنزال القطعة النقدية في جيب صدرته عندمـا رأى على الخزانة بقية لحم خنزير في ورقة ، مع كسرة خبز .

وقالت جرفيز موضحة

– لم اذهب الى بائعة الحليب لاننا مدينون لها بثمانية ايام . ولكنني سأعود باكراً، اما انت فعليك ان تنزل لتأتي لنا بخبز واضلاع غنم اثناء غيابي وسنتناول غذاءنا . وهات ايضا ليتراً من النبيذ

لم يقل كلا. وبدا ان السلام استتب. وانتهت المرأة الشابة من وضع الغسيل الوسخ في صرة . ولكن حين ارادت ان تأخذ قمصان لانتيه وجواربه من قعر الصندوق صرخ بها ان تتركها

– اتركي ثيابي . أتسمعين ؟ لا اريد

فسألت وقد انتصبت واقفة

– ما هو الذي لا تريده ؟ انت لا تنوي دون شك ان ترتدي هذه العفونات يجب ان تُغسل

وتفحصته قلقة، فوجدت نفس القساوة على وجهه كشاب جميل كما لو ان ليس هناك ما يحوله عن عزمه . وانتابه الغضب فانتزع الغسيل من يديها والقاه في الصندوق .

– يا رعد الله ! .. اطيعيني ولو مرة ! حين اقول لك انني لا اريد !

فقالت وقد شحب لونها وانتابها شك رهيب

– ولكن لماذا ؟ .. انت الآن لست بحاجة الى قمصانك . ولن تذهب . فماذا يضيرك اذا اخذتها ؟

فتردد لحظة ، وقد ازعجته العينان المحتدمتان المصوبتان نحوه ، وتمتم :

– لماذا ؟ لماذا ؟ ستقولين في كل مكان انك تعيلينني ، وانك تغسلين وانك ترفأين . حسنا هذا يزعجني . قومي بأعمالك وسأقوم بأعمالي .. فالغسالات لا يشتغلن للكلاب .

فتوسلت اليه ، مدافعة عن نفسها بأنها لم تشتك مطلقا ، ولكنه اقفل الصندوق بشراسة وجلس فوقه ، وصرخ في وجهها كلا . انه حر التصرف بما يخصه ! ثم استدار ليتخلص من النظرات التي كانت تلاحقه، وتمدد على السرير

قائلاً انه نعسان وان عليها الا تزيد في تحطيم رأسه وقد بدا هذه المرة انه ينام فعلاً

وظلت جرفيز لحظة مترددة . كانت راغبة في ان ترفس صرة الثياب ، وان تجلس لتخيط الا ان تنفس لانتيه المنتظم طمأنها فأخذت الكرة الزرقاء – قطعة نيل – وقطعة الصابون التي بقيت من غسيلها الاخير ، واقتربت من الصغيرين اللذين كانا يلعبان باطمئنان بسدادات قديمة امام النافذة ، وقبلتهما قائلة لهما بصوت منخفض

– كونا عاقلين ، ولا تحدثا ضجة فأبوكما نائم .

وعندما تركت الغرفة كانت ضحكات كلود وأتيين الملطفة ترن وحدهـا في الصمت الكبير ، تحت السقف الاسود. وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وخط الشمس يدخل من النافذة المفتوحة قليلاً

وعلى الجادة دارت جرفيز شمالاً وتبعت الشارع الجديـد من لاغوت دور . وعندما مرت امام دكان مدام فوكونيه حيّت باشارة خفيفة من رأسها . وكان المغسل قائمـاً في وسط الشارع في المكان الذي يبدأ فيه الطريق بالصعود . وفي اعلى بناية مسطحة ، ثلاثة خزانات مـاء ضخمة ، واسطوانات من الزنك مثبتة بمتانة كانت تظهر استدارتها الربداء ، بينما في الخلف يرتفع منشر الغسيل ، وهو طابق ثان عال جداً ، مسدود من جميع الجهات بشبابيك خارجية ذات صفائح رقيقة يمر الهواء من خلالها وتفسح المجال لرؤية قطع من الثياب المغسولة تجف على اسلاك من نحاس اصفر . والى يمين الخزانات ينفخ انبوب الآلة البخارية الضيق ، بلهاث شديد ومنتظم ، نوفرات من الدخان الابيض. ودخلت جرفيز تحت الباب المزدحم بجرار ماء جافيل دون ان تشمر ثيابها ، كامرأة معتادة على المستنقعات. وكانت تعرف قبـلاً صاحبة المغسل ، وهي امرأة صغيرة ، رقيقة ، ذات عينين مريضتين ، جالسة في غرفة مزججة ، وامامها سجلات ، وقطـع صابون على رفوف ، وكرات زرقاء في قماقم ، وليبرات من بيـكاربونات الصودا في رزم .

فطلبت عند مرورها محضاجها [1] وفرشاتها اللذين كانت اعطتهما لها لحفظهما بعد غسيلها الاخير . ودخلت بعد ان اخذت رقمها .

انه مخزن واسع ذو سقف مسطح وجسور خشبية ظـاهرة ، مرفوع على اعمدة من حديد مصبوب ، ومقفل بنوافذ عريضة مضيئة . وهناك ضوء نهـار شاحب يمر بحريةفي بخار حار معلق بضباب بلون الحليب . وكانت ترتفع ادخنةمن بعض الزوايا ، وتنتشر مفرقةً الاغوار بخمار ازرق . وكانت تمطر رطوبة ثقيلة، مشبعة برائحة الصابون ، ورائحة تافهـة ، رطبة ، مستمرة ، وكانت تسيطر احياناً نفحات من مـاء جافيل اكثر شدة وعلى طول اماكن ضرب الغسيل ، على ناحيتي الممر المركزي ، كان يوجد صفوف من النساء ، عـاريات الاذرع حتى الاكتاف ، عاريات الاعناق ، والتنـانير مشمرة فتكشف عن جوارب ملونة واحـذية ضخمة مشدودة ببريم . وكن يضربن بشدة ، ويضحكن ، وينقلبن ليصرخن بكلمة في الضجيج ، وينحنين فوق اعماق اوعية غسيلهن ، بذيئـات الكلام ، شرسات ، مخلعات ، مبللات كأنهن تعرضن لوابـل من المطر ، ويبدو لحمهن محمراً وداخناً . وحولهن ، وتحتهن ، يجري سيلان كبير ، ودلاء المـاء الساخن تجول وتفرغ دفعة واحدة، وصنابير الماء البارد المفتوحة تسيل من اعلى، وتلطيخـات المحاضيج ، وتقطيرات الثياب المغسولة دون صابون ، والبرك التي يمشين فيها تجري جداول صغيرة على البـلاط المنحدر . وفي وسط الصراخ ، والضرب الموقـع ، وضجة المطر المتمتمة ، وصياح العاصفة المختنق تحت السقف المبلل ، كانت الآلة البخارية البيضاء بندى ناعم ، الى اليمين ، تلهث وتزفر دون توقف ، مع الرجة الراقصة لدولابها الذي يبدو انه يضبط ضخامة الضوضاء .

الا ان جرفيز كانت تتبع الممر بخطوات صغيرة ، ملقية النظرات الى اليمين والى الشمال . وكانت تحمل صرة الغسيل المعلقة بذراعهـا ، مرفوعة الخصر ،

---

١ ـ محضاج ومحضجة *Battoir* : خشبـة صغيرة تضرب بهـا المرأة الثوب اذا غسلته (راجع لسان العرب) .

يزداد عرجها مع رواح ومجيء الغسالات اللواتي كن يدفعنها

وصرخ صوت مدام بوش الضخم

– ايه ، من هنا يا صغيرتي !

وحين ادركت المرأة الشابة ، في اقصى اليسار ، حارسة البناية التي كانت تدعك جورباً بشدة ، اخذت هذه تتكلم بعبارات قصيرة دون ان تترك عملها

– اجلسي هناك ، فقد حفظت لك مكانك .. اوه ! لا استطيع حفظه طويلا. ان بوش لا يوسخ ثيابه تقريباً.. وانت ؟ لن تتأخري ؛ اليس كذلك ؟ ان صرتك صغيرة جداً سننهي ذلك قبل الظهر ونستطيع الذهاب لتناول الغداء .. انا ، كنت اعطي غسيلي الى غسالة في شارع بوليه ؛ ولكنها اخذت لي كل شيء مع الكلور والفراشي. عندئذ صرت اغسل بنفسي. وفي هذا ربح لكل شيء انه لا يكلف سوى الصابون .. قولي اذن . هذه قمصان عليك ان تنقعيها لعمري ان اؤلئك الاولاد المساكين ، كأن سناجاً على مؤخراتهم .

وحلّت جرفيز صرتها ، بسطت قمصان الصغيرين ، ولما كانت مدام بوش قد اشارت عليها بأن تأخذ دلواً من ماء الغسيل ، فقد اجابت :

– اوه ! كلا ، الماء الساخن يكفي .. وقد اعتدت عليه .

وسحبت الغسيل ووضعت بعض القطع الملونة جانباً. وبعد ان ملأت وعاءها بأربعة دلاء من الماء البارد الذي أخذته من الصنبور وراءها ، غمست كومة الثياب البيضاء ، ورفعت تنورتها ووضعتها بين ساقيها ، ودخلت في برميل واقف بلغت حافته بطنها .

وقالت مدام بوش

– لقد اعتدت عليه ، اليس كذلك ؟ لقد كنت غسالة في بلادك ، اليس كذلك يا صغيرتي ؟

وبدأت جرفيز تنظف غسيلها ، مشمرة الاكمام ، مظهرة ذراعيها الجميلين الاشقرين اللذين لا يزالان فتيين ويكاد يظهر لونها الوردي في المرفقين ، ونشرت

قميصاً على المغسلة الضيقة ، المتآكلة ، المبيضّة من الافراط في استعمال الماء ، ودعكته بالصابون ، وقلبته ، ودعكته من الناحية الاخرى

وقبل ان تجيب اخذت محضاجها وصارت تضرب ، صارخة بكلامها ، جاعلة علامات الوقف بين هذا الكلام ضربات شديدة رقيبة

– نعم ، نعم ، غسالة في سن العاشرة .. منذ اثنتي عشرة سنة . كنا نذهب الى النهر .. وقد شعرنا انه افضل من هنا كان يجب ان ننظر ، فقد كان هناك زاوية تحت الاشجار .. مع الماء الصافي الجاري مسرعاً انت تعلمين ، في بلاسان .. الا تعرفين بلاسان ؟ بالقرب من مرسيليا .

وصرخت مدام بوش مندهشة من شدة ضربات المحضاج

– انه النشاط ! يا لها من امرأة مرحة ! انها تطرحك أرضاً بذراعين صغيرين من حديد .

واستمر الحديث بصوت مرتفع جداً . وكانت حارسة البناية تضطر احياناً للانحناء ، غير سامعة شيئاً . وقد ضُرب كل الغسيل الابيض وطوي ! وعادت جرفيز فغطسته في وعاء الغسيل ، واستعادتـه قطعة قطعة لتدعكه بالصابون مـــرة ثانية ، وتنظفه بالفرشاة . وكانت تثبت القطعة على المغسلة بيد ، وباليد الاخرى التي تمسك بفرشاة قصيرة من النجيـل ، تستخرج من الغسيل رغوة قذرة كانت تتساقط بقطع طويلة . وخلال ضجة خفيفة من الفرشاة كانتـا تتقاربان ، وتتحدثان بشكل حميم

وقالت جرفيز

– كلا ، نحن لم نتزوج ، وانا لا أخفي ذلك . ولانتيه ليس لطيفاً بالقدر الذي يجعلني اتمنى ان اكون زوجته . ولولا وجود الاولاد لذهبت ! كنت في الرابعة عشرة وهو في الثامنة عشرة عندما رزقنا بولدنا الاول. وجاء الآخر بعد اربع سنوات .. وقد حدث هذا كما يحدث دائما ، وانت تعلمين . لم اكن سعيدة في بيتنا . وكان الاب ماكار ، لكلمة نعم أو لا ، يلقيني ارضا برفسات على خاصرتي . وعندئذ فكرت باللهو في الخارج .. وكان بالامكان ان نتزوج ،

ولكنني لا اعرف شيئا ، واهلي لم يكونوا يريدون ؛

وهزت يديها المحمرتين تحت الرغوة البيضاء ، وقالت

– الماء قاس جداً في باريس .

لم تكن مـــدام بوش تغسل إلا بتراخ ، وكانت تتوقف، وتطيل امد النقع بالصابون لتبقى هناك ، ولتعرف تلك القصة التي كانت تؤلم فضولها منذ خمسة عشر يوماً كان فمها نصف مفتوح في وجهها الكبير ، وعيناها تلمعان في صفحة الرأس . كانت تفكر ، مع السرور بانها حزرت .

– اذن هكذا ، فالصغيرة تتكلم كثيراً . اذن هناك مشاجرة .

ثم قالت بصوت مرتفع

– اذن ، أليس لطيفاً ؟

فأجابت جرفيز

– لا تحدثيني عنه . كان معي هناك على احسن ما يكون ، ولكن منذ ان صرنا في باريس لم اعد استطيع الوصول معه الى اتفاق.. ويجب ان اقول لك ان امه ماتت السنة الماضية وتركت له بعض الشيء ، الف وسبعماية فرنك تقريباً . كان يريد المجيء الى باريس وبـــما ان الاب ماكار كان يصفعني دائماً دون ان يصرخ محذراً ، فقد رضيت بالمجيء معه ، وقمنا بالرحلة مع الولدين . وكان يجب ان يجعلني اشتغل غسالة ويشتغل هو كصانع قلانس ،وكان من الممكن ان نعيش سعيدين جداً ... ولكن ، كما ترين ، فلانتيه طماع ومبذر ، انه رجل لا يفكر الا بلهوه، ولا يساوي شيئاً .. لقد نزلنا اذن في فندق مونمارتر شارع مونمارتر. وكان هناك طعام ، وعربات ، ومسرح ، وساعة يد له، وثوب حريري لي، لأنه ليس بالرديء عندما يكون معه مال . وتدركين الهزة كلها عندما تعلمين اننا في مدى شهرين اصبحنا بدون مال وفي تلـــك اللحظة جئنا نسكن في فندق بونكور ، وبدأت الحياة القاسية

وانقطعت عن الكلام كأن هناك ضغطاً على عنقها ، وكبحت جماح دموعها. وكانت قد انتهت من تنظيف غسيلها بالفرشاة ، فتمتمت

– يجب ان اذهب لاجلب مائي الساخن

ولكن مدام بوش التي عاكسها هـــذا التوقف عن الاعترافات نادت غلام المغسل الذي كان ماراً

– من لطفك يا صغيري شارل ، اذهب وهات دلواً من المـاء الساخن للسيدة المتعجـلة

فأخذ الغلام الدلو وعاد به مليئاً . ودفعت جرفيز، فالدلو بفلس . وسكبت الماء الساخن في وعـــاء الغسيل وغسلت الثياب بالصابون مرة اخيرة بيديها ، منحنية فوق المغسلة ، وسط بخار كان يعلـّق في شعرها الاشقر شباكاً منالدخان الرمـادي .

وقالت حارسة البيت مضطرة

– خذي ، ضمي كربونات الصوديوم . لدي منه هناك

وأفرغت في وعاء غسيل جرفيز مـــا بقي في قعر كيس كربونات الصودا الذي جادت به . وقدمت لها ايضاً ماء جافيل ؛ ولكن المرأة الشابة رفضت ؛ وكان ذلك مفيداً لازالة بقع الشحم وبقع الخمر

وتابعت مدام بوش ، عائدة الى لانتيه دون ان تذكر اسمه

– اظن انه زير نساء الى حدٍ ما

وجرفيز المنطوية ، بيديها الغارزتين المتشنجتين في ثيـاب الغسيل ، اكتفت بهز رأسها . وتابعت الاخرى :

– نعم ، نعم ، لقد فطنت الى عدة امور صغيرة .

ولكنها عادت وقالت ، امام حركة جرفيز الفجائية التي نهضت شاحبة وهي تتطلع اليها

– اوه ! كلا ، لا اعرف شيئاً فهو يحب ان يضحك على ما اعتقد ، هذا كل شيء ...

وهكذا فالفتاتان اللتان تسكنان عندكم، اديل وفرجيني ، وانت تعرفينهما جيداً ، انه يمزح معهما ، والامر لا يتعدى ذلك . انا متأكدة .

وكانت المرأة الشابة الواقفة امامها ، راشحة الوجه عرقاً ، مبتلة الذراعين ، دائمة النظر اليها ، بنظرة ثابتة عميقة . وقد غضبت حارسة البنـــاية وضربت صدرها بقبضتها ، مقسمة بشرفها ، وصاحت :

– لا اعرف شيئاً ، حين اقول لك !..

ثم اضافت ، وقد هدأت ، بصوت معذوذب كما يتـكلم المرء مع شخص لا تساوي الحقيقة عنده شيئاً

– انا ، اجد ان عينيـــه صادقتان ... سيتزوجك يا صغيرتي ، وأعدك بذلك

ومسحت جرفيز جبهتها بيدها المبللة ثم سحبت من الماء قطعة اخرى من الغسيل ، وهزت رأسها من جديد . ولزمت الاثنتان الصمت لبرهة ، وكان المغسل حولهما قد هدأ . ودقت الساعة الحادية عشرة . وكان نصف الغسالات الجالسات بجنب واحد على حافة أوعية الغسيل ، وعند اقدامهن ليتر مفتوح من النبيذ ، يأكلن النقانق في قطع مشقوقة من الخبز. وخادمات البيوت، وحدهن، الآتيات لغسل صررهن الصغيرة ، كن يسرعن ، متطلعات من الكوة المعلقة فوق المكتب . وكانت لا تزال تتصاعد ضربات متفرقة من المخاضج بين ضحكات ملطفة ، واحاديث ملوثة بضجة شرهة من الفكوك ، بينما الآلة البخارية، المجدّة في سيرها دون راحة ولا هدنة ، كانت تبدو رافعة صوتها ، مهتزة ، شاخرة ، مالئة القاعة الفسيحة . ولكن ما من امرأة كانت تسمعها ، لقـد كان ذلك كتنفس للمغسل ، لهاث حار يكدس تحت اخشاب السقف البخار الدائم الطافي، واصبحت الحرارة لا تحتمل ، وكانت خيوط من الشمس تدخل من ناحيـــة الشمال من النوافذ العليا موّهجة الابخرة الداخنة المتصاعدة من الماء الممتد اللبني بلون رمادي وردي ورمادي ازرق كثير النعومة . وبما ان هناك شكاوى كانت تتصاعد فان الغلام شارل كان يسير من نافذة الى اخرى ، ساحبـاً ستائر من القماش الخشن ، ثم يذهب بعد ذلك الى الناحية الاخرى ، ناحية الظـل ، ويفتح الطاقات الصغيرة . وكن يهللن له ويصفقن بالايـــدي . وكان يسري

بينهن مرح عظيم . وبعد قليل تصمت آخر المحاضج والغسالات ، وافواههن ملأى ، لم يكنّ يقمن بسوى حركات بالسكاكين المفتوحة التي يمسكنها بالقبضة . وساد الصمت الى درجـــة ان حرير رفش الوقاد كان يسمع بانتظام من طرف القاعة ، آخذاً الفحم الحجري ليقذفه في موقد الآلة

الا ان جرفيز كانت تغسل غسيلها الملون بالماء الساخن ، وبالصـابون الذي كانت تحتفظ به وعندما انتهت ، ادنت مسنداً خشبياً ، والقت عليه بالعرض جميع القطع التي شكلت على الارض بُركاً زرقاء . وبدأت تغسل وكان صنبور الماء البارد وراءها يسيل فوق وعاء واسع للغسيل ، مثبت في الارض ، يخترقـه قضيبان خشبيان لتثبيت الغسيل . وفوق ، في الهواء ، قضيبان آخران مثبتان لتنهي الثياب تقطيرها عليها .

وقالت مدام بوش :

– ها اننا نكاد ننتهي ، وليس ذلك بالامر السيء . اني باقيـة لاساعدك في عصر كل هذا .

فأجابت المرأة الشابة التي كانت تدعك بقبضتيهـا وتغمس القطع الملونة بالماء.

– اوه ! لا لزوم لذلك اشكرك كل الشكر لو كان معي شراشف لمـا قلت شيئاً .

ومع ذلك فقد كانت بحـاجة الى قبول مساعدة حارسة البنـــاية . وكانت الاثنتان تفتلان ، كل منهما بطرف ، تنورة ، وقطعة صوفيـة صغيرة كستنائية اللون ذات صبغة رديئة ، وكان يخرج منهـا ماء اصفر ، عندما هتفت مدام بوش

– انظري ! فرجيني الكبيرة ! ماذا جاءت تغسل هنا هذهالتي تضع خرقها الاربع في منديل ؟..

ورفعت جرفيز رأسها بحدة . كانت فرجيني فتاة من سنها واكثر ضخـامة منها ، سمراء ، جميلة رغم وجهها المستطيل قليلا ، وكانت ترتدي ثوباً قديماً اسود ذا دوائر ، وفي عنقها شريط احمر ؛ وكان شعرها مرتباً باعتناء ، وشعر مؤخر

رأسها موضوع في شبكة محبكة بخيوط زرقاء وقد وقفت لحظة وسط الممر تهندم حاجبيها بملقط ، وتدل هيئتها كمن تبحث عن شيء ؛ وعندما شاهدت جرفيز جاءت تمر بقربها ، منتصبة ، وقحة ، مؤرجحة خاصرتيها ، وجلست في نفس الصف على بعد خمسة اوعية غسيل

واكملت مدام بوش بصوت اكثر انخفاضاً

– انها نزوة فجائية بدون داع ! فهي لم تغسل زوجاً من الاكام .. آه !.. انها كسولة كبيرة ، واؤكد لك ذلك خياطة لا تخيط حتى حذاءها ! وهي كأختها صاقلة المعادن ، اديل النذلة التي تغيب عن المشغل يومين من كل ثلاثة ايام ! ليس لهما اب ولا ام معروفان ، ولا يُعرف كيف تعيشان ، واذا اراد احد التكلم معهما .... ماذا تدعك هناك ؟.. ها ! اهي تنورة داخلية ؟ انها تبعث على القرف ، يجب ان يرى هذه التنورة اناس نظفاء .

من الراهن ان مدام بوش كانت تريد ان تسر جرفيز والحقيقة انها كانت في اغلب الاحيان تتناول القهوة مع اديل وفرجيني عندما يكون مع الصغيرتين نقود ولم تجب جرفيز ، فقد كانت تسرع ويداها محمومتان وانتهت من التنييل في وعاء صغير للغسيل قائم على ثلاثة أرجل وكانت تغمس قطعها البيضاء ، وتحركها لحظة في اعماق الماء المصبوغ الذي يأخذ انعكاسه شيئاً من لون الصمغ الصيني ، وبعد ان تفتلها فتلاً خفيفاً تنشرها صفاً على الحواجر الخشبية فوق . وكانت اثناء ذلك تدير ظهرها لفرجيني . ولكنها كانت تسمع ضحكاً وتشعر بنظراتها المنحرفة مصوبة اليها . وبدت فرجيني انها لم تأت الا لاثارتها. ومرة التفتت جرفيز ، وتبادلت الاثنتان النظرات .

وتمتمت مدام بوش :

– دعيها . لن تتماسكا بالشعر ... ما دمت اقول لك ان ليس هناك شيء ! وبعد ، فليست هي !

في هذه اللحظة كان هناك ضحك على باب المغسل ، بينما كانت المرأة الشابة تنشر آخر قطعة غسيل . وصرخ شارل :

– هذان الغلامان يطلبان امهما !

وانحنت النسوة كلهن . وعرفت جرفيز كلود واتيين . وحين رأياها ركضا اليها وسط برك الماء ، ضاربين على البلاط بأعقاب احذيتهما المحلولة . وكان كلود البكر ، يعطي اخاه الصغير يده وعند مرورهما صرخت الغسالات صرخات حنو خفيفة لدى رؤيتهما خائفين قليلاً ، ومع ذلك يبتسمان . وظلا هنـــاك امام والدتهما دون ان يـتركا بعضهما بعضاً ، رافعـــين رأسيهما الاشقرين . وسألت جرفيز

– أأرسلكما والدكما ؟..

ولكنها حين انحنت لتربط بريم حذاء اتيين رأت في احدى اصابع كلود مفتاح الغرفة برقمه النحاسي الذي يتأرجح فقالت بكثير من الدهشة

– لقد اتيتنني بالمفتاح ، لماذا اذن ؟

وعندما شاهد الولدالمفتاح الذي نسيه فياصبعه تذكر وصرخ بصوت واضح:

– لقد ذهب ابي

– انه ذهب ليأتي بطعام الغداء ، فهل قال لكما ان تأتيا الى هنا ؟

فتطلع كلود بأخيـــه ، وتردد ، غير عارف ماذا يصنع . ثم قـــال دفعة واحدة

– لقد ذهب ابي ... قفز من السرير، ووضع جميع حوائجه في الصندوق، وانزل الصندوق الى عربة ... وذهب

وكانت جرفيز جالسة فنهضت ببطء ، مبيضّة الوجه ، رافعـــة يديها الى خديها وصدغيها كما لو انها سمعت رأسها يفرقع . ولم تستطع ان تجد سوى كلمة، فرددتها عشرين مرة بنفس النبرة

– آه !.. يا الهي ! آه ! يا الهي ! آه ! يا الهي !

إلا ان مدام بوش سألت الولدين بدورها ، متهللة لحضورها هذه القصة

– انظر يا صغيري ، يجب ان تقول ما جرى انه هو الذي اقفل الباب وقال لكما ان تأتيا بالمفتاح ، اليس كذلك ؟..

وخفضت صوتها في اذن كلود :

– هل كانت هناك سيدة في العربة ؟

واضطرب الولد من جديد ، وأعاد حكايته بهيئة منتصرة :

– قفز من السرير ووضع جميع حوائجه في الصندوق ، وذهب ...

وبما ان مدام بوش تركته يذهب فقد سحب اخاه الى امام الصنبور. وتلهى الاثنان بإسالة الماء .

لم تستطع جرفيز ان تبكي ، فقد ضاقت انفاسها ، وكان صدرها مستنداً الى وعاء الغسيل ، ووجهها لا يزال بين يديها ، واجتاحتها ارتعاشات قصيرة . وكانت بين فترة واخرى تصعد آهة طويلة بينما كانت تزيد من ادخال قبضتيها في عينيها ، كأنها تريد ان تتلاشى في ظلام امامها . انه ثقب من الظلمات بدا لها انها سقطت فيه

وتمتمت مدام بوش

– هيا يا صغيرتي ، ليأخذه الشيطان .

فقالت اخيراً بصوت منخفض جداً

– لو كنت تعلمين ! فقد ارسلني هذا الصباح حاملة شالي وقمصاني الى محل الرهونات وذلك لدفع اجرة هذه العربة .

وبكت . فذكرى ركضها الى محل الرهونات ، وتحديدها عمل الصباح انتزع منها النحيب الذي اختنق في نحرها

وهذا الركض كان مستهجناً ، انه الالم العظيم في يأسها وكانت الدموع تسيل على ذقنها حيث كانت يداها مبللتين ، دون ان تفكر بأخذ منديلها

وردت مدام بوش التي كانت تسرع حولها

– كوني عاقلة ، واسكتي فهناك من ينظر اليك . هل يمكن ان يحدث هذا الالم الكبير لاجل رجل ! اذن ما زلت تحبينه ، اليس كذلك ؟ يا عزيزتي المسكينة . منذ لحظة كنت ثائرة عليه ، وها انت الآن تبكينه الى ان ينفطر قلبك ... يا الهي ، كم نحن حمقاوات !

ثم بدت كأم

– امرأة جميـــلة شابة مثلك ! لو كان مسموحاً ! من الممكن الآن ان اسرد عليك كل شيء ، اليس كـــذلك ؟ حسناً ما زلت تذكرين يوم مررت تحت نافذتك ، اذ انتابني الشك ... تخيلي انني سمعت ، عندما عادت اديل تلك الليلة ، وقع خطى رجل مع خطوها فأردت ان اعرف ، وتطلعت الى الدرج . كان الشخص قد اصبح في الطابق الثـــاني ، ولكنني عرفت معطف السيد لانتيه . وبوش الذي كان يترصد هذا الصباح ، رآه ينزل باطمئنان ... لقد كان مع أديل ، اتسمعين ؟ ولفرجيني الآن سيد تذهب اليـــه مرتين بالاسبوع . وليس هذا بالعمل النظيف مهما كان الامر ، لأن ليس لهما سوى غرفة ومخدع للنوم ولا اعرف اين استطاعت فرجيني ان تنام

وانقطعت لحظة ، والتفتت ، وعادت الى الكلام بصوتها الاجش المخنوق :

– ان تلك العديمة القلب هناك تضحك لبكائك . واني اضع يدي في النـــار اذا لم يكن غسيلها تظاهراً كاذباً ... وهـــا هي اجتذبت الاثنتـــين الاخريين وجاءت الى هنا لتحدثهما عما اصابك ..

فنحّت جرفيز يديها وتطلعت . وحين رأت فرجيني امامها بين ثلاث او اربع نساء وهن يتحدثن بصوت منخفض ويتطلعن اليها اجتاحها غضب مجنون . فمشت بضع خطوات ، وذراعاها الى الامام ، باحثـــة في الارض ، دائرة على نفسها ، وقـــد سرت هزة في جميع اعضائها ، ووجدت دلواً مليئاً فأمسكته بكلتا يديها وافرغته مطوحة به في الهواء .

وصرخت فرجيني الضخمة

– يا للخبيثة !..

ووثبت الى الوراء . وقد تبلل حذاؤها فقط الا ان المغسل الذي اثارتـــه دموع المرأة الشابة منذ برهة ، كان يتدافع لرؤية المعركة . وهناك غسّالات انتهين من التهام خبزهن فصعدن على اوعية الغسيل ، واخريات ركضن وأيديهن ملأى بالصابون . وتشكلت دائرة . ورددت فرجيني الضخمة

– يا للخبيثة ! ماذا اصاب هذه المسعورة ؟

وجرفيز المتوقفة ، المائلة الذقن ، المتشنجة الوجه ، لم تجب ، فهي لا تملك قوة الحنجرة الباريسية بعد . وتابعت الاخرى

– اذهبي اذن ! انها تعبت من الدوران في الريف ، ولم يكن عمرها اثنتي عشرة سنة عندما اصبحت فراشاً للجنود ... لقد تركت ساقاً في بلادها .. وهذه الساق سقطت من التعفن .

وسرت ضحكة . وفرجيني التي عاينت نجاحها اقتربت خطوتين ، ورفعت قامتها العالية ، وصرخت بصوت اشد قوة

– تقدمي قليلا لتري انني اسوي امورك ! انت تعلمين انه يجب الا يأتي احد ليزعجنا هنا ... وهل كنت اعرف انا هذه البشرة !.. لو لحقت بي لكنت شمرت لها ثيابها الداخلية ، ولكنتن رأيتن ذلك . لتقل فقط ماذا فعلت لها ... قولي ، يا فلاّحة الشمال ، ماذا اصابك ؟

فقالت جرفيز متلجلجة

– لا تتكلمي كثيراً . انت تعرفين جيداً فقد رؤي زوجي مساء البارحة ... اسكتي والا سأخنقك ، بالتأكيد.

– زوجها ! آه ! انها طيبة ، هذه ! زوج السيدة ! كما لو ان هناك ازواجاً لهذه الهيئة ! ليس الخطأ مني اذا كان قد تركك ، يمكن انني لم اسرقه منك بامكانك ان تفتشيني ... اتريدين ان اقول لك ، لقد سممت هذا الرجل ! كان لطيفاً جداً معك هل كانت قلادته معه على الاقل ؟.. من الذي وجد زوج السيدة ؟.. سينال مكافأة ..

وعاد الضحك من جديد . وكانت جرفيز تكتفي بأن تتمتم بصوت منخفض

– انت تعرفين جيداً ، تعرفين جيداً .. انها اختك سأخنقها ، اختك .

فقالت فرجيني ضاحكة

– نعم ، اذهبي واحتكي بأختي آه ! انها اختي ! هذا ممكن لأن

تصرف اخقي غير تصرفك .. ولكن هل يعنيني هذا ! ألا يستطيع المرء ان يغسل غسيله براحة بال ؟ دعيني بسلام ، أتسمعين ؟ فهذا يكفي

ولكنها هي التي عادت من جديد ، بعد ان ضربت بمضاجها خمس او ست ضربات ، منتشية بالشتائم ، ومحتدة . لقد صمتت وعادت من جديد ثلاث مرات :

– حسناً ، نعم ، انها اخقي . هل انت مسرورة ؟.. كانا يعبدان بعضهما البعض . ويجب رؤيتهما وهما يتبادلان القبل ! لقد تركك مع بناديقك ! طفلان جميلان تملأ القشور وجهيهما ! احدهما دركي ، اليس كذلك ؟.. وقد اسقطت ثلاثة آخرين لأنك لم تكوني تريدين زيادة العفش عند المجيء... ولانتيه هو الذي قص علينا ذلك . آه ! لقد قال اشياء جميلة ، وشبع من جسدك !

فزعقت جرفيز وهي في غاية الاضطراب ، وقد اجتاحتها هزة هائجة :

– امرأة قذرة ! قذرة ! قذرة !

ودارت ، وبحثت مرة اخرى في الارض فلم تجد سوى وعاء الغسيل الصغير ، فأخذته من قوائمه وقذفت ما فيه من ماء النيلة في وجه فرجيني. فصرخت هذه ، وقد تبلل كتفها واصطبغت يدها اليسرى بالصبغة الزرقاء

– الخبيثة ! لقد خسّرتني ثوبي . انتظري ايتها القذرة

وأمسكت بدورها دلواً وافرغته على المرأة الشابة وعندئذ اشتجرت معركة هائلة . وكانت الاثنتان تركضان على طول اوعية الغسيل ، مستوليتين على الدلاء الملأى ، ثم تعودان وتقذفانها على الرأس . وكل طوفان مصحوب بصيحات . اما الآن فان جرفيز هي التي اجابت

– خذي ايتها القذارة ! لقد تلقيت هذا ، فهو يهدىء مؤخرتك .

– آه ! يا ذات اللحم الرديء ! هذا لاجل اقذارك اغتسلي مرة في حياتك

– نعم ، نعم ، سأنظفك ، يا سمكة الموري الكبيرة !

– وهذا واحد ايضاً ! افركي اسنانك وتزيني لفسحتك هذا المساء في

زاوية شارع بلهوم :

وانتهيا الى تعبئة الدلاء من الصنابير ، واستمرا في كلامهما البذيء بانتظار امتلائها . والدلاء الاولى التي لم تقذف جيداً لم تكد تلمسها . ولكنهما استعملا ايديهما . وقد تلقت فرجيني اولا دلواً ملء وجهها؛ ودخل الماء من عنقها،وسال على ظهرها ونحرها ،ونزل من تحت ثوبها. وكانت لا تزال دائخة حين اصابها دلو آخر مواربة، فوجه اليها ضربة قوية على اذنها اليسرى مبللاً مؤخر شعرها الذي انحل كالخيوط . اما جرفيز فقداصيبت اولاً بساقيها ؛ ثم ملأ دلو آخر حذاءها وتدفق حتى فخذيها ؛ ودلوان آخران بللا خصرها . ولم يكن بالامكان الحكم على الضربات ، فقد كانت الاثنتان مبللتين من الرأس الى القدمين،والنصف الاعلى من الفساتين ملتصق بالكتفين ، والتنانير لاصقة بالاصلاب ، وبدتا هزيلتين متصلبتين ،مرتجفتين من البرد ، تقطران ماء من جميع النواحي كمظلات أثناء وابل من المطر .

وقالت احدى الغسالات بصوت ابح :

– ليس هناك اكثر غرابة منهما !

وكانت سلوة عظيمة للمغسل وقد تراجعت النسوة لئلا يتلطخن . وارتفع التصفيق والدعابات وسط جلبة سدود الدلاء المفرغة في الهواء . وسالت برك في الارض ، وتلطخت المرأتان بالوحل حتى الكعبين ولكن فرجيني نظمت عملية غادرة فاستولت فجأة على دلو ماء غسيل يغلي كانت طلبته احدى جاراتها ، وقذفته

وارتفعت صرخة . وساد الاعتقاد بأن جرفيز غطست بالماء الحار ، ولكن قدمها اليسرى هي التي اصيبت بحرق خفيف . واحنقها الألم فأرسلت بكل قوتها دلواً ، دون ان تملأه هذه المرة، الى ساق فرجيني التي سقطت ارضاً

وتكلمت جميع الغسالات معاً

– لقد كسرت رجلها !

– ولكن الاخرى ارادت ان تشويها .

– ان الشقراء على حق ، بعد كل هذا ، اذا كان زوجها قد أُخذ منها

ورفعت مدام بوش ذراعيها الى السماء صائحة . وكانت قـــد انتحت جانباً بحذر بين وعاءيْ غسيل ؛ وكان الولدان كلود وايتيين، متعلقين بثوبها ، باكيين، غاصين ،خائفين ، صارخين باستمرار ماما ! ماما ! وقد آلمها نحيبهما .وعندما رأت فرجيني ساقطة على الارض ركضت وسحبت جرفيز من تنورتها مرددة.

– اذهبي .. كـوني عاقلة .. ان دمي يغلي لعمري ، لم ير احد بجزرة مماثلة .

ولكنها تقهقرت ودارت لتلتجىء مع الاولاد بين وعاءيْ غسيل . وكانت فرجيني قـد قفزت الى نحر جرفيز ،وضغطت على عنقها ، وحـاولـت خنقها. عندئذ تخلصت هذه بهـزة عنيفة ، وتعلقت بمؤخرة شعرها كأنها تريـد انتزاع رأسها . وبدأت المعركة من جديد ، صامتة ، دون صرخـة ، دون شتيمة. ولم تكونا متعلقتين جسماً بجسم ، بـــل كانتا تهاجمان الوجه ، وايديهما مفتوحة ، معقوفة ، قارصة ،خادشة مـــا تقبض عليه . وانتزع الشريط الاحمر وشبكة الشعر ذات الحبكة الزرقاء من السمراء الضخمة ،وتمزق قميصها الاعلى عند العنق واظهر بشرتها وطـــرف كتفها ، بينما انتزع كم الصدرة البيضاء من الشقراء المنزوعة الثياب . وهناك مزق في قميصها كشف عن طية قامتها العارية،وكانت مزق من القماش تتطاير . وظهر الدم اولا على جرفيز ، انها ثلاثة خدوش طويلة نازلة من الفم الى ما تحت الذقن ، وكانت قد صانت عينيها ،بان تطبقهما عنـــد كل ضربة خوفاً من ان تصبح عوراء . ولم يكن دم فرجيني قد سال بعد فقد استهدفت جرفيز اذنيها ، واهتاجـت لعدم قـدرتها على الامساك بهما وحين امسكت اخيراً بأحد القرطين ، وهو عبارة عن اجاصة من الزجـاج الاصفر ، شدت ، وشقت الاذن ، وسال الدم

وقالت عدة اصوات

– انهما تتذابحان . افصلن هاتين القردتين .

واقتربت الغسالات. وشكلن معسكرين ، بعضهن يحرضن المرأتين ككلبتين

تتقاتلان ، والأخريات ، وهن اكثر عصبية وارتجافاً ، كن يدرن رؤوسهن مكتفيات ، ويرددن انهن سيصبن بالمرض دون شك . وكادت تحدث معركة عامة ، وكن يتنادين بعبارات امثال : بدون قلب ، لا تصلحن شيء . وامتدت اذرع عارية ، ورنت ثلاث صفعات .

الا ان مدام بوش كانت تبحث عن غلام الغسيل :

– شارل ! شارل ! اين هو اذن ؟

ووجدته في الصف الاول ، متطلعاً ، متصالب الذراعين . لقد كان غلاماً كبيراً ذا عنق ضخم . وكان يضحك ، ويتمتع برؤية ما تكشف من جسدي المرأتين . كانت الشقراء الصغيرة سمينة كالسماني وستكون اضحوكة لو انشق قميصها . وتمتم وهو يطرف بعينه

– انظروا . يوجد ثمرة فريز تحت ابطها

وصرخت مدام بوش عندما شاهدته

– كيف !.. انت هنا ! .. ولكن ساعد على فصلهما ! .. بامكانك ان تفصلها .

فقال بهدوء :

– آه ! كلا شكراً . لو لم يكن سواي . لكي يخدشن عيني كما حدث في ذلك اليوم ، اليس كذلك ؟ .. انا لست هنا لهذا . وعندي كثير من العمل .. لا تخافي اذهبي ! هذا خير لهن ، انها عملية فصد صغيرة . هذا يرقق قلوبهن .

وعندئذ تكلمت حارسة البناية حول الذهاب لاعلام رقباء المدينة ولكن صاحبة المغسل ، المرأة الشابة الرقيقة ذات العينين المريضتين ، عارضت ذلك بشدة . ورددت عدة مرات :

– كلا ، كلا ، لا اريد فهذا يشوه سمعة البيت .

واستمر الصراع على الارض . وفجأة انتصبت فرجيني على ركبتيها ، والتقطت محضاجاً ، وهزته ، وحشرجت بصوت متغير

– انتظري يا نسل الكلب . جهزي غسيلك القذر .

ومدت جرفيز يدها بسرعة ، واخذت محضاجاً ايضاً ورفعته كالدبوس . وقالت ايضا بصوت اجش :

– آه ! تريدين الغسل الأكبر .. هاتي جلدك لأجعل منه مماسح !

وظلا هكذا ، برهة ، راكعتين تتبادلان التهديد . الشعر على الوجه ، والصدر زافر ، تترمدان بعضهما البعض ، موحلتين ، مورمتين ، منتظرتين ، مستعيدتين أنفاسهما . وقامت جرفيز بالضربة الأولى ، فانزلق محضاجها على كتف فرجيني ، ثم ارتمت ناحية لتتجنب محضاج هذه الذي لامس خصرها . وعندئذ بدأتا تتضاربان كما تضرب الغسالات غسيلهن ، بشدة ورتابة وحين أصابتا بعضهما البعض تراخت الضربات حتى ليخيل أنها ضربة في وعاء ماء .

والغسالات حولهما لم يكن يضحكن . وقد ذهبت كثيرات منهن وهن يقلن ان هذا يحطم قلوبهن ؛ اما الأخريات الباقيات فقد اتلعن اعناقهن ، وعيونهن متألقة بألق الوحشية اذ رأتا ان هاتين المرأتين القويتين مقدامتان . وكانت مدام بوش قد أخذت كلود واتيين ؛ وقد سُمع من الجانب الآخر نحيبهما الممتزج باصطدام المحضاجين الرنان .

ولكن جرفيز عوت فجأة . فقد اصابتها فرجيني في ذراعها العاري فوق المرفق ، وظهرت بقعة حمراء ، وتورم اللحم على الأثر . وعندئذ هجمت . وقد ظُن انها تريد ان تقتل الأخرى . وصرخت احدى الغسالات

– كفى ... كفى .

كان وجهها مخيفاً بحيث لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها . وزادت قواها عشرة اضعاف . فأمسكت فرجيني بقامتها وطوتها ، وألصقت لها وجهها بالبلاط وحقويها في الهواء ! ورفعت لها تنورتها رغم الهزات . وكان يوجد تحتها بنطلون ، فمدت يدها من الشق وانتزعته وأظهرت كل شيء ، الفخذان عاريان ، والردفان عاريان ثم ارتفع المحضاج ، وصارت تضرب كما كانت تضرب سابقاً في بلاسان على ضفة فيورن حين كانت معلمتها تغسل ثياب الجنود وكان الخشب يغوص في اللحم بجلبة مبللة ولدى كل ضربة كانت عصابة حمراء تلون

البشرة البيضاء بلون الرخام .

وتمتم الغلام شارل ، مندهشاً وقد كبرت عيناه

– اوه ! اوه !

وسرت ضحكات من جديد ولكن صرخة « كفى ! كفى ! » عادت تلعلع . ولم تسمع جرفيز ، ولم تتعب كانت تنظر الى عملها ، منحنية ، مهتمة بألا تترك مكاناً جافاً. كانت تريد كل ذلك الجلد المضروب المجلل بالخزي. وكانت تحدّث ، وقد اجتاحها مرح ضار ، متذكرة اغنية الغسالة :

بان ! بان ! الى المغسل يا مارغو ... بان ! بان ! الى ضربات المخضاج ..

بان ! بان ! اذهبي واغسلي قلبه بان ! بان ! المسود من الألم

وتابعت

– هذه لك ، وهذه لاختك . وهذه للانتيه .. وستعطيه هذه عندما ترينه انتبهي ! سأبدأ من جديد . هذه للانتيه ، وهذه لاختك ، وهذه لك بان ! بان ! الى المغسل يا مارغو ... بان ! بان ! بضربات المخضاج ..

واضطرت النسوة الى انتزاع فرجيني من يديها . وأخذت السمراء الضخمة غسيلها وهربت، ووجهها غارق بالدمع، قرمزي اللون ، مشوش ، فقد هُزمت . اما جرفيز فقد عصرت كم قميصها، وربطت تنورتها، وقد آلمها ذراعها ، فرجت مدام بوش ان تضع لها غسيلها على كتفها . وكانت حارسة البناية تقص حكاية المعركة ، وتعبر عن تأثرها ، وقالت بضرورة تفحص جسدها لترى

– من الممكن أن يكون شيء فيك قد تحطم ... فقد سمعت ضربة .

ولكن المرأة الشابة كانت تريد الذهاب فلم تجب على عبارات الاشفاق وعلى الحفاوة الثرثارة للغسالات اللواتي يحطن بها وقد انتصبن في مريلاتهن وعندما حملت حملها بلغت الباب حيث كان ولداها ينتظرانها .

وقالت لها صاحبة المغسل الجالسة في غرفتها الزجاجية بعدما أوقفتها

– انها ساعتان واجرتها فلسان .

– لماذا فلسان ؟.. لم تكن تفهم شيئاً سوى انه قد طُلب منها ثمن مكانها .

وأعطت فلسيها ، وكانت تعرج بشدة تحت ثقل الغسيل المبلل المعلق بكتفها ، راشحة ماء ، مزرقة المرفق ، والخدان بلون الدم ، وسارت جارّة بذراعيها العاريتين اتيين وكلود اللذين كانا يختبئان الى جانبها ، ولا يزالان مرتجفين ، ملوثين ببكائهما .

واستعاد المغسل وراءها ضجة السد الضخمة . وكانت الغسالات قد اكلن خبزهن وشربن نبيذهن ، وأخذن يضربن بمزيد من القوة ، والوجوه متهللة مبتهجة بضربة ممسحة جرفيز وفرجيني . وعلى طول أوعية الغسيل ، عادت تتحرك من جديد أذرع مهتاجة ، ووجوه جانبية مقرّنة لدمى ذات أصلاب محطمة ، واكتاف معوجة ، منطوية بشدة كأنها تنطوي على مفصّلات . واستمرت الأحاديث من طرف الممرات الى الطرف الآخر . وكانت الأصوات ، والضحكات ، والكلمات اللثغاء تتصدع في قرقرة الماء الشديدة ، وكانت الصنابير تبصق والدلاء تقذف الماء ، ونهر يسيل تحت المغاسل . انه وقت ما بعد الظهر الكريه ، ووقت الغسيل المطوي تحت ضربات المضاج . وفي القاعة الفسيحة اصبحت الأدخنة مغراء ، مثقوبة فقط بمدورات شمسية ، بكرات ذهبية تليح لها مزق الستائر أن تمر . وكان يُشتم روائح صابون تسبب ضيق النفس . وامتلأ المكان دفعة واحدة ببخار أبيض ! والغطاء الضخم لطست الغسيل حيث يغلي ماء الرماد كان يرتفع آلياً على طول قضيب في الوسط ذي معلاق والثقب النحاسي الفاغر الفم في داخل هيكله المبني بالآجر كان يعبق بزوابع من البخار ذات طعم البوتاس المحلى . ومعاصر الغسيل تقوم بعملها جانباً ؛ وصرر غسيل في اسطوانات من حديد كانت تجعل ماءها ، تحت دورة دولاب الآلة ، لاهثاً ، داخناً ، هازاً بشدة مغسل الشغل المستمر بذراعيه الفولاذيين .

وعندما وضعت جرفيز رجلها في ممر فندق بونكور هطلت دموعها فقد كان ممراً أسود ، ضيقاً ، مع ساقية للمياه القذرة على جانب الجدار ، وهذه النتانة التي طالعتها جعلتها تفكر بالأيام الخمسة عشر التي قضتها مع لانتيه ، خمسة عشر يوماً من الشقاء والشجار ، كانت ذكراها في هذه الساعة حسرة حارقة .

وقد خيل اليها انها دخلت في غيابة النسيان .

وفوق ، كانت الغرفة عارية ، مليئة بالشمس ، والنافذة مفتوحة . وذلك الشعاع الشمسي ، ذلك الحصير من الغبار الذهبي الراقص ، جعل السقف الاسود والجدران ذات الاوراق المنتزعة عرضة للشفقة . وفي مسمار في المدخنة لم يكن يوجد سوى منديل نسائي صغير ملفوف كالخيط . وسرير الولدين المسحوب الى منتصف الغرفة يكشف الخزانة التي تركت ادراجها مفتوحة مظهرة جوانبها الفارغة . وكان لانتيه قد اغتسل وأجهز على دهن الشعر ، دهن شعر بفلسين في ورقة لعب ؛ وكان ماء يديه الملوث بالدهن يملأ الطست ولم يكن قد نسي شيئا. والزاوية التي كان يشغلها الصندوق حتى ذلك الوقت بدت لجرفيز كانها تشكل ثقبا واسعا . حتى انها لم تجد المرآة الصغيرة المستديرة المعلقة بالمشجب . وعندئذ حدثها قلبها بشيء ، فتطلعت على الموقد . لقد اخذ لانتيه ايصالات الرهن ، والصرة الوردية اللدنة لم تكن بين مصباحي الزنك غير المتشابهين .

وعلقت غسيلها على مسند كرسي ، وظلت واقفـــة ، ملتفتة ، متفحصة الأثاث ، مصابة بذهول منع عينيها من اسالة الدموع. لقد بقي معها فلس واحد من الفلوس الاربعة التي احتفظت بها للمغسل.وحين سمعت ايتيين وكلود يضحكان على النافذة وقد تعزيا ، اقتربت منهما وأخذت رأسيهما تحت ذراعيها ، ونسيت نفسها برهة امام هذه الارض الربداء المرتفعة حيث رأت عند الصباح استيقاظ الشعب العامل، وشغل باريس العملاق. في تلك الساعة فان الشارع الذي حمي من اشغال النهار كان ينير انعكاساً محتدماً للنور فوق المدينة ، ووراء جدران الجمرك . وقد أُلقيت وحيدةً مع الصغيرين على هذا الشارع في ذلك الهواء الأتوني، وشملت الجادات الخارجية بنظرة ، الى اليمين والى الشمال ، متوقفة في الطرفين ، وقد اجتاحها رعب شديد كما لو ان حياتها ستقف هنـــاك ، من الآن فصاعداً ، بين مسلخ ومستشفى .

٢

بعد ثلاثة اسابيع ، نحو الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم ذي سماء جميلة، كانت جرفيز وكوبو صانع الزنك يأكلان معاً خوخاً في حانة الاب كولومب . فقد اضطرهـا كوبو ، الذي كان يدخن سيكارة على الرصيف ، الى الدخول بينما كانت تجتاز الشارع عائدة من حمـل الغسيل، وكانت سلتها الكبيرة المربعة على الارض بقربها ، وراء منضدة الزنك الصغيرة .

وحانة الاب كولومب موجودة في زاوية شارع بواسونيير وجادة روشيشوار وكانت الآرمة تحمل بحروف طويلة زرقاء هذه الكلمة الوحيدة « تقطير » من طرف الى آخر . وكان يوجد امام الباب، في نصفي برميل ، اغراس دفلى يعلوها الغبار . وهنـاك منضدة البائـع الضخمة بصفوف كؤوسها ، وصنبور مائها ، ومكاييلها القصديرية ، تمتد الى يسار الداخل، والقاعة الفسيحة مزينة على دائرتها ببراميل كبيرة مصبوغة بالاصـفر الفاتح ، ملمعة بالـبرنيق ، وتلمع اطاراتها وصنابيرها النحاسية . وفي الاعلى ، على رفوف ، زجاجات مشروبات روحية ، وقماقم اثمار ، وجميع انواع القوارير المرتبة تخفي الجدران . والمـرآة وراء المنضدة تعكس بقعها الشديدة، الخضراء التفاحية ، والذهبية الشاحبة ،والصمغية اللدنة . ولكن غرابة البيت كانت في الداخل ، في الجهة الاخرى من حاجز من خشب السنديان ، في فناء مزجج ، انها آ لـة التقطير التي كان المستهلكون يرونها وهي تعمل، وأنابيق ذات اعناق طويلة ، وأنابيب منحدرة تحت الارض، ومطبخ شيطاني يأتي العمال المخمورون ليحلموا امامه .

في ساعة الغداء تلك ، كان المشرب يظل فارغاً . والاب «كولومب» وهو رجل ضخم في الاربعين من عمره ، بصدرة ذات اكمام ، كان يعطي مـا اشترته فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها طلبت منه شيئاً قليلاً في فنجان باربعة فلوس . وهناك بساط من الشمس يدخل ويبعث الدفء في الارض الخشبية الدائمة الرطوبة من بصاق المدخنين . وتتصاعد من المنضدة ، والبراميل ، والقـاعة كلها رائحة كحولية، ودخان كحول يبدو انه يكثّف ويصبغ غبائر الشمس المتطايرة باللون الرمادي .

وكان كوبو يلف سيكارة جديدة . كان نظيفا جداً ، ببلوزة قصيرة ، وقبعة صغيرة من القماش الازرق، ضاحكا، مظهراً اسنانه البيضاء ،بارز الفك الاسفل، افطس الانف قليلا، وعيناه كستنائيتان جميلتان، ووجهه وجه كلب مرح وولد طيب . وشعره الطويل الاجعد يظل منتصبا ، ولا يزال محتفظـا ببشرة سنيه الست والعشرين الطرية . وفي الجهة المقـــابلة كانت جرفيز ، بثوب خفيف ناعم اسود، عارية الرأس، قد أنهت أكل خوختها التي كانت تمسكها من ذيلها بأطراف اصابعها . كانا قريبين من الشارع ، على أولى المناضد الاربع المصفوفة على طول البراميل امام منضدة البائع .

وحين أولع صانع الزنك سيكارته، وضع مرفقيه على المنضدة، وقدم وجهه، وتطلع لحظة ، دون ان يتكلم ، بالمرأة الشابة التي كان لوجهها الجميل الاشقر هذا النهار شفافية البورسلين الناعم الحليبية . واشار الى قضية معروفة منهما وحدهما، كانا قد بحثاها قبلا ، وسأل ببساطة ، وبصوت منخفض :

– اذن كلا ؟ تقولين كلا ؟

فأجابت جرفيز وهي تبتسم بهدوء

– اوه ! كلا بالتأكيد يا سيد كوبو . ارجو الا تكلمني بهذا الامر هنا . ومع ذلك فقد وعدتني بأن تكون عاقلا .. لو كنت اعلم لرفضت شرابك

ولم يعد الى الكلام ، واستمر في التطلع اليهـا عن قرب ، بحنو جريء يقدم نفسه ، مشغوفا على الاخص بزوايا شفتيهـا ، زوايا صغيرة لوردة شاحبة ، مبللة

قليلاً ، تتيح رؤية شدة احمرار الفم عندما تبتسم الا انها لم تتراجع ، وظلت هادئة ، ودودة . وقالت بعد فترة صمت

– بالحقيقة انك لا تفكر بذلك . انني امرأة كبيرة ، ولي ولد كبير في الثامنة .. ماذا سنفعل معاً ؟

فتمتم كوبو مطرفاً بعينه :

– ما يفعل الآخرون ..

ولكنها اتت بحركة ضجر .

– آه ! اذا كنت تعتقد انه أمر مسلّ دائماً ! .. يبدو جيداً انك لم تكن متزوجاً .. كلا يا سيد كوبو ، يجب ان افكر بالامور جدّيا ان المجون لا يقود الى شيء ، اتسمع ! عندي فمان في البيت يلتهمان كثيراً . هيا ! كيف تريد ان اصل الى تنشئة عالمي الصغير اذا لهوت بالترهات ؟ ثم ، اسمع ، لقد كان شقائي عظيماً . وانت تعرف الرجال الآن ، وهذا لا يسوّي قضيتي . انهم لن يبقوا علي طويلاً .

كانت توضح دون غضب وبحكمة كبيرة، باردة جداً كأنها تعالج مسألة عمل، كالاسباب التي تمنعها من وضع منديل في النشا . وكان يرى ان ذلك استقر في رأسها بعد تفكير ناضج .

وردد كوبو وقد استلان

– انت تسببين لي الكثير من الهم .. الكثير من الهم

فأجابت

– نعم ، هذا ما اراه ، وانا غاضبة لاجلك يا سيد كوبو .. يجب الا يجرحك ذلك . لو كانت لدي افكار للضحك ، ياالهي ! لكان ذلك معك افضل من ان يكون مع غيرك . هيئتك تدل على انك غلام طيب ، وانت لطيف سنكون معا ، اليس كذلك ؟ وسنسير بقدر ما نستطيع ان نسير . ولن اتكبر ، ولا اقول ان هذا لا يمكن ان يحدث .. لكن ما الفائدة ما دمت غير راغبة في ذلك؟ ها انا عند مدام فوكونيه منذ خمسة عشر يوما . والصغيران يذهبان الى المدرسة .

أني اشتغل ، وانا مسرورة .. فالأفضل اذن ان اظل كما انا
وانحنت لتأخذ سلتها قائلة

– لقد جعلتني اتكلم يجب ان يكونوا بانتظاري عند ربة العمل ستجد امرأة اخرى اجمل يا سيد كوبو ، وليس عندها طفلان تجرهما .

وكان ينظر الى الكوة المؤطرة في المرآة . وأجلسها صارخا

– انتظري اذن ! انها الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثون فقط .. لا يزال معي خمس وعشرين دقيقة ومع ذلك فلن تخشي ان اقوم ببعض الحماقات ، فالطاولة بيننا .. اذن انت تكرهينني الى درجة انك ترفضين اجراء حديث قصير معي

فوضعت سلتها لكي لا تكدره ، وتحدثا كصديقين . وكانت قد تناولت طعامها قبل ان ذهبت تحمل غسيلها ، اما هو فكان قد امرع في هذا النهار بالتهام شوربائه مع قطعة من لحم ثور وذلك ليأتي وينتظرها . وكانت جرفيز تجيبه مجاراة له وهي تنظر من الزجاج ، من بين قماقم الاثمار الملأى بالخمر، حركة الشارع حيث جعلت ساعة الغداء الجمهور يتعجل بشكل غير عادي . فعلى الرصيفين ، وفي ازدحام البيوت المختنقة ، كانت هناك خطى مسرعة ، واذرع متدلية تهتز ، وتدافع بالمرافق لا ينتهي . والمتأخرون ،وهم عمال: احتجزوا في الشغل ،بقسماتهم العابسة من الجوع ، كانوا يجتازون الطريق بخطى كبيرة ،ويدخلون على خباز في الجهة المقابلة ،وعندما يظهرون من جديد وتحت ابطهم ليبرة من الخبز ، كانوا يجتازن ثلاثة ابواب الى اعلى ، الى « العجل ذو الرأسين » ، ويأكلون وجبة عادية بستة فلوس . وكان يوجد ايضاً الى جانب الخباز بائع فواكه يبيع بطاطا مقلية وبلح البحر [1] مع البقدونس ، وهناك مسيرة طويلة من العاملات بمريلات طويلة يحملن ابواقاً من البطاطا ويضعن بلح البحر في طاسات ، واخريات وهن فتيات جميلات بشعر طويل ، وهيئة رقيقة ، كن يشترين رزماً من الفجل.

---

١ ـ بلح البحر *Moules* : نوع من الاصداف ذو شطرين ، وفيه انواع تربى لتؤكل .

وحين المحنت جرفيز شاهدت ايضاً دكاناً لبيع لحم الخنزير ملأى بالناس ، كان يخرج منها اولاد يحملون في ايديهم لحماً مغطى بفتات الخبز ، ومقانق ، وقطعة معي محشوّ بدم خنزير ولا تزال ساخنة، وكل هذا ملفوف بورقة مطلية بالدهن وعلى طول الطريق الملطخ بالوحل الأسود ، حتى في الطقس الجيد ، وفي وطء الجمهور السائر، كان بعض العمال يخرجون من المطاعم الحقيرة ويهبطون جماعات ، متلكئين ، مفتوحي الايدي، ضاربين على افخاذهم ، مثقلين بالطعام ، مطمئنين، متمهلين وسط تدافع الجموع .

وتشكلت جماعة امام باب الحانة . وسأل صوت أبح

– قل اذن يا بيبي لاغرياد ، هل تدفع لي ثمن كأس من الشراب ؟

ودخل خمسة من العمال ظلوا واقفين . وتابع الصوت

– آه ! هذا الاب كولومب اللص ! انتم تعلمون ان الكؤوس القديمة هي التي تلزمنا ، وليس قشور جوز ، كؤوس حقيقية !

وكان الاب كولومب يقوم بالخدمة بسكون . ووصلت جماعة اخرى مؤلفة من ثلاثة عمال . وتكدست البلوزات على الرصيف شيئاً فشيئاً ، جاعلة هناك محطة قصيرة ، وانتهت بالتدافع في القاعة بين غرستي الدفلي الرماديتين بسبب الغبار .

وقالت جرفيز لكوبو

– انت احمق ! لا تفكر الا بالقذارة ! كنت احبه دون شك ... ولكن ، بعد الطريقة المقرفة التي تركني بها ...

كانا يتحدثان عن لانتيه ، وجرفيز لم تكن رأته ثانية ؛ وكانت تعتقد انه يعيش مع اخت فرجيني في غلاسيير ، عند ذلك الصديق الذي يريد بناء مصنع للقبعات . الا انها لم تكن تفكر بالركض وراءه فقد سبب لها ذلك هماً عظيماً في بادىء الامر ، حتى انها ارادت ان تذهب وتلقي بنفسها في الماء ؛ ولكنها عقلت في الوقت الحاضر واصبح كل شيء على خير ما يرام . ومن الممكن انها لن تستطيع تربية الصغيرين مع لانتيه ما دام يأكل النقود . باستطاعته المجيء لتقبيل

كلود واتيين ، فلن تطرده خارجاً اما فيما يتعلق بها فانها تفضل ان تقطع إرباً قبل ان تدعه يلمس طرف اصابعها . وقد قالت ذلك كامرأة مصممة ، واصبح مخطط حياتها مقرراً ، بينما كوبو الذي لم يتخلّ عن رغبته بامتلاكها ، فانه كان يمزح ويوجه كل شيء نحو القذارة ، ويسألها عن لانتيه اسئلة غير لائقة ، بشكل مرح ، وباسنان بيضاء حيث لم تكن تفكر بالغضب . وقال اخيراً

– لقد كنت تضربينه اوه ! انت لست صالحة ، تضربين الناس بالسوط .

فقاطعته بضحكة طويلة . الا ان هذا كان صحيحاً ، فقد ساطت هيكل فرجيني الضخم . وفي ذلك النهار كانت ستخنق اي واحدٍ عن طيبة خاطر واخذت تضحك بشدة لان كوبو قص عليها ان فرجيني قد تركت الحي حزينة لانها اظهرت كل شيء . الا ان وجهها كان يحتفظ بعذوبة طفولية ، وقد مدت يديها السمينتين مرددة انها لن تسحق ذبابة ؛ ولم تكن تعرف الضربات الا انها كانت تتلقاها سابقاً في حياتها . وعندئذ توصلت الى التحدث عن طفولتها في في بلاسان . لم تكن فاسقة ابداً فالرجال يضجرونها ؛ وعندما اخذها لانتيه وهي في الرابعة عشرة وجدت ذلك لطيفاً لانه كان يدعي انه زوجها ولانها كانت تعتقد انها تؤسس بيتاً . واكدت ان خطأها الوحيد هو انها كانت كثيرة الحساسية ، وتحب كل النـــاس ، وتولع باناس يسببون لها كثيراً من الشقاء وهكذا ، فعندما احبت رجلاً لم تكن تفكر بالحماقات . بل كانت تحلم فقط بأن يعيشا معاً سعيدين جداً وبما ان كوبو كان يضحك ويحدثها عن ولديها ويقول انها بالتأكيد لم تحتضنهما تحت الوسادة ، فانها كانت تضربه على اصابعه ، وتضيف انها مبنية بالتأكيد على غرار النساء الاخريات ؛ الا ن من الخطأ الظن ان النساء متكالبات على ذلك ؛ فالنساء يفكرن ببيوتهن ، ويتقطعن اربع قطع في البيت ، وينمن منهوكات في المساء لكي لا يغفين على الأثر . اما هي ، فتشبه امها التي كانت شغيلة ضخمة وماتت من الهم ، وظلت تخدم الاب ماكار كالبهيمة طوال عشرين عاماً . وكانت لا تزال رخصة العود عندما كان لأمها كتفان

يهدمان الأبواب وهي مـــارة ؛ ولكن هذا لم يكن يمنع ، فقد كانت تشبهها بالغضب من التعلق بالناس. وحتى اذا كانت تعرج قليلاً ، فانها اخذت ذلك عن المرأة المسكينة التي كان الأب ما كار يوسعها ضرباً وقد حكت هذه لهـا مئة مرة عن الليالي التي كان الأب يعود فيها ثملاً ويبدو ذا ظرافة شرسة بحيث كان يحطم أعضاءها ؟ وبالتـأكيد ، فانها قضت واحدة من هذه الليالي ، بساقها المتأخر .

وقال كوبو متزلفاً

– اوه ! هذا لا شيء تقريباً ، انه لا يحدث

فهزت ذقنها ؛ وكانت تعلم انه قد حدث ؛ وفي سن الاربعين سوف ينحني ظهرها . ثم قالت بهدوء ، وبضحكة غريبة

– ذوقك غريب لحبتك امرأة عرجاء .

عندئذ امتدحها مجازفاً بالكلمات كأنه يريد اغواءها ، وذراعاه لا يزالان على المنضدة ، وزاد من تقديم وجهه . ولكنها كانت تقول دائماً : لا ، برأسها دون ان تدع نفسها تقع في التجربة الا انها كانت تشعر بمداعبة هذا الصوت الناعم . وكانت تصغي ونظرها الى الخارج كأنها تجدد اهتمامها بالجمهور المتزايد . وقد بدأت المكنسة تقوم بعملها الآن في الدكاكين الفارغة ؛ وسحبت بائعة الفواكه آخر ما في المقلاة من البطاطا المقلية ، بينما كان بائع لحم الخنزير يرتب الصحون المنتشرة على منضدته. وكانت تخرج افواج من العمال من جميع المطاعم الحقيرة ؛ وكان بعض النشيطين الملتحين يتقدمون متلاطمين ، ويلعبون كالأولاد، بفرقعة احذيتهم الضخمة المصفح نعلها بالحديد ، خادشين البلاط عند زحلقتهم ؛ والآخرون يضعون ايديهم في جيوبهم ، ويدخنون بهيئة مفكرة ، واعينهم في الشمس ، والجفون تطرف انه اجتياح للرصيف ، للطريق ، للسواقي ، وموجة كسولة تسيل من ابواب مفتوحة ، منتصبة بين العربات ، وتؤلف صفـــاً من البلوزات . والبلوزات القصيرة ، والسترات القديمة ، وكلها شاحبة دارسة اللون تحت بساط النور الأشقر الذي ينتظم الشارع . وفي البعيد كانت اجراس المعامل

تقرع ؛ والعمال يولعون غلايينهم لانهم غير متعجلين ؛ ثم بعد ان انتقلت دعوتهم من بائع الى آخر ، عزموا ، وهم مستديرو الظهور ، على السير في طريق المشغل ساحبين ارجلهم وكانت جرفيز تلهو بمتابعة ثلاثة عمال ، كبير وصغيرين : كانوا يلتفتون كل عشر خطوات ! وقد انتهوا بهبوط الشارع وجاؤوا رأساً الى حانة الأب كولومب . فتمتمت :

– آه حسناً ! هؤلاء ثلاثة في ايديهم وبر .

وقال كوبو :

– اني اعرف الكبير ، فهو ميبوت ، وهو رفيق لي .

وكانت الحانة قد امتلأت ، وكانوا يتكلمون بقوة ، وبصيحات تمزق التمتمة اللثغاء البحّاء. وتساقطت ضربات بجماع اليد على منضدة البائع جعلت الكؤوس ترن . والشاربون الواقفون، المتصالبو الايدي على البطن، او الملقاة وراء الظهر، كانوا يشكلون جماعة صغيرة ، تحشر بعضها بعضاً . وكان هناك جماعات بقرب البراميل عليها ان تنتظر ربع ساعة قبل ان تستطيع طلب ما تشتري به من الاب كولومب .

وصرخ ميبوت مربتاً بشدة على كتف كوبو :

– كيف ! انه ذلك الارستوقراطي كاديه ـ كاسي! سيد جميل يدخن ورقاً وعليه ثياب ! .. المراد اذن التشرف بمعرفته ، وملاطفته .

فأجاب كوبو متضايقاً :

– لا تزعجني .

ولكن الآخر ضحك وقال

– يكفي ! اننا على مستواك ايها الرجل السليم القلب ... ولكن الفظ هو الفظ .

وادار ظهره بعد ان حول عينيه بشكل مخيف وهو يتطلـــع الى جرفيز . فتراجعت هذه الى الوراء شاعرة ببعض الخوف . وكان دخان الغلايين والرائحة القوية المتصاعدة من كل هؤلاء الرجـــال تصعد في الهواء محملة بالكحول ، فكادت

تختنق وانتابها سعال خفيف ، وقالت بصوت منخفض :

– اوه ! يا له من شرب شنيع ! ..

وحكت انها كانت تشرب في الماضي مع والدتها شراب الأنيسون فيبلاسان، ولكنها كادت تموت ذات يوم ، وهذا ما جعلها تتقزز ، ولم تعد تستطيع رؤية الاشربة الكحولية .

وأضافت وهي تري كاسها

– انظر ، فقد اكلت خوخقي ، وتركت المرقة فقط لانها تؤذيني .

وكوبو ، هو ايضا ، لم يكن يفهم انه بالمستطاع احتساء كؤوس خمر ملأى. وخوخة من هنا ومن هناك ليست بالأمر السيء اما الفيتريول والأبسنت والحماقات الأخرى فانها لم تكن تلزمه . وكثيراً ما لامه الرفاق ، فقد كان يبقى على الباب عندما يدخل اولئك السكارى الى منجم الفلفل . والاب كوبو الذي كان مثله صانع زنك فقد انسحق رأسه على بلاط شارع كوكينار عندما سقط في احد الايام التي افرط فيها بالشرب من ميزاب الرقم ٢٥ ، وهذه الذكرى في العائلة جعلت الجميع عاقلين . اما هو ، فعندما كان يمر في شارع كوكينار ويرى المكان ، فقد كان يتمنى ان يشرب ماء السواقي وذلك افضل من احتساء كيلة مجانية من عند بائع الخمر . وكان يختتم بهذه العبارة

– في مهنتنا يلزم سيقان متينة .

وعادت جرفيز فأخذت سلتها الا انها لم تنهض ، وأبقتها على ركبتيها شاردة النظرات ، حالمة ، كما لو ان كلمات العامل الشاب ايقظت فيها افكاراً بعيدة الوجود . وقالت ايضا بتمهل ، ودون تحول ظاهر

– يا الهي ! انا لست طماعة ، ولا اطلب امراً عظيما .. فمثلي الاعلى هو ان اشتغل براحة بال ، وان آكل الخبز دائما ، وان يكون لي جحر نظيف قليلاً انام فيه ، وسرير ، ومنضدة ، وكرسيان ليس اكثر .. آه ! اريد ايضا ان اربي اولادي وان اجعل منهم رعايا صالحين ، اذا كان هذا ممكنا . وهناك شيء آخر أنشده ، هو ان لا أضرب اذا عدت وتزوجت ، كلا : لن ارضى بأن أضرب .. هذا كل شيء ، كما ترى ، هذا كل شيء .

كانت تبحث ، وتسأل رغباتها ، ولم تجد شيئا جديدا يغريها . الا انها تابعت بعد تردد

– نعم ، يستطيع المرء اخيراً ان يرغب بالموت على سريره . وانا ، بعد ان تعبت كثيراً كل حياتي ، سوف اموت بطيبة خاطر على سريري ، وفي بيتي .

ونهضت . ووقف كوبو قلقا من الساعة ، وقد استحسن تمنياتها كثيراً لم يخرجا حالاً ، فقد شاء فضولها ان تذهب وتنظر في الداخل ، وراء الحاجز المصنوع من خشب السنديان ، ذلك الأنبيق الكبير من النحاس الاحمر والذي يعمل تحت زجاج الساحة الصغيرة النقي ، وقد شرح لها صانع الزنك الذي كان يتبعها كيف يسير العمل ، مشيراً باصبعه الى قطع الجهاز المختلفة، مظهراً القرعة الزجاجية الضخمة التي تسقط منها رشة صافية من الكحول . ويحتفظ الانبيق بهيئة قاتمة ، بآنيته الغريبة الشكل ، والتفافات انابيبه التي لا نهاية لها، ولا يتفلت منه اي دخان ، ولا تكاد تسمع منه نفحة داخلية ، او غطيط تحت الارض ، لقد كان كعمل ليلي صُنع في وضح النهار بواسطة عامل عابس ، قادر وصامت. الا ان ميبوت جاء مصحوبا برفيقيه واسند مرفقه الى الحاجز منتظراً فراغ زاوية من منضدة البائع . وكانت ضحكته كصرير بكرة لم تشحم جيداً ، هازاً رأسه ، وعيناه المشفقتان متطلعتان الى الآلة المسكرة . يا لرعد الله ! كانت لطيفة جداً ! وكان يوجد في ذلك البطن النحاسي ما يبقي الحلقوم بارداً طوال ثمانية ايام . وكم تمنى ان يلحموا له طرف الأنبوب بين اسنانه لكي يشعر بالزاج *Vitriol* يملأه وهو لا يزال ساخنا ، ويسقط فيه حتى العقبين ، دائما ، دائما كجدول صغير. ولن يزعجه احد، وهذا يحل محل قموع ذلك الحصان الاب كولومب ! .. وكان الرفاق يضحكون ويقولون ان لهذا الحيوان ميبوت دما خفيفا مهما كان الأمر . ويواصل الانبيق عمله بلا صوت ، دون لهب ، دون بهجة في انوار نحاسه المنعكسة المنطفئة ، ويفسح مجالا لسيلان عرقه الكحولي الشبيه بنبع بطيء ملحاح ، يجب مع الوقت ان يجتاح القاعة وينتشر على الجادات الخارجية ، ويغمر ثقب باريس الواسع . وعندئذ رجعت جرفيز وارتعشت .

وكانت تحاول ان تبتسم ، متمتمة

– هذا مزعج ، انها تسبب لي البرد ، تلـك الآلة ... الشراب يسبب لي البرد ..

ثم عادت الى الفكرة التي كانت تداعبها بسعادة كاملة

– ها ؟ اليس كذلك؟ هذا افضل : ان يشتغل المرء ، ويأكل الخبز. ويحصل على جحر له ، ويربي اولاده ، ويموت على سريره .

واضاف كوبو بمرح

– وان لا يُضرب . ولكن لن اضربك اذا كنت تريدين يا سيدة جرفيز ليس هناك اي خوف ، فأنا لا اشرب ابداً . ثم اني احبك كثيراً.. ذلك لأجل هذا المساء ، سندفىء أرجلنا .

وخفض صوته ، وكان يكلمها وقـد اقترب منها كثيراً بينما كانت هي تشق الطريق وسلتها الى الامام ولكنها ما زالت تقول كلا ، برأسها ، عدة مرات . ومع ذلك فقد كانت تلتفت ، وتبتسم له، وبدت سعيدة لمعرفتها انه لا يشرب. بالتأكيد كان من الواجب ان تقول له نعم لو لم تكن اقسمت الا تضع مقاليدها بيد رجل . واخيراً بلغا الباب وخرجا . وظلت الحانة وراءهما ملأى ، متنفسة حتى الشارع ، ضجة الاصوات البحّاء ورائحة كؤوس الزاج الكحولية . وقد سُمع ميبوت وهو ينعت الاب كولومب بالصعلوك ، متهما إياه بعدم ملء كأسه الا الى النصف . اما هو فكان طيبا، بومة ، شديد البأس آه ! باستطاعة القرد ان يبحث ، ولن يعود الى العلبة ، فعنده خمول واقترح على الرفيقين الذهاب الى حانة « الساذج الصغير الذي يسعل » ، منجم من الفلفـل عند حاجز سان دنيس ، حيث يشربون خمراً صافيا

وقالت جرفيز

– آه ! بالامكان التنفس على الرصيف. وداعا وشكراً يا سيد كوبو.. اريد ان اعود الى البيت بسرعة .

وراحت تتبع الشارع . ولكنه امسك يدها ، ولم يتركها مردداً

– اذن دوري معي ، ومرّي من شارع « القطرة الذهبية » ، فهـذا لن يعيقك ابداً .. يجب ان اذهب الى بيت اختي قبـــل ان اعود الى المشغل .. سنترافق .

وانتهت بالقبول ، وصعدا متمهلين شارع بواسونيير جنبـاً الى جنب ، دون ان يمسكا بذراع بعضهما البعض وكان يحدثها عن عائلته . فالأم ، ماما كوبو ، وهي صانعة صداري قديمة كانت تقتصد بسبب عينيها اللتين ذهبتا . وقد بلغت الثانية والستين وثلاثة اشهر من عمرها في الثالث من الشهر المـاضي . وكان هو الاصغر . واحدى اخواته ، مدام ليرا ، ارملة في السادسة والثلاثين ، تشتغل في الزهور وتسـكن في شارع موان في باتينيول والاخرى وعمرها ثلاثون سنة ، تزوجت صانع سلاسل ، لوريللو ذا الكلام اللاذع وكان يذهب الى عند هذه الاخت في شارع القطرة الذهبية . وكـانت تقطن البيت الكبير ، الى الشمال . وفي المساء كان يتناول كأساً من الحليب عند آل لوريللو ! وفي ذلـــك توفير للثلاثة . وكان ايضا يمر من عندهم لينبئهم بألا ينتظروه لأنه مدعو في ذلـــك النهار عند احد الاصدقاء .

وجرفيز المصغية اليه قطعت كلامه فجأة لتسأله وهي تبتسم

– اذن اسمك كادي – كاسي يا سيد كوبو ؟

فأجاب :

– اوه ! انه لقب اطلقه الرفـاق علي ،لأنني اتناول عادة شراب الكشمش الاسود عندما يأخذونني بالقوة الى بائع خمر. .وان يكون اسمي كادي – كاسي فذلك افضل من ميبوت ، اليس كذلك ؟

وقالت المرأة الشابة

– بالتأكيد ، واسم كادي – كاسي ليس بشعاً

وسألته عن عمله كان يشتغل هناك دائماً، وراء حائط الجمرك،في المستشفى الجديد. اوه ! لم يكن الشغل ينقصه ، وبالتأكيد لن يترك ذلك المشغل هذه السنة ففيه امتار وامتار من الميازيب !

وقال

– تعلمين ، اني اشاهد فندق بونكور حين اكون هناك ، فوق ... البارحة كنتِ في النافذة . وقد لوحت بذراعي ولكنك لم تشاهديني .

وكانا قد سارا مائة خطوة في شارع القطرة الذهبيةعندما وقف رافعاً عينيه وقال :

– هذا هو البيت . اما انا فقد ولدت في مكان ابعـــد ، في الرقم ٢٢ ولكن هـذا البيت ، مهما كان الامر ، يشكل كدسة جميلة من البنيـان ! انه في الداخل كبير كالثكنة

وكانت جرفيز تهز ذقنها ، وتتفحص الواجهة . كان البيت مؤلفـاً من خمس طبقات على الشارع ، في كل منها خط مؤلف من خمس عشرة نافـــذة ، حيث المصاريع الخارجية السوداء ذات الصفائح المكسرة تكسب تلك الشقة الفسيحة من الحائط هيئة الخراب وتحت ، اربع دكاكين تشغل الطابق الارضي الى يمين البـــاب ، غرفة واسعة لمطعم صغير شحمي ؛ والى الشمال بائـع فحم ، وخردجي ، وبائع مظلات . وكان البيت يبدو عملاقاً لوجوده بين بنـاءين صغيرين ، منخفضين ، هزيلين ، ملتصقين بعضهما ببعض ؛ وهو مربع ، شبيه بكتلةٍ من الطين مجبولة بشكل غير متقن ، متعفنة ومتفتتة تحت المطر ، ويرسم على السماء الصافيه فوق السطوح المجاورة مكعبه الضخم غير المعالج بالصنـاعة ، وجوانبه غير المجصصة ، بلون الوحل ، ذات عري لا ينتهي كجدران السجن ، حيث صفوف من الحجارة البارزة تشبه فكوكاً متداعية ، متثائبة في الفراغ . ولكن جرفيز كانت تنظر بشكل خاص الى الباب ، وهو باب واسع مستدير ، يرتفع حتى الطابق الثاني ، حافراً مدخلاً عميقاً ، وفي طرفـه الآخر كان يُرى نور نهار شاحب على ساحة كبيرة . وفي وسط هذا المدخل ، المبلط كالشارع ، ساقية تجري ، مسيلةً ماء وردياً كثير الطراوة.

وقال كوبو

– ادخلي اذن ، فلن يأكلوك .

وكانت جرفيز تريد ان تنتظره في الشارع . الا انها لم تستطع منع نفسها من الدخول تحت المدخل حتى بيت البواب الذي كان الى الناحية اليمنى وهناك ، على العتبة ، رفعت عينيها من جديد . كان لواجهة البيت في الداخل ست طبقات ، واربع واجهات منتظمة تحيط بمربع الساحة الفسيح انها جدران رمادية اللون اكلها جذام امغر ، ومخططة بآثار ناتجة عما يقطر من السطوح . وترتفع مسطحة ، من البلاط حتى الحجارة الاردوازية ، دون نتوء ؛ وانابيب الهبوط وحدها تلتوي على الطوابق بشكل مرفق ، حيث الصناديق الرصاصية الفاغرة الفم تصب اقذار حديدها الصدىء . والنوافذ بدون مصاريع خارجية تظهر زجاجاً عارياً بلون خضرة الماء العكر وبعضها مفتوح ، تتدلى منها فرش ذات مربعات زرقاء تتهوّى ؛ وامام نوافذ اخرى ، على حبال ممدودة ، غسيل يجف ، كل غسيل البيت ، قمصان رجل ، وصداري امرأة ، وسراويل اولاد ، ويوجد في الطابق الثالث نافذة يظهر فيها فراش طفل ملوث بالقذارة . ومن اعلى الى اسفل ، فان المساكن الكثيرة الصغر كانت تتصدع في الخارج وتترك اطراف بؤسها تظهر من جميع الشقوق . وفي اسفل ، يؤمن الوصول الى كل واجهة من باب مرتفع وضيق ، دون خشب ،منحوت في عري الجص ، ويحفر رواقاً متشققاً تدور في داخله درجات موصلة الى درج ذي حاجز حديدي ؛ وهكذا تعد أربعة أدراج أُشير اليها بالحروف الأربعة الأولى من الألفباء ، مرسومة على الجدار . والطوابق الارضية كانت مقسمة الى مشاغل فسيحة ، مقفلة بحواجز زجاجية سوداء من الغبار : كور حداد يشتغل فيها ، ويسمع من مكان أبعد ضربات مسحج بخار ؛ بينما مختبر صبّاغ بالقرب من المنزل يترك تلك الساقية الوردية تجري تحت المدخل بدفعات كبيرة . والساحة الملونة ببرك من الماء المصبوغ ، والنشارة ، وبقايا الفحم ، والمغروسة بالعشب على حافتيها وبين بلاطها المتفرق ، كانت منارة بنور غير لائق ، كأنها مقطوعة الى نصفين بواسطة الخط الذي تتوقف عنده الشمس . ومن ناحية الظل ، حول العين ، حيث يبقي الصنبور هناك رطوبة دائمة ، كانت ثلاث دجاجات ينقرن

التراب باحثات عن دود الأرض وجذور ملوثة بالطين . وكانت جرفيز تجيل نظرها ببطء ، وتخفضه من الطابق السادس حتى الارض ، وتصعده مندهشة من هذه الضخامــة ، شاعرة بنفسها وسط جهاز حي في قلب مدينة ، مهتمة بالبيت كما لو ان امامها شخصاً عملاقاً

وصاحت زوجة البواب قلقة ، وقد ظهرت في باب المنزل

– هل تسأل السيدة عن احد ؟

ولكن السيدة الشابة أوضحت انها تنتظر شخصاً والتفتت نحو الشارع ؛ ولما كان كوبو قد تأخر ، فانها عادت تتطلع ايضاً ، كأنها منجذبة لم يبد البيت لها قبيحاً . فقد كان بين الخرق المدلاة من النوافذ زوايا مرح تضحك، وغرسة منثور مزهرة في وعاء ، وقفص عصافير تتساقط الزقزقة منه ، ومرايا ذات قبضات تضع في اعماق الظلام اضواء نجوم مستديرة وتحت ، نجار يغني مصحوباً بصفير مسحجه المنتظم ؛ بينما ضجة المطارق الضاربة بشكل رتيب في مشغل الحداد تحدث رنيناً فضياً ضخماً وفي جميع النوافذ المفتوحة تقريباً ، وفي اعماق ما يُستكشف من شقاء ، اولاد يظهرون رؤوسهم القذرة الضاحكة ، ونساء يخطن بوجوه هادئة منحنية على الشغل . انها العودة الى المهام بعد الطعام ، والغرف الفارغة لرجال يشتغلون في الخارج ، والبيت الداخل في هذا السلام العظيم الذي تقطعه فقط ضجة المهن ، وهدهدة لازمة ، هي نفسهـــا دائماً ، مرددة طوال ساعات . وكان الفناء وحـــده على شيء من الرطوبة ولو كانت جرفيز تسكن هنا لاختارت منزلاً في الداخل لناحية الشمس . وكانت قد سارت خمس او ست خطوات ، وتنشقت تلك الرائحة التافهة للمساكن الفقيرة ، رائحة غبار قديم ، وقذارة زنخة ؛ ولما كانت حراقة ماء الصباغ هي المسيطرة فقد شعرت بأن الرداءة هنا اقل مما هي في فندق بونكور . وقد اختارت نافذتها ، نافذة في الزاوية الشمالية حيث يوجد صندوق غرست فيـــه لوبياء اسبانيا التي بدأت سوقها الدقيقة تلتف حول عريش من الخيوط .

وقال كوبو الذي سمعته فجأة بقربها

– لقد جملتك تنتظرين ، اليس كذلك ؟ انها حكاية حين لا اتناول طعامي عندهم ، بالاضافة الى ان اختي قد اشترت اليوم لحم عجل

ولما كانت قد شعرت بشيء من الرعشة بسبب المفاجأة فقد أكمل بجيلا انظاره بدوره

– كنت تنظرين الى البيت . انه مستأجر بصورة دائمة من أعلى الى اسفل . هناك ثلاثماية مستأجر على ما اعتقد ... ولو كان عنـــدي اثاث لكنت ترقبت حجرة صغيرة . ان المرء يكون براحة هنا ، اليس كذلك ؟

فتمتمت جرفيز

– نعم ، يكون براحة لم يكن شارعنا في بلاسان مأهولاً هكذا ... انظر ، ما ألطف تلك النافذة في الطابق الخامس مع غراس اللوبياء .

وعندئذ سألها ، بإصراره ، اذا كانت تريد ان يستاجرا هنا عندما يصبح لديهما سرير ، ولكنها هربت، واسرعت تحت المدخل وهي ترجوه ألا يعود الى حماقاته من الممكن ان ينهار البيت ، ولن تنام فيه معه تحت غطاء واحد . الا ان كوبو عندما تركها امام مشغل مدام فوكونيه استطاع ان يحتفظ بيدها في يده وقد تركتها له بكل صداقة

واستمرت العلاقات الطيبة طوال شهر بين المرأة الشابة وصانع الزنك . فقد كان يجدها باسلة حين يراها تقتل نفسها بالعمل ، وتعتني بالولدين ، وتجد أيضاً وسيلة لتخيط في المساء جميع أنواع الخرق . وهناك نساء لاهيات ، افواههن غير نظيفة ؛ ولكنها لا تشبههن ، فقد كانت تأخذ الحياة بشكل جدي ! وعندئذ تضحك ، وتدافع عن نفسها بتواضع، ومن سوء حظها فإنها لم تكن دائماً عاقلة، ولمحت الى ولاداتها الاولى ، منذ سن الرابعة عشرة ، وكانت تعود الى ليترات الأنيسون التي كانت تشربها مع امها في السابعة . والتجربة أصلحتها قليلاً ، هذا كل شيء . ويخطىء من يعزو اليها ارادة قوية ، انها على العكس ، ضعيفة جداً ، كانت تنقاد الى حيث تُدفع خوفاً من ان تسبب المأ لأحد . وكان حلمها في ان تعيش في مجتمع فاضل ، لأن المجتمع الرديء كضربة نبوت ، كما كانت تقول ،

يحطم جمجمتك ويعطيك امرأة بأقل من لا شيء . كانت تشعر بالعرق يتصبب منها أمام المستقبل ، وتشبه نفسها بفلس مقذوف في الهواء ، يسقط على وجهه أو على قفاه ، وفقاً لصدف البلاط . وكل ما رأته قبلاً ، الأمثلة السيئة المنشورة امام عينيها كطفلة ، كانت تلقنها درساً فخوراً . ولكن كوبو كان يضحكها بأفكاره السوداء ، ويعيدها الى شجاعتها ، مجرباً ان يقرص خاصرتيها ، وكانت تدفعه وتضربه على يديه بينما يقول ضاحكاً انها كامرأة ضعيفة ، ليست بالسهلة وهو كمزّاح ، لم يكن يحفل بالمستقبل . والأيام جرّت الأيام ، والمرقد والمأكل متوفران وبدا لها الحي نظيفاً باستثناء نصف السكيرين الذين يمكن تنظيف السواقي منهم ولم يكن شيطاناً رديئاً ، ويلقي احياناً اقوالاً كثيرة الصواب ، ولديه ايضاً شيء من حب التزين ، فرق معتنى به على جانب الرأس ، وربطات عنق جميلة ، وزوج من الاحذية ملمع ليوم الاحد يضاف الى ذلك رشاقـــة ووقاحة قرد ، ودعابة ساخرة لعامل باريسي مليء بالثرثرة الجريئة ، الساحرة ايضاً على فمه الفتي

وانتهى الاثنان بالقيام بعدة اعمال في فندق بونكور . اذ ذهب كوبو ليأتي لها بالحليب ، وقام بأعمالها ، وحمل لها صرر الغسيل ، وفي المساء ، عنـدما يعود قبلها من عمله ، فانه غالباً ما ينزه الولدين في الشارع الخارجي . ولكي ترد له جرفيز اعماله الحسنة ، كانت تصعد الى الغرفـة الصغيرة الضيقة ، حيث كان ينام تحت السطوح ، وتلقي نظرة على ثيابه ، مثبتـــة ازرار الملابس ، راتقة السترة القماشية وتوطدت بينهما دالة كبـــيرة . ولم تكن تضجر حين يكون موجوداً ، فتتسلى بالاغـــاني التي يحملها من ذلك الهذر المستمر في ضواحي باريس ، والتي لا تزال جديدة عليها . اما هو فكان يزداد اشتعاله باحتكاكه المستمر بتنورتها وكان جافاً ورصيناً ! وقـد انتهى ذلك بأن اقلقه . كان يضحك دائماً ولكن المعدة غير مرتاحة ، ومضغوطة ، ولم يجد ذلك غريباً . واستمرت الحماقات ، ولم يكن يستطيع ان يلقاهـا دون ان يصيح بها : « متى ؟ » ، وكانت تعلم ما يريد ان يقول وتعـــده بما يريد معينة

وقتاً مبهماً . فيلح عليهـــا ، ويأتي الى عندها حاملاً حذاءه بيده كمن ينقل اثاث بيته وكانت تسخر منه ، وتقضي نهارها على خـير حال دون ان تحمر خجلاً لتلميحاته المستمرة الفاجرة التي جعلهـا تعيش بينهـا وكانت تتسامح معه بكل شيء بشرط ألا يكون فظاً الا انها غضبت ذات يوم حـين اراد ان يقبلها بالقوة ، وكان ان انتزع شعرها .

وفي الايام الاخيرة من حزيران فقد كوبو مرحه واصبح مضطرباً . واقلقت جرفيز بعض النظرات فأرتجت بابها ليلاً . وبعد حرد دام من الاحد الى الثلاثاء، جاء مساء الثلاثاء فجأة يطرق بابها حوالي الساعة الحادية عشرة لم تكن تريـد ان تفتح له ، ولكن صوته كان عـذباً مرتجفـاً فانتهت بان سحبت الخزانة الموضوعة وراء الباب .

وعندما دخل ظنته مريضاً بقدر ما بدا لها شاحباً ، محمر العينين ، ووجهه كالرخام . وقد ظل واقفاً ، متلجلجاً ، هازاً رأسه كلا ، كلا لم يكن مريضاً كان يبكي منذ ساعتين في غرفته ، وبصوت مرتفع ، يبكي كالطفل، عاضاً على وسادته لئلا يسمعه الجيران وقد مضت ثلاث ليال لم يذق فيها طعم النوم . وليس من الممكن ان يستمر هكذا .

وقال : وهو ضيق النفس ، وتكاد تغلبه دموعه :

– إسمعي يا سيدة جرفيز ، يجب ان ننتهي ، أليس كذلك ؟ سنتزوج . أنا أريد ذلك وقد صممت

فأبدت جرفيز دهشة كبيرة . وكانت كثيرة الرصانة ، وتمتمت

– اوه ! ياسيد كوبو ، مـــا الذي تبحث عنه ! انني لم أطلب منك ذلك وأنت تعلم جيداً .. هذا لا يلائمني ، هذا كل شيء ... اوه ! كلا ، كلا ، الأمر الآن جدّي ؛ فكـّر ، أرجوك

ولكنه ظل يهز رأسه بهيئة عزم لا يتزحزح لقد فكر بذلك ، وقد نزل من غرفته لأنه بحاجة الى ان يقضي ليلة طيبة . ومن الممكن أنها لن تدعه يصعد ليبكي ! وحين تقول له : نعم ، فانه لن يزعجها أبداً ، وباستطاعتها أن تنام

مرتاحة البال . كان يريد فقط أن يسمعها تقول نعم . وسيتحدثان في الغد .

وتابعت جرفيز

– بالتأكيد ، لن أقول نعم هكذا . وانني لحريصة على أن لا تتهمني فيما بعد بأنني دفعتك الى القيـــام بحماقة . انت ترى ياسيد كوبو انك مخطىء بعنادك . وانت نفسك تجهل ما تشعر به نحوي . ولو لم تلتق بي منذ ثمانية أيام لفاتك هذا ، أنا متأكدة . ان الرجال في الغالب يتزوجون لأجل الليلة الأولى ، ثم تلتتابـع الليالي ، وتمتد الأيام طول الحيـاة ، ويكونون قد ضجروا للغاية . أجلس هنا ، اريد التحدث حالاً

وعندئذ ، ظلا حتى الساعة الواحدة صباحاً ، في الغرفة السوداء ، وعلى نور داخن لشمعة نسيا ان يقطعاها ، يناقشان زواجهما ، خافضي الصوت لئلا يوقظا الولدين ، كلود واتيين اللذين كانا ينامان بتنفسهما الخفيف . ورأساهما على نفس الوسادة وكانت جرفيز تعود دائماً إليهما وتريهما لكوبو؛ انها بائنة عجيبة هذه التي تحملها إليه ، وهي بالحقيقة لا تريد ان تزعجه بولدين . ثم انها تخجل عنه ماذا سيقال في الحي ؟ لقد عرفوها مع عشيقها ، وعرفوا قصتها ، ولن يكون الأمر نظيفاً حين يرونهما يتزوجان في فترة لا تتعدى الشهرين . وعلى جميع هذه الأسباب الوجيهة كان كوبو يجيب بهز كتفيه كان يسخر من الحي ، وهو لا يضع أنفه في قضايا الغير ، ويخاف من تلويثه لا بأس ! نعم ، لقد كان لها لانتيه قبله ، فأين الشر ؟ انها لم تكن تحيا حياة مستهترة ، ولم تأت برجال الى بيتها ككثير من النساء اللواتي هن اكثر غنى منها . اما الولدان فسيكبران ، وسيربيانهما بالتأكيد ! انه لم يجد مثلها امرأة شجاعة ، صالحة ، ملأى بكثير من الصفات الحسنة ومع ذلك فـــلم يكن هذا كل شيء . لو كانت تطوف الأرصفة ، وتكون قبيحة ، كسولة ، مقرفة ، وعندها عصبة من الاولاد القذرين لما كان لكل هذا حساب في نظره ! كان يريدها .

وردد ، وهو يربت بقبضته على ركبتها بشكل مستمر

– نعم ، اريدك . اتسمعين ، اريدك . اعتقد انه ليس هناك ما يقال في ذلك

وكانت جرفيز ترق شيئاً فشيئاً. وقد استولى عليها خور في القلب والحواس، وفي غمرة هذه الرغبة العنيفة التي شعرت انها محاطة بها ، لم تكن تجازف الا باعتراضات خجلى يداها ساقطتان على تنورتها ، ووجهها مفعم بالعذوبة . ومن الخارج ، من النافذة نصف المفتوحة ، كان ليل حزيران الجميل يرسل نسمات حارة تحرك الشمعة التي كان فتيلها العالي المحمر يتضخم . وفي الصمت الكبير للحي النائم ، كان يُسمع فقط بكاء ولد لسكير نائم على ظهره في وسط الشارع ، بينما في مكان اكثر بعداً ، في داخل احد المطاعم ، كان هناك كان يعزف رباعية حقيرة في عرس متأخر ، موسيقى صغيرة شفافة واضحة ومنطلقة كجملة من الهرمونيكا. ورأى كوبو المرأة الشابة تبتسم بغموض وقد تلاشت حججها، فأخذ يدها وجذبها نحوه . وكانت في احدى ساعات الاستسلام التي كانت كثيراً ما تحذرها ، مغلوبة على امرها ، كثيرة التأثر بحيث لا ترفض شيئاً او تسبب هماً لأحد. ولكن عامل الزنك لم يدرك انها كانت مستسلمة، فاكتفى بضم قبضتيها كأنه يريد سحقها وامتلاكها ، وندت عن الاثنين آهة في ذلك الالم الخفيف أرضيا بها حنوهما . وسأل :

– قلتِ نعم ، اليس كذلك ؟

فتمتمت

– كم تعذبني ! اتريد ذلك ؟ .. حسناً ، نعم . يا الهي ، ربما ارتكبت بهذا جنوناً كبيراً

ونهضت ، وامسك بقامتها وقبلها قبلة شديدة على وجهها كيفما اتفق . ولما كانت هذه المداعبة قد احدثت جلبة كبيرة ، فانه قلق اولا وتطلع الى كلود واتيين، ومشى بخطى الذئب خافضاً صوته ، وقال :

– اسكتي ! لنكن عاقلين . يجب الا نوقظ الاولاد . الى الغد .

وصعد الى غرفته . وظلت جرفيز ، مرتجفة ، ما يقارب الساعة جالسة على

حافة سريرها دون ان تفكر بخلع ملابسها . لقد كانت متأثرة ووجدت كوبو شريفاً ، فقد ظنت ذات لحظة ان كل شيء قد انتهى، وانه سينام عندها. وكان السكير في اسفل ، تحت النافذة ، يصعد شكاية اكثر بحة من بهيمة ضائعة. وفي البعيد ، فان الكمان ذا الصوت العاطفي قد صمت .

وفي الايام التي تلت اراد كوبو ان يجعل جرفيز تصعد الى بيت اخته في شارع القطرة الذهبية . ولكن المرأة الشابة الكثيرة الخجـل ابدت خوفاً كبيراً من هذه الزيارة الى آل لوريللو . وكانت تلاحظ ان عامل الزنك يخاف في سريرته من اهل البيت . ومما لا شك فيه ان الامر لم يكن يتعلق بأخته التي ليست هي الكبرى. اما الأم كوبو فستوافق لانها لا تخالف ولدها. وكان آل لوريللو فقطهم الذين يربحون يومياً اكثر من عشرة فرنكات في العائلة ، وقد استمدوا من ذلك سلطة حقيقية . ولم يكن كوبو يجرؤ على الزواج دون قبولهم بزوجته قبل كل شيء .وقد قال لجرفيز موضحاً

– لقد حدثتهم عنك ، وهم يعرفون مشروعنا . يا الهي ! كم انت طفلة ! تعالي هذا المساء .. لقد نبهتك اليس كذلـك ؟ .. ستجدين اختي على شيء من التشدد . اما لوريللو فليس محبوباً دائمـا . انهم في اعماقهم مغتاظون جداً ، لأنني لن آكل عندهم اذا تزوجت ، وبذلك يقل توفيرهم . ولكن هـذا لا يؤثر شيئاً ، ولن يطردوك . افعلي ذلك لأجلي لانه ضروري جداً

وزاد هـذا الكلام من خوف جرفيز الا انها رضيت في مساء سبت وجاء كوبو لاصطحابها في الساعة الثامنة والنصف . وكانت قد ارتدت ملابسها: ثوب اسود مـع شال ذي سعوف صفراء من الموسلين الصوفي المطبوع ، وقبعة بيضاء مجهزة بمخرمات صغيرة . ومنذ ستة اسابيع وهي تشتغل ، فاقتصدت الفرنكات السبعة ثمن الشال ، والفرنكين والنصف ثمن القبعة ، اما الثوب فكان قديماً وقد نُظف وأُصلح

وقال لها كوبو بينما كانا يقومان بدورة في شارع بواسونيير

– انهم ينتظرونك. اوه! لقد بدأوا يعتادون فكرة رؤيتهم اياي متزوجا.

وفي هذا المساء يبدون لطفاء جداً . . ثم اذا كنت لم تري ابداً كيف تصنع السلاسل الذهبية ، فان النظر الى ذلك سيسليك . عندم طلبية مستعجلة لنهار الاثنين .

وسألت جرفيز

– أعندم ذهب ؟

– اعتقد ذلك . يوجد ذهب على الجدران ، وعلى الأرض ، وفي كل مكان .

الا انهما دخلا تحت الباب المستدير واجتازا الباحة . وكان آل لوريللو يسكنون في الدرج السادس ب . وصاح كوبو بها ضاحكا لتتمسك جيداً بالدرابزين وان لا تتركه . ورفعت رأسها ، وطرفت بجفونها ، وشاهدت البرج المرتفع الاجوف لقفص الدرج منارا بثلاثة مصابيح غاز ، كل واحد لطابقين ، والاخير في الاعلى يشبه نجمة ترتجف في سماء سوداء، بينما يلقي الاثنان الآخران اضواء طويلة مقطعة بشكل غريب على طول لولب الدرجات الذي لا ينتهي .

وقال عامل الزنك عندما وصل الى سطح درج الطابق الاول :

– يُشتمّ رائحة البصل من هذا . لقد اكلوا شورباء بالبصل دون شك

وبالفعل ، فان الدرج ب ، الرمادي ، القذر ، ذا الدرابزين والدرجات المغطاة بالشحوم ، والجدران المكشوطة التي تظهر الكلس ، كان لا يزال مليئاً برائحة مطبخ قوية . وعلى كل سطح درج ، كانت الاروقة تمتد داوية بالضجة ، وابواب تفتح ، مدهونة بالاصفر ، مسودة عند القفل من قذارة الايدي ؛ وعلى مستوى النافذة وعاء للماء القذر تفوح منه رطوبة آسنة تمتزج نتانتها بحرافة البصل المشوي . وكان يسمع من الطابق الارضي الى الطابق السادس جلبات اواني المائدة ، ومقالي صغيرة تخض بالماء ، وطناجر تحك بملاعق لتنظيفها. وفي الطابق الاول شاهدت جرفيز ، من فتحة باب مكتوب عليه كلمة « رسام » بحروف كبيرة ، رجلين جالسين امام قماشة مشمعة مرفوعة ، يتحدثان بغضب وسط دخان غليونيهما. والطابقان الثاني والثالث ، وهما اكثر هدوءاً، فقط كان يتفلت من شقوق الخشب إيقاع سرير طفل ، وبكاء مكتوم صادر عن ولد ،

وصوت ضخم لامرأة يجري مع تمتمة خفية لماء جـــار ، دون كلام واضح ؛ واستطاعت ان تقرأ اعلانات مسمرة تحمل اسماء: مدام غودرون ، منجّدة. وفي مكان اكثر بعـداً : السيد مادينيه ، مشغل ورق مقوى . وفي الطابق الرابـــع يتقاتلون : وقع اقدام تهتز منها الارض الخشبية، وقطع اثاث منقلبة ، وضوضاء مخيفة من التجديف والضربات ؛ وهذا لم يكن يمنع الجيران في الناحية المقابلة من لعب الورق . بينما الباب مفتوح لدخول الهواء . ولكنهـــا حين اصبحت في الطابق الخامس اضطرت الى التنفس العميق ، لم تكن معتـــادة على الصعود ، وهذا الجدار الذي يدور دائما ، وتلك المساكن المستشفة المتتابعة كـانت تحطم رأسها . وفضلاً عن ذلك فهناك عائلة كـانت تسد سطح الدرج ، الاب يغسل الصحون على موقد ترابي صغير بقرب وعاء الماء القذر ، بينا الام مسندة ظهرها الى الدرابزين وتنظف الطفل قبل ان تأخذه لينام . وكـان كوبو يشجع المرأة الشابة . لقد وصلا وحين اصبحا اخيراً في الطابق السادس التفت ليساعدهـا بابتسامة . اما هي ، فقد رفعت رأسها باحثة من اين جـــاءت شبكة اصوات كانت تسمعها منذ اول درجة، اصوات واضحة ،حادة ، مسيطرة على الضجات الاخرى . كـان ذلك تحت السطوح ، من عجوز قميئة تغني وهي تلبس الدمى بثلاثة عشر فلسا . ورأت جرفيز ايضا ، في اللحظة التي دخلت فيها فتاة كبيرة تحمل دلواً الى غرفة مجاورة، سريراً مفككا ورجلاً ذا اكمام قميص كان ينتظر، متمرغا وعيناه في الهواء ، وعلى الباب المقفل بطاقة زيارة مكتوبة باليد كانت تشير الى : « الآنسة كليمانس ، كوّاءة » . عندئـــذ ، وهي في اعلى ، محطمة الساقين ، قصيرة النفس، دفعها الفضول الى الانحناء فوق الدرابزين، كان مصباح الغاز الموجود في اسفل هو الذي يبدو الآن كالنجمة في اعماق بئر الطوابق الستة الضيق . والروائح ، وحياة البيت المفرطة المزمجرة كانت تصل اليهـــا بنسمة واحدة ، وتضرب وجهها القلق بنسمة حارة ، مجازفة هنا كالمجازفة على حافة هاوية :

وقال كوبو :

– اننا لم نصل . اوه ؟ يا لها من رحلة !..

وسار الى الشمال في ممشى طويـــل ، وانعطف مرتين ، الاولى الى الشمال والثانية الى اليمين وكان الممشى يمتد دائماً ويفترق ، محصوراً ، متشققاً ، قديماً ، ومناراً من بعيد الى بعيد بلهبة غاز دقيقة ! والابواب متشابهة الشكل ، على خط واحد كأبواب السجن او الدير ، وكلهـــا مفتوحة على مصاريعها ، وتستمر في اظهار ما بداخلها من الشقاء والشغل ، وتملأها امسيات حزيران الحارة بضباب أمغر . واخيراً وصلا الى طرف رواق مظلم تماماً

وقال عامل الزنك

– ها قد وصلنا انتبهي ! تمسكي بالحائط ، يوجد ثلاث درجات .

وخطت جرفيز عشر خطوات ايضاً في الظلام وبحـــذر . واستندت الى الجدار ، وعدّت الدرجات الثلاث الا ان كوبو في داخل الرواق دفع باباً دون ان يقرعه وانتشر ضوء قوي على البلاط . ودخلا .

انها غرفة مختنقة ، نوع من الممر الضيق الطويل الذي يبدو امتداداً للرواق نفسه . وارتفع في هـــذه اللحظة ستار صوفي زائل اللون بواسطة خيط ، وكان يقطع الممر الضيق الى نصفين . النصف الاول يحتوي على سرير دُفــع تحت زاوية سقف ذي غرف عالية تحته ، ووجاق من الحديد المصبوب لا يزال ساخناً من وقت الغداء ، وكرسيين ، ومنضدة ، وخزانة اضطروا الى نشر طنفها لتستطيــع الوقوف بين السرير والباب . وفي النصف الثاني يوجد المشغل : في الداخل كور ضيق مع منفخه ، والى اليمين ملزمة مثبتة في الحائط تحت رف تتدلى منـــه حدائد ، والى الشمال ، بقرب النافذة ، طاولة صغــيرة للعمـــل ، ملأى بالملاقط ومقصات المعادن، ومناشير مجهرية ، شحيمة وقذرة

وصرخ كوبو ، وقد تقدم حتى الستار الصوفي : هذا نحن !

ولكن الجواب لم يأته حالاً . اما جرفيز المتأثرة جداً ، والتي تحركهـــا على الخصوص تلك الفكرة بأنها ستدخل الى مكان مليء بالذهب، وقفت وراء العامل متلجلجة ، مجـــازفة بهزات رأس لتلقي التحية . والضوء المعظم ، والقنـــديل

المشتعل على منضدة العمل ، وجذوة من الفحم تلتهب في الكور ، كل هذا زاد اضطرابها الا انها رأت في النهاية مدام لوريللو ، وهي صغيرة ، صهباء ، قوية ، تسحب بكل قوة ، وبذراعيها القصيرين ، وبواسطة كاشة كبيرة ، خيطاً من المعدن الأسود نقلته الى ثقب في آلة تصنع بها الاسلاك ، مثبتة في الملزمة ولوريللو امام المنضدة ، وهو صغير القامة ايضاً ، ولكنه ذو كتفين اكثر هزالاً، وكان يشتغل برشاقة قرد، وبطرف ملاقطه، شغلاً كثير الدقة بحيث كان يضيع بين اصابعه المعقدة وكان الزوج هو الذي رفع رأسه اولاً ، رأس ذو شعر قليل جداً ، وذو شحوب اصفر كشحوب الشمع القديم ، طويل وصبور . وتمتم :

– آه ! هذا انت . حسناً ، حسناً نحن متعجلون كما تعلم لا تدخلوا الى المشغل فدخولكما يلبكنا . ابقيا في الغرفة .

وعاد الى عمله الدقيق . وعاد وجهه من جديد الى انعكاس النور الاخضر الصادر عن كرة ماء ، وكان القنديل من خلالها يلقي على عمله نوراً قوياً .

وصرخت مدام لوريللو بدورها

– خذ الكراسي ! انها تلك السيدة ، اليس كذلك ؟ حسناً جداً ، حسناً جداً !

وفتلت الخيط وحملته الى الكور ، وحركت الجمر بمروحة عريضة من خشب، ووضعته ليشوى من جديد قبل ان تدخله في آخر ثقوب الآلة التي تصنع بها الاسلاك .

وقدم كوبو الكرسيين ، واجلس جرفيز على حافة الستار وكانت الغرفة ضيقة جداً بحيث لم يستطع ان يجلس بجانبها . فجلس وراءها ، وانحنى على عنقها ليقدم لها ايضاحات عن العمل . اما المرأة الشابة ، وقد تضايقت من استقبال آل لوريللو الغريب ، ولم تكن مرتاحة لنظراتهم المنحرفة ، فقد كان في اذنيها طنين يمنعها من السماع . وقد رأت المرأة كبيرة جداً على سنواتها الثلاثين ، وهيئتها شرسة ، قذرة بشعرها الذي يشبه ذيل البقرة ، والمفتول على صدرتها

المفتقة اما الزوج الذي يكبرها بسنة فقط ، فقد بدا لها هرماً ، ذا شفاه رقيقة رديئة ، يضع اكام قميص ، وهو عاري القدمين في خف مطوي . اما ما وجمت له على الخصوص فهو صغر المشغل ، والجدران القذرة ، وحديد الادوات الاغبر ، وكل القذارة السوداء الموجودة هناك كأنها بضاعة من كل شيء عند بائع مسامير قديمة . وكان الحر شديداً . وكانت قطرات من العرق تتلألأ على وجه لوريللو المخضرّ ، بينما عزمت مدام لوريللو على سحب صدرتها ، وهي عارية الذراعين ، والقميص ملتصق بنهديها المتهدلين .

وسألت جرفيز بصوت منخفض :

– والذهب ؟

كانت نظراتها القلقة تتفحص الزوايا وتبحث في تلك الادران عن اللمعان الذي حلمت به .

ولكن كوبو أخذ يضحك وقال :

– الذهب ؟ انظري ، هوذا ، وهوذا ايضاً ، وهوذا على قدميك

وكان يشير بالتتابع الى الخيط المستدق الذي تشتغله اخته ، والى رزمة أخرى من الخيوط ، شبيهة بحزمة اشرطة حديدية معلقة في الجدار بالقرب من الملزمة ، ثم انتصب على قوائمه الاربع ، والتقط عن الأرض ، ومن تحت الاخشاب التي تغطي بلاط المشغل ، نفاية ، قشة تشبه رأس ابرة صدئة . وصاحت جرفيز معترضة ، من الممكن الا يكون ذهباً ذلك المعدن الاسود ، البشع كالحديد ! فاضطر الى عض النفاية ليريها فرضة اسنانه اللامعة . وعاد الى ايضاحاته اصحاب العمل يجهزون الذهب خيوطاً كلها مسبوكة ، والعمال يمررونه اولا بآلة صنع الاسلاك ليحصلوا على الكبر المطلوب ، معتنين بتسخينه خمس او ست مرات اثناء العملية لئلا يتكسر . اوه ! ذلك يحتاج الى قوة زند وعادة ! كانت اخته تمنع زوجها من لمس آلات صنع الاسلاك لانه كان يسعل . وكانت ذات ذراع ممتاز فقد رآها تسحب الذهب دقيقاً كالشعرة

الا ان لوريللو انتابه السعال فانطوى على كرسيه الصغير . وتكلم اثناء نوبة

السعال ، وقال بصوت مختنق ، دون ان يتطلع الى جرفيز كأنه يؤكد الأمر لنفسه فقط :

– انا اصنع السلسلة

واجبر كوبو جرفيز على النهوض . بامكانها الاقتراب فترى واكتفى صانع السلاسل بالتذمر . ولف الخيط الذي أعدته زوجته حول اسطوانة ، عصا فولاذية دقيقة جداً ، ثم استعمل المنشار بشكل خفيف بحيث قطع الخيط على طول الاسطوانة ، فشكلت كل لفة حلقة صغيرة ، وبعد ذلك لحمها كانت الحلقات موضوعة على قطعة ضخمة من فحم الحطب. وقد بللها بقطرة من البورق *borax* مأخوذة من قعر كأس مكسور الى جانبه. وبسرعة، حمّاها على القنديل تحت لهبة انبوب افقية . وحين اصبح لديه ما يقارب المئة حلقة عاد مرة اخرى الى عمله الدقيق ، مستنداً الى حافة القطعة الخشبية ، وهي طرف لوح صقله احتكاك يديه . وكان يطوي الحلقة بالملقط ، ويشد عليها من جهة ، ويدخلها في الحلقة العليا التي اتخذت مكانها قليلاً ، ويفتحها بواسطة مسمار دقيق ، وذلك بانتظام مستمر ، الحلقات تتلو الحلقات ، وبكثير من النشاط بحيث تمتد السلسلة شيئا فشيئاً تحت عيني جرفيز ، دون ان يسمح لها بالمتابعة والتفهم جيداً

وقال كوبو :

– هذه هي السلسلة. وهناك السلسلة الدقيقة التي تعلق في العنق، والحبل الخ.. ولكن هذه هي السلسلة ، ولوريللو لا يصنع سواها .

وضحك لوريللو ضحكة رضا، وصاح وهو مستمر في لقط الحلقات التي لا ترى بين اظافره السوداء :

– اسمع اذن يا كادي – كاسي ! لقد اجريت حساباً هذا الصباح . بدأت في سن الثانية عشرة ،اليس كذلك ؟ حسناً، هل تعرف اي طرف سلسلة اضطررت ان اصنع اليوم ؟

ورفع وجهه الشاب وطرف بجفونه المحمرة :

– ثمانية آلاف متر. اتسمع! ميلان! طرف سلسلة طولها ميلان! هناك ما تلف

به اعناق جميع نساء الحي .. وانت تعلم ان الطرف يمتد دائماً .آمل ان اسير من باريس الى فرساي .

وكانت جرفيز قد دارت لتجلس، وزالت اوهامها ، ورأت كل شيء بشماً ، الا انها ابتسمت ارضاء لآل لوريللو. اما ما يقلقها بشكل خاص فهو الصمت حول زواجها ، حول هذه القضية الضخمة بالنسبة اليها، ولولاهما لما اتت بالتأكيد. وقد استمر آل لوريللو بمعاملتها كفضولية مزعجة جـاء بها كوبو . واخيراً انعقد حديث ، ودار حول مستأجري البيت. وسألت مدام لوريللو اخاها اذا لم يكن قـد سمع وهو صاعد سكان الطابق الرابع وهم يتقاتلون . ان آل بينلر هؤلاء يقتتلون في جميع الايام؛ الزوج يعود الى البيت مخموراً كالخنزير ؛ والزوجة ايضاً ذات اخطاء كثيرة ، وتصرخ باشياء مقرفة . ثم جرى الحديث حول الرسام في الطابق الاول . ذلك السارق الكبير الجسور بوديكان ، ذلـك المـدعي الكثير الديون ، المدخن دائماً ، الصارخ دائماً مع الرفاق . امـا مشغل السيد مـادينيه للورق المقوى فيسير على رجـل واحدة ؛ وصاحب العمل سرح البارحة عاملين ايضاً ، واذا افلس فيكون خبزاً صلى عليه الكائن لأنه كان يأكل كل شيء، ويترك مؤخرات اولاده عارية . ومـدام غودرون تنجّد فرشها بشكل غريب : وقد وجدت نفسها حبلى ايضاً ، وهذا امر غير حسن في مثل سنها .وقد طرد المالك آل كوكيه في الطـابق الخامس لانهم مدينون له بثلاثة اقساط؛ ثم اصروا على اشعال وجـاقهم على البلاط ، حتى ان الآنسة ريمانجو ، العـجوز في الطـابق السادس ، وفي السبت الماضي وهي تنقل دماها، انزلت في الوقت المناسب لتمنع لنغرلو الصغير من احراق جسده كله . اما الآنسة كاليانس الكواءة فانها تتصرف كما يحلو لها ، ولكن ليس القول بمستطاع ، فهي تحب الحيوانات ، وتملك قلباً من ذهب . يا لها من خسارة ! فتاة جميلة مثلها تذهب مع جميع الرجـال ! لقد التقوا بها ذات ليلة على الرصيف ، وهـذا اكيد .

وقال لوريللو لزوجته وهو يعطيها طرف السلسلة التي كـان يشتغل بها منذ الفطور :

– امسكي . بامكانك تقويمها

واضاف بالحاح رجل لا يترك المزحة بسهولة

– اربعة اقدام ونصف بعد .. هذا يقربني من فرساي .

الا ان مدام لوريللو قومت السلسلة بعد ان حمتهـا من جديد بادخالها في آلة صنع الاسلاك للتضبيط ثم وضعتها بعد ذلـك في طنجرة صغيرة من النحاس ذات مسكة طويلة ، ملأى بماء جديد . وفكتها بواسطة نار الكور . اما جرفيز التي يدفعها كوبو فقد اضطرت الى متابعة هذه العملية الاخيرة . وحين انفكت السلسلة اصبحت ذات احمرار قاتم . لقد انتهت واصبحت جاهزة للتسليم .

وقال عامل الزنك موضحاً

– انهم يصنعون سلاسل باللون الابيض ايضاً . والصاقـــلات هن اللواتي يحككن هذه بقطعة قماش .

وشعرت جرفيز ان شجاعتها قد خارت ، فالحرارة المتزايدة كانت تخنقها . وقد ترك الباب مقفلاً لأن اقل تيار هوائي يصيب لوريللو بالزكام . وبما انهم لم يتحدثوا ابداً عن قضية زواجهما فقد أرادت الذهاب ، وشدت سترة كوبو شداً خفيفا . وفهم هذا . وكان قد أخذ يقلق ويتضايق من آفة الصمت تلك . وقال :

– حسنا . نحن ذاهبان . ونترككم تشتغلون .

وحرك رجليه برهة ، وانتظر ، آملا أن يسمع كلمة ، تلميحـاً ما ، واخيراً عزم على ان يبدأ الأمر بنفسه

– قل اذن يا لوريللو . اننا نعتمد عليك ستكون شاهداً لزوجتي

فرفع صانع السلاسل رأسه ، وتصنع الدهشة ؛ وضحك ، بينما تركـت زوجته آلات صنع الاسلاك ووقفت في منتصف المشغل وتمتم

– اذن فالأمر جدي هذا الكادي – كاسي المقدس ، لا يُعرف اذا كان يريد ان يضحك .

وقالت زوجته بدورها وهي تتصفح وجه جرفيز

– آه ! نعم. السيدةهي المقصودة. يا الهي! ليس عندنا نصيحة نسديها لكم. الا انها فكرة غريبة ، فكرة الزواج واخيراً ، اذا كان هذا يلائمكما . واذا لم ينجح الزواج فالأمر يتعلق بالزوجين نفسيهما ، هذا كل شيء . الا ان هذا لا ينجح في الغالب ، في الغالب ، في الغالب

وابطأ الصوت على هذه الكلمات الاخيرة . وهزت رأسها ، متنقلة من وجه المرأة الشابة ، الى يديها ، الى قدميها ، كأنها تريد تعريتها لترى حبوب بشرتها. وقد وجدتها افضل مما كانت تتوقع . واكملت بنبرة اكثر فرحاً :

– ان اخي حر ، ومما لا شك فيه ان العائلة كانت ترغب .. توضع المشاريع دائما ، ولكن الأمور تدور بشكل غريب انا اولا ، لا اريد ان اماحك . ولو جاءنا بأخيرة الاخيرات لقلت له « تزوجها ودعني بسلام » . الا انه لم يكن متضايقاً معنا هنا فهو سمين بما فيه الكفاية . ويبدو جيداً انه لم يكن يصوم . وشورباؤه الساخنة تقدم دائما في الموعد المعين .. قل اذن يا لوريللو ، الا تجد السيدة تشبه تيريز ، وانت تعرف جيدا تلك المرأة في البيت المقابل التي ماتت بمرض الصدر ؟

فأجاب صانع السلاسل

– نعم ، يوجد هيئة مزيفة .

– ولك ولدان ايتها السيدة . آه ! هذا مثلا ، قلته لأخي « لا افهم كيف تتزوج امرأة لها ولدان » يجب الا تغضبي اذا توخيت مصلحته ، وهذا طبيعي جدا .. لا تبدو هيئتك قوية .. لا تبدو هيئة السيدة قوية، اليس كذلك يا لوريللو ؟

– كلا ، كلا ، ليست قوية .

ولم يتكلما عن ساقها . ولكن جرفيز كانت تدرك من نظراتهما المنحرفة ، ومن العض على شفاهها انهما يلمّحان الى ذلك . وقد ظلت امامهما مضغوطة بشالها الرقيق ذي السموف الصفراء ، مجيبة بمقاطع وحيدة ، كأنها امام قضاة . ورآها كوبو تتألم فصرخ :

– ليس هذا كل شيء وما تقولونه لا شيء مـا دام الامر سيظل نفسه سيكون العرس نهارالسبت في ٢٩ تموز . وقد حسبت على الروزنامة . هـل هذا مناسب ؟ ايلائمكم ذلك ؟
فقالت اخته
– اوه ! هذا يلائمنا تماماً لست بحاجة لاستشارتنا.. لن امنع لوريللو من ان يكون شاهدا . اريد الحصول على السلام
وجرفيز ، المنخفضة الرأس ، غير عارفة بماذا تهتم ، كانت قد ادخلت طرف رجلها في معين من الالواح الخشبية المغطى بها بلاط المشغل ، وخوفا من ان تخل بشيء عند سحبها ، فانها انحنت ، وتلمست باليـــد . فأسرع لوريللو وقرّب القنديل ، وفحص اصابعها بحذر . وقال :
– يجب الاحتراس . فقطع الذهب الصغيرة تلصق بالاحذية وتذهب دون ان نعلم .
انها قضية عمل. واصحاب العمل لم يكونوا يمنحون ميلليغراما من النفايات. وأظهر قدم الارنب التي يفرشي بها الشذرات الذهبية الباقية على الخشبة، والجلد المبسوط على ركبتيه ُوضع هناك لتلقيمـــا . كانوا يكنسون المشغل مرتين في الاسبوع باعتناء . وكانوا يحتفظون بالاقذار ، ويحرقونها ، ويبحثون في الرمـاد الذي كانوا يجدون فيه ما بين خمسة وعشرين وثلاثين فرنكا ذهبيا بالشهر .
ولم تحول مدام لوريللو نظرها عن حذاء جرفيز ، وقـد تمتمت بابتسامة محببة
– ولكن لا سبيل الى الغضب . بامكان السيدة ان تنظر في نعليها .
وجلست جرفيز ، وقد صبغها الاحمرار، ورفعت قدمها وأرتهم أنه لا يوجد شيء . وكان كوبو قد فتح الباب صائحا: عمتم مساءً ! بصوت خشن، وناداها من الرواق . وعندئذ خرجت جرفيز بدورها بعد ان تلجلجت بعبـارة تهذيب تأمل فيها ان يلتقوا مرة ثانية وان يتفاهموا. ولكن آل لوريللو عادوا الى العمل في داخـل الجحر الاسود ، في المشغل ، حيث الكور الصغير كان يتألق كفحمة

اخيرة مبيضّة في حرارة الفرن المظيمة . وكانت المرأة تسحب خيطا جديداً ، وزاوية من قميصها منزلقة على الكتف ، وجلدها يكسوه الاحمرار من انعكاس الجمر ، وتنفخ عنقها عند بذل الجهد فتلتف العضلات شبيهة بالخيوط . والزوج المنحني على ألتي كرة الماء الأخضر بدأ بطرف سلسلة ، وكان يطوي الحلقة على الملقط ، ويشد عليها من ناحية ، ويدخلها في الحلقة العليا ، ويعود الى فتحها بواسطة مسمار دقيق ، باستمرار ، وبشكل آلي ، دون ان يضيع حركة ليمسح عرق وجهه .

وحين خرجت جرفيز من الاروقة على درج الطابق السادس لم تستطع ان تمسك هذه الكلمة ، والدموع في عينيها

– هذا لا يبشر بكثير من السعادة

وهز كوبو رأسه بغضب . فقد كافأه لوريللو هذا المساء . هل رؤي بخيل بهذا الشكل؟.. وظنه بأنهم سيأخذون له ثلاث حبات من غباره الذهبي ناشىء عن البخل البحت . هل كانت اخته تعتقد انه لن يتزوج ابداً ليجعلها تقتصد اربعة فلوس من طعامه ؟ واخيراً هذا سيحدث مهما كان الامر في ٢٩ تموز كانت سخريته منهم ليست قليلة .

ولكن جرفيز ، وهي تهبط الدرج ، كانت تشعر بقلبها يتضخم ، معذبة بخوف بهيم جعلها تجوس بقلق ظلال الدرابزين المتضخمة . كان الدرج في تلك الساعة ينام ، مقفرا ، منارا فقط بمصباح غاز من الطابق الثاني كانت لهبته الصغيرة تضع في اعماق ذلك البئر المظلم شيئا قليلا من نور سريع. ووراء الابواب المغلقة صمت كبير ، ونوم منهوك لعمال نائمين لدى خروجهم من تناول الطعام . الا ان ضحكة ملطفة كانت تخرج من غرفة الكوّاءة ، بينما تنزلق شبكة من النور من قفل الآنسة ريمانجو التي لا تزال تفصل بجلبة مقصات خفيفة ، اثوابا شفافة للدمى بثلاثة عشر فلسا . وفي اسفل ، عند مدام غودرون ، طفل يستمر في البكاء . واوعية الماء القذر تنفث نتانة قوية وسط السلام الكبير الاسود الصامت .

ثم ، في الباحة ، بينما كان كوبو يطلب الافريز بصوت مغن ، فان جرفيز التفتت ونظرت الى البيت مرة اخيرة لقد بدا انه كبر تحت سماء بدون قمر . وكأن الواجهات الرمادية نظفت من برصها وطليت بالظل ، وكانت تمتد وتصعد ، وهي اكثر عرياً ، مسطحة ، عارية من الخرق التي كانت تجفف نهاراً في الشمس . والنوافذ المقفلة تنام . وبعضها متناثر ، مضاء بقوة ، مفتوح الاعين ويبدو انه ينظر الى بعض الزوايا . وفوق كل مدخل بيت ، من اسفل الى اعلى ، وبالصف ، كان زجاج الادراج الستة ، الابيض ، بألق شاحب ، ينصب برجاً ضيقاً من النور وهناك شعاع قنديل ساقط من مشغل الورق المقوى في الطابق الثاني يضع على بلاط الباحة سحبة صفراء ثاقبة الظلمات التي تغرق مشاغل الطابق الارضي ومن اعماق هذه الظلمات ، في البعيد الرطب ، قطرات ماء ، رنانة وسط الصمت ، كانت تتساقط واحدة إثر واحدة من صنبور لم يقفل جيداً وحينئذ بدا لجرفيز ان البيت كان عليها ، ساحقاً ، جليدياً على كتفيها . انه دائماً خوفها الاحمق ، صبيانيات كانت تضحك منها على الاثر

وصرخ كوبو احذري .

ولكي تخرج اضطرت الى القفز فوق بركة كبيرة سالت من المصبغة وكانت البركة في ذلك النهار زرقاء ، بلون لازوردي عميق لسماء الصيف ، حيث كان قنديل البواب الليلي يضيء كالنجوم .

٣

لم تكن جرفيز تريد عرساً وما فائدة انفاق المال ؟ . ثم انها ظلت خجولة نوعاً ما ، وكان يبدو لها ان لا فائدة من نشر الزواج امـام الحي كله . ولكن كوبو كان يصيح: لا يمكن التزوج هكذا دون أكل شيء معاً. وكان يريدان (يكسر عين) الحي ! اوه ! شيء بسيط جداً ، دورة صغيرة للنزهة بعد الظهر ، بانتظار الذهاب لكسر عنق ارنب في اول مطعم يصادفه. دون موسيقى على اثر ذلك، ودون كلارينيت تهز السيدات اردافهن على نغمها . قضية تبادل النخاب فقط قبل ان يعود كل فرد لينام في بيته .

وعامل الزنك الفكه المازح جعل المرأة الشابة تقبل عندما اقسم الا يكون هناك لهو . وعليه ان يراقب الكؤوس ليمنع ضربات الشمس . وعندئـذ نظم وليمة يدفع كل شخص ما يصيبه من نفقاتها ، بمئة فلس عن الشخص الواحـد ، وذلك عند اوغست في « الطاحونة الفضية » ، شارع لاشابيل . وهذا بائع خمير صغير ، اثمانه متهاودة ، وعنده حـانة في مؤخرة دكانه ، تحت ثلاثة اشجار من الطلح في الباحة . وقبل كل شيء يكونون مرتاحين جـداً . وظل طوال عشرة ايام يغري المدعوين في بيت اختـــه ، شارع القطرة الذهبية : السيد مادينيه ، الآنسة ريمانجو ، مدام غودرون وزوجها. وانتهى اخيراً بأن جعل جرفيز تقبل برفيقين هما بيبي لاغرياد وميبوت :

ولا شك في ان ميبوت رفـــع مرفقه ولكن كان ذا شهية مضحكة بحيث كانوا يدعونه دائماً الى الولائم التي يجري الدفع فيها على اساس الاشخاص بسبب

رأس بائع الحساء عندما يرى هذا الثقب المقدس وهو يلتهم ليبراتة الأثنتي عشرة من الخبز .

والمرأة الشابة من ناحيتها وعدت بأن تأتي بمعلمتها مدام فوكونيه، وآل بوش، وهم اناس فضلاء جداً . واتخذت الترتيبات، وسوف يكونون خمسة عشر شخصاً على المائدة . وهذا يكفي فعندما يكثر الناس ينتهي الأمر دائماً بالمشاجرات.

الا ان كوبو لم يكن معه اي فلس . وكان ينوي التصرف كرجل نظيف دون ان يحاول الغطرسة ، فاستدان خمسين فرنكاً من معلمه . واشترى اولاً خاتم الزواج ، خاتم زواج ذهبي باثني عشر فرنكا حصل عليه لوريللو من الفبركة بتسعة فرنكات . وبعد ذلك اوصى لنفسه على معطف ، وبنطلون ، وصدرة عند خياط في شارع ميرا ودفع له فقط قسطا بقيمة خمسة وعشرين فرنكا ، وحذاؤه لامع ، وقبعته العالية لا تزال صالحة . وحين وضع جانبا الفرنكات العشرة المخصصة للوليمة ، وهي حصته التي يجب ان يدفعها ، وحصة جرفيز ، مع القول ان الولدين سيمران كعلاوة ، بقي له ستة فرنكات بالتمام والكمال ثمن قداس في مذبح الفقراء . ومن المؤكد انه لم يكن يحب الغربان ، ومما يفطر قلبه ان يحمل فرنكاته الستة الى اولئك الذين لا يصلحون لشيء والذين لم يكونوا بحاجة لتطرية حلاقيمهم ولكن زواجاً بدون قداس لا يكون زواجاً حقيقيا وذهب بنفسه الى الكنيسة ليساوم ، وبعد مضي ساعة اتفق مع كاهن هرم صغير القامة ، ذي جبة قذرة ، سارق كبائعة فواكه . وقد ساورته نفسه ان يغرز له القلنسوة في جمجمته . وسأله ساخراً اذا كان يوجد في دكانه قداس (لقطة) لم يصبه التلف كثيرا ، يستطيع زوجان فتيان الاستفادة منه . فدمدم الكاهن الهرم القصير القامة بان الله لن يجد اي مسرة في مباركة اتحادهما وانتهى بأن ترك له قداسه بخمسة فرنكات . ولقد وفر عشرين فلسا . وبقي له عشرون فلسا .

وجرفيز نفسها حرصت على ان تكون نافعة ، فقد رتبت امورها منذ تقرر الزواج واشتغلت ساعات زيادة ، وتوصلت الى توفير ثلاثين فرنكا . وكانت

كثيرة الرغبة برداء قصير من الحرير ، علق البائع عليه سعره البالغ ثلاثة عشر فرنكا ، في شارع فوبور ـ بواسونيير . فدفعت ثمنه . ثم اشترت بعشرة فرنكات من زوج غسالة مـاتت في بيت مدام فوكونيه ثوبا صوفيا ازرق ، اصلحته على قامتها . واشترت بالفرنكات السبعة الباقية زوجا من القفازات القطنية ، ووردة لقبعتها، وحذاء لولدها البكر كلود. ومن حسن الحظ كان لدى الصغيرين بلوزات صالحة . وقضت اربع ليال نظفت فيها كل شيء ومرت حتى على اصغر ثقوب في جواربها وقميصها

واخيراً في مساء الجمعة ، ليلة النهـــار العظيم ، كان على جرفيز وكوبو حين عودتهما من العمل ان يتعبا حتى الساعة الحادية عشرة . وقبل ان ينام كل منهما في بيته قضيا معا مدة ساعة في غرفة المرأة الشابة ، مسرورين جـداً لوصولهما الى نهاية هذا العائق . ورغم عزمهما على عدم تحطيم ضلوعهما في سبيل اهل الحي فقد انتهيا الى الاعتناء بالأمور ، والى العياء . وعندما تبادلا تحية المساء كانا ينامـان واقفين. ولكنهما مع ذلك زفرا زفرةانفراج. لقد انضبط كل شيء. وكان شاهدا كوبو همـا السيد مادينيه وبيبي لاغرياد ؛ اما جرفيز فكانت تعتمد على لوريللو وعلى بوش . وكان على الستة ان يذهبوا الى مكتب المختـــار دون ان يسحبوا وراءهم ذيلا من الناس وقـد صرحت شقيقتا الزوج انهما ستبقيان في بيتهما ، وحضورهما لن يكون ضرورياً . ولكن الأم كوبو وحدها اخذت تبكي قائلة بأنها ستسير قبلهم لتختبىء في احدى الزوايا،وقد وُعدت باصطحابها. اما مكان اجتماع الجماعة فقد تحدد في الساعة الواحدة في « الطاحونة الفضية ». ومن هناك يذهبون لتناول الطعام في سهل سان دنيس ، وسيركبون القطار ويعودون سيراً على الاقدام ، طوال الطريق الكبير وقد نال هذا الاتفـاق الاستحسان . ولم يكن هناك شيء كثير للأكل ، بل مزحة صغيرة ، شيء لطيف ولائق .

وصباح السبت ، بينما كان كوبو يرتدي ملابسه انتابـــه القلق امام قطعة النقد ذات العشرين فلساً . فقد خطر بباله ان عليه ، من باب اللياقة ، ان يقدم كأساً من النبيذ وقطعة من لحم الخنزير للشهود ، بانتظار الغداء وربما كانت هناك

نفقات أخرى غير متوقعة . ومن المؤكـد ان عشرين فلساً لا تكفي عندئذ ، وبعد ان اوصــــل كلود واتيين الى بيت مدام بوش التي يجب ان تأتي بهما مساء لتناول الطعام ، ركض الى شارع «القطرة الذهبية » وصعد بعزم ليستقرض عشرة فرنكات من لوريللو . وكان هــذا الامــر يخدش حلقومه لانه كان يتوقع كشرة صهره . اما هذا فقـــد تذمر وضحك بشكل حيوان رديء ، واخيراً اقرض القطمتين بمائة فلس . ولكن كوبو سمع اخته تقول بين اسنانها

– انها بداية حسنة !

كان موعـــد الزواج في مكتب المختار في الساعة العاشرة والنصف . وكان الطقس جميلا جداً ، شمس تصعق وتشوي الشوارع . وقد انفصل الزوجان والام والشهود الاربعة الى فرقتين حتى لا يراهم احد . وكانت جرفيز تسير في المقدمة مستندة الى ذراع لوريللو بينما السيد مادينيه يـقود الام كوبو ، ثم على الرصيف الآخر ، وعلى بعد عشرين خطوة ، كان يأتي كوبو وبوش وبيبيلاغرياد . وكان هؤلاء الثلاثة بالمعاطـف السوداء ، الظهـور مستديرة ، والاذرع تتأرجح ، وكان لبوش بنطلون اصفر ، وبيبيلاغرياد المـزرر حتى العنق بـــدون صدرة ، كان يظهر فقط طرفاً من ربطة عنق ملفوفة بشكل حـبل . والسيد مادينيه وحده كان يرتدي كسوة كاملة ، ذات ذيل مربع وكان المارة يقفون لرؤية هذا السيد وهو ينزه الام كـوبو الضخمة ، وهي بشال اخضر ، وقبعة سوداء ذات شرائط حمـراء . امـــا جرفيز ، الكثيرة العذوبة ، الكثيرة المرح بثـوبها الازرق ، والكتفان مشدودان تحت رداء قصير ضيق ، كانت تصغي بمجـــاراة لضحكات لوريللو الضائع في داخل سترة كبيرة بشكل كيس ، رغم الحر ، ومن وقت لآخر ، عند منعطفات الشوارع ، كانت تدير رأسها قليلا ، وتبتسم ابتسامة ناعمة لكوبو الذي كانت ملابسه مصدر ازعاج وهي تلمع في الشمس .

ومع انهم كانوا يسيرون متمهلين كثيراً فقد وصلوا الى مكتب المختـار قبل الوقت بنصف ساعة . وبمـــا ان المختار وصل متأخراً فقد جـاء دورهم نحو الساعة الحادية عشرة . وانتظروا على كراسي في احدى زوايا الغرفة ، متطلعين

الى السقف المرتفع والجدران غير المزخرفة ، متكلمين بصوت منخفض، مؤخرين مقاعدهم الى الوراء بداعي التهذيب كلما مر احد غلمان المكتب . الا انهم كانوا ينعتون المختار بالمتواني وذلــك بصوت منخفض . من المؤكد انه عند فتاته الشقراء ليدعك داء المفاصل ، ومن الممكن ايضاً انه التهم وشاحها. ولكن حين ظهر الحاكم نهضوا باحترام ، فأجلسهم . وحضروا عندئذ ثلاثـة عقود زواج ، وضاعوا في ثلاثة اعراس بورجوازية ، بعرائس يرتدين الملابس البيضاء، وفتيات صغيرات مضفورات الشعر ، وآنسات ذوات احزمة وردية اللون ومواكب لا تنتهي من سادة وسيدات بأفضل زينة وهيئة كما يجب ان تكون. ثم حين دعوهما كادا الا يتزوجا ، فبيبي لاغرياد قد اختفى وقــد وجده بوش في الساحة ، تحت ، يدخن غليونه . وكان في تلك الغرفة الضيقة اناس يسخرون من الذين ليس لديهم قفازات يضعونها تحت انوفهم وقــد انجزت الشكليات وقراءة القانون ، والاسئلة المطروحة ، وتوقيع الاوراق ، بسرعة جعلتهم يتطلعون الى بعضهم البعض معتقدين ان نصف الاحتفال قد سُرق منهم. وكانت جرفيز تسند منديلها الى شفتيها ، منذهلة ، منتفخة القلب . وكانت الام كوبو تبكي بدموع حارة . ووقع الجميع على السجل ، راسمين اسماءهم بحروف كبيرة عرجـاء ، ما عدا الزوج الذي يرسم صليباً لأنه لا يعرف الكتابة. ودفع كل منهما اربعة فلوس للفقراء . وعندما اعاد الغلام شهادة الزواج الى كوبو ، قرر هذا ان يخرج خمسة فلوس ايضا بعدما دفعته جرفيز من مرفقه .

وكانت المسافة حسنة بين مكتب المختار والكنيسة . وتناول الرجال الجعة على الطريق ، وتناولت الام كوبو وجرفيز شراب الكشمش مـع الماء . وكان عليهم ان يسيروا في شارع طويل تسقط عليه الشمس عمودياً دون اية شبكة من الظل . وكان خادم الكنيسة ينتظرهم في وسط الكنيسة الفارغة ، ثم دفعهم نحو كنيسة صغيرة وهو يسألهم بغضب اذا كان تأخيرهم ناجماً عن السخرية من الدين . وجاء كاهن بخطوات كبيرة ، ذو هيئة عابسة ووجـه شاحب من الجوع ، يشبه اكليركي برداء كهنوتي قــذر كان يركض بخطى صغيرة . واسرع في قداسه،

آ كلا العبارات اللاتينية ، ملتفتاً ، مطرقاً ، موسعاً ذراعيه ، متعجلا ، ملقياً نظرات منحرفة على الزوجين والشهود . والزوجان امام المذبح ، مرتبكان جداً ، لايعرفان متى يجب ان يركعا، وينهضا ،ويجلسا ، فقد كانا ينتظران اشارة من الاكليركي . ولكي يكون الشهود لائقين فقد ظلوا واقفين طوال الوقت ، بينما الام كوبو ، وقد غلبها الدمع ، كانت تبكي في كتاب القداس الذي استعارته من احدى الجارات . الا ان الساعة دقت معلنة وقت الظهر ، وتلي القداس الاخير ، وامتلأت الكنيسة بوقع اقدام خدم الكنيسة وجلبة المقاعد المعادة الى مكانها . فقد كان عليهم تهيئة المذبح لأحد الاعياد لأن مطرقة المنجدين قد سمعت وهي تسمر الطنافس . وفي داخل الكنيسة الضائعة ، في غبار مكنسة يكنس بها الخادم ، كان الكاهن ذو الهيئة العابسة يجيل بسرعة يديه الجافتين على رأس جرفيز و كوبو المنحنيين وقدبدا انه يوجد بينهما وسط رحلة انتقالية اثناء غياب الله، بين قداسين جديين . وحين وقع المدعوون للعرس من جديد على سجل ، في السكرسيتا ، وجدوا انفسهم في الشمس تحت المدخل ، وظلوا لحظة مبهوتين ، ضيقي النفس ، فقد جيء بهم ركضاً

وقال كوبو بضحكة قلقة

– ها قد انتهينا !

وكان يتمايل بشكل اخرق . ولم يجد هناك ما يضحك ، الا انه اضاف

– آه حسنا . فهذا لا يتعب . ينهون ذلك بلمحة عين .. كما هو الأمر عند طبيب الاسنان : ليس لديك الوقت لتقول اوف ! يزوجونك دون ألم .

وتمتم لوريللو ضاحكا

– نعم ، نعم ، العمل الجيد . يصنع في خمس دقائق ويدوم طول الحياة .

آه ! يا لهذا المسكين كاديه – كاسي . سر !

وربت الشهود الاربعة على كتف عامل الزنك الذي ادارلهم ظهره. واثناء ذلك كانت جرفيز تقبل الأم كوبو ، مبتسمة ، الا انها مبللة العينين . وكانت تجيب على كلام العجوز المتقطع :

– لا تخافي . سأفعل ما بوسعي . واذا انتهى ذلك الى شر فلن يكون الخطأ مني . كلا ، اني شديدة الرغبة في ان اكون سعيدة .. اخيراً ، انتهى الأمر ، اليس كذلك ؟ .. يجب علينا نحن الاثنين ان نبذل جهدنا

ثم ساروا رأساً الى « الطاحونة الفضية » . واخذ كوبو ذراع زوجته ، ومشيا بسرعة ، ضاحكين ، كأنهما محمولين ، على مسافة مئة خطوة امام الآخرين ، دون ان يريا البيوت ، ولا المارة ، ولا العربات . وكان ضجيج الضاحية الشديد يرن كالاجراس في آذانهما . وعندما وصلوا الى عند بائع الخمر طلب كوبو على الأثر ليترين من النبيذ ، وخبزاً ، وقطعا من لحم الخنزير في الغرفة الصغيرة المزججة الواقعة في الطابق الارضي ، دون صحون ولا حصير ، بل ببساطة لتناول طعام يسير ثم حين رأى ان بوش وبيبي لاغرياد يبديان شهية جدية جلب ليتراً ثالثا وقطعة جبن . وكانت الأم كوبو غير جائعة ، فهي متخمة بالطعام . اما جرفيز التي كادت تموت عطشا فقد شربت كؤوسا كبيرة من الماء الذي يكاد لا يبدو احمراره .

وقال كوبو الذي ذهب حالاً الى منضدة البائع حيث دفع اربعة فرنكات وخمسة فلوس :

– الأمر يعنيني .

الا ان الساعة كانت هي الواحدة . وقد وصل المدعوون . وظهرت اولا مدام فوكونيه ، وهي امرأة سمينة لا تزال جميلة ، وكانت ترتدي ثوبا لم يغسل ، ذا زهور مطبوعة ، مع ربطة عنق وردية وقبعة عليها كثير من الزهور . ثم جاء معا الآنسة ريمانجو ، الكثيرة النحافة في الثوب الابدي الاسود الذي يبدو انها تحتفظ به للنوم ايضا ، والزوجان غودرون ، الزوج بعدم اناقة بهيمة ، جاعلا سترته تقضقض لدى اقل حركة ، والزوجة ضخمة ، باسطة بطنها كامرأة حبلى ، وتنورتها البنفسجية تزيد ايضا من عرض استدارتها واوضح كوبو بأن لا لزوم لانتظار ميبوت ، فعلى هذا الرفيق ان يلاقي موكب العرس على طريق سان دنيس .

وهتفت مدام ليرا وهي داخلة

– آه ! سيداهمنا وابل جميل من المطر ! . . وسيكون هذا مضحكا .

ودعت الناس الى باب بائـــع الخمر ليروا الغيوم ، كانت زوبعة بسواد الحبر تصعد بسرعة في جنوب باريس . ومدام ليرا ، وهي الابنة الكبرى لآل كوبو، كانت كبيرة ، جافة ، مسترجلة ، تتكلم من الانف ، محزومة في ثوب بلون البرغوث ، عريض جداً، حيث الاهداب الطويلة تجعلها تشبه كلبا هزيلا خارجا من الماء . وكانت تلعب بمظلة كما تلعب بعصا . وعندما قبّلت جرفيز تابعت القول :

– ليس لديـــك فكرة ، يتلقى المرء صفعة في الشارع .. حتى كأن ناراً قذفت في وجهك .

وعندئذ صرح الجميــــع انهم شعروا بالعاصفة منذ وقت طويل والسيد مادينيه عند خروجه من الكنيسة كان قد رأى ذلك. وحدّث لوريللو ان مسامير رجليه منعته من النوم ابتداء من الساعة الثالثة صباحاً. الا ان ذلك لا يمكن ان ينتهي بشكل آخر ، وقد مضت ثلاثة ايام كانت بالحقيقة حارة جداً

وردد كوبو الواقف على الباب وهو يتفحص السماء بنظرة قلقة

– يمكن ان ينهمر المطر . اننا لا ننتظر سوى شقيقتي، وبامكاننا الذهاب اذا لم تأت .

وبالفعل كانت مدام لوريللو متأخرة . وقد مرت ليرا من عندها لتأتي بها ولكن لما وجدتها لا تزال تضع مشدّها تقاتلتا، واضافت الارملة الكبيرة هامسة في اذن اخيها

– تركتها هناك . انها غاضبة وسترى اي رأس لها !

واضطر جماعة العرس الى الانتظار ربـــع ساعة ايضاً ، محركين ارجلهم في دكان بائع الخمر ، متدافعين بالمرفق ، محشورين بين الرجال الداخلين ليشربوا كأساً صغيراً على منضدة البائع. واحياناً كان بوش، او مدام فوكونيه، او بيبي لاغرياد، ينفصلون ، ويتقدمون الى حافة الرصيف وعيونهم في الهواء . ولم يحدث شيء .

ومال النهار ، وكنست التراب نسمات ريح ، وكانت تجترف زوابع صغيرة من الغبار الابيض عند اول رعدة ورسمت الآنسة ريمانجـو اشارة الصليب ، واتجهت جميع الانظار بقلق الى الـكوة فوق المرآة لقد كانت الساعة هـي الثانية إلا عشرين دقيقة .

وصرح كوبو !

– هيا ! ها هي الملائكة تبكي

وكنست زخة من المطر الارض ، كان هناك نساء يهربن ممسكـات تنوراتهن باليدين . ووصلت اخيراً مدام لوريللو تحت هذه الزخة ، ضيقة النفس ، حانقة ، ضاربة على العتبة مظلتها التي أبت ان تقفل ، وقالت متلجلجة

– ارأيتم كهذا ؟ ادركني المطر على الباب تماماً ، وقد ساورتني الرغبة في ان اصعد واخلع ملابسي ولو فعلت لأحسنت صنعا .. آه ! العروس جميلة ! كنت اقول انني اريـد تأجيل كل شيء الى السبت المقبل. وهي تمطر الآن لأن احداً لم يصغ الي ! لا بأس ! لا بأس ولتنشق السماء !

وحاول كوبو تهدئتها . ولكنها ردته . لن يكون هو الذي سيدفع ثمن ثوبها لو خسرته كان ثوبها من الحرير الاسود تكاد تختنق فيه ، والنصف الاعلى منه كثير الضيق يشد على العرى ، ويكـاد يقطعها عند الكتفين ، والتنورة مفصلة بشكل غمد ، تشد على الفخدين بقوة بحيث يتحتم عليها ان تمشي بخطى قصيرة جداً .الا ان سيدات الجماعة كن ينظرن اليها، مضمومات الشفاه ، متأثرات من زينتها . ولم تظهر انها رأت جرفيز الجالسة الى جانب الام كوبو . ونادت لوريللو وطلبت منديله ، ثم مسحت في احدى زوايا الدكان ، وباعتناء كبير ، قطرات المطر المتدحرجة على الحرير واحدة واحدة

وانتهت فجأة دفعة المطر ، وكان النهار يميل الى المغيب ، ويكـاد الوقت يصبح ليلاً ، ليلا ضاربا الى السواد تجتـازه بروق عريضة وكان بيبي لاغرياد يردد ضاحكاً بأن من المؤكد انها ستمطر خوارنة . وعندئذ انفجرت العاصفة بعنف متناهٍ . وسقط المطر طوال نصف ساعة كـأنه مصبوب من الدلاء ،

وزمجرت الصاعقة دون توقف . وكان الرجال الجالسون على الباب يتأملون قناع الوابل الرمادي ، وكبرت السواقي ، وتصاعد غبار الماء الطائر من هيجان البرك . وكانت النساء جالسات ، مذعورات ، وايديهن على عيونهن . وانقطعن عن الحديث وانقبضت حلا قيمهن قليلا . وجازف بوش بمزحة حول الرعد قائلا ان القديس بطرس يعطس في السماء ولكن احـــداً لم يضحك . وحين باعدت الصاعقة بين ضرباتها وضاعت في البعيد ، بدأو يتململون، ويغضبون من العاصفة، مجدفين ، رافعين قبضاتهم نحو السحب . والآن اصبحت السماء بلون الرمـــاد ، وكان يتساقط مطر ناعم بشكل لا ينتهي .

وصرخت مدام لوريللو

– مضت الساعة الثانية ومع ذلك فلا نستطيع النوم هنا !

وتحدثت الآنسة ريمـــا نجو عن الذهاب الى الحقول مهما كان الأمر، ولو اضطروا الى التوقف في خندق التحصينات ، وصرخ الجميع ان الطريق يجب ان تكون جميلة الا انه لا يمكن الجلوس على العشب؛ الا ان الامر لم يبد انه انتهى ومن الممكن عودة المطر . وتمتم كوبو الذي كان يتبع بعينيه عاملا مغمساً بالماء يسير بهدوء تحت المطر

– لو ينتظرنا هذا الحيوان ميبوت علىطريق سان دنيس فانه لن يلتقط اي شماع شمسي .

وهذا قد اثار الضحك . ولكن المزاج السيء ازداد ، واصبح في النهـــاية مغيظاً عليهم ان يقرروا امراً . وممـــا لا شك فيه انهم لن يظلوا هكذا يتطلعون الى عيون بعضهم البعض الى ان يحين موعد الطعـــام . وقد تجوفت ادمغتهم طوال ربع ساعة ، وامام وابل المطر العنيد . واقترح بيبي لاغرياد ان يلعبوا بالورق ، اما بوش ، وهو ذو مزاج فاجر مداهن ، فكـــان يعرف لعبة صغيرة غريبة، لعبة المعرّف ، وتكلمت مدام غودرون عن الذهاب لأ كل قرص بالبصل في شارع كلينيانكور ، وتمنت مدام ليرا ان يحكوا حكايات ، امـــا غودرون فلم يكن يضجر ، وقد وجد نفسه هنا على خير حـــال ، الا انه طلب

فقط الذهاب حالاً الى المائدة . وكانوا يتناقشون لدى كل اقتراح ويغضبون
هذه غباوة ، هذه ستجعل الجميع ينامون ، انهم يحسبونهم صبياناً . ثم لما كان
لوريللو يريد ان يقول كلمته ، فقد وجد شيئا اكثر بساطة ، نزهة في الشوارع
الخارجية حتى بير – لاشيز ، حيث يمكنهم مشاهدة قبر هيلويز وأبيلار اذا كان
لديهم الوقت الكافي ، الا ان مدام لوريللو لم تستطع ضبط نفسها فانفجرت
وارادت الذهاب ، واليكم ما فعلت ! هل كانوا يسخرون من الناس ؟ لقد
ارتدت ملابسها ، وتلقت المطر ، وذلك لتسجن عند بائع خمر ! كلا ، كلا ، لقد
لقيت ما كفاها من عرس كهذا وتفضّل بيتها. واضطر كوبو ولوريللو ان يسدا
الباب . فرددت

– حيدا من هنا ! .. اقول لكما انني سأذهب !

ونجح زوجها في تهدئتها واقترب كوبو من جرفيز ، الهادئة دائما في زاويتها
وهي تتحدث مع حماتها ومع مدام فوكونيه ، وقال وهو لا يجرؤ بعد على
مخاطبتها بصيغة المفرد :

ولكنك لم تقترحي شيئا بعد ، انت [١]

فأجابت ضاحكة

– اوه اكل ما تريدون . انا لست صعبة . الخروج وعدم الخروج سيان
عندي اشعر انني بخير ولا اطلب اكثر من ذلك .

كان وجهها بالفعل مضاء بسرور هادىء. ومنذ كان المدعوون هناك كانت
تكلم كلا منهم بصوت منخفض قليلا ومتأثر ، وبهيئة عاقلة دون ان تتدخل
بالمجادلة . واثناء العاصفة ظلت ثابتة النظرات ، متطلعة الى البروق ، كأنها ترى
اشياء خطيرة ، بعيدا جدا ، في المستقبل في تلك الومضات المفاجئة .

الا ان السيد مادينيه لم يكن قد اقترح شيئا بعد . فقد كان مستندا الى

---

١ ـ يقصد المؤلف انه لا يزال يستعمل كلمة *Vous* بدلا من *Tu* في مخاطبتها ، وهذا النسق
لا وجود له في العربية ولذلك جاءت الجملة بصيغة المفرد .

منضدة البائع ، واهداب ثيابه متباعدة ، محتفظاً بأهميته كرب عمل وظل يبصق طويلاً ويدير عينيه الكبيرتين ، وقال

– يا إلهي ! يمكن الذهاب الى المتحف

وداعب ذقنه ، مستشيراً الجماعة وهو يطرف بجفونه

– هناك أثريات ، وصور ، ولوحات ، كدسة من الاشياء وهذا مفيد جداً ... يمكن انكم لا تعرفون ذلك اوه ! انها اشياء يجب ان تُرى ولو مرة واحدة على الاقل .

وتطلع بعضهم ببعض ، وسبروا اغوار بعضهم بعضاً كلا ، فجرفيز لم تكن تعرف ذلك ؛ ومدام فوكونيه ايضاً ، وبوش ، والآخرون ، اما كوبو فيعتقد انه صعد الى المتحف في احد أيام الآحاد ولكنه لا يتذكر شيئاً . ومع ذلك فقد ترددوا عندما رأت مدام لوريللو ان العرض ملائم جداً ولائق لأن اهمية السيد مادينيه كانت تحدث تأثيراً كبيراً عليها . وما داموا قد ضحوا بالنهار، وارتدوا ملابسهم ، فالأمر يستحق القيام بزيارة تزيد معارفهم . واستصوب الجميع . وبما ان المطر لا يزال يتساقط قليلا فقد استعاروا من بائع الخمر مظـــلات ، وهي مظلات قديمة ، زرقاء ، وخضراء ، وكستنائية ، نسيها الزبائن ، وساروا الى المتحف .

وداروا الى اليمين ، وهبطوا الى باريس من ضاحيــة سان دنيس وكان كوبو وجرفيز يسيران من جديد في المقدمة ، راكضين ، متقدمين الآخرين ، واعطى السيد مادينيه ذراعه لمدام لوريللو وظلت الام كوبو عند بائع الخمر بسبب ساقيها ثم جاء لوريللو ومدام ليرا ، وبوش ومدام فوكونيه ، وبيبي لاغرياد والآنسة ريمانجو واخيراً الزوجان غودرون لقد كانوااثني عشر ، ويشكلون صفاً جميلا على الرصيف .

وقالت مدام لوريللو موضحة للسيد مادينيه

– اوه ! نحن لا دخل لنا في هذا الامر ، واقسم لك . ولا نعرف من أين اخذهـــا ، او بالاحرى لا نعرف الا القليل ؛ ولكن يجب الا نتكلم ، اليس

كذلك ؟ .. وقد اضطر زوجي الى شراء خاتم الخطوبة . وفي هـذا الصباح ، عنـد القيام من النوم ، اضطر ان يقـرضها عشرة فرنكات . وبـدونها لم يكن ليحدث شيء .. زوجة لا تأتي باحد من اقاربها الى عرسها ! .. تقول ان لـها اختاً في باريس تبيع لحم الخنزير . لماذا لا تدعوها اذن ؟

وقطعت كلامها لتشير الى جرفيز الذي زاد انحدار الرصيف من عرجها

– انظر اليها ! اذا كان مسموحاً ! أوه ! العرجاء !

وكلمة « عـرجاء » سرت في الجماعة . وكان لوريللو يضحك ويقول ان من اللازم ان تـدعى هكذا . ولكن مدام فوكونيه اخذت جـانب الدفاع عن جـرفيز انهم على خـطأ في السخرية منها ، فهي نظيفة كالفلس وتقوم بعملها بكبرياء اذا لزم الامر ومدام ليرا الملأى دائماً بالتلميحات الفاجرة كانت تدعو ساق الصغيرة « اسطوانة الحب » واضافت ان كثيراً من الرجال يحبون ذلك دون ان تريد زيادة الايضاح

ونفذوا الى شارع سان دنيس واجتازوا الشارع العريض ، وانتظروا لحظة امام موج العربات ؛ ثم جازفوا نحو المنعطف الذي حـولته العاصفة الى مستنقع من الوحل الجاري وعاد وابل المطر ، ففتحوا المظلات ؛ وكان النساء يشمرن اثوابهن تحت المظلات الكبيرة التي تستحق الرثاء ، والمتأرجحة في ايدي الرجال ، وتباعدوا في الوحل منتشرين مـن رصيف الى آخـر . وعندئذ صرخ اثنان من الزعران بسبب هـذه الحفلة التنكرية ؛ وركض بعض المتنزهين ؛ ووقف بعض اصحاب الدكاكين لاهين وراء واجهاتهم الزجاجية . وبين قرقرة الجمهور وتحركه على ارض الشارع الرمـادية المبللة ، كان الازواج السائرون في الموكب يشكلون بقعاً بنفسجية ، ثوب جرفيز الازرق ، وثوب مـدام فوكـونيه القذر ذو الزهور المطبوعة ، وبنطلون بوش الاصفر ؛ وتشدد اناس في ثـياب الاحـد كان يضفي سخرية عيـد المساخر على معطف كوبو اللامع . وبزة السيد مادينيه المربعة ، بينما زينة مدام لوريللو الجميلة ، واهداب ثوب مـدام لـيرا ، وتنورات الآنسة ريمانجو الرثة ، كانت تمـزج الانماط (الموض) وتجذب الى الصف ملابس الفقراء

العتيقة . ولكن قبعات الرجال هي التي كانت تسر بوجه خاص ، قبعات قديمة محفوظة ، كدر لونها ظلام الخزانة ، ذات اشكال ملأى بما يضحك ، عالية ، واسعة ، على شكل القرن ، وأجنحة غير عادية ، مشمرة ، مسطحة ، كثيرة الاتساع وكثيرة الضيق . وازدادت الابتسامات عندما تقدمت مدام غودرون المنجّدة في النهاية بثوبها البنفسجي لتسد المشهد ببطنها كامرأة حبلى، ذلك البطن الذي كانت تحمله ضخماً ، بارزاً الى الامام . الا ان العروس لم تسرع في سيرها، طفلة طيبة ، سعيدة لان الناس ينظرون إليها ، لاهية بالممازحات .

وصرخ احد الزعران مشيراً الى مدام غودرون

– اليكم العروس ! آه ! يا للبؤس ! لقد التهمت مظلة قاسية !

وانفجر الناس بالضحك وقال بيبي لاغرياد ، ملتفتاً ، بأن الولد اجاد بقوله هذا. وكانت عاملة التنجيد هي الاكثر ضحكاً ، مظهرة نفسها ، متفاخرة؛ ليس فى هذا ما يعيب ، بالعكس ، لقد كان هناك اكثر من امرأة تنظر اليها وهي مارة وتريد ان تكون مثلها .

ودخلوا في شارع كليري . ثم ساروا في شارع دي ميل ووقفوا في ساحة النصر ، فقد انحل بريم حذاء العروس الايسر ؛ وبما انها كانت تعيد ربطه عند قاعدة تمثال لويس الرابع عشر ، فقد احتشد الازواج وراءها ، منتظرين ، موجهين مزاحهم الى طرف ربلة ساقها التي كشفت عنها . واخيراً ، بعد ان هبطوا شارع كروا دي بتي شان ، وصلوا الى اللوفر .

وطلب السيد مادينيه بأدب ان يسير على رأس الموكب .

لقد كان المكان كبيراً ويخشى من الضياع فيه ؛ وهو يعرف الاماكن الجميلة لانه كان يأتي اليها في اغلب الاحيان مع احد الفنانين ، وهو غلام كثير الذكاء ، كانت مؤسسة كبيرة لصنع الكرتون تشتري رسومه لتضعها على العلب وحين دخلت العروس المتحف الاشوري شعرت بارتعاشة خفيفة . لم يكن الطقس حاراً ؛ والقاعة يمكن ان تشكل قبواً عظيماً . وتقدم الازواج متمهلين ، رافعي الذقون ، وجفونهم تطرف ، بين التماثيل الحجرية الضخمة ، وآلهة الرخام الاسود

الصامتة في تشددها الكهنوتي ، والحيوانات المسيخة، نصفها هررة ونصفها نساء، بوجوه ميتة ، وأنف مستدق ، وشفاه منتفخة . وقد رأوا كل ذلـــك كثير البشاعة . والناس اليوم يشتغلون الحجارة بشكل افضل. وقد ادهشتهم الكتابة بالحروف الفينيقية . هذا ليس ممكناً ، فما من احد قرأ هذا الكلام الغــامض . ولكن السيد مادينيه الذي كان آنذاك على سطح الدرج الأول مع مدام لوريللو نادام ، وصرخ تحت القناطر

– تعالوا اذن ، هذه الآلات ليست شيئاً ان ما يجب ان نراه موجود في الطابق الاول .

وردهم الى الوقار عري الدرج الصارم . وهناك حاجب انيق بصدرة حمراء ، وثيابه الرسمية مزينة بالذهب ، كان يبدو انه ينتظرهم على سطح الدرج . وقــد ضاعف ذلك تأثرهم. ودخلوا الى الرواق الفرنسي بكل احترام، سائرين بهدوء جهد المستطاع .

وعندئذ تبعوا صف الصالونات الصغيرة بدون توقف ، وعيونهم ملأى بذهب الاطارات ، مشاهدين مرور الصور التي كانت كثيرة العدد فلا ترى جيداً. وكان يلزمهم ساعة امام كل واحدة منها اذا ارادوا فهمها. وكم هناك من لوحات! .. فذلك لا ينتهي . وكان يجب ان يحصلوا على بعض منها لاجل المال . ثم اوقفهم السيد مادينيه في النهاية امام لوحة « طوف لاميدوز » وشرح لهم موضوعهـا . وكان الجميع صامتين مذهولين ، جامدين . وعندما عادوا الى السير لخص بوش الشعور العام .

وفي رواق ابولون فــأن خشبية الأرض على الخصوص ادهشتهم . خشبية لامعة ، جلية كمرآة، تنعكس عليها قوائم المقاعد. وكانت الآنسة ريمانجو تطبق عينيها لانها اعتقدت انها تسير على الماء. وصاحوا بمدام غودرون ان تضع حذاءها على الارض بسبب وضعيتها. وكان السيد مادينيه يريد ان يريهم تذهيبات السقف ورسومه ؛ ولكن هذا كان يكسر اعناقهم ولم يكونوا يميزون شيئاً . وعندئذ، وقبل ان يدخلوا الى البهو المربع ، دلهم باشارة الى نافذة وقال

ـ هذه هي الشرفة التي اطلق منها شارل التاسع الرصاص على الشعب .

وكان يراقب مؤخرة الموكب وبإشارة ، امرهم بالوقوف في وسط البهو المربع. وتمتم بصوت منخفض كأنه في كنيسة قائلاً انه لا يوجد هنا سوى الطرف الفنية . واتموا دورة البهو . وسألت جرفيز عن موضوع « عرس قانا » وكان من الحماقة الا تكتب المواضيع على الاطارات . وتوقف كوبو امام الجوكندة التي رأى فيها شبهاً من احدى عماته . وكان بوش وبيبي لاغرياد يضحكان ، متطلعين بزاوية عيونهما الى النساء العاريات ، وقد سبب لهما فخذ انتيوب على الخصوص تأثراً في القلب ، وفي الطرف فان الزوجين غودرون ، الرجل مفتوح الفم ، والمرأة تضع يديها على بطنها ، ظلا امام عذراء موريللو فاغري الفم ، رقيقي القلب ، منذهلين

وانتهت دورة البهو فأراد السيد مادينيه ان يبدأ من جديد ؛ فالأمر يستحق الجهد . وكان يهتم كثيرا بمدام لوريللو بسبب ثوبها الحريري ؛ وفي كل مرة تقاطعه كان يجيب بوقار وبكثير من رباطة الجأش . وبما انها اهتمت كثيرا بعشيقة تيتيان إذ وجدت شعرها الاصفر شبيها بشعرها هي ، فقد قدمها اليها بصفتها الزوجة الجميلة لبائع الآلات الحديدية ، عشيقة هنري الرابع ، والتي مثلوا عنها مسرحية في امبيغو

ثم اندفعوا في الرواق الطويل حيث المدارس الايطالية والفلمنكية . لوحات ايضا ، ولوحات دائماً ، قديسون ، رجال ونساء بوجوه غير مفهومة ، مناظر طبيعية سوداء ، حيوانات اصبحت صفراء ، اختلاط اناس واشياء حيث فوضى الألوان بدأت تسبب لهم الصداع ولم يكن السيد مادينيه يتكلم ، بل كان يقود متمهلا ذلك الموكب الذي كان يتبعه بنظام ، بأعناق ملتوية ، وعيون في الهواء . انها عصور من الفن كانت تمر امام جهلهم المنذهل ، جفاف البدائيين الناعم ، بهاء البنادقة ، حياة الضوء الخصبة الجميلة عند الهولنديين اما ما أثار اهتمامهم اكثر من غيره فهم ناسخو الصور بمساندهم المنصوبة بين الناس ، راسمين بدون ازعاج عجوزا صاعدة على سلّم كبير ، مجيلين فرشاة لطلاء الجدران في

سماء لدنة لقماشة واسعة ، ضاربينها بطريقة خـــاصة . وشيئا فشيئا انتشرت اشاعــة وجود موكب عرس يزور اللوفر ؛ وركض مصورون تشق افواههم ضحكة ؛ وكان فضوليون يجلسون في المقدمــة على مقــاعد ليشاهدوا الموكب بسهولة ؛ بينما الحراس بشفاههم المضمومة توقفوا عن قول بعض النكات، وموكب العرس الذي اصبح تعبا ، فـاقدا احترامه ، كان يجر احذيته ذات المسامير ، ضاربا باعقابه على الخشبيات الرنانة كوقع ارجل قطيع متفلت ، متروك وسط النظافة العارية للغرف .

وكان السيد مادينيه صامتا ليوفر التاثير . وقـــد سار رأسا الى لوحة « الكرمس » لروبنس . وهنـاك لم يقل شيئا ، بل اكتفى بالاشارة الى اللوحة بلمحة مرحة. وعندما وضعت النساء انوفهن على الرسم اطلقن صرخات صغيرة، ثم انثنين محمرات الوجوه . وامسك الرجال بهن مازحين ، باحثين عن التفاصيل البذيئة

وردد بوش

ـ انظروا اذن ! هذا يستحق المال ! اليكم واحــدا يتقيــأ من افراطه في الأكل والشرب . وهذا ، انه يسقي الهندباء البرية وهذا اوه ! هذا آه .. انهم رائعون هنا

وقال مادينيه وقد انتشى بنجاحه

ـ هيا بنا ، لم يبق في هذه الجهة ما يستحق النظر

وعادوا أدراجهم ، واجتازوا من جديــد الصالون المربع ورواق ابولون . وأخذت مدام ليرا والآنسة ريمانجو تشتكيان معلنتين ان سيقانهما دخلت في اجسادهن . ولكن صانــــع الورق المقوى كان يريد ان يري لوريللو الجواهر القديمة . وكانت هذه موجودة جانباً في داخل غرفة صغيرة يستطيع السير اليها وهو مغمض العينين ، إلا أنه اخطأ وجعل موكب العرس يتوه في سبع أو ثمان غرف مقفرة ، باردة ، مجهزة فقط بواجهات زجاجية كالحة ُصفّت فيهـا كمية لا تحصى من الأواني المحطمة والتماثيل الشديدة القبح .

وكانوا يرتعشون ، ويضجرون بشدة . ولما كانوا يبحثون عن باب فقد سقطوا على الرسوم . وكان ركض جديد طويل ؛ والرسوم لم تكن تنتهي ، والصالونات تلي الصالونات دون أي شيء غريب ، مع طلحيات ورق سيئة الخط تحت زجاج ، مقابل الجدران والسيد مادينيه وقد تاه ، لم يشأ الاعتراف بأنه ضل ، فدخل درجاً وجعلهم يصعدون طابقاً . وكانوا يطوفون هذه المرة وسط متحف البحرية ، بين نماذج آلات ، ومدافع ، ومخططات ناتئة ، ومراكب كبيرة كالدمى . واستقبلهم درج آخر ، بعيد جداً بعد ربع ساعة من السير . وعندما نزلوه وجدوا انفسهم أمام الرسوم . وعندئذ اجتاحهم اليأس وطافوا القاعات كيفما اتفق . وكان الازواج يسيرون دائماً بالصف ويتبعون السيد مادينيه الذي كان يمسح جبهته ، مضطرباً ، ساخطاً على الادارة ، متهماً إياها بأنها غيرت أماكن الأبواب . وكان الحراس والزائرون يتطلعون مندهشين الى الموكب وهو يمر أمامهم . وبأقل من عشرين دقيقة شوهد من جديد في القاعة المربعة ، وفي الرواق الفرنسي ، على طول الواجهات الزجاجية حيث ينام آلهة الشرق الصغار . انه لن يخرج ابداً واحدث الموكب ضجة ضخمة ، وركض محطم السيقان ، خامد الهمة ، تاركاً اثناء ركضه بطن مدام غودرون وراءه .

وصاحت أصوات الحرس القوية :

– سنقفل ! سنقفل !

وكادوا يظلون مسجونين . واحتاج الأمر الى حارس يسير على رأسهم ليقودهم حتى الباب . وفي ساحة اللوفر ، عندما استعادوا مظلاتهم من غرفة الملابس ، تنفسوا الصعداء . واستعاد السيد مادينيه رباطة جأشه ؛ لقد اخطأ في عدم دورانه الى الشمال ؛ وقد تأكد الآن ان المجوهرات موجودة في ناحية اليسار . إلا ان الجميع كانوا يتظاهرون بالسرور لمشاهدتهم ذلك .

ودقت الساعة الرابعة ولا يزال أمامهم ساعتان حتى موعد العشاء . فصمموا على القيام بدورة لاضاعة الوقت وكانت النسوة يردن الجلوس وقد انهكهن التعب ؛ وبما ان احداً لم يقدم بعض المشروبات ، فقد اخذوا في السير

محاذين الرصيف . وهناك داهمهم وابل جديد من المطر ، مغداق ، أفسد زينة السيدات رغم المظلات . أما مدام لوريللو المنفطرة القلب لدى كل قطرة تبلل ثوبها ، فقد اقترحت الالتجاء الى تحت الجسر الملكي . وهددت بالنزول وحدها إذا لم يتبعوها . وساروا الى تحت الجسر الملكي وكانوا هناك على خير حال . ويمكن مثلاً أن ندعو ذلك فكرة حسنة ! وبسطت السيدات مناديلهن على البلاط وجلسن هناك وركبهن منفرجة . وانتزعن بايديهن قش العشب النابت بين الصخور ، متطلعات الى الماء الأسود الجاري ، كأنهن في الحقول . وأخذ الرجال يلهون بالصراخ عالياً لايقاظ صدى القنطرة امامهم ؛ وكان بوش وبيبي لاغرياد يشتمان الفراغ الواحد بعد الآخر ، ويقذفان فيه بشدة كلمة « خنزير » ويضحكان كثيراً عندما يعيد الصدى الكلمة إليهما ولما بحّت جنجرتاهما اخذا حصى مسطحة وجعلاها تثب على سطح الماء . وانقطع المطر . ولكنهم كانوا على خير حال بحيث لم يفكروا بالذهاب وكان السين ينقل أغطية دهنية، وسدادات قديمة ، واوراق خضار، كدسة من القذارات امسكها التيار برهة في الماء القلق الداكن من ظلال القنطرة ، بينما يستمر على الجسر سير المركبات والعربات ، وحشد باريس ، وحيث تشاهد السطوح فقط من ناحية اليمين ومن ناحية الشمال ، كمن يرى من اعماق جحر . وتأوهت الآنسة ريمانجو، وقالت لو كان يوجد اوراق لذكرها ذلك بزاوية من المارن حيث ذهبت عام ١٨١٧ مع شاب ما تزال تبكيه .

الا ان السيد مادينيه اعطى إشارة المسير . فاجتازوا حديقة التويلري وسط جماعة صغيرة من الأولاد حيث الدوائر الحديدية والكرات شوشت نظام الازواج . وحين وصل الموكب الى ساحة فاندوم تطلعوا بالعمود ، وفكر السيد مادينيه بالقيام بمزحة مع السيدات ، فعرض عليهن الصعود الى العمود ليشاهدن باريس . وبدا عرضه مضحكاً . نعم ، نعم ، يجب الصعود ، وسيضحكون من ذلك طويلاً . ومع ذلك فهذا لم يكن دون فائدة للاشخاص الذين لم يتركوا تخشيبة البقر ابداً .

وتمتمت مدام لوريللو

– اتعتقدون ان العرجاء ستجازف هناك باسطوانتها !

وقالت مدام ليرا

– انا ، سوف اصعد عن طيبة خاطر ولكني لا اريد ان يكون ورائي رجال . وصعد الموكب ، وتمشق الاثنا عشر بالصف على الدرج اللولبي الضيق . مصطدمين بالدرجات البالية ، متمسكين بالجدران ثم لما اصبح الظلام تاماً كان هناك كثير من الضحك وكانت النســـاء تطلقن صرخات خفيفة ، فقد كان الرجال يدغدغونهن ويقرصن سيقانهن . وكن حمقاوات بالتحدث عن ذلك ، فقد دلت هيئتهن على أنهن يعتقدن ان الفئران هي التي تفعل كل ذلك . الا ان الامر ظـــل بدون عاقبة ؛ فقد كان الرجال يعرفون ان يتوقفوا حيث يجب التوقف ، وذلك بدافع الشهامة . ثم ان بوش وجد مزحة رددها الجميع . فقد اخذوا ينادون مدام بوش كأنها ظلت على الطريق وسألوها اذا كان بطنها قد مر . تخيلوا اذن ! لو ظلت ممسوكة هناك دون ان تستطيـع الصعود او النزول ، ومن الممكن ان تسد الممر بحيث لا يعرفون كيف يسيرون . وضحكوا كثيراً من هذا البطن للمرأة الحبـلى بحيث اهتز العمود من مرحهم . وبعد ذلك أعلن بوش ، في اندفاعه ، ان المرء يصبح هرماً في انبوب المدخنة هذا؛ انه لا ينتهي. ايسيرون اذن الى السماء ? وحاول إخافة السيدات صارخاً ان العمود يتحرك . الا ان كوبو لم يقل شيئاً ؛ فقد جاء وراء جرفيز وامســـك بقامتها ، وشعر باستسلامها . وعندما دخلوا فجأة في منقطة النور كان يقبلها في عنقها. وقالت مدام لوريللو بهيئة أثارتها الفضيحة

– حسناً ! أنتما رائعان ، لا تنزعجا .

وبدا بيبي لاغرياد غاضباً . وكان يردد بين اسنانه

– لقد أحدثتم ضجة ! لم استطع حتى ان أعد الدرجات .

ولكن السيد مادينيه على السطح كان يريهم الابنية الاثرية. اما مدامفوكونيه والآنسة ريمانجو فلم يريدا الخروج من الدرج ؛ ففكرة البلاط وحدها جعلت

دماءهما تدور ؛ واكتفتا بالمجازفة بإلقاء نظرة من الباب الصغير . ومدام ليرا ، وهي أكثر جرأة ، قامت بدورة على السطح الضيق ملتصقة بحديد القبة. ولكن ذلك كان مؤثراً مهما كان الامر حين يخطر بالبال ان إمرار ساق يكفي. يالها من سقطة ! وكان الرجال ينظرون الى الساحة وقد شحبت وجوههم قليلاً . قد ينمو المرء في الهواء منفصلا عن كل شيء . ولكن كلا ، بالتأكيد ، لان ذلك يبعث قشعريرة البرد في أمعائك : وامر السيد مادينيه بأن يرفعوا عيونهم ويتطلعوا امامهم الى بعيد ، لأن هذا يمنع الدوار . وتابع إشارته باصبعه الى الانفاليد ، والبانتيون ، ونوترادم ، وبرج جاك ، وتلال مو غارتر . ثم خطرت لمدام لوريللو فكرة السؤال اذا كان بالامكان مشاهدة بائع الخمر في شارع لاشابيل حيث ذهبوا يأكلون في « الطاحونة الفضية » . وعندئذ ظلوا يبحثون طوال عشر دقائق ، وتشاجروا أيضاً ؛ فقد كان كل منهم يضع بائع الخمر في مكان . وكانت باريس حولهم تنشر اتساعها الرمادي في الاماكن البعيدة الزرقاء ، بأوديتها العميقة ، حيث تدرج امواج من السطوح ؛ وكانت الضفة اليمنى في الظل تحت مزقة كبيرة من الغيم النحاسي ، ومن حافة هذا الغيم ذي الاهداب الذهبية كان يدرج شعاع كبير ويضيء الوان الالواح الزجاجية في الضفة اليسرى بلمعان الشرر ، فاصلا بالنورهذه الزاوية من المدينة على سماء كثيرة النقاء غسلتها العاصفة

وقال بوش غاضباً عائداً الى الدرج :

– ليس من ضرورة للصعود لتؤكل انوفنا .

ونزلوا صامتين ، حردين ، تواكبهم دحرجة الاحذية على الدرجات . وفي اسفل ، اراد السيد مادينيه ان يدفع ، ولكن كوبو صرخ ، واسرع واضعاً اربعة وعشرين فلساً في يد الحارس ، فلسان عن كل شخص . وكانت الساعة تقارب الخامسة والنصف ؛ ولم يبق لديهم سوى وقت للعودة وعندئذ عادوا من الشوراع ومن ضاحية بواسونيير . الا ان كوبو رأى ان النزهة لا يصح ان تنتهي هكذا ؛ فدفع الجميع الى داخل دكان بائع خمر حيث تناولوا شراب الفرموت .

كان موعد الوليمة في الساعة السادسة . وكانوا ينتظرون موكب العرس منذ عشرين دقيقة في « الطاحونة الفضية » . ومدام بوش التي اوكلت امر بيتها الى سيدة من المنزل كانت تتحدث مع الام كوبو في صالون الطابق الاول ، مقابل المائدة ؛ والصغيران كلود واتيين ، وقد جاءت بهما ، كانا يلعبان ويركضان تحت المنضدة ، وسط تبعثر الكراسي . وعندما شاهدت جرفيز ، حين دخولها ، الصغيرين اللذين لم ترهما طوال النهار ، وضعتهما على ركبتيها، وداعبتهما بقبلات حارة وسألت مدام بوش .

– أكانا عاقلين ؟.. ألم يثيرا غضبك على الاقل ؟

وحين سردت هذه عليها اقوال هـذين الرديئين التي تميت من الضحك ، في فترة ما بعد الظهر ، اخذتهما من جديد وضمتهما اليها واجتاحتها عاطفة حنو .

وكانت مدام لوريللو تقول للسيدات الاخريات في داخل الصالون

– مهما كان الامر فهذا مضحك بالنسبة لكوبو .

وكانت جرفيز قد احتفظت بسكينة الصباح المبتسمة الا انها منذ النزهة اصبحت حزينـة ، وكانت تتطلع الى زوجها وآل لوريللو بهيئتهـا المفكرة المتعقلة ، فوجدت كوبو جباناً امام اختـه كان في السهرة يصيح بشدة ، ويقسم انه سيعيد ألسنة الافاعي هذه الى اماكنها اذا اساءت اليها ولكنها كانت تراه جيداً كالكلب النائم حين يكون امامهم ، يرقب خروج كلامهم ، وحين يعتقد انهم غاضبون يصبح كالمضروب مئة جلدة . وهذا ، ببساطة ، ما كان يقلق المرأة الشابة بالنظر الى المستقبل

ولم يكونوا ينتظرون سوى ميبوت الذي لم يظهر بعد

وصاح كوبو :

– آه ! لنجلس الى المائدة وسترونه آتياً ؛ انـه ذو أنف اجوف ، يشم رائحة الوليمة من بعيـد ... قولوا اذن .. عليه ان يضحك اذا كان لا يزال منتظراً على طريق سان دنيس !

وعندئذ ابتهج الجميع ، وجلسوا الى المائدة محدثين جلبة كبيرة بالكراسي .

وجلست جرفـيز بين لوريللو والسيد مادينيه ، وكوبو بين مدام فوكونيه ومدام لوريللو . وجلس المدعوون الآخرين حسب اذواقهم لان هـذا ينتهي دائماً بالغيرة والمجادلات اذا عينت اماكن الجلوس على المائدة . وانساب بوش الى جانب مدام ليرا . اما جارتا بيبي لاغرياد فهما الآنسة ريمانجو ومدام غودرون . وجلست مدام بوش والام كوبو على الطرف اذ اهتمتا بالولدين وقامتا بتقطيع اللحم لهما وملء الكؤوس ليشربا ولكن ليس كثيراً من النبيذ .

وسأل بوش بينما كانت السيدات يرتبن تنوراتهن تحت سماط المائدة خوفاً من البقع :

– اما من احد يتلو الصلاة قبل الطعام ؟

ولكن مدام لوريللو لم تكن تحب هذه المهازحات. واكلت شورباء الشعيرية، الباردة تقريباً ، بسرعة كبيرة مع نفخ من الشفاه على الملاعق . وكان غلامان يقومان بالخدمة يرتدي كل منهما صدرة صغيرة مشبعة بالدهن ، ومريلة بيـاضها موضع شك . وكان نور النهار يدخل من النوافذ الاربع المطلة على اشجار الطلح في الباحة ، ونهـاية نهار عاصف ، مغسول ولا يزال حاراً . وكان انعكاس الاشجار في هذه الزاوية الرطبة يلون الغرفة الداخنة بالأخضر ، ويُرقص ظلال الاوراق فوق السماط الرطب برائحة مبهمه من العفونة . وهناك مرآتان مليئتان ببراز الذباب ، كل واحدة منهما في طرف، تمدان المنضدة الى ما لا نهاية له، وهي مغطاة بآنيتها الكثيفة المائلة الى الاصفرار ، وحيث دهن مـاء بالوعة المطبخ يظل اسود في خدوش السكاكين . وفي الداخل كان الباب المصطفق يحمل رائحة قوية لفضلات الطعام في كل مرة يصعد فيها غلام من المطبخ .

وقال بوش عندما صمت كل منهم وانفه في صحنه

– يجب ألا نتكلم كلنا دفعه واحدة .

وشُرب اول كأس من الخمر ، وهم يتـابعون بالأعين صحنين من اللحم بالخردل قدمهما الغلامان عندما دخل ميبوت وهو يصرخ :

– يالكم من اوباش ، انتم الآخرون ! لقد انهكت باطن قدمي طوال ثلاث

ساعات على الطريق ، حتى ان دركياً طلب اوراقي ... أيصح ان تصنع هـذه الفواحش مع صديق !.. كان يجب على الاقل ان ترسلوا اليّ عربة مع رسول . آه ! كلا ، انها سخرية ووجدتها قاسية يضاف الى ذلك انهـا امطرت حتى ان جيوبي امتلأت مـاءً صحيح لا يزال بالامكان اصطياد سمك للقلي فيها

وضحك الجميع حتى الاستغراق . هذا الحيوان ميبوت كان ثائراً كان قد شرب الليترين اللذين اعتاد شربهما ؛ والغريب في الامر هو عدم انزعاجه من كل شراب الصفادع الذي بصقته العاصفة عليه .

وقال كوبو

– ايه ايها الكونت دي جيفو – فان ! اذهب واجلس هنـاك الى جانب مدام غودرون انت ترى اننا ننتظرك .

اوه ! هذا لن يعرقله ، فسوف يلحق بالآخرين وطلب ثريدة ثلاث مرات وصحون شعيرية ، قطّع فيها قطع خبز كبيرة وعندما بدأوا بأكل القطائف كان موضع الاعجاب العميق من الطاولة كلها مـا اشد افراطه في الالتهام ! وقد شكل الخدم المذعورون صفاً لايصال الخبز اليه ، انهـا قطع مقطعة بمهارة كان يلتهمها بلقمة واحدة . وانتهى الى الغضب ؛ فقد كان يريد الخبز الى جانبه ولكن بائع الخمر ، الشديد القلق ظهر لحظة على عتبة القاعة . والناس الذين كانوا ينتظرونه انفتلوا من جديد . واصيب صاحب المطعم بالدهشة . يا له من نموذج مقدس ميبوت هـذا ! الم يأكل ذات يوم اثنتي عشرة بيضة ويشرب اثني عشر كأساً من الخمر بينما دقت الساعة الثانية عشرة ظهراً ؟ ان قوة كهـذه لن تلتقى كثيراً . وكانت الآنسة رمانجو ، وقد رق قلبها ، تنظر الى ميبوت وهو يمضغ ، بينما السيد ماديفيه ، الباحث عن كلمة توضح دهشته المحترمة ، صرح بأن طاقة كهذه غير عادية .

وساد صمت . وجـاء غلام ووضع على المنضـدة لحم ارنب محمّراً في صحن واسع اجوف كأنه للسلطة .

وكوبو ، وهو مزاح كبير ، اطلق مزحة اذ قال :

– قل اذن ايها الغلام ، اهذا من ارنب الميازيب ، انه لا يزال يموء .

وبالفعل فان مواء خفيفاً ، مقلداً بمهارة ، بـدا انه خارج من الصحن ان كوبو هو الذي فعل ذلك بحنجرته دون ان يحرك شفتيه ؛انها موهبة مجتمع ذات نجاح اكيد ، مع القول انـه لم يكن يأكل في الخارج دون ان يطلب لحم ارنب محمّر . وبعـد ذلك اخرج صوتاً كالهر وغطى النساء وجوههن بمناشفهن لانهن اكثرن من الضحك .

وطلبت مـدام فوكونيه الرأس ؛ لم تكن تحب سوى الرأس والآنسة ريمانجو تحب الشحم. وبما ان بوش قال انه يفضل البصلات الصفار عندما تكون في بدء شوائها ، فان مدام ليرا عضت على شفتيها متمتمة

– افهم ذلك

كانت جافـة كالوتد ، تعيش حياة عاملة مسجونة في رتابتها ، ولم تر انف رجـل عندها منذ ترملها ، مظهرة اهتماماً مستمراً بالكلام البـذيء ، وهوساً بالكلمات ذات المعنى المزدوج والتلميحـات الفاجرة ذات العمق الذي لا تفهمه سواها . وانحنى بوش على اذنها وطلب ايضاحـاً بصوت منخفض ، فاجابت :

– البصلات الصفار دون شك .. هذا يكفي على ما اعتقد

ولكن الحديث اصبح جدياً وكان كل واحـد يتحدث في مهنته . فالسيد مادينيه اطرى صناعة الكرتون: كان هناك فنانون حقيقيون في المهنة ؛ وهكذا ذكر علباً للهدايا يعرف انماطهـا ، وبدائع فخمة الا ان لوريللو كان يضحك . فقد كان كثير الزهو بشغل الذهب ، وزهوه هذا يرى كانعكاس النور على اصابعه وعلى كل شخصه . وغالبا ما كان يقول اخيراً ان الصاغة في الزمن الماضي كانوا يحملون السيوف . وذكر برنار باليسي دون معرفة . وكوبو تحدث عن دوارة هواء ، طرفة احد رفاقه ، وهي مؤلفة من عمود ، ثم من حزمـة ، ثم من سلة فاكهة ، ثم من علم ، وكل هذا مصنوع جيداً بقطع من الزنك مقطعة وملحومة . واظهرت مدام ليرا لبيبي لاغرياد كيف يفتـل صف من الورد ، مديرة مسكة

سكين بين اصابعها المعروقة . الا ان الاصوات كانت ترتفع ، وتتشابك : وكان يسمع من خلال الضوضاء كلمات قذفتها مـــدام فوكونيه عاليــــاً في معرض الشكوى من عاملاتها، ومن حذاء قماش صغير لعاملة احرق لها في السهرة زوجا من الشراشف .

وصاح لوريللو ضارباً بقبضته على المنضدة

– لقد احسنت القول فالذهب هو الذهب .

وخلال الصمت الذي احدثته هذه الحقيقة لم يعد هناك سوى صوت الآنسة ريمانجو الرقيق الذي استمر قائلا

– عندئذ رفعت لها التنورة ، لأخيط في الداخـــل .. وغرزت دبوساً في الرأس ليمسك القبعة وبانتهاء ذلك تباع بثلاثة عشر فلساً

كانت تشرح عن الدمى التي تصنعها لميبوت الذي كان فكاه يدوران ببطء كحجارة الرحى. لم يكن يسمع ، بل يهز رأسه راصداً خدم المطعم لئلا يأخذوا الصحون قبل ان يمسحها . واكلوا لحم عجل بعصير اللوبيـــاء الخضراء ، وجيء بالشواء ، دجاجتان هزيلتان نائمتان على سرير من الجرجير الذابـــل المشوي بالفرن . وفي الخارج كانت الشمس تموت على اغصان اشجار الطلح العالية ، وفي القاعة كان انعكاس النور المخضوضر يتكاثف من البخـــار الصاعـــد من المنضدة ، ملوثاً بالخمر والحساء ، مزدحماً ببقايا المائدة وعلى طول الجدار صحون قذرة ، والليترت فارغة وضعها الندل هناك وكانت تشبه اقذار الحصير المكنّسة المنقلبة . وكان الطقس شديد الحرارة وخلع الرجال معاطفهم واستمروا بالأكل وهم بأكمام القمصان

وقالت جرفيز التي تكلمت قليلا ، وهي تراقب كلود وإتيين من بعيـــد

– ارجوك يا مدام بوش . لا تفرطي في اطعامها

ونهضت ، وراحت تتحدث لحظة وهي واقفـــة وراء مقعدي الصغيرين والاولاد ليس لديهم عقل انهم يأكلون طول النهار دون ان يرفضوا اية قطعة ؛ وقدمت لهما بنفسها شيئاً من لحم الدجاج وبعض المرق. ولكن الأم كوبو قالت

ان باستطاعتهما ، لمرة واحدة ، ان يزيدا من الطعام . اما مدام بوش فقد اتهمت بوش ، بصوت منخفض ، انه قرص ركبة مدام ليرا . اوه ! انها مداهنة فقد افرط في الشراب . ورأت جيداً اختفاء يده اذا عاد الى ذلك . وحق يوم الرب ، فقد كانت امرأة من اللواتي يضربن الرأس بزجاجة الماء .

واثناء الصمت كان السيد مادينيه يتحدث بالسياسة

– ان قانونهم المؤرخ في ٣١ أيار مستهجن . يلزم الآن سنتان إقامة وقد شطب ثلاثة ملايين مواطن من اللائحة . قيل لي ان بونابرت متكدر في سره ، لأنه يحب الشعب . وقد برهن على ذلك

كان جمهورياً ولكنه معجب بالأمير [1] ، بسبب عمه ، رجل لا يجود الزمان بمثله . وغضب بيبي لاغرياد ؛ فقد اشتغل في الاليزيه وشاهد البونابرتي كما يشاهد ميبوت ، هناك ، امامه ؛ ذلك الرئيس الفظ يشبه فرساً غليظ البدن ، وكان يقال انه ذهب يقوم بدوره في ناحية ليون ؛ وسيكون الخلاص عظيماً اذا دق عنقه في حفرة . ولما كان الحديث قد تحول الى قباحة فإن كوبو تدخل قائلاً

– انتم لا تزالون بسطاء لتعلقكم بالسياسة . . . فالسياسة مهزلة ! وهل وجدت السياسة لأجلنا ؟ بامكانهم ان ينصبوا من يشاؤون ، ملكاً ، امبراطوراً ، لاشيء ، فهذا لن يمنعني من كسب فرنكاتي ، ومن الاكل والنوم ، اليس صحيحاً ؟ . . كلا ، هذه حماقة !

وكان لوريللو يهزأ رسه . فقد ولد في نفس اليوم الذي ولد فيه الكونت دي شامبور في ٢٩ ايلول ١٨٢٠ . وقد أدهشته هذه المصادفة كثيراً ، واشغلته بحلم غامض قرر فيه وجود علاقة بين عودة الملك الى فرنسا وحظه الشخصي ولم يكن يقول بوضوح ما يأمله ، ولكن كان يُشتمّ من حديثه ان امراً لطيفاً جداً سيحصل له بشكل غير عادي . وكان يرجىء رغباته التي لا يمكن تلبيتها قائلاً

– عندما يعود الملك

---

١ ـ هو لويس نابليون الذي اصبح فيما بعد نابليون الثالث .

وحدث قائلاً :

– ومع ذلك فقد رأيت الكونت دي شامبور ذات مساء ...

والتفتت جميع الوجوه نحوه . فتابع

– تماماً . رجل ضخم يرتدي سترة ، وهيئته هيئة غلام طيب ... كنت عند بكينيو ، وهو احـــد اصدقائي ويبيع المفروشات في شارع لاشابيل الكبير .. وكان الكونت دي شامبور قد ترك مظلته في السهرة . عندئذ دخل، وقال هكذا بكل بساطة : « اتريد ان تعيد الي مظلتي ؟ » يا الهي ! نعم . انه هو ، وقد اقسم بكينيو بشرفه

ولم يبد أحد مـن المدعوين ادنى شك وانتهوا من الأكل وأخذ الندل بتنظيف المنضدة محدثين ضجة كبيرة بأواني المائدة ومدام لوريللو ، اللائقة جداً حتى الآن ، السيدة بكـل معنى الكلمة ، أفلتت منها هذه العبارة : يا له من قذر ! وذلك لأن أحد الخدم وهو يرفع صحناً سكب في عنقها شيئـــاً مائعاً . وقد تلوث ثوبها الحريري بالتأكيد . واضطر السيد مادينيه ان يرى لها ظهرها ، ولكن لم يكن يوجد شيئاً ، وأقسم على ذلك . وانتشر الآن على السماط بيض في وعاء للسلطة وعلى جوانبـه صحنان من الجبن وصحنان من الفواكه وكان آح البيض المشوي جيداً يعوم فوق الزبدة الصفراء ويسبب التأمل لأنهم لم يكونوا ينتظرون ذلك ، ووجدوه جيداً. وكان ميبوت لا يزال يأكل . وطلب خبزاً من جديد ، وأتى على صحني الجبن ؛ ولما كان قد بقي بعض الزبدة فانه قرّب وعاء السلطة وقطع فيه قطعاً عريضة كما في الشورباء .

وقال السيد مادينيه وقد عاد الى الاعجاب

– حقيقة ان السيد يستحق الاعتبار

وعندئذ قام الرجال لتدخين غلايينهم وظلوا لحظة وراء ميبوت مربّتين على كتفيه، سائلينه اذا كان كل شيء على ما يرام. ورفعه بيبي لاغرياد مع الكرسي ؛ ولكن يا لرعد الله ! فقد تضاعف وزن الحيوان وقال كوبو بدافع السخرية ان الرفيق قد بدأ فقط ، وانه سيظل يأكل الخبز طوال الليل . واختفى خدم

المطعم المرتاعون .

وبوش الذي نزل منذ لحظة عاد الى الصعود محدثاً عن منظر بائع الخمر تحت . فقد كان شاحباً على منضدته وزوجته المذعورة ارسلت لترى اذا كانت محلات الخبازين ستظل مفتوحة لتلبية طالب المطعم الذي بدا انه أفلس . وبالفعل فقد كان الامر مضحكاً ويستحق ثمن الطعام . ولم يكن بالمستطاع الحصول على الوليمة بدون ميبوت الذي يلتهم كل شيء . وشمله الرجال بنظرة حسد وقد اولعوا غلايينهم ، لان من يأكل بهذه الكثرة لا بد ان يكون ذا بنية متينة ..

وقالت مدام غودرون

– لا اريد ان أكلف بتغذيتك . آه ! كلا .

واجاب ميبوت وقد القى نظرة منحرفة على بطن جارته

– قولي اذن ايتها الأم الصغيرة ، يجب الا تسخري ، لقد التهمت اكثر مني.

وصفقوا ، وصاحوا : برافو ! لقد كان جواباً محكماً . وازداد سواد الليل، وكانت ثلاثة مصابيح غاز تشتعل في القاعة ، متحركة بأضواء كبيرة مضطربة وسط دخان الغلايين . وبعد ان قدم الندل القهوة والكونياك جاؤا يحملون آخر كدسة من الصحون الوسخة . وفي اسفل ، تحت اشجار الطلح الثلاث بدأ العمل في الحانة ، بوق ذو مكابس وكمنجتان تعزف بشدة ، مع ضحكات نسائية بحّاء قليلا في الليل الحار .

وصاح ميبوت :

– يجب تجهيز قطعة لحم ، وليترين من الخمر مع كثير من الحامض وقليل من السكر .

ولكن كوبو ، وقد رأى امامه وجه جرفيز القلق ، نهض معلناً انهم لن يشربوا شيئاً بعد . فقد شربوا خمسة وعشرين ليتراً ، واصاب كل فرد ليتراً ونصف الليتر اذا حسبنا الولدين كشخصين كبيرين . وكان هذا معقولاً جداً . لقد جاءوا يأكلون قطعة معاً ، كصداقة طيبة دون اي ازعاج لانهم يحترمون

بعضهم بعضاً ، ولانهم كانوا راغبين ان يقيموا فيما بينهم حفلة عائلية وقد جرى كل شيء بلطف ، وكانوا مسرورين ويجب الآن الا يتصرفوا بحمق اذا ارادوا ان يحترموا السيدات. وبكلمة ، وكنهاية ، فقد اجتمعوا ليحملوا الصحة الى الزواج وليس ليشربوا فقط . وهذا الخطاب الذي ألقاه بفصاحة وبصوت مقنع عامل الزنك الذي كان يضع يده على صدره عند إلقاء كل عبارة ، قد نال استحسان لوريللو والسيد مادينيه الحار . ولكن الآخرين ، بوش ، غودرون ، بيبي لاغرياد ، وخصوصاً ميبوت ، والاربعة كلهم ثملون ، اخذوا يضحكون وقد ثقلت ألسنتهم ، وانتابهم العطش ويجب ان يطفئوه .

وقال ميبوت ملاحظاً

– العطشى عطشى ، وغير العطشى هم غير عطشى. والآن سنطلب الخمر... ولن نسرق احداً وبامكان الارستقراطيين ان يطلبوا ماء محلى بالسكر .

وبما ان عامل الزنك عاد الى الوعظ ، فان الآخر ، وقد انتصب واقفاً ، ضرب بيده على مؤخرته وصاح :

– آه ! هات يا غلام ليترين من الخمر المعتق !

وقال كوبو عندئذ ان لا بأس بذلك، وانه ذاهب فقط لدفع حساب الوليمة حالا وهذا سيجنب المشاجرات وليس الناس المهذبون بحاجة للدفع عن السكارى وهكذا ، فبعد ان بحث ميبوت طويلا لم يجد سوى ثلاثة فرنكات وسبعة فلوس . ثم لماذا تركوه ينتظر طويلا على طريق سان دنيس ؟ انه لا لا يستطيع اغراق نفسه ، فقد انفق القطعة ذات المئة فلس . اما الآخرون فكانوا مخطئين، هذا كل شيء ! واخيرا دفع الفرنكات الثلاثة واحتفظ بالفلوس السبعة لتبغه في الغد . وكوبو الغاضب ، كاد يصطدم به لو لم تسحبه جرفيز من معطفه وهي خائفة جداً ومتوسلة . وقد عزم على ان يستقرض فرنكين من لوريللو الذي رفض اولاً ثم اختبأ ليقرضه لأن زوجته بالتأكيد لم تكن تريد .

الا ان السيد مادينيه اخذ صحناً والآنسات والسيدات فقط ، مدام ليرا ، مدام فوكونيه ، الآنسة ريمانجو ، وضعت كل منهن اولاً قطعة بمائة فلس وبعد

ذلك اختلى السادة في الطرف الآخر من القاعة واجروا الحساب كانوا خمسة عشر ؛ اذن فالحساب يرتفع حتى الخمسة والسبعين فرنكاً . وعندما اصبحت الفرنكات الخمسة والسبعون في الصحن اضاف كل رجل خمسة فلوس للخدم . وقد احتاجوا الى ربع ساعة من الحساب الدائب قبل ان يسوّى كل شيء مع رضا كل فرد ولكن حين طلب السيد مادينيه بائع الخمر لانه يريد بحث الامر معه ظل الجميع منذهلين عندما سمعوا هذا وهو يقول مبتسماً ان المبلغ لايفي بالحساب ، لان هناك ذيول . ولما كانت كلمة « ذيول » قد استقبلت بصيحات غاضبة ، فقد قدم التفاصيل خمسة وعشرون ليتراً بدلاً من عشرين وهو العدد المتفق عليه مسبقاً ؛ والبيض الذي اضافه عندما رأى طعام المائدة قليلا ؛ واخيراً زجاجة من الروم قدمت مع القهوة في حال وجود اشخاص يحبون الروم وعندئذ اشتجرت معركة ضخمة . ولما وضع الحق على كوبو انتفض بقصد التملص : انه لم يتكلم ابداً عن العشرين ليتراً ؛ اما البيض فانه يدخل ضمن الطعام المتفق عليه ، ولا يهمه اذا كان صاحب المطعم اضافه برضاه ؛ وبقيت زجاجة الروم ، انها كذبة ، وطريقة لتضخيم الحساب بوضعه على المائدة مشروبات لم يحترسوا منها . وصرخ

– لقد كانت على صينية القهوة ويجب ان تحسب مع القهوة .. دعنا بسلام . خذ دراهمك وليأخذنا الرعد اذا كنا سنضع رجلنا في تخشيبتك .

وقال بائع الخمر مردداً

– هناك زيادة ستة فرنكات ، اعطوني فرنكاتي الستة ... ولن احسب ارغفة هذا السيد الثلاثة .

واحتشد الجمهور كله حوله . واحاطوه بحركات هائجة ، واصوات عاوية خنقها الغضب . والنساء على الخصوص خرجن عن تحفظهن ورفضن اضافة سنتيم واحد . حسناً ! شكراً ، كان العرس جميلا ! انها الآنسة ريما نجو التي لم يسبق لها ان تدخلت في هذا النوع من الغداء ! ومدام فوكونيه لم تأكل جيداً ؛ وترى ان باستطاعتها ان تجهز باربعين فلساً صحناً صغيراً تلحس الاصابع وراءه .

ومدام غودرون كانت تشكو بمرارة لانها دفعت الى الطرف السيء من المنضدة ، الى جانب ميبوت الذي لم يبدِ لها اقل اهتمام . واخيراً فان هـذه الامور تتحول دائماً الى سوء والمرء عندما يريد ان يري اناساً في عرسه يدعو اشخاصاً، بالتأكيد ! وجرفيز الملتجئة الى جانب الام كوبو امام احدى النوافذ لم تكن تفعل شيئاً ، وكانت خجلة ، شاعرة ان كل هذه المعاتبات تسقط عليها

وانتهى السيد مادينيه الى النزول مع بائع الخمر وقد سمع جدالهما تحت وبعد نصف ساعة صعد صانع الورق المقوى وقـد سوّى الامر بدفع ثلاثة فرنكات ولكن الجميع ظلوا مغتاظين ، ساخطين ، عائـدين دون انقطاع الى مسألة الذيول . وازداد اللغط بعمل قوي قامت به مدام بوش . فقـد كانت تراقب السيد بوش دائماً ، ورأته في احدى الزوايا يقرص مـدام ليرا وعندئذ قذفت بكل قوتها زجاجة تحطمت على الجدار .

وقالت الارملة الكبيرة وهي تعض على شفتيها بشكـل مليء بالتلميحات

– المعروف ان زوجك خياط يا سيدتي . انه صانع تنورات رقم واحد .. الا انني وجهت اليه رفسات شديدة تحت المنضدة

وفسدت السهرة . وازدادت شراستهم فاقترح السيد مادينيه ان يغنوا ؛ ولكن بيبي لاغرياد الذي كان ذا صوت جميـل قـد اختفى ؛ والآنسة ريمانجو المستندة بمرفقها الى نافذة ، رأتـه تحت شجرات الطلح يراقص فتاة ضخمة ذات شعر طويـل وكان البوق والكمنجتان لا تزال تعزف اغنية « بائع الخردل » وهي رباعية يصفق معها بالايدي على نسق الباستوريل [1] وعندئذ تفرقوا فميبوت والزوجان غودرون نزلوا ؛ وبوش نفسه فر هارباً . ومن النوافـذ كان يشاهد الازواج وهم يدورون بين الاوراق التي تكسبها المصابيح المعلقة بالاغصان صبغة صفراء من الزخارف وكان الليل ينام دون نفس ، مغمى عليه من الحرارة الشديدة .

وفي القاعة انعقد حديث جدي بين لوريللو والسيد مادينيه ، بينما السيدات

١ – نوع من الغناء في القرون الوسطى .

وهن يعرفن كيف يخففن غضبهن ، كن ينظرن الى اثوابهن ، باحثات عما اذا كانت هذه الاثواب قد التقطت بعض البقع

يجب ان تكون اهداب ثوب مدام ليرا قد تغمست بالقهوة . وثوب مدام فوكونيه الذي لم يغسل كان مليئاً بالمرق . وشال الام كوبو الاخضر ، المنزلق عن الكرسي ، وجد في احدى الزوايا ممرغاً ومداساً . ولكن مدام لوريللو على الخصوص هي التي لم يهدأ غضبها فهناك وسخ في ظهرها وقد اقسموا لها على عدم وجوده ولكنها تشعر به . وانتهت بأن شاهدته عندما التوت امام المرآة، وصرخت

– ماذا كنت اقول ؟ انه مرق الدجاج . سيدفع الغلام ثمن الثوب . او بالاحرى سأقيم عليه دعوى .. آه .. اصبح النهار تاماً وكان من الافضل ان اظل نائمة سأذهب قبل الجميع . لقد اكتفيت من عرسهم الشنيع .

وذهبت مهتاجة ، جاعلة الدرج يهتز تحت ضربات عقبيها . وركض لوريللو وراءها ولكن كل ما استطاع الحصول عليه هو ان تنتظر خمس دقائق على الرصيف ، اذا ارادا ان يذهبا معاً . كانت مضطرة الى الذهاب بعد العاصفة كما كانت تحب . وسوف يكافئها كوبو على هذا النهار . وحين عرف هذا الأخير انها غاضبة جداً بدا واجماً ؛ ولكي تجنبه جرفيز المتاعب رضيت بالعودة حالاً الى بيتها . وعندئذ تعانقوا بسرعة ، وقام السيد مادينيه بايصال الام كوبو وكان على مدام بوش ، في الليلة الاولى، ان تأخذ كلود واتيين ليناما عندها ؛ وبامكان امهما الا تخاف عليهما، فالصغيران ينامان على مقعدين، مثقلين بما اكلا من البيض. واخيراً نجا الزوجان مع لوريللو تاركين من بقي من جماعة العرس عند بائع الخمر عندما اشتجرت معركة تحت بين جماعتهم وجماعة اخرى ؛ فبوش وميبوت اللذان كانا يعانقان سيدة لم يريدا اعادتها الى اثنين من الجنود كانت معهما، وهددا بإسكات كل صوت اثناء جلبة البوق والكمانين في عزف لحن بولكا « اللآلىء» .

وكانت الساعة لما تبلغ الحادية عشرة . وعلى شارع لاشابيل ، وفي حي القطرة الذهبية كله ، فان دفع اجرة نصف الشهر الذي صادف هذا السبت

أحدث جلبة ضخمة من السكر . وكانت مدام لوريللو تنتظر على بعد عشرين خطوة من «الطاحونة الفضية» ، واقفة تحت مصباح غاز . وقد أخذت ذراع لوريللو ومشت في المقدمة ، دون ان تلتفت ، بخطى جعلت كوبو وجرفيز يلهثان ليلحقا بها . وبين فترة وأخرى كانوا ينزلون عن الرصيف ليفسحوا المجال لمخمور سقط هناك رافعاً قوائمه في الهواء . والتفت لوريللو محاولا اصلاح الأمور وقال

– سنوصلكما حتى باب بيتكما

ولكن مدام لوريللو ، وقد رفعت صوتها ، وجدت من المستغرب ان يمضي ليلة عرسه في ذلك الجحر النتن في فندق بونكور الم يكن عليه ان يؤجل الزواج ، ويقتصد بعض الفلوس ويشتري اثاثاً ليدخلا الى بيتهما في الليلة الأولى؟ آه . سيكونان على خير حال تحت السقوف ، محشورين في غرفة بعشرة فرنكات لا يوجد فيها حتى الهواء .

فاعترض كوبو بخجل

– لقد نلت إجازة ، ولن نبقى فوق . نحتفظ بغرفة جرفيز لانها أكبر.

فنسيت مدام لوريللو نفسها والتفتت بحركة فجائية وصرخت

– هذا كثير !... اتنام في غرفة العرجاء ؟

وشحبت جرفيز . ان هذا اللقب الذي تلقته للمرة الاولى صفعها . ثم انها كانت تسمع جيداً صراخ شقيقة زوجها غرفة العرجاء هي الغرفة التي عاشت فيها شهراً مع لانتيه ، والتي لا تزال خرق حياتها الماضية تنسحب فيها . أما كوبو فإنه لم يفهم ولكن اللقب فقط آلمه . وأجاب بحدة

– انت مخطئة باطلاق الألقاب على الآخرين . ولا تعلمين انهم يسمونك « ذيل البقرة » في الحي بسبب شعرك . هذا لا يرضيك ، اليس كذلك ؟ لماذا لا نحتفظ بغرفة الطابق الاول ؟ لن ينام الولدان فيها هذا المساء ، وسنكون فيها على خير ما يرام .

لم تضف مدام لوريللو شيئاً ، وظلت منطوية على جدارتها ، واغتاظت

كثيراً بان تدعى « ذيل البقرة » أما كوبو ، فلكي يعزي جرفيز ، صغط على ذراعها بلطف ؛ ونجح حتى في إدخال البهجة الى نفسها بان همس في أذنها بأنهما سيدخلان الى البيت مع مبلغ سبعة فلوس مستديرة ، أي ثلاثة فلوس كبار وفلس صغير كان يحملها ترن في جيب بنطلونه بواسطة يده . وعندما وصلوا إلى فندق بونكور تبادلوا تحية المساء بهيئة غاضبة . وفي اللحظة التي دفع فيها كوبو المرأتين من عنقيهما ناعتاً إياهما بالبهيمتين ، فإن سكيراً بـدا انه يريد السير إلى اليمين فقام بعطفة فجائية الى الشمال وارتمى بينهن . فقال لوريللو :

– انه الاب بازوج . لقد قبض اجرته اليوم

والتصقت جرفيز بباب الفندق من الخوف . والاب بازوج هو حانوتي في الخمسين من عمره ، يرتدي بنطلونه الاسود الملوث بالوحل ، ومعطفه الاسود ذا الابزيم على الكتف ، وقبعته من الجلد الاسود المقبب ، وقد تسطحت من احدى السقطات وتابع لوريللو

– لا تخافوا ، انه ليس رديئاً . فهو جار لنا ؛ الغرفة الثالثـة في الرواق ، قبل الوصول الى منزلنا ... سوف يكون في مركز حرج لو رأته ادارته بهـذا الشكل .

الا ان الاب بازوج تكدر من رعب المرأة الشابة ، وقال متلعثماً :

– ايه ، ماذا ! لن نأكل أحداً .. فأنا كغيري . اذهبي يا صغيرتي .. لا شك بأني شربت جرعة ! عندما يُعطي العمل فيجب تشحيم العجلات . ليس انتم ، ولا الشركة من انزل الشخص الذي يزن ستماية ليبرة والذي اوصلناه على رجليـه من الطابق الرابـع الى الرصيف دون أن لحطمه ... اني احب الماجنـين

ولكن جرفيز زادت من دخولها في زاوية الباب ، واجتاحتها رغبـة كبيرة بالبكاء افسدت عليها كل نهارها من السرور العاقل . لم تكن تفكر بتقبيل اخت زوجها ، بل رجت كوبو ان يبعد السكران . عندئذ أتى بازوج ، وهـو يترنح ، بحركة ملأى بالاشمئزاز الفلسفي وقال :

– هذا لن يمنعك من المرور يا صغيرتي ... ربما ستكونين مسرورة إذا مررت ذات يوم... نعم عرفت نساء كثيرات يقلن شكراً او اختطفن .

وعزم آل لوريللو على اخذه ، فالتفت وتلجلج بعبارة اخيرة بين شهقتين :

– عندما يموت المرء ... اسمعي هذا عندما يموت المرء ، فإن ذلك لوقت طويل .

٤

كانت أربع سنوات من العمل القـــاسي . وكانت جرفيز وكوبو في الحي زوجين صالحين ، يعيشان على حـدة ، دون مشاجرات ، ويقومان بنزهة منتظمة نهار الاحد في ناحية سان – اوان . وكانت المرأة تشتغل اثنتي عشرة ساعة باليوم عند مدام فوكونيه، وتجد وسيلة لتبقي بيتها نظيفاً كالفلس ولتقدم الخبز واللحم لأهل بيتها جميعهم صباحاً ومسـاءً . والرجل لم يكن يسكر ، يأتي بأجرته في نهاية الأسبوع ، ويـدخن الغليون على نافذته قبل أن ينام ، ليتنشق الهواء وقد جرى التنويه بهما بسبب لطفهما . ولما كان يربحان مـا ما يقارب الفرنـكات التسعة باليوم ، اصبح بامكانهـما توفير مبلغ من المال ليس بالقليل .

ولكن في الايام الأولى على الخصوص كـان يلزمهما ان يتعبا جداً ليجمعا الطرفين . فزواجهما وضع على عاتقهما ديناً بمائتي فرنك . ثم شعرا بالكراهية لفندق بونكور ؛ فقد وجداه يبعث على الاشمئزاز، مليئاً بالاختلاطات القذرة؛ وكانا يحلمان بأن يكونا في بيتهما مع مفروشات لهما يعتنيان بها . وجرى حساب المبلغ اللازم عشرين مرة ؛ وكان يبلغ دون كسور ثلاثماية وخمسين فرنكاً اذا شاءا الا يتلبكا ويضغطا حاجاتهما ويكون عندهما طنجرة أو مقلاة صغيرة حين يحتاجانها . وكانا يائسين من توفير مبلغ كبير كهذا في اقل من سنتين ، حين سنح

لهما حظ جيد سيد كبير من بلاسان طلب منهما كلود ، الولد الأكبر ، ليضعه هناك في المدرسة ؛ انه هوس كريم لرجل مبتكر هاوي لوحات ، ادهشه اشخاص رسمهم الولد بشكل سيء . وكان كلود يكلفهما كثيراً . وحين لا يبقى على عاتقهما سوى الولد الثاني اتيين ، فانهما يجمعان الثلاثمائة والخمسين فرنكاً في سبعة أشهر ونصف وفي اليوم الذي اشتريا فيه أثاثهما من عند بائع في شارع بلهوم قاما قبل الرجوع الى البيت بنزهة في الشوارع الخارجية ، والقلب ممتلىء بسرور عظيم . فقد كان هناك سرير ، وطاولة ليل ، وخزانة ذات ادراج تعلوها رخامة ، وخزانة ثياب ، وطاولة مستديرة بقماشها المشمع ، وستة مقاعد ، وكلها من الأكاجو القديم ؛ دون أن نعد الفراش وأدواته والبياضات ، وأواني مطبخ شبه جديدة . لقد كان ذلك بالنسبة إليهما دخولاً جدياً ونهائياً في الحياة . شيء جعلهما من اصحاب الملك وأكسبهما أهمية بين الناس المتمازين في الحي .

وكان اختيار المسكن يشغلهما منذ شهرين . انهما يريدان قبل كل شيء ان يستأجرا مسكناً في البيت الكبير في شارع القطرة الذهبية . ولكن لم يكن فيه أية غرفة فارغة واضطرا الى الاقلاع عن حلمهما القديم . ولقول الحق ، فان جرفيز لم تكن غاضبة ضمناً : فمجاورة آل لوريللو ، الباب بالباب ، كانت تخيفها كثيراً وعندئذ بحثا خارجا . وكان كوبو يحرص كل الحرص على ان لا يبتعد عن مشغل مدام فوكونيه لكي تستطيع جرفيز ، بوثبة واحدة ، ان تكون في بيتها في ساعات النهار وأخيراً وجدا لقية ، غرفة كبيرة مع غرفة صغيرة ومطبخ في الشارع الجديد من « القطرة الذهبية » مقابل بيت الغسالة تقريباً . انه بيت صغير في طابق واحد ودرج وعر جداً ، ويوجد فوقه مسكنان فقط ، واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ؛ والأسفل يسكنه مؤجر عربات كانت مواده تشغل سقائف موجودة في ساحة واسعة على طول الشارع . وقد ظنت المرأة الشابة المسرورة انها عادت الى الريف ، ولم يكن هناك جيران ولا نميمة تخافها ، انها زاوية للسكينة تذكرها بزقاق في بلاسان وراء الأسوار ؛

ولزيادة الحظ كان بإمكانها رؤية نافذتها من المنضدة التي تشتغل عليها ، دون ان تترك عملها ، وذلك بأن تمد عنقها .

وجري نقل الاثاث الى البيت الجديد في نهاية نيسان وكانت جرفيز آنذاك حاملاً في شهرها الثامن . ولكنها أظهرت شجاعة عظيمة ، قائلة وهي تضحك ان الجنين يساعدها عندما تشتغل ؛ كانت تشعر في داخلها بيديه الصغيرتين تكبران وتمدانها بالقوة . وكانت تستقبل كوبو بلباقة في الايام التي يريد ان يحملها تنام ليدللها قليلاً . سوف تنام عندما تشعر بالآلام العظيمة وسيكون ذلك في وقت قريب ؛ والآن ، مع زيادة فم جديد ، يلزمها جهد عظيم . كانت هي التي نظفت المنزل قبل ان تساعد زوجها على وضع المفروشات في أماكنها . كانت تعبد هذه المفروشات، فتمسحها بعناية أُم ، وينفطر قلبها لدى رؤية اقل خدش. وتقف مأخوذة عندما تصدمها أثناء عملية الكنس كأنها ضُربت هي نفسها اما الخزانة ذات الادراج فكانت عزيزة عليها بوجه خاص ؛ فقد وجدتها جميلة ، متينة ، ذات اهمية. وهناك حلم لم تكن تجرؤ على قوله ، هو ان تحصل على ساعة (منبه) تضعها على منتصف اللوح الرخامي حيث تحدث تأثيراً بديعاً ولولا الجنين الآتي لجازفت بشراء ساعتها. واخيراً ارجأت ذلك ، متأوهة

وعاش الزوجان في سحر مسكنهما الجديد . كان سرير إتيين يشغل الغرفة الصغيرة حيث يمكن ايضاً وضع سرير جديد لطفل وكان المطبخ كبيراً كالكف ، كثير الظلام ؛ ولكن الرؤية تصبح واضحة عندما يترك الباب مفتوحاً ثم انه لم يكن على جرفيز ان تعد سفرة لثلاثين شخصاً . وكان يكفيها ان تجد مكاناً لقدرها اما الغرفة الكبرى فكانت موضع اعتزازهما . فمنذ الصباح كانا يغلقان ستائر مخدع النوم ، وهي ستائر من نسيج القطن الابيض ؛ وتتحول الغرفة الى غرفة طعام ، مع المنضدة في الوسط ، وخزانة الثياب والخزانة ذات الادراج مقابل بعضها . ولما كان الموقد يحرق بمبلغ خمسة عشر فلساً من الفحم الحجري باليوم فقد سدوه ؛ واصبح يدفئهم وجاق صغير من الحديد المصبوب اثناء البرد الشديد موضوع على صفيحة رخامية . وبعد ذلك زيّن كوبو الجدران

بأفضل ما يستطيع واعداً نفسه بتحسينها : صورة عالية تمثل احد ماريشالات فرنسا ، واثباً وعصاه بيده ، بين مدفع وكدسة من القذائف ، آخذة مكان المرآة ، وفوق الخزانة ذات الادراج صور العائلة مصفوفة على خطين الى يمين وشمال جرن قديم للماء المقدس من البورسلين المذهب توضع فيه علب الكبريت ، وعلى طنف الخزانة تمثال نصفي لباسكال يقابله تمثال لبيرانجيه ، الاول وقور والآخر مبتسم ، بقرب الساعة ، حيث يبدوان انهما يسمعان دقاتها . لقد كانت بالحقيقة غرفة جميلة

وكانت جرفيز تسأل كل زائر

– احزر كم دفعنا هنا ؟

وحين يقدّرون اجرة المنزل بشكل مرتفع كانت تنتصر وتصرخ منتشية لوجودها على هذه الحالة الحسنة بقليل من المال

– مئة وخمسون فرنكاً ، ولا درهم زيادة ! ها ! الا يستحق ذلك !

والشارع الجديد نفسه في « القطرة الذهبية » كان سبباً لقسم كبير من سرورهما. فقد كانت جرفيز تعيش فيه ، ذاهبةً دون انقطاع من بيتها الى بيت مدام فوكونيه . وكوبو اصبح الآن ينزل ويدخن غليونه على درجة الباب. والشارع الذي لا رصيف له وبلاطه مشقق ، يسير صعوداً. وفوق ، من ناحية شارع « القطرة الذهبية » كان يوجد دكاكين قاتمة ذات زجاج وسخ ، اسكافيون ، صانعو براميل ، بقال اعور ، بائع خمر بحالة افلاس اقفلت ابوابه منذ اسابيع وغطيت بالاعلانات . وفي الطرف الآخر باتجاه باريس ، بيوت من اربع طبقات تحجب السماء وتشغل طوابقها الارضية غسّالات ، متجاورات ، مكدسات ، الا ان واجهة صانع شعر مستعار في المدينة الصغيرة ، مدهونة بالاخضر ، ملأى بالزجاجات ذات الالوان سريعة التأثر كانت وحدها تبعث البهجة في زاوية الظل تلك بواسطة اللمعان الحاد لآنيتها النحاسية النظيفة ولكن بهجة الشارع موجودة في الوسط ، في المكان حيث الابنية ، وقد اصبحت قليلة واكثر انخفاضاً ، تفسح مجالاً لهبوط الهواء والشمس . وسقائف

مؤجر العربات ، والمؤسسة الصناعية المجاورة التي يصنع فيها ماء سلتز ، والمغسل في الجهة المقابلة ، كانت كلها توسع فسحة واسعة حرة ، صامتة ، فيها اصوات الغاسلات المختنقة ، والتنفس المنتظم للآلة البخارية تبدو انها تفسح مجالاً واسعاً للتأمل . واراض عميقة ، وممرات غائصة بين جدران سوداء كانت تشكل قرية هناك . وكوبو المتسلـّي بالمارة القلائل الذين يقفزون فوق السيلان المستمر لماء الصابون ، كان يقول انه يتذكر بلاداً كان احد اعمامه قد سار به اليها يوم كان في الخامسة من عمره . اما مبعث سرور جرفيز فقد كانت شجرة الى شمال نافذتها مغروسة في فناء دار ، انها شجرة طلح مادةً احد اغصانها ، وكانت خضرتها القليلة تكفي لبعث الفتنة في الشارع كله .

ولم تضع المرأة الشابة حملها الا في آخر يوم من شهر نيسان . وقد اجتاحتها الآلام بعد الظهر ، نحو الساعة الرابعة ، بينما كانت تكوي زوجاً من الستائر عند مدام فوكونيه ولم تشأ ان تذهب حالاً ، بل بقيت هناك متمرغة على كرسي ، عائدةً الى المكواة عندما يهدأ الألم قليلاً ، وكانت الستائر تستدعي العجلة ، فأصرت على الانتهاء منها ، ثم ان هـذا يمكن الا يكون سوى مغص ، ويجب الا يعتني المرء كثيراً بصحته بسبب وجع بطن . ولكن لونها شحب بينما كانت تتكلم عن البدء بقمصان رجالية . واضطرت الى ترك المشغل واجتياز الشارع منحنية الجسم ، متمسكة بالجدران وعرضت عليها احد العاملات ان ترافقها فرفضت ، ورجتها فقط ان تذهب الى القابلة في شارع لاشاربونيير . ولم يكن في البيت نار دون شك وكان عندها منها طوال الليل. وهذا لن يمنعها عند عودتها الى البيت من تجهيز الطعام لكوبو ، وبعد ذلك سترى اذا كانت ستستلقي لحظة على السرير ، دون ان تخلع ملابسها. وقد اجتاحتها على الدرج نوبة اضطرتها الى الجلوس في منتصفه ، وكانت تشد قبضتيها على فمها لئـلا تصرخ لانها كانت تشعر بالخجل ان يجدها الرجال هناك اذا صعدوا . ومر الألم ، واستطاعت ان تفتح الباب ، وسكن ألمها فظنت انها اخطأت . وقـد صنعت هذا المساء طعاما متبلاً من لحم الغنم ، وضلع غنم وكان كل شيء يسير سيراً حسنا ، بينما كانت

تقشر البطاطا . وكان ضلع الغنم في المقلاة حين عاودها العرق والمغص. وقلبت المرق وهي تحرك رجليها بشدة امام الموقد ، واعمتهـــا الدموع الكثيرة وان كانت تلد فليس هذا سببا لترك كوبو دون طعام ، اليس كذلـك ؟ .. واخيراً ُطبخ اللحم المتبل على نار خفيفة مغطاة بالرماد ، وعادت الى الغرفة ، ظانةً ان لديها متسعاً من الوقت لتضع لوازم المـــائدة على طرف الطاولة . واضطرت الى وضع ليتر النبيذ بسرعة ، اذ لم يبق لديهـــا من القوة ما يوصلها الى السرير ، فسقطت وولدت على الأرض ، على حصير . وعندمـا وصلت القابلة ، متأخرة ربع ساعة ، اتمت لها عملية الولادة هناك .

وكان عامل الزنك يشتغل دائمـاً في المستشفي . ولم تشأ جرفيز ان يذهب احد لازعاجه . وحين عاد الى البيت في الساعة السابعة وجدها قـــد ولدت ، وكانت مغطاة جيداً ، كثيرة الشحوب على الوسادة . والطفل يبكي وقد ُقمط بشال عند قدمي الام :

وقال كوبو معانقاً جرفيز :

– آه ! يا لزوجتي المسكينة ! انـا الذي كنت امزح منذ ساعة بينما كنت تصرخين ! .. قولي اذن . انك لم تتلبكي ووضعت جنينك في وقت لا يتعدى العطسة .

فابتسمت ابتسامة خفيفة وتمتمت

– انها ابنة .

فقال عامل الزنك كاذباً ليهدىء روعها

– تماماً ! .. كنت اطلب ابنة ، وها انا نلت ما اطلب اذن فانت تفعلين كل ما اريد .

واخذ الطفلة وتابع

– لنلق نظرة عليك يا آنسة سويون ! .. لك وجه صغير اسود. وسيصبح ابيض، لا تخافي . يجب ان تكوني عاقلة ، ولا تكوني فـاجرة ، وتكبري ، وتصبحي ذات عقل كبابا وماما .

وجرفيز كانت كثيرة الرصانة تنظر الى ابنتها ، وهي مفتوحة العينين وقد اصبحتا كالحتين شيئاً فشيئاً من الحزن . وهزت رأسها ، كانت تريد غلاماً لأن الغلمان يتملصون دائماً من الورطات ولا يتعرضون للمخاطر في باريس. واضطرت القابلة ان تأخذ الطفلة من يدي كوبو ومنعت جرفيز من الكلام ، وكانت كثرة الضجة حولها تؤذيها . وقال عامل الزنك ان من الضروري إعـلام الأم كوبو وآل لوريللو ، ولكنه كان يتضور جوعاً ويريد ان يتناول طعامه اولاً. وكان مصدر قلق عظيم للنفساء ان تراه يخدم نفسه ، ويركض الى المطبخ في طلب اللحم المطبوخ ، ويأكل في صحن اجوف ، ولا يجد الخبز . ورغم المنع، كانت تشكو وتتقلب بين الاغطيـة وكان من البلادة ألا تستطيع وضع المائدة ، فقد ألقاها المغص ارضاً بضربة عصا . وزوجها المسكين ربما يحقـد عليها حين تظل مرفهة بينما هو يأكل بشكل سيء . هل البطاطا مشوية جيداً على الاقل ؟.. لم تكن تذكر اذا كانت قد ملّحتها .

وصرخت القابلة اسكتي !

فقال كوبو وفمه ملآن

— أه ! لو تمنعينها من اجهاد نفسها ! اراهن على انها كانت نهضت لتقطع لي خبزي لو لم تكوني هنا ابقي مستلقية على ظهرك ايتها البلهاء الكبيرة ! يجب الا تهدمي نفسك والأ فسوف تظلين خمسة عشر يومـاً لتقفي على قدميك طعامك طيب جداً . والسيدة ستأكل معي . اليس كذلك ايتها السيدة ؟

ورفضت القابلة ؛ ولكنهـا ارادت ان تشرب كأساً من النبيذ كأنها تأثرت كما قالت حين وجدت المرأة البائسة مع طفلتها على الحصير . واخيراً ذهب كوبو ليعلن الخبر للعائلة . وبعد نصف ساعة عاد مع الجميع الام كوبو ، آل لوريللو ومدام ليرا التي التقى بها عند هؤلاء الآخرين . وقد اصبح آل لوريللو يبدون المحبة بعد نجاح الزوجين. وكانا يفرطان في مدح جرفيز، وتفلت منهما حركات صغيرة معينة ، وهزات ذقن ، ورفّات جفون كأنهما يرجئان حكمهما الصحيح واخيراً عرفا ما عرفا ؛ الا انهما لم يكونا يريدان مخالفة رأي الحي كله .

وصاح كوبو

– جئتك بالعصبة كلها ! لا يهم . فقد ارادو رؤيتك لا تفتحي منقارك فهذا ممنوع عليك . سوف يبقون هنــا ينظرون اليك بهــدوء دون غيظ ، اليس كذلك ؟ اما انا فسأذهب لأصنع لهم القهوة .

واختفى في المطبخ امــا الام كوبو فقــد عانقت جرفيز ودهشت من كبر الطفلة والمرأتان الأخريان كذلك طبعتا قبلة كبيرة على خد النفساء وظـل النسوة الثلاث واقفات امام السرير وهن يشرحن ،صائحات، تفاصيل الولادات والولادات العجيبة سن يقتلع ، ليس اكثر وكانت مدام ليرا تفحص الطفلة في كل مكان ، وصرحت بأنها مطابقة تماماً ، حتى انها اضافت عن قصـــد انها ستصبح امرأة ممتازة . وبما انها وجدت رأس الطفلة مروساً فقد ضغطت عليه ضغطاً خفيفاً لتجعله مستديراً ، وذلك رغم صراخ الطفلة ، مما حدا بمدام لوريللو ان تنتزعها منها غاضبة لان هــذا العمل يكفي لاعطاء المخلوقة كل العيوب اذا لمست هكذا وعندما تكون جمجمتها لدنــة ثم جرى البحث عن المشابهة ، واعوزتهم المشاجرة . وقد ردد لوريللو ، الذي كن يمد عنقه من وراء النساء ، ان الصغيرة ليس فيها شيء من كوبو . ربما شيء قليل من الانف ، وبعد!..انها بكليتيها تشبه امها مع عينين من الخارج ، من المؤكد ان هاتين العينين لم تأتيا من العائلة

ولم يظهر كوبو ، فقد كان يُسمع من الخارج وهو يتعارك مع الموقـــد وإناء القهوة وغلى دم جرفـــيز فصنع القهوة ليس من عمل الرجـــل ؛ وكانت تصيح فيه لتعلمه كيف يتصرف ، غير مصغية الى الامر الشـديد الصادر عن القابلة بلزوم الصمت

وقال كوبو الذي عاد واناء القهوة في يده

– اتركوا لاذع الكلام ! هـــا ! ألا تزال مضجرة ! يجب ان تصاب بالكابوس ... سنشرب هذا في كؤوس ، أليس كذلك ؟.. فقد ظلت الفناجين عند البائع كما ترون .

وجلسوا حول الطاولة . واراد عامل الزنك ان يسكب القهوة بنفسه . وشعر بأنه قوي للغاية ، ولم يكن ذلك من قيام قائم الزرازير وذهبت القابلة بعدما شربت كأسها ؛ وكان كل شيء يسير سيراً حسناً وليس هناك من حاجة اليها . واذا لم يمر الليل على ما يرام فسيرسلون في طلبها صباح الغد . وكانت لا تزال تهبط الدرج حين نعتتها مدام لوريللو بالشاربة التي لا تصلح لشيء . انها تضع اربع قطع من السكر في قهوتها ، وتطلب خمسة عشر فرنكاً لتتركك تلدين وحدك . ولكن كوبو دافع عنها ؛ ودفع الفرنكات الخمسة عشر عن طيبة قلب ؛ وبعد ، فهؤلاء النساء يقضين شبابهن بالدرس ، وهن على حق في ان يطلبن اجرة غالية . ثم تشاجر لوريللو ومدام ليرا ، فقد زعم ان المرء اذا اراد ان يحصل على غلام عليه ان يدير رأس سريره نحو الشمال ، بينما هي هزت كتفيها ناعتةً هذا الزعم بالصبيانيات ، معطية وصفة اخرى ، قائلة بأن على الزوج ان يخبىء تحت الفراش قبضة من نبات القرّاص النضر المقطوف في الشمس ، دون ان يخبر زوجته وكانوا قد دفعوا بالمنضدة الى قرب السرير . وحوالي الساعة العاشرة استولى على جرفيز تعب شديد ، وظلت مبتسمة رعناء ، ورأسها يتقلب على الوسادة ، وكانت ترى وتسمع ولكنها لم تجد القوة لتجازف بحركة او بكلمة ، وقد خيل اليها انها ميتة ، وهو موت عذب جداً كانت سعيدة ان ترى الاحياء الآخرين من اعماقه . وبين فترة واخرى كان يتصاعد صراخ الصغيرة بين الاصوات الضخمة ، وخواطر لا تنتهي حول جريمة قتل ارتكبت مساء في شارع بون - بوي ، في الطرف الآخر من لاشابيل .

ثم عندما فكر الجميع بالرحيل ، جرى الحديث حول العماد . وقد رضي آل لوريللو ان يكونا عرّابين ، وكانا غاضبين في دخيلة نفسيهما ومع ذلك فلو لم يتوجه الزوجان اليهما لتغيرت سحنتهما . وكوبو لم يكن يرى من ضرورة لعماد الصغيرة ، فهذا لن يعطيه دخلاً بعشرة آلاف ليرة ، ثم ان العماد يعرضها للاصابة بالزكام . وكلما قل تدخل الكهنة يكون افضل . ولكن الام كوبو نعتته بالوثني . وآل لوريللو كانوا يدعون بانهم من المتدينين ، دون ان

يذهبوا لأكل جسد الرب في الكنائس .

وقال صانع السلاسل

– سيجري ذلك نهار الاحد ، اذا شئتم .

ووافقت جرفيز بإشارة مـن رأسها ، وعانقها الجميع طالبين لها الصحة ووعوا الطفلة ايضاً . وجـاء كل منهم ينحنى على هـذا الجسد الصغير المسكين المرتعش ، بابتسامـات وكلمات حنو ، كأن باستطاعته ان يفهم . وقـد اطلقوا عليها اسم نانا . وهو اسم الدلع لاسم أنّا الذي تحمله عرّابتها

– مساء الخير يا نانا هيا يا نانا كوني فتاة جميلة ...

وحين ذهبوا اخيراً وضع كوبو كرسيه مقابل السرير وأنهى تدخين غليونه آخذاً يد جرفيز بيده . كان يـدخن متمهلاً ، مفصحاً عن بعض المبارات بين نفختين . وكان متأثراً جداً

– ها ؟ هل كسروا رأسك يا عجوزي ؟ انت تعلمين انني لا استطيـع منعهم من المجيء . وبعد ، فهذا برهان على صداقتهم ...ولكن ، اليس كذلك ؟ بقاؤنا وحدنا افضل . وانـا بحاجة لان اظـل وحدي قليلاً ، هكذا ، ممك والسهرة تبدو لي طويلة ! ..يا للدجاجة المسكينة ! لقـد تألمت اهؤلاءالاطفال حين يأتون الى الدنيا فلا مجال للشك بما يسببون من ألم . صحيح ، هذا يجب ان يكون مثلما لو فتح بطنك أين هذا الألم لأقبّله ؟

وأمرّ ، بمدارة ، يديه الضخمتين تحت ظهرها ، وجذبها ، وقبل بطنها من فوق الغطاء مجتاحاً بحنو رجل قاسٍ لذلك الخصب الذي لا يزال متألماً وسأل اذا كان سبب لها ألماً، وكان بوده لو شفاها بتنفسه فوقها . وكانت جرفيز سعيدة جداً فأقسمت له انها لا تتألم ابداً . وكانت تفكر فقط بالنهوض بأسرع مـا يمكن لأنها يجب ألا يقفا مكتوفي الايدي الآن . ولكنه طمأنها . اليس مكلفاً بربح ثمن الطعام للصغيرة ؟ .. سيكون جباناً كبيراً لو ترك لها عبء هذه الطفلة على ظهرها . ولم يكن يبدو له ان من الحمق معرفة صنع واد : فالجدارة هي في تغذيته ، اليس صحيحاً ؟

لم ينم كوبو تلك الليلة . وكان قد غطى نار الموقد . وكان عليه كل ساعة أن ينهض ليعطي الطفلة بعض ملاعق من الماء الفاتر المحلّى بالسكر . وهذا لم يمنعه من الذهاب في الصباح الى الشغل كعادته . واغتنم فرصة ساعة طعامه فذهب الى مكتب المختار وقدم تصريحه . واثناء ذلك أعلمت مدام بوش بالنبأ فركضت لتقضي النهار الى جانب جرفيز . ولكن هذه ، بعد عشر ساعات من النوم العميق كانت تشكو وتقول انها شاعرة بتشنج بسبب البقاء في السرير . وسوف تصاب بالمرض اذا لم يدعوها تنهض . وفي المساء ، عندما عاد كوبو ، حكت لها عما يعذبها . وكانت تثق بمدام بوش دون شك ، ولكن رؤية امرأة غريبة تدخل الى غرفتها ، وتفتح الادراج ، وتلمس اشياءها ، كانت تخرجها عن طورها . وفي صباح الغد عادت زوجة البواب فوجدتها واقفة ، مرتدية ملابسها ، تكنس وتهتم بطعام زوجها . ولم ترض ابداً ان تعود الى النوم . ربما كانوا يسخرون منها ! وكان مما يلائم السيدات ان يظهرن محطمات . ولكن لا وقت للمرء حين لا يكون غنياً

بعد ولادتها بثلاثة ايام كانت تكوي التنورات عند مدام فوكونيه وتضرب بيدها على المكاوي ، ويسيل عرقها بسبب حرارة الموقد العظيمة

ومنذ مساء السبت حملت مدام لوريللو هداياها كعرّابة : قلنسوة بخمسة وثلاثين فلساً ، وثوب للعماد مغبّن ومجهز بمخرمات صغيرة حصلت عليه بستة فرنكات لأن رونقه كان زائلا . وفي الغد ، فان لوريللو كعرّاب ، اعطي النفساء ست ليبرات من السكر . كانا يقومان بالأمور بدقة . وحتى في المساء ، في الوليمة التي اقيمت عند آل كوبو ، فانهما لم يحضرا فارغي الايدي . اذ وصل الزوج وتحت كل من ابطيه ليتر مختوم من النبيذ ، بينما كانت الزوجة تحمل صفيحة معدنية اشترتها من محل حلواني في شارع كلينيانكور ذي شهرة كبيرة . الا ان آل لوريللو راحا يتحدثان عن عطيتهما في الحي كله ؛ وقد انفقا ما يقارب العشرين فرنكاً . وحين علمت جرفيز بثرثراتهما الخبيثة ظلت مغتاظة ولم تظهر اي اهتمام بتصرفاتهما الحسنة

في وليمة العماد هذه ربط آل كوبو اواصر الصداقة الوثيقة مع جيران السطح فالمسكن الآخر من البيت الصغير كان يشغـله شخصان ، ام وابن ، آل غوجيـه كما يدعونهما . وكانوا حتى الآن يتبادلون التحيـة على الدرج وفي الشارع ، ليس اكثر . وكان الجـيران يبدون نفورين من النـاس . ثم ان الام اصعدت لجرفيز دلواً من الماء غداة الولادة ، فرأت هذه ان من اللائق دعوتهما الى الطعام ، يضاف الى ذلك انها وجدتهما من الفضلاء . وهنا ، كان من الطبيعي ان يتعارفا

كان آل غوجيه من مقاطعة الشمال الأم ترفأ المخرمات (الدانتيللا) ؛ والابن حداد يشتغل في معمل براغي . وكانا يشغلان المسكن الآخر من السطح منذ خمس سنوات . وكان يختبيء حزن قديم وراء سـلام حياتهما الصامت ؛ فالاب غوجيه ، في يوم سكر غاضب في مدينة ليل ، قتـل رفيقاً له بضربة قضيب حديدي ، ثم خنق نفسه في سجنه بواسطة منديله وجـاءت الارملة والولد الى باريس بعد مصيبتهما ، وكانا يشعران دائماً بهذه المأساة فوق رأسيهما ، وقد كفّرا عنها بنزاهة متشددة، ولطف ، وشجاعة لا يفسدها شيء ، حتى انها كانت ممتزجة بشيء من الكبرياء في حالتهما ، لأنهما انتهيا الى رؤية انفسهما انهما افضل من الآخرين ومدام غوجيه ، ترتدي السواد دائماً ، وجبهتها محاطـة بقلنسوة رهبانية ، وهي ذات وجـه ابيض مطمئن لامرأة مسنّة ومهيبة ، كما لو ان شحوب المخرمات ، شغل اصابعهـا الدقيق ، قـد اكسبها انعكاساً من الطلاقة . وكان غوجيه عملاقاً في الثالثة والعشرين من سنه ، انيقـاً ، وردي الوجه ، ازرق العينين ، ذا قـوة هرقيلية وفي المشغـل كان الرفاق يسمونه « الحلقوم الذهبي » بسبب لحيته الجميلة الصفراء .

وشعرت جرفيز حالا بصداقة عظيمة لهؤلاء الناس . وحـين دخلت بيتهما لاول مرة بقيت مندهشة من نظافـة المسكن . لم يكن هنـاك ما يقال ، وكان بالامكان التنفس في كل مكان . ليس هناك ذرة غبار تطير . وكان الزجـاج يلمع بصفاء المرآة . وادخلتها مدام غوجيه الى غرفـة ولدهـا لترى . كان كل شيء

لطيفاً وابيض كما في غرفة فتاة سرير حديدي صغير مجهز بستائر من الموسلين، ومنضدة، وادوات زينة، ومكتبة صغيرة معلقة بالحائط؛ ثم صور من اعلى الى اسفل، ووجوه خشنة مقطوعة ورسوم ملونة مثبتة بالمسامير، وصور لاشخاص من جميع الانواع فصلت عن الجرائد المصورة. وقالت مدام غوجيه، بابتسامة، ان ولدها غلام كبير؛ وكانت القراءة تتعبه في المساء، فصار عندئذ يلهو برؤية صوره. ونسيت جرفيز نفسها طوال ساعة كاملة بجانب جارتها التي عادت تجلس الى منسجها امام النافذة. وكانت تهتم بمئات الدبابيس معلقة المخرمات بها، سعيدة بوجودها هنا، متنشقة رائحة نظافة المسكن الطيبة، حيث هذا العمل الدقيق يفرض صمتاً تأملياً

وكان آل غوجيه يربحون ولا وقت لديهم للمخالطة. ويعملون اياماً بكاملها ويضعون اكثر من ربع اجرتهم كل اسبوعين في صندوق التوفير. وفي الحي كانوا يحيونهم، ويتحدثون عما اقتصدوه ولم يكن في غوجيه اي مطعن، يخرج بدرّاعة عمالية قصيرة نظيفة، دون اي وسخ. وكان كثير التهذيب، فيه شيء من الخجل رغم كتفيه العريضين. وكانت غسالات آخر الشارع يبتهجن لدى رؤيته وهو يخفض انفه عندما يمر. فهو لم يكن يحب كلماتهن الخشنة ويجد من المقرف ان تظل افواه النساء تلفظ القذارة. وذات يوم عاد الى البيت ثملاً. فكان كل ما وجهت اليه مدام غوجيه من لوم هو انها وضعته أمام صورة أبيه، وهي صورة سيئة مخبأة بورع داخل الخزانة ومنذ ذلك الدرس لم يعد غوجيه يشرب سوى كفايته، دون كراهية للخمرة، لان الخمرة ضرورية للعامل ونهار الاحد كان يخرج مع والدته، مقدماً لها ذراعه؛ وفي اغلب الاحيان يذهب بها الى المسرح. وقد ظلت امه هي كل حبه. وكان يكلمها كما لو انه لا يزال طفلاً. رأسه مربع ولحمه مثقل بشغل المطرقة القاسي. وكان ذا جهل، خشن الذكاء، الا انه مع ذلك عنصر طيب

في الايام الاولى كانت جرفيز تقلقه كثيراً. ثم اعتاد عليها في بضعة اسابيع وكان يترصدها ليريها اشياءه، ويعاملها كأخت، مع دالّة فجائية، قاطعاً

الصور حسب مبتغاها . الا انه ذات صباح ادار المفتاح دون ان يطرق الباب وفاجأها نصف عارية وهي تغسل عنقها ؛ وقد ظل ثمانية ايام لا يرفع نظره اليها مع انه انتهى الى ان يجعلها هي نفسها تحمرّ خجلاً

وكادي كاسى بثرثرته الباريسية الوقحة كان يجد الحلقوم الذهبي احمق . حسن الا يشرب المرء، والا ينفخ في انوف الفتيات على الارصفة ؛ الا ان الرجل يجب ان يكون رجلاً ، وبدون ذلك من الافضل له ان يرتدي تنورة وكان يهزأ منه أمام جرفيز متهماً اياه بالتطلع الى كل نساء الحـي ؛ وغوجيه رئيس الطبالين هذا كان يدافع عن نفسه بشدة ، وهذا لم يمنع العاملين من ان يكونا رفيقين . وكانا يتناديان صباحاً ليذهبا معاً ، واحياناً يشربان كأساً من الجعة قبل العودة . ومنذ وليمة العماد رفعا الكلفة وصارا يتخاطبان بلغة الفرد لان قول « انتم *Vous* » دائماً يطيل الجملة . ولم تتعد صداقتهما ذلك ، حين قدم الحلقوم الذهبي لكادي – كاسي خدمة عظيمة ، احدى تلك الخدمات المعتبرة التي يتذكرها المرء طوال الحياة . كان ذلك في الثاني من كانون الاول . وقد خطرت لعامل الزنك بدافع المجون فكرة النزول لمشاهدة ثورة ؛ كان يسخر من الجمهورية ، ومن بونابرت ، ومن الهزة كلها الا انه كان يحب البارود ، وطلقات البنادق تبدو له ملهاة . وكاد يقبض عليه وراء متراس لو لم يكن الحداد هناك في الوقت المناسب ليحميه بجسده الضخم ويساعده على الفرار . وكان غوجيه يسير بسرعة ، رزيناً ، وهو يصعد شارع فوبور – بواسونيير . وكان يهتم بالسياسة ، انه جمهوري النزعة بتعقل ، باسم العدالة وسعادة الجميع . الا انه لم يطلق بندقية . وكان يدلي بالاسباب لقد امتنع الشعب عن ان يعطي البورجوازيين الكستناء التي سحبها من الرماد حارقاً قوائمه ، وشباط وحزيران كانا درسين عظيمين ، ثم ان الضواحي من الآن فصاعداً سوف تترك المدينة تسوي امورها كما تشاء . وقد التفت حين وصل الى المرتفع في شارع بواسونيير متطلعاً الى باريس ، أنهم ينجزون اعمالهم هناك على عجل ، وربما يندم الشعب ذات يوم لوقوفه مكتوف الايدي . ولكن كوبو كان يضحك ، ويدعوهم

بالحمقى اولئك الحمير الذين يجازفون بحياتهم في سبيل الاحتفاظ بفرنكاتهم الخمسة والعشرين لكسالى المجلس . وفي المساء دعا آل كوبو آل غوجيه للعشاء . وفي نهاية الوليمة تبادل كادي ـ كاسي والحلقوم الذهبي القبلات الحارة على الخدود. والآن ، فهي الصداقة طول الحياة

وجرت حياة العائلتين طوال ثلاث سنوات في ناحيتي السطح دون أي حادث وكانت جرفيز تربي الصغيرة ، واجدة الوسيلة لاضاعة يومي شغل في الاسبوع على الاكثر واصبحت عاملة جيدة ، وتربح حتى الثلاثة فرنكات . وصممت ايضاً ان تضع اتيين ، الذي بلغ الثامنة ، في مدرسة في شارع شارتر حيث تدفع مئة فلس . وكان الزوجان ، رغم عبء الولدين ، يضمان عشرين وثلاثين فرنكاً كل شهر في صندوق التوفير . وحين بلـــغ توفيرهما الستماية فرنك لم تنم المرأة الشابة ، وتسلط عليها حـلم طمّاع : كانت تريد ان تستقر ، وتستأجر دكاناً صغيرة ، وتأخذ بدورها عاملات . وكانت قد حسبت كل شيء . ففي مدى عشرين سنة ، اذا سار الشغل سيراً حسناً ، يصبحان ذا دخل يمكنها من الذهاب لتناول الطعام في بعض النواحي ، في البرية . الا انها لم تكن تجرؤ على المجازفة . كانت تقول انها تبحث عن دكان وذلك لتعطي نفسها وقتا للتفكير . والنقود في صندوق التوفير لا بأس عليها ، بل بالعكس ، انهـا تلتج فائدة . وفي مـدى ثلاث سنوات أرضت احدى رغباتها ، فقـد اشترت ساعة (منبه) ، وهذه الساعة من خشب بنفسجي اللون ، ذات أعمدة مفتولة، ورقاص من النحاس المذهب ، وقد استغرق دفع ثمنها سنـة ، بقسط عشرين فلسا كل نهار اثنين . وكانت تغضب حين يتحدث كوبو عن تدويرهـا ، فهي وحدها ترفع الكرة الزجاجية ، وتمسح الاعمدة بتعبد ، كأن رخام خزانتها قد تحول الى كنيسة . وتحت الكرة ، وراء الساعة ، كانت تخبىء دفـتر صندوق التوفير وفي اغلب الاحيان حين تحلم بدكانها ، كانت تنسى نفسها هناك أمـام وجه الساعة متطلعة الى دوران العقربين كأنها تنتظر دقيقة خاصة واحتفالية لتحزم أمرها .

وكان آل كوبو يخرجون تقريباً كل أيام الآحاد مع آل غوجيه . إنها نزهات لطيفة ، طعام مقلي في سان – اوان او ارنب في فانسين يؤكل دون دهشة تحت شجرة لشوّاء . وكان الرجلان يشربان ارواء ً لعطشهما ويعودان سالمين كالعين مقدمين ذراعيهما للسيدتين . وفي المساء ، قبـــل النوم ، تحسب العائلتان النفقة وتتقاسمانها مناصفة دون ان يثير جدالهما فلس يزيد او ينقص . وكان آل لوريللو يحسدون آل غوجيه ، ويبدو لهم مستغرباً ان يذهب كادي – كاسي والعرجاء دون انقطاع مع غرباء ، مع ان لهما عائلة . آه ! نعم ، ان اهتمامهما بعـــائلتهما كاهتمامهما بالشؤم ! ومنذ ان اصبح لديهما اربعة فلوس في صندوق التوفير ركبـا رأسيهما . ومدام لوريللو المغتاظة جداً لرؤية اخيها يتفلت منهـــا بدأت تتقيأ شتائم ضد جرفيز . أما مدام ليرا ، بالعكس ، فقد أخذت ناحية المرأة الشابة ، وكانت تدافع عنها ، راوية حكايات عجيبة ، ومحاولات اغراء مساء في الشارع ، اذ أظهرتها خارجة من المأساة كبطلة ، موزعه الصفعات على المعتدين عليها . أما الام كوبو فكانت تسعى لاصلاح ذات البين مع الجميـع ، وان تكون على علاقة حسنة مع اولادها ؛ وكان نظرها يزداد ضعفاً ، ولم يبق عليها سوى تدبير نفقات البيت وكانت مسرورة بان تجد مئة فلس عند هؤلاء وعند اولئك .

في نفس النهار الذي بلغت فيه نانا سنتها الثالثة ، فان كوبو عنـــد عودته مساء وجد جرفيز مضطربة ورفضت ان تتكلم . وقالت ان ليس بها شيء . ولكن حين وضعت غطاء المنضدة على القفا ، ووقفت تحمـل الصحون وهي غارقة في تفكير عميق ، اراد زوجهـا ان يعرف كل شيء وانتهت بان اعترفت قائلة :

– حسناً ، اليك ما تريد . ان دكان بائع الخردة الصغير في شارع القطرة الذهبية معروضة للايجار ... وقد رأيتها منذ ساعة عندما ذهبت لاشتري خيوطاً وقد صدمني ذلك .

انها دكان نظيفة جداً في البيت الكبير حيث كانت تحلم ان تسكن في الماضي . وهناك الدكان ، ومؤخرة الدكان ، مع غرفتين أخريين الى اليمين

والشمال ، وهــذا ما يحتاجانه ، والغرفتــان صغيرتان قليــلاً ولكنهما مرتبتان جيداً إلا انها وجدت بدل الايجار مرتفعاً . فقد طلب صاحب الملك خمسماية فرنك

فقال كوبو : اذن فقد قمت بالزيارة وسألت عن الثمن ؟

فأجابت متظاهرة باللامبالاة

– أوه ! انت تعلم ، بدافع الفضول . فالمرء يبحث ويدخــل الى اي مكان أعلن عنه فهذا لا يقيد بشيء .. ولكنها غالية بالتأكيد ثم ربمــا كان من الحماقة ان أؤسس مشغلاً

إلا انها عادت بعد الغداء الى دكان بائع الخردة . ورسمت الاماكن على هامش صحيفة . وشيئاً فشيئاً تحدثت عنها ، وقاست الزوايا ، ونظمت الغرف كما لو انها مضطرة منذ الغد الى ترتيب مفروشاتها فيها وعندئذ دفعهــا كوبو الى الاستئجار حين رأى رغبتها الكبيرة ؛ ومن المؤكد أنها لن تجد مكاناً ملائماً بأقل من خمسماية فرنك ، ومع ذلك يمكن الحصول على تخفيض والشيء الوحيــد المزعج هو السكن في بيت لوريللو الذي لا تحتمله . ولكنها كانت تغضب ، ولا تكره احداً ، وفي حرارة رغبتها كانت تــدافع عن آل لوريللو ، لانهم ليسوا ارديا‌ء في سريرتهم ويمكن التفاهم معهم وحين نامــا ، كان كوبو قد نام قليلا ، اما هي فتابعت ترتيباتها الداخليــــة ، دون ان ترضى بالايجار ، بشكل واضح .

وفي الغد ، وقد بقيت وحدها ، لم تستطع مقاومة حاجتها الى رفع كرة الساعة والنظر الى دفتر صندوق التوفير . ان دكانها هنا في هذه الاوراق المتسخة ذات الكتابة القبيحة ! وقبل ان تذهب الى الشغل استشارت مدام غوجيه التي استصوبت كثيرا مشروعها في فتح مشغل لها ؛ ومع رجل كزوجهـــا ، وهو مواطن صالح ، لا يشرب ، كانت متأكدة من القيام باعمالها وبانهــا لن تخسر وعند الغداء صعدت الى بيت آل لوريللو لتحصل على رأيهم ؛ كانت ترغب بألا تبدو انها تهرب من العائلة . وظلت مدام لوريللو مندهلة . كيف ! المرجــاء

سيكون لها دكان ، في تلك الساعة ! لقد انفطر قلبها ، وتلجلجت واضطرت الى الظهور بمظهر المسرورة : الدكان مريحة دون شك ، وجرفيز على حق بأخذها . إلا أنها بعد ان هدأ روعها قليلا تكلمت هي وزوجها عن رطوبة الباحة ، وعن النهار المظلم لغرف الطابق الارضي ، اوه ! انها زاوية ممتازة للروماتيزم . واخيراً اذا كانت قد قررت ان تستأجر فان ملاحظاتها مالتأكيد لن تمنعها من الاستئجار

في المساء اعترفت جرفيز بصراحة وهي تضحك انها ستصاب بالمرض اذا منعت من الحصول على الدكان . ومهما كان الامر فانها قبل قول تم كل شيء ! تريد ان تصحب كوبو ليرى الاماكن ويحاول الحصول على تخفيض من قيمة الايجار . فقال زوجها

– اذن غداً ، اذا راق لك ذلك ستأتين لاصطحابي حوالي الساعة السادسة من البيت الذي اشتغل فيه ، شارع الشمب ، وسنمر من شارع القطرة الذهبية عند العودة .

كان كوبو آنذاك قد انهى سطح بيت جديد مؤلف من ثلاث طبقات وكان عليه في ذلك النهار ان يضع آخر لوح من الزنك . وبما ان السطح كان شبه مسطح فقد وضع عليه طاولة الشغل ، وهي مصراع نافذة ، عريض مرفوع على قائمتين. وكانت تغيب شمس جميلة من ايار ، صابغة المداخن بلون الذهب، وفوق، في السماء الصافية ، كان العامل يشذب زنكه بالمقص مطمئناً ، منحنياً على منضدته ، شبيها بخياط يفصل في بيته زوجاً من البنطلونات القصيرة ومقابل جدار البيت المجاور ، كان مساعده ، وهو غلام في السابعة عشرة نحيف الجسم اشقر ، يتعهد نار الموقد ويشغل منفخاً ضخماً ، فكانت كل نفخة منه تطير الشرر .

وصرخ كوبو :

– هيه ! يا زيدور ، ضع المكاوي !

فأدخل المساعد المكاوي التي يلحم الزنك بواسطتها في وسط نار وردية

شاحبة في وضح النهار . ثم اخذ ينفخ . وكان كوبو يمسك آخر لوح من الزنك ، وبقي عليه ان يضمه على حافة السطح بالقرب من الميزاب ، وهناك يوجد منحدر شديد ، وكان ثقب الشارع الفاغر فاه ينحفر امامه . وكان عامل الزنك كأنه في بيته ، ينتعل حذاء من نسيج ، وقد تقدم ساحباً رجليه وهو يصفر لحن : « اوهيه ! الحملان الصغيرة ! » وحين وصل امام الثقب نزل فيه مستنداً بركبته الى جدار مدخنة ، وظل في منتصف الطريق الى الشارع . وكان احد ساقيه معلقاً . وحين انقلب لينادي ذلك الافعوان زيدور تمسك بزاوية من البناء بسبب الرصيف ، هناك ، تحته .

– هيا ايها المتباطىء ! هات المكاوي ! عندما تتطلع في الهواء ايها الهزيل فان القبرات لن تسقط مشوية عليك !

ولكن زيدور لم يكن متعجلا . لقد كان اهتمامه على السطوح المجاورة بدخان عظيم يتصاعد من أعماق باريس ، من ناحية غرينيل ؛ ربما كان حريقاً . الا انه جاء وانبطح على بطنه ، ورأسه فوق الثقب ، وأوصل المكاوي الى كوبو وعندئذ بدأ هذا يلحم اللوح . كان يجثم ، ويتطاول ، محافظاً دائماً على توازنه ، جالساً على إلية واحدة ، واقفاً على رأس قدم ، متمسكاً باصبع . كان رابط الجأش ، جريئاً ، ممتاداً ، مقتحماً الخطر . فالخطر يعرفه ، والشارع هو الذي كان يخاف منه ، وبما انه لم يكن يترك غليونه فقد كان يدور بين وقت وآخر ، ويبصق في الشارع بهدوء . وصاح فجأة

– هذه مدام بوش ! اوهيه ! مدام بوش !

فقد رأى زوجة البواب تجتاز الطريق . ورفعت رأسها فعرفته وابتدأ حديث من السطح الى الرصيف . كانت تخبىء يديها تحت مريلتها وأنفها في الهواء ، وهو واقف الآن ، ينحني وذراعه الأيسر ملتف حول الأنبوب . وسألها

– ألم تري زوجتي ؟

فأجابت زوجة البواب :

– كلا ، بالتأكيد ، هل هي هنا ؟

– يجب ان تأتي لتأخذني . هل كل من عندك بصحة جيدة ؟

– ولكن نعم ، شكراً . أنا الاكثر مرضاً كما ترى اني ذاهبة الى كلينيانكور لآتي بفخذ غنم فالجزار بالقرب من الطاحونة الحمراء لا يبيعه إلا بستة عشر فلساً .

ورفعا صوتيهما لأن عربة كانت تمر في شارع الأمة الواسع المقفر ، وكان من نتيجة حديثهما المرتفع ان امرأة عجوزاً وقفت في نافذتها ، وظلت هناك مستندة الى مرفقها ، متظاهرة بذهول متأثر لرؤيتها هذا الرجل على السطح المقابل ، كما لو انها كانت تأمل ان تراه يسقط بين دقيقة واخرى .

وصاحت أيضاً مدام بوش

– حسناً ، اسعدت مساء لا اريد ان ازعجك

ودار كوبو واخذ المكواة التي مد زيدور يده بها ولكن في اللحظة التي ابتعدت زوجة البواب شاهدت على الرصيف الآخر جرفيز ممسكة نانا بيدها وكانت قد رفعت رأسها لتنبى عامل الزنك ، الا ان المرأة الشابة اطبقت لها فمها بحركة قوية ، وحدثت عن خوفها بصوت منخفض لئلا يسمع زوجها كانت تخشى ان يحدث ظهورها الفجائي هزة لزوجها تجعله يسقط . وفي مدة أربع سنوات لم تذهب تطلبه في عمله إلا مرة واحدة . والمرة الثانية في هذا النهار لم تكن تستطيع مشاهدة ذلك ، ولا يدور دمها سوى دورة واحدة عندما ترى زوجها بين السماء والأرض ، في أماكن لا تجازف عصافير الدوري نفسها بالوصول إليها . وتمتمت مدام بوش

– دون شك ، هذا ليس مستحبّاً . اما انا فزوجي خياط ولا اصاب برعشات .

وقالت جرفيز أيضاً

– لو تعلمين ، كانت المخاوف تنتابني في الايام الأولى من الصباح الى المساء . وكنت أراه دائماً محطم الرأس ، على نعش ... والآن لا افكر في ذلك ابداً

فالمرء يعتاد على كل شيء . يجب ان نحصل على الخبز .. ولا يهم اذا كان خبزاً غالياً جداً ، لأن الانسان في اغلب الاحيان يخاطر بحياته في سبيله .

وسكتت ، وخبأت نانا في تنورتها خائفة ان تصرخ الصغيرة . وكانت تتطلع رغماً عنها ، وهي شاحبة اللون . وكان كوبو يلحم الحافة النهائية للوح بالقرب من الميزاب . وكان ينحدر جهد استطاعته ولم يستطع بلوغ الطرف . وعندئذ جازف ، بتلك الحركة البطيئة للعمال ، الملأىء بالسهولة والثقل . وفي لحظة اصبح فوق الشارع ، مطمئناً ، غير ممتنع عن عمله ؛ وفي اسفل ، تحت المكواة المتحركة بيد معتنية ، كانت ترى لهبة اللحام الصغيرة البيضاء وهي تتشنج . وجرفيز صامتة ، وحنجرتها مخنوقة من القلق وكانت تضم يديها ، وترفعها بحركة توسل آلية . ولكنها تنفست الصعداء ، فقد عاد كوبو وصعد الى السطح دون ان يتعجل ، وقد وجد متسعاً من الوقت ليبصق في الشارع مرة اخيرة .

وصاح بمرح عندما شاهدها .

– هناك من يتجسس اذن ! لقد استحمقت ، اليس كذلك يا مدام بوش ؟ لم تشأ ان تنادي ... انتظريني لا يزال امامي عشر دقائق

لقد بقي عليه ان يضع غطاء المدخنة . وثبة صغيرة لا اهمية لها . وظلت الغسالة وزوجة البواب على الرصيف تتحدثان عن الحي ، وتراقبان نانا لمنعها من الخوض في الساقية حيث كانت تبحث عن سمك صغير ؛ وكانت المرأتان تعودان دائماً الى السطح ، بابتسامات ، وهزات رأس ، فانهما تقولان ان صبرهما لن ينفد . وفي الجهة المقابلة لم تترك العجوز نافذتها ، ناظرة الى الرجل ومنتظرة .

وقالت مدام بوش

– على ماذا تتجسس تلك المعزاة ! يالهامن سحنة رديئة !

وفوق ، كان يُسمع صوت عامل الزنك مغنياً « آه ! ليكن قطاف الفريز جميلاً ! » وهو الآن منحن على منضدته ، يقطع الزنك كفنان ورسم خطاً بدورة بركار ، وفصّل مروحة كبيرة بواسطة زوج من المقصات المقوسة ؛ ثم

بشكل خفيف ، وبواسطة مطرقة ، طوى تلك المروحة بشكل فطر مروّس .
وكان زيدور قد انهمك في نفخ جمر الموقد . وغابت الشمس وراء البيت بضياء عظيم وردي يشحب ببطء ، متحولاً الى اللون الليلكي الناعم وفي السماء ، في تلك الساعة المنتفع بها من النهار ، فان خيالى العاملين اللذين كبرا بشكل غير قياسي ، يرتسمان في صفـــاء الهواء مع منضدة العمل القاتمة والوجه الجانبي الغريب للمنفخ .

وحين فصّل كوبو قبع المدخنة صاح منادياً

– زيدور ! المكاوي !

ولكن زيدور قد اختفى . وأخذ عامل الزنك يبحث عنه بنظره ، بجدفاً، منادياً له من نافذة السقف التي بقيت مفتوحة واخيراً اكتشفه على سطح مجاور ، على مسافة بيتين كان الغلام يتنزه ويكتشف الجوار ، وشعره الضئيل الاشقر يتطاير في الهواء ، مطرفاً بعينيه امام اتساع باريس .

وقال كوبو غاضباً

– قل اذن ايها المتلهي باضاعة الوقت ! اتظن نفسك في الحقول ! انت كالسيد بيرانجيه ، ربما تنظم اشعاراً ... اتريـد ان تعطيني المكاوي ! هل شوهد احد يسير على السطوح على غير هدى ! هات لي من تعرفه حالاً لأنشد له غرامياتي .. اتريد ان تعطيني المكاوي يا مصران الخنزير ؟..

واجرى عملية اللحام ونادى جرفيز

– ها قد انتهيت ، انا نازل .

وكان الانبوب الذي يجب ان يركب له القبع موجوداً في منتصف السطح . واطمأنت جرفيز فظلت تبتسم متابعـــة حركاته . ونانا التي اطمأنت لرؤية والدها ، اخذت تصفق بيديها الصغيرتين . وكانت جالسة على الرصيف لتتطلع الى فوق بشكل افضل .

وصرخت بكل قوتها

– بابا ! بابا ! انظر

وأراد عامل الزنك ان ينحني ولكن رجله زلقت وعندئذ ، وفجأة ، وبحمق ، كهر تبللت أقدامه ، تدحرج ، وانزلق على منحدر السطح الخفيف دون ان يستطيع التمسك بشيء .

وصرخ بصوت مخنوق : يا لاسم الرب !

وسقط . لقد رسم جسده خطاً منحنياً خفيفاً . ودار على نفسه مرتين وراح يتحطم في وسط الشارع ، بخبطة لا صوت لها كصرة من الثياب ألقيت من اعلى .

وذهلت جرفيز ، وتمزقت حنجرتها بصرخة عظيمة ، وظلت مادّة ذراعها في الهواء . وركض بعض المارة . وتجمع حشد من الناس . وجئت مدام بوش مضطربة ، وحملت نانا بين ذراعيها لتخبيء لها رأسها وتمنعها من النظر . الا ان العجوز القميئة في الجهة المقابلة اغلقت نافذتها بهدوء كأنها سرت بما حدث .

وقام اربعة رجال بحمل كوبو الى صيدلي في زاوية شارع بواسونيير ؛ وظل هناك ما يقارب الساعة في وسط الدكان ، على دثار ، بينما ذهب بعضهم ليأتي بحمالة من مستشفى لاريبوازيير . كان لا يزال يتنفس ، ولكن الصيدلي كان يهز رأسه هزاً خفيفاً. اما جرفيز فقد ركعت على الارض واخذت تنتحب بشكل مستمر ، مبللة بدموعها ، معمية ، متبلدة . وبحركة آلية كانت تقدم يديها وتتحسس اعضاء زوجها ، بكل رقة ، ثم تسحبهما متطلعة الى الصيدلي الذي منعها من لمسه ! وعادت الى ذلك بعد ثوان غير مستطيعة ان تمتنع عن التأكد اذا كان جسده لا يزال حاراً ، معتقدة انها تحسن صنعاً اليه . وحين وصلت الحمالة وجرى الحديث حول الذهاب الى المستشفى ، نهضت قائلة بحدة :

– كلا ، كلا ، ليس الى المستشفى ! اننا نقطن الشارع الجديد في القطرة الذهبية .

وأوضحوا لها ان المرض يكلف غالياً جداً اذا اخذت زوجها الى بيتها ، فاجابت بإصرار :

– الشارع الجديد في القطرة الذهبية . سأدلكم على الباب .. ماذا يضيركم

ذلك ؟ لدي مال ، انه زوجي ، اليس كذلك ؟ انه لي وانا اريده

واضطروا الى حمل كوبو الى منزله . وحين اجتازت الحمالة الجمهور الذي ازدحم امام دكان الصيدلي ، كان نساء الحي يتحدثن عن جرفيز بحرارة انها تعرج ، تلك المرأة الخالية من الهموم ، ولكنها مع ذلك مخلصة ؛ سوف تنقذ زوجها دون شك ، بينما الاطباء في المستشفى يقتلون المرضى التالفين تحاشياً لإضاعة الوقت في محاولة شفائهم . ومدام بوش ، بعد ان اخذت نانا الى بيتها عادت لتقص الحادث مع تفصيلات لا تنتهي وهي لا تزال مضطربة من التأثر . وكانت تردد :

– كنت ذاهبة لآتي بفخذ لحم . كنت هناك ورأيته يسقط . كان ذلك بسبب طفلته ، اراد ان ينظر اليها ، فسقط ! آه يا رب الارباب ! لا اطلب ان اراه يسقط ثانية .. مع ذلك يجب ان اذهب لآتي بفخذ اللحم .

ظل كوبو طوال ثمانية ايام في حالة سيئة جداً . وكانت العائلة ، والجيران والناس كلهم ينتظرون ان يروه اغمض عينيه بين لحظة واخرى . والطبيب ، وهو ذو اجر مرتفع يطلب مئة فلس لكل زيارة ، كان يخشى من اختلالات داخلية ،وهذه الكلمة كانت تخيف،وكان يقال في الحي ان قلب عامل الزنك قد انفرط من الهزة وجرفيز وحدها كانت تهز كتفيها شاحبة من السهر ، رصينة ، مصممة ان ساق زوجها اليمنى مكسورة ، وهذا ما يعرفه كل الناس وجُبّرت ، وهذا كل شيء . اما الباقي ، كالقلب المنفرط ، فلم يكن شيئاً .انها ستعيد تعليق قلبه . كانت تعرف كيف يعاد تعليق القلوب ، بالعناية ،والنظافة والصداقة المتينة . وكانت تبدي يقيناً عظيماً واثقة من شفائه ، لا شيء سوى ان تبقى حوله وتلمسه بيديها في ساعات الحمى. لن يساورها الشك دقيقة واحدة وظلت اسبوعا بكامله على قدميها، قليلة الكلام ، مستجمة في اصرارها على انقاذه ، ناسية الاولاد ، والشارع ، والمدينة بكاملها . وفي اليوم التاسع ، في المساء حيث الطبيب تكفل اخيراً بشفاء المريض ، سقطت على كرسي متخاذلة

الساقين ، محطمة الظهر ذارفة الدمع . في تلـك الليله رضيت ان تنام ساعتين ورأسها ملقى على رجل السرير .

لقد ضعضع حادث كوبو العائلة. فالام كوبو كانت تقضي الليالي مع جرفيز؟ ولكنها تنام على كرسيها منذ الساعة التاسعة . وكل مساء عندما تعود مدام ليرا من العمل تدور دورة كبيرة لتستقي الاخبار . وكان آل لوريللو في بادىء الامر يأتون مرتين او ثلاث باليوم ، عارضين ان يسهروا ، حاملين ايضاً كنبة لجرفيز . ثم ما لبثت المشاجرات ان ابتدأت حول طريقة الاعتناء بالمرضى وكانت مدام لوريللو تزعم انها انقذت الكثير من الناس في حياتهـا وهي تعلم كيف يجب التصرف . وكانت تتهم ايضاً المرأة الشابة بانها دفعتها وابعدتها عن سرير اخيها . من المؤكد ان العرجاء على حق حين تريد ان تشفي كوبو ، لأنها لو لم تذهب لإزعاجه في شارع الامة لما سقط . الا انها ستجهز عليه بالتأكيـد بواسطة الطريقة التي تراعيه فيها .

وحين رأت جرفيز ان كوبو اجتاز الخطر انقطعت عن مراقبـة سريره بكثير من التشدد الغيور . ليس باستطاعتهن الان ان يقتلوه . وتركت الناس يقتربون دون حذر . وكانت العائلة مبعثرة في الغرفة . ودور النقاهة طويـل جداً ، وقد تكلم الطبيب عن اربعة اشهر . عندئذ ، واثناء نوم عامل الزنك الطويل ، صار آل لوريللو ينعتون جرفيز بالحمقاء. ووجود زوجها عندها قدمها كثيراً ولو كان في المستشفى لاستطاع الوقوف على رجليه في نصف المدة التي يشفى فيها وهو في البيت ، وتمنى لوريللو ان يمرض ، ان يصاب بأي ألم ليظهر لها انه لا يتردد لحظة واحدة في الدخول الى لاريبوازيير . وكانت مدام لوريللو تعرف سيدة خرجت من المستشفى . وكانت تأكل الدجاج صباح مساء . واعاد الاثنان الحساب للمرة العشرين عما يتكلف الزوجان في شهور النقاهة الاربعة اولاً ايام العمل الضائعة ، ثم الطبيب والادوية ، وفيما بعد النبيذ الجيد ، واللحم المشوي . ولو اكتفى آل كوبو بانفـاق ما اقتصدوه فقط لوجب ان يعتبروا انفسهم سعداء ، ولكنهم سوف يستدينون ، وهـذا اكيد . اوه ! هذا من

شأنهم . خصوصاً ليس عليهم ان يعتمدوا على العائلة التي ليست هي كثيرة الغنى لتتعهد مريضاً في بيته . خسارة على العرجاء ، اليس كذلك ؟ كان بامكانها ان تفعل كالآخرين ، ان تدعهم يأخذون زوجها الى المستشفى . كان هذا يكملها لتكون متكبرة .

وذات مساء وصل الخبث بمدام لوريللو لأن تسألها فجأة :

– حسناً . ودكانك متى تستأجرينها ؟..

فضحك لوريللو وقال :

– نعم ، فزوجة البواب لا تزال بانتظارك .

واغتاظت جرفيز . كانت قد نسيت الدكان تماماً . ولكنها كانت ترى السرور اللئيم لهؤلاء الناس لفكرة ان الدكان قد طوي امرها . ومنذ ذلك المساء اخذا فعلا يرقبان الفرص ليهزءا من حلمها الذاهب في الماء . وعندما كان يجري الحديث عن امل غير ممكن التحقيق كانا يؤجلان الامر الى اليوم الذي تصبح فيه ربة عمل في مخزن جميل يفتح على الشارع . انهما حناجر حامية وراءها . ولم تكن تريد ان تفترض اقتراحات قبيحة ، ولكن بالحقيقة فان لآل لوريللو الآن هيئة تدل على انهم مسرورون جداً لحادث كوبو الذي منعها من الاستقرار كغسالة في شارع القطرة الذهبية

عندئذ ارادت هي ان تضحك وتريهم كيف تضحي بالمال عن طيبة خاطر لأجل شفاء زوجها . وكانت تقول بمرح في كل مرة تأخذ امامها دفتر صندوق التوفير من تحت كرة الساعة

– انا خارجة . اريد ان استأجر دكاني.

ولم تكن تريد ان تسحب المال دفعة واحدة بل كانت تطلبه بالمئة فرنك لكي لا تحتفظ بالكثير من القطع النقدية في خزانتها؛ ثم انها كانت تأمل بشكل غامض بحدوث اعجوبة ، باصلاح حال مفاجىء يتيح لها الا تسحب المبلغ بكامله وفي كل مرة تذهب الى صندوق التوفير كانت عندما تعود الى البيت ، تجمع على ورقة صغيرة ما بقي لها من المال هناك . وذلك على سبيل حسن التنظيم فقط .

وقد انحفر الثقب واسعاً في المال . وكانت تمسك حسابات هذه النكبة النازلة بمدخراتها ، بهيئتها المتعقلة ، وابتسامتها المطمئنة . الم يكن هناك تعزية في حسن استعمال هذا المال ، وبوجوده بمتناول اليد وقت محنتها .. وبدون اسف وبيد معتنية ، كانت تعيد وضع الدفتر وراء الساعة تحت الكرة الزجاجية .

وأظهر آل غوجيه كثيراً من اللطف حيال جرفيز اثناء مرض كوبو . وكانت مدام غوجيه تحت تصرفها المطلق ؛ ولم تكن تنزل مرة دون ان تسألها اذا كانت بحاجة الى سكر ، الى سمن ، الى ملح ؛ وكانت تقدم لها دائماً اول صحن في الامسيات التي تصنع فيها شورباء لحم وخضار. وحتى حين تراها مشغولة جداً فانها كانت تعتني بمطبخها وتساعدها على غسل الصحون . وغوجيه في كل صباح ، كان يأخذ دلاء المرأة الشابة ويملأها من عين الماء في شارع بواسونيير ، وفي هذا توفير فلسين . ثم بعد تناول الطعام ، عندما لا تجتاح العائلة الغرفة ، فان آل غوجيه كانوا يأتون لمجالسة آل كوبو . وطوال ساعتين، حتى الساعة العاشرة ، يدخن الحداد غليونه متطلعاً الى جرفيز وهي تدور حول المريض . ولم يكن ينطق عشر كلمات في السهرة . ووجهه الكبير الاشقر الغارق بين كتفيه كعملاق كان يلين لرؤيتها وهي تسكب ماء الحشائش في فنجان ، وتحرك السكر دون ان تحدث ضجة بالملعقة . وحين تحيط بالسرير وتشجع كوبو بصوت عذب ، فقد كان يظل متأثراً انه لم ير ابداً امرأة بهذه الشجاعة . حتى ان عرجها لم يكن يسيء اليها لأن لها اكثر من مزية في بذل جهدها طول النهار بقرب زوجها. لم يكن بالامكان قول شيء ، ولم تكن تجلس ربع ساعة وقت الطعام . فقد كانت تركض دون انقطاع الى الصيدلي ، وتدس انفها في امور ليست من اختصاصها ، وتبذل جهداً عظيماً لترتب تلك الغرفة التي يصنع فيها كل شيء ؛ ومع كل هذا ، لا تبدي اية شكوى ، لطيفه دائماً ، حتى فى الامسيات التي كانت تنام فيها وهي واقفة مفتوحة العينين ، مع انها منهوكة من التعب . والحداد ، في تلك الهيئة من التفاني ، وبين العقاقير الملقاة

على الاثاث ، كان يحس بعطف على جرفيز عندمايراها تحب زوجها وتعتني بـه من كل قلبها

وقال ذات يوم للمريض الناقه

– ها قد شفيت يا صديقي . لم اكن احمل همك فزوجتك هي الله !

اذن عليه هو ان يتزوج . وامه على الاقل وجدت فتاة مناسبة جداً تشتغل معها في صنع المخرمات . وقد اصبحت ترغب جداً ان تراه متزوجاً . ولكي لا يغمها كان يقول نعم، وحدد موعد العرس في الايام الاولى من شهر ايلول. والمال اللازم للزواج ينام منذ وقت طويل في صندوق التوفير . ولكنه كان يهز رأسه حين تحدثه جرفيز عن الزواج ، ويتمتم بصوت بطيء :

– ليس كل النساء مثلك يا مـدام كوبو لو كان النساء كلهن مثلـك لتزوجت عشراً

الا ان كوبو ، في مدى شهرين ، استطاع البدء بالنهوض . ولم يكن يتنزه بعيداً ، من السرير الى النافـذة ، وتسنده جرفيز ايضاً وهناك كان يجلس على كنبة آل لوريللو ، وساقه اليمنى ممدودة على كرسي صغير . ان هـذا الساخر الذي كان يذهب ليسخر من الارجل المكسرة ايام الجليد ، كان كثير الغيظ من الحادث الذي اصابه وكانت تنقصه الفلسفة . وقد قضى شهرين في السرير وهو يجدف ويغيظ الناس . والحقيقة ليست هذه بحياة ان يعيش مستلقياً على ظهره ، بساق مربوطة ومقطعة كالنقانق . آه كان يعرف السقف مثلاً . فهناك شق في زاوية يخدع النوم يستطيع رسمه مغمض العينين . وحين جلس على الكنبة كانت حكاية اخرى . هل سيمكث طويلا مسمراً هنا شبيهاً بالمومياء ؟ لم يكن الشارع مستغرباً ، ولم يكن يمر فيه احد ، وهذا ما ينتن ماء جافيل طول النهار . كلا، صحيح،لقد اصبح قديماً جداً . انه يدفع عشر سنوات من عمره ليعرف فقط كيف اصبحت التحصينات. وكان يعود الى اتهام القدر بعنف فالحادث الذي اصابـه ليس عدلاً ، وكان يجب الا يحدث له ، هو العامـل الطيب ، غير الكسول ولا السكير ، ولو اصاب آخرين غيره لفهم . وكان يقول :

ـ لقد دق عنق الاب كوبو بعـد يوم افرط فيه بالشرب. لا استطيع القول انه يستحق ذلك ، ولكن كان للأمر ما يفسره. وانا الصائم. الهادىء كبابتيست. دون قطرة مائع في الجسم ، اتدحرج لاني اردت ان التفت لأوفر الابتسامة لنانا الا تجدون هذا زائداً عن الحد ؟ لو كان هناك إله ، انه يرتب الامور بشكـل عجيب. ابداً ، لن افهم هذا.

وحين شفيت ساقاه ظل محتفظاً بحقد خفي ضد الشغل انها مهنة بؤس ان يقضي الايام كالهررة على طول الميـازيب وليس البورجوازيون حمقى ! انهم يرسلونك الى الموت وهم كثيرو الجبن فلا يجازفون بحياتهم على سلم ؛ بل يجلسـون في زاويتهم قرب النار غير مهتمين بالعالم المسكين. وقد توصل الى القول ان على كل فرد ان يغطي سطحه بالزنك بنفسه ويجب الوصول الى ذلك بالعدالة الصالحة : اذا كنت لا تريد ان تتبلل فعليك ان تتغطى. ثم انـه كان يأسف لعدم تعلمه مهنة اخرى اكثر جمالاً واقل خطراً ، نجار ابنوس مثلا. وهـــذه ايضاً كانت غلطة الاب كوبو ، فقد كان للآباء هـــذه العادة الحمقاء بتعليم مهنتهم لاولادهم.

وأثناء شهرين ، مشى كوبو بمساعدة العكازات. وقد استطاع أولاً النزول الى الشارع ، وتدخين غليون أمام الباب ثم سار حـــتى الشارع الخارجي ، جارّاً نفسه في الشمس ، باقياً طوال ساعات وهو جالس على مقعد وعاد إليه مرحه ، وثرثرته الوقحة الجهنمية قد شُحذت اثناء بطالته الطويلة واكتسب هنا ، مع اللذة في الحياة ، سروراً بعدم عمل أي شيء ، فالاعضاء مهمـــلة ، والعضلات منسابة في نوم هادىء جداً ؛ لقد كان ذلك اكتساباً بطيئـاً للكسل الذي اغتنم فرصة نقاهته ليدخل في جلده ويخدره مدغدغاً. وعاد ذا صحـــة جيدة ، ساخراً ، واجداً الحياة جميلة ، غير مدرك لماذا لا يدوم هـــذا وحين استطاع الاستغناء عن العكازات اطال مسافـــة نزهاته ، راكضاً الى المشاغل ليرى الرفاق. وكان يظل متصالب الذراعين امام البيوت التي تبنى ، ضاحكاً ، هازاً رأسه. وكان يسخر من العمال الذين يتعبون ، ويمد لسانه ليريهم

الى اين يوصل انهاك النفس . وهذه المواقف الساخرة أمام اعمال الآخرين كانت ترضي حقده ضد الشغل . وما من شك في انه سيعود الى العمل ، ويحب ذلك ، ولكن هذا سيتأخر قدر المستطاع . اوه ! لقد كوفيء ليفقد حماسته . ثم لقد كان يبدو له حسناً ان يتوانى قليلاً .

وفي فترات ما بعد الظهر حيث كان كوبو يصاب بالضجر ، كان يصعد الى بيت آل لوريللو . وكان هؤلاء يرثون لحاله ، ويجتذبونه بشتى انواع المجاملات اللطيفة . ففي السنوات الأولى من زواجه تخلص منهم بفضل تأثير جرفيز وقد استمادوه الآن ، ساخرين امامه من الخوف الذي سببته له زوجته . اذن لم يكن رجلا ! الا ان آل لوريللو كانوا يظهرون كثيراً من التحفظ ، ويطرون صفات الغسالة بطريقة مبالغ فيها . وكان كوبو يقسم لزوجته، بدون مشاجرة، ان اخته تحبها ويطلب منها ان تكون اقل رداءة تجاههـــا وحصلت اول مشاجرة للزوجين ذات مساء بسبب اتيين .فقد قضى عامل الزنك فترة ما بعد الظهر عند آل لوريللو . وعند عودته الى البيت ، كان الطعام غير جاهز بعد ، والولدان يصرخان طالبين الحساء ، فهجم فجأة على اتيين وصفعه مرتين ، وظل يدمدم طوال ساعة هذا الغلام ليس له ولا يعرف لمـــاذا يتحمله في البيت ؟ وسوف ينتهي الى طرده . كان قد رضي بالولد قبل الآن دون اي حادث . وفي الغد اصبح يتكلم عن فضله . وبعد ثلاثة ايام رفس مؤخرة الصغير عدة رفسات، في الصباح والمساء ، مع ان الصغير كان يهرب الى بيت آل غوجيه حين يسمعه صاعداً ، وكانت عاملة المخرمات العجوز تحفظ له زاوية من المنضدة ليكتب واجباته المدرسية .

وكانت جرفيز قد عادت الى العمل منذ وقت طويل . ولم تعـــد تهتم برفع كرة الساعة وإعادتها الى مكانها ، فجميـــع المدخرات قـــد نفدت ، وكان من اللازم ان تعمل بجد ، ان تعمل لأجل اربعة، لأنهم كانوا اربعة افواه على المائدة، وهي وحدها كانت تعيل الجميـــع . وحين تسمع الناس يرثون لهـــا فانها كانت تعتذر بسرعة عن كوبو . تصوروا اذن ! لقد تعذب كثيراً ، وليس في هـــذا

ما يدهش اذا خشن طبعه ! وهذا يذهب مع عودة الصحة . واذا اسمعوها ان كوبو يبدو الآن قوياً وان بامكانه العودة الى المشغل، فإنها كانت تصيح : كلا، كلا ، لم يحن الوقت بعد ! انها لا تريد ان يعود الى السرير من جديد . وكانت تعرف تماماً ما قاله لها الطبيب. وهي التي تمنعه من الشغل مرددة عليه كل صباح، ان يتمهل والا يجهد نفسه . وكانت ايضاً تضع في جيب صدرته قطعاً نقدية بعشرين فلساً . وكان كوبو يقبل ذلك كشيء طبيعي ، ويشكو من جميع الآلام لكي تدلله .

وبعد ستة اشهر كانت فترة نقاهته لا تزال مستمرة . والآن ، في الأيام التي كان يرى فيها الآخرين يعملون ، كان يدخل ليشرب كأساً مع الرفاق . ومهما كان فالامر ليس سيئاً عند بائع الخمر ، يمزح ، ويمكث هناك خمس دقائق وهذا لا يخل بشرف احد . والعمال وحدهم يتظاهرون بالموت عطشاً على الباب . وفي الماضي كانوا على حق في السخرية منه على اعتبار ان كأساً من الخمر لم يحدث ابداً انه قتل رجلا . ولكنه كان يضرب على صدره حاسباً ان من الشرف الا يشرب سوى نبيذ . اما العرق فلا . والنبيذ يطيل العمر ولا يعكر المزاج ، ولايسكر. الا انه في عدة مناسبات ، بعد ايام من البطالة قضاها من مشغل الى مشغل ومن حانة الى حانة ، كان يعود الى البيت في حالة تقرب من السكر . وكانت جرفيز في تلك الأيام تقفل الباب محتجة بالصداع ، وذلك لتمنع آل غوجيه من سماع حماقات كوبو .

وانتاب الحزن الزوجة الشابة شيئاًفشيئاً . وكانت تذهب صباحا ومساء الى شارع القطرة الذهبية ، وترى الدكان التي لا تزال قيد الاجار ، وكانت تختبىء كأنها اقترفت عملا صبيانيا غير جدير بشخص كبير . لقد بدأت هذه الدكان تدير لها رأسها ؛ وفي الليل ، حين يكون النور مطفأ ، كانت تجد وهي تحلم بها مفتوحة العينين ، فتنة لذة محرمة . واجرت حساباتها من جديد: مئتان وخمسون فرنكا قيمة الاجار ، وستة وخمسون فرنكا للادوات والتمديدات ، ومئة فرنك مقدما لتعيش خمسة عشر يوما ، والكل خمسماية فرنك كحد ادنى .

واذا كانت لا تتحدث عنها بصوت مرتفع ، وباستمرار ، فذلك خوفا من اظهار الاسف على المدخرات التي استهلكها مرض كوبو . وكانت في أغلب الأحيان تصبح شاحبة اللون ، مخطئة باظهار مطمعها ، ممسكة عبارتها ، شاعرة باضطراب ناتج عن فكرة شنيعة . والآن يلزمها ان تشتغل اربع أو خمس سنوات قبل ان توفر مبلغا ضخما كهذا ، وكان أسفها ناشئا عن عدم استطاعتها تأسيس المحل حالا ، وكان عليها تجهيز حاجات البيت دون الاعتماد على كوبو ، تاركا له اشهراً ليستعيد تذوقه للعمل ، وسوف تصبح مطمئنة واثقة من المستقبل ، متخلصة من المخاوف الخفية التي تجتاحها احيانا عندما يعود مبتهجا جداً ،مغنيا، راوياً بعض المضحكات عن ذلك الحيوان ميبوت الذي دفع له ثمن ليتر من الخمر .

وذات مساء،وكانت جرفيز وحيدة في بيتها ، دخل غوجيه ولم يهرب كعادته ، وجلس ، واخذ يدخن وهو ينظر اليها . يجب ان يكون لديه كلام خطير يريد قوله ، وهو يديره ، وينضجه دون ان يستطيع اعطاءه شكلاً ملائما واخيراً ، بعد صمت طويل ، صمم ، وسحب غليونه من فمه ليقول كل شيء دفعة واحدة .

– مدام جرفيز ، اتسمحين لي بأن اقرضك مالاً ؟

كانت منحنية على احد ادراج خزانتها باحثة عن مماسح . فنهضت ، وقد اكتست بالاحمرار . اذن فقد رآها صباحا وقد ظلت في حالة انجذاب امام الدكان قرابة عشر دقائق . اما هو فكان يبتسم بهيئة قلقة ، كما لو انه قدم عرضا جارحا . ولكنها رفضت بشدة ، انها لن تقبل نقوداً من أحد أبداً دون ان تعرف متى تستطيع إرجاعها . ثم ان الأمر يتعلق بمبلغ كبير جداً وبما انه كان يلح ، واجما ، فقد انتهت الى القول

– ولكن زواجك ؟ لا استطيع ان آخذ المال المعد لزواجك .

فاجاب وقد احمر بدوره

– اوه ! لا تقلقي .. لن اتزوج . انت تعلمين ، انها فكرة ... والصحيح

اني افضل ان اقرضك المال .

عندئذ خفض الاثنان رأسيهما كان بينهما شيء عذب لم يقولاه . ورضيت جرفيز . واخبر غوجيه امه . واجتازا سطح الدرج وذهبا اليها حالاً . وكانت عاملة المخرمات رزينة ، حزينة قليلاً ، ووجههـا الهادىء منحن على منسجها لم تكن تريد مماكسة ولدها ، ولكنهـا لم تكن تستصوب مشروع جرفيز ، وقالت السبب بصراحة : لقد انقلب كوبو الى اسوأ . وسوف يأكل لها دكانها . وهي لا تغفر لعامل الزنك رفضه تعلم القراءة اثناء نقاهته ، وقـــد قدم الحداد نفسه ليعلمه فرفض هذا متهماً العلم باضعاف العالم . وكان هــــذا سبباً لغضب العاملين ، وراح كل منهما في سبيله . الا ان مدام غوجيه ، وقـد رأت نظرات ولدها المتوسلة ، بدت طيبة حيال جرفيز وجرى الاتفـاق ان تقرض الجيران خمسماية فرنك على ان تدفع على اقساط ، بقيمة عشرين فرنكاً كل شهر ، وسوف يدوم هذا ما يدوم . وهتف كوبو ضاحكا عندما علم بالقصة

– قولي اذن ! الحداد يوجه نظره اليك . اوه ! انـا مطمئن تماماً فهو كثير البلاهة .. ستعاد دراهمه اليه . ولكن لو كانت قضيته مع احد الأوباش لخُدع خدعة بالغة .

ومنذ الغد استأجر آل كوبو الدكان . وركضت جرفيز طول النهـار ، من الشارع الجديد الى شارع القطرة الذهبية . وحين كانوا في الحي يرونها تمر هكذا خفيفة، منتشية الى درجة ان عرجها قد زال، كانوا يروون انها اضطرت لاجراء عملية

٥

في نهاية نيسان تمامـاً ترك آل بوش شارع بواسونيير واخذوا منزل البيت الكبير في شارع القطرة الذهبية ، كما يحدث ذلـك عادة ! .. وكان احد هموم جرفيز ، التي عاشت هادئة البال بدون بواب في جحرها في الشارع الجديد ، هو ان تقع تحت امرة احد الحمقى الارديا الذي تتشاجر معه بسبب قليل من المـاء المدلوق ، او بسبب باب أغلق بشدة في المساء . فالبوابون نوع قـذر جداً . ولكن الامر مع آل بوش يكون مدعاة للسرور . فهم متعـارفون ويتفاهمون دائما . واخيراً فان الامر سيتم ضمن العائلة الواحدة .

ويوم التأجير ، عندما جاء آل كوبو يوقعون عقد الايجـار ، شعرت جرفيز بقلبها يزداد كبراً وهي تمر تحت الباب المرتفع . اذن سوف تسكن هـذا البيت الواسع كمدينـة صغيرة ، والذي تمتد وتتصالب شوارع ادراجه واروقته بشكل لا ينتهي . والواجهات الرمادية مع خرق النوافذ الجـافة في الشمس ، والباحة القاتمة ذات البلاط المنتزع من الساحة العامة ، وغطيط الشغل المنبعث من الجدران كان يسبب لها اضطرابا كبيراً ، وسروراً لوجودهـا اخيرا قريبة من تحقيق مطمعها ، ويسبب خوفا من عدم النجاح وان تجد نفسها مسحوقة في هذا الصراع الضخم ضد الجوع الذي كانت تسمع حفيف انسامه . لقد كان يبدو لهـا انها عملت شيئا كـثير الجرأة ، وألقت نفسها في وسط آلة في حالة الحركة ،

بينما تكون مطارق صانع الاقفال ومساحج نجـار الابنوس تضرب وتصفر في داخل مشاغل الطابق الارضي . في ذلك النهار كان مـاء المصبغة الجاري تحت المدخل ذا لون اخضر تفـّاحي ، فقفزت فوقه مبتسمة ، ورأت في هذا اللون فألا سعيدا .

كان مكان اللقاء مع صاحب الملك في منزل آل بوش . انه السيـد ماريسكو ، وهو صانع سكاكين كبير في شارع السلام . وكان في السابق من المتسكعين على الأرصفة . ويقال عنه اليوم انه غني ، صاحب عدة مـلايين . وكان رجلا في الخامسة والخمسين ، قوي ، معروف ، يحمل وساماً ، ويبسط يديه الكبيرتين كيدي عامل قديم ، وكانت احدى سعاداته أن يأخذ سكاكين ومقصات المستـأجرين عنده ليشحذها بنفسها مسروراً . ويبدو انه ليس متكبراً لأنه كان يظل ساعات طويلة عند بوابي بنايته . منزوياً في ظل المنزل طالباً الحسابات . وهناك كان يعالج كل قضاياه . وقد وجده آل كوبو امام منضدة مدام بوش الملطخة بالشحم ، مصغياً كيف ان الخياطة في الطابق الثاني في الدرج أ ، رفضت الدفع بكلمة مقرفة . ثم لما وقع عقد الايجار صافح عامل الزنك ، لأنه يحب العـمال . وقد لاقى في الماضي كثيراً من الصعوبة . ولكن العمل يوصل الى كل شيء . وبعد ان عدّ المئتي والخمسين فرنكاً عن الستة اشهر الاولى ووضعها في جيبه الواسع حدّث عن حياته وأظهر وسامه

الا ان جـرفيز ظلت على شيء من القلق عندما رأت موقف آل بوش . فقد كانوا يتظاهرون بـعدم معرفتها ويتساوعـون حول صاحب الملك ، منحنين ، مترصدين اقواله ، مستصوبينها برؤوسهم . وخرجت مدام بوش بسرعة ، فقد راحت تطرد عصابة من الاولاد كانوا يسيرون في الوحل امام عين الماء، حيث كان الصنبور مفتوحاً على البلاط ، وعندما عادت، مستقيمة الجسم صارمة في تنورتها، مجتازة البارحة وهي تلقي نظرات متمهلة على جميع النوافذ كأنها تتأكد من حسن النظام في البيت ،وكانت تعض على شفتيها مظهرة السلطة التي تتمتع بها الآن وقد اصبحت تحكم ثلاثمائة مستأجر . وتكلم بوش من جديد عن الخياطة في الطابق

الثاني ، وكان من رأيه طردها ، وكان يحسب البدلات المتأخرة بأهمية قيّم يمكن ان تكون حـركته موضع ريبة . واستصوب السيد ماريسكو فكرة الطرد ، ولكنه كان يريد الانتظار حتى منتصف الأجل . اذ ان من القساوة القاء الناس في الشارع ، يضاف الى ذلك ان هذا لا يضع فلساً في جيب صاحب الملك . وكانت جرفيز تتساءل ، وقد احست برعشة خفيفة، اذا كانت ستلقى في الشارع ، هي ايضا ، يوم تمتنعها مصيبة عن الدفـــع . والمنزل ، المسوّد من الدخان ، المملوء بأثاث اسود ، كان فيه رطوبة ، وفي القبو نهـار اغبر ، وامام النافذة كان النور كله يسقط على منضدة الخياط حيث يوجـــد معطف قديم يُقلب ، بينما بولين، ابنة بوش الصغرى، وهي طفلة مغراء في الرابعة من عمرها، جالسة على الأرض، وتنظر بتمقل الى عملية شواء قطعة من لحم عجل، مستغرقة ومنتشية برائحة المطبخ الشديدة المتصاعدة من المقلاة .

ومد السيد ماريسكو يده من جديد الى عامل الزنك ، عندما تكلم هذا عن اصلاحات ، مذكراً اياه بوعده الشفهي بأنهما سيتحدثان عن ذلك فيما بعد. ولكن صاحب الملك غضب، فهو ليس مرتبطاً بشيء ، وفي السابق لم يقم بأية اصلاحات في دكان . الا انه رضي ان يذهب ويرى الامكنة ، يتبعه كوبو وبوش . وكان بائع الخـردة الصغير قد ذهب حـاملاً معه كل ما نظم من خـــزائن ومناضد ؛ والدكان العارية تماماً ، كانت تظهر سقفها الأسود ، وجدرانها المشققة الـتي تتدلى منـــها خرق من ورق قديم اصفر . وهنالك ، في فراغ الغرف الرنان ، احتدمت مناقشة هائجة . وكان السيد ماريسكو يصيح بأن على التجار ان يزينوا مخازنهم، لأن باستطاعة التاجر اخيراً ان يربح الذهب ، بينما هو ، صاحب الملك ، لا يستطيع ان يكتنز الذهب . ثم تحدث عن تجهيزاته الخاصة في شارع السلام حيث انفق عشرين ألف فرنك . وكانت جرفيز ، بعنادها كامرأة ، تردد برهانا بدا لهـــا غير خاطىء : ألا يلصق الناس الورق في مسكن ؟ اذن لماذا لا تعتبر الدكان مسكنـــاً ؟ لم تكن تطلب منه شيئا آخر سوى تبييض السقف ، وإعادة الصاق الورق .

الا ان بوش ظـــل مغلقاً وقوراً ، كان يدور ويتطلع في الهواء دون ان يتكلم . وكان كوبو يطرف له بعينه فيتظاهر بأنه لن يسيء استعمال تأثيره الكبير على صاحب الملك . الا انه انتهى باظهار بعض التغيير في قسماته ، ابتسامة صغيرة رقيقة مصحوبة بهزة رأس أما السيد ماريسكو الساخط ، ذو الهيئة اليائسة ، فقد باعد بين اصابعه العشرة بتشنج بخيل انتزع منـــه ماله ، وخضع لجرفيز ، ووعد بالسقف والورق ، ونجا بسرعة ، لانه لا يريد سماع الكلام عن شيء بعد .

وحينئذ ، عندما اصبح بوش وحيـــداً مع آل كوبو ، ربت على كتفيهما ، بائحاً بدخيلته ، ها ؟ لقد حصلنا على ما نريد ! لولاه لما حصلوا على ورقهم ولا على سقفهم . الم يلاحظوا كيف ان صاحب الملك استشاره بزاوية عينـه ثم قرر فجأة اجابة الطلب عندما رآه يبتسم ؟ .. ثم اعترف انه السيد الحقيقي للبيت ؟ فهو يقرر الطرد ، ويؤجر اذا راقه الناس ، ويقبض الايجارات التي يبقيها خمسة عشر يوماً في خزانته .

وفي المساء ، وليقوم آل كوبو بشكر بوش ، ظنوا ان من اللياقة ان يرسلوا اليه ليترين من النبيذ . فعمله يستحق هدية .

سيبدأ العمال في الدكان منذ نهار الاثنين الآتي . وكان مشترى الورق قضية عظيمة ، فجرفيز تريد ورقاً رمادياً بزهور زرقاء لاضاءة الجـــدران وجعلها بهيجة . وعرض عليها بوش ان يصحبها ؛ وسوف تختار . ولكن هنالك اوامر حتمية من صاحب الملك بأن لا يتجاوز ثمن اللفـّة خمسة عشر فلساً. وظلا ساعة عند البائع ؛ وكانت الغسالة تعود دائماً الى ورق ذي لون بين الأزرق والأخضر ، لطيف جداً بثمانية عشر فلساً ، وقد رأت الأوراق الاخرى قبيحة وأخـيراً خضع البـــواب ، ورتب الأمور ، وسوف يحسب لفـّة زيادة اذا لزم الأمر . وعندما عادت جرفيز الى البيت اشترت حلوى لبولين . انها لم تكن تريد ان تظل الاخيرة ، ومن يجاريها في افكارها يربح معها

يجب ان تصبح الاماكن جاهزة في مدى اربعة ايام وقد دامت الاشغال

ثلاثة اسابيع . وجرى الحديث اولاً عن غسل الدهان فقط. ولكن هذا الدهان المتصل بالنبيذ منذ القدم كان وسخاً جـــداً وكئيباً بحيث اضطرت جرفيز الى اعادة دهن الواجهة كلها باللون الازرق الفاتح ، مع شبكات صفراء . وعندئذ طال امد التصليحات وكوبو الذي لم يشتغل ابداً كان يصل منذ الصباح ليرى اذا كان العمل سائراً أما بوش فقد كان يترك المعطف او البنطلون الذي كان يصلح عراه ويأتي من ناحيته ليراقب رجاله . ووقف الاثنان امـام العمال ، وايديهما وراء ظهريهما ، يدخنان ، ويبصقان ويقطعان الوقت في الحكم على كل ضربة فرشاة. انها تعليقات لا تنتهي واحلام عميقة لاجل نزع مسمار. والدهانان، وهما شيطانان كبيران ممتازان ، كانا يتركان سلّميهما في لحظة ويقفان هما ايضاً، في منتصف الدكان ، ليشتركا بالجدال ، هازين الرأس طوال ساعات ، ناظرين الى عملهم الذي بدأوا به . وطُلي السقف بسرعة. ثم كانت الدهانات التي كادوا الا ينتهوا منها . انها لم تشأ ان تجف . ونحو الساعة التاسعة ظهر الدهّانان مع آنية الوانهما ووضعاها في زاوية ، وتطلعا قليلاً ، ثم اختفيا ، ولم يعد يراهما احد . كانا يذهبان لتناول طعامهما ، او انه كان عليهما ان يبدءا عملاً آخر في شارع ميرا . ومرات اخرى كان كوبو يأتي بالعصابة كلها لشرب كأس ، بوش ، والدهانان ، والرفاق الذين يمرون ، وكانت فترة ما بعد الظهر حارة . وجرفيز فرغ صبرها ثم انتهى كل شيء فجأة في يومين. الدهان طلي بالبرنيق، والورق الصق ، والاوساخ القيت في عربة الاقذار . وكان العمال قـد اسرعوا في عملهم كأنهم يلعبون ، صافرين على سلالمهم ، مغنين الى درجة تخدير الحي .

وجرى نقل الاثاث حالا . وشعرت جرفيز في الايام الاولى بفرح طفل عندما كانت تجتاز الشارع عائدة من احدى المهام . كانت تتأخر وتبتسم لبيتها. ومن بعيد ، في وسط الصف الاسود من الواجهات الاخرى ، كانت دكانها تبدو لها زاهية ، ذات بهجة جديدة ، بآرمتها الزرقاء حيث هذه الكلمات «غسالة الدقة» كانت مرسومة بحروف كبيرة صفراء . وفي الواجهة الزجاجية المقفلة من الداخل بستائر صغيرة من الموسلين ، والمفروشة بورق ازرق لإظهار بياض

الغسيل ، فان قمصاناً رجالية كانت تظل ظاهرة ، وقبعات نسائية معلقة ، والاربطة معقودة بخيوط من نحاس اصفر وكانت تجد دكانها جميلة بلون السماء. وفي الداخل يدخل المرء ايضاً في الازرق ، والأوراق التي كانت تقلد نسيجاً من طراز بومبادور تمثل عريشاً يركض فيه اللبلاب ، ومنضدة الشغل ، وهي منضدة واسعة تشغل ثلثي الغرفة ، مجهزة بغطاء سميك ، ومزينة بطرف نسيج ابيض ذي تشجيرات زرقاء لتغطية القوائم المرفوعة عليها . وكانت جرفيز تجلس على كرسي صغير ، وتتنفس شيئاً من الرضا ، سعيدة بهذه الملكية الجميلة ، حاضنة بعينها ادواتها الجديدة ولكن نظرتها الاولى كانت توجه دائماً الى الجهاز الآلي ، وهو وجاق من الحديد المصبوب يمكن ان تسخن فيها عشر مكاوي معاً مصفوفة حول الموقد على صفائح منحرفة . وباءت تركع متخوفة دائماً من ان تفجر خادمتها الصغيرة الحمقاء ، الحديد المصبوب بوضع كثير من وقود الكوك [1] .

ووراء الدكان كان المسكن ملائماً جداً . وكان آل كوبو ينامون في الغرفة الاولى ويطبخون ويأكلون فيها ؛ وفي الداخل باب يفتح على فناء البيت. وسرير نانا موجود في الغرفة اليمنى ، وهي ردهة كبيرة تتلقى نور النهار من كوة مستديرة بقرب السقف . اما اتيين فكان يتقاسم الغرفة اليسرى مع الغسيل الوسخ الذي يوجد منه بكثرة ، بصورة دائمة ، على ارض الغرفة . الا ان هناك صعوبة لم يشأ آل كوبو الاعتراف بها في بادىء الامر ، فقد كانت الجدران ترشح الرطوبة ، والرؤية ليست واضحة منذ الساعة الثالثة بعد الظهر .

والدكان الجديدة احدثت تأثيراً كبيراً في الحي فقد اتهم آل كوبو بالتسرع وخلق الورطات . وبالفعل فقد انفقوا فرنكات غوجيه الخمسماية على التجهيزات دون ان يحتفظوا بما يعيشون به مدة اسبوعين كما وعدوا انفسهم . وفي صباح اليوم الذي فتحت فيه جرفيز مصاريعها للمرة الاولى كان في حافظة نقودها

---

١ ـ الكوك *Coke* : وقود ناتجة عن تقطير الفحم المعدني .

ستة فرنكات تماماً . ولكنها لم تكن مهتمة . فالاشغال وصلت ، واعمالها تبشر بالخير . وبعد ثمانية ايام ، نهار السبت قبل ان تنام ، ظلت ساعتين تحسب على قصاصة ورق ، وايقظت كوبو ، متألقة القسمات ، لتقول له ان بامكانهم ربح الوف ومئات اذا ساروا بتعقل .

وكانت مدام لوريللو تصيح في كل شارع القطرة الذهبية

– آه ! اخي الاحمق اصبح محتقراً ، لم يكن ينقص العرجاء الا ان تفسق . وهذ يلائمها تماماً ، اليس كذلك ؟

كان آل لوريللو على خلاف كبير مع جرفيز . فقد كادوا اولاً ينشقون غيظاً اثناء تصليحات الدكان ، وحين يرون الدهانين من بعيد كانوا يمرون على الرصيف الآخر ، ويصعدون الى بيتهم وهم يصرون على اسنانهم . دكان زرقاء لهذه اللاشيء ، اذا لم يكن ذلك قد صنع لكسر اذرع افاضل الناس ! ومنذ اليوم الثاني ، بينما كانت الخادمة تفرغ طاسة النشا على مدى يدها ، في اللحظة التي خرجت فيها مدام لوريللو تماماً ، فان هذه اثارت الشارع متهمة زوجة اخيها باهانتها بواسطة عاملاتها وانقطعت كل الملاقات ولم يعد هناك سوى تبادل نظرات مخيفة عندما يتلاقون .

وكانت مدام لوريللو تردد

– نعم حياة جميلة ! معروف من اين أتاها مال كوخها ، لقد ربحت هذا من الحداد ، ومن اناس آخرين . الم يقطع الاب راسه بسكين ليتجنب العذاب على المقصلة ، اخيراً ، قصة قذرة من هذا النوع .

كانت تتهم جرفيز بشكل جازم بمضاجعة غوجيه . وكانت تكذب ، وتزعم انها فاجأتهما معاً ذات مساء على مقعد في شارع خارجي ومجرد فكرة هذه الملاقة ، واللذائذ التي يجب ان تتذوقها زوجة اخيها ، زادت من غيظها ، في فضيلتها كامرأة قبيحة . وكان صراخ قلبها يعود الى شفتيها كل يوم

– ولكن ما الذي تتحلى به هذه المموهة لتُحَب ! وهل احبني احد !

ثم كانت اقاويل لا تنتهي مع الجارات كانت تسرد الحكاية كلها . لقد

اظهرت عناداً يوم الزواج ! اوه ! انها ذات انف اجوف ، تشمر مسبقاً بكيفية سير الامور . وفيا بعد ، يا الهي ! بدت العرجاء كثيرة المذوبة ، كثيرة المداهنة ، حتى رضيت هي وزوجها ان يكونا عرابين لنانا ، وذلك مراعاة لكوبو ، مع ان عماداً كهذا يكلف غالياً ولكن الآن ، كما ترون ، لو كانت العرجاء مشرفة على الموت وهي بحاجة الى كأس ماء فمن المؤكد انها لن تكون هي التي تعطيه لها . فهي لا تحب الوقحات والوغدات ، ولا خالعات العذار . اما نانا فستستقبل دائماً استقبالاً حسناً اذا صعدت لترى عرابيها ، والصغيرة ليست ضالعة بجرائم الام، اليس كذلك؟ وكوبو نفسه ليس بحاجة الى نصيحة ، وكل رجل في موضعه يغطس مؤخرة زوجته في وعاء الغسيل ويصفعها صفعتين ؛ واخيراً فهذا يعنيه وحده ، والمطلوب منه فقط ان يتطلب الاحترام لعائلته يا يوم الرب ! لو ان لوريللو وجدها هي ، مدام لوريللو ، بالجرم المشهود ، لما مر الامر بهدوء ، بل لكان غرس مقصاته في بطنها

إلا أن آل بوش ، وهم حكام صارمون لمشاجرات البيت ، خطأوا آل لوريللو ومما لا شك فيه أن آل لوريللو اناس كما يجب ، هادئون ، يشتغلون طول النهار ، ويدفعون بدلات اجارهم مقدماً ولكن هنا ، وبصراحة ، فان الغيرة أهاجتهم . إنهم بخلاء جداً ، أشحّاء ، ماذا ! أُناس يخبئون ليتر النبيذ وهم صاعدون لئلا يقدموا كأساً لأحد ؛ وأخيراً فهم أناس ليسوا كما يجب . وذات يوم دفعت جرفيز إلى آل بوش ثمن شراب الكشمش مع ماء سلتز الذي كان يُشرب في المنزل أثناء مرور مدام لوريللو وهي متغطرسة متظاهرة بالبصاق أمام باب البواب . ومنذ ذلك الوقت ، وكل نهار سبت ، كانت مدام بوش تترك الأقذار أمام منزل لوريللو عندما تكنس الأدراج والأروقة .

وكانت مدام لوريللو تصرخ :

ـ بالتأكيد ! لقد حرضتهم العرجاء ، اولئك النهمون ! آه ! انهم مع ذلك صالحون ! ولكن يجب ألا يزعجوني . سأذهب وأشتكي الى صاحب الملك . البارحة أيضاً رأيت هذا المداهن بوش يغازل مدام غودرون . انها فاحشة

مجثة ، مهاجمة امرأة بهذا السن عندها نصف دزينة أولاد ! انها قذارة اخرى أيضـــاً من ناحيتهم وسأخبر الام بوش لتنهال على زوجها بالصفع وسوف نضحك قليلاً !

وكانت الأم كوبو ترى العائلتين دائماً ، قائلة كجميع الناس ، متوصلةً ايضاً الى ان يمسكوها في أغلب الأحيان لتتناول الطعام ، مصغيةً بلطف الى ابنتها وكنتها ، أمسية لكل واحدة . ومدام ليرا في ذلك الوقت لم تكن تذهب الى بيت كوبو لأنهـا تخاصمت مع العرجـاء بسبب جندي جدع انف عشيقته بضربة موسى ؛ وقـــد ساندت الجندي ورأت أن ضربة الموسى حبية جداً ، بدون ان تبين الأسباب . وأثارت أيضاً غضب مدام لوريللو عندمـا أكدت لها أن العرجـاء ، أثناء الحديث وأمام خمسة عشر الى عشرين شخصاً ، دعتها ذيل البقرة دون اهتمام يا الهي ! نعم ، آل بوش . الجيران يدعونها الآن ذيل البقرة

في خضم هـذه النمائم كانت جرفيز المطمئنة ، المبتسمة على عتبة دكانـهـا تحيي الاصدقاء بـــاشارة محببة من رأسها ، وكانت تسر بالمجيء الى هناك لمدة دقيقة بين عمليتي كوي لتضحك في الشارع مع نفخة زهو لتاجرة تملك طرفاً من الرصيف كان شارع القطرة الذهبية لها ، والشوارع المجاورة ، والحي بكامله وحين كانت تمد رأسها بالصدرة البيضاء ، والذراعين العاريين ، وشعرها الاشقر المتطاير في حمى الشغل ، كانت تلقي نظرة الى الشمال ، ونظرة الى اليمين ، الى الطرفين ، لتشمل بلمحة خـــاطفة المارة ، والبيوت ، والشارع ، والسماء : الى الشمال، يمتد شارع القطرة الذهبية ساكناً ، مقفراً ، في زاوية من الريف ، حيث نساء يتحدثن بصوت منخفض على الابواب ؛ والى اليمين ، على بضع خطوات من شارع بواسونيير ، جلبة عربات ، وحركة مستمرة لجمهور يفيض ويجعل من هذا الطرف مفترق طرق لحشد شعبي . كانت جرفيز تحب الشارع ، ومراتب عربات نقل البضائع في ثقوب الشارع الكبير الاحدب ، وتدافع الناس على طول الارصفة الضيقة التي تقطعهـا أكوام الحصى في منحدر شديد الانحدار ؛ والساقية بطول

ثلاثة أمتار امام دكانها كـانت ذات أهمية ضخمة ، نهر عريض تريده كثير النظافة . نهر غريب حي تلون مصبغة البيت مياهه بالاهواء الاكثر رقة وسط الوحل الأسود . ثم أنها كانت تهتم بالمخازن ، ودكان بقالة واسعة تعرض فيها أثمار بجففة تحفظها شباك ذات حلقات صغيرة ، ودكان لبيع الملابس الداخلية وقبعـات العمال تتأرجح فيها الفساتين والبلوزات الزرقاء لدى أقل نسمـة ، والسيقـان معلقة والاذرع متبـاعدة وعند بائعة الفواكه ، وبائعة الامعاء ، كانت تشاهد زوايا منضدة البيع حيث تشخر هررة جميلة هادئة . وجارتها ، مدام فيفوريه بائعة الفحم ، ردت لها تحيتها ، وهي امرأة قميئة سمينة ، مسودة الوجه ، لامعة العينين، متوانية بالضحك مع الرجال ، مسندة ظهرها الى واجهة دكانها حيث احطاب مرسومة على ارضية بلون حثالة الخمر تزخرف بيتاً خشبياً ريفياً برسم معقد . والسيدتان كودرج ، الام والابنة ، جارتاها الأخريان اللتان تديران دكـاناً لبيع المظلات ، لا تظهران أبداً ، وواجهتهما الزجاجية قاتمة ، وبابهما مغلق مزين بمظلتين صغيرتين من الزنك مدهونتين بطبقة كثيفة من اللون القرمزي الحاد .

ولكن جرفيز قبل ان تدخل كانت دائماً تلقي نظرة الى الامام، الى جدار ابيض كبير بدون نافـذة مثقوب بباب كبير يرى منه سطوع كور في ساحة مزدحمة بالعربات والعربات الصغيرة ، و« العرائش » في الهواء . وعلى الجـدار فان كلمة « بيطرة » مكتوبة بحروف كبيرة ، مؤطرة بمروحة من نعال الخيل . وكانت المطارق طـول النهار ترن على السندان ، وحـرائق من الشرر تنير ظلام الساحة القاتم . وفي اسفل ذلك الجدار ، في داخل ثقب كبير كالخزانة ، بين بائعة حدائد عتيقة وبائعة بطاطا مقلوة ، يوجد ساعاتي ، وهو سيد يرتدي معطفاً ، وهيئته نظيفة ، كان يفحص باستمرار ساعات بآلات صغيرة ، امام منضدة وضعت عليها اشياء دقيقة تحت الزجاج ، بينما يوجد وراءه رقاصات دزينتين او ثلاث من ساعات الكوكو الصغيرة كانت تضرب معاً في شقاء الشارع الاسود والضجـة الرتيبة لمحل البيطرة .

ورأى الحي ان جرفيز لطيفة جـداً وما من شك في انهم ثرثروا على حسابها ، ولكن لم يكن يوجد سوى صوت يعترف لها بعينين كبيرتين ، وفم ليس اطول من ذلك ، مع اسنان كثيرة البياض . واخيراً فقـد كانت شقراء جميلة وبامكانها الوقوف بين اجمل النساء لولا عاهة ساقها كانت في عامها الثامن والعشرين وقد سمنت ، وسمنت قسماتها الدقيقة ، وحركاتها اتخذت بطئاً سعيداً . وهي الآن تنسى نفسها احياناً على حافة كرسي طوال الوقت الذي تنتظر فيه مكوواتها ، بابتسامة مبهمة ، والوجه غارق بسرور جشع . لقـد اصبحت جشعة ، وهذا ما كان يقوله الجميع ؛ ولكن هـذا ليس عيباً قبيحاً ، بالعكس ، فعندما يربح المرء ما يدفع به ثمن قطع طرية يكون كثـير الحمق اذا اكل قشور البطاطا ، اليس كذلك ؟.. وفضلا عن ذلك فهي تشتغل دائمـاً شغلاً قاسياً ، واقفة على اربع في سبيل اعمالهـا ، قاضية الليالى ، والمصاريع مقفلة ، عندما يكون لديها عمل مستعجل . انها ذات حمية ، كما كان يُقال في الحي ؛ وكان كل شيء يزيد من نجاحها . انها تغسل للبيت ، وللسيد مادينيه ، والآنسة ريمانجو ، وآل بوش ؛ واختطفت ايضاً من معلمتها القـديمة مدام فوكونيه سيدات مـن باريس ساكنات في شارع فوبور – بواسونيير . ومنذ الاسبوعين الثانيين اضطرت الى تشغيـل عاملات ، مدام بوتوا وكليمانس الكبيرة ، تلك الفتـاة الـتي كانت تسكن سابقاً في الطابق السادس ؛ وهذا ما جعل عندها ثلاثـة اشخاص مع خادمتها الحولاء الصغيرة اوغسطين ، وهي قبيحة كمؤخرة رجل فقير ، ومن المؤكد ان غيرها ربما اضاع عقـله في ضربة الحظ هذه . وكانت متسامحة قليلاً في الانفاق نهار الاثنين بعد ان تعبت الاسبوع بكامله . الا ان هذا لازم لها ؛ والا لظلت مسترخية بطيئة في حركاتها متطلعة الى القمصان لتُكوى من تلقاء نفسها لو لم تكن قد ألصقت قطعـة من المخمل على صدرها ، شيء نافع حيث الحسد كان يدغدغ حوصلتها .

ولم تظهر جرفيز من الملاطفة كما تظهر اليوم فقد كانت عذبـة كالخروف ، طيبة كالخبز وباستثناء مدام لوريللو التي كانت تدعوهـا ذيل البقرة لتثأر

لنفسها ، لم تكن تكره احـداً وتغفر لجميع الناس وفي استسلامها الخفيف لثرثرتها عندما تفطر جيداً وتتناول قهوتها فانها كانت تخضع لحاجـة التسامح العام . وتكون كلمتها « يجب ان يسامح الناس بعضهم بعضاً اذا ارادوا ألا يعيشوا كالمتوحشين » وعندما يحدثونها عن طيبتها كانت تضحـك ، لم يكن ينقصها شيء لتكون رديئة ! كانت تدافع عن نفسها وتقول بأن ليس فيها مـا يؤهلها لتكون طيبة . الم تتحقق جميع احلامها ! هل بقي لها شيء تطمع به في الوجود ؟ كانت تتذكر مثلها الاعلى سابقاً عندما كانت تجد نفسها على البلاط ؛ تشتغل ، تأكل خبزاً ، يكون لها بيت ، تربي اولادهـــا ، وان لا تُضرب ، وتموت في سريرها . والآن قد تخطت مثلها الاعلى؛ فقد اصبحت تملك كل شيء ، وعلى احسن ما يكون . اما الموت على سريرها ، وقد اضافت ذلك مـازحة ، فانها تحسب حسابه ولكن على ان يكون متأخراً بقدر الامكان .

وجرفيز كانت تبدو لطيفة مع كوبو بشكل خاص لا كلمـة سيئة ، ولا شكوى منه . وقد انتهى الزوج بالعودة الى الشغل ؛ ولما كان مشغله آنذاك في الطرف الآخر من باريس ، فقد كانت تعطيه كل صباح اربعين فلساً لطعامه ونبيـــذه وتبغه . الا ان كوبو كان يتوقف في الطريق يومين من كل ستة ايام ليشرب بالاربعين فلساً مع صديق ، ويعود ليتناول فطوره ، سارداً قصة وذات مرة لم يذهب بعيداً ، فقد دفع مع ميبوت وثلاثة آخرين ثمن وليمة وافرة معتنى بها ، محار ، ولحم مشوي ، ونبيذ مختوم بختم « الكبوشيين » ، عنـد حاجز لاشابيل ، ولما كانت الفلوس الاربعون لا تكفي فقد ارسل الحساب الى زوجته بواسطة احد الغلمان ، طالباً منه ان يقول لها انه في دائرة الشرطـة وكانت هذه تضحك وتهز كتفيها . اين الشر اذا كان زوجها يلهو قليلاً ؟ يجب ان يترك الحبل طويلاً للرجال اذا ارادت المرأة ان تعيش بسلام في بيتها ، ومن كلمة لأخرى يتوصلون الى الضرب ، يا إلهي ! يجب فهم كل شيء ، وكان كوبو لا يزال يتألم من ساقه ، ثم وجد نفسه مجروراً ، كان مجبراً ان يفعل كالآخرين ، وإلا ُعدّ فظاً . ومع ذلك فهذا لن يجر وراءه ذيولاً ، اذا عاد الى البيت ثملا قليلا

ينام . وبعد ساعتين لا يبدو شيء .

الا ان الحرارة الشديدة جاءت ، ففي فترة ما بعد الظهر من احد ايام حزيران ، والنهار السبت حيث الشغل يتطلب العجلة ، حشت جرفيز بالكوك الجهاز الآلي الذي كانت حوله عشر مكاوٍ لتحمى في زفير الانبوب في تلك الساعة كانت الشمس تسقط عمودياً على الواجهة ، ويعكس الرصيف حرارة حامية ترقص تموجاتها في سقف الدكان ، وذلك الشعاع من النور المزرق من انعكاس ورق الرفوف والواجهة الزجاجية ، كان يشكل فوق منضدة العمل نوراً معمياً كغبار شمس يتسرب من خلال البياضات الناعمة كانت حرارة مميتة ، وقد ترك باب الشارع مفتوحاً ، ولكن لم تكن تأتي اية نسمة ريح ، وقطع الغسيل التي تجف في الهواء ، معلقة في خيوط من النحاس الاصفر ، يتصاعد منها الدخان ، وقد اصبحت قاسية كالنشارة في اقل من ثلاثة ارباع الساعة . ومنذ لحظة ، وتحت ثقل الاتون ، سيطر صمت كبير كانت المكاوي اثناءه تضرب وحدها بلا طنين ، مخنوقة بالغطاء الكثيف المجهز بنسيج قطني

وقالت جرفيز

– اذا لم نتعرض اليوم للذوبان ! فسوف نخلع قمصاننا !

كانت جاثمة على الارض امام اناء من خزف ، مشغولة بتنشية البياضات ترتدي تنورة بيضاء ، والصدرة مشمرة الاكام وزالقة عن الكتفين ، وذراعاها عاريان ، والعنق عارٍ ، وردية اللون ، سابحة بالعرق بحيث ان فتائل شعرها الصغيرة الشقراء الشعثاء كانت ملتصقة ببشرتها . وبكل اعتناء ، كانت تغمس في الماء الحليبي قلانس ، وصدور قمصان رجالية ، وتنورات بكاملها ، وبطائن بنطلونات نسائية . ثم كانت تدير القطع وتضعها في سلة مربعة بعد ان تغطسها في سطل وتهز يدها على القمصان والبنطلونات التي لم تنشّ . وقالت :

– هذه السلة لك يا مدام بوتوا . اسرعي ، أليس كذلك ؟ هذا يجف حالاً ويجب البدء من جديد في مدى ساعة .

ومدام بوتوا امرأة في الخامسة والأربعين ، هزيلة ، صغيرة ، كانت تكوي

دون ان يسيل منها قطرة عرق ، مزورة في فستان خارجي قديم بلون الكستناء. حتى انها لم تخلع قلنسوتها ، وهي قلنسوة سوداء مجهزة باشرطة خضراء متحولة الى اللون الاصفر . وقد ظلت متصلبة امام منضدة الشغل المرتفعة بالنسبة اليها. ومرفقاها عاريان ، دافعة مكواتها بحركات دميةٍ تتحرك بواسطة خيوط وهتفت فجأة

– آه ! كلا يا آنسة كليمانس . ارتدي صدرتك . انت تعلمين انني لا أحب قلة الحشمة . حين تكونين في بيتك فاظهري كل ما عندك لقد وقف ثلاثة رجال في الجهة المقابلة .

ونعتتها كليمانس الكبيرة ، بينها وبين نفسها ، بالبهيمة العجوز كانت تجرض بريقها ، باستطاعتها ان تتصرف على هواها ، وليس لدى جميع النـاس هذه البشرة اللطيفة . ومع ذلك فهل رأى احد منها شيئاً ؟ ورفعت ذراعيها ، وكان جيدها القوي لفتاة جميلة يشق قميصها . وكتفاها يقضقضان الاكمام القصيرة، وكانت كليمانس حريصة على ان تفرغ مخ عظامها قبل سن الثلاثين ، ففي غد ليلة من الفسق الجدي لم تكن تشعر بالبلاط تحت قدميها ، وكانت تنام على مـا امامها من عمل وكأن رأسها وبطنها محشوّان بالخرق ، ولكن جرفيز احتفظت بها لان ليس هناك عاملة مثلها تستطيع ان تكوي قميصا رجاليا بمثل اناقتها كانت اختصاصية بقمصان الرجال

وتنتهي بأن تصرح ، وهي تربت على نحرها

– هذا لي . انه لا يعض ولا يسبب ألماً لأحد .

وقالت جرفيز

– ارتدي صدرتك يا كليمانس . ان مدام بوتوا على حق ، فهذا غير لائق... وقد يُظن في بيتي ما ليس فيه .

عندئذ ارتدت كليمانس الكبيرة صدرتها وهي تتذمر . يالهـا من شكوى مرائية ! بهــذا لن يرى المارة ما يوقفهم وأخمدت حدة غضبها على الخادمة العاملة ، تلك الحولاء اوغسطين التي كانت تكوي بجانبهــا البياضات غير

الانيقة ، وجوارب ومناديل ؛ وقد وبختها ودفعتها بمرفقها . ولكن اوغسطين، وهي شرسة ذات خبث لمخلوق سيء الاخلاق ومتأذٍ من النـاس ، بصقت على ثوبها من الوراء دون ان تُرى وذلك لتثأر لنفسها .

وكانت جرفيز قد بدأت بقلنسوة لمدام بوش وتريد الاعتناء بها وكانت جهزت النشا الساخن لتجدده ، واخذت تدير بهـدوء ، في داخل القلنسوة ، حديدة صغيرة مستديرة من الطرفين ، عنـــدما دخلت امرأة بارزة العظام . وفي وجهها بقـع حمـراء ، وتنورتها مبللة انهـا معلمة غسالة تستخدم ثـلاث عاملات في مغسل القطرة الذهبية . وصاحت جرفيز

– جئت متأخرة يا مدام بيجار اقلت لك هذا المساء... انت تزعجينني جداً في مثل هذه الساعة

ولكن لمـا كانت الغسالة تشكو خائفة الا تستطيع الغسيل في نفس النهار ، فانها كانت تريد ان تعطيها الغسيل الوسخ حالاً وذهبتا تبحثان عـن الصرر في الغرفة اليسرى حيث ينام إتيين ، وعادتا بأحمال كبيرة وضعتاها على البلاط في داخل الدكان وقد دام الانتقاء نصف ساعة . وكانت جرفيز تكوم اكوامـاً حولها وتلقي معاً قمصان رجال وقمصان نساء، ومناديل، وجوارب، ومماسح. وعندما تمر بين يديها قطعة لزبون جديد كانت تضع عليها علامة صليب بالخيط الاحمر لتعرفها. وفي الهواء الحار كانت تتصاعد رائحة عفونة تافهة مـن كل هذا الغسيل الوسخ المحرّك .

وقالت كليمانس وهي تسد أنفها

– اوه ! انه قذر

فأوضحت جرفيز بهدوء :

– حتماً . ولو كان نظيفاً لما اتونا به . وكل عمل بأجر . ماذا ! قلنا أربعـة عشر قميصاً اليس كذلك يا مـــدام بيجار ؟ خمسة عشر ، ستة عشر ، سبعة عشر ...

واستمرت تعدّ بصوت عال . ولم تكن تتقزز ، فهي معتادة على الأوساخ ،

وكانت تدخل ذراعيها العاريين الورديين وسط القمصان الصفراء الوسخة ، والمماسح المتصلبة من شحوم ماء المغاسل ، والجوارب المتآكلة الفاسدة من العرق . وكانت جالسة على حافة كرسي صغير ، منحنية ، مادة يديها يميناً وشمالاً بحركات متباطئة كما لو انها سكرت من تلك العفونة البشرية ، مبتسمة بغموض ، وعيناها غارقتان . وكان يبدو ان تكاسلها الأول آت من هنا ، من اختناق البياضات القديمة التي تسمم الهواء حولها .

ووصل كوبو في اللحظة التي كانت تهز فيها فراش طفل لم تعرفه بسبب ما عليه من بول . وقال متلعثماً :

– يا لها من ضربة شمس ! انها تضرب الرأس .

وتعلق عامل الزنك بمنضدة الشغل لئلا يسقط . انها المرة الأولى التي يسكر فيها الى هذه الدرجة . حتى الآن كان يعود الى البيت ثملاً قليلاً ليس اكثر . ولكن هذه المرة كان على عينه اثر ضربة ، انها ضربة حبّية تائهة في مشاجرة ، وشعره الاجعد الذي ظهرت فيه خيوط بيضاء يجب ان يكون قد كنس زاوية غرفة مريبة لبائع خمر ، لأن هناك نسيج عنكبوت يتدلى من احدى الفتائل على النقرة . ومع ذلك فقد ظل مازحاً . وقسماته هزلت قليلا وهرمت ، وزاد بروز الفك الأسفل ، ولكن ظل ولداً طيباً ، كما كان يقول ، ولا تزال بشرته طرية تغري دوقة .

وقال موجهاً الكلام الى جرفيز

– اريد ان اشرح لك ان بيبه دي سيليري ، وتعرفينه جيداً ، ذلك الذي له رجل خشبية ... يريد الذهاب الى بلاده ، وقد اراد ان يولم لنا وليمة .. اوه ! كنا على ما يرام لولا تلك الشمس ... الناس مرضى في الشوارع . صحيح ! الناس يسيرون سيراً ملتوياً

وبما ان كليمانس الكبيرة ابتهجت مما رآه السكير في الشارع ، فقد اجتاحه هو ايضاً مرور عظيم كاد يخنقه وصاح :

– ها ! السكيرون المقدسون ، انهم ذوو دعابة ولكن ليس الخطأ منهم، بل من الشمس

وضحك كل من في الدكان ، حتى مدام بوتوا التي لا تحب السكارى . وتلك الحولاء اوغسطين غنت كالدجاجة ، مفتوحة الفم ، غاصّة الا ان جرفيز كانت تشكّ في ان كوبو لم يأت الى البيت رأساً ، بل قضى ساعة عند آل لوريللو حيث تلقى نصائح سيئة . وعندما اقسم لها بالنفي ضحكت بدورها، متسامحة ، ولم توبخه بسبب اضاعته يوماً آخر من العمل وتمتمت

– انه يتفوه بحماقات ، يا إلهي ايمكن التفوه بحماقات كهذه ؟

ثم بصوت امومي

– اذهب ونم ، اليس كذلك ؟ انت ترى اننا مشغولون ، وانت تزعجنا . الكل اثنان وثلاثون منديلا يا مدام بيجار ؛ واثنان آخران ، اربعة وثلاثون .

ولكن كوبو لم يكن نعساناً ، فقد ظل هناك يتمايل بحركة رقاص الساعة ، ضاحكاً بهيئة عنيدة ومنكدة . وجرفيز التي ارادت التخلص من مدام بيجار، نادت كليمانس وعدّت لها قطع الغسيل بينما كانت تسجلها ولدى كل قطعة كانت تلك التافهة الكبيرة تفلت كلمة خشنة ، قذارة ، كانت تنشر بؤس الزبائن ، ومغامرات مخادع النوم ، وكانت تعلق بمزاحها على جميع الثقوب والبقع التي تمر تحت يدها . اما اوغسطين فكانت تتظاهر بعدم فهم شيء ، وتفتح اذنين كبيرتين لفتاة صغيرة فاسدة . وكانت مدام بوتوا تعض على شفتيها وتجد ان من الحمق قول هذه الاشياء امام كوبو ؛ والرجل ليس بحاجة لرؤية الملابس الداخلية ؛ وعرض البضاعة بهذا الشكل يتجنبه الناس المحترمون أما جرفيز ، الصارمة في عملها ، فلم تظهر انها تسمع . وكانت وهي تكتب تتبع القطع بنظرة منتبهة لتتعرف عليها عند مرورها ؛ ولم تكن تخطىء ابداً . وكانت تضع اسماً على كل منها ، بمهارة ، وبالالوان . هذه المناشف لآل غوجيه ؛ وهذا ظاهر للعيان لانها لم تستعمل لتنشيف قفا المقالي الصغيرة ، وهذا غلاف وسادة آت بالتأكيد من عند آل بوش بسبب الدهن الذي تدهن به مدام بوش

كل بياضاتها . وليس هناك من حاجة لوضع الانف على صداري الفانيلا العائدة للسيد مادينيه لنعرف انها له . فهذا الرجل يخضب الصوف ببشرته الدهنية . وكانت تعرف خصائص اخرى ، اسرار نظافة كل فرد . والملابس الداخليـة للجارات اللواتي يجتزن الشارع بملابس حريرية ، وعدد الجوارب ، والمناديل ، والقمصان التي يوسخونها كل اسبوع . والطريقة التي يمزق بها الناس بعض قطع الملابس ، دائماً في الموضع ذاته . وكانت ايضاً كثيرة النوادر . فقمصان الآنسة ريمانجو مثلاً كانت عرضة لتعليقات لا تنتهي ؛ انهـا تهترىء من الاعلى ، لذلك وجب ان تكون عظام كتفي البنت الكبيرة مروسة . ولا تتسخ ابـداً ولو ارتدتها خمسة عشر يوماً ، الامر الذي يثبت ان المرء في هذا السن يكون كقطعة خشب تقريباً بحيث يصبح من الصعب ان يتأثر بشيء . وكانوا في الدكان يعرّون هكذا كل حي القطرة الذهبية عند كل عملية انتقاء .

وصاحت كليمانس وهي تفتح صرة جديدة :

– هذه حلوى !

وتراجعت جرفيز وقد اجتاحها اشمئزاز عظيم وقالت

– صرّة مدام غودرون لا اريد غسلها . سأبحث عن عذر .. كلا ، انا لست صعبة كغيري ، وقد لمست في حياتي ثياباً اكثر إثارة للتقزز . ولكن بالحقيقة ، فاني لا استطيع لمس هذه . انها تجعلني اتقيأ على البلاط ... ماذا تفعل تلك المرأة إذن لتجعل غسيلها بحالة كهذه ؟..

ورجت كليمانس ان تسرع . ولكن العاملة كانت مستمرة في ملاحظاتها ، وأدخلت اصابعها في الثقوب ، ملقية بعض التلميحات عن القطع التي كانت تهزها كأعلام القذارة المنتصرة . إلا أن الاكوام ارتفعت حول جرفيز وقـد غابت الآن بـين القمصان والتنورات وهي لا تزال جالسة على حافـة الكرسي الصغير ؛ وكان أمامها الشراشف ، والبنطلونات ، واغطية الموائد ، نكبة من القذارة ؛ وهناك في الداخل ، في وسط ذلك المستنقع المتزايد الكبر ، كانت تبقي ذراعيها عاريين ، وعنقها عارياً ، مع فتائل شعرها الاشقر الملتصق بصدغيها ،

اكثر احمراراً واكثر تعباً كانت تستعيد هيئتها الرصينة ، وابتسامتها كربة عمل منتبهة ومعتنية ، ناسية غسيل مدام غودرون ، غير شاعرة به ، باحثة بيد في الاكوام لترى اذا لم يكن هناك خطأ وتلك الحولاء اوغسطين التي كانت تحب ان تلقي ملء المجرفة من الكوك في الجهاز الآلي ، حشته الى درجة ان صفائح الحديد المصبوب قد احمرّت . وكانت الشمس المنحرفة تسقط على الواجهة ، واصبحت الدكان ملتهبة . وعندئذ اجتاح كوبو حنو مفاجيء ، وقد زادت الحرارة من سكره ، فتقدم نحو جرفيز فاتحاً ذراعيه ، ككثير التأثر ، وقال متلعثماً :

– انت امرأة جيدة ويجب ان اعانقك .

ولكنه تعثر بالملابس التي كانت تسد الطريق ، وكاد يقع . وقالت جرفيز دون ان تغضب :

– أأنت مجنون ؟.. ابق هادئاً ، فقد انتهينا

كلا ، كان يريد معانقتها ، انه بحاجة الى ذلك لانه يحبها كثيراً . ودار حول كومة الملابس متلجلجاً ، واصطدم بكومة القمصان ، ولما كان مصراً فقد تعلقت رجلاه ، واستلقى على الارض ، وانفه بين المماسح . وبدأ صبر جرفيز يفرغ ، فدفعته صائحة بأنه سيخلط القطع بعضها ببعض . ولكن كليمانس ومدام بوتوا نفسها قد خطّآها . فقد كان لطيفاً بعد كل شيء . ويريد معانقتها. بامكانها ان تدعه يعانقها

وقالت مدام بيجار التي يضربها زوجها السكير كل مساء عندما يعود ، وهو صانع اقفال

– انت سعيدة يا مدام كوبو . لو كان زوجي كهذا حين يسكر لكانت حياتي ملذة

وهدأت جرفيز ، واسفت على حدتها . وساعدت كوبو على النهوض . ثم قدمت خدها مبتسمة . ولكن عامل الزنك دون ان ينزعج امام الناس ، امسك بنهديها وتمتم :

– ليس ذلك لاقول ان غسيلك متعب جداً ، ولكني احبك كما ترين

فصاحت وهي تضحك بشدة

– دعني . انت تدغدغني يا له من احمق كبير ! لا يكون المرء بهذا الحمق !

وامسك بها ولم يتركها ، فاستسلمت ، متخدرة بالدوار الخفيف الذي اتاها من كومـــة الغسيل ، دون ان تتقزز من انفـاس كوبو المشبعة بالخمرة . والقبلة الكبيرة التي تبادلاها على الفم وسط قذارة المهنة كانت كسقطة اولى في ارتخـاء حياتها البطيء .

وكانت مدام بيجار تعقـــد الغسيل صرراً . وكانت تتحدث عن صغيرتها البالغة من العمر سنتين ، طفلة اسمها اولالي وعقلها عقل امرأة . يمكن تركهـا وحدها ؛ فهي لا تبكي ابداً ، ولا تلعب بعيدان الكبريت واخيراً حملت صرر الغسيل واحدة واحدة . وقامتها الكبيرة منحنية تحت الثقل ، ووجههـا تلون ببقع بنفسجية

وقالت جرفيز وهي تمسح وجهها قبل ان تبدأ بقلنسوة مدام بوش :

– هذا لا يحتمل اننا نشوى

وجرى الحديث عن ضرورة صفع اوغسطين عندمـا رأوا ان الجهاز الآلي اصبح احمر . والمكاوي نفسها قد احمرت . ان الشيطان يعمر جسدها ! لا يمكن ان تدير ظهرك لها دون ان تقوم باعمال سيئة . والآن يجب انتظار ربع ساعـة لاستعمال المكاوي . وغطت جرفيز النار بجرفتين من الرماد . وخطر لها ان تمد زوجاً من الشراشف على الخيوط النحاسية في السقف بشكل ستائر ، وذلك لتخفيف حدة الشمس . وعندئذ يصبحن على خير حـــال في الدكان وكانت الحرارة فيها لا تزال هادئة ، ولكنهن سيصبحن في مخدع نوم ، مع يوم حار ، محبوسات كأنهن في بيوتهن ، بعيدات عن العالم ، مع انهن يسمعن الناس ، من وراء الشراشف ، يسيرون مسرعين على الرصيف ؛ ويكون لهن ملء الحرية في ان يجلسن بشكل مريح . وسحبت كليمانس صدرتهـــا. وكوبو لا يزال يرفض الذهاب لينام ، وقد قال وعداً بإبقائه على ان يعد بأن يظل هادئاً في احـــدى

الزوايا ، لان المقصود في تلك الساعة ألا ينام على الشواء

وكانت جرفيز تتمتم ، متكلمة عن اوغسطين

– ماذا فعلت ايضاً هذه الحشرة بالمكواة ؟

كانوا يبحثون عن المكواة الصغيرة التي يجدونها في اماكن غريبة خبأتها فيها الخادمة العاملة بدافع الخبث ، كما قيل . واخيراً اتمت جرفيز قلنسوة مدام بوش وكانت قد سوت مخرماتها ومددتها باليد وقومتها بجرة خفيفة من المكواة . انها قلنسوة فيها القسم الذي يغطي مقدم الرأس مزين جداً ، ويتألف من عصائب ضيقة متعاقبة على وشي مطرز . وكانت تدأب صامتة، ممتنية ، كاوية العصائب والوشي بواسطة « الديك » وهي بيضة حديدية مغروزة بواسطة ساق في قدم من الخشب .

وعندئذ خيم الصمت . ولم يكن يسمع طوال برهة سوى الضربات الخفيفة المختنقة على الغطاء وفي جانبي المنضدة الواسعة المربعة فان ربة العمل ، والعاملتين ، والخادمة كن واقفات ، منحنيات على عملهن، الاكتاف مستديرة والاذرع في رواح ومجيء دائمين . وكل منهن بلاطتها على يمينها ، وهي آجرة مسطحة محروقة من المكاوي الشديدة الحرارة ، وفي وسط المنضدة ، على حافة صحن اجوف مليء بالماء النقي كن يغمسن خرقة وفرشاة صغيرة . وكانت تتفتح باقة من الزنابق الكبيرة في بوكال قديم للكرز بالعرق ، وتجعل هناك زاوية حديقة ملكية ، بكثافة ازهارها العريضة التي بلون الثلج . وكانت مدام بوتوا قد اخذت تعمل بسلة الغسيل التي اعدتها جرفيز . وفيها مناشف ، وبنطلونات وصدرات وازواج اكام . وكانت اوغسطين تجر جواربها ومماسحها ، وانفها في الهواء مهتمة بذبابة كبيرة كانت تطير . اما كليمانس الكبيرة فقد بلغت منذالصباح حتى الآن قميصها الرجالي الخامس والثلاثين

وقال فجأة عامل الزنك الذي شعر بحاجة الى قول هذا التصريح :

– دائماً نبيذ ، اما العرق فلا ، العرق يضرني . ولا يلزمني

وأخذت كليمانس مكواة من الجهاز الآلي بمسكتها الجلدية المجهزة بصفيحة

حديد وأدنتها من خدها لتتأكد من حماوتها وحكتها على بلاطتها ومسحتها بثوب معلق بحزامها وأخذت تشتغل بقميصها الخامس والثلاثين ، كاوية القبة والكمّين أولاً وقالت :

– باه ! ياسيد كوبو . كأس من الكريك غير ضار أما أنا ، فهذا يبعث فيّ الحرارة ... ثم ، أنت تعلم . كلما ثقل لسان المرء بسرعة يكون أكثر مجوناً . اوه ! اني لا أتجاوز الحد ، فانا أعلم انني لن اموت شابة .

فقاطعتها مدام بوتوا التي لا تحب الاحاديث الكئيبة

– انت مضجرة بأفكارك المأتمية .

وكان كوبو قد نهض غاضباً ، ظاناً انهم يتهمونه بأنه شرب عرقاً . وقد أقسم برأسه ورأس زوجته وابنته انه لا يوجد في جسده أية قطرة من العرق . واقترب من كليمانس ونفخ في وجهها لتشمه ثم حين اصبح انفه على كتفيها العاريين أخذ يضحك كان يريد ان ينظر. وكليمانس ، بعد ان طوت القميص وأمرّت المكواة على الجانبين ، وصلت الى المعصمين والطوق وبما انه كان يحشر نفسه بها فقد طوت طية خطأ ؛ واضطرت لتناول الفرشاة من على حافة الصحن الأجوف لتملس النشا . وقالت :

– ايتها السيدة ! إمنعيه من البقاء هكذا ورائي .

فأعلنت جرفيز بهدوء

– دعها ، فأنت لست عاقلاً نحن متعجلات ، اتسمع ؟..

لقد كن متعجلات ، حسناً ، وبعد ؟ ليس الخطأ منه انه لم يفعل اي شر ولم يلمس ، بل ينظر فقط اليس مسموحاً النظر الى الأشياء الجميلة التي صنعها الله ؟ انها ذات قوادم جميلة تلك الناقصة الملح كليمانس !.. باستطاعتها ان تري نفسها بفلسين وتدع الناس يتحسسونها ، وما من احد يأسف على نقوده الا ان العاملة لم تكن تدافع عن نفسها ، بل كانت تضحك من تلك الاطراءات الفجة الصادرة عن رجل أفرط في الشرب . وأخذت تمزح معه . وسخر منها بسبب قمصان الرجال . اذن كانت دائماً في قمصان الرجال ؟ ولكن نعم، كانت تعيش

داخلها . آه ! يارب الأرباب ! انهاتعرفها معرفة بالغة ، وتعرف كيف صنعت ، وقد مر بين يديها مئات ومئات ! وجميع الشقر والسمر في الحي يحملون على اجســـامهم من صنيعها الا انها كانت تستمر وكتفاها يهتزان من ضحكها ؛ وكانت قد وسمت خمس طيـــات كبيرة في الظهر بادخالها المكواة من فتحة المقدمـــة وصقلت الذيل من أمام وملسته أيضاً بأن أجرت عليه المكواة عدة مرات .

وقالت وهي تضحك بشدة

– هذا ، انه الراية

وضحكت تلك الحولاء اوغسطين اذ بدت الكلمة لها غريبة . وقد ُوبخت يا لها من ماخطة تضحـــك من كلمات يجب الا تفهمها ، واعطتها كليمانس مكواتها ؛ وانتهت الخادمة التلميذة بالمكاوي على مماسحها وجواربها ، عندما لم تعد ساخنة كـــفاية لاجل القطع المنشاة . ولكنها أمسكت المكواة بشكل اخرق بحيث أحدثت حرقاً في معصم الـكم . وبكت ،واتهمت كليمانس باحراقه عمداً ولكن العاملة التي كانت قد ذهبت لتأتي بمكواة شديدة الحرارة لاجل مقدمة القميص ، عزتها حالاً بان هددتها بانها ستكوي لها اذنيها، اذا استمرت. الا انها أدخلت صوفاً تحت المقدمة ووضعت المكواة ببطء تاركة للنشا الوقت الكافي للخروج والجفاف . واتخذت مقدمة القميص صلابة ولمعان ورقةٍ قوية .

– يا لها من مزعجة !

هكذا قال كوبو الذي كان يسير وراءها باصرار سكير .

وارتفع ضاحكاً ضحكة بكرةٍ لم ُتشحّم جيداً . وكليمانس المستندة بقوة الى منضدة الشغل ، مقلوبة الرسغين ، والمرفقـــان مرفوعان ومتباعدان ، كانت تطوي العنق ، باذلة الجهـــد وقد انتفخ كل لحمها العاري ، ويتصاعد كتفاها وفقاً لحركة العضلات البطيئة ، محدثة نبضات تحت البشرة النـــاعمة ، والعنق ينتفخ ندياً بالعرق ، في الظل الوردي للقميص المفتوح . عندئذ مد يده واراد ان يلمس

وصرخت كليمانس :

– يا سيدة ! يا سيدة ! ليبقى عاقلاً ، انني سأذهب اذا استمر ذلك . لا اريد ان أُهان .

وكانت جرفيز قد وضعت قلنسوة مدام بوش على عمود مجهز بنسيج كتاني ، وقد كوت المخرمات (الدانتيلا) وملستها بشكل انبوب ، وبدقة ، بمكواة صغيرة . ورفعت عينها حين كان عامل الزنك لا يزال ماداً يديه تجوسان خلال القميص . وقالت بهيئـــة قلقة كأنها توبخ طفلاً اصر على أكل المربيـــات دون خبز

– بالحقيقة انك لست عاقلاً يا كوبو ستذهب وتنام .

وصرحت مدام بوتوا

– نعم ، اذهب ونم يا سيد كوبو . هذا افضل .

فتلجلج دون ان يكف عن الضحك :

– آه ! انت كثـــيرة القساوة ! ألا يستطيع المرء ان يمزح ؟ ان النساء يعرفنني ، فلم اكسر لهن شيئاً . المرأة تُقرص ، اليس كـــذلك ؟ ولكني لن اذهب الى ابعد من ذلك ؛ انني ببساطة اكرم الجنس . وثم ، ان المرء ينشر بضاعته للانتقاء ، اليس صحيحاً ؟ لماذا تظهر الشقراء الكبيرة كل ماعندها ؟.. كلا ، ليس هذا بالشيء النظيف ..

والتفت نحو كليمانس وقال

– انت تعرفين يا غزالتي انك مخطئة بالتظاهر بالسذاجة .. اذا كان هـــذا بسبب وجود اناس

ولكنه لم يستطع ان يكمل . فقد امسكته جرفيز بيـــد ، بدون عنف ، ووضعت اليد الاخرى على فمه . فأخذ ينتفض بطريقة هاذرة بينما كانت تدفعه الى داخل الدكان ، نحو الغرفـــة وقد خلّص فمه وقال انه يريد ان ينـــام ولكن على الشقراء الجميلة ان تأتي لتدفىء رجليـــه ثم سُمعت جرفيز وهي تخلع له حذاءه وتعريه من ملابسه وتضربه ضرباً خفيفاً بطريقة امومية . وحين

نُزعت لباسه الداخلي انفجر ضاحكاً ، مستسلماً ، متقلباً ، متمرغاً في منتصف السرير ؛ وكان يفحص برجليه ويقول انها تدغدغه . واخـــيراً قمطته باعتناء كطفل . هل كان بحالة حسنة على الاقل ؟ انه لم يجب ، بل صاح بكليمانس

– قومي اذن يا غزالتي ، انا هنا ، اني انتظرك .

وحين عادت جرفيز الى الدكان كانت تلك الحولاء اوغسطين قد تلقت صفعة من كليمانس . وحدث ذلك بسبب مكواة قذرة وجدتها مدام بوتوا على الجهاز الآلي ؛ وصبغت صدرة بالسواد دون ان تنتبه . ولما كانت كليمانس قد اتهمت اوغسطين ، مدافعةً عن نفسها بسبب عدم تنظيف مكواتها ، واقسمت بآلهتها الكبرى ان المكواة ليست لها ، رغم صفيحة النشا المحروق الباقية في اسفل ، فان التلميذة العاملة بصقت على مقدم ثوبها دون ان تختبىء ، مغتاظة من ظـــلم كهذا . ومن هنا جاءتها لطمة محكمة . وحبست الحولاء دموعها ، ونظفت المكواة بطرف شمعـــة ؛ ولكن كلما مرت وراء كليمانس كانت تحفظ ريقهـــا وتبصق ، ضاحكة في نفسها عندما كان البصاق يسيل من التنورة .

واخذت جرفيز تكوي مخرمات القلنسوة . وفي الهـــدوء المفاجىء الذي استتب ، كان يميز صوت كوبو الخشن من وراء الدكان . لقد ظل طفلاً جيداً ، وكان يضحك وحيداً لافظاً شذرات من عبارات

– زوجتي حمقاء ! حمقاء لأنها انامتني ! ها ! ان من الحمـــاقة النوم في عز الظهر حين لا يكون هناك ألم :

ولكنه بدأ يشخر فجأة . وعندئذ تأوهت جرفيز آهـــة راحة ، كانت سعيدة حين عرفت انه ارتاح ، مخمّراً سكرته على فراشين جيدين . وتكلمت في الصمت ، بصوت بطيء مستمر ، دون ان تحيد عينيها عن المكواة الصغيرة التي كانت تحركها بنشاط :

– ماذا تريدون ؟ عقله ليس معه ، والغضب ليس ممكناً . ولو وبختـــه لما زاد في الامر شيء . احب ان اقول مثله واجعله ينام ؛ لقد انتهى الامر الآن على الاقل وانا مطمئنة ... ثم ، انه ليس رديئاً ، ويحبني جيداً وقـــد رأيتن

منذ لحظة انه يتعرض لتقطيع اوصاله ليقبلني . وهــذا لطيف جداً ، لأن هناك اناساً يذهبون الى النساء حين يشربون   اما هو فيعود رأساً الى هنـا . وهو يمزح مع العاملات ولكن مزاحه لا يسير بعيــداً   أتسمعين يا كليمانس ؟ يجب ألا تعتقدي انك جُرحتِ   فأنت تعرفين ماهو الرجـل الثمل . ربمـا يقتل اباه وامه ولا يتذكر. اوه .. اني اسامحه بطيبة قلب فهو ككل الآخرين، بالتأكيد

كانت تقول هــذه الأشياء باسترخاء ، وبدون ألم ، معتادة في السابق على ثرثرات كوبو ، معللة ملاطفاتها له ، ولكنها لا ترى شراً في ان يقرص خصور الفتيات عندها . وعندما سكتت، خيم الصمت ولم يعكره شيء وكانت مدام بوتوا تسحب السلة عند كل قطعة تأخذها ، غارقة تحت الغطاء الكتاني الذي يغطي طاولة الشغل ؛ وعندما تكوي كانت ترفع ذراعيها الصغيرتين وتضمها على رف . وانتهـت كليمانس بأن ملست بالمكواة القميص الرجالي الخامس والثـلاثين . وزاد الشغل ، وحسبن انهن سيسهرن حتى الساعة الحادية عشرة اذا اسرعن . والمشغل الآن يجدّ دون انقطاع وليس فيه اي لهو ، ويعمل بقوة . وكانت الاذرع العـــارية تروح وتجيء وتضيء ببقعهـــا الوردية بيــاض الغسيل . وملىء الجهاز الآلي بالكوك وبما ان الشمس منزلقة من بين الشراشف فقد كانت تصب لهبها على الوجاق . ورؤيت الحرارة الكبيرة تبعث من الشماع لهيباً غير منظور يهز ارتعـــاشه الهواء . واصبح الاختنــاق ، تحت التنورات والاغطية ، الجــافة في السقف ، بحيث ان تلك الحولاء اوغسطين ، وقد جف ريقها ، اخرجت زاوية من لسانهـــا على حافة شفتيها   وكان يشتمّ من ذلك رائحة الحديد الذي زادت حرارته ، وحموضة ماء النشا ، ورائحة المكاوي ، وتفاهة فاترة لمغطس وضعت فيها العاملات الاربع ، وقد كشفت اكتافهن ، الرائحة الاكثر حموضة لشعر مؤخرة رؤوسهن ولنقراتهن المغمسة بالماء ، بينمـا باقة الزنبق الكبيرة ، في ماء وعائها المخضوضر ، قد ذبلت ، متضوعة رائحة شديدة النقاء شديدة القوة . وبين لحظة وأخرى ، وسط ضجة المكاوي وحرك

الحطب الذي يحك الجهاز الآلي ، كان شخير كوبو يجري مع انتظام التكتكة القوية لساعة الجدار التي تنظم عمل المشغل .

وفي غد السكرة شعر عامل الزنك بألم في رأسه ، الم مخيف امسك به طول النهار وقد زال تجعد شعره ، منقاره نتن ، وفمه متورم ومعوج . وقد نهض متأخراً ولم يهز براغيثه الا حوالي الساعة الثامنة فقط ؛ وكان يبصق ، ويجر نفسه في الدكان ، غير حازم على الذهاب الى المشغل وكان النهار قد ضاع . وشكى في الصباح بأن ساقيه من قطن ، وكان يدعو نفسه حيواناً لافراطه في الشراب هكذا ، ما دام ذلك يعكر المزاج ثم انه يلتقي بكثير من فارغي الاشغال لا يريدون ان يتركوه ، فيسقونه رغماً عنه ، ويجد نفسه منغمساً في جميع انواع الموبقات ، وينتهي بأن يعلق ، آه كلا ، هذا لن يحصل له ابداً ، ولا ينوي ترك حياته عند بائع الخمر وهو في زهرة العمر . ولكنه بعد الغداء ارتدى ثياباً فاخرة . ولفظ عبارة هوم ، هوم ليبرهن على انه لا يزال ذا صوت . وبدأ بانكار وليمة السهرة ، ربما بعض النشوة وما من احد يفعل مثله ، ثابت في مكانه ، وقوة زند شيطانية ، يشرب كل ما يريده دون ان تطرف عينه . وظل طوال فترة ما بعد الظهر يسير متلكئاً في الحي . وحين يزعج العاملات كانت زوجته تعطيه عشرين فلساً لكي يترك الغرفة . وكان يسير ، ويذهب لشراء تبغه من محل « سيفيت الصغيرة » شارع بواسونيير ، حيث يتناول عادة نبيذ الخوخ عندما يلتقي صديقاً ثم ينهي انفاق قطعة العشرين فلساً عند فرانسوا في زاوية شارع القطرة الذهبية ، حيث يوجد نبيذ جيد يدغدغ الحنجرة . وكان هذا بائع خمر من الطراز القديم ، دكان سوداء تحت سقف منخفض مع قاعة الى جانبها ملأى بالدخان يباع فيها الحساء . وقد ظل هناك حتى المساء وهو يلعب بأحدى العاب الحظ ، وكان يرقب فرنسوا الذي وعده وعداً قاطعاً بألا يقدم لائحة الحساب الى زوجته . كان عليه ان يغسل البلاطة قليلاً لينظفها من ادران السهرة . وكأس خمر يجر كاساً آخر . وهو مع ذلك شخص طيب لا يهتم بالجنس ويحب المزاح دون شك ، ويسكر بدوره

ولكن بلطف ، محتقراً اولئك الرجال القذرين الذين سقطوا في وهدة الكحول ولا نراهم الا مخمورين وكان يعود الى البيت مرحاً ظريفاً كطائر البرقش .

وكان أحياناً يسأل جرفيز منكداً عليها

– هل جاء عاشقك ؟ لم يشاهده أحد . يجب ان أذهب لابحث عنه .

والعاشق هو غوجيه . وبالفعل كان يتجنب المجيء في أغلب الأحيان خوفاً من ان يسبب مضايقة الا انه كان ينتحل الاعذار ، ويحمل الغسيل ، ويمر عشرين مرة على الرصيف . وكانت هناك زاوية في الدكان ، في الداخل ، حيث كان يحب ان يظل ساعات جالساً دون ان يتحرك ، مدخناً غليونه القصير وفي المساء ، بعد تناول العشاء ، كان يجازف بالدخول مرة كل عشرة ايام ، ولم يكن يحدّث ابداً ، فمه مطبق ، وعيناه على جرفيز ، نازعاً فقط غليونه من فمه ليضحك من كل ما كانت تقوله . وعندما كان المشغل يسهر يوم السبت ، فانه كان ينسى نفسه ويبدو انه يتسلى هناك اكثر مما لو ذهب الى المسرح . وقد ظلت العاملات عدة مرات يشتغلن حتى الساعة الثالثة صباحاً كان هناك قنديل معلق في السقف بشريط حديـــدي ، وحاجز النور يلقي دائرة كبيرة من الضوء القوي يأخذ فيه الغسيل بياض الثلج .

وكانت التلميذة العــاملة تقفل مصاريع الدكان ؛ ولكن بما ان ليالي تموز محرقة فان الباب كــان يظل مفتوحاً على الشارع . وبمقدار تقدم الساعة تفك العاملات الأزرار ليكن مرتاحات ، وكانت بشراتهن ناعمة ، مذهبة من وقــع شعاع القنديل عليها ، وجرفيز على الخصوص ، وقد اصبحت سمينة ، والكتفان اشقران ، لامعان كـــالحرير ، مع ثنية طفل في العنق ، طالما رسمها ذكرى للغمازة الصغيرة في الذقن ، وطالما عرفها . وقد اجتــاحته حرارة الجهاز الآلي الشديدة ، ورائحة الغسيل الداخن تحت المكاوي ، وانزلق في خدر خفيف ، وتفكيره بطيء ، والعينان مشغولتـــان باولئك النسوة اللواتي يسرعن ، ويؤرجحن اذرعهن العارية ، ويقضين الليل ليجهزن ملابس يوم الاحد للحي

وكانت البيوت المجاورة تنام حول الدكان ، وكان صمت النوم العظيم يهبط

متمهلاً . ودقت الساعة معلنة منتصف الليل ، ثم ساعة ، ثم ساعتان ، وكانت العربات والمارة قد ذهبوا . وفي الشارع المقفر الاسود فان الباب وحده يرسل الآن خطـاً من النور شبيها بطرف ثوب اصفر منشور على الارض . وبين لحظة واخرى ، كـــان يسمع وقع خطوة في البعيد ، ورجل يقترب ، وحين يجتاز الضوء كان يمد رأسه مندهشـــا من حركة المكاوي التي يسمعها ، حاملاً الرؤية السريعة للعاملات المختلات الثياب ، في بخار أصهب .

وحين رأى غوجيه ان جرفيز متلبكة باتيين وتريد ان تنقذه من رفسات كوبو على قفاه ، استأجره ليسحب المنفاخ في مصنع البراغي وحالة صانع المسامير ، اذا لم يكن ليس فيه ما يدعو الى الزهو بسبب قـذارة المصهر والضرب كل يوم على قطع الحديد نفسها ، هي حالة غنية كان يربح منهـــا عشرة الى اثني عشر فرنكاً باليوم والصغير الذي كان عمره آنذاك اثني عشرة سنة باستطاعته ان يصل الى ذلك اذا لاءمته المهنة . وبهذا اصبح اتيين رباطـــاً آخر بين الغسالة والحداد وكان هذا يوصل الغلام ، ويقدم اخباراً عن سلوكه الحسن

وكان جميع الناس يقولون لجرفيز ضاحكين ان غوجيه يهواهـــا وكانت تعرف ذلك جيداً ، وتحمر خجلاً كفتاة ، مع زهرة من الحياء تضع على خديهـا صبغة شديدة لتفاحة حمراء آه ! الغلام العزيز المسكين. لم يكن مزعجاً ! ولم يحدثها ابداً عن ذلك ؛ ولا اشارة قذرة، ولا كلمة فاجرة . ان المرء لا يصادف كثيراً عجينة فاضلة من هذا الطراز . ودون ان تريد الاعتراف ، فقـد كانت تشعر بسرور بالغ لأن تكون محبوبة هكذا ، شبيهة بعذراء مقدسة وحـــين تحدث لها متاعب كانت تفكر بالحداد ؛ وكان هذا يعزيها .

واذا ظلا وحيدين معاً فلم يكونا يقلقان ابداً . كانا يتطلعان ببعضها البعض بابتسامة في الوجه ، دون ان يتكلما عما يشعران به لقد كان ذلك محبة عاقلة غير مفكرة بالامور القبيحة لان من الافضل الاحتفاظ بالطمأنينة حـين يكون بالامكان تنظيم الامور ليكون المرء سعيداً ببقائه مطمئناً .

الا ان نانا في نهاية الصيف قلبت البيت كانت في السادسة من عمرهـــا ،

وكانت تنبىء برداءة تامة وتأخذها امها كل صباح حتى لا تتعثر بها دائماً ، الى مدرسة داخلية صغيرة في شارع بولونسو ، عنـــد الآنسة جوس وكانت في المدرسة تعلق اثواب رفيقاتها من الوراء ، وتملأ بالرماد علبة تبغ المعلمة ، وتبتكر ابتكارات اقل نظافة ليس بالمستطاع ذكرها . وقـــد طردتها الآنسة جوس مرتين ثم استعادتها حتى لا تخسر الفرنكات الستة كل شهر .

وكانت نانا تثأر منذ خروجها من الصف لانهـا سجنت ، محولة الحياة الى جحيم تحت المدخل وفي الساحة ، حيث الكاويات ، وقد تحطمت ،ذانهن يطلبن منها ان تذهب لتلعب . ووجـــدت هناك بولين ابنة آل بوش ، وابن معلمة جرفيز القديمة ، فكتور ، وهو طفل في العاشرة يحب ان يركض برفقـة جميع البنات الصغيرات . ومدام فوكونيه التي لم تتخاصم مـــع آل كوبو ، كانت ترسل ولدها بنفسها. وهكذا تكاثر الاولاد في البيت بشكل غير عادي ، واصبح جماعة منهـــم يتدحرجون على الادراج الاربعـة كل ساعات النهار ، ويهبطون على البلاط كسرب من عصافير الدوري الصارخة الناهبة . ومدام غودرون وحدها كانت تترك هناك تسعة من الشقر والسمر ، المشعثي الشعر ، غـــير المتمخطين ، ببنطلونات مرتفعة حتى عيونهم ، وجوارب هابطة على الاحذية ، وسترات مشققة تظهر بشراتهم البيضاء تحت الاقذار

وهناك امرأة اخرى ، حاملة خبز في الطابق الخامس . كانت ترسل سبعة . وتخرج كميات كبيرة من جميع الغرف وفي هذا التحرك للهوام ذات الخراطيم الوردية ، والغاسلة وجوهها عندما تمطر ، يوجـــد كبار ، مسترقون ، وضخام ذوو بطون كالرجال. وصغار ، صغار ، متفلتون من المهد ، لا يزالون ينتصبون بشكل سيء ، حيوانات تمشي على اربع عندما تريد ان تركض . وكانت نانا تسيطر على كل هذه الكدسة من الضفادع ، وتعين آنسة الشرف من بين فتيات عمرهن ضعف عمرها . وتضطر فقط الى ان تتخلى قليلاً عن سلطتها لبولـــين وفكتور ، وهما مستودع اسرارها ويسندان ارادتها. كانت تلك الابنة الرديئة تتكلم دون انقطاع عن لعبة الام وتعري اصغر الاولاد وتعود فتلبسهم ، وتريد

ان تزور الآخرين في كل مكان ، وتسيء معاملتهم ، وتمارس استبداداً غريباً كشخص كبير مليء بالعيوب . انها العاب تحت قيادتها تقضي بتبادل الصفعات.

وكان أفراد العصابة يمشون في مياه المصبغة الملونة ، ويخرجون منها مصبوغي السيقان بالازرق او بالاحمر حتى الركب ؛ ثم يطيرون الى صانع الاقفال حيث يسرقون المسامير وبرادة المبارد ، ويذهبون للارتماء في نشارة النجار ، انها اكوام من النشارة يلهون بها ويتدحرجون عليها مظهرين اقفتهم . وكان فناء الدار يخصهم ، ويرن من وقع الاحذية الصغيرة ، ويتقلبون فيه كيفما اتفق . وكانت صرخة جديدة لاصوات تتضخم كلما عاد جماعة العصابة الى طيرانهم .

ولم تكن ساحة الدار تكفي في بعض الايام ، فينقض جماعة العصابة على الاقبية ويصعدون ، ويتسلقون السلم ، مالئين احد الاروقة ، ويهبطون من جديد على درج ، ويتبعون رواقاً آخر . كل هذا دون كلل ، طوال ساعات صائحين دائماً ، هازّين البيت العملاق بركض حيوانات مؤذية اطلقت في جميع الزوايا

وصرخت مدام بوش :

– انهم ارديناء اولئك الأوغاد ! يجب ان تكون اشغال الناس قليلة ليضعوا اولاداً بهذه الكثرة ... ثم يشكون من عدم وجود الخبز عندهم !

وكان بوش يقول ان الأولاد ينبتون على البؤس كالفطر على المزبلة . وكانت زوجة البواب تصرخ طول النهار وتهددهم بمكنستها. وتنتهي باقفال باب الأقبية ، لأنها علمت من بولين بعد ان صفعتها صفعتين ان نانا تخيلت ان تلعب لعبة الطبيب هناك في الظلام ؛ وكانت هذه الفاسدة تعطي الدواء للآخرين بواسطة عصي

وبعد ظهر ذات يوم حدث مشهد هائل . ومع هذا فقد كان يجب ان يحدث فقد خطرت لنانا لعبة غريبة اذ سرقت من أمام المنزل قبقاباً لمدام بوش ، وربطته بخيط ، واخذت تجره كعربة وفكتور من ناحيته خطر له

ان يملأ القبقاب بقشور التفاح . وعندئذ تألف موكب . نانا تسير في المقدمة تجر القبقاب ، وبولين وفكتور يتقدمان على يمينها وشمالهـــا ، ثم تبعهم جميع الأولاد بالترتيب ، الكبار أولاً ، ثم الصغار ، وهم يتدافعون ؛ وهناك طفـــل بتنورة ، عالٍ كساق الجزمة ، حامل على اذنه وسادة مشقوقة ، وقد جاء في المؤخرة . وكان الموكب ينشد شيئاً محزناً ، مع اوه .. وآه.. وقالت نانا انهم يلعبون لعبة الدفن ، وقشور التفاح هي الميت . وحين اتموا دورة الساحة عادوا من جديد . وقد وجدوا ذلك مسلياً للغاية .

وتمتمت مدام بوش التي خرجت من المنزل لترى ، وهي دائماً حذرة مترقبة:

– ماذا يفعلون ؟

وعندما فهمت صاحت بغيظ

– ولكنه قبقابي . آه .. الأنذال .

ووزعت الضربات ، وصفعت نانا على خديها ، ورفست بولين ، تلك البلهاء الكبيرة التي تركتهم يسرقون قبقاب امها . وكانت جرفيز آنذاك تملأ دلواً من العين . وحين رأت نانا مدماة الأنف تخنقها العبرات كادت تثب الى شعر زوجة البواب . أيُضرب الطفـــل كما يضرب الثور ؟ يجـب ان تكون بـــلا قلب ، ان تكون اخـــيرة الأخيرات . ومن الطبيعي ان تجيـــب مـدام بوش . حين يكون للمرء ابنة قذرة كهذه فيجب ان يقفل عليها . واخيراً ظهر بوش نفسه على عتبة المنزل منادياً امرأته لتدخل وان لا تقوم بايضاحات كثيرة مع القذارة . وكان شقاق كامل

والحقيقة ان الأمر لم يكن على ما يرام منذ شهرين بين آل بوش وآل كوبو. فجرفيز وهي معطاءة جداً بطبيعتها ، كانت تتخلى في كل لحظة عن ليترات من النبيذ ، وطاسات من الحساء ، وليمون ، وقطع حلوى . وذات مساء حملت الى المنزل شيئاً من الخضار والخس والشمندر ، عالمة ان زوجة البواب تفعـــل كل السفالات في سبيل صحن من السلطة . ولكن لونها شحب في الغد حـــين سمعت الانسة ريمانجو تحدث كيف ان مدام بوش ألقت بالخضار امـــام الناس متقززة

بحجة انها ، والحمد لله ، لم تصل بعد الى اكل أشياء اوحل فيها الآخرون . ومنذ ذلك الوقت انقطعت جرفيز عن إهداء أي شيء ، لا ليترات نبيذ ، ولا طاسات حساء ، ولا ليمون ، ولا قطع حلوى ، ولا أي شيء . وكان من اللازم رؤية انف آل بوش .. فقد بدا ذلك لهم كسرقة سرقها آل كوبو منهم . وأدركت جرفيز خطأها ، لأنها لو لم ترتكب حماقة حشوهم كثيراً لما اعتادوا عادات سيئة ولظلوا لطفاء . وقد أصبحت الآن زوجة البواب تقول عنها ما هو اردأ من الشنق .

وفي نهاية تشرين الاول كان هناك ثرثرة لا تنتهي في اذن صاحب الملك ، السيد ماريسكو ، بان الغسالة التي اكلت ماله بالصراخ تأخرت يوماً واحداً عن دفع قيمة الاجار . والسيد ماريسكو نفسه ، وهو ليس كثير التهذيب ، دخل إلى الدكان وقبعته على رأسه ، مطالباً بماله الذي دفع له حالا ومن الطبيعي ان يمد آل بوش يدهم الى آل لوريللو واصبحوا في الوقت الحاضر يتناولون طعامهم في المنزل مع آل لوريللو وسط حنو المصالحة ما كانوا ليختلفوا ابداً لولا تلك العرجاء التي تهد الجبال . آه ! لقد عرفها آل بوش الآن ، وادركوا كم كانت تعذب آل لوريللو . وحين تمر كان الجميع يتظاهرون بالضحك ، من تحت الباب

الا ان جرفيز صعدت ذات يوم الى منزل آل لوريللو وكان الامر يتعلق بالام كوبو التي بلغت السابعة والستين آنذاك . كانت عينا الام كوبو قد عميتا تماما . وساقاها ايضا لا يصلحان لشيء . وقد تنازلت عن بيتها الاخير بالقوة وتهدد بالموت جوعا اذا لم ينقذوها . ورأت جرفيز ان من المعيب ان تترك امرأة بهذا العمر هكذا من السماء ومن الارض ، ولها ثلاثة اولاد . ولما كان كوبوقد رفض ان يكلم آل لوريللو ، قائلا لجرفيز ان بامكانها الصعود . وصعدت هذه حانقة منتفخة القلب .

ودخلت فوق كالعاصفة دون ان تدق الباب ، ولم يكن قد تغير شيء منذ المساء الذي استقبلها فيه آل لوريللو للمرة الاولى استقبالا غير شائق نفس

الخرقة الصوفية الناصلة اللون كانت تفصل الغرفة عن المشغل ، وهو مسكن ضيق كأنه بني لاجل سمكة سلور وفي الداخل ، لوريللو منحن على منضدته يمسك بالملقط حلقات طرف سلسلة واحدة واحدة ، بينما تسحب مدام لوريللو خيطا ذهبيا من آلة صنع الاسلاك ، وهي واقفة أمام الملزمة ، وللكور الصغير انعكاس وردي تحت ضوء النهار

وقالت جرفيز

– نعم ، هذا انا ! أيدهشكم هذا لأننا لسنا على وفاق؟ ولكنني لم آت لاجل نفسي ولا لاجلكم فكروا جيداً جئت لاجل الام كوبو .. نعم ، جئت لارى اذا كنا سنتركها تنتظر كسرة خبز من احسان الآخرين .

فتمتمت مدام لوريللو

– آه ، يا له من دخول . يجب ان يكون لديك جسارة .

وادارت ظهرها ، واخذت تسحب خيطها الذهبي ، متظاهرة بجهل وجود زوجة اخيها ولكن لوريللو كان قد رفع وجهه الشاحب صائحاً

– ماذا قلت ؟

ولما كان قد سمع جيداً فقد تابع

– قال وقيل ايضاً ، اليس كذلك ؟ ما ألطف الام كوبو ، وهي تندب شقاءها في كل مكان. ومع ذلك فقد أكلت هنا البارحة. اننا نفعل ما نستطيع . ولا نملك بلاد البيرو .. فقط ، اذا راحت تثرثر عند الآخرين فبامكانها البقاء هناك لاننا لا نحب الجواسيس .

واستعاد طرف السلسلة ، وأدار ظهره بدوره ، مصغياً رغماً عنه

– عندما يعطي الجميع مئة فلس بالشهر فسنعطي مئة فلس .

وكانت جرفيز قد هدأت ، وبردت حدتها بسبب وجوه آل لوريللو التي تشبه زاوية الشارع . ولم تكن تضع رجلها عندهم دون ان تشعر بالغثيان . وكانت عيناها على الارض ، على معينات الالواح الخشبية حيث تسقط نفايات الذهب ، وكانت تعبر عن افكارها بطريقة معقولة . كان للام كوبو ثلاثة اولاد؛

فلو اعطاها كل واحد مئة فلس لما بلغ ذلك سوى خمسة عشر فرنكاً، وبالحقيقة فهذا لا يكفي ، ولا يمكن العيش بهذا المبلغ ؛ ويلزم على الاقل ثلاثـة امثاله . ولكن لوريللو كان يصيح معترضاً . من اين يريدونـه ان يسرق خمسة عشر فرنكاً بالشهر ؟ والناس مضحكون كانوا يظنونه غنياً لان عنده ذهبـاً . ثم انه كان يضرب الام كوبو . فهي لم تكن تريد الاستغناء عن قهوة الصبـاح ، وكانت تشرب النبيذ وتتصرف كشخص كان ذا ثروة بالتأكيد ! الجميـع يحبون راحتها . ولكن حين لا يعرف المرء ان يوفر فلساً فإنه يفعل كالرفاق ، يشد على بطنه ، اليس كذلك ؟ ومع هذا فالام كوبو ليست في سن يمنعها من العمل ؛ فهي لا تزال ترى بوضوح بالغ عندما يتعلق الامر باجتذاب قطعة طيبة من اعماق الصحن ؛ وأخيراً ، فقد كانت عجوزاً ماكرة ، تحـلم بأن تتدلل . لقد كان يعتقد انه تصرف خطأ ، ولو كان يملك الوسائل ، بابقائه واحـداً من الناس في حالة الكسل .

إلا أن جرفيز ظلت تنشد المصالحة ، وكانت تناقش بهدوء هـذه الذرائع السيئة . وتهدف الى إدخال الشفقة في قلوب آل لوريللو . ولكن الزوج لم يعد يجيبها . والزوجة الآن امام الكور، على اهبة صقل طرف سلسلة ، في الطنجرة النحاسية ذات المسكة الطويلة ، الملأى بماء مستعمل . كانت تتظاهر دائمـــاً بإدارة ظهرها كأنها على بعـــد مئة فرسخ وكانت جرفيز لا تزال تتكلم ، وتتطلع إليهما وهما مصرّان على الشغل وسط الغبار الاسود الصادر عن المشغل ، والجسم معوج ، والملابس المرقعة المـــلأى بالشحم تصبح ذات قساوة تعيق الادوات القديمة بعملها الضيق في الآلة . وحينئذ ، وفجأة ، صعد الغضب الى حنجرتها وصاحت

– اذن هكذا . أحب هذا افضل . احتفظوا بمالكم !.. انا آخذ الام كوبو ، اتسمعان ! لقد التقطت هراً ذات مساء واستطيـع ان التقط امكم ولن ينقصها شيء ، ستنال قهوتها ، وشرابها . يا الهي ! يا لها من عائلة قذرة !

والتفتت مدام لوريللو ، وهزت الطنجرة كأنها ستقذف الماء الملوث في وجه

زوجه اخيها . ودندنت بسرعة

– اذهبي والا أحدثت مصيبة ! لا تعتمدي على المئة فلس لأنني لن اعطي فجلة ! كلا ، ولا فجــلة! آه ! مئة فلس ! سوف تخدمكم امي كخادمة ، ثم تسخرون من فلوسي المئة ! .. اذا ذهبت الى عندكم ، وقولي لهــا ذلك ، بامكانها ان تموت ، ولن ارسل اليها قدح ماء ... هيا ، اذهبي ، واريحي ارض البيت .

فقالت جرفيز وهي تغلق الباب :

–يالها من امرأة مسيخة !

ومنذ الغد اخذت الام كوبو الى بيتها ، ووضعت لهــا سريرها في الغرفة الكبيرة حيث كانت تنام نانا ،وهذه الغرفة تستقبل النهار بواسطة كوة مستديرة بالقرب من السقف .ولم يدم نقل الاثاث طويلاً لأن اثاث الام كوبو كلـــه هو هــذا السرير ، وخزانة قديمة من خشب الجوز وضعت في غرفة الغسيل المتسخ ، ومنضدة ، وكرسيان ، وقــد بيعت الطـاولة ، وقشش الكرسيان . وكانت العجوز في مساء اليوم الذي جــاءت فيه تكنس ، وتغسل الصحون ، واخيراً اصبحت ذات فائدة ، مسرورة جداً بتخلصها من ورطتها . وانشق آل لوريللو غيظاً ، فضلا عن ان مدام ليرا استأنفت علاقتها مع آل كـوبو . وفي ذات يوم جميل ، فان الاختين ، بائعة الزهور وصانعة السلاسل ، تبادلتا الصفعات بسبب جرفيز، فقد جازفت الاولى بامتداح سلوك هذه حيال امهما؛ ثم بدافـع الفائدة، وقـد رأت الاخرى مغتاظة ، توصلت الى ان ترى عيني الغسالة بديعتين ، انهما عينان كأن طرف ورقة قد اشعـل فيهما ، وهنا ، بـــعد ان تبادلت الاثنتان الصفعات ، اقسمتا بـألا تريا بعضهما البعض . واصبحت مـدام ليرا الآن تقضي امسياتها في الدكان متسلية في الداخل بفواحش كليمانس الكبيرة .

ومضت ثلاث سنوات . وكانوا يغضبون ويتصالحون عدة مرات . وكانت جــرفيز تسخر جيداً من آل لوريللو وآل بوش ومن جميع الذين لا يقولون قولها . اذا لم يكونوا مسرورين فباستطاعتهم ان يذهبوا ويجلسوا . كانت تربح

ما تريد وهذا هو الامر الرئيسي .وفي الحي كانوا يحفظون لها كثيراً من الاعتبار، لان ليس هناك بوجه عـام اعمال افضل مـن اعمالها ، تدفع بدقة ، وليست متمهلة ولا متذمرة . وكانت تأخذ خبزها مـن عند مـــدام كوديلو ، شارع بواسونيير ، واللحم من عند شارل الضخم ، وهـو جزار في شارع بولونسو ، وبقالتها مـــن عند ليهونغر ، شارع القطرة الذهبية ، مقـابل دكانها تقريباً وفـرنسوا بائع النبيذ في زاوية الشارع ، كان يحمل اليها نبيذهـــا بسلات ذات الخمسين ليتراً . والجار فيغوريه ، الذي تظل خاصرة زوجته زرقاء لكثرة مـن يقرصها من الرجال ، كان يبيعها الكوك بسعر شركة الغاز

وبالمستطاع القول ان ممونيها كانوا يخدمونها باخلاص ، عالمين انهم يربحون معهـــا اذا ابدوا اللطف . وايضاً ، حين كانت تخرج في الحي بالحذاء البالي ، مكشوفة الشعر ،كانت تتلقى التحية من جميع الجهات ؛ كانت تظل في بيتها ، والشوارع المجاورة كالملحقات الطبيعية لمسكنها المفتوح على موازاة الرصيف وكان يحدث لها في الوقت الحاضر ان تقوم بمهمة ، فتصبح سعيدة لوجودها في الخارج بين معارفها . وفي الايام التي لا يتاح لها ان تطبخ ، كانت تأتي بالطعام، وتثرثر عند الطباخ الذي يشغل الدكان الموجودة في الجهة الاخرى من البيت ، وهي قاعة فسيحة بنوافذ زجاجية كبيرة ،متغبرة ، يشاهد من خلال قذارتها نهار الباحة الاغبر في الداخل . او انها تقف وتحدث،ويداها محملتان بالصحون والكاسات امام نافذة الطابق الارضي ،حيث يرى داخـــل دكان اسكافي ، السرير غير مرتب ، والارض مزدحمة بالخرق ، وبسريرين كسيحين ، وجرة مطلية بالقار وملأى بالماء الاسود . ولكن الجار الذي كانت تحترمه اكثر من غيره هو الساعاتي المواجه لها ، السيد ذو المعطف ، والهيئة النظيفة ، والنابش باستمرار الساعات بآلات دقيقة . وغالباً ما كانت تجتاز الشارع لتلقي عليه التحية ، ضاحكة ً وهي تتطلع في الدكان الضيقة كالخزانة الى بهجة الساعات الصغيرة التي تتسارع رقاصاتها داقة ً الساعة معاً في غير وقتها

٦

بعد ظهر يوم من ايام الخريف ، فان جرفيز التي كانت عائدة من ايصال الغسيل الى احد الزبائن في شارع بورت ـ بلانش ، وجدت نفسها في اسفل شارع بواسونيير وقد بدأت الشمس تميل الى الغروب كان المطر قد هطل في الصباح ، وكان الطقس معتدلاً ، وتنبعث رائحة من الشارع الملوث بالشحم ؛ والغسّالة متلبكة بسلتها الكبيرة ، ضيقة النفس قليلاً ، بطيئة السير ، مرتخية الجسم ، صاعدة في الشارع يرافقها قلق مبهم برغبة جسدية كبرت مع عيائها . كأنها بحاجة الى ان تأكل شيئاً طيباً ؛ وعندئذٍ ، حين رفعت عينيها ، شاهدت لوحة شارع ماركاديه ، وخطر ببالها فجأة ان تذهب وترى غوجيه في مصنع الحديد . وكان قد قال لها عشرين مرة ان تخطيء الطريق ، يوم يدفعها الفضول الى مشاهدة صنع الحديد . الا انها امام العمال الآخرين سوف تطلب إتيين ، بحيث تبدو انها صممت على الدخول لاجل الصغير فقط

ومصنع البراغي والمسامير يجب ان يكون هناك في ذلك الطرف من شارع ماركاديه ، ولم تكن تعرف مكان وجوده تماماً ؛ فضلاً عن عدم وجود ارقام في اغلب الاحيان على طول المساكن الحقيرة التي تفصل بينها لراهى بور انه شارع لا يمكن ان تسكنه مقابل كل ذهب العالم ، شارع عريض ، قذر ، اسود من غبار فحم المصانع المجاورة ، ببلاط مشقق ، وآثار مرور عجلات نتنت فيها برك الماء. وعلى الحافتين سقائف متتابعة ، ومشاغل كبيرة مزعجة ، وابنية رمادية

كأنها غير تامة ، مظهرة آجرها وصقالاتها ، وعمـــارات متفرقة مهتزة تقطعها منافذ على الحقول ، وقد بنيت على جانبيها غرف عوراء ومطاعم حولاء وكانت جرفيز تذكر فقط ان المصنع بقرب مخزن للخرق والحدائد ؛ نوع مـن البالوعة مفتوح على مستوى الارض تتكدس فيه بضائع بمئات الوف الفرنكات كما قـال غوجيه . كانت تحاول شق طريقها وسط ضوضاء المعامل : انابيب دقيقة عـلى السطوح تنفث نـــوافير البخار بشدة ؛ ومنشرة آلية ذات صرير منتظم شبيه بمزق فجائي في قطعة من نسيج قطني ؛ ومصانع ازرار تهز الارض من دوران وتكتكة آلاتها . ولما كانت تتطلع نحو مونمارتر ، مترددة ، غير عارفة اذا كان عليها ان تسير بعيداً ، فان نفخة ريح خفضت سناج مدخنة مرتفعة ولوثت الشارع ؛ وكانت تطبق عينيها مغتاظة حين سمعت ضجة رتيبة صادرة عـــن المطارق : لقد اصبحت امام المصنع تماماً دون ان تعلم ، وعرفت ذلك مـن الثقب المليء بالخرق والموجود جانباً .

ومع ذلك فقد ترددت، غير عارفة من اين تدخل. وكان هناك سياج مشقوق يفتح ممراً ويبدو انه غائص في مردومات مصنع في حالة التهدم . وبما ان هناك مستنقع ماء موحّل يسد الطريق فقد القي على عرضه لوحات مـــن الخشب . وانتهت بالمجازفة على اللوحين ، ودارت يساراً فوجدت نفسها ضائعة في غـاب عجيب من العربات القديمة المقلوبة وعرائشها في الهواء او بيوت خربة ظلت هياكل اخشابها واقفة . وفي الداخل نار حمراء كانت تتوهج مخترقة الليل الملوث ببقايـا النهـــار . وكانت ضجة المطارق قد انقطعت ، فتقدمت بحذر ، سائرة نحو الألق ، عندما مر بقربها عامل أسود الوجه من الفحم ، ذو لحية تيس شعثاء ونظرة منحرفة من عينيه الشاحبتين . فسألته

– ايها السيد . اما يشتغل هنا ولد يدعى اتيين ؟ انه ولدي

فردد العامل بصوت اجش وهو يتمايل تمايلاً اخرق

– اتيين ، اتيين . كلا ، لا اعرفه .

وكان مفتوح الفم تعبق منه تلك الرائحة الكحولية التي تعبق من براميل

خمر قديمة بعد ان ترفع سداداتها . وبما ان هذا اللقاء مع امرأة في تلك الزاوية المظلمة بدأ يجعله ساخراً ، فان جرفيز تقهقرت متمتمة

– وهل السيد غوجيه يشتغل هنا ؟

فقال العامل :

–آه!.. غوجيه ، اني اعرف غوجيه !.. اذا كنت قد اتيت لأجل غوجيه فسيري الى الداخل .

واستدار وصاح بصوت يرن كالنحاس المشقوق :

– ايها الحلقوم الذهبي . هنا امرأة تريدك !

ولكن قرقعة الحديد خنقت هذه الصرخة . وسارت جرفيز الى الداخل ، ووصلت الى باب، ومدت عنقها .انها قاعة فسيحة لم تميز فيها شيئاً في بادىء الامر . فقد كان للكور المنطفىء الف نجمة شاحبة لا تزال تؤخر الظلام في احدى الزوايا وكانت ظلال كبيرة تلوح ، وكتل سوداء تمر امام النار فتسد تلك البقعة الاخيرة من الضياء، ورجال يكبرون على غير قياس فتظهر اعضاؤهم الضخمة . ولم تجرؤ جرفيز على المغامرة فنادت من الباب بصوت منخفض :

– يا سيد غوجيه، يا سيد غوجيه

وأضيء كل شيء فجأة . وانبجست نوفرة من اللهب على اثر نفخة منفاخ وظهرت السقيفة ، مقفلة بحواجز من الالواح الخشبية ذات ثقوب مسدودة بشكل غير متقن ، وزوايا موطدة بجدران من الآجر . وكانت الغبائر المتطايرة من الفحم تطلي ذلك السوق بسناج رمادي . وكان نسيج عناكب يتدلى من الجسور الخشبية كأسمال تجفف فوق ، مثقلة بسنوات من القذارة المتراكمة . وحول الجدران ، على رفوف معلقة بمسامير او ملقاة في الزوايا المظلمة ، حدائد قديمة موضوعة كيفما اتفق ، وادوات محدودبة ، وآلات ضخمة ذات اشكال منكسرة ، مغبرّة ، وقاسية.واللهبة البيضاء تتصاعد دائماً ساطعة، منيرة ،الارض بشعاع شمسي، حيث الفولاذ المصقول لأربعة سندانات غارزة في قواعدها الخشبية ، يكتسب انعكاس نور فضي ،مزين بالذهب .

عندئذ عرفت جرفيز غوجيه امام الكور من لحيته الجميلة الصفراء .وكان اتيين يسحب المنفاخ . وهناك عاملان آخران . ولم تر سوى غوجيه ، فتقدمت ووقفت امامه فهتف منبسط الاسارير

– السيدة جرفيز ! يالها من مفاجأة جميلة ! ..

ولكن حين اصبح لرفاقه وجوه غريبة قال وهو يدفع اتيين نحو امه

– أتيتِ لتري الصغير ... انه عاقل . لقد بدأ يشتد ساعده

فقالت :

– ليس من السهل الوصول الى هنا ... ظننت نفسي في آخر الدنيا .

وتحدثت عن رحلتها ثم سألت لماذا لا يعرفون اسم اتيين في المشغل . فضحك غوجيه ، وأوضح ان الجميع يطلقون على الصغير اسم زوزو لان شعره محلوق كشعر عسكر الزواف . ولم يسحب اتيين المنفاخ حين كانا يتحدثان فانخفض لهيب الكور ، واوشك ضياء وردي على الانطفاء وسط السقيفة التي عادت سوداء . وكان الحداد الرقيق القلب ينظر الى المرأة الشابة ، وهي مبتسمة ناضرة في ذلك الألق . ولما لم يقل الأثنان شيئاً ، وقد غمرتها الظلمات ،بدا انه تذكر ، وقطع الصمت

– ستسمحين لي يا مدام جرفيز ان اكمله ابقي هنا ، اليس كذلك ؟ انك لا تزعجين احداً

وبقيت . كان اتيين قد تعلق بالمنفاخ من جديد وتوهج الكور بأسهم من الشرر ؛ يضاف الى ذلك ان الصغير اثار زوبعة عظيمة بنفخه ليظهر قوة زنده . وغوجيه واقف يراقب قضيباً حديدياً يحمى ، وينتظر والملقط بيده . وكان الضياء الشديد ينيره ، دون ظل . وقميصه المكفوف الاكام ، المفتوح العنق ، كان يكشف ذراعيه العاريين ، وصدره العاري ، وبشرة وردية لفتاة يتجعد عليها وبر اشقر . والرأس منخفض قليلاً بين كتفيه العريضين المنتفخين بالعضلات ، والوجه المنتبه بعينيه الشاحبتين المحدقتين باللهب دون ان تطرفا . وكان يبدو عملاقاً في حالة الراحة ، هادئاً في قوته . وعندما احمر القضيب امسك بالملاقط

وقطعه بالمطرقة على سندان قطعاً منتظمة ، كأنه يضرب قطع زجاج ، بضربات خفيفة . ثم اعاد القطع الى النار واستمادها واحدة واحدة ليكيفها . وكان يصنع مسامير ذات ست جهات . يضع القطع في قالب المسامير المنتهية ، وهي لا تزال حمراء حيث شعلتها الحامية تنطفيء على الارض السوداء ؛ ويتم ذلك بتطريق مستمر ، مؤرجحاً بيده اليمنى مطرقة ثقلها خمس ليبرات ، منهياً شكلاً لدى كل ضربة ، مديراً ومشتغلاً حديدته بمهارة يستطيع معها أن يحدث القاس ويتطلع اليهم . وكان للسندان رنة فضية وهو مرتاح جداً ، بدون اية قطرة عرق ، يضرب بشكل ساذج دون ان يبدو انه يبذل جهداً اكثر مما يبذله في المساء وهو يقطع الصور في بيته . وكان يقول مجيباً على اسئلة جرفيز

– اوه ! هذا مسمار صغير بطول عشرين مليمتراً ليس بالامكان الوصول الى صنع ثلاثماية منه باليوم .. ولكن يجب الاعتياد لأن الزند يصدأ بسرعة

وحين سألته اذا كان المعصم لا يتخدر في نهاية النهار ، ضحك . هل تظنه فتاة ؟ لقد اعتاد معصمه على ذلك منذ خمس عشرة سنة لقد اصبح من حديد لطول احتكاكه بالادوات . ومع ذلك فقد كانت على حق ؛ فالسيد الذي لم يطرق مسماراً ولا برغياً ويريد أن يجعل لعبة من مطرقته ذات الخمس ليبرات سوف يصاب بالتشنج في مدى ساعتين . وهذا لا يبدو ذا اهمية ولكنه يجعلك في صف الحازمين الاشداء ببضع سنوات . الا ان العمال الآخرين كانوا يضربون كلهم معاً . وكانت ظلالهم الكبيرة ترقص في الضوء ، وبروق الحديد الحمراء الخارجة من الجمر كانت تجتاز الاعماق السوداء . وكانت لطخات من الشرر تذهب تحت المطارق وتشع كالشموس على مستوى السندان . وشعرت جرفيز انها اجتُذبت باهتزاز مصنع الحديد ، فسرت ولم تذهب . وقامت بدورة كبيرة لتقترب من اتيين دون ان تخاطر باحراق يديها ، ورأت دخول العامل القذر الملتحي الذي كلمته في باحة المصنع .

وقال بهيئته كسكير وساخر

– أوجدته اذن يا سيدتي ؟. . ايها الحلقوم الذهبي انت تعلم أنني انا الذي دل السيدة عليك .

امـــا هو فكان يسمى المنقار المملح ويلقب بالشرب دون عـطش ، ارنب الارانب ، صانع براغي لبق جداً يرش حديده بلتر من العرق كل يوم . وقـــد ذهب يشرب قطرة لأنه لم يكن يشعر انه قد سمن زيادة لينتظر الساعة السادسة. وحين علم ان زوزو يدعى اقيين وجد ذلك مضحكاً ؛ وضحك مظهراً اسنانــه السوداء . ثم عرف جرفيز . وقد شرب كأساً مع كوبو ليلة البارحة . وبالامكان التحدث مع كوبو عن المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش ، وسوف يقول حـــالاً : « انه شخصية ! » آه ! ذلك الحيوان كوبو ! كان لطيفاً جداً . فهو يسقي على حسابه في اغلب الاحيان قبل ان يأتي دوره . وردد :

– يسرني ان اعلم انك زوجته . فهو يستحق ان يكون عنده زوجة جميلة ، اليس كذلك ؟ ايها الحلقوم الذهبي اليست السيدة جميلة ؟

وبـدا ظريفاً ، وتقدم نحو الغسالة التي اخذت سلتها وأبقتها امامها ، لكي تبقيه بعيداً عنها . وشعر غوجيه بالمماكسة ، مدركاً ان الـرفيق كان يسخر بسبب صـــداقته الطيبة لجرفيز فصرخ فيه : قل اذن ايها المرائي ! متى طلبية المسامير بطول اربعين مليمتراً ؟ اتهاجم الآن لأن كيسك ملآن ايها المطشان ؟

كان الحداد يريد ان يتكلم عن طلبية براغي كبيرة تحتاج الى ضاربين عـــلى السندان .

وأجاب المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش :

– حالاً ، اذا اردت ايها الطفل الكبير . ان في ذلك مـــا يجعل المرء يلحس اصبعه ، وما يجعل منه رجلاً !

– نعم ، هكذا ، حالاً . تعال ، ولنا نحن الاثنين !

– اتفقنا ايها الخبيث !

كانا يحذران بعضهما البعض ، وقد اثار حماستهما وجـــود جرفيز . ووضع غوجيه في النار قصاصات حـــديد مقطعة مقدماً ؛ ثم وضع على السندان قالباً

للمسامير من عيار قوي . وكان الرفيق قد أبقى مقابـــل الجدار كتلتين بثقل عشرين ليبرة ، الاختان الكبيرتـــان للمشغل اللتان كان العمال يسمونهما فيفين وديديل . واستمر في التفاخـــر ، وتكلم عن مسامير نصف كبيرة صنعها لمنارة دنكرك ، وحـــلى واشياء لتوضع في متحف لأنها دقيقة . كلا ! لم يكن يخشى المنافسة ؛ وبالمستطاع البحث في جميع علب العاصمة قبل الالتقاء بشاب مثله . سيضحكون . وسيرون ما سوف يرون

وقال ملتفتاً نحو المرأة الشابة :

– السيدة ستحكم

فصاح غوجيه

– كفى حديثاً . اسرع يا زوزو ! هذا لا يحمّي يا بني .

ولكن المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش سأل ايضاً

– انضرب معاً ؟

– ابداً ! لكل منا برغيه يا صاحبي !

وأدهشه الاقتراح . وجف ريق الرفيق رغم ثرثرته الوقحة . أرجل واحد يقوم بصنع براغي قياس اربعين مليمتراً ؟ هذا لم يحدث ابداً ، فضلاً عـــن ان البراغي يجب ان تكون مستديرة الرأس . وهذا عمل صعب جداً ، انها طرفة يجب عملها . والعمال الثلاثة الآخرون في المشغل تركوا عملهم ليروا ، وقد راهن واحد اعجف بليتر من الخمر على ان غـــوجيه سيُغلب . واخذ كل من الحدادين كتلته بعد ان اغمضا عيونهما ، لان فيفين تزن نصف ليبرة اكثر من ديديل . وكان من حسن حظ المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش انه وضع يده على ديديل ؛ والحلقوم الذهبي سقط على فيفين . وبانتظار احمرار الحديد عاد الاول جريئاً ووقف امام السندان مديراً عينين يشعان بالحنو لناحية الغسالة ؛ وتركز ، وفحص برجليه كسيد على اهبة القتال ، ورسم حـــركة أرجح فيها ديديل على مدى يديه . آه ! ورعد الله ! لقد كان على خير حال ؛ وبامكانه ان يصنع رغيفا من عمود فاندوم !

وقال غوجيه ، واضعاً بنفسه في قالب المسامير قطعاً من الحديد بحجم قبضة فتاة

– هيا . ابدأ !

وانقلب المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش ، وهز ديديل بكلتا يديه انه صغير ، معروق ، بلحية اشبه بلحية تيس ، وعينين شبيهتين بعيني الذئب ، لامع تحت جزة شعره المشعث ، وكان يلتوي عند ارتفاع المطرقة ، ويقفز عن الارض كأنه مسير بقوة اندفاعه . غاضب يقاتل حديدته بدافع الانزعاج لانها قاسية جداً ؛ حتى انه كان يزمجر حين يعتقد انه وجه اليها ضربة محكمة . ومع ان الخمرة ترخي اذرع الآخرين فقد كان هو بحاجة اليها في شرايينه بدلاً من الدم ؛ والخمرة التي شربها منذ مدة قريبة بعثت الحرارة في هيكله كالمرجل ، واصبح يشعر بقوة كقوة آلة بخارية . والحديدة ايضاً كانت خائفة منه في ذلك المساء ؛ ويجب رؤية ذلك ! كانت تقفز قفزة كبرى في الهواء ، كراقصة في الاليزيه مونمارتر تظهر ملابسها الداخلية ؛ لأن المقصود عدم التلكؤ ، والحديدة رديئة بحيث انها بردت ، ساخرة من المطرقة . والمنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش كيّف رأس برغيه ، بثلاثين ضربة . ولكنه كان ينفخ ، وعيناه خارج محجريهما ، وقد اجتاحه غضب هائج لدى سماعه ذراعيه يقضقضان وضرب ضربتين ايضاً ، جاذباً ، راقصاً ، زاعقاً ، وذلك ليثأر لجهده فقط . وحين سحب البرغي من القالب متغير الشكل ألفى رأسه كرأس الاحدب مغروزاً بشكل سيء .

ومع ذلك فقد قال بجسارته ، عارضاً عمله على جرفيز

– ها ! هل صُنع على عجل ؟ . .

فأجابت الغساله متحفظة

– انا لا اعرف يا سيد .

ولكنها كانت ترى جيداً اثر الضربتين الاخيرتين على البرغي بعقب ديديل ، وكانت مسرورة للغاية ، وعضت على شفتيها لئلا تضحك ، لأن غوجيه كان له

كل الحظ في الوقت الحاضر .

وجاء دور الحلقوم الذهبي. وقبل ان يبدأ القى على الغسالة نظرة ملأى بالحنو الواثق . ثم لم يتعجل ، واخذ مسافته وقذف المطرقة من اعلى ، برفعات كبيرة منتظمة . كان عمله كلاسيكياً ، مضبوطاً ، متأرجحاً ومرناً . ولم تكن فيفين في يديه ترقص رقص الحانات ، فترتفع السيقان فوق الملابس ؛ بل كانت ترتفع وتسقط بشكل رتيب كسيدة نبيلة ذات هيئة جدّية ، ترقص رقصة المونية *Menuet* القديمة . وتغوص في الحديد الحمراء ، على رأس البرغي ، بعلم مفكر ، ساحقة المعدن في الوسط اولاً ، ثم تكييفه بعدة ضربات ذات دقة موقعة بالتأكيد ، ليست الخمرة هي التي تسري في شرايين الحلقوم الذهبي ، بل الدم ، الدم النقي الذي كان ينبض بقوة حتى في مطرقته وينظم الشغل . انه رائع في عمله هذا الشاب الظريف ! كان يستقبل بملء صدره لهبة الكور الكبرى . وشعره القصير المجعد على جبهته المنخفضة ، ولحيته الجميلة الصفراء ذات الحلقات المتهدلة ، كانا يتوهجان ويضيئان كل وجهه بخيوطها الذهبية ، انه وجه حقيقي من ذهب ، دون كذب . يضاف الى ذلك عنق شبيه بعمود ، ابيض كعنق الطفل ، وصدر واسع ، عريض تنام عليه امرأة بالعرض ، وكتفان وذراعان منحوتان كأنهما نسخة عن كتفي وذراعي عملاق في المتحف . وحين بلغ مداه في الاندفاع انتفخت عضلاته ، جبال من اللحم تدور وتقسو تحت الجلد ، وانتفخ كتفاه ، وصدره ، وعنقه ، وكان هناك نور حوله ، وأصبح جميلاً ، عظيم القدرة كإله . لقد هوى بفيفين عشرين مرة ، وعيناه على الحديدة ، متنفساً لدى كل ضربة ، وعلى صدغيه فقط قطرتان كبيرتان من العرق كانتا تسيلان . وكان يعد : واحد وعشرون ، اثنان وعشرون ، ثلاثة وعشرون

وتمتم المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش وهو يضحك

– يا له من عامل !

وكانت جرفيز قبالة الحلقوم الذهبي ، تنظر بابتسامة رقيقة . يا الهي ! ما أحمق الرجال ! الا يضرب هؤلاء الاثنان على براغيهما تقرباً اليها ! اوه ! انهما

تدرك جيداً انهما يتنازعان عليها بضربات المطرقة ؛ لقد كانا كديكين كبيرين احمرين يتظرفان امام دجاجة صغيرة بيضاء . يجب ان يكون لدى المرء مبتكرات ، اليس كذلك ؟ ان للقلب طرقاً عجيبة احياناً في التصريح عما يخالجه . نعم ، كان لأجلها كل ذلك الحديد المسحوق . وكان لاجلها كل ذلك المصنع المهتز ، المشتعل بحريقه المملوء بتوهج شرر قوي . كان يطرقان لها حباً هنا ، ويتنازعان على من سيطرق افضل من رفيقه . والصحيح ، فقد كان هذا يسبب لها سروراً في اعماقها ، لأن النساء ، يحببن كلام المجاملة . وكانت ضربات مطرقة الحلقوم الذهبي على الخصوص تتجاوب في قلبها ! كانت ترن فيه كما ترن على السندان ، موسيقى واضحة تصاحب نبضات دمها الشديدة . وهذا يبدو حماقة . ولكنها كانت تشعر ان هذا يغرز فيها شيئاً ما ، شيئاً متيناً شيئاً من حديد البرغي . وعند الغسق ، قبل العودة الى البيت ، كانت تشعر على طول الارصفة الرطبة برغبة مبهمة ، بحاجة الى اكل قطعة طيبة ! اما الآن فقد وجدت نفسها شبعى ، كما لو ان ضربات مطرقة الحلقوم الذهبي قد غذّتها. اوه ! انها لم تشك بانتصاره . فهي له . والمنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش كان قبيحاً جداً في دراعته وبلوزته الوسختين ،قافزاً كقرد هارب وكانت تنتظر ، كثيرة الاحمرار ، سعيدة بالحرارة الشديدة ، شاعرة بالمتعة لأن آخر ضربات فيفين هزتها من القدمين الى الرأس

وكان غوجيه لا يزال يعدّ : ثمانية وعشرون .

وصاح اخيراً وهو يضع المطرقة على الارض :

– لقد انتهى كل شيء . باستطاعتك ان تنظر .

كان رأس البرغي مصقولاً ، نظيفاً ، دون اي اثر ، انه عمل حقيقي لصائغ ، واستدارة كرة صنعت على القالب والعمال ينظرون اليه هازّين ذقونهم ،لم يكن فيه مطعن ، انه عمل يستحق الركوع امامه . وحاول المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش ان يهزأ ، ولكنه كان يخوض في الوحل ، وانتهى بالعودة الى سندانه مدحوراً وكانت جرفيز قد التصقت بغوجيه كأنها تريد ان ترى

بشكل افضل . وكان اتيين قد ترك المنفاخ ، وامتلأ الكور بالظلام من جديد، بمغيب كوكب احمر سقط فجأة في ليل أليل . وأحس الحداد والغسالة بعذوبة حين شعرا ان الظلام يلفهما ، في تلك السقيفة السوداء من السناج والبرادة التي تتصاعد منها روائح حدائد قديمة ، وما كانا ليظنا نفسيهما اكثر وحدة في غاب فانسين لو انهما تواعدا على اللقاء في حفرة معشوشبة . وقد اخذ يدها كما لو انه استولى عليها .

وفي الخارج لم يتبادلا أية كلمة . انه لم يجد شيئاً يقوله ، ولكنه قال فقط انه كان بامكانها اصطحاب اتيين لو لم يبق نصف ساعة من وقت الشغل. واخيراً عزمت على الذهاب حين ذكرها ، محاولاً ابقاءها عدة دقائق بعد :

– تعالي ، انك لم تري كل شيء كلا ، صحيح ، انه شيء يثير الفضول .

وسار بها يميناً ، في سقيفة اخرى وضع فيها صاحب العمل صناعة آلية وقد ترددت على العتبة ، وشعرت بخوف غريزي . فقد كانت الغرفة الواسعة المهتزة بالآلات ترتج ؛ وهناك ظلال كبيرة تطفو مبقعة بحدائد حمراء. ولكنه طمأنها مبتسماً ، واقسم انه ليس هناك ما تخافه ؛ وكان عليها فقط الاعتناء بألا تسحب ملابسها قريباً من تشابك الدواليب . ومشى اولاً ، وتبعته في تلك الجلبة التي تصم الآذان حيث جميع انواع الضجيج تصفر وتشخر وسط تلك الأدخنات المأهولة بكائنات مشوشة ، برجال سود منهمكين بعملهم ، بآلات تحرك اذرعها بحيث لم تستطع تمييز بعضها من بعض . وكانت الممرات ضيقة جداً ويجب اجتياز بعض العوائق ، وتجنب الحفر ، والتنحي للابتعاد عن عربة . ولم يكن الكلام مسموعاً ، ولم تكن ترى شيئاً ، فكل شيء يرقص وبما انها شعرت بخفيف اجنحة فوق رأسها فقد رفعت عينيها ووقفت تتطلع الى السيور (القشاطات) ، الى الشرائط الطويلة التي كانت تمد في السقف بيت عنكبوت ضخم ، حيث كل خيط فيه يمتد الى ما لانهاية له ؛ وكان المحرك البخاري مخبأً في احدى الزوايا وراء جدار صغير من الآجر؛ وبدت السيور انها تسير وحدها حاملة الاهتزاز من اعماق الظلام ، بانزلاقها المستمر ، المنتظم ،الهادىء كطيران

عصفور ليلي . ولكنهـــا كادت تسقط باصطدامها بأحد انابيب المروحة الـتي كانت تلشمب على الارض ، موزعة نسمة هواء قوية على الاكيار الصغيرة بقرب الآلات . وبدأ بأن أراها ذلك ، مفلتاً الهواء على الموقد ، فانتشر لـهب عظيم من النواحي الاربع كالمروحة ، طوق من النار مسنن، باهر ، مصبوغ قليلاًبشيء من الصمغ *Jaque* ؛ وكان النور من القوة بحيـث بدت قناديل العمال الصغيرة كقطرات من الظلام في الشمس . وبعد ذلك رفع صوته ليعطي ايضاحـات ، وانتقل الى الآلات : المناشير الآلية التي كانت تنشر القضبان الحديدية ، قاطعةً طرفاً لدى كل نشرة ، باصقة الاطراف مـن المؤخرة ، واحداً واحداً ؛ وآلات البراغي والمسامير ذات الطبمات ، عـــالية ، معقدة ، مطـّرقة رؤوس وزنةٍ واحدة من براغيها القوية ؛ والصاقلات ذات الجناح من الحديد المصبوب، عبارة عن كرة من الحديد المصبوب تضرب الهواء بهياج لدى كل قطعة تنزع عنهاالآثار والمثاقبالتيتديرهاالنساء،تثقبالبراغيوثقوبهااللولبية يتكتكة بمجموعة دواليبها الفولاذية اللامعة تحت شحوم الزيوت . وهكذا بامكانها متابعة العمل كله ، منذ القضبان الحديدية المسندة الى الجدران ، حتى البراغي والمسامير المصنوعة ، التي يوجد منهـــا صناديق تملأ الزوايا . وعندئذ فهمت ، وابتسمت هازةً ذقنها ؛ ولكنها مع ذلك بقيت وكأن شيئاً يضغط على عنقها ، قلقة لكونها بهذا الصغر وبهذه اللدانة بين اولئك الاشداء من شغيلة المعادن ، ملتفتة احيـاناً ، متجمدة الدم ، لصوت مقص شديد . واعتادت الظلام ورأت حفراً فيها رجال جامدون يضبطون رقص الاجنحة اللاهث ، بينما هناك موقد يتفلت شعاع نور من طوق لهبته . وكانت تعود الى السقف رغماً عنهـا ، الى حياة ، الى دم الآلات ، الى طيران السيور المرن حيث كانت تنظر مرفوعة العينين ، الى تلـــك القوة الضخمة الصامتة وهي تمضي في ليل الصقالات الغامض .

الا ان غوجيه توقف امـــام احد آلات المسامير . وظل هناك ، حالماً ، منخفض الـرأس ، ثابت النظرات كانت الآلة تطرق مسامير من قياس اربعين مليمتراً بسهولة مطمئنة لعملاقة . والحقيقة لم يكن هناك شيء اسهل من ذلك .

كان الوقاد يأخذ قطعة الحديد من الموقد ، ويضعها الضارب في قالب المسامير ، حيث شبكة ماء ترش باستمرار لتجنب ازالة سقاية الفولاذ ، وحين ينتهي ذلك ينخفض البرغـي ، والقضيب الذي يـدخل فيه البرغي يقفز الى الارض برأسه المستدير كأنه سال من قالب . وهـذا الجهاز يشتغل في اثنتى عشرة ساعة مئات من الكيلو غرامات ولم يكن غوجيه على شيء من الشراسة ، الا انه في بعض اللحظات يتمنى ان يأخذ فيفين ليضرب جميع هذه الحدائد ، بدافع الغضب ليريها اذرعاً اكثر متانة من اذرعها . وكان هذا يسبب له غماً كبيراً حتى عندما يشغل عقله ، قائلاً لنفسه ان اللحم لا يستطيع مصارعة الحديد . وسيأتي يوم تقتل فيه الآلة العامل ، وكانت اجرتهم اليومية قد هبطت من اثني عشر فرنكاً الى تسع فرنكات . وكانوا يتحدثون عن انقاصها ايضاً . واخيراً لا يوجد شيء من السرور عند هذه البهائم الكبيرة التي تصنع براغي ومسامير كأنها تصنع المقانق . وقـد تطلع اليها مدة ثلاث دقائق دون ان يقول شيئاً . وتشنجت حـواجبه ، ولحيته الصفراء الجميلة تنفشت مهددة . ثم ان سمة من العذوبة والانقياد ارخت قسماته شيئاً فشيئاً ، والتفت نحو جرفيز التي كانت تلتصق به ، وقال بابتسامة حزينة :

– هـا ! هذا يقززنا بشدة ! ولكن ، ربما يُستعمل هـــذا فيما بعد لسعادة الجميع

وكانت جـرفيز تسخر من سعادة الجميع . ووجدت ان البراغي في الجهاز الآلي قد صنعت بشكل سيء وهتفت بحرارة

– انت تفهمني . انها صنعت جيداً ... ولكني احب براغيك اكثر منها، اذ يشتم منها يد فنان على الاقل

وسببت له سروراً بالغاً بكلامها هذا لانه خاف في احـــدى اللحظات ان تحتقره بعد ان رأت الآلات . لقد كان اشد قوة من المنقار الملح الملقب بالشرب دون عطش ، وكانت الآلات أشد قـــوة منه وحين تركها اخيراً في الباحة ضغط على رسغيها بشدة بسبب سروره العظيم

كانت الغسالة تذهب كل ايـــام السبت الى بيت غوجيه لتحمل غسيلهم .

وكانوا لا يزالون يسكنون البيت الصغير في الشارع الجديد من القطرة الذهبية . وفي السنة الاولى اعادت اليهم بشكل منتظم عشرين فرنكاً كل شهر وفاء لدين بخمسمائة فرنك ، ولكي لا يحدث خطأ في الحسابات كانوا يجمعون دفاتر الغسيل في نهاية كل شهر وتضيف الرصيد اللازم لاكمال العشرين فرنكاً ، لأن غسيل آل غوجيه لا يتجاوز سبعة او ثمانية فرنكات في كل شهر . اذن كانت تأتي لتدفع نصف المبلغ تقريباً ، ولكن ذات يوم وقد حل اجل دفع القسط ، لم تعرف ماذا تفعل ، وقد اخلف الزبائن وعدهم بالدفع ، فاضطرت الى الركض الى بيت غوجيه لتسديد بدل الاجار . وتوجهت اليهم مرتين اخريين ايضاً لتدفع اجرة عاملاتها ، الى درجة ان الدين ارتفع الى اربعماية وخمسة وعشرين فرنكاً . اما الآن فلم تدفع اي فلس وستسدد دينها من اجرة الغسيل وحدها . وهذا لا يعني ان شغلها قد قل او ان اعمالها اصبحت سيئة ، بالعكس ، ولكن اصبح عندها ثقوب تبدو النقود انها تذوب فيها . وكانت تشعر بالسرور حين تستطيع جمع الطرفين . يا الهي ! بشرط ان يستطيع المرء العيش ، اليس كذلك ؟ ليس هناك ما تأسف عليه . وقد سمنت ، وخضعت لجميع الاسترخاءات الصغيرة للبدانة الجديدة ولم يكن لديها من القوة لتخاف وهي تفكر . لا يهم ! المال يأتي دائماً ، ووضعه جانباً يعرضه للصدأ . الا ان مدام غوجيه ظلت كأم لجرفيز كانت توبخها احياناً بلطف ، ليس بسبب نقودها ، بل لأنها تحبها وتخاف عليها الافلاس . ولم تكن تحدثها عن نقودها فقط . واخيراً كانت تضع في كلامها كثيراً من اللباقة .

وكان عند زيارة جرفيز الى مصنع الحديد آخر يوم سبت في الشهر . وحين وصلت الى بيت غوجيه ، وكانت تحرص على الذهاب بنفسها ، كانت سلتها قد أنهكت ذراعها بحيث كادت تختنق طوال دقيقتين . ولا يستطيع احد ان يعرف وزن الغسيل خصوصاً اذا كان هناك شراشف .

وسألت مدام غوجيه : هل جئت بالغسيل كله ؟

كانت هذه صارمه جداً . وتريد ان يُحمل اليها غسيلها دون ان ينقص اية قطعة ،

وذلك من قبيل حسن الترتيب كما كانت تقول . وهناك شيء آخر تتطلبه هو ان تأتي الغسالة في اليوم المحدد وفي نفس الساعة تماماً ، وبهذا لا يضيع احد وقته .

واجابت جرفيز مبتسمة

– اوه ! كل الغسيل هنا . انت تعلمين انني لا اترك ورائي شيئاً .

فاعترفت مدام غوجيه

– هذا صحيح . لقد اكتسبت بعض العيوب ولكنك لم تكتسبي هذا العيب بعد .

وحين كانت الغسالة تفرغ سلتها واضعة الغسيل على السرير ، اطرتها المرأة العجوز : فهي لا تحرق القطع ولا تمزقها كما تفعل الكثيرات ، ولا تنتزع الازرار بالمكواة ؛ الا انها تضع كثيراً من النيلة ، وكثيراً من النشا في صدور القمصان .

ثم قالت وقد جعلت صدر قميص يقضقض :

– انظري. انه من كرتون. وولدي لا يشكو ولكن هذا يقطع له عنقه.. غداً سيدمى عنقه عندما نعود من فانسين .

فهتفت جرفيز آسفة

– كلا ، لا تقولي هذا. يجب ان تكون القمصان صلبة قليلا لتلبس اذا لم يشأ المرء ان يضع خرقة على جسده . وتتطلعي بالسادة .. وبعد فقد غسلت غسيلك كله بنفس ، وما من عاملة تلمسه ، وانا اعتني به ، وأوكد لك انني اعيد النظر به عشر مرات لانه لكم ، وانت تعلمين .

واحمر وجهها قليلا وهي تتلعثم بنهاية العبارة ، فقد كانت تخشى ان تظهر السرور الذي تشعر به حين تكوي بنفسها قمصان غوجيه ومن المؤكد انه لم يكن لديها افكار قذرة ، ولكنها كانت خجلة من ذلك وقالت مدام غوجيه

– اوه ! انا لا انتقد شغلك فأنت تشتغلين باتقان ، ولا يستطيع غيرك ابراز المخرمات هكذا . والغسيل المكوي بشكل انبوب من عمل شغيل جيد ! واني اعرف حالاً اثر يدك . ولو اعطيت ممسحة فقط لأحدى العاملات فان

ذلك يظهر حـــالاً ... أليس كذلك ؟ ولكنك ستقللين النشا ، هذا كل شيء !
وغوجيه لا يهمه ان يبدو كسيد

الا انها اخذت الدفتر وشطبت القطع بجرة قلم . كان كل شيء على ما يرام .
وحين سوّي الحساب رأت ان جـــرفيز حسبت ستة فلوس اجرة القلنسوة ،
فصاحت معترضة ، الا انها اضطرت الى الاقتناع بأنها ليست مرتفعة الاجرة في
الوقت الحاضر ، كلا ، قمصان الرجـال بخمسة فلوس ، وسراويل النساء باربعة
فلوس ، وغلافات الوسادات بفلس ، وليس ذلك غالياً مع القول ان الغسالات
يأخذن ليارين [1] Liard أو فلس زيادة لكل هذه القطع وبعد ان عـددت
جرفيز الغسيل الوسخ الذي كانت العجوز تسجله ووضعته في سلتها لم تـذهب ،
وبدت مرتبكة ، وعلى شفتيها طلب كان يقلقها كثيراً وقالت اخيراً

– يا سيدة غوجيه ، سآخذ اجـرة الغسيل هذا الشهر اذا كان ذلـــك لا
يضايقك .

كان الشهر شديد الصعوبة . والحساب الذي وقفتا عليه ارتفع الى عشرة فرنـكات
وسبعة فلوس . وتطلعت بها مدام غوجيه لحظة بهيئة صارمة ، ثم اجابت

– سيكون الامر كما تريدين يا ابنتي . ولا اريـد ان ارفض اعطاءك النقود
في الوقت الذي تحتاجين فيه اليها ... الا ان هـذه الطريق ليست هي التي تفي
بديونك . واقول ذلك لأجلك ، اتسمعين ؟ الصحيح ، عليك ان تحذري

وتلقت جـــرفيز الدرس منخفضة الرأس متلجلجة . فالفرنـكات العشرة
يجب ان تكمل قيمة سند كتبته لبائع وقود الكوك . ولكن مـــدام غوجيه
اصبحت اكثر صرامة لدى سماعها كلمة « سند » . وقدمت مثلاً : فقد انقصت
نفقتها منذ مـــا هبطت اجرة غوجيه اليومية من اثني عشر فـرنكاً الى تسعة
فرنكات حين تنقصنا الحكمة ونحن شباب نموت من الجوع في شيخوختنا . الا
انها امسكت ولم تقل لجرفيز انها تعطيها غسيلها لسبب وحيد هو ان تتيح لها

١- ليار : من النقد الفرنسي القديم بقيمة ربع فلس.

دفـع دينها ؛ لقـد كانت في السابق تغسل كل شيء ، وسوف تعود الى غسل كل شيء بنفسها اذا اضطرتها الغسالة الى اخراج مبالغ كهذه من جيبها وحين قبضت جـرفيز العشرة فـرنكات والسبعة فلوس شكرت وخرجت بسرعة . وشعرت على سطح الدرج انها على خير حال ، واحست بالرغبة في الرقص لانـها اعتادت قبلاً على همـوم وقذارات المال ، غير محتفظة مـن هذه المنكدات الا بسعادة الخروج منها ، حتى المرة القادمة . .

وفي هذا السبت حدث مع جرفيز لقـاء غريب بينما كانت تهبط درج آل غوجيه . فقد اضطرت الى الالتصاق بالدرابزين مع سلتها لتفسح الطريق لمرور امرأة كبيرة ذات شعر طويل كانت تصعد حاملة بيدها في قصاصة ورق سمكة طازجة لا يزال الدم في اذنيها وعرفت فيها فرجيني ، الفتاة التي رفعت لها ثوبها في المغسل . والتقت نظرات الاثنتين . واطبقت جرفيز عينيها لانهـا ظنت انها ستتلقى السمكة في وجهها . ولكن كلا ، فقـد ابتسمت فرجيني ابتسامة رقيقة . وعندئذ ارادت الغسالة ان تبدو مهذبة ، وكانت سلتها تسد الدرج ، فقالت

– اسألك الصفح .

فأجابت السمراء الكبيرة

– سامحتك من كل قلبي .

وبقيتا في منتصف الدرجات وتحدثتا ، وتصالحتا دون اية إشارة الى الماضي . وكانت فرجيني آنذاك في التاسعة والعشرين من سنها . وقـد اصبحت امرأة رائعة ، متينة البنية ، ذات وجه طويل قليـلاً بـين عصابتين بلون الكهرباء السوداء . وسردت حكايتها حالاً لتنال الحظوة : انها الآن متزوجة . فقد تزوجت في الربيع عاملاً قديماً في تجارة الابنوس ترك العمل ليشغل وظيفـة رقيب مدينة (شرطي) ، لأن الوظيفة اكثر امنـاً وقيمة . وقد اشترت السمكة له . وقالت

– انه يحب السمك كثيراً يجب تدليل اولئك الرجال البشعين ، اليس

كذلك ؟ .. ولكن اصعدي اذن ... وسترين بيتنا نحن هنا في مجرى هواء .

وحين اخبرتها جرفيز انها كانت تسكن نفس المنزل وقد ولدت فيه ابنة ، بعد ان حكت لها بدورها عن زواجها ، تعجلتها فرجيني لتصعد ، فرؤية الاماكن التي كان الانسان فيها سعيداً تبعث على السرور. أما هي فظلت طوال خمس سنوات تسكن الناحية الاخرى من الماء في غرو – كايو . وهناك عرفت زوجها عندما كان يعمل . ولكنها كانت تضجر وتحلم بالعودة الى حي القطرة الذهبية ، حيث تعرف جميع الناس . ومنذ خمسة وعشرين يوماً وهي تشغل الغرفة المقابلة لآل غوجيه . اوه ! كل اشغالها كانت بدون ترتيب ، وسيترتب ذلك شيئاً فشيئاً .

وذكرت الاثنتان اسميهما على سطح الدرج :

– مدام كوبو

– مدام بواسون .

ومنذ ذلك الوقت اصبحتا تتناديان مدام بواسون ومدام كوبو لسبب وحيد هو سرورهما بأن تكونا سيدتين ، هما اللتان عُرفتا في الماضي في وضعيات غير كاثوليكية . إلا ان جرفيز كانت محتفظة بالحذر في سريرتها من الممكن ان السمراء الكبيرة صالحت لتثأر بطريقة افضل لجلدها على إليتها في المغسل ، مدبرة خطة لبهيمة رديئة مداجية وآلت جرفيز على نفسها ان تظل حذرة . وفي مدى ربع ساعة بدت فرجيني كثيرة اللطف ، الامر الذي دعا الى ان تكون هي لطيفة أيضاً .

وفي الغرفة فوق ، الزوج بواسون وهو رجل في الخامسة والثلاثين من سنه ، ذو وجه ترابي مع شاربين وجزّة من الشعر تحت الشفة السفلى ، وشعره كله احمر اللون . وكان يشتغل جالساً امام منضدة بقرب النافذة . كان يصنع علباً صغيرة ، وأدواته الوحيدة سكين صغيرة ، ومنشار كبير بقدر مبرد الاظافر ، وإناء للغراء . والخشب الذي كان يستعمله آت من علب سكاير قديمة،

والواح رقيقة من الاكاجو الخام يقوم فيها بعمليات قطع وزخرفة ذات دقة غير عادية . وطول النهار ، ومن أول السنة الى آخرها ، يعيد صنع العلبة نفسها ، ثمانية سنتيمترات بستة فقط ، وكان ينقشها ، ويبتدع اشكال غطاء ، ويقسمها الى بيوت وكان ذلك في سبيل التسلية ، وطريقة لإضاعة الوقت بانتظار تعيينه رقيباً في المدينة . ولم يحتفظ من مهنته القديمة كنجار ابنوس الا بهواية العلب الصغيرة . ولم يكن يبيع شغله بل يقدمه هدايا لاشخاص من معارفه .

ونهض بواسون وحيا جرفيز بأدب ، وقد قدمتها زوجته له كصديقة قديمة . ولكنه لم يكن محدّثاً ، بل عاد حالاً الى منشاره وكان من وقت لآخر يلقي نظرة على السمكة الموضوعة على حافة الخزانة ذات الادراج . وكانت جرفيز مسرورة جداً لرؤية منزلها القديم ؛ وقالت اين كانت المفروشات موضوعة ، ودلت على المكان الذي ولدت فيه على الارض . ما اكثر ما يحدث ذلك !.. حين ابتعدتا عن بعضهما البعض في الماضي لم تظنا انهما ستتلاقيان هكذا ، وان تسكنا ، الواحدة بعد الاخرى ، في نفس الغرفة . واضافت فرجيني تفاصيل جديدة عنها وعن زوجها فقد ورث ارثاً صغيراً عن عمة له . وسوف يحملها تستقر فيما بعد دون شك ؛ اما في الوقت الحاضر فهي مستمرة باهتمامها بالخياطة، وتصنع ثوباً هنا وآخر هناك . واخيراً ، بعد نصف ساعة ، ارادت الغسالة الذهاب . فأدار بواسون ظهره قليلاً . ورافقتها فرجيني ووعدتها برد الزيارة قريباً ؛ وكانت قد اخبرتها عن عملها ، وهذا امر مفهوم . ولما كانت قد أبقتها على سطح الدرج فقد تخيلت جرفيز انها ترغب ان تكلمها عن لانتيه وعن اختها اديل السمراء . وثار تاثرها في الداخل ولكنهما لم تتبادلا اية كلمة حول هذه الامور المقلقة وافترقتا مودعتين بهيئة حبية .

– الى اللقاء يا مدام كوبو .

– الى اللقاء يا مدام بواسون .

وكانت هذه نقطة انطلاق لصداقة عظيمة . وبعد ثمانية ايام لم تكن فرجيني تمر من امام دكان جرفيز دون ان تدخل وكانت تفصّل فيها مريلات اطفال،

وتبقى من ساعتين الى ثلاث ساعات ؛ فيقلق بواسون عليها ويظنها دهست ويأتي للبحث عنها بوجهه الصامت كوجه ميت منبوش من القبر . وشعرت جرفيز بقلق غريب لرؤية الخياطة يومياً لم تكن تستطيع سماعها مبتدئة بعبارة دون ان تظن انها ستتحدث عن لانتيه ؛ كانت تفكر بلانتيه بشكل لا يرد طوال مكوثها هناك . وكانت هذه حماقة ، لأنها كانت تسخر من لانتيه واديل ، ومما انتهيا اليه ؛ لم تلق اي سؤال ؛ حتى انها لم تشمر بالفضول للحصول على اخبارهما . كلا كان ذلك يثير اهتمامها رغماً عنها . انها تحمل فكرتهما في رأسها كما تكون في الفم لازمة مزعجة لا تريد ان تتركك الا انها لم تكن تحمل اي حقد على فرجيني التي لم يكن الخطأ منها . بل كانت تسر كثيراً معها ، وتمسك بها عشر مرات قبل ان تدعها تذهب .

وجاء الشتاء ، انه الشتاء الرابع الذي قضاه آل كوبو في شارع القطرة الذهبية . في تلك السنة كان كانون الاول وكانون الثاني قاسيين بشكل خاص . فالجليد يتساقط بشكل يشقق الحجر . وبعد عيد رأس السنة ظل الثلج ثلاثة اسابيع في الشارع دون ان يذوب . وهذا لم يمنع العمل ، بل بالعكس ، لأن الشتاء هو الفصل الجميل للكاويات . وكان الامر على خير حال في الدكان . لم يكن يُرى فيها قطع جليد على الزجاج كما هو الامر عند البقال وصانع القلانس في الجهة المقابلة والجهاز الآلي المحشو بالكوك كان يحفظ حرارة تشبه حرارة المغطس ؛ وكان الدخان يتصاعد من الغسيل حتى ليظن انهم في الصيف ؛ وكانوا على خير حال ، الابواب مقفلة ، والدفء في كل مكان ، دفء يجعلهم ينامون مفتوحي الاعين . وكانت جرفيز تقول وهي ضاحكة ، انها تتخيل نفسها في الحقول وبالفعل ، فالعربات لم تكن تحدث اية ضجة وهي تكرج على الثلج ؛ ولا يكاد يسمع وقع اقدام المارة ؛ وفي صمت البرد الكبير كانت تتصاعد فقط اصوات اولاد ، ووقع اقدام عصابة من الاطفال يتزحلقون على طول ساقية محل البيطرة . وكانت تذهب احياناً الى الباب وتزيل البخار بيدها ، وتنظر ماذا صار بالحي في حالة الطقس تلك ؛ ولكن ما

من أنف يمتد خارج الدكاكين المجاورة ، والحي الملتف بالثلج يبـــدو أنه يدير ظهره وكانت تتبادل فقط اشارة بالرأس مع بائعة الفحم الموجودة جانبـاً ، والتي كانت تتــــنزه عارية الرأس ، مشقوقة الفم من اذن الى اخرى منـــذ اشتداد الجليد .

اما الشيء الحسن على الخصوص في هذا الطقس السيء ، فهو تنــاول القهوة الساخنة عند الظهر ولم يكن لدى العاملات ما يشكين من القهوة ، لأن ربة العمل تصنعها قوية ولا تضع فيهـا اربـع حبات من الهندباء ؛ ولم تكن تشبـه ابداً قهوة مدام فوكونيه التي كانت ماء غسيل حقيقياً . اما حين تكلّف الام كوبو ان تضع الماء على الثفل فان عملها هذا لم يكن ينتهي لانها كانت تنام امام الحلة التي يغلي الماء فيها وعندئذٍ كانت العاملات ينتظرن القهوة ، بعد الغداء ، وهن يكوين .

وفي غد عيد الظهور ، وقد دقت الساعة الثانية عشرة والنصف ، لم تكن القهوة جـاهزة ، فقد أصرت في ذلك اليوم ألا ّ تمر من المصفـاة . وكانت الام كوبو تضرب على المصفـاة بملعقـة صغيرة فتسمع القطرات وهي تسقط واحدة واحدة ، ببطء ، دون ان تسرع اكثر من ذلك .

وقالت كليمانس الكبيرة :

– دعيها اذن ، فهذايعكرها واليوم بالتأكيد سيكون هناك مانشربه وما نأكله .

كانت كليمانس الكبيرة تكوي قميصاً رجالياً وتبسط الطيات بطرف الظفر وكانت مصابة بزكام شديد ، وعيناهـا متورمتان ، وتنتزع الحنجرة نوبات سعال تطويها نصفين على حافة طاولة الشغل . ومع هذا فلم تكن تلف منديلاً حول عنقها ، وترتدي رداءً صوفيـاً صغيراً بثمانية عشر فلساً ، وكانت ترتجف من البرد . ومدام بوتوا بقربها ملفوفة بالفانيلا ، مغطاة حتى الاذنين ، وكانت تكوي تنورة وتديرهـا حول لوح الثياب الموضوع طرفه الصغير على مسند كرسي : وعلى الارض شرشف ملقى يمنع التنورة من ان تتسخ عند

ملامستها البلاط . وكانت جرفيز تشغل وحدهـا نصف طاولة الشغل ، مع ستائر من الموسلين المطرز كانت تمر عليها بمكواتها بشكل مستقيم ، وذراعاها ممتدان لتجنب الطيات الخاطئة . وفجأة ، فان القهوة التي اخذت تسيل محدثة ضجة جملتها ترفع رأسها . ان الحولاء اوغسطين هي التي فتحت ثقباً في وسط الثفل بغرزها ملعقة في المصفاة .

وصاحت جرفيز :

– اتريدين ان تظلي هادئة . . ماذ يوجد في جسدك . . اننا الآن سنشرب الوحل

وكانت الام كوبو قد صفّت خمسة اقداح على زاوية فـارغة من منضدة الشغل . وعندئذ تركت العاملات عملهن . وكانت ربة العمل هي التي تسكب القهوة دائماً بنفسها بعد ان تضع قطعتي سكر في كل قدح . انها الساعة المنتظرة من النهار وفي هذا اليوم ، وحين كانت كل منهن تأخذ قدحها وتجلس على مقعد صغير امـام الجهاز الآلي ، فتح باب الشارع ودخلت فرجيني مرتعشة ، وقالت

– آه ! يا اولادي . انه يقطعكن نصفـين ! اني لا اشعر بأذنيّ. يا له من برد وغـــد !..

وهتفت جرفيز

– انها مدام بواسون ! آه حسناً ! جئت في الوقت المناسب . ستتناولـــين القهوة معنا

– لعمري ! لارفض لذلك ... لقد تغلغل البرد في عظامي مع اني اجتزت الشارع فقط .

ومن حسن الحظ كان قد بقي شيء من القهوة . وراحت الام كوبو لتأتي بقدح سادس . وبدافع الادب تركت جرفيز فرجيني تحلي قهوتهـــا بنفسها . وتباعدت العاملات موسعات لها مكاناً صغيراً بقرب الجهاز الآلي . وقد ارتجفت لحظة ، محمرة الانف ، ضامة يديها المتصلبتين حول قدحها لتتدفأ كانت آتية

من عند البقال حيث يتجمد المرء ، ولا شيء سوى انتظار ربع من الجبن .
ونوهت بحرارة الدكان العظيمة صحيح ، حتى ليعتقد المرء انه يدخل فرناً ،
وهذا يكفي لايقاظ ميت ما دام الدفء يدغدغ جلدك بلطف . ولقد تخدرت
ومدت ساقيها الطويلتين ، وعندئذ حسا النسوة الست قهوتهن متمهلات ، خلال
الشغل المنقطع ، وإبان الخمود النــدي للغسيل الداخن وكانت الام كوبو
وفرجيني وحدهما جالستين على مقعدين ، والباقيات على مقاعدهن الصغيرة ،
كأنهن على الارض ؛ حتى تلك الحولاء اوغسطين فقد سحبت زاوية من شرشف
وضعتها تحت تنورتها لتستلقي . ولم يتكلمن ، فهن يتذوقن القهوة وانوفهن في
الاقـداح .

وصرحت كليانس :

– انها قهوة طيبة على كل حال .

ولكنها كادت تختنق ، وقد انتابها السعال . فاسندت رأسها الى الجدار
لتسعل بشدة . وقالت فرجيني

– انت مصابة إصابة شديدة . من اين التقطت هذا ؟

فأجابت كليانس وهي تمسح وجهها بكمها

– وهل أعرف ؟ .. ربما كان في ذلك المساء . كان هناك اثنان يتقاتلان عند
خروجهما من « الشرفة الكبيرة » . اردت ان ارى ، وبقيت هناك تحت الثلج .
آه ! يا لها من ضربات شديدة ! كان ذلك يميت من الضحك . لقـد انتزع انف
احدهما ، وسال الدم على الارض . وعندما رأى الآخر الدم، وهو طويل هزيل
مثلي ، ذهب حاملاً أشياءه . عند ذلك ، وفي الليـل ، بدأت اسعل . ويجب
القول ايضاً ان اولئك الرجال ذوو شهوة سافلة ، فحين يضاجعون امرأة
يتركونها مكشوفة كل الليل .

فتمتمت مدام بوتوا

– سلوك جميل . انك تقتلين نفسك يا صغيرتي .

– واذا كان قتل نفسي يسليني !.. ما احقر الحيـاة مع كل هـذا !..

بذل الجهد طول النهار لربح خمسة وخمسين فلساً ، واحراق الدم من الصباح الى المساء امـام الجهـاز الآلي . كلا ، انت تعلمين ، عندي من ذلك الى مـا فوق رأسي !.. لن يخدمني هذا الزكام بأن يميتني ؛ سيذهب كما اتى

وساد صمت. تلك التافهة كليمانس التي ترقص في الحانات صارخة كسمك المرلوش *Merluche* كانت تحزن الناس دائماً بافكارها عن الموت عندما تكون في المشغل . وكانت جرفيز تعرفها جيداً لذلك اكتفت بأن تقول :

– لست مرحة غداة مغامرتك الليلية .

والصحيح ان جرفيز تفضل الا يجرى الحديث عن المعارك النسائية وذلك يقلقها بسبب الضربات على الإلية في المغسل . حين يجري الحديث امامها وامـام فرجيني عن ضربات القبقاب على السيقان وعن الصفعات بالكف حيث تنطبع الاصابع كغرسة المنثور ذات الاوراق الخمس . وكانت فرجيني تنظر اليهـا مبتسمة . وتمتمت :

– اوه ! رأيت تماسكاً بالشعر البارحة وقد مزقتا بعضها بعضاً

فسألت مدام بوتوا

– من إذن ؟

– القابلة القاطنة في طرف الشارع وخادمتها ، وهي شقراء صغيرة ان تلك الفتاة كالجرب .. كانت تصرخ في وجـه الاخرى « نعم ، نعم ، لقـد جعلت بائعـة الفواكه تسقط ولداً سأذهب الى المفوض اذا لم تدفعي لي » وشتمت ، فضربتها القابلة. وعند ذلك قفزت الشقية الى عيني سيدتها وخدشتها. ونتفت ريشها اوه ! لقد احتـاج الامر الى بائع لحم الخنزير لينجيها من مخالبهـا .

وضحكت العاملات مسرورات ، ثم شرب الجميع جرعة صغيرة من القهوة بشراهة . وقالت كليمانس :

– اتعتقدين انت انها اسقطت ولداً ؟

فأجابت فرجيني

– لقد انتشرت الاشاعة في الحي . وانت تعلمين انني لم اكن موجودة . على ان ذلك من صلب المهنة والكل يجهضن .

فقالت مدام بوتوا

– من الحمق الوثوق بهن . انشكرهن لانهن يسببن الكساح ! انتن ترين ان هناك وسيلة سامية . كل مساء تشرب المرأة قدح ماء مقدس راسمة إشارة الصليب ثلاث مرات بالابهام على بطنها ، ويذهب ذلك كالريح

والام كوبو التي كان يعتقد انها نائمة هزت رأسها معترضة . فهي تعرف وسيلة اخرى لا تخطىء . يجب اكل بيضة مسلوقة كل ساعتين ودعك الحقوين باوراق الاسباناخ *Epinard* اما النساء الاربع الباقيات فقد ظللن رصينات . ولكن تلك الحولاء اوغسطين التي يجري منها المرح من تلقاء نفسه افلتت ضحكة ، كقوقأة الدجاجة وكن قد نسينها . ورفعت جرفيز التنورة فرأتها على الشرشف تتمرغ كالخنوص ، وساقاها في الهواء . فسحبتها من تحت وضربتها ضربة جعلتها تقف . ما الذي اضحكها ، تلك البلهاء ؟.. وهل يجب ان تستمع حين يتحدث الكبار ! ستذهب اولاً لتحمل الغسيل الى صديقة لمدام ليرا في الباتينيول . وربة العمل ، وهي تتكلم ، ادخلت لها السلة في ذراعها ودفعتها نحو الباب وابتعدت الحولاء عابسة ، منتحبة ، جارّة قدميها في الثلج .

الا ان الام كوبو ومدام بوتوا وكليمانس ناقشن فعالية البيض المسلوق واوراق الاسباناخ . وعندئذ قالت فرجيني التي ظلت حالمة ، بصوت منخفض ، وقدح القهوة في يدها

– يا الهي ! الناس يتضاربون ثم يتعانقون . وهذا يحدث دائماً عندما تكون القلوب طيبة

وانحنت على جرفيز مبتسمة

– كلا ، بالتأكيد ، اني لا اقصدك . قضية المغسل ، أتذكرين ؟

وانتاب القلق الغسالة . هذا ما كانت تخشاه . لقد ادركت الآن ان قضية لانتيه واديل ستثار . وشخر صوت الجهاز الآلي وكان تضاعف الحرارة

يتوهج من الانبوب الاحمر . وفي هذا النعاس ، فان العاملات اللواتي اطلن أمد القهوة ليتأخرن عن العودة الى العمل جهد المستطاع ، كن ينظرن الى الشارع بهيئة شرهة مضناة . كن في حالة اعترافات ، يقلن ما سوف يفعلن لو كان دخلهن عشرة آلاف فرنك ؛ ما كنّ ليفعلن شيئاً ويبقين هكذا كل فترات ما بعد الظهر ، يتدفأن باصقات من بعيد على الشغل وكانت فرجيني قد اقتربت من جرفيز ، بطريقة لا تسمعها الأخريات وشعرت جرفيز بالجبن بسبب الحرارة الشديدة دون شك ، كانت كثيرة الارتخاء ، كثيرة الجبن بحيث لم تجد القوة لتحول الحديث ؛ حتى انها كانت تنتظر كلام السمراء الكبيرة ، وقلبها مليء بتأثر كانت تتمتع به دون ان تعترف .

وقالت الخياطة

– ألا اسبب لك هماً على الاقل ؟.. لقد جاء ذلك على لساني عشرين مرة. واخيراً ، ما دمنا هنا ذلك لنتحدث ، اليس كذلك ؟ آه ! بالتأكيد ، كلا ، اني لا احاسبك على ما مضى . كلام شرف ! لم احفظ لك اية كراهية

وادارت ثمالة قهوتها في القدح لتحصل على السكر ، ثم شربت ثلاث قطرات مع صفرة خفيفة من الشفاه . وكانت جرفيز تنتظر وقد ضاق نفسها ، وتتساءل اذا كانت فرجيني قد سامحتها حقيقة بسبب ضربها على إليتها ، لانها كانت ترى في عينيها السوداوين شرراً اصفر يشتعل . هذه الشيطانة يجب ان تكون قد وضعت حقدها في جيبها ووضعت منديلها فوقه

وتابعت

– كنت معذورة . فقد عملوا معك عملاً قذراً ، فاحشاً . اوه ! انا عادلة . لو كنت مكانك لتناولت سكيناً .

وشربت ايضاً ثلاث قطرات ، صافرة على حافة القدح ، وتخلت عن صوتها الضعيف ، واضافت بسرعة دون توقف

– وكذلك فعملهما لم يحمل اليهما السعادة . آه ! يا رب الارباب ! كلا ،

لا شيء من السعادة لـقد ذهبا يسكنان بحفظ الشيطان ، في ناحية غلاسيير في شارع قذر يعلو فيه الوحل حتى الركبة وبعد يومين ذهبت في الصباح لأتناول فطوري معهما ؛ ركض فخور في المركبة ، وأؤكد لك ! لقد وجدتهما يا عزيزتي على اهبة القتال . والصحيح ، انهما كانا يتضاربان حين دخولي ها ! يا لهما من عاشقين ! انت تعلمين ان اديل لاتساوي الحبل الذي تشنق به . انها اختي ، ولكن هذا لا يمنعني من القول انها في جلد امرأة قذرة متكبرة . لقد فعلت معي الكثير من القذرات ؛ والحديث عن ذلك يطول ، ثم انها قضية يجب تسويتها بيننا . اما لانتيه فأنت تعرفينه ، ليس على شيء من الصلاح . سيد صغير ، أليس كذلك ؟ يرفع لك المؤخرة لاجل كلمة نعم ، ولأجل كلمة لا .. ويطبق قبضته حين يضرب ... وعندئذ أحسّا بارهـاق الضمير . وكان المرء يسمعهما يتضاربان حين يصعد الدرج . وذات يوم جاء البوليس . كان لانتيه يريد شورباء بالزيت ، شيء مقرف يأكلونه في الجنوب ، وبما ان اديل رأت ذلك نتناً فإنهما تقاذفـا بزجاجة الزيت ، والطنجرة ، وآنية الشورباء ، وكل الأواني ؛ وكان مشهـــد اثار الحي كله .

وحكت عن معارك اخرى ، واسهبت في الحديث عن الزوجين ، وكانت تعرف اشياء توقف شعر الرأس وكانت جرفيز تستمع الى كل هذه القصة دون ان تفوه بكلمة ، شاحبة الوجه مع ثنية عصبية على زاويتي الشفاه تشبه ابتسامة صغيرة . منذ سبع سنوات لم تسمع من يتكلم عن لانتيه ، ولم تكن لتعتقـد ان اسم لانتيه المهموس هكذا في اذنها سيسبب لها حرارة كهذه في تجويف المعدة . كلا ، لم تكن تشعر بأي فضول لتعرف ماذا صار بهذا البائس الذي تصرف معها تصرفاً سيئاً . وليس بامكانها الآن ان تغار من اديل ؛ ولكنها كانت تضحك في داخلها من قتال الزوجين ، وترى جسد تلك الفتاة مليئـاً بالكدمات الزرقاء ، وهذا ما كان يثأر لها ويسليها . وايضاً سوف تظل هنا حتى صباح الغد مستمعة الى تقارير فرجيني

لم تكن تلقي اسئلة ، لانها لا تريد ان تبدو مهتمة اكثر من ذلك . وكان ذلك

كن ملأ لها حفرة بشكل فجائي . وكان ماضيها في تلك الساعة يسير رأساً الى حاضرهـــا .

وانتهت فرجيني الى وضع انفها في قدحهـــا ، وامتصت السكر وعيناها نصف مطبقتين . وعندئذ ادركت جرفيز ان عليها ان تقول شيئاً ، فاتخـــذت هيئة اللامبالاة ، وسألت :

– الا يزالان يسكنان في غلاسيير ؟

فاجابت الأخرى :

– ولكن كلا ؛ الم احك لك ؟ لقد افترقا منذ ثمانيـــة ايام . فأديل حملت ثيابها ذات صباح جميل ، ولانتيه لم يركض وراءها ، اؤكد لك .

فأفلتت من الغسالة صرخة خفيفة ، ورددت بصوت عال :

– افترقا !

وسألت كليمانس قاطعة حديثها مع الام كوبو ومدام بوتوا

– من اذن ؟ ...

فقالت فرجيني :

– لا احد . اناس لا تعرفينهم .

ولكنها تفحصت جرفيز فالفتها بالغة التأثر . فاقتربت ، كأنها تجـــد ملذة سيئة باعادة حكاياتها . ثم سألتها فجأة عما تفعل لو اتى لانتيه يطوف حولها ؛ لأن الرجال كثيرو الحقارة ، ولانتيه جـــدير بالعودة الى غرامياتـــه الاولى . فانتصبت جرفيز ، وبدت كثيرة الوضوح ، كثيرة الوقار . لقد تزوجت وألقت لانتيه خارجاً ، هذا كل شيء . لن يستطيـــع الحصول على شيء حتى ولا مصافحة باليد . والحقيقة ، سوف يخونها قلبها اذا تطلعت ذات يوم في وجه هذا الرجل . وقالت

– انا اعلم ان اتيين منه ، هناك رباط لا استطيع قطعـــه اذا رغب لانتيه ان يقبّل اتيين فسأرسله اليه لان من المستحيل منع والد من محبة ولده . . أما فيما يتعلق بي ، كما ترين يا مدام بواسون ، فإني افضل ان اتقطع إرباً قبل ان اسمح

له بلمس طرف اصبعي . لقد انتهى كل شيء .

وحين لفظت هذه الكلمات الاخيرة رسمت صليباً في الهواء كأنها توطد قسمها الى الابد ولما كانت راغبة في قطع الحديث ، فقد بدت انها استيقظت مرتجفة وصاحت بالعاملات

– اتعتقدن انتن ان الغسيل يكوى من تلقاء نفسه ؟.. يا له من خمول ! هيا الى العمل !.

ولم تسرع العاملات وقد تخدرن بخمول الكسل ، واذرعهن ملقاة على تنوراتهن ، ممسكات دائماً اقداحهن الفارغة بيد ، وقد بقي فيها شيء من ثمالة القهوة ، ويتابعن الحديث . وكانت كليمانس تقول

– انها اوغسطين الصغيرة . لقد عرفتها فهي مصابة بجنون وبر الهر ... وانتن تعلمن انها ترى وبر الهر في كل مكان ، وتدير دائماً لسانها هكذا ، لأنها تعتقد ان فمها مليء بوبر الهر .

وقالت مدام بوتوا :

– انا ، لي صديقة معها دودة اوه ! ان لهذه الحيوانات نزوات ! فهي تفتل لها بطنها حين لا تعطيها لحم دجاج. والزوج يربح سبعة فرنكات ، ولذلك فهذا يعتبر شراهة بالنسبة للدودة

فقاطعتها الام كوبو

– لو كنت انا لأشبعتها حـالاً . يا الهي ! نعم ، يجب اكل فأرة مشوية ، فهذه تسمم الدودة حالاً

وكانت جرفيز قد انزلقت من جديد في تكاسل سعيد . ولكنها انتفضت وانتصبت واقفة لقد مضت فترة ما بعد الظهر في الثرثرة ! وهذا لا يملأ حافظة نقود ! وكانت هي الاولى التي عادت الى ستائرها ، فوجدتها ملوثة ببقعة قهوة ، واضطرت ان تحك البقعة بقماش مبلل قبل ان تأخذ المكواة. وأخذت العاملات يتمغطن امام الجهاز الآلي ويبحثن عن مقابضهن عابسات .

وما ان تحركت كليمانس حتى اصابتها نوبة سعال جعلتها تبصق لسانها ؛ ثم

انهت قميصها الرجالي واثبتت اكمامه وطوقه بدبابيس . اما مدام بوتوا فقد عادت الى تنورة داخلية

وقالت فرجيني :

– الى اللقاء. كنت نازلة لأشتري ربع جبنة . سيعتقد بواسون ان البرد جمدني في الطريق

ولكن ما ان خطت ثلاث خطوات على الرصيف حتى عادت وفتحت الباب لتقول انها رأت اوغسطين في طرف الشارع تتزحلق على الجليد مع الاولاد . لقد ذهبت هذه الجروة منذ ساعتين . وقد ركضت ، محمرة الوجه ، لاهثة ، وسلتها في ذراعها ، وشعرها ملوث بكرة ثلج ، واخذت تهمهم بشكل مداج ، قائلة ان السير غير ممكن بسبب طبقة الجليد الرقيقة . وقد وضع لها احد الزعران ، على سبيل المزاح ، قطع جليد في جيوبها ، وبعد ربع ساعة اخذت جيوبها ترش الدكان كأنها اقماع .

هكذا مرت فترة ما بعد الظهر . وكانت الدكان في الحي هي ملجأ الناس المتأثرين بالبرد . وشارع القطرة الذهبية كله يعرف انها دافئة . وكان يوجد هناك دائماً نساء ثرثارات تحمر وجوههن امام الجهاز الآلي ، وتنوراتهن مشمرة حتى الركب . وكانت جرفيز فخورة بهذه الحرارة ، وكانت تجتذب الناس وتدير ندوة كما كان يقول بخبث آل لوريللو وآل بوش . والصحيح انها ذات ميل دائم الى الاحسان والاغاثة ، الى درجة انها كانت تدخل الفقراء حين تراهم يرتجفون من البرد في الخارج . وقد عقدت صداقة على الخصوص مع عامل قديم دهان ، هرم في السبعين من عمره ، كان يسكن في البيت في طبقة فوق المطبخ يموت فيها من الجوع والبرد ؛ لقد فقد اولاده الثلاثة في حرب القرم ، وكان يعيش على الاحسان منذ سنتين لم يستطع خلالهما الامساك بالفرشاة . وما ان رأت جرفيز الاب برو يحرك رجليه بشدة في الثلج ليدفأ حتى دعته ، واوسعت له مكاناً بقرب الوجاق ؛ وفي اغلب الاحيان ترغمه على اكل قطعة خبز مع الجبن . والاب برو ، بجسده المتقوّس ، ولحيته البيضاء ، والوجه متغضن لتفاحة

قديمة ، كان يبقى ساعات دون ان يقول شيئاً ، مصغياً الى تشنج الكوك وربما كان يستعيد سنواته الخمسين من الشغل على السلالم ، ونصف القرن الذي مضى وهو يدهن ابواباً ويبيض سقوفاً في زوايا باريس الاربع

وكانت الغسالة تسأله احياناً

– ايه ، ايها الاب برو ، ، بماذا تفكر ؟

فيجيب بهيئة بلهاء

– بلا شيء ، وبكل شيء .

وكانت العاملات يمزحن ويقلن انه كان ذا هموم قلبية ، ولكنه ، دون ان يسمعهن ، كان يستغرق في صمته ، بهيئته المقطبة ، المفكرة

ومنذ ذلك الوقت صارت فرجيني تردد الكلام غالباً لجرفيز عن لانتيه ، وتبدو انها مسرورة بأن تشغلها بعشيقها القديم لمجرد ازعاجها كما افترضت . وقالت ذات يوم انها التقت به ؛ وبما ان الغسالة ظلت صامتة فانهـــا لم تضف شيئاً الا انها اسمعتها في الغد انه حدثها طويلاً عنها بكثير من الحنو . واضطربت جرفيز من هذه الاحاديث المهوسة في احـدى زوايا الدكان كان اسم لانتيه يسبب لها دائماً حرقاً في تجويف المعدة ، كما لو ان هذا الرجل ترك شيئاً منه تحت الجلد . من المؤكد انها تعرف نفسها متينة ، وتريد ان تعيش كامرأة فاضلة لان الفضيلة هي نصف السعادة وايضاً لم تفكر بكوبو في هذه القضية ، ولم يكن لها ما تشكو منه ضد زوجها ، حتى ولو بالفكر . كانت تفكر بالحـــدّاد ، والقلب حائر مريض . وكان يبـــدو لها ان عودة ذكرى لانتيه اليها ، ذلك الامتـــلاك البطيء الذي استولى عليها ، يجعلها غـــير مخلصة لغوجيه ، لحبهما المكتوم المشبع بعـذوبة الصداقة . كانت تعيش اياماً كئيبة حين تعتقـد انها مذنبة حيال صديقها الطيب . وكانت تريد ألا تشعر بمحبة الا له ، خارج بيتها الزوجي . وهذا الشعور كان سامياً ، فوق كل القذارات ، بينما كانت فرجيني تراقب النار على وجهها

وحين جاء الربيع ذهبت جرفيز ملتجئة بقرب غوجيه .لم يكن باستطاعتها

عدم التفكير بشيء وهي جالسة على كرسي ، دون ان تفكر حالاً بحبيبها الاول ؛ كانت تتخيله تاركاً اديل ، معيداً ملابسه الى داخل صندوقها القديم ، عائداً اليها والصندوق في العربة . وفي الايام التي كانت تخرج فيها ، كانت تجتاحها فجأة مخاوف حمقاء في الشارع ؛ وكانت تظن انها تسمع وقع خطى لانتيه وراءها ، ولن تكن تجرؤ ان تلتفت ، مرتجفة ، متخيلة انها تشعر بيديه تمسكان بقامتها بالتأكيد يجب ان يكون قد بدأ يتجسس عليها ؛ وسيسقط عليها في فترة ما بعد الظهر ؛ وهذه الفكرة كانت تصيب منها عرقاً بارداً لأنه سوف يقبلها بالتأكيد في اذنها كما كان يفعل في السابق بقصد المناكدة كانت هذه القبلة هي التي ترعبها : لقد جعلتها صماء مسبقاً وملأتها بطنين لاتميز ضجة قلبها النابض بضربات كبيرة . ومنذ ما استولت عليها هذه المخاوف اصبح مصنع الحديد هو ملجأها الوحيد ؛ ففيه تعود مطمئنة مبتسمة تحت حماية غوجيه حيث مطرقته الرنانة تبث احلامها السيئة على الهرب

يا له من فصل سعيد ! كانت الغسالة تعني بشكل خاص بالغسيل العائد لشارع « الابواب البيضاء » ؛ وكانت تحمل اليه دائماً الغسيل بنفسها . لان هذا المسير كل نهار جمعة كان ذريعة معدة لتمر في شارع ماركاديه وتدخل الى مصنع الحديد . وما ان تلف زاوية الشارع حتى تشعر انها خفيفة ، مرحة ، كما لو انها اصبحت جزء من الحقول ، وسط تلك الاراضي البور ، المحاطة بمصانع رمادية ؛ وكانت اكوام الفحم السوداء والبخار المتصاعد بشكل ريش على السطوح تسليها كطريق من الطحلب في احدى غابات الضواحي ، بين باقات الخضرة الكبيرة ؛ وكانت تحب الافق القاتم المخطط بمداخن المصانع العالية ، وتلة مونمارتر التي تسد السماء ، ببيوتها الطباشيرية المثقوبة بنوافذها بثقوب منتظمة . وكانت تخفف الخطى عند وصولها ، قافزة فوق برك الماء ، واجدة لذة باجتياز الزوايا المقفرة المعرقلة لمصنع متهدم وفي الداخل ، الكور المتوهج وقت الظهر . وكان قلبها يثب على رقص المطارق . وحين دخلت كانت محمرة وشعر نقرتها الاشقر القصير متطاير كشعر امرأة تصل الى موعد كان غوجيه ينتظرها عاري الذراعين ،

عاري الصدر ، يضرب بقوة على السندان ، في تلك الايام ، ليسمع من بعيد وقد عرفها ، واستقبلها بضحكة جميلة صامتة ، بلحيته الصفراء . ولكنها لم تشأ ان ينزعج في شغله ، فرجته ان يستعيد المطرقة ؛ لأن محبتها تزداد له عندما يهزها بذراعيه الكبيرين المنتفخي العضلات . وذهبت تربت على خد اتيين المعلق بالمنفاخ وظلت هناك ساعة وهي تنظر الى البراغي . ولم يتبادلا عشر كلمات . ولم يكن باستطاعتهما ان يرضيا حنينهما بصورة افضل في غرفة مقفلة مرتين بالمفتاح . ولم تكن تقلقهما قهقهة المنقار الملح الملقب بالشرب دون عطش لأنهما لا يسمعانها وفي مدى ربع ساعة بدأت تشعر بشيء من الضيق ؛ والحرارة ، والرائحة القوية ، والادخنة المتصاعدة كانت تخدرهما بينما الضربات الشديدة تهزهما من الأعقاب الى الحناجر لم تكن ترغب بشيء حينذاك ، فهذا كل سرورها ولو ان غوجيه ضمها بين ذراعيه لما كان تأثير ذلك عليها اكثر من هذا كانت تقترب منه لتشعر بهواء مطرقته على خدها ، ولتكون في الضربة التي يضربها وحين كانت الشرارات تلدغ يديها اللدنتين لم تكن تسحبهما ، بل بالعكس ، كانت تتمتع بهذا المطر من النار الذي يضرب بشرتها. وهو، بالتأكيد، كان يعرف السعادة التي تتذوقها هناك ؛ وكان يحتفظ ليوم الجمعة بالاعمال الصعبة لكي يستميلها بكل قوته وكل مهارته؛ ولم يكن يترفق بنفسه ، مخاطراً بشق السندان الى قسمين لاهثاً،وأصلابه ترتج من السرور الذي يسببه لها.وطوال فصل الربيع ، ملأ حبهما المصنع بزمجرة زوبعة لقد كان حباً بريئاً في عمل عملاق ، وسط تأجج الفحم الحجري ، واهتزاز السقيفة التي كان يتقضقض هيكلها الاسود من السناج . وكل ذلك الحديد المسحوق، المعجون كالشمع الاحمر ، كان يحتفظ بدمغات شوقهما الشديدة .ونهار الجمعة ، حين تترك الغسالة شارع الحلقوم الذهبي ، كانت تصعد متمهلة في شارع بواسونيير ، مسرورة ، تعبة ، وروحها وجسدها مطمئنان .

وتناقص خوفها من لانتيه شيئاً فشيئاًوعادت تحكم عقلها . وفي ذلك الوقت كانت تعيش سعيدة بدون كوبو الذي اصبح سيئاً بالتأكيد . وذات يوم كانت

عائدة من مصنع الحديد عندما رأت كوبو في حانة الاب كولومب يدفع ثمن دورة شراب مع ميبوت وبيبي لاغرياد والمنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش فمرت بسرعة لئلا تبدو انها تتجسس عليهم ولكنها التفتت ؛ انه كوبو يقذف كأساً من الشنيك *Schnick* في حلقومه بحركة مألوفة. اذن كان يكذب ، واذن انتقل الى شرب العرق وعادت يائسة الى البيت وقد عاد كل خوفها من شرب العرق . لقد كانت تسامحه على شرب النبيذ لانه يغذي العامل ؛ اما الكحول فبالعكس . انها قذرات ، وسموم تنتزع من العامل تذوقه للخبز .. آه !.. كان على الحكومة ان تمنع صنع هذه الفواحش !..

وعند وصولها الى شارع القطرة الذهبية وجدت البيت كله مقلوباً ، وعاملاتها تركن منضدة الشغل واحتشدت في الباحة يتطلعن الى فوق وسألته كليمانس ، فأجابت هذه قائلة

– انه الاب بيجار يضرب امرأته كان تحت الباب ثملاً كبولوني ،يترصد رجوعها من الغسل ... لقد جعلها تتسلق الدرج وهو ينهال عليها ضرباً بقبضته والآن يقتلها فوق فيغرفتهما ... اتسمعين الصراخ ؟

وصعدت جرفيز بسرعة . كانت على صداقة مع مدام بيجار ، غسّالتها ، وهي امرأة ذات شجاعة عظيمة . كانت تأمل ان تطفىء القتال وفوق ، في الطابق السادس ، كان باب الغرفة قد ظل مفتوحاً ، وكان بعض المستأجرين يصيحون على البلاط ، بينما مدام بوش تصرخ امام الباب

– اتريدان ان تنتهيا ! سنذهب ونأتي بالشرطة ، اتسمعان ؟

ولم يجسر احد على المجازفة بالدخول الى الغرفة ، لانهم يعرفون بيجار فهو حيوان شرس حين يكون ثملاً . ولم يكن يبطل السكر . وفي الايام القليلة حين يشتغل ، فأنه يضع ليتراً من العرق بالقرب من ملزمة صنع الاقفال ، شارباً قنينة كل نصف ساعة وبغير ذلك لايستطيع التماسك ، ويلتقط النار كالمشعل اذا ادني عود ثقاب من فمه

وقالت جرفيز مرتجفة

– ولكن لا يمكن ان نتركه يقتلها

ودخلت الغرفة تحت سقف منحن انها نظيفة جداً ، وفارغة وباردة ، قد افرغها سكر الرجل الذي كان يختطف اغطية السرير ليشرب بثمنها، واثناء العراك تدحرجت الطاولة حتى النافذة ، وقد سقط الكرسيان وقوائمهما في الهواء ، وعلى البلاط ، في الوسط ، مدام بيجار ، وتنورتها لا تزال مبللة بماء المغسل وملتصقة بفخديها ، وشعرها منتزع ، وهي دامية تحشرج بنفخة قوية مع تأهوات مديدة لدى كل رفسة من بيجار . لقد ضربها اولاً بقبضتيه والآن يدوسها

– آه ! يا فاجرة ! آه ! يا فاجرة ! آه ! يا فاجرة !

هكذا كان يزمجر بصوت مختنق وكل ضربة تصحبها هذه الكلمة ، مجنوناً بترديدها ، زائداً قوة ضربته كلما زاد اختناقه

ثم خانه الصوت فتابع الضرب بصمت ، بجنون ، متصلبا في دراعته وبلوزته الباليتين ، والوجه مزرق تحت لحيته القذرة ، وجبهته الصلعاء مبقعة ببقع كبيرة حمراء . وعلى سطح الدرج كان الجيران يقولون انه ضربها لانها رفضت ان تعطيه عشرين فلساً عند الصباح . وسُمع صوت بوش في اسفل الدرج ، كان ينادي مدام بوش صائحاً بها

– انزلي ودعيهما يقتلان بعضهما البعض فهذا يُنقص السفلة !

الا ان الاب برو تبع جرفيز الى الغرفة . واخذ الاثنان يحاولان اعادة صانع الاقفال الى جادة العقل ، ويدفعانه نحو الباب . ولكنه كان يلتفت صامتاً ، والزبدة على شفتيه ، والكحول يتوهج في عينيه الشاحبتين، ويشعل لهبة قاتل . واصيبت الغسالة في معصمها اصابة شديدة ، والعامل الهرم سقط على المنضدة ، وعلى الارض كانت مدام بيجار تنفح بشدة مفتوحة الفم ، مطبقة الجفون لقد اخطأها بيجار في الوقت الحاضر ، وكان يعود ، ويهتاج ، ويضرب جانباً ، مسعوراً ، اعمى ، مصيباً نفسه بضربات كان يرسلها في الفراغ . واثنـــاء هذه المجزرة كلها ، كانت جرفيز ترى في احدى زوايا الغرفة لالي الصغيرة البالغة من

العمر اربع سنوات ، تنظر الى ابيها وهو يقتل امها . كانت الطفلة تمسك اختها هنرييت بين ذراعيها كأنها تحميها ، وقد فطمت منذ البارحة كانت واقفة ورأسها معصوب بقبعة هندية كثيرة الشحوب ، بهيئة جدّية ، ولها نظرة كبيرة سوداء ، ذات تحديق مليء بالافكار ، دون اية دمعة .

وحين تعثر بيجار بكرسي ، وتمدد على البلاط حيث تُرك لشخيره ، ساعد الاب برو جرفيز على انهاض مدام بيجار . وأخذت هذه تبكي بدموع غزيرة ؛ واقتربت لالي منها ، ورأتها تبكي ، معتادة على هذه الامور ، مستسلمة . وحين نزلت الغسالة الى البيت الهادىء كانت ترى دائماً امامها تلك النظرة للطفلة ذات السنوات الاربع ، رصينة ، شجاعة ، كأنها نظرة امرأة .

وصاحت بها كليمانس حين شاهدتها

– ان السيد كوبو على الرصيف المقابل ويبدو ثملاً جداً .

كان كوبو يجتاز الشارع وكاد يدخل في لوح زجاج بضربة كتف ، فقد ضاع عن الباب ، وكان في حالة سكر شديد ، مطبق الاسنان ، محمر الانف . وعرفت جرفيز حالاً خمر الحانة في الدم المسموم الذي جعل بشرته شاحبة . وارادت ان تضحك ، وان تجعله ينام كما كانت تفعل يوم كان يشرب النبيذ . ولكنه دفعها دون ان يفتح شفتيه . وعند مروره ، حين وصل الى سريره ، رفع قبضته عليها لقد كان شبيهاً بالآخر ، ذلك السكير الذي يشخر فوق وقد تعب من كثرة الضرب عندئذ ظلت باردة ؛ وكانت تفكر بالرجال ، بزوجها بغوجيه ، بلانتيه ، مقطعة القلب ، يائسة من بلوغ السعادة

٧

كان عيد جـــرفيز يقع في ١٩ حزيران . وفي ايام الاعياد عند آل كوبو كانوا يضعون الصحاف الصغيرة في الكبيرة انها حفلات يخرج منها المدعوون مستديرين كالكرة ، والبطن ممتلىء لمدة اسبوع . وكان هناك تنظيف عام للنقود، ومـــا ان يصبح في البيت اربعة فلوس حتى يأكلونها بنهم . وكانوا يبتدعون قديسين على الروزنامة ، قصة لايجاد ذرائع لاقـــامة الولائم الوافرة . وكانت فرجيني تستصوب عمل جـرفيز كثيراً بان تحشي نفسها بالمآكل الطيبة . وحين يكون هناك رجل يشرب كل شيء فان الخبز يتبارك بألا ندع البيت يـذهب الى المشروبات ، وان نموّن المعدة اولاً . وما دامت النقود ذاهبة على كل حـــال فليربحها اللحام افضل من بائع الخمر . وجرفيز ، وقد اصبحت نهمة ، استسلمت لهذا العذر . واذا كانوا لم يقتصدوا ليار احمر فالحق كله على كوبو وهي قـد سمنت ، وزاد عـــرجها لان ساقها انتفخت بالشحم وبدت انها تقلصت بقدر انتفاخها .

في تلك السنة بدأوا يتحدثون عن العيد قبل شهر . كانوا يبحثون عـــن صحون ويلحسون الشفاه . وكانت الدكان كلها تشعر بميل عظيم للاحتفال. فقد كان يجب القيام بوليمة عظيمة ، بشيء غير عادي وناجح ، يا الهي ! لن تكون الايام كلها حسنة . اما الشاغل الاكبر للغسالة فهو ان تعرف من ستدعو انها ترغب بوجود اثني عشرة شخصاً على المائدة ، لا اكثر ولا اقـــل . هي ،

وزوجها ، والأم كوبو ، ومدام ليرا. وهؤلاء اربعة اشخاص من العائلة . وسوف تدعو آل غوجيه وآل بواسون . وقد عزمت اولاً على عدم دعوة عاملاتهـــا ، مدام بوتو و كليمانس ، لئلا تجعلهما قرفعان الكلفة ، ولكن بما ان الحديث يجري دائماً امـــامهما عن الحفلة ، وان انفيهما كانا يمتدان ، فقد انتهت بأن دعتهما . اربعة واربعة ، ثمانية ، واثنان ، عشرة . وبما انها اصرت على ان تكمل الاثني عشر ، فقد اصطلحت مع آل لوريللو الذين كانوا يدورون حولها منذ زمن . كان من المناسب على الاقل ان ينزل آل لوريللو ويتناولوا الطعام وتجري المصالحة والقدح في اليد . بالتأكيد ، لا يمكن إبقاء الخلاف في العائلة . ثم ان فكرة الحفلة كانت ترتق كل القلوب . انها فرصة يستحيل رفضها الا ان آل بوش حين عرفوا بالمصالحة المطروحة تقربوا ايضاً من جرفيز ، بمجاملات ، وابتسامات . ولزم ايضاً دعوتهما الى الوليمة وهكذا سيكونون اربعة عشر دون ان نحسب الاولاد . انها لم تقدم في حياتها غداء مشابهاً، وكانت متدلهة بذلك وفخورة .

وكانت الحفلة نهار الاثنين ، وهـــذا من حسن الحظ : فقد كانت جرفيز تعتمد على فترة ما بعد ظهر الاحد لتبدأ العمل في المطبخ . ونهار السبت ، حين كانت الكاويات يقمن بعملهن ، جرت مناقشة في الدكـــان لمعرفة مـــا سوف يأكلون . هناك اكلة اختيرت منذ ثلاثة اسابيع اوزة سمينة مشوية . وكانوا يتحدثون عنها بعيون شرهة . والأوزة ابتيعت ، وذهبت الام كوبو لتأتي بهـــا بقصد ان تروزها كليمانس ومدام بوتوا وبدا التعجب على الجميع ، فقد بدت الاوزة ضخمة ، بجلدها القاسي المنتفخ بالشحم الاصفر .

وقالت جرفيز :

– وقبلها شورباء لحم وخضار ، اليس كذلـــك ؟.. وثريدة مع شيء من الحساء ، وهذا دائماً حسن ... ثم يجب ان تقدم صحناً من المرق [1]

واقترحت كليمانس الكبيرة ارنباً؛ ولكن الناس لم يكونوا يأكلون الا ذلك؛

١ – في هذا الفصل اسماء لبعض المآكل الفرنسية لا يمكن ترجمتها ترجمة كاملة .

وهو فوق طاقتهم . وكانت جرفيز تحلم بشيء اكثر ميزة . وتحدثت مع مدام بوتوا عن لحم عجل ، فتطلع الجميع بعضهم ببعض بابتسامة اخذت تكبر . لقد كانت فكرة ؛ وما من شيء يحدث تأثير اكلة تطبخ بلحم عجل . وقالت جرفيز :

– وبعد ذلك يجب تقديم صحن بالمرق .

وفكرت الام كوبو بالسمك، ولكن الأخريات كشرن ، ضاربات مكاويهن بشدة . ليس هناك من يحب السمك ؛ انه لا يستقيم في المعدة، وهو مليء بالحسك. وتجرأت تلك الحولاء اوغسطين وقالت انها تحب سمك اللمّا *Raie* ، فأطبقت كليمانس لهـــا منقارها بضربة . واخيراً توصلت ربة العمل الى ايجاد قطعة من لحم الخنزير بالبطاطا جعلت الوجوه تشرق من جديـــد ، حين دخلت فرجيني كالعاصفة ، ملتهبة الوجه . وصاحت جرفيز :

– احسنت بمجيئك . ايتها الام كوبو ، أريها الاوزة

والمرة الثانية راحت الام كوبو لتأتي بالأوزة السمينة واضطرت فرجيني الى حملها بيديها . وصاحت متعجبة يالله كم هي ثقيلة ! ولكنها وضعتها حالاً على حافة منضدة الشغل بين تنورة وصرة قمصان . فقد كان لديها ما تقول ؛ وادخلت جرفيز الى الغرفة الداخلية وتمتمت بسرعة

– اريد ان اخبرك يا صغيرتي ... اتعرفين بمن التقيت في طرف الشارع ؟.. لانتيه يا عزيزتي !. انه هناك يجوس ويترقب عندئذٍ اسرعت فقد خفت عليك ، وانت تعلمين .

وشحب لون الغسالة . ماذا يريد منها هذا البائس ؟ تماماً وهي منهمكة في تجهيزات الحفلة لن يكون لها اي حظ : لن تُترك لتنال شيئاً من السرور وهي مرتاحة البال . ولكن فرجيني اجابتها بانها قادرة على ان تقلب الآية . فـاذا خطر ببال لانتيه ان يلاحقها فسوف تدعو شرطياً ليلقي القبض عليه . منـــذ شهر ، حين نال زوج السمراء الكبيرة مركزه كشرطي في المدينة اصبـــح في سلوكها بعض العجرفة وصارت تتكلم عن توقيف جميع الناس . وحين رفعت

صوتها متمنية ان يعاكسها احد في الشارع لتقود الوقح بنفسها الى المخفر وتسلمه الى بواسون ، رجتها جرفيز باشارة ان تصمت لأن العاملات كن يصغين. وعادت اولاً الى الدكان ، وقالت متظاهرة بكثير من الهدوء .

– والآن ، الا يلزمنا خضار ؟

فقالت فرجيني:

– ها ؟ .. حمّص بشحم خنزير ، لن آكل الا من هذا .

– نعم ، نعم حمص بشحم خنزير .

هكذا صاح الجميع مستصوبات بينما تحمست اوغسطين لتدخل محراك النار في الجهاز الآلي بكثير من الحدة

وفي غد الأحد، ومنذ الساعة الثالثة، اوقدت الأم كوبو موقدي البيت وموقداً ثالثاً من تراب استعير من آل بوش وفي الساعة الثالثة والنصف كانت الثريدة تغلي في حلة كبيرة استعيرت من المطعم المجـــاور لأن الحلة الموجودة في البيت صغيرة . وعزموا في السهرة على طبخ اكلة بلحم عجل واكلة بلحم خنزير لأن هذه الالوان من افضل المأكولات الا انهم لن يضموا مرق لحم العجل الا حين يجلسون الى المائدة. وسوف يبقى ايضاً كثير من الاعمال لنهار الاثنين ، كالبقول، والحمص بشحم الخنزير ، والأوزة المشوية

وكانت الغرفة الداخلية مضاءة بالمواقد الثلاثة . وكان مرق الطحين والسمن يشوط في المقالي الصغيرة ويتصاعد منها دخـــان كثير من طحين محروق ؛ بينما الحلة الكبيرة كانت تنفث نوفرات من البخار كالمرجـــل ، وجوانبها تهتز بقرقرة عظيمة وعميقة . والام كوبو وجرفيز ، بمريلة بيضاء معقودة من الامـــام ، كانتا تملآن الغرفة بسرعتهما في تقطيـع ورق البقدونس، والركض في طلب الفلفل والملح ، وتقليب اللحم بمحراك خشبي . وكانتا قد اخرجتا كوبو لتنظفا الارض. ولكن بقي عندهم اناس طوال فترة ما بعد الظهر . ورائحة المطبـخ حسنة في البيت لأنها جعلت الجارات ينزلن بعضهن وراء بعض ، متزرعات فقط بمعرفة ما يُشوى ؛ ومكثن هناك منتظرات ان ترفع الغسالة الاغطيـة . ثم ، ظهرت

فرجيني حوالي الساعة الخامسة . وكانت قد رأت لانتيه ؛ من المؤكد انهـا لا تضع رجلها في الشارع الا وتلتقي به . وقد شاهدته مدام بوش ايضاً في زاوية الرصيف مادّاً رأسه . وكانت جرفيز على اهبة الذهـاب لشراء بصل محروق بفلس لاجل الثريدة ، فارتجفت ولم تجرؤ على الخروج ؛ يضاف الى ذلك ان زوجة البواب والخياطة ارعبتاها كثيراً اذ سردتا قصصاً مرعبة عن رجـال يترصدن النساء وهم يحملون سكاكين ومسدسات مخبأة تحت المعطف .

نعم ! انهم يقرأون هذا كل يوم في الصحف ؛ فحين يرغب احـد هؤلاء الكلاب باستعادة عشيقة قديمة يصبح جديراً بعمل كل شيء . وعرضت فرجيني ان تذهب وتأتي بالبصل المحروق . يجب ان تتعاون النساء . ولا يمكن ان تترك هذه الصغيرة لتقتل . وحين عادت قالت ان لانتيه لم يكن هناك . فقد اضطر الى الذهاب بعد ان عرف ان امره اكتشف . وظل الحديث حول المقالي يدور حتى المساء عن لانتيه . واشارت مدام بوش باعـلام كوبو ، فأظهرت جرفيز خوفاً عظيماً ورجتها الا تبوح بكلمة عن هذه الامور سيحدث هذا من تلقاء نفسه ،ويجب ان يكون زوجها قد شك بالأمر لأنه وهو نائم منذ عدة ايام كان يقسم ويضرب الحائط بقبضته. وكانت يداها ترتجفان لفكرة اقتتال رجلين من اجلها . كانت تعرف كوبو انه غيور الى درجة الهجوم على لانتيه بمقصّاته. وحين كانت النساء الاربع منغمسات فيهذه المأساة فان المرق على المواقد المجهزة بالرماد كان ينطبخ بهدوء على نار خفيفة ؛وحين كشفت الام كوبو عن لحم العجل احدث ضجة صغيرة ، رعشة خفيفة؛ اما الثريدة فقد احتفظت بشخير احـد المرتلين الذي ينـام وبطنه في الشمس . وانتهين بأن سكبت كل منهن شيئاً من الحساء في فنجان ليذقنه

واخيراً جاء نهار الاثنين . والآن ، حين رأت جرفيز انه سيكون عندهـا اربعة عشر شخصاً على الغداء خافت الا تستطيع استيعاب كل هؤلاء . فعزمت على وضع المائدة في الدكان ؛ ومنذ الصباح ايضاً اخذت تقيس بالمتر لتعرف في اي اتجاه تضع الطاولة . وبعد ذلك اضطرت الى نقل الغسيل وتفكيك طاولة

الشغل؛ ان طاولة الشغل الموضوعة على قوائم اخرى هي التي ستستخدم كائدة . ولكن ، في منتصف هذه الفوضى تماماً ، جاءت احدى الزبائن واثارت حادثاً لانها كانت تنتظر غسيلها منذ نهار الجمعة ؛ وقد سخروا منها وتريد غسيلها حالاً . عندئذ اعتذرت جرفيز ، وكذبت عمداً ؛ لم يكن الخطأ منها ، وكانت تنظف دكانها ، والعاملات سيعدن في الغد ! واعادت الزبونة الى بيتها وقد هدأ ثائرها ، بعد ان وعدتها بانها ستهتم بها منذ الساعة الاولى وحين ذهبت المرأة انفجرت جرفيز بكلمات بذيئة . صحيح ، لواستمع المرء للزبائن لما اتسع وقته حتى للأكل ، وسيقضي على حياته بكاملها في سبيل عيونهن الجميلة !ومع ذلك فليس العاملات كلاباً مربوطة ! ولو جاء السلطان التركي شخصياً يحمل اليها طوق قميص ، ولو انها ستربح مئة الف فرنك ، فانها لن تحرك مكواة نهار الاثنين ، لأن دورها قد جاء لتتمتع قليلاً .

واستُعملت فترة الصباح بكاملها لإنهاء المشتريات . وخرجت جرفيز ثلاث مرات وعادت محملة كالبغلة . ولكن حين ذهبت لتأتي بالنبيذ رأت انه لم يبق معها مايكفي من النقود . وبامكانها ان تأخذ النبيذ ديناً ، الا ان البيت لايستطيع البقاء دون نقود ، بسبب الوف النفقات الصغيرة التي لا يفكر المرء بها . وفي الغرفة الداخلية اخذت هي والام كوبو تأسفان وتحسبان انه يلزمها عشرون فرنكاً على الاقل . اين تجد تلك القطع الاربع ذوات المئة فلس ؟ ان الام كوبو التي خدمت في السابق في بيت ممثلة صغيرة في مسرح باثينيول تكلمت اولاً عن الرهن. وضحكت جرفيز ضحكة انفراج هم ما احمقها ! فهي لم تفكر بذلك ابداً وطوت بسرعة ثوبها الحريري الاسود في منشفة أثبتتها بدبابيس ، ثم خبأت بنفسها الصرة تحت مريلة الام كوبو طالبةً اليها ان تبقيها منشورة على بطنها بسبب الجيران الذين يجب الا يعرفوا ؛ ثم راحت الى الباب لترى اذا كان احد يتبع المرأة العجوز ولكن هذه ما كادت تصل الى امام بائع الفحم حتى نادتها

— ماما ، ماما.

واعادتها الى الدكان ، ونزعت خاتم الزواج من اصبعها قائلة

– خذي ضعي هذا مع الثوب وسنحصل على مزيد من النقود

وحين اتتها الام كوبو بخمسة وعشرين فرنكاً رقصت من الفرح . وراحت تطلب زيادة ست زجاجات مختومة من النبيذ لتُشرب مع اللحم المشوي . سوف ينسحق آل لوريللو

كان هذا هو حلم آل كوبو منذ خمسة عشر يوماً : ان يسحقوا آل لوريللو. الا يقفل هذان المرائيان ، الرجل والمرأة – وهما زوج جميل حقيقة – الباب على نفسيهما حين يأكلان اكلة طيبة كما لو انهما سرقاها ؟.. نعم ، كانا يسدان النافذة بغطاء لإخفاء النور وليظن الناس انهما ينامان . ومن الطبيعي ان هذا كان يمنع الناس من الصعود ؛ وكانا يأكلان وحيدين ، ويسرعان بالشبع دون ان يلفظا كلمة بصوت مرتفع . وفي الغد كانا يحرصان على ان لا يلقيا العظام على الاقذار لأن ذلك ينبيء الناس بما اكلا ؛ وكانت مدام لوريللو تذهب الى نهاية الشارع لتقذفها في فوهة بالوعة ؛ وقد فاجأتها جرفيز ذات صباح وهي تفرغ هناك سلتها الملأى بقشور المحار . آه اكلا بالتأكيد ، فهذان الطماعان لم يكونا عريضي الاكتاف ، وكل هذة الألاعيب متأتية من رغبتهما في الظهور بمظهر الفقراء لا بأس . سيلقنونهما درساً ، وسيثبتون لهما انهم ليسوا بخلاء . وكانت جرفيز تود لو تضع طاولتها في عرض الشارع بحيث تستطيع ان تدعو كل مار . والمال لم يخترع ليتعفن ، اليس كذلك ؟ انه جميل حين يلمع جديداً في الشمس . وهي قليلاً ما تشبههما الآن ، ففي الايام التي يكون معها عشرون فلساً فأنها ترتب نفسها بطريقة تجعل الناس يظنون ان معها اربعين

وتحدثت الام كوبو وجرفيز عن آل لوريللو وهما تضعان الطاولة منذ الساعة الثالثة . وقد علقتا الستائر على الواجهه الزجاجية ، ولكن ظل الباب مفتوحاً لأن الطقس حار ، وكان الشارع كله يمر امام الطاولة ولم تضع المرأتان زجاجة ماء ، او قنينة ، او مملحة ، دون ان تحاولا ادخال مقعد تنكيدي فيها لآل لوريللو . ووضعتاها بطريقة تمكنهما من رؤية لوازم المائدة الرائعة ، واحتفظتا

لآل لوريللو بالآنية الجميلة ، عالمتين ان صحون البورسلين تحمل اليهم ضربة قاتلة .

وقالت جرفيز

– كلا ، كلا يا امي . لا تعطيهم هذه المناشف عندي اثنتان موشاتان بالزهور .

فتمتمت العجوز

– حسناً ! سينشقون غيظاً . هذا مؤكد .

وابتسمتا وهما واقفتان على جانبي تلك الطاولة الكبيرة البيضاء التي صفت عليها لوازم مائدة لأربعة عشر شخصاً وسببت لهما نفخة كبرياء . كان ذلك ككنيسة صغيرة في وسط الدكان .

وقالت جرفيز :

– لماذا هما كثيرا البخل ... انت تعلمين انهما كذبا في الشهر المنصرم حين حدثت الزوجة في كل مكان انها اضافت قطعة من سلسلة ذهبية وهي تعيد الشغل الى اصحابه . صحيح ! هل تضيع تلك المرأة شيئاً ! انها بكل بساطة طريقة لتندب بؤسها ، ولكي لا تعطيك فلوسك المئة

فقالت الام كوبو

– اني لم ار فلوسي المئة سوى مرتين .

– اتراهنين ؟ .. سيخترعان حكاية في الشهر المقبل ... وهذا يفسر لماذا يسدان نافذتهما حين يأكلان ارنباً . اليس كذلك ؟ لأنه يصبح من الحق القول لهما : « مادمتما تأكلان ارنباً فبامكانكما جيداً اعطاء امكما مئة فلس » . اوه ! عندهم الكثير من العيوب ! ماذا كان حل بك لو لم آت بك الى عندنا ؟ ..

وهزت الام كوبو رأسها . كانت في هذا النهار ضد آل لوريللو تماماً بسبب الوليمة الكبيرة التي يقيمها آل كوبو انها تحب المطبخ ، والثرثرة حول الطناجر ، والبيوت المنثورة في الهواء بسبب حفلات ايام الاعياد . الا انها لم تكن تتفاهم جيداً مع جرفيز . ففي الايام الاخرى ، حين تتلاحيان لأمر تافه ،

كما يحدث في كل البيوت ، فان العجوز كانت تتذمر حاسبة نفسها في منتهى الشقاء لأنها تحت رحمة كنتها . ويجب ان تكون في سريرتها تشعر ببعض الحنو على مدام لوريللو ، فهي ابنتها على كل حال

ورددت جرفيز :

– ها . . لن تكوني سمينة بهذا الشكل عندهم ! لا قهوة ولا تبغ ، ولا ملاطفة ! قولي ، هل كانوا يضعون لك فراشين على سريرك ؟

فأجابت الام كوبو

– كلا ، بالتأكيد سأقف مقابل الباب حين يدخلون لأرى انوفهم

كانت انوف آل لوريللو تسرهما مقدماً . ولكن يجب الا تظلا واقفتين هنا ، تتطلعان الى الطاولة وقد تناول آل كوبو طعامهم متأخرين ، حوالي الساعة الواحدة ، وهو مؤلف من لحم الخنزير الجاهز ، لأن المواقد الثلاثة مشغولة ، ولأنهم لا يريدون تلويث آنية المائدة المغسولة للمساء . وفي الساعة الرابعة كانت المرأتان في اوج عملهما . فالاوزة تشوى امام اناء للشواء موضوع على الارض ، تجاه الجدار ، بجانب النافذة المفتوحة ، وكانت من الكبر بحيث ادخلت بالقوة في المشواة وتلك الحولاء اوغسطين ، الجالسة على مقعد صغير تتلقى بملء وجهها انعكاس الحريق في إناء الشواء ، كانت ترش الاوزة بملعقة ذات قبضة طويلة . وكانت جرفيز مشغولة بالحمص بشحم الخنزير ، والام كوبو ، ورأسها ضائع بين كل هذه الجفان ، كانت تدور وتنتظر اللحظة التي تعيد فيها تسخين لحم العجل . وحوالي الساعة الخامسة بدأ المدعوون بالمجيء . فجاءت اولاً العاملتان كليمانس ومدام بوتوا ، والاثنتان بملابس الأحد ، ثوب الاولى ازرق والثانية اسود ؛ كليمانس كنبات إبرة الراعي *Géranium* ، ومدام بوتوا كنبات دوار الشمس *Héliotrope* ، واضطرت جرفيز التي كانت يداها بيضاوين من الطحين ان تقبل الاثنين ، ويداها وراء ظهرها . ثم دخلت على اثرهما فرجيني مرتدية كسيدة ثوباً من الموسلين المطبوع مع شال وقبعة ، مع انها لم تكن تحتاج الا الى اجتياز الشارع . وقد جلبت معها اصيص قرنفل احمر . واخذت الغسالة بين

ذراعيها الكبيرين وضمتها بشدة واخيراً ظهر بوش مع اصيص زهر « بنسيه »، ومدام بوش مع اصيص بليحاء *Réseda* ، ومدام ليرا مع اترجة *Citronelle* حيث تراب أصيصها لوث ثوبها المصنوع من صوف المرينوس البنفسجي وتعانق الجميع ، وتكدسوا في الغرفة وسط ثلاثة مواقد واناء للشواء حيث تتصاعد الحرارة تبعث على الاختناق ، وكانت جلبة قلي المقالي تغطي على الاصوات. وعلق ثوب في المشواة فأحدث تأثيراً ، لانه حرك رائحة الاوزة بشدة فكبرت الا نوف . وكانت جرفيز كثيرة اللطف تشكر كل فرد على باقته ، دون ان تنقطع في سبيل ذلك عن اعداد مرقة لحم العجل في داخل صحن اجوف وقد وضعت اصص الزهر في الدكان على طرف الطاولة دون ان تنزع عنها غلاف لورق الابيض . وقد امتزجت رائحة زهور عذبة برائحة المطبخ

وقالت فرجيني :

– اتريدين مساعدة ؟ افكر بأنك تشتغلين منذ ثلاثة ايام في اعداد هذا الطعام ، وانهم سيأكلون في وقت قصير جداً !

فأجابت جرفيز

– انه لا يُصنع من تلقاء نفسه ... كلا ؛ لا توسخي يديك. ترين ان كل شيء جاهز ، ولم يبق سوى الثريد .

عندئذٍ جلسوا بارتياح . ووضعت السيدات شالاتهن وقبعاتهن على السرير ، ثم رفعن تنوراتهن بواسطة دبابيس لئلا يوسخنها . وبوش الذي ارسل زوجته لحراسة البيت حتى ساعة الطعام كان قد دفع كليمانس الى زاوية الجهاز وسألها اذا كانت حساسة بالدغدغة. وكانت كليمانس تلهث ، وتلتوي ، وتلتف ، ونهداها يشقان صدرتها ، لأن فكرة الدغدغة وحدها كانت تبعث الرعشة في جسدها كله . اما السيدات الاخريات ، لكي لا يزعجن الطباخات ، فقد اتين الى الدكان حيث وقفن وظهورهن الى الحائط ووجوههن الى الطاولة ؛ وبما ان الحديث قد استمر من الباب المفتوح ، وكان غير مسموح ، فانهن كن يلتفتن في كل لحظة الى الداخل ويملأن الغرفة بدوي الاصوات ، ويحطن بجرفيز التي كانت

تنسى ان تجيبهن ، وملعقتها التي يتصاعد منها البخار في يدها . كن يضحكن ويمزحن. وقالت فرجيني انها لم تأكل منذ يومين لتصبح كالحفرة. وتلك الكبيرة القذارة كليمانس قالت مزحة اكثر قسوة: فقد أعدّتْ نفسها بتناولها في الصباح مرقة حادة كالانكليز . وعندئـــذ قدم بوش وسيلة للهضم السريع وتقضي بان يحصر المرء نفسه في باب بعد كل صحن ؛ وهذا ما يحدث عند الانكليز ايضاً ، ويتيح للمرء ان يأكل طوال اثنتي عشرة ساعة متواصلة دون ان يتعب معدته ألا يقضي التهذيب بالاكل حين يكون المرء مدعواً الى الغداء ؟ ولحم العجـل ، والخنزير ، والاوزة ، لا يوضع لأجل الهررة . اوه ! بامكـــان ربة البيت ان تطمئن: فسينظفون لها كل هذا تنظيفاً لا تعود بعده بحاجة الى غسل آنية المائدة في الغد. ويبدو ان الجميع فتحوا شهيتهم حين جاؤوا يتشممون فوق المقالي والمشواة. وانتهت السيدات الى تقليد الفتيات؛ فصرن يلعبن بدفع بعضهن بعضاً ، ويركضن من غـــرفة الى اخـــرى هازات الارض الخشبية ، محركات روائح المطبخ بثيابهن ، في جلبة تصم الآذان تمتزج فيها الضحكات بجلبة ساطور الام كوبو وهي تفرم لحم الخنزير .

وجاء غوجيه تماماً في اللحظـة التي وثب فيها الجميع صارخين لاهين . ولم يجرؤ على الدخول بدافع الخجل ، وبين يديه شجرة ورد كبيرة ، غرسة بديعة يرتفع فرعها في وجهه وتختلط زهورها بلحيته الصفراء . وركضت جرفيز اليه ، وخداها متوهجان من نار الموقد . ولكنه لم يعرف ان يتخلص من اصيصـــه ، وحين اخذته من بين يديه تلعثم . ولم يجرؤ على تقبيلها ،فاضطرت الى ان ترفـع نفسها وتضع خدهـا على شفتيـه ؛ وحتى بذلك كان كثير الاضطراب بحيث قبلها على عينها بشدة كأنه سيعورها ؛ وظل الاثنان مضطربين .

وقالت وهي تضع غرسة الورد بجانب الزهور الاخرى بحيث تجاوزتها بكل زينة اوراقها

— اوه ! ياسيد غوجيه . ما اجمل هذا !

فردد دون ان يجد شيئاً آخر

– ولكن كلا ، ولكن كلا

وحين زفر زفرة كبيرة وامتلك نفسه قليلاً صرح بانه لا يجب الاعتماد على مجيء والدته ؛ فقد عاودها عرق النسا واسفت جرفيز ؛ وتحدثت عن تنحية قطعة من الاوزة لانها تحرص كل الحرص على ان تأكل مدام غوجيه منها. ولم يعودوا بانتظار احد ، ويجب ان يكون كوبو هائماً على وجهه في الحي مع بواسون الذي عاد الى بيته بعد طعام الافطار، ولن يتأخر في العودة. وقد وعدا بالرجوع في الساعة السادسة تماماً

وبما ان الثريدة قد نضجت فان جرفيز دعت مدام ليرا وقالت ان لحظة الصعود لدعوة آل لوريللو قد حلت . وأبدت مدام ليرا كثيراً من الرصانة ؛ فهي التي قادت جميع المفاوضات ونظمت الامور بين البيتين . واخذت شالها وقبعتها وصعدت منتصبة في ملابسها بهيئة ذات اهمية . اما تحت ، فقد استمرت الغسالة في تقليب ثريدتها المصنوعة من العجين الايطالي دون ان تفوه بكلمة اما المدعوون ، وقد غلبت عليهم الرصانة ، فكانوا يتطلعون باحتفال تبجيلي

وظهرت مدام ليرا اولا فقد دارت في الشارع لتزيد من ابهة المصالحة وامسكت بيدها باب الدكان لتبقيه مفتوحاً ، بينما وقفت مدام لوريللو على العتبة بثوب حريري . ونهض جميع المدعوين . وتقدمت جرفيز وعانقت اخت زوجها كما يجب ، وهي تقول

– هيا ادخلوا . لقد انتهى كل شيء اليس كذلك ؟ سوف نكون لطيفتين نحن الاثنتين .

واجابت مدام لوريللو

– لا اطلب افضل من دوام ذلك الى الابد

وحين دخلت توقف لوريللو ايضاً على العتبة وانتظر هو ايضاً ان تقبله جرفيز قبل الدخول الى الدكان ولم يأت بباقة زهر ، لا هو ولا زوجته ، فقد رفضا ذلك لانه يبدو خضوعاً للمرجاء ان يأتي الى بيتها بزهور لأول مرة الا

ان جرفيز صاحت بأوغسطين ان تعطيها ليترين ، ثم سكبت كؤوس النبيذ على احد اطراف الطاولة ودعت الجميع واخذ كل فرد كأسه وشربوا نخب صداقة العائلة وساد صمت . وكان الجميع يشربون ، ورفعت السيدات المرافق وشربن دفعة واحدة حتى آخر قطرة .

وصاح بوش وهو يفرقع بلسانه

– لا شيء افضل من هذا قبل الحساء انه افضل من رفسة على القفا .

وكانت الام كوبو قد جلست مقابل الباب لترى انف لوريللو ، وشدتها جرفيز بتنورتها ، واخذتها الى الغرفة الداخلية . وانحنت الاثنتان فوق الثريدة واخذتا تتحدثان بحدة وبصوت منخفض . وقالت العجوز

– ها ؟ ياله من انف كبير !.. انت لم تستطيعي رؤيتهما ، اما انا فقد راقبتها . لقد تقلب وجهها حين شاهدت الطاولة ، وصعدت زوايا فمها تلامس العينين ؛ اما هو فقد خنقه ذلك ، اذ اخذ يسعل والآن ، انظري اليهما ، تحت ؛ لم يبق لديهما ريق انهما يأكلان شفاههما

وتمتمت جرفيز

– من المؤسف ان يكون هناك اناس حسودون الى هذه الدرجة

والصحيح ان شكل آل لوريللو كان عجيباً من المؤكد انه لا يوجد احد يحب ان يُغلب ؛ وفي العائلات على الخصوص فان نجاح البعض يسبب غضب البعض الآخر ، وهذا طبيعي . الا انه يجب على المرء امتلاك نفسه ، أليس كذلك ؟ وعليه ان يتحاشى ذلك امام الناس ولكن آل لوريللو لا يستطيعون امتلاك انفسهم ، فقد كان ذلك اقوى منهم . وكانوا يتطلعون بحسد ، ومنقارهم بالعرض وكان الامر ظاهراً بوضوح بحيث كان المدعوون الآخرون يتطلعون اليهم ويسألونهم اذا كانوا متعكري المزاج . ابداً ، لن يلتهموا الطاولة بما عليها من لوازم مائدة تكفي اربعة عشر مدعواً ، وبغطائها الابيض ، وقطع الخبز المقطعة سلفاً . حتى ان المرء ليظن انه في مطعم في احد الشوارع . وقامت مدام لوريللو بدورة وخفضت انفها حتى لا ترى الزهور ، وجسّت الغطاء الكبير بمداجاة وأزعجتها

فكرة كونه جديداً

وصاحت جرفيز عند ظهورها ، متبسمة ، عارية الذراعين، وشعرها القصير الاشقر يتطاير على صدغيها

– ها نحن !

وحرك المدعوون ارجلهم بشدة حول الطاولة. كانوا كلهم جائعين، يتثاءبون تثاؤباً خفيفاً ، بهيئة متضجرة !

وقالت الغسالة :

– نستطيع ان نبدأ عند مجيء رب البيت

فقالت مدام لوريللو

– لقد بردت الشورباء ! وكوبو ينسى دائماً . ماكان يجب ان ندعه يهرب .

كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف وكل شيء يحترق الآن ، والاوزة سوف تشوى زيادة عن اللزوم . عندئذ قالت جرفيز ، وهي آسفة ، انها سترسل احداً الى الحي ليرى عند بائعي النبيذ اذا كان هناك من شاهد كوبو. ولما كان غوجيه قد قدّم نفسه للذهاب فقد ارادت ان تذهب معه ورافقتهما فرجيني وقد قلقت على زوجها . وسد الثلاثة الرصيف مكشوفي الشعر. والحداد الذي كان يرتدي معطفه امسك بذراع جرفيز الايسر وبذراع فرجيني الايمن، وشكلوا سلة ذات مسكتين كما كان يقول . وبدت لهم الكلمة غريبة بحيث وقفوا وقد التوت سيقانهم من الضحك . ونظروا الى وجوههم في مرآة بائع لحم الخنزير ، وازداد ضحكهم شدة . وبدت المرأتان لغوجيه الاسود كدجاجتين مبقعتين ، الخياطة بزينتها من الموسلين المبذور بباقات الورد ، والغسالة بثوب قطني رقيق ابيض بحبوب زرقاء ، والمعاصم عارية ، وربطة صغيرة من الحرير الرمادي معقودة في العنق وكان الناس يلتفتون ليروهم أثناء مرورهم، مرحين ناضرين ، بثياب الاحد في يوم من ايام الاسبوع ، دافعين الجمهور الذي يملأ شارع بواسونيير في امسية فاترة من حزيران ولكنهم لم يكونوا يقصدون اللهو،

وساروا رأساً الى ابواب بائعي الخمر ، يعدون الرؤوس ، ويبحثون أمام منضدة البائع . هل ذهب ذلك الحيوان كوبو يشرب الخمر في قوس النصر ؟ لقد طافوا اعلى الشارع كله متطلعين في الاماكن الصالحة في «سيفيت الصغيرة» المشهورة بالخوخ ، وعند الام باكيه التي تبيع نبيذ اورليان بثمانية فلوس ، وفي « الفراشة » ملتقى السادة الحوذيين ، النـاس الصعاب . ولم يكن كوبو موجوداً . وبينما كانوا يهبطون نحو الشارع صرخت جرفيز صرخة خفيفة اثناء مرورهـــا امام فرنسوا بائع الخمر في الزاوية .

وسأل غوجيه : ماذا اذن ؟

ولم تعد الغسالة تضحك . واصبحت كثيرة الشحوب، كثيرة التأثر بحيث اوشكت ان تقع. وفطنت فرجيني حالاً عندما رأت لانتيه عند فرنسوا جالساً على طاولة يتناول طعامه باطمئنان وأبعدت المرأتان الحدّاد

وقالت جرفيز حين استطاعت الكلام

– لقد قُتلتُ رجلي

واخيراً اكتشفوا كوبو وبواسون في اسفل الشارع، في حانة الاب كولومب. كانا واقفين بين حشد من الرجال . كوبو ببلوزة رمـادية وكان يصرخ ويـأتي بحركات هائجة ويضرب بقبضته على منضدة البائع ، وبواسون ، الذي لم يكن في عمله هذا النهار ، محصور في دراعة قديمة كستنائية اللون ، وكان يصغي اليه قاتم الوجه ، نافشاً عثنونه وشاربيه الحمراوين وترك غوجيه المرأتين على حافة الرصيف ، وجـاء يضع يده على كتف عامل الزنك . ولكن هذا حين شاهد جرفيز وفرجيني في الخارج غضب . من الذي سلط عليه اناثاً من هذا النوع ؟ ستوبخه التنورات الآن ! لا بأس ، لن يحرك سـاكناً . بامكانهن ان يـأكلن طعـامهن القذر وحدهن . واضطر غوجيه الى القبول بشرب شيء تهدئة له . وبلغ من شراسته انه اضاع ايضاً خمس دقائق امام منضدة البائع . وحين خرج اخيراً قال لزوجته

– هذا لا يناسبني . . اني ابقى حيث يستدعي عملي ان ابقى . اتسمعين ؟

فلم تجب كانت ترتجف ! وكانت مضطرة الى التحدث عن لانتيه مع فرجيني ، لانها دفعت زوجها وغوجيه طالبة منهما ان يسيرا في المقدمة . وسارت المرأتان بعد ذلك الى جانب عامل الزنك لإلهائه ومنعه من النظر انه لم يكد يسكر ، الا انه متخدر من الصياح اكثر من الشرب . وحين اظهرتا انهما تريدان السير على الرصيف دفعهما بقصد المناكدة وسار الى الرصيف الايمن . فركضتا خائفتين وحاولتا تغطية باب فرنسوا . ولكن كوبو عرف ان لانتيه هناك . وظلت جرفيز منذهلة وهي تسمعه يدمدم

– نعم ، اليس كذلك يا غزالتي ! يوجد هنا ثان نعرفه يجب ان تحسبيني غبياً كم امسكت بك وانت لا تزالين تتنزهين ، وعيناك ترق وانت تتطلعين جانباً !

وأفلت كلمات نابية انها لم تأت للبحث عنه رافعة مرفقيها ، ملوثة فمها بالطحين انه عشيقها القديم .ثم ، فجأة اجتاحه غضب مجنون ضد لانتيه . آه ! اللص . آه ! الوغد . يجب ان يبقى احدهما على الرصيف مجوفاً كالارنب الا ان لانتيه بدا انه لم يفهم . وكان يأكل ببطء لحم عجل مع البقلة .وبدأ الناس يتألبون حولهم . واخيراً قادت فرجيني كوبو الذي هدأ ثائره حين لف زاوية الشارع . لايهم اذا عادت الى الدكان اقل بشاشة مما خرجت

كان المدعوون ينتظرون حول الطاولة بهيئة حرد . وصافحهم عامل الزنك مترنحاً امام السيدات وكانت جرفيز ، وهي متكدرة ، تتكلم بصوت منخفض ، وتجلس كل واحد في مكانه . ولكنها لاحظت فجأة ان مدام غوجيه لم تأت . وان هناك مكاناً سيظل فارغاً ، وكان المكان بجانب مدام لوريللو

– نحن ثلاثة عشر

قالت ذلك بكثير من التأثر ، وقد رأت في ذلك دليلاً على المصيبة التي كانت تشعر بتهديدها منذ زمن .

والنساء الجالسات وقفن بهيئة قلقة وغاضبة . وعرضت مدام بوتوا ان

تنسحب لأنه يجب الا يستهان بذلك حسب رأيها . ومع ذلك فلن تلمس شيئاً ، ولن يفيدها الطعام أما بوش فكان يضحك فهو يفضل ان يكونوا ثلاثة عشر من ان يكونوا اربعة عشر ؛ لأن الحصص تكون اكبر ، وهـذا كل ما يحـدث

وقالت جرفيز

– انتظروا .. هذا سيسوّي .

وخرجت الى الرصيف ، ودعت الاب برو الذي كان يجتـاز الطريق . ودخل العامل الهرم ، منحنياً ، متصلباً ، صامت الوجه

وقالت الغسالة

– اجلس هنا يا صديقي . انت تريد أن تأكل معنا ، اليس كذلك ؟

فهز رأسه ببساطة . كان يريد بالتأكيد ، فالامر يناسبه

وتابعت وقد خفضت صوتها

– ها ! هذ افضل من غيره . انه في اغلب الاحيان لا يأكل حق الشبع . على الاقل سيشبع مرة واحدة ... ولن نشعر بتوبيخ الضمير اذا ملأنا بطوننا الآن .

وتبللت عينا غوجيه بالدموع فقد تأثر من ذلك . وشعر الآخرون بالشفقة واستحسنوا الامر ، مضيفين ان هذا سيجلب السعادة للجميع . الا ان مدام لوريللو لم تبد انها مسرورة لوجودها بقرب الهرم ؛ فابتعدت ، والقت نظرات متقززة على يديه القاسيتين ، وعلى بلوزته المرقعة الناصلة اللون. وظل الاب برو منخفض الرأس ، منزعجاً على الخصوص من المنشفة التي كانت تغطي الصحن امامه وانتهى بأن رفعها ووضعها بهدوء على طرف الطاولة ، دون ان يفكر بوضعها على ركبتيه .

واخيراً قدمت جـرفيز الثريد بطحين ايطاليا . واخـذ المدعوون ملاعقهم حين لاحظت فرجيني اختفاء كوبو من جديد . من الممكن انه عـاد الى دكان الاب كولومب . ولكن المدعوين غضبوا . لا يهم هـذه المرة . فلن يركضوا

وراءه . وبامكانه البقاء في الشارع اذا لم يكن جائعاً . وحين اخذت الملاعق تقرع اعماق الصحون ظهر كوبو من جديد حاملاً أصيصين ، كل واحد تحت ابط ، غرسة منثور وغرسة عصيفرة *Balsamine* وصفق الجميع وذهب بشيء من الظرافة يضع احد الاصيصين الى يمين كأس جرفيز والآخر الى يساره ، وانحنى وقبلها وقال :

– لقد نسيتك يا غزالتي. هذا لا يمنع من ان نحب بعضنا بعضاً في يوم كهذا.

وتمتمت كليمانس في اذن بوش :

– السيد كوبو ممتاز هذا المساء . وعنده كل ما يلزمه ، وما يكفي ليكون محبوباً

وتصرف رب البيت الممتاز جعل المرح يستتب في لحظة اضطراب . واطمأنت جرفيز فعادت تبتسم . وانهى المدعوون الثريدة، ثم دارت اقداح النبيذ . وسُمع الاولاد يتشاجرون . وكان هناك اتيين ، ونانا ، وبولين، والصغير فكتور فوكونيه وقد وضعوا للاربعة طاولة لوحدهم وطلبوا منهم ان يكونوا عاقلين . اما تلك الحولاء اوغسطين التي كانت تراقب المواقد ، فقد اضطرت ان تأكل على ركبتيها .

وصرخت نانا فجأة

– امي ، امي . لقد ألقت اوغسطين خبزها في المشواة .

وركضت الغسالة وفاجأت الحولاء تكاد تحرق حنجرتها لتلتهم بسرعة قطعة خبز مغمسة بدهن الاوزة الساخن فلطمتها ، لان تلك الشيطانة الصغيرة كانت تصرخ بأن ذلك ليس صحيحاً .

وبعد لحم الثور ، حين ظهرت « البلانكيت »[1] موضوعة في صحن للسلطة ، لان اهل البيت لم يكن عندهم صحفة اكبر من ذلك ، سرت ضحكة بين المدعوين . وقال بواسون الذي لا يتكلم الا نادراً

---

١ – من انواع المآكل .

ـ سيصبح الأمر جدّياً .

كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف . وقد اغلقوا باب الدكان لئلا يتجسس عليهم أهل الحي ؛ وفي الجهة المقابلة على الخصوص كان الساعاتي الصغير يفتح عينين كالفناجين تنتزعان اللقم من حلوقهم ، بنظرة نهمة تمنعهم من الاكل والستائر المغلقة امام الزجاج تترك مجالاً لسقوط نور ابيض ، متساوٍ ، دون ظل ، كانت الطاولة تسبح فيه مع لوازم المائدة التي لا تزال متناسقة عليها ، وكذلك أصص الزهور المغلفة بأطواق عالية من الورق ؛ وتلك الانارة الشاحبة ، ذلك الغسق البطيء كان يضفي على المدعوين هيئة مميزة. وقد وجدت فرجيني الكلمة الملائمة : فقد تطلعت في الغرفة المقفلة المغطاة بالموسلين ، وصرحت بأن هذا لطيف . وعند مرور عربة في الشارع كانت الكؤوس تقفز على السماط ، وتضطر النسوة الى الصراخ بصوت اكثر ارتفاعاً من صوت الرجال . ولكنهم كانوا يتحدثون قليلاً ، ويتصرفون تصرفاً لائقاً ويتبادلون عبارات المجاملة . وكوبو وحده كان يرتدي بلوزة لأن المرء يجب ان لا ينزعج اذا كان مع اصدقاء كما كان يقول وبعد فان البلوزة هي رداء الشرف للعامل .

والنساء المحزومات بمشداتهن كن ذوات عصائب مشبعة بالطيب ينعكس عليها الضوء ؛ بينما الرجال الجالسون اكثر بعداً عن الطاولة كانوا ينفخون الصدور ، ويباعدون المرافق خوفاً من تلويث معاطفهم .

آه ! يا للرعد ! يا له من ثقب في « البلانكيت » ! اذا لم يكونوا يتكلمون فذلك لانهم يمضغون بقوة . وتجوف اناء السلطة . وهناك ملعقة مغروزة في المرق الكثيف ، مرق طيب اصفر كان يهتز كالعصير المتجمد . وكانوا يصطادون تحته قطع لحم العجل ؛ حيث يوجد منه دائماً ، واناء السلطة ينتقل من يد الى يد ، والوجوه تنحني باحثة عن الفطر وقطع الخبز الكبيرة الموجودة مقابل الحائط وراء المدعوين بدأت تذوب . وكان صوت مقاعد الاقداح يُسمع بين اللقم وهي تتساقط على الطاولة . والمرق مالح قليلاً ، ويحتاج الامر الى اربع ليترات من النبيذ لاغراق تلك « البلانكيت » التي تؤكل كالزبدة

وتشعل حريقاً في بطنك ولم يتسع وقتهم للنفخ ، فلحم الخنزير الموضوع على جفنة جوفاء صفّت على جوانبها شرائح البطاطا المستديرة ، قد وصل وسط سحابة . وتعالت صرخة . وحق الاسم المقدس لقد وجدوها ! كان الجميع يحبون هذه الاكلة . وفتحت الشهية ، وتبع كل منهم الجفنة بنظرة جانبية ، ماسحاً سكينه بخبزه ليكون مستعداً . ثم لما نال كل منهم نصيبه ، تدافعوا بالمرافق ، وتكلموا ، والفم ملآن . ها ! يا له من سمن ! شيء عذب متين يشعر المرء به وهو يجري في طول أمعائه حتى حذائه . وكانت البطاطا سكراً . وهذه لم تكن مملحة .وبسبب هذه البطاطا كان الامر يتطلب جرعة كل دقيقة . وكسرت اعناق اربعة ليترات نبيذ جديدة ومسحت الصحون بشكل نظيف حتى انها لم تبدل عند اكل الحمص بشحم الخنزير . اوه ! والخضار لم يكن لها ذيول خطيرة . فقد كانوا يزدردونها بملاعق ملأى وهم يتسلون . واخيراً فالشراهة الحقيقية هي ملذة النساء وافضل شيء في الحمص ، هي شحيات الخنزير المحمصة ليتران يكفيان

وصاحت نانا فجأة

– ماما ! ماما ! لقد وضعت اوغسطين يديها في صحني .

فأجابت جرفيز وهي آخذة في اكل الحمص :

– لقد ازعجتني . اضربيها !

في الغرفة المجاورة ، على طاولة الاولاد ، كانت نانا تقوم مقام سيدة البيت . كانت جالسة الى جانب فكتور وقد وضعت اخاها اتيين بالقرب من بولين الصغيرة ؛ وهكذا كانوا يلعبون لعبة العائلة ، انهم كأزواج في فترة سرور . لقد قدمت نانا اولاً الطعام لمدعويها بكثير من اللطف ، بهيئة مبتسمة لشخص كبير ؛ ولكنها خضعت لحبها لشحم الخنزير فاحتفظت به كله لها وتلك الحولاء اوغسطين التي كانت تطوف مداجية حول الاولاد اغتنمت الفرصة لتأخذ ملء يديها من الشحم بحجة انها تعيد القسمة . وغضبت نانا وعضتها في معصمها . وتمتمت اوغسطين :

– آه ! انت تعلمين .. سأخبر امك بعد الوليمة انك طلبت من فكتور ان يقبلك

ولكن كل شيء دخل ضمن النظام وجاءت جرفيز والام كوبو لسحب الأوزة من السفود . وكانوا على الطاولة الكبيرة يتنفسون منقلبين على ظهور المقاعد الرجال يفكون ازرار صدراتهم ، والنساء يمسحن الوجوه بمناشفهن . وكأن الوليمة انقطعت ؛ باستثناء بعض المدعوين الذين كانت فكوكهم تتحرك ، مستمرين في التهام لقم كبيرة من الخبز ، دون ان يفطنوا الى ذلك وتركوا الطعام يتكدس ، وانتظروا . وهبط الليل ببطء ، وتكاثف وراء الستائر نهار قذر بلون الرماد . وحين وضعت اوغسطين قنديلين مضائين كل واحد على طرف من الطاولة ، ظهر تناثر المدعوين تحت النور القوي ، والصحون ، والشوكات ملأى بالشحم ، والسماط ملوث بالخمر ، مغطى بفتات الخبز . وكانت الرائحة القوية المتصاعدة تبعث على الاختناق . الا ان الانوف كانت تدور نحو المطبخ لدى هبوب بعض النفخات الحارة .

وصاحت فرجيني

– ايمكن ان نساعدكما ؟

وتركت كرسيها ، وانتقلت الى الغرفة المجاورة وتبعها النساء جميعهن واحدة واحدة . واحطن بالمشواة ، وتطلعن باهتمام عميق الى جرفيز والام كوبو اللتين كانتا تتحدثان عن الاوزة . ثم ارتفعت جلبة صادرة عن اصوات الاولاد الحادة ووثباتهم الفرحة وجرى دخول احتفالي : جرفيز تحمل الاوزة ، متصلبة الذراعين ، راشحة الوجه بالعرق ، متألقة بضحكة كبيرة صامتة ؛ والنساء يمشين وراءها ويضحكن مثلها ؛ بينما نانا وراء الجميع ، مفتوحة العينين بشكل غير قياسي ، تقف على رؤوس اصابعها لترى وحين اصبحت الاوزة على الطاولة ، ضخمة ، مذهبة ، سابحة بالعصير ، لم يهاجموها حالاً فقد كانت دهشة ، مفاجأة محترمة قطعت اصوات المدعوين وكان يشار اليها برفات العيون وهز الذقون . يا لها من سيدة ! اي افخاذ واي بطن .

وقال بوش :

– انها لم تسمّن على لحس الجدران !

وعندئذ دخلوا في التفاصيل حول الاوزة . واوضحت جرفيز الوقـائع الاوزة هي اجمل قطعة استطاعت ان تجدها عند بائع الطيور في ضاحيـــة بواسونيير ؛ لقد وزنت اثنتي عشرة ليبرة ونصف في ميران الفحام ؛ واحرقوا بواسو [1] من الفحم لشوائها ، وجمعت منهـــا ثلاث كاسات من الشحم وقاطعتها فرجيني لتتبجح بانها رأت الاوزة وهي غير ناضجة تكاد تؤكل كما هي ، حسب قولها ، ما دام الجلد ناعماً وأبيض ، جلد شقراء . وكان الرجـال كلهم يضحكون صائحين بشكل ماجن يجعـل شفاههم تنتفخ . الا ان لوريللو وزوجته كانا يعضان على شفاههما مغتاظين لوجود اوزة كهـذه على مائدة العرجاء .

وانتهت الغسالة الى القول

– حسناً ، لنر . لن تؤكل بكاملها . من يقطــع ؟.. كلا ، كلا ، لست انا ! انها كبيرة جداً ، انها تخيفني .

وقدم كوبو نفسه . يا الهي ! الامر بسيط جداً تُمسك الاعضــــاء ، وتسحب ؛ وتبقى القطع بحالة جيدة . وصاحوا متعجبين ؛ واستعيدت سكين المطبخ من عامل الزنك لانه صنع مقبرة حقيقية في الجفنة حين اخذ يقطــع . وجرى البحث طوال لحظة عن رجل ذي ارادة حسنة . واخيراً قالت مدام ليرا بصوت محبب

– اسمعوا . انه السيد بواسون ... بالتأكيد ، الى السيد بواسون .

وحين ابدى المدعوون انهم لم يفهموا ، اضافت متملقة

– بالتأكيد . فالمسيو بواسون هو المعتاد على السلاح .

وقدمت للشرطي سكين المطبخ التي كانت تمسكها بيدها . وضحك الجميع

---

١ – بواسو *Boisseau* مكيال قديم للمواد الجافة يسع ١٣ ليتراً تقريباً.

ضحكة سرور واستحسان

وحنى بواسون رأسه بتشديد عسكري ووضع الأوزة امامه وابتعدت جارتاه جرفيز ومدام بوش لتفسحا المجال لمرفقيه واخـــذ يقطع ببطء ، وكبرت حركاته ، وعيناه محدقتان بالاوزة كأنه يريد ان يسمّرهـا في ارض الصحن . وحين غرز السكين في هيكلها شعر لوريللو باندفاع وطني وصاح :

– لو كان احد القوزاق !

فسألت مدام بوش

– هل حاربت القوزاق يا سيد بواسون ؟

فأجاب الشرطي الذي فصل جناحاً

– كلا ، بل البدو . لم يكن هناك قوزاق .

وساد صمت . وامتدت الرؤوس ، وتبعت النظرات السكين . كان بواسون يخبىء مفاجأة . وفجأة ضرب الضربـــة الاخيرة فانفصل مؤخر الاوزة وبقي واقفاً وكفلها في الهواء : انها قلنسوة الاسقف . وعندئذ تفجر الاعجـــاب . المحاربون القدماء هم وحدهم المحبوبون في المجتمع. الا ان مؤخرة الاوزة المفتوحة خرج منها دفقة من المرق ؛ وقال بوش مازحاً

– انا ، اني اقدم نفسي ليبال هكذا في فمي

وصاحت النسوة :

– اوه ! القذر ! يجب ان تكون قذراً .

وقالت مدام بوش وهي اكثر غضباً من الاخريات

– كلا ، اني لا اعرف رجلا مقرفاً اكثر منه . اسكت ، اتسمع ! انك تقزز جيشاً اتدري ان هذا لطعامك ؟

في تلك اللحظة كررت كليمانس ، وسط الضجة ، بالحاح :

– يا سيد بواسون ستترك لي المؤخرة ، اليس كذلك ؟

فقالت مدام ليرا بهيئتها البطرة الرصينة

– المؤخرة تعود اليك بموجب الحق يا عزيزتي .

وقطعت الاوزة . وبعد ان جعل الشرطي المدعوين يعجبون بقلنسوة الاسقف لبضع دقائق ، قطع القطع وصفّها حول الصحن . بامكان الجميع ان يتناولوا . ولكن النسـاء اللواتي فككن عرى اثوابهن كن يشكين الحر. وصاح كوبو انه في بيته وانه سيدهش الجيران . وفتح الباب المطل على الشارع على مصراعيه ، واستمرت الحفلة وسط سير العربات وتدافع المارة على الارصفة. وحين استراحت الفكوك واحدثت فجوة جديدة في المعـدة ، عادوا الى الطعـام ، وانقضوا على الاوزة بهيـاج . وكان ذلك الماجن بوش يقول انـه ما من شيء سوى الانتظار والنظر الى تقطيع الاوزة يجعـل « البلانكيت » تنحدر حتى ساقه .

مثلاً ، كان هناك اكل نهم . يعني ان ما من شخص بين المدعوين تذكر انه اثقل ضميره بعسر هضم كهـذا . وكانت جرفيز ضخمة متكئة على مرفقيهـا ، تأكل قطعاً كبـيرة من السفائن ، ولا تتكلم خوفاً من إضاعة لقمة ؛ الا انهـا خجلة قليلاً امام غوجيه ، قلقة من ان تبدو شرهة كهرة وغوجيه نفسه اكل كثيراً ايضاً لرؤيتها وردية اللون من الطعام . الا انها ظلت، مع بطنتها، كثيرة اللطف وكثيرة الطيبة ! لم تكن تتكلم ، ولكنها كانت تترك الاكل كل لحظة لتعتني بالأب برو وتضع له شيئـاً طريئاً في صحنه . وكان ممـا يدعو الى التأثر رؤية تلك النهمة وهي تنقل قطعة جناح من فمهـا لتعطيها للهرم الذي بدا انـه غير خبير ، ويلتهم كل شيء ، وهو منخفض الرأس ، وكأنه اصيب بالبـلاهة من الافراط في الاكل ، وهو الذي فقـدت حوصلته تذوق الخبز . امـا آل لوريللو فقد صبوا جام غضبهم على اللحم المشوي اذ اكلوا منه ما يكفي لثلاثة ايام . وكانوا يتمنون ابتلاع الصحن ، والطاولة، والدكان لكي يفلسوا المرجاء دفعة واحـدة وكانت النسوة كلهن يردن اكل الهيكل العظمي ، لانه اكـلة السيدات . وكانت مدام لـيرا ومدام بوش ومدام بوتوا يعرقن العظـام ، بينما الام كوبو التي تعبد العنق كانت تنتزع منه اللحم بسنيها الاخيرتين . وفرجيني تحب الجلد حين يكون مشوياً جيداً ، فكان كل مدعو يقـدم لها ما اصابه من

جلد بدافع الملاطفـة ؛ الا ان بواسون كان يلقي على زوجته نظرات صارمة ، ويأمرها بالتوقف لأنها اكلت ما فيــه الكفاية : ففي السابق ظلت خمسة عشر يوماً في الفراش ، منتفخة البطن لانها اكثرت من اكل اوزة مشوية ولكن كوبو غضب وقدم لفرجيني فخذاً ، صائحاً انها لن تكون امرأة اذا لم تأكله. هل سببت الاوزة ضرراً لأحد ؟ بالعكس ، فالاوزة تشفي امراض الطحال . وتؤكل دون خـبز كالجبنة والمربيـات وبامكانه هو ان يأكل من ذلك طوال الليـل دون ان يشعر بالضيق وليؤكد ذلك ادخل فخذاً بكامله في فمـه . وكانت كليمانس قد انهت اكل المؤخرة ، واخذت تمتصها متلمظة ضاحكة على مقعدها بسبب بوش الذي كان يقول لها كلاماً بذيئاً بصوت منخفض . وحين يكون المرء موجوداً فليثبت وجوده ، أليس كذلك ؟.. وحين لا يحصل الا على وليمة هنـا وهناك فيكون بالغ الحمق اذا لم يغطس فيهـــا حتى الاذنين . وصحيح ان البطنين ينتفخون بقـدر فالنساء كن منتفخـات . يتشققن في جلودهن . يا لهن من شرهات ! الفم مفتوح، والذقن ملوثة بالشحم ووجوهن شبيهة بالمؤخرات ، وهي كثيرة الاحمرار كأنها مؤخرات الناس اغنياء غارقـين في البحبوحة .

والنبيذ يا اولادي ، كان يجري حول الطاولة كما يجري المـــاء في السين . ساقية حقيقية حين تمطر وحين تكون الارض عطشى كان كوبو يسكب من على لكي يرى النوفرة الحمراء وهي تزبد ؛ وحين يفرغ ليتراً كان يقلب عنق الزجاجة ويضغط عليه بحركة تألفها النساء اللواتي يحلبن البقر انها زنجية اخرى دق عنقها ! كانت كومة الزنجيات الميتة تكبر في زاوية الدكان ، مقبرة من الزجاجات تلقى عليها بقايا السماط . وطلبت مدام بوتوا ماء فجاء عامل الزنك الحانق ورفع بنفسه زجاجات الماء . وهل يشرب افاضل الناس الماء؟ اذن فهي تريد ان يكون في معدتها ضفادع ؟ وافرغت الكؤوس دفعة واحدة . وكان يسمع صوت المـاء الملقى دفعـة واحـــدة في الحلق كضجة مـاء المطر في طول انابيب الهبوط ايام الزوبعـــة . انهـا تمطر نبيذاً مـاذا ؟ نبيذاً

له اولاً طعم البراميل القديمة ، ولكنك تعتاد عليه بسرعة الى درجة انك تشعر معه بطعم البندق . آه ! يا رب الارباب! لقد احسن اليسوعيون القول بأن الخمر ابتكار عظيم !

وضحك الجميع ، واستحسنوا ؛ لان العامل لا يستطيع العيش دون نبيذ والاب نوح يجب ان يكون قد غرس كرماً لعمال الزنك والخياطين والحدادين . ان النبيذ ينظف ويريح من الشغل، ويشعل النار في بطون الكسالي ؛ ثم ، حين يقوم ممثل الاضاحيك بتمثيل بعض الالاعيب ، إيه ! فالملك لم يكن عماً لك ، وباريس ملككك . وبهذا ، فان العامل ، المنهوك ، بدون اي فلس ، المحتقر من البورجوازيين ، يكون عنده الكثير من مواضيع السرور ، ثم يلام لقيامه بعمل يريه الحياة وردية اللون بين وقت وآخر ها ! في تلك الساعة ، الا يهزأ بالامبراطور ؟ ومن الممكن ان يكون الامبراطور سميناً ايضاً ولكن هذا لا يمنع ، بل يُهزأ منه ، ويُحذر منه لانه اكثر سمناً وفي سبيل زيادة السرور . تباً للارستوقراطيين ! كان كوبو يزن الناس . ويجد النساء كالبوم ، ويضرب على جيبه ليصطدم فيها ثلاثة فلوس ، ضاحكاً كأنه حرك قطع المئة فلس بالمجرفة

وغوجيه نفسه سكر مع انه قنوع عادة . وصفرت عينا بوش واصبحت عينا لوريللو شاحبتين ، بينما كان بواسون يجيل نظرات تزداد صرامة في وجهه البرونزي ، وجه الجندي القديم . لقد سكروا كالقردان . وسكرت النسوة ايضاً . اوه ! قطعة من لحم الفخذ لا تزال خفيفة ، والنبيذ الصافي في الخدود مع الحاجة الى التعري جعلتهن يلقين مناديلهن . ولكن كليمانس وحدها بدأت ان تكون غير مناسبة . ولكن جرفيز تذكرت فجأة زجاجاتها الست من النبيذ المختوم، وقد نسيت ان تقدمها مع الاوزة ؛ فأتت بها ، وملئت الكؤوس وعندئذ نهض بواسون وكأسه بيده وقال

– اني اشرب نخب ربة البيت

ووقف الجميع مع ضجة الكراسي المتحركة ، وامتدت الاذرع، واصطدمت

الكؤوس وسط الضوضاء . وصاحت فرجيني

– الى‌مدى خمسين سنة .

فأجابت جرفيز متأثرة ومبتسمة

– كلا ، كلا ، عندئذ اصبح عجوزاً كبيرة . هيا يأتي يوم يفرح المرء فيه بالرحيل .

الا ان الحي كله كان يتطلع من الباب المفتوح على مصراعيه وكأنه في الحفلة. وهناك مـارة كانوا يتوقفون في الضوء المشع على البلاط، ويضحكون مسرورين لرؤيتهم اناساً يـأكلون بطيبة قلب والحوذيون المنحنون على مقاعدهم كانوا يسوطون خيولهم ويلقون نظرة ، يلقون مزحة « قل اذن . الم تدفع شيئاً ؟ اوهيه ! ايتها الام الكبيرة انا ذاهب لآتي بالقابلة » . وكانت رائحة الاوزة تسر الشارع وتفرحه : وغلمان البقال على الرصيف المقابـل كانوا يتخيلون انهم يأكلون الاوزة ، وبائعة الفواكه ، وبائعة الفوارغ (الامعاء) ، كانتا تأتيان في كل لحظة وتقفان امام دكانيهما لتتشمما الهواء لاحستين شفاههما . ومن المؤكـد ان الشارع قد تشقق مـن عسر الهضم والسيدتان كودرج ، الام والابنة ، بائعتا المظلات بجانب الدكان ، واللتان لم يكن يشاهدهما احد ، قـد اجتازتا الطريق الواحدة وراء الاخرى ، وقد رقت عيونهما وهما تتطلعان ، واصبحتا حمراوين كأنهما في حالة حداد . والجوهري الصغير ، الجالس الى منضدته ، لم يعد يستطيع العمل ، وقد سكر لانه عـد" ليترات النبيذ ، وازداد هياجـه بين ساعات الكوكو الفرحة . نعم ، كان الجيران يدخنون ، هكذا صاح كوبو لماذا الاختباء ؟ والمجتمعون ، وقـد ساروا شوطاً بعيداً ، لم يعودوا يخجلون من ظهورهم على المائدة ، بالعكس ، فرؤية الناس المجتمعين الفاغري الفم مـن الشراهـة تبعث فيهم الاعتزاز وتلهبهم ، وكانوا يـودون لو يخترقون الواجـهة ويدفعون المائدة حتى الطريق ، ويأكلون هناك المربيات والفواكه تحت انف الناس وفي اهتزاز الشارع ومنظرهم لا يبعث على القرف ، أليس كذلك ؟ لكن فهم ليسوا بحاجة للاغلاق على انفسهم كالاثانيين. ورأى كوبو ان الساعاتي الصغير

يـدفع هناك قطعاً من فئة العشرة قـروش فأراه الزجـاجة من بعيد ؛ واشار الآخر برأسه علامة القبول فحمل اليه الزجـاجة وقـدحاً . وتوطدت اخوة في الشارع ، وقرعت الكؤوس مع المـارة ودعي الرفـاق ذو الهيئة الحسنة. وامتدت الوليمة من جهة الى جهة ،بحيث اشتم رائحتها حي القطرة الذهبية كله وامسك ببطنه في صخب جميع الشياطين .

ومنذ لحظة كانت مدام فيغوريه بائعة الفحم تروح وتجيء امام الباب فصاح الجميع :

– ايه ! مدام فيغوريه ! مدام فيغوريه !

فدخلت بضحكة حمقاء، وقد غسلت وجهها ، وهي سمينة الى درجة تشقق صدرتها. وكان الرجال يحبون ان يقرصوها لانهم يفعلون ذلك في كل مكان في جسدها دون ان يلتقوا بعظم وأجلسها بوش بقربه وامسك حالاً ركبتها تحت الطاولة . ولكنها ، وهي المعتادة على ذلك ، افرغت باطمئنان كأساً من النبيذ ، قائلة ان الجيران اصبحوا كلهم في النوافذ ، وان اناساً في البيت بدأوا يغضبون .

وقالت مدام بوش :

– اوه ! هذا يعود الينا . فنحن القيمون على البيت ، اليس كذلك ؟.. اذن نحن مسؤولون عن الراحة .. ليأتوا ويشتكوا وسنستقبلهم بلطف.

وفي الغرفة الداخلية حصلت معركة حـامية بين نانا واوغسطين بصدد المشواة حيث كانت كل منها تريـد مسحها وطوال ربـع ساعة كانت المشواة تقفز على البلاط محدثة جلبة طنجرة قديمة . والآن ، فان نانا تعتني بفكتور الصغير الذي علق عظم اوزة في حلقومه ، فأدخلت اصابعها تحت ذقنه لتضطره الى ابتلاع قطع كبيرة من السكر كتطبيب . وهذا لم يمنعها من مراقبة الطاولة الكبيرة . فقد كانت تأتي كل لحظة وتطلب نبيذاً وخبزاً ولحماً لإتيين وبولين . وكانت امها تقول لها

– خذي. انشقي . ايمكن ان تتركيني بسلام !..

لم يكن الاولاد يستطيعون الابتلاع ولكنهم على كل حال كانوا يـــأكلون ضاربين بشوكاتهم لحناً من المزامير ليحثوا بعضهم بعضاً .
وانعقد حديث ، وسط الضجة ، بين الاب برو والام كوبو . فالهرم الذي جعله الطعام والنبيذ شديد الشحوب كان يتحدث عن اولاده الذين قتلوا في شبه جزيرة القرم آه .. لو كان الصغار عائشين لكان عنده خبز في جميع الايام .
ولكن الام كوبو ، وقد ثقل لسانها قليلاً ، انحنت وقالت له
– الاولاد يعذبون.هذا انا . انني ابدو سعيدة هنا ، اليس كذلك ؟ ايه ! لقد بكيت اكثر من مرة كلا ، لا تتمنى ان يكون لك اولاد
وهز الاب برو رأسه وتمتم
– لم يقبلني احد ان اشتغل فقد تقدمت كثيراً في السن . وحين ادخل الى مشغل يسخر الفتيان ويسألون اذا كنت انا الذي دهن جزمة هنري الرابع.. وفي السنة الماضية كنت لا ازال اربح ثلاثين فلساً باليوم في دهان جسر ؛ لقد اضطررت ان اظل مستلقيـــاً على ظهري ، مع النهر الذي يجري تحت . وبدأت اسعل منذ ذلـــك الوقت.. واليوم انتهى كل شيء ، فقد طردت من كل مكان .
ونظر الى يديه المعروقتين واضاف
– هذا مفهوم لأنني لا اصلح لشيء . انهم على حق، وسوف أفعل مثلهم ... اترين ، فالمصيبة هي في انني لم امت . نعم ، انها غلطتي . يجب على المرء ان ينام ويموت حين يعجز عن العمل
فقال لوريللو الذي كان يستمع :
– بالتأكيد . انا لاافهم لماذا لاتنجد الحكومة العاجزين عن العمل.. لـــقد قرأت هذا منذ مدة في صحيفة
ولكن بواسون ظن ان من واجبه الدفاع عن الحكومة فقال :
–ليس العمال جنوداً،والملاجىء للجنود .. ولا يجب طلب شيء مستحيل :
وقدمت المربيات والفواكه . كان في الوسط حلوى السافوى بشكل معبد

مع قبة الى جانب البطيخ الاصفر ؛ وغرست على القبة وردة اصطناعية تتأرجح بقربهـا فراشة من الورق الفضي معلقة بطرف شريط حديدي وقطرتان من الصمغ في قالب الزهرة تقليداً لقطرتين من الندى ثم ، الى اليسار ، قطعة جبن ابيض تسبح في صحفة جوفاء ، وفي صحفة اخرى ، الى اليمين ، تتكوم حبـات كرز مسحوقة يسيل منهـــا العصير الا انه قد بقي الخس ، أوراق عريضة مغمسة بالزيت

وقالت جرفيز ملاطفة

– بعض السلطة يامدام بوش . انت تحبينها ، وانا اعرف ذلك .

فأجابت زوجة البواب

– كلا كلا . شكراً .. لقد اكتفيت

والتفتت الغسالة لناحية فرجيني . وكانت هذه تدخل اصبعها في فمها كأنها تريد ان تلمس الطعام ، وتمتمت

– صحيح ، لقد امتلأت ، ولم يعد هناك مكان . لم تعد تدخل اية لقمة

فقالت جرفيز وهي تبتسم :

– اوه ! لو أجبرت قليلاً . دائماً تبقى فجوة صغيرة . والسلطة تؤكل دون جوع .. لن تدعي نفسك تخسرين الخس .

فقالت مدام ليرا

– ستأكلينها محفوظة غداً من الافضل اكلها محفوظة .

وكانت النسوة يتنفسن بصعوبة ، متطلعات الى صحن السلطة بـأسف وروت كليمانس انها ابتلعت ذات يوم ثلاث حزمات من الجرجير على فطورها وكانت مدام بوتوا اشد قوة فأخذت بعض الخس دون ان تنظفه وصارت تقضمه بعد ان ترشه بالملح وساعد الحديث السيدات على الاجهاز على الخس

وقالت زوجة البواب وفمها ملآن

– انا ، سوف ادب على اربع في احد المروج .

وضحكن امام المربيات والفواكه . وهذه لم يحسبوا حسابها فقـــد اتت

متأخرة قليلاً، ولكن ذلك لا يؤثر شيئاً. وسيقدمون على مداعبتها . لن ينكد عليهم الفريز والحلويات ولو اضطروا الى الانفجار كالقنابل ومع ذلك فليس هناك ما يدعو للعجلة ، ولديهم الوقت الكافي ، الليل بكامله اذا ارادوا .وبانتظار ذلك ملئت الصحون بالكرز والجبن الابيض ، واشعل الرجال الغلايين ، وبما ان الزجاجات المختومة اصبحت فارغة فقد عادوا الى الليترات ، وشربوا النبيذ وهم يدخنون . ولكنهم كانوا يريدون ان تقطع جرفيز حلوى السافوى حالاً ونهض بواسون بكثير من الظرف ليأخذ الوردة ، وقد قدمها الى ربة البيت مع تصفيق الجميع . واضطرت الى تعليقها بدبوس على الناحية اليسرى من صدرها ، لجهة القلب . وكانت الفراشة تطير لدى كل حركة من حركاتها

وهتف لوريللو الذي اكتشف اكتشافاً

– قولي اذن . اننا نأكل على منضدة عملك ! من الممكن انه لم يجر شغل كثير فوقها .

ونالت هذه المزحة الخبيثة نجاحاً كبيراً، وبدأت النكات تنهال: لم تكن كليمانس تأكل ملعقة الفريز دون ان تقول انهــــا تكوي ؛ وزعمت مدام ليرا ان الجبن الابيض يشتمّ منه رائحة النشا ؛ بينما مدام لوريللو كانت تردد بينها وبين نفسها ان النهم في التهام النقود بسرعة على المنضدة التي بذل عليها كثير من الجهد لربحها يدل على ان هذه النقود قد وجدت بدون تعب وتصـــاعدت عـاصفة من الضحك والصراخ

ولكن صوتاً قوياً فرض الصمت فجأة على الجميع . انه بوش ، فقد وقف بهيئة فاجر من الرعاع واخذ يغني اغنية « بركان الحب اوالجندي الفاتن » .

هذا انا ، بلافان ، الذي يغوي الحسان

واستقبل المقطع الاول رعد من الاستحسان . نعم ، نعم سيغنون ! سوف يقول كل منهم اغنية . وفي هـذا تسلية اكثر من اي شيء واسند الجميع مرافقهم على الطاولة ، وانقلبوا على مساند الكراسي هـازّين الذقون عند العبارات المناسبة ، شاربين جرعة عند اللازمات . ان لهذا الحيوان بوش اختصاص

الأغاني الـهزلية   فهـو يُضحك حتى زجـاجـات الماء حين يقلد جندي المشاة ، مباعداً ما بين اصابعه ، وقبعته الى الوراء . وبعد « بركان الحب » غنى اغنية « البـــارونة فوليبيش » وهي احدى نجاحاته . وحين وصل الى المقطع الثالث التفت نحو كليمانس ، وتمتم بصوت بطيء وشهواني

كان اناس عند البارونة

ولكنهن اخواتها الاربع

ثلاث سمراوات ، والاخرى شقراء

لهن ثمان عيون سلابة .

وافتتن الجميع ورددوا اللازمة   وكان الرجال يسجلون الايقاع بضربات اعقابهم والسيدات اخذن سكاكينهن وضربن بايقاع على اقداحهن.

وصاح الجميع

سابريستي ا مـــن سيدفع

ثمن الخمرة للدو ... للدو ...

سابريستي ا مـــن سيدفع

ثمن الخمرة للدو ... للدوري ... للدورية

ورن زجاج الدكان ، واطارت نفخات المغنيين ستائر الموسلين . الا ان فرجيني كانت قد اختفت مرتين ، وكانت عند عودتها تنحني على اذن جرفيز لتقدم اليها معلومات بصوت منخفض .وحين عادت وسط الجلبة في المرة الثانية قالت لها.

– انه لا يزال عند فرنسوا يا عزيزتي .. انه يتظاهر بقراءة الجريدة بالتأكيد ، هناك مصيبة

كانت تتكلم عن لانتيه . وقد ذهبت تترقبه. وكانت جرفيز تزداد اضطراباً لدى كل تقرير جديد . وسألت فرجيني

– هل هو ثمل ؟

فأجابت السمراءالكبيرة

– كلا . انه هادىء . وهذا ما يقلقني . ها ! لماذا بقي عند بائع الخمر ما دام هادئاً ؟ ياالهي ! ارجو الا يحدث شيء .

ورجتها الغسالة ان تصمت وقد ازداد قلقها . وساد فجأة صمت عميق . فقد نهضت مدام بوتوا وغنت : « الى مهاجمة السفينة » وكان المدعوون ينظرون اليها صامتين منتبهين ؛ حتى بواسون نفسه فقد وضع غليونه على حافة الطاولة ليسمع بصورة افضل . وقد وقفت ، متصلبة ، صغيرة ، هائجة ، والوجه شديد الشحوب تحت قلنسوتها السوداء ؛ كانت تقذف قبضتها اليسرى الى الامام بكبرياء مقتنعة ، مزمجرة بصوت اضخم منها :

ليقم قرصان جريء
ويأتي لنا بالريح من الوراء !
والويل للص البحر !
فليس له اي معسكر !
الى المدافع يا اولاد !
فالاقداح ملأى بالروم !
والقراصنة ولصوص البحر
هم فرائس القلوس !

كانت الاغنية جديدية . ولكنها تعطي فكرة حقيقية عن الامر وبواسون الذي سافر في البحر كان يهز رأسه استحساناً للتفاصيل . وكان يحس ان هذه الاغنية في صلب عاطفة مدام بوتوا .

والحنى كوبو ليروي كيف ان مدام بوتوا صفعت ذات مساء اربعة رجال ارادوا تلويث شرفها

وقدمت جرفيز القهوة ، وساعدتها الام كوبو ، مع انهم لا يزالون يأكلون حلوى السافوى . ولم يدعوها تجلس ، بل صاحوا ان دورها قد جاء . فدافعت عن نفسها ، وقد ابيض وجهها ، وبدت غير مرتاحة ؛ حتى انهم سألوها اذا لم تكن الاوزة قد ضايقتها . وعندئذ غنت اغنية « آه ! دعني انام ! » بصوت

ضعيف عذب ؛ وحين وصلت الى اللازمة ، الى ذلك التمني بنوم تعمره الاحلام الجميلة ، اطبقت جفونها قليلاً ، ونظرها الفارق ضاع في السواد ، في جانب الشارع . وبعد ذلك حيا بواسون السيدات باشارة عاجلة من رأسه وغنى اغنية للشرب ، « خمور فرنسا » ؛ ولكنه كان يغني كالمضخة ؛ والمقطع الاخير وحده ، المقطع الوطني ، نال نجاحاً لانه ، وهو يتكلم عن العلم المثلث الالوان ، رفع قدحة عالياً ، وارجحه ، وافرغه في اعماق فمه المفتوح على مصراعيه . ثم تبع ذلك اغاني رومانس ؛ وكان الامر يتعلق بالبندقية ونوتية الغندول في اغنية مدام بوش عن هؤلاء ، وبأشبيلية والاندلس في بوليرو مدام لوريللو ، بينما ذهب لوريللو حتى الكلام عن عطور بلاد العرب ، بصدد غراميات فاطمة الراقصة . وحول الطاولة الشحيمة ، في الهواء المتكاثف الناتج عن تنفس عسر الهضم ، فتحت آفاق ذهبية ، ومرت اعناق عاجية ، وشعر ابنوسي ، وقبلات في ضوء القمر على انغام القيثارات ، وراقصات هنديات يبذرن تحت اقدامهن لآلىء وحجارة كريمة ؛ وكان الرجال يدخنون غلايينهم بكثير من التعبد ، واحتفظت السيدات بابتسامة لاشعورية من المتعة ، وظن الجميع انهم هناك يتنشقون روائح طيبة . وحين بدأت كليمانس تهدل بأغنية « اصنعوا عشاً » بشيء من الاهتزاز في الحنجرة ، سببت كثيراً من السرور ، فقد كانت الاغنية تذكر بالحقول ، والعصافير الخفيفة ، والرقصات تحت الاوراق ، والازهار ذات الكؤوس العسلية ، واخيراً بما يُرى في غاب فانسين ، وبالايام التي كانوا يذهبون فيها ليأكلوا ارنباً . ولكن فرجيني جددت المجون باغنية « صغيري ريكيكي » ، وقلدت بائعة المؤونة للجند ، ويدها مطوية على خصرها ، والمرفق مستدير ، وكانت تسكب الشراب باليد الاخرى ، في الفراغ ، مديرة معصمها . ورجا الجميع الام كوبو ان تغني اغنية « الفأرة » . فرفضت العجوز مقسمة انها لا تعرف هذه القذارة . ومع ذلك فقد بدأت اغنيتها بصوت مكسر ؛ وكان وجهها المتغضن ذو العينين الصغيرتين الحيتين يشير الى الكنايات ورعب الآنسة ليز وهي تشد تنورتها حين رأت الفأرة . وكان الجميع يضحكون؛

ولم تستطع السيدات الاحتفاظ بوقارهن ، فألقين على جيرانهن نظرات متوهجة. وبعد فلم يكن هذا دنساً وليس هناك كلمة نابية . ولقول الحق فـان بوش كان يفعل كالفأرة على طول ساق بائعة الفحم وكان من الممكن ان يتحول الامر الى السوء لو لم يفرض غوجيه الصمت والاحترام بناء على اشارة من جرفيز، باغنية « وداع عبد القادر » التي غناها بصوته الضخم انه يملك صوتاً متيناً ! فهو يخرج من لحيته الجميلة الصفراء المبعثرة كما يخرج من بوق نحاسي . وحين صرخ : « اوه ، يارفيقتي النبيلة ! » متكلماً عن فرس المحارب السوداء ، خفقت القلوب ، وصفقوا له دون ان ينتظروا النهاية ، ما دام يصرخ بقوة.

وقالت الام كوبو

– جـاء دورك أيهـا الاب برو . غن اغنيتك . فالاغـاني القديمة هي الاجمل ! هيا !

والتفت الجميـع نحو الهرم ، ملحّين ، مشجعين . وهو متخدر تحت قنـاعه الساكن من الجلد المدبوغ . وقد نظر الى الناس دون ان يبدو انه يفهم . وسئل اذا كان يعرف « الحروف الصوتية الخمسة » .

فخفض ذقنه، ولم يكن يتذكر شيئاً، فقد اختلطت كل اغاني الايام السعيدة في رأسـه الضخم . وحين عزموا على تركـه بدا انـه تذكر . وتلجلج بصوت سردابي :

تورلالا ، تورلالالا !

تورلا ، تورلا ، تورلالا !..

ودبت الحياة في وجهه ، وايقظت فيه هذه اللازمة مسرات بعيدة ، كان يتذوقها وحده، سامعاً صوته الذي ازداد خفوتاً بنشوة طفل .

تورلالا ، تورلالا

تورلا ، تورلا ، تورلالا ! ..

وجاءت فرجيني تتمتم في اذن جرفيز :

– انت تعلمين ياعزيزتي انني وصلت الآن . وقـد ازعجني الامر .. لقـد

ذهب لأنتيه من عند فرنسوا.

وسألت الغسالة

ـ الم تلتقي به في الخارج ؟

ـ كلا ، فقد اسرعت في السير ، ولم تساورني فكرة التطلع

ولكن فرجيني التي رفعت عينيها ، قاطعت نفسها وتأوهت آهة مخنوقة .

ـ آه ! ياالهي ! انه هناك على الرصيف المقابل يتطلع الى هنا

واضطربت جرفيز ، وجازفت بنظرة . لقد تجمهر اناس في الشارع ليسمعوا المدعوين وهم يغنون ، وكان غلمان البقال ، وبائعة الامعاء ، والساعاتي الصغير ، يشكلون فرقة كأنهم في المسرح . وكان هناك جنود ، وبورجوازيون يرتدون المعاطف ، وثلاث فتيات صغيرات في سن الخامسة او السادسة متماسكات بالايدي رزينات ،مندهشات. ولانتيه كان بالفعل واقفاً هناك في الصف الاول ، مستمعاً ومتطلعاً بهيئة هادئة . انها لجرأة . وشعرت جرفيز بالبرد يصعد من ساقيها الى قلبها ، ولم تجرؤ على الحركة ، بينما كان الاب برو مستمراً:

تروللا ، ترولالا .

ترولا ، ترولا ، ترولالا

وقال كوبو

ـ آه ! كلا ياصديقي ، يكفي اتعرفها كلها ؟ ستغنيها لنا ذات يوم ، ها ! حين نكون اكثر ابتهاجاً .

وكان ضحك .ونسي الهرم ما اراد ان يقوله ، واجال عينيه الشاحبتين حول الطاولة واستعاد هيئته الحالمة . وشربت القهوة . وطلب عامل الزنك نبيذاً من جديد . وعادت كليمانس الى اكل الفريز . وانقطعت الاغاني طوال فترة ، وجرى الحديث عن امرأة وجدت مشنوقة في الصباح ، في البيت الكائن جانباً. وجاء دور مدام ليرا ، ولكن كان يلزمها استعدادات . فغمست زاوية منشفتها في قدح ماء ودعكت صدغيها لان الحر ألهبها . وبعد ذلك طلبت جرعة عرق فشربتها ، ومسحت شفتيها طويلاً ، وتمتمت

– « ابن الله » اليس كذلك ؟ « ابن لله .. »
كانت كبيرة ، مسترجلة ،بأنفها العظمي و كتفيها المربعين ككتفي دركي ؛ وبدأت

الطفل الضائع الذي تتركه امه ،
يجد دائماً مأوى ، مكاناً مقدساً ،
والله الذي يراه يدافع عنه من على عرشه
فالولد الضائع هو ابن الله .

كان صوتها يرتجف عند بعض الكلمات ، ويسترسل بانغام منداة ؛ وكانت ترفع عينيها نحو السماء بينما تتأرجح يدها اليمنى امام صدرها وتستند الى قلبها ، بحركة مؤثرة . عندئذ لم تستطع جرفيز ان تحبس دموعها ، وقد آلمها وجود لانتيه ، وقد خيل اليها ان الاغنية تتحدث عن عذابها ، وانها هي الطفل الضائع، المتروك ، الذي سيتولى الله الدفاع عنه . وكليمانس ، وهي ثملة جداً ، انفجرت فجأة بالبكاء ؛ وسقط رأسها على حافة الطاولة ، واختنقت شهقاتها على السماط . وساد صمت يبعث على الارتعاش . وسحبت النسوة مناديلهن ومسحن عيونهن ؛ مستقيمات الوجوه ، مفتخرات بتأثرهن. اما الرجال فكانوا ينظرون امامهم ، بجباه منحنية وجفون مختلجة . وبواسون ، وقد ضاق نفسه ، وضم اسنانه ، كسر طرف غليونه مرتين وبصقه على الارض دون ان ينقطع عن التدخين . وبوش ، الذي ترك يده على ركبة بائعة الفحم ، لم يقرصها ، واجتاحه توبيخ ضمير واحترام مبهمان ؛ بينما انحدرت على خديه دمعتان كبيرتان . كان هؤلاء المحتفلون متصلبين كالعدل ، ودعاء كالحملان . وقــد خرج النبيذ من عيونهم . وحين اعيدت اللازمة من جديد بشكل اكثر تمهلا واكثر حزناً استرخى الجميع ، وفكوا ازرارهم ، ورقت قلوبهم .

ولكن جرفيز وفرجيني ، رغماً عنهما ، لم يتركا بنظرهما الرصيف المقابل . ومدام بوش بدورها شاهدت لانتيه ، وافلتت صرخة خفيفة دون ان تنقطع عن البكاء . وعندئذ اضطربت وجوه النسوة الثلاث،وتبادلن اشارات بواسطة

الرأس يا الهي ! لو التفت كوبو ، لو رأى كوبو الرجل الآخر ! اية مقتلة ! .. اية مجزرة ! وما شعرن الا وعامل الزنك يسألهن

– الى ماذا تنظرن ؟

والمحنى ، فعرف لانتيه وتمتم

– واسم الله ! هذا كثير آه ! ذلك الفظ القذر ! آه ! ذلك الفظ القذر ! كلا . هذا كثير هذا يجب ان ينتهي ..

وحين نهض متلعثماً بتهديدات شرسة ، رجته جرفيز بصوت منخفض:

– اسمع ، ارجوك .. اترك السكين .. ابق في مكانك ، لا تسبب مصيبة.

واضطرت فرجيني الى اختطاف السكين التي اخذها عن الطاولة ولكنها لم تستطع منعه من الخروج والاقتراب من لانتيه

والمدعوون ، في تأثرهم المتزايد ، لم يروا شيئاً ، وازداد بكاؤهم ، بينما كانت مدام ليرا تغني بتعبير محزن

يتيمة ، اضاعوها ،

لم يكن صوتها مسموعاً

الا من الاشجار الكبيرة والريح.

ومر الشعر الاخير كنسمة محزنة لعاصفة. وكانت مدام بوتوا، وهي على اهبة الشرب ، قد تأثرت كثيراً فسكبت نبيذها على السماط . الا ان جرفيز ظلت متجمدة ، وقبضتها شادة على فمها لئلا تصرخ ، وجفونها تطرف من الذعر ، منتظرة ان ترى بين ثانية واخرى احد الرجلين يسقط ميتاً هناك في منتصف الشارع . وكانت فرجيني ومدام بوش تتابعان المشهد ايضاً ، باهتمام عميق . وكوبو ، وقد فوجيء بالهواء الطلق ، كاد يجلس في الساقية ، وهو يريد الانقضاض على لانتيه الذي حاد عن طريقه ، ويداه في جيوبه . وصار الرجلان الآن يتشاتمان . وعامل الزنك على الخصوص كان يشتم الآخر ، وينعته بالخنزير المريض ، ويقول عنه انه يأكل الامعاء . وكانت تسمع جلبة الاصوات الغاضبة ، وتتميز حركات مهتاجة كما لو انهما سيخلعان اذرع بعضهما البعض من قوة

الضربات . وخـارت قوى جرفيز ، واطبقت عينيهـا لأن الامر دام طويلاً ، وظنت انهما سيلتهمان انوف بعضهما البعض حين رأتهما يتقاربـان حتى اصبحـا وجهاً لوجه . وبما انها لم تكن تسمع شيئاً ، فقد فتحت عينيها وشدهت حين رأتهما يتحدثان بهدوء

وارتفع صوت مدام ليرا نائحاً باكياً ،بادئاً بمقطع

وفي الغد التقط الطفل

نصف ميت

وقالت مدام لوريللو وسط الاستحسان العام

– ومع ذلك فهناك نساء فاجرات

وكانت جرفيز تتبادل نظرة مع مدام بوش وفرجيني . اذن سوّي الامر ؟ لقد استمر كوبو ولانتيه بالحديث على حافة الرصيف . وكانا يتشاتمان ، ولكن بصداقة . ونعتا بعضهما البعض « حيوان » بلهجة فيها وخزة حنو . وبما ان الجميع كانوا يتطلعون اليهما فقد انتهيا بالتنزه جنباً الى جنب على طول البيوت، عائدين على الاثر كل عشر خطوات واحتدم حديث هام . وفجأة بدا كوبو غاضباً بينما الآخر كان يرفض ، مما دعا الى التوسل اليه . وكان عامل الزنك هو الذي دفع لانتيه واجبره على اجتياز الشارع ليدخل الى الدكان وصاح :

– اقول لـك هذا بنيّة صافية . ستشرب قدح نبيذ فالانسان خلق للتفاهم

وانهت مدام ليرا المقطع الاخير .ورددت النساء معاً،وهن يطوين مناديلهن :

الولد الضائع هو ابن الله .

وأطربت المغنية كثيراً وجلست متظاهرة بانها تكسرت . وطلبت ان تشرب شيئاً لانهـا وضعت كثيراً من العاطفة في تلك الاغنية ، ولانها كانت تخشى دائمـاً من انحلال عصبهـا الا ان عيون الجميع كانت متطلعة الى لانتيه الذي جلس بهدوء الى جانب كوبو ، واكل آخر قطعة من حلوى السافوى وقد غمسها في قدح نبيذ . ولم يكن يعرفه احد باستثناء فرجيني ومدام بوش . وكان

آل لوريللو يشتمّان بعض الدسائس ، ولكنهما لايعرفان ؛ واظهرا هيئة جافة . وغوجيه الذي فطن لتأثر جرفيز صار يتطلع شزراً الى القادم الجديد . ولما كان قد استتب صمت مطلق ، قال كوبو ببساطة

– انه صديق .

وتوجه بالكلام الى زوجته

– تحركي اذن .. من الممكن انه لايزال يوجد قهوة ساخنة

وتأملتهما جرفيز الواحد بعد الآخر ، هادئة منذهلة، حين اقدم زوجها على دفع عشيقها الاول الى الدكان واخذت رأسها بين يديها بنفس الحركة الغريزية التي يقوم المرء بها ايام الزوابع الشديدة لدى كل قصفة رعد . لم يكن الامر يبدو لها ممكناً . فالجدران تكاد تسقط وتسحق الجميع . ثم حين رأت الرجلين جالسين دون ان تتحرك ستائر الموسلين ، وجدت ان هذه الامور طبيعية . كانت الاوزة تسبب لها شيئاً من القلق ، فقد اكلت منها واكثرت ، بالتأكيد ، وهذا ما يمنعها من التفكير . وكان يخدرها كسل سعيد ويبقيها مكومة على حافة الطاولة مع حاجتها الوحيدة الى ان لا تتكدر . يا الهي ! ما فائدة الاضطراب اذا لم يشعر به الآخرون ، ثم ان الامور تبدو انها تتسوى تلقائياً مع سرور الجميع ونهضت لترى اذا كان قد بقي قهوة .

في الغرفة الداخلية كان الاولاد ينامون لقد ارعبتهم تلك الحولاء اوغسطين اثناء تناول المربيات وسرقت منهم الفريز ، وافزعتهم بتهديدات سيئة . وها هي تصبح مريضة ، مقعية على مقعد صغير ووجهها شاحب دون ان تفوه بشيء. وبولين الضخمة اسقطت رأسها على كتفي اتيين الذي نام بدوره على حافة الطاولة . ونانا كانت جالسة على بساط السرير بالقرب من فكتور وكانت تحضنه وذراعها حول عنقه ؛ وكانت تردد وهي نائمة مغمضة العينين بصوت ضعيف متواصل

– اوه ! يا امي ، اشعر بألم .. اوه ! يا امي .. اشعر بألم .

وتمتمت اوغسطين التي تدحرج رأسها على الكتفين :

– بالتأكيد . انهم مخمورون . وقد غنوا كالكبار .

وتلقت جرفيز ضربة جديدة لدى رؤيتها اتيين . واحست بالاختناق حين فكرت ان والد هذا الطفل هناك ، يأكل الحلوى دون ان يبدي رغبة بتقبيل الصغير . وكانت على وشك ايقاظ اتيين وحمله بين ذراعيها ، ثم ، مرة اخرى استحسنت الطريقة الهادئة التي تتسوى بها الامور لم يكن من المناسب ، بالتأكيد ، ان تشوش نهاية الوليمة . وعادت بابريق القهوة وقدمت قدحاً للانتيه الذي بدا انه غير مهتم بها .

وتلجلج كوبو بصوت رخو

– اذن فقد جاء دوري . هـــا ! انهم يحتفظون بي للفم الجميل . حسناً ، سأغني اغنية « يا له من ولد خنزير »

وصاح الجميـع :

– نعم ، نعم . « يا له من ولد خنزير ! »

وعادت الضوضاء . ونُسي لانتيه . وهيـأت السيدات اقدامهن وسكاكينهن ليصاحبن اللازمة . وتعالى الضحك مقدماً لرؤية عامل الزنك الذي استقام على ساقيه بهيئة وقحة . واتخذ صوتاً ابح لامرأة عجوز

حين انهض كل صباح ،
اجد قلبي مضطرباً !
فأرسله الى ساحة غريف
ليأتي بسمكة باربعة فلوس .
فيظل على الطريق ثلاثة ارباع الساعة
ثم حين يعود ،
يشرب نصف قدحي ،
يا له من ولد خنزير !

وتدق السيدات على اقداحهن مرددات كلهن بمرح عظيم :

يا له من ولد خنزير !

يا له من ولد خنزير !

وامتزج بذلك شارع القطرة الذهبية . لقـد كان الحي يغني : « يا له من ولد خنزير ! » وفي الجهة المقابلة كان الساعاتي الصغير ، وغلمان البقال ، وبائعة الامعاء ، وبائعة الفاكهة يغنون اللازمة لانهم كانوا يعرفون الاغنية ، مطيلين امد التصفيق لاجـل الضحك ، والصحيح ان الشارع انتهى الى السكر . ولا شيء سوى رائحة الوليمة المنبعثة من عند آل كوبو نشرت الناس على الارصفة . ويجب القول انهم في تلك الساعة كانوا في حالة سكر بالغ في الداخل . وازداد هـذا شيئاً فشيئاً منذ اول جرعة نبيذ صاف بعد الثريدة . والآن ، هي عصفة الخـمر اللذيذة . فالجميع يصرخون ، والجميع امتلأوا بالطعام ، خـلال بخار امغر لقنديلين كانا يتفحمان . وكانت جلبة هذه الضحكات الضخمة تغطي على سير آخر العربات . وقد اعتقد شرطيان ان هناك فتنة ، فـركضا ، ولكن حين شاهدا بواسون ألقيا عليه التحية ، وابتعدا متمهلين جنباً الى جنب على طول البيوت السوداء . وكان كوبو قد وصل الى هذا المقطع :

نهار الاحد ، في البتي فيلليت ،

بعد الحر ،

ذهبنا الى بيت عمي تينيت .

وهو قاطف عنب .

لنحصل على نوى الكرز ،

وبعودتنا من عنده .

كان يغش البضاعة :

يا له من ولد خنزير !

يا له من ولد خنزير !

وعندئذ قرقع البيت ، وتصاعد الصياح في هواء الليل الفاتر الهادىء ، بحيث صفق الصائحون انفسهم لانه لا يمكن لأحدٍ ان يأمل بصياح اشد قوة .

ما من شخص بين المدعوين توصل الى ان يتذكر تماماً كيف انتهت الحفلة .

ويجب ان تكون قد انتهت في وقت متأخر جداً ، هذا كل شيء ، لانه لم يكن يمر اي هر في الشارع .

ومن الممكن انهم رقصوا حول الطاولة متماسكي الايدي . لقد غرق كل ذلك في ضباب اصفر ، مع وجوه حمراء كانت تقفز مشقوقة الفم من اذن الى أخرى وقد اكتفوا في النهاية بالنبيذ على الطريقة الفرنسية ؛ إلا انه لا يُعرف اذا كان احد قد وضع ملحاً في الكؤوس بدافع المزاح . وقد اضطر الاولاد الى ان يخلعوا ملابسهم وينامو وحدهم وفي الغد تبجحت مدام بوش بانها صفعت بوش صفعتين في احدى الزوايا ، حيث كان يتحدث مع بائعة الفحم عن قرب ؛ ولكن بوش الذي لا يذكر شيئاً وصف ذلك بالكذب . أما ما كان يصرح به كل فرد فهو سلوك كليمانس ، انها فتاة يجب الا توجه إليها الدعوى ، لانها انتهت الى اظهار كل ما عندها ، وقد أصيبت بألم في القلب الى درجة انها اتلفت احد ستائر الموسلين اتلافاً تاماً . وكان الرجال على الاقل يخرجون الى الشارع ؛ ولوريللو وبواسون ، وقد تلبكت معدتاهما ، ساروا حتى دكان بائع لحم الخنزير . وحين يكون المرء على درجة حسنة من التربية فان هذا يبدو جلياً . وكذلك اولئك السيدات، مدام بوتوا ، ومدام ليرا ، وفرجيني فقد انحرف مزاجهن بفعل الحرارة وكن يذهبن ببساطة الى الغرفة الداخلية ليخلعن مشداتهن ؛ وفرجيني نفسها ارادت ان تتمدد على السرير لبرهة ، منعاً للذيول السيئة . ثم بدا الجميع انهم ذابوا . فاختفى بعضهم وراء البعض الآخر ، مترافقين ، غارقين في أعماق الحي الاسود ، وفي آخر جلبة ، في مشاجرة مسعورة لآل لوريللو ، و«ترولالا، ترولالا»عنيدة حزينة من الاب برو . واعتقدت جرفيز ان غوجيه بكى حين ذهب ؛ وكوبو لا يزال يغني ، أما لانتليه فقد اضطر الى البقاء حتى النهاية ، حتى انها شعرت في احدى اللحظات بانفاس على شعرها ، ولكنها لم تستطع القول اذا كانت هذه الانفاس من لانتليه او من الليل الحار .

الا ان مدام ليرا رفضت العودة الى الباتينيول في تلك الساعة ، فانتُزع من

السرير غطاءفرش لها في احدى زوايا الدكان، بعد ان نحيت الطاولة. ونامت هناك، وسط بقايا العشاء. وطول الليل، وخلال نوم كوبو المنهوك الهاجس بالحفـلة، اغتنم هر أحد الجيران فرصة وجود نافذة مفتوحة، فأخذ يقضم عظام الاوزة، وانهى دفنها بضجة خفيفة صادرة عن أسنانه الدقيقة

٨

في نهار السبت التالي ، فان كوبو الذي لم يعد الى البيت لتناول عشائه ، جاء بلانتيه حوالي الساعة العاشرة وكانا قد أكل معاً مقادم غنم عند توماس ، في مونمارتر

وقال عامل الزنك لزوجته

– يجب الا توبخي ايتهـــا البورجوازية نحن عاقـلان كمـــا ترين ... اوه ! .. ليس هنـــاك من خطر معه ؛ فهو يضعك رأساً على الطريق المستقيم.

وروى كيف تلاقيا في شارع روشيشوار وقد رفض لانتيه أن يتنـــاول شراباً بعــد العشاء في مقهى « الكرة السوداء » قائلاً : ان الانسان حين يكون متزوجاً من امرأة لطيفة فاضلة فيجب ألا يهيم على وجهه في جميــع الحالات . وكانت جرفيز تستمع بابتسامة خفيفة . بالتأكيد لا لم تكن تفكر بالتوبيخ؛ وكانت تشعر بكثير من القلق . فمنذ الحفلة كانت تنتظر أن ترى عشيقها القديم بين يوم وآخر ؛ ولكن في مثل هذه الساعة ، في لحظة النوم ، فانها فوجئت بمجيء الرجلين ؛ وأعادت ربط شعرها الملتف على عنقهـــا بيدين مرتجفتين . وتابع كوبو

– انت لا تعرفين . بما انه كان من اللباقة بحيث رفض الشراب في الخارج ، فيجب عليك تقديم الشراب .. آه ! أنت مدينة لنا بذلك !

كانت العاملات قد ذهبن منذ وقت طويل ، والأم كوبو ونانا نامتـــا .

وجرفيز التي كانت ممسكة بمصراع الباب حين ظهرا ، تركت الدكان مفتوحة ، وحملت الى احدى زوايا منضدة الشغل أقداحاً وبقية زجاجـة من الكونياك . وظل لانتيه واقفاً متجنباً توجيه الكلام اليها مباشرة الا انه قال حين قدمت الشراب له :

– دمعة فقط يا سيدتي . أرجوك .

ونظر كوبو اليهما . وصرّح صادقاً بما في فكره لن يتظاهرا بالبـــلاهة . فالماضي هو الماضى ، أليس كذلك ؟ .. واذا احتفظ المرء بالكراهية بعد تسع وعشر سنوات فسوف ينتهي الى عدم رؤية أحد . كلا ، كلا ،فهو يحمل قلبه على كفه ! وقبل كل شيء فهو يعرف علاقته مع من ، مع امرأة فاضلة ورجـــل فاضل ، مع صديقين . لقد كان مطمئناً ويعرف أخلاقهما

وتمتمت جرفيز ، منخفضة الجفون ، دون أن تفهم ما قالت

– اوه ! بالتأكيد ... بالتأكيد .

وتمتم لانتيه بدوره :

– انها الآن أخت لا شيء سوى أخت .

وصاح كوبو :

– تصافحا ، واسم الرب ! ولننصرف كبورجوازيين حين يكون للمرء أصدقاء من هذا الطراز ، يصبح أكثر غنى من أصحاب الملايين . انني أضع الصداقة قبل كل شيء ، لان الصداقة هي الصداقة ، ولا شيء فوقها .

وضرب بشدة على معدته ، وقد زاد تأثره ، ممـــا اضطرهما الى تهدئته . وشرب الثلاثة خمرتهم صامتين واستطاعت جرفيز ان تنظر الى لانتيه على هواها، فقد رأته مساء الحفلة من خلال الضباب انه أصبح سميناً ، مكوراً ، ثقيل السيقان والأذرع بسبب قامته الصغيرة ولكن وجهه يحتفظ بقسمات جميـلة تحت انتفاخ حياته ككسول ؛ وبما انه دائم الاعتناء بشاربيه الرقيقين فقـــد كان يوحي بعمره الحقيقي ، خمسة وثلاثون عاماً . وكان في ذلك النهار يرتدي بنطلوناً رمادياً وسترة زرقاء ، كسيد ، مع قبعة مستديرة ؛ وكذلك كان معه

ساعة وسلسلة فضية عُلّق بها خاتم كتذكار

وقال

– أنا ذاهب

وكان قد بلغ الرصيف حين ذكّره عامل الزنك بأن يعد بأنه لن يمر أمام الدكان دون أن يلقي عليهما التحية الا ان جرفيز التي اختفت بهدوء عادت وهي تدفع أمامها اتيين بالقميص ، ولا يزال اثر النعاس على وجهه كان الولد يبتسم ، ويفرك عينيه ولكنه حين شاهد لانتيه ارتجف مضطرباً ، ملتفتاً بنظرات قلقة الى ناحية والدته وكوبو وسأله هذا

– الا تعرف السيد ؟

فخفض الولد رأسه دون أن يجيب ثم أتي باشارة خفيفة ليقول انه يعرفه

– حسناً . لا تكن احمق . اذهب وعانقه .

كان لانتيه ينتظر ، وقوراً ، هادئاً . وحين عزم اتيين على الاقتراب ، انحنى ، وقدم خديه ، ثم طبع هو نفسه قبلة كبيرة على جبهة الولد . وعندئذ تجرأ هذا على النظر اليه . ولكنه فجأة انفجر باكياً ، وهرب كالمجنون ، فشتمه كوبو ووبخه ونعته بالمتوحش .

وقالت جرفيز وقد شحب لونها وتأثرت

– هذا من شدة التأثر .

وقال كوبو موضحاً

– اوه ! انه كثير الهدوء ، كثير اللطف عادة . وقد أنشأته على الجرأة ، وسوف ترى . سوف يعتاد عليك . ويجب أن يعرف الناس .. أخيراً ، حين لا يكون للمرء سوى هذا الصغير فليس بالمستطاع البقاء دائماً في حالة تباعد . اليس كذلك ؟ علينا أن نفعل ذلك لأجله وليعيش اياماً جميلة انني أقدم رأسي للقطع ولا أمنع أباً من رؤية ولده .

وهنا ، تكلم عن إكمال زجاجة الكونياك . وتقارع الثلاثة بالكؤوس من

جديد . ولم تكن الدهشة بادية على لانتيه ، فقد كان هادئاً . وقبل الذهاب ، أراد أن يغلق الدكان مع عامل الزنك ليعيد اليه معروفه ثم نفض يديه بدافع النظافة ، وتمنى للزوجين ليلة طيبة

– ناما براحة . سأحاول اللحاق بالمركبة . أعدكما بالعودة عما قريب .

ومنذ ذلك المساء أصبح لانتيه يظهر في أغلب الأحيان في شارع القطرة الذهبية كان يحضر حين يكون عامل الزنك موجوداً ، سائلاً عن أخباره من الباب ، متظاهراً بالدخول لأجله فقط . ثم يجلس مقابل الواجهة الزجاجية ، مرتدياً سترته دائماً ، وقد حلق شعره ومشطه ، متحدثاً بأدب ، بطريقة رجل متعلم . وهكذا عرف آل كوبو تدريجياً تفاصيل حياته فأثناء السنوات الثماني التي مرت ، وفي احـــدى الفترات ، أدار مصنعاً للقبعات . وحين سئل لماذا انسحب ، اكتفى بالحديث عن نذالة شريك ، مواطن ، أحد الرعاع الذي أفلس المحل على النساء . ولكن لقبه القديم كرب عمل ظل ظاهراً على كل شخصه كصفة نبل لا يستطيع خرقها كان يدّعي دون انقطاع أنه كان على وشك إنجاز عمل رائع ، وان هناك محلات للقبعات مضطرة الى تشغيله لتوكل إليه مصالح ضخمة . وبانتظار ذلك لم يكن يعمل شيئاً ، يتنزه في الشمس ، ويداه في جيوبه كبورجوازي . وفي الأيام التي كان يشتكي منها ، حين يجازف أحد ليدله على وجود مصنع يطلب عمالاً ، كان يبتسم ابتسامة مشفقة فهو لا يريد قتل الجوع بأن يكسر ظهره في سبيـــل الآخرين . كان هذا المراح لا يعيش بهواء زمنه ، كما كان يقول كوبو . اوه ! انه خبيث ، يعرف ان يرتب أموره ، ويهتم ببعض الأعمال التجارية لأنه يظهر هيئة تدل على اليسار ، وكان يلزمه كثير من المال ليدفع ثمن ثياب بيضاء وربطات عنق كأبناء العائلات . وذات صباح رآه عامل الزنك يطلي حذاءه في جادة مونمارتر . والحقيقة هي ان لانتيه الثرثار فيما يتعلق بالآخرين ، كان يصمت او يكذب فيما يتعلق به لم يكن يريد ان يقول اين يسكن . كلا كان يسكن عند صديق لفترة تمكنه من الحصول على مركز حسن ؛ وكان يمنع الناس من المجيء لرؤيته لأنهم لن يجدوه أبداً .

وكان غالباً ما يوضح :

– يلاقي المرء عشر وضعيات في سبيل واحدة إلا انه يجب الا يدخل في علب لا يبقى فيها اربعاً وعشرون ساعة وهكذا . اصل نهار الاثنين الى عند شامبينيون في مونتروج ، وفي المساء يزعجني شامبينيون بالسياسة ؛ ليست أفكاره كأفكاري . وصباح الثلاثاء أذهب ، مع العلم اننا لسنا في عصر العبيد ولا اريد ان ابيع نفسي بسبع فرنكات بالنهار

كانوا في الأيام الأولى من تشرين الثاني . وقد جاء لانتيه ، متلطفاً ، بباقات بنفسج وزعها على جرفيز والعاملتين . وضاعف زياراته تدريجياً ، حتى صار يأتي كل يوم تقريباً . كان يبدو انه يريد اكتساح البيت ، والحي بكامله ؛ وقد بدأ باغواء كليمانس ومدام بوتوا اللتين كان يوجه إليهما انتباهات لطيفة ، بدون تمييز الفارق في السن .

وبمدة شهر أصبحت العاملتان تعبدانه . وآل بوش الذين كان يمدحهم كثيراً حين يذهب لتحيتهم ، دهشوا من أدبه اما آل لوريللو ، فحين عرفوا هوية السيد الذي جاء اثناء تناول المربيات يوم الحفلة ، تقيأوا اولاً الف بذاءة ضد جرفيز التي تجرأت ان تدخل رجلها القديم الى بيتها الزوجي . ولكن لانتيه صعد ذات يوم الى عندهم ، وقدم نفسه بطريقة حسنة اذ اوصاهم على سلسلة لسيدة من معارفه ، فطلبوا منه ان يجلس ، وأبقوه ساعة كاملة ، مفتونين بحديثه ؛حتى انهم تساءلوا كيف ان رجلاً ممتازاً استطاع ان يعيش مع العرجاء. واخيراً ، فان زيارات صانع القبعات لآل كوبو لم تعد تسخط احداً وبدت طبيعية ، ما دام قد نجح في نيل اعجاب حي القطرة الذهبية كله اما غوجيه فقد بقي وحده متجهماً . واذا صادف وجوده هناك عند مجيء الآخر فانه كان يخرج لئلا يضطر الى التعرف على هذا الرجل .

الا ان جرفيز عاشت الاسابيع الاولى في اضطراب كبير ، وسط هذا العطف على لانتيه كانت تحس في تجويف المعدة بتلك الحرارة التي شعرت انها تحرقها يوم مسارّاتها مع فرجيني . وكان خوفها العظيم متأتياً من خشيتها ان

تفقد مقاومتها لو فاجأها ذات مساء وهي وحيدة وخطر ببـــاله ان يقبلها .
كانت تفكر فيه كثيراً وظلت ملأى منه ، ولكنها هدأت شيئاً فشيئاً حـين رأته محتشماً ، لا يتطلع في وجههـــا ، ولا يلمسها بطرف اصابعه حين يكون الآخرون مديرين ظهورهم . ثم ان فرجيني التي تبدو انهـــا تقرأ ما في نفسها جعلتها تخجل من افكارها الرديئة لماذا ترتجف ؟ لا يمكن الالتقاء برجل اكثر منه لطفاً. بالتأكيد ليس عنده ما تخشاه.

وقد عملت السمراء الكبيرة ذات يوم لتدفع بالاثنين الى احـــدى الزوايا ليجريا حديثاً عاطفياً الا ان لانتيه صرح بصوت رزين ، مختاراً العبارات ، ان قلبه ميت ، وانه يريد من الآن فصاعداً ان يكرس نفسه لسعادة ولده . ولم يكن يتكلم ابداً عن كلود الذي لا يزال في الجنوب . وكان كل مساء يقبل اتيين على جبهته ولا يعرف ماذا يقول له اذا بقي الولد هناك ، وينساه ليقوم باطراء كليمانس . وعندئذ هدأ بال جرفيز ، وشعرت بموت الماضي في نفسها . ووجـود لانتيه أبلى ذكرياتها عن بلاسان وفندق بونكور . وبرؤيته دون انقطاع لم تعد تحلم به ، حتى انها كانت تشعر بالاشمئزاز لدى تفكيرها بملاقاتها القديمـــة . اوه ! لقد انتهى هذا ، انتهى تماماً .. لو تجرأ ذات يوم على طلب شيء منهـا فسوف تجيبه بصفعتين ، وستخبر زوجها

ومن جديد ، اخذت تفكر دون توبيخ ضمير ، وبعذوبة غير عادية ، بصداقة غوجيه الطيبة .

وحين وصلت كليمانس الى المشغل ذات صباح روت انها التقت في السهرة ، حوالي الساعة الحادية عشرة ، بالسيد لانتيه متأبطاً ذراع امرأة . وقالت ذلك بكلمات بذيئة جداً يخالطها الخبث وذلك لترى رأس ربة العمل . نعم ، كان السيد لانتيه يصعد شارع نوتردام دي لوريت ؛ وكانت المرأة شقراء ، واحدة من نوق الشارع ، نصف ميتة ، مؤخرتها عارية تحت ثوبها الحريري ، وقد تبعتهما بداعي المزاح . ودخلت الناقة عند بائع لحم الخنزير واشترت اربيـــان *crevette* وجامبون . ثم وقف السيد لانتيه في شارع لاروشوفوكولد على الرصيف ، امام

البيت ، وانفه في الهواء ، منتظراً الصغيرة التي صعدت وحدها لترسل اليه الاشارة من نافذتها ليلحق بها ولكن كليمانس أضافت ملاحق مقرفة ، واستمرت جرفيز تكوي ثوباً ابيض بهدوء . وفي لحظات كانت الحكاية ترسم على شفتيها ابتسامة صغيرة . وقالت « هؤلاء الريفيون يركضون مهتاجين وراء النساء، وهم بحاجة اليهن مهما كان الامر، ويكادون يلتقطونهن بواسطة الجرفة من على كومة اقذار . »

وحين جاء صانع القبعات في المساء صارت تلهو بمناكدات كليمانس التي دست عليه وعلى شقرائه الا انه بدا مزهواً لانه شوهد . انها صديقة قديمة ما يزال يراها بين وقت وآخر ، حين لا يزعج ذلك احداً ؛ فتاة كثيرة الاناقة ، اثثت بيتها بمفروشات من خشب بنفسجي اللون . وذكر اسماء بعض عشاقها : فيكونت ، تاجر خزف كبير ، ابن كاتب عدل . وهو ، يحب النساء المتضوعات عطراً . ثم وضع تحت انف كليمانس منديله الذي عطرته له الصغيرة ، حين دخل اتيين ، فاتخذ عندئذ هيئة رزينة ، وقبل الولد ، مضيفاً ان الجنون لا يوصل الى نتيجة وان قلبه ميت . وجرفيز المنحنية على عملها هزت رأسها علامة الاستحسان . وكانت كليمانس هي التي تلقت عقوبة رداءتها فقد شعرت بلانتيه يقرصها مرتين او ثلاث دون ان يبدو انه يفعل ذلك . وماتت من الغيرة لانها لا تتضوع مسكاً كناقة الشارع .

وحين عاد الربيع ، فان لانتيه الذي اصبح من البيت قال انه سيسكن في الحي ليظل قريباً من اصدقائه . وكان يريد غرفة مفروشة في بيت نظيف ودبت مدام بوش وجرفيز على اربع لتجدا له ذلك . وجرى البحث في الشوارع المجاورة . ولكن كان صعباً جداً ، فهو يريد باحة كبيرة ، ويطلب طابقاً أرضياً ، وجميع ما يمكن تصوره من رفاهية وصار في كل مساء عند آل كوبو يتظاهر انه يقيس ارتفاع السقف ، ويدرس توزيع الغرف ، طامعاً بمسكن مشابه اوه ! لن يطلب شيئاً آخر ، سوف يحفر

حفرة في زواية هادئة ودافئـة ، ثم ينهي كل فحص يقوم به بهذه العبارة :

– سابريستي مع ذلك انتم على خير حال !

وذات مساء ، وقد تناول عشاءه هناك ، أفلت عبارته هذه عند تناول المربيات ، فصاح به كوبو فجأة ، وكان قد بدأ يكلمه بصيغة المفرد :

– يجب ان تبقى هنا يا صديقي ، اذا حدثك قلبك بذلك وسيرتّب الامر .

وأوضح ان غرفة الغسيل القذر تصبح غرفة جميلة اذا نظفت وسوف ينام اتيين في الدكان ، على فراش ملقى على الارض ، هذا كل شيء

فقال لانتيه :

– كلا ، كلا ، لا استطيع القبول . هذا يضايقكم كثيراً انا اعلم انـكم تفعلون ذلك عن طيبة خاطر ، ولكن وجودنا على بعضنا البعض يجعل الحـر شديداً . ثم ، انت تعلم ان لكل فرد حريته . وسوف احتاج الى اجتيـاز غرفتكم ، وهذا لن يكون دائماً مستعذباً

فقال عامل الزنك مختنقاً من الضحك ، ضارباً على الطـاولة ليجلو صوته

– آه ! الحيوان ! انه يفكر دائماً بالحماقات ! والانسان مبتكر ، اليس صحيحاً ؟.. هناك نافذتان في الغرفة . حسناً ، نخفض واحدة لتلتصق بالارض ونجعل منها باباً . وعندئذ ، كما تعلم ، تدخل من الباحة ونحن نسد باب الاتصال هذا اذا راق لنا ذلك . ولا من يرى ولا من يعرف . انت في بيتك ، ونحن في بيتنا .

وساد صمت . وكان صانع القبعات يتمتم :

– آه نعم . بهذه الطريقة لا اقول شيئاً ... كلا ايضاً لأنني سأثقل عليكم .

وكان يتجنب النظر الى جرفيز ، ولكن من المؤكد انه ينتظر كلمة من ناحيتها ليقبل . وكانت هذه متضايقة جداً من فكرة زوجها ، لا لأن فكرة رؤية لانتيه

ساكناً عندها قد جرحتها او ازعجتها كثيراً، بل كانت تتساءل اين تضم غسيلها القذر . الا ان عامل الزنك اظهر فوائد هذا التدبير .فالخمسمائة فرنـــك اجرة البيت كانت قوية دائماً . وسوف يدفع لهـما الرفيق عشرين فرنكاً بالشهر اجرة الغرفة المفروشة ، وليس هذا باهظاً بالنسبة اليه ، وسوف يساعدهما ذلـك عند حلول اجل الدفع . واضاف انه سيضع تحت سريرهما صندوقاً كبيراً يستوعب جميع غسيل الحي القذر . وترددت جرفيز ، وبدت انهـــا تستشير الام كوبو بنظرتها ، وكان لانتيه قد استمال هذه منذ اشهر حين جلب لها كرات من الصمغ لمرضها . وانتهت الى القول

– بالتأكيد لن تضايقنا سوف نجد وسيلة لتنظيم الامر

وردد صانع القبعات :

– كلا ، كلا . انتم لطفاء جداً . وهذا استغلال .

وغضب كوبو هذه المرة . أيستمر طويلا في البلاهة ما داموا يقولون له انهم يقبلونه بطيبة خاطر ! انه يسدي لهم خدمة بذلك ، ايفهم؟ .. ثم صاح بصوت حانق

– اتيين ، اتيين .

كان الولد نائماً على الطاولة فرفع رأسه مرتجفاً :

– اسمع . قل له انك تريده .. نعم ، لهذا السيد .. قل له بقوة : اريدك !

فتمتم اتيين وفمه مثقل بالنعاس :

– اريده !

وضحك الجميع . ولكن لانتيه استعاد حالاً هيئة الرزانة المتأثرة . وشد على يد كوبو من فوق الطاولة وقال :

– قبلت ... انها دلالة على الصداقة من الناحيتين ، اليس كذلـك ؟ نعم . اني اقبل لأجل الولد

ومنذ الغد جـاء صاحب البيت ، السيد ماريسكو ، وقضى ساعة في منزل آل بوش ، وحدثته جرفيز عن القضية . فبدا اولاً قلقـاً ، رافضاً ، غاضباً ، كما

لو انها تطلب منه أن يهدم جناحاً بكامله من المنزل . ثم بعـــد تفتيش على الاماكن ، وبعد ان تطلع الى فوق ليرى اذا كانت الطوابق العليا لا تتـــأثر ، انتهى باعطاء الاذن ، ولكن بشرط الا يتحمل اية نفقـات ، واضطر آل كوبو الى ان يوقعوا له على ورقة يتعهدون فيها باعادة كل شيء الى اصله عند انتهاء امد عقد ايجارهم . وفي المساء نفسه جاء عامل الزنك برفاق له ، بنّاء ونجار ودهان، وهم اشخاص طيبون يقومون بهذا العمل البسيط بعد عودتهم من عملهم . انهـا خدمة تؤدّى . الا ان وضع الباب الجديد وتنظيف الغرفة لم تكن نفقاتهما اقل من مئة فرنك ، دون حساب الشراب الذي قدم اثناء العمل . وقال عامـــل الزنك للرفاق انه سيدفع لهـــم اجرتهم فيما بعد حين يقبض اول دفعة من المستأجر . ثم كانت قضية فرش الغرفة . فتركت جرفيز فيهاخزانة الام كوبو، واضافت منضدة وكرسيين جاءت بهم من غرفتها الخاصة ، واضطرت اخيراً الى شراء منضدة زينة وسرير مع فرشه الكامل . والكل بمئة وثلاثين فرنكاً عليها ان تدفعها بمعدل عشرة فرنكاً بالشهر. واذا كانت العشرون فرنكاً التي سيدفعها لانتيه شهرياً ستذهب مقدماً لوفـــاء الدين طوال عشرة اشهر ، فسوف يكون هناك ربح جيد بعد ذلك .

وكان مجيء عامل القبعات في الايام الاولى من حزيران . وفي السهرة عرض عليه كوبو ان يذهب معه لجلب صندوق الامتعة ، وذلك ليوفر عليه دفـــع ثلاثين فلساً اجرة عربة . ولكن الآخر اظهر القلق وقال ان امتعته ثقيلة جداً ، كما لو انه يريد ان يخفي مسكنه حتى آخر لحظة . وجاء في فترة ما بعد الظهر ، حوالي الساعة الثـالثة ولم يكن كوبو موجودا وشحب لون جرفيز على باب الدكان حين عرفت الصندوق على العربة انه صندوقهما القديم ، ذلك الذي جاءت به من بلاسان ، وهو اليوم مخدوش ، محطم ، مربوط بالحبال . لقد رأته يعود كما كانت تحلم في اغلب الاحيان، واستطاعت التخيل ان العربـــة نفسها ، العربة التي سخرت منها تلك الفاجرة السمراء فيها ، هي التي اعادته اليهـا . الا ان بوش ساعد لانتيه ، وتبعتهما الغسالة صامتة ، متخدرة قليلا . وحين وضعا

حملهما في منتصف الغرفة ، قالت لكي تتكلم

– ها ! لقد تم الامر على ما يرام .

ثم استعادت رباطة جأشها ورأت لانتيه مشغولاً بفك الحبال ولا ينظر اليها، فأضافت

– يا سيد بوش ستشرب جرعة .

وذهبت لتأتي بليتر واقداح في الوقت الذي كان بواسون يمر على الرصيف وهو بالملابس الرسمية . فاشارت اليه اشارة خفيفة ، طارفة بعينها مع ابتسامة، ففطن الشرطي . حين يكون في الخدمة وتوجه اليه غمزة ، فهـذا يعني انهم يقدمون اليه قدح نبيذ . حتى انه كان يتنزه ساعات امـام دكان الغسالة منتظراً ان تغمزه . وحينئذ كان يمر من فناء الدار حتى لا يراه احد ، ويشرب كأسه متوارياً .

وقال لانتيه حين رآه يدخل :

– اه ! هذا انت يا بادنغ !

كان يدعوه بادنـغ بداعي المزاح ، ليسخر من الامبراطور . وكان بواسون يقبل ذلك بهيئة متصلبة دون ان يعرف احد اذا كان ذلك يكدره في سره . إلا ان الرجلين اصبحا صديقين حميمين مع انهما مختلفان بمعتقداتهما السياسيـة . وقال بوش بدوره :

– انت تعلم ان الامبراطور كان شرطياً في لندن نعم ، لعمري ! كان يلتقط النساء المخمورات .

وكانت جرفيز قد ملأت ثلاثة أقداح على الطاولة أما هي فلم تكن تريد ان تشرب ، وكانت تشعر بقلبها منقبضاً . ولكنها بقيت تنظر الى لانتيه وهو يرفع الحبال الاخيرة . وتغلبت عليها حاجة معرفة ما يحتوي عليـه الصندوق . وقد تذكرت وجـود كومة من الجوارب ، وقميصين وسخين ، وقبعة قديمـة في احدى الزوايا . الا تزال هذه الاشياء هنا ؟ .. هل ستجد خرق المـاضي ؟ .. وقبل ان يرفع لانتيه الغطاء اخذ كأسه وقرعه

– في صحتكما

فاجاب بوش وبواسون : في صحتك .

وملأت الغسالة الكؤوس من جديد . ومسح الرجال الثلاثة شفاههم بايديهم. وأخيراً فتح عامل القبعات الصندوق. كان مليئاً بخليط من الصحف، والكتب، والملابس القديمة ، والملابس الداخلية في صرر . وقد سحب منه بالتتابع طنجرة ، وزوجاً من الاحذية ، وتمثالاً نصفياً بجدوع الانف يمثل ليدور – رولان ، وقميصاً مطرزاً وبنطلون شغل . وكانت منحنية فشعرت بتصاعد رائحة تبغ ، رائحة رجل قذر ، يعتني فقط بمظهره ، بما يُرى من شخصه .

كلا ، فالقبعة القديمة ليست في الزاوية اليسرى ، بل كان هناك سترة لا لا تعرفها ، هدية من امرأة حينئذ هدأت، وشعرت بكآبة مبهمة، واستمرت في تتبع الاشياء ، متسائلة اذا كانت من زمنها او من زمن الاخريات .

وقال لانتيه

– قل اذن يا بادنغ . الا تعرف هذا ؟

ووضع له تحت انفه كتيباً مطبوعاً في بروكسل : « غراميات نابليون الثالث » مزيناً بالصور . ويروى فيه ، بين حكايات اخرى ، كيف ان الامبراطور اغوى ابنة طباخ في الثالثة عشرة من عمرها ؛ وكانت الصورة تمثل نابليون الثالث ، عاري الساقين ، محتفظا فقط بالوشاح الاكبر لجوقة الشرف ، ملاصقاً فتاة كانت تهرب من فجوره .

وهتف بوش الذي رأى في ذلك ارضاء لغرائزه الشهوانية

– آه ! ما اجمل هذا ! ان الامر يحدث دائما هكذا .

وظل بواسون منذهلا واجما ، ولم يجد كلمة يدافع بها عن الامبراطور ، فذلك موجود في كتاب ، ولا يستطيع ان يقول لا وعندئذ افلت هذه الصرخة ، مدوراً ذراعيه ، بينما كان لانتيه لا يزال يدفع بالصورة تحت انفه :

– حسنا ، وبعد ؟ اليس هذا في الطبيعة ؟

وتسمّر منقار لانتيه من هذا الجواب ، فرتب كتبـــه وصحفه على لوح في الخزانة، وحين ابدى الاسف لعدم وجود مكتبة صغيرة عنده ، وعدته جرفيز المنحنية فوق الطاولة بان تحصل له على واحدة . كان لديه « تاريـــخ السنوات العشر « للويس بلان ، بدون المجلد الأول الذي لم يحصل عليه ، و «الجيروندان» للامارتين بكراسات ثمن الواحدة منها فلسان، و «غوامض باريس» و «اليهودي التائه» لأوجين سو ، دون ان نعد كدسة من الكتب الفلسفية والانسانيـــة الزهيدة القيمة ، ملتقطة من عند بائعي المسامير القديمة . ولكنـــه كان يشمل جرائده على الخصوص بنظرة حنو واحـترام . انها مجموعة جمعها بنفسه منـذ سنوات . حين كان يقرأ في المقهى مقالاً ناجحا يجاري افكاره ، فانـه كان يشتري الصحيفة ويحتفظ بها . وهكذا صار لديه رزمـــة ضخمة ، من جميع التواريخ ومن جميع العناوين ، منضّدة دون ترتيب . وحين اخرج هذه الرزمة من داخل الصندوق ربت عليها حبياً ، قائلا للاثنين الآخرين :

– اتريان هذه ؟.. حسناً ، انها لوالدي . ما من احـــد يستطيع التبجح بامتلاك افضل منها ... ولن تتصوروا ما هو موجود بداخلها . يعني ، لو طبق نصف هذه الافكار لتنظف المجتمع دفعة واحدة ، نعم ، ولكان امبراطوركم وجميع دوابه شربوا مغلي ...

ولكنه قوطع من قبل الشرطي الذي كان شارباه وعثنونه يهتزون في وجهه الشاحب :

– والجيش ، قل اذن ، ماذا تفعل به ؟

عندئذ احتد لانتيه ، وصرخ ضارباً بقبضته على صحفه

– أريد منع النهج السياسي المستند الى الجيش ، اخوة الشعوب ... وأريد إلغاء الامتيازات ، والألقـــاب ، والاحتكارات ، أريد مساواة الأجور ، وتوزيع الأرباح ، وتمجيد البروليتاريا ، وجميـــع الحـــريات ، أتسمعـــان ! والطلاق !

فسانده بوش قائلا

– نعم ، نعم . الطلاق ، لأجل الأخلاق !

واتخذ بواسون هيئة جلال ، وأجاب :

– ومع ذلك ، فاذا كنت أكره حرياتك ، فأنا حر .

وتلجلج لانتيه الذي خنقه التأثر

–اذا كنت تكره ، اذا كنت تكره ... كلا ، فلست حراً !.. اذا كنت تكره فسأطردك الى كايين Cayenne ، أنا ! نعم ، الى كايين مع امبراطورك وكل خنازير عصابته

هكذا كانا يتماسكان لدى كل لقاء بينهما وجرفيز التي لا تحب المناقشات كانت تتدخل عادة . وقد أفاقت من خدرها الذي غمسها فيه منظر الصندوق ، مليئة بالعطر الفاسد لحبهما القديم ؛ وأرت الرجال الثلاثة الأقداح .

وقال لانتيه الذي هدأ فجأة وأخذ قدحه

– هذا صحيح . بصحتكما

فأجاب بوش وبواسون اللذان قرعا قدحيهما بقدحه

– بصحتك

الا ان بوش ، كان يتمايل ، بشيء من القلق ، متطلعاً الى الشرطي بزاوية عينه . وتمتم أخيراً .

– كل هذا فيما بيننا ، فـــيما بيننا ، أليس كذلك يا سيد بواسون ؟ نعم ، هناك أشياء تراها وامور تقال لك ...

ولكن بواسون لم يدعه يكمل ووضع يده على قلبـــه كأنه يوضح ان كل شيء بقي هناك . ومن المؤكد انه لن يتجسس على أصدقاه . وكان كوبو قـــد جاء ، وأفرغ ليتر ثان . وبعد ذلك ذهب الشرطي ماراً من الباحة ، واستعاد على الرصيف مشيته المتشددة الرصينة ، بخطوات محسوبة .

في الأيام الأولى ، كان كل شيء في الهواء عند الغسالة . فقد كان للانتيه غرفته المنفصلة ، ومدخله ، ومفتاحه ؛ وبما انهم عزموا في اللحظة الأخيرة على عدم اقفال باب الاتصال ، فقد كان يحدث غالبـــاً ان يمر لانتيه من الدكان .

والغسيل القذر ايضاً كان يزعج جرفيز لان زوجها لم يهتم بالصندوق الكبير الذي تحدث عنه ؛ وقد وجدت نفسها تعود الى حشر الغسيل في كل مكان ، في الزوايا ، وبصورة رئيسية تحت سريرها ، الأمر الذي كان غير مسر في ليالي الصيف . وأخيراً كانت كثيرة السأم لاضطرارها كل ليلة الى وضع سرير اتيين في منتصف الدكان . وحين تسهر العاملات كان الولد ينام على كرسي منتظراً . وقد حدثها غوجيه بخصوص ارسال اتيين الى ليل لان معلمه القديم ، وهو ميكانيكي ، يطلب صناعاً ، فأعجبها المشروع ، يضاف الى ذلك ان الولد لم يكن مسروراً في البيت ، ويرغب في أن يكون ذلك الرجل معلماً له ، ورجاها ان ترضى . الا انها كانت تخشى رفض لانتيه فقد جاء يسكن عندهم لسبب وحيد هو ان يقارب من ولده ؛ ولن يرضى أن يفقده بعد خمسة عشر يوماً من سكنه . الا انه استصوب الفكرة كثيراً حين كلمته عن القضية وهي ترتعش ، قائلاً ان العمال الصغار بحاجة الى رؤية البلاد وفي الصباح حين سافر اتيين ألقى عليه خطاباً حول حقوقه ، ثم قبله وقال :

– تذكر أن المنتج ليس عبداً . ولكن كل من لا يكون منتجاً فهو دبُّور .

وواصل البيت سيرته ، وهدأ كل شيء واعتاد عادات جديدة . واعتادت جرفيز على تشتت الغسيل القذر وعلى رواح ومجيء لانتيه . وكان هذا يتحدث دائماً عن اعماله الكبيرة ؛ ويخرج أحياناً ممشط الشعر بملابس بيضاء ، ويختفي وينام خارج البيت ايضاً ، ثم يعود متظاهراً بالعياء ، وبأن رأسه محطم كما لو انه ظل طوال أربع وعشرين ساعة يناقش اهم المصالح . والحقيقة هي انه كان يخدعها. اوه ! لم يكن هناك اي خطر في ان تكتنب يداه

وكان ينهض عادة نحو الساعة العاشرة ، ويقوم بعد الظهر بنزهة اذا اعجبه لون الشمس ، او انه يبقى في الدكان ايام المطر متصفحاً جريدته لقد كان هذا هو محيطـــه ، يموت سروراً بين التنورات ، ويحشر نفسه في المكان الأكثر احتشاداً بالنساء ، محباً كلماتهن النابية ، ويدفعهن الى قولها ، محتفظاً لنفسه بلغة مختارة ؛ وهذا ما يوضح محبته للاحتكاك كثيراً بالغسالات ، وبالفتيات غير

الحذرات . وحين كانت كليمانس تفرط له سبحتها كان يظل مسترخياً ، مبتسماً ، عاقفاً شاربيه الرقيقين وكانت رائحة المشغل ، وتلك العاملات المتصببات عرقـا ، الضاربات بالمكاوي بأذرعهن العارية ، وكل تلك الزاوية الشبيهة بمخدع النوم حيث تعرض بضاعة سيدات الحي ، تبدو له انها الوكر الذي يحلم بـه ، وملجأ الكسل والمتعة الذي طالما بحث عنه .

في الأيام الأولى كان لانتيه يتناول طعامه عند فرنسوا في زاوية شارع بواسونيير . ولكن في ايام الاسبوع السبعة كان يأكل مع آل كوبو ثلاث أو اربع مرات، بحيث انتهى الى ان يعرض عليهم ان يتناول طعامه عندهم مقابل خمسة عشر فرنكاً كل نهار سبت . وعندئذ لم يعد يترك البيت وسكنه تماماً . وكان يُرى من الصباح الى المساء ذاهباً من الدكان الى الغرفة الداخلية وهو بالقميص ، رافعا صوته . آمراً ، وكان ايضاً يتعهد الزبائن ويدير العمل في البيت . وكان نبيذ فرنسوا لا يعجبه فاقنع جرفيز بشراء نبيذها منذ ذلك الوقت من عند فيغوريه الفحام المجاور ، حيث كان يذهب مع بوش ليقرصا زوجته بينما يطلب ما يشتريه ثم وجد خبز كوديلو غير محمص جيداً ، فأرسل اوغسطين في طلب الخبز من مخبز فيينا في ضاحية بواسونيير ، من عند ماديه . وابدل ايضاً ليهونغر البقّال ، ولم يحتفظ بسوى اللحام في شارع بولونسو ، شارل الضخم ، بسبب آرائه السياسية .

وفي مدى شهر اراد ان يجعل الطبخ كله بالزيت . وكما كانت تقول كليمانس وهي تمازحه ، ان بقعة الزيت تعود الى الظهور مهما كان الامر عند هذا البروفانسي . وكان يصنع العجة بنفسه ويراقب الام كوبو طالباً ان يكون البفتيك ناضجاً تمام النضج شبيهاً بنعلي الحداد ، مضيفاً الثوم الى كل شيء ، غاضباً اذا قطعت خضار التوابل في السلطة ، قائلاً انها أعشاب رديئة يمكن ان يدخلها سم . ولكن وليمته الكبرى كانت نوعا من الثريدة ، شعيرية مسلوقة بالماء ، كثيفة جداً ، يسكب فوقها نصف زجاجة زيت . وكان يأكلها وحده

مع جرفيز لان الآخرين ، الباريسيين ، وقد جازفوا ذات يوم بتذوقها ، كادوا يلفظون امعاءهم .

وتوصل لانتيه تدريجياً الى الاهتمام بشؤون العائلة . وبما ان آل لوريللو كانوا يقطبون وجوههم دائماً حين يخرجون من جيوبهم المئة فلس العائدة للام كوبو ، فقد قال ان بالامكان اقامة دعوى وهل يهزأون من الناس ؟ انهـا عشرة فرنكات عليهم دفعها كل شهر ! وكان يصعد بنفسه ليأتي بالفرنكات العشرة ، جريئاً ، محبباً بحيث لم تكن تجرؤ صانعة السلاسل ان ترفض دفعها . واصبحت مدام ليرا ايضاً تدفع قطعتين بمئة فلس . وكادت الام كوبو تقبـل يدي لانتيه الذي كان يلعب ، فضلا عن ذلك ، دور الحكم في مشاجرات العجوز وجرفيز . وحين يفرغ صبر الغسالة ، وتعنف حماتها ، وتذهب هذه لتبكي في سريرهـا ، فانه كان يدفع الاثنتين ويجبرهما على ان تتعانقا ، ويسألهما اذا كانتـا تعتقدان انهما تسليان الناس بطباعهما الحسنة

وكذلك كانت نانا فقد كانوا يربونها بشكل سيء ، على هواها . وفي ذلك لم يكن مخطئاً ، فحين يضربها الأب تحميها الام ، وحين تضربها الام بدورهـا يحدث الاب مشكلا . وتسر نانا لرؤية والديها يتقاتلان ، شاعرة بأنها نالت العفو مقدماً ، وترتكب جميع المخالفات . وقـد ابتكرت الآن ان تذهب وتلعب في دكان البيطرة المقابلة . وكانت تتأرجح طول النهار في عرائش العربـات ، وتختبىء مع عصابة من الزعران في داخل الباحة القاتمة المضاءة بنـار الكور الحمراء ؛ وتعود فجأة الى الظهور ، راكضة ، صارخة ، مشعثة الشعر ، ملوثة ، يتبعها ذيل من الزعران كما لو ان قذفات المطارق حملت اولئك الاولاد القذرين على الفرار . وكان لانتيـه وحده يستطيع توبيخها ، الا انهـا كانت تعرف كيف تستولي عليه . فقد كانت تلك المتبرزة ذات السنوات العشر تمشي امامه كسيدة ، متمايـلة ، ناظرة اليه نظرة جانبية ، وعيناهـا مليئتان بالعيوب . وقد انتهى بأن اخذ على عاتقه امر تربيتها ؛ وكان يعلمهـا الرقص والتكلم بلهجة الباتوا

ومضت سنة على هذا الشكل . وفي الحي كانوا يعتقدون ان لانتيه ذو مداخيل ، لأنها الطريقة الوحيدة لتفسير معاملة آل كوبو له . ومما لا شك فيه ان جرفيز ما فتئت تربح مالاً ؛ اما الآن ، وهي تطعم رجلين لا يقومان بأي عمل ، فمن المؤكد ان الدكان لا يمكن ان تكفي ؛ يضاف الى ذلك ان الدكان اصبحت اقل جودة ، وتفرّق عنها الزبائن ، واصبحت العاملات يأكلن من الصباح الى المساء وكانت الحقيقة ان لانتيه لم يكن يدفع شيئاً ، لا أجرة سكن ولا ثمن طعام . فقد دفع في الاشهر الاولى بعض الاقساط ؛ ثم اكتفى بالحديث عن مبلغ كبير سيقبضه ، وبفضله سيفي ما عليه دفعة واحدة فيما بعد. ولم تجرؤ جرفيز على ان تطلب منه سنتيماً . وصارت تأخذ الخبز والنبيذ واللحم ديناً ، وارتفعت الارقام في كل مكان. وكان الامر يسير بثلاثة او اربعة فرنكات باليوم . ولم تدفع فلساً لبائع المفروشات ولا للرفاق الثلاثة ، البنّاء والنجار والدهان . وبدأ الجميع يتذمرون ، واصبحوا في المخازن اقل تهذيباً معها . ولكنها كانت متخدرة ، وقد انتشت بفورة الدين ، فاصبحت تختار الاشياء ذات الاثمان الاكثر ارتفاعاً ، واستسلمت لبطنتها حين لم تعد تدفع شيئاً. وظلت في سريرتها فاضلة جداً ، حالمة بربح مئات الفرنكات من الصباح الى المساء ، دون ان تعرف بأية طريقة ، لتوزع قبضات من قطع المئة فلس على ممونيها . واخيراً انحدرت ، وصارت تتحدث عن توسيع اعمالها بقدر هبوطها وفي منتصف الصيف رحلت كليمانس الكبيرة لعدم وجود شغل كافٍ لعاملتين ، ولأنها ظلت تنتظر اجرتها منذ اسابيع . وفي وسط هذه النكبة كان كوبو ولانتيه ينفخان خدودهما ، فالشابان الظريفان غارقان في المآكل حتى الذقن . انهما يأكلان الدكان ويسمنان على خراب المؤسسة ، وكانا يحثان بعضهما البعض على مضاعفة الاكل ، ثم يضربان على البطن مازحين وهما يأكلان المربيات . وهي طريقة للهضم بسرعة

وفي الحي كان موضوع الحديث الاكبر معرفة ما اذا كان لانتيه قد اصطلح مع جرفيز . وهنا كانت الآراء موزعة . فاذا اصغينا الى آل لوريللو لرأينا ان

العرجاء كانت تفعل كل شيء لتعيد صانع القبعات اليها ، ولكنه لا يريدها ، ويجد ان بهجتها قد زالت ، وعنده في المدينة فتيات صغيرات وجوههن بغير هذه الصبغة . أما آل بوش فيقولون العكس ، فقد كانت الغسالة ، منذ الليلة الأولى ، تذهب الى زوجها القديم منذ ما يبدأ هذا الأبله كوبو بالشخير . وسواء اكان بهذه الطريقة ام بتلك فان هذا لا يبدو نظيفاً ، ولكن يوجد في الحياة كثير من القذارات ، ومن اضخم ما تكون ، بحيث ينتهي الناس الى ان يجدوا هذا الزواج المؤلف من ثلاثة طبيعياً ، وحتى لطيفاً ، لانهم لم يكونوا يتقاتلون ، ويحافظون على الوفاق . ومن المؤكد ان المرء يزداد تسممه اذا حشر نفسه في امور داخلية اخرى في الحي . وعند كوبو يشعر المرء على الاقل انهم اولاد طيبون . فقد كان الثلاثة ينهمكون في مطبخهم الصغير ، ويلبسون وينامون معاً دون ان يمنعوا الجيران من النوم . ثم ان حسن تصرف لانتيه اكتسح الحي. فقد كان هذا المداهن يقفل افواه جميع الثرثارات ، ويجعلهن يشككن بعلاقاته مع جرفيز ، فتنكر بائعة الفواكه العلاقات أمام بائعة الامعاء ، وتبدو هذه كأنها تقول ان الأمر مؤسف لان هذا يجعل آل كوبو اقل إثارة للاهتمام .

ومع ذلك فقد كانت جرفيز تعيش مطمئنة من هذه الناحية ولم تفكر ابداً بهذه القذارات . وقد تصل الامور الى درجة اتهامها انها بدون قلب . ولم يكونوا في العائلة يفهمون سبب كراهيتها لصانع القبعات ومدام ليرا التي تحب التدخل بين المحبين ، كانت تأتي في جميع الامسيات ، وتنعت لانتيه بالرجل الذي لا يقاوم ، والذي تسقط بين ذراعيه اكثر السيدات اعتباراً . ومدام بوش لم تكن تضمن فضيلتها لو كانت اصغر مما هي بعشر سنوات . انها مؤامرة خفية ، مستمرة ، كانت تكبر وتدفع جرفيز ببطء ، كما لو ان جميع النساء حولها يكن مسرورات اذا اعطينها عشيقاً . ولكن جرفيز كانت تصاب بدهشة ، ولم تكتشف عند لانتيه كثيراً من الاغواءات . ومما لا شك فيه انه تغير لصالحه . يرتدي دائماً سترة ، وقد تلقى تثقيفا في المقاهي والاجتماعات السياسية الا انها ، وهي تعرفه جيداً ، كانت نظرتها تتغلغل من ثقبي عينيه

حتى نفسه وتجد هناك كدسة من الاشياء ، تحتفظ منها برعشة خفيفة . واخيراً لماذا لا تجازف الاخريات ويختبرن السيد اذا كان هذا يسرهن كثيراً ؟ هـذا ما اسمعته ذات يوم لفرجيني التي بدت اكثرهن حماسة . وعندئذ روت لها مدام ليرا وفرجيني غراميات لانتيه مع كليمانس الكبيرة لتثيرا غضبهـا . نعم ، لم تكن تفطن لشيء ولكن ما ان تخرج في جولة حتى يأتي صانع القبعات بالعامـلة الى غرفته . والناس الآن يلتقون بهما معاً ، وهو يذهب لزيارتها في بيتها

وقالت الغسالة بصوت مرتجف قليلاً

– وبعد ؟ ما شأني بهذا ؟

وتطلعت الى عيني فرجيني الصفراوين حيث كانت تلمع شرارات ذهبية كما في عيون الهررة . أتكرهها هذه المرأة اذن وتحاول اثارة غيرتهـا ؟ ولكن الخياطة تظاهرت بالبلاهة وهي تجيب

– بالتأكيد ، لا شأن لك فقط ، عليك ان توجهي اليـه النصيحة ليترك هذه الفتاة التي يمكن ان يصاب معها بمكروه .

والأسوأ من ذلك هو ان لانتيه شعر انه مسنود فغيّر طرائقه حيال جرفيز . وصار الآن يحتفظ بأصابعها قليلاً بين اصابعه حين يضع يده في يدها مصافحاً ويتبعها بنظراته ، ويثبت عليها عينين جريئتين كانت تقرأ فيهما بوضوح مـا يريـد منها وكان اذا مر من ورائهـا يدخل ركبته في ملابسها ، وينفخ في عنقها كأنه يريد تنويمها الا انه كان لا يزال ينتظر قبـل ان يكون عنيفاً ويعلن عن نفسه ولكن ذات مساء ، وكان وحيداً معها ، دفعها امامه دون ان يفوه بكلمة ، وحصرها في الجدار داخل الدكان وهي ترتجف ، وهناك اراد تقبيلها وشاءت الصدفة ان يدخل غوجيه في الوقت المنـاسب فقاومت عنـدئذ وهربت ، وتبادل الثلاثة بعض الكلمات كأن لم يحـدث شيء . وشحب وجه غوجيه وخفض رأسه متخيلاً انـه ازعجها ، وانها قاومت لئلا تتلقى القبلة امام الناس .

وفي الغد سارت جرفيز في الدكان بائسة جـداً ، غير قـادرة على كوي

منديل ، وكانت بحاجة لرؤية غوجيه لتوضح له كيف ان لانتيه حضرهـــا في الحائط ولم تكن تجرؤ على الدخول الى مصنع الحديد منذ مـــا اصبح اتيين في مدينة ليل، لأن المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش كان يستقبلها بضحكات خبيثة . الا انها خضعت لرغباتها في فترة ما بعد الظهر ، واخذت سلتها فارغة، وذهبت بحجة اخذ بعض الثياب من عند احد زبائنهـا في شارع بورت بلانش .
وحين اصبحت في شارع ماركاديه، امام مصنع البراغي ، مشت بخطى صغيرة، معتمدة على لقاء تهيئه الصدفة . ومما لا شك فيه ان غوجيه كان بانتظارهـــا ، لانها لم تمكث خمس دقائق هناك حتى خرج كأن ذلـك صدفة . وقال مبتسماً ابتسامة ضعيفة

– انت في جولة ، وتريدين العودة . .

قال ذلك لكي يتكلم . وكانت جرفيز قد ادارت ظهرها لشارع بواسونيير . وصعدا باتجاه مونمارتر ، جنباً الى جنب ، دون ان يتأبطا ذراع بعضهما البعض. وكانت فكرتها الوحيدة ان يبتعدا عن المصنع لئلا يُظن انهما يعينـان المواعيد امام الباب . وسارا منخفضي الرأس ، يتبعـان الطريق المشقوق ، وسط زفير المصانع ، ثم على بعد مئتي خطوة ، وهما يعرفان المكان ، كان من الطبيعي ان يسيرا شمالاً ، صامتين دائماً ، وان يدخلا في ارض بور وكـــان بين منشرة ميكانيكية ومصنع ازرار عصابة من المرج ظلت خضراء ، تمازجها صفائـــح صفراء من العشب المحمص ؛ وهناك معزاة مربوطة الى وتد كانت تدور ثاغية ، وفي الداخل ، شجرة يابسة تتفتت في الشمس ، وتمتمت جرفيز

– صحيح ! يشعر المرء انه في الريف .

وسارا وجلسا تحت الشجرة اليابسة ووضعت الغسالة سلتها على قدميها ، وتلة مونمارتر امامهما تنضد صفوفها من البيوت العالية الصفراء الرمـــادية ، في باقات من الخضرة الهزيلة ، وحين كانا يقلبـــان رأسيهما كانا يشاهدان السماء الواسعة ذات نقاء محتدم فوق المدينة ، تجتازهـــا من ناحية الشمال غيوم صغيرة بيضاء . ولكن النور الحاد كان يبهرهما فينظران الى الابعـــاد الطباشيرية

للضواحي على سطح الافق، ويتابعان على الخصوص تنفس انبوب المنشرة الآلية الرقيق الذي كان ينفث نوافير من البخار . وبدت هذه الزفرات الضخمة انها تخفف عن صدريهما المتضايقين.

وتابعت جرفيز وهي متضايقة من صمتهما

– نعم ، كنت في جولة ، وخرجت

بعد ان تمنت ان تقدم ايضاحاً لم تجرؤ على الكلام ، فقد انتابها خجل عظيم. ومع ذلك فقد كانت تشعر تماماً انهما جاءا الى هنا من تلقاء نفسيهما ليتحدثا عن ذلك ؛ كانا يتحدثان عن الأمر دون أن يكونا بحاجة للفظ كلمة وظلت قضية الأمس بينهما كثقل يضايقهما

وعندئذ اجتاحها حزن طاغ ، فروت ، والدموع في عينيها ، قصة موت مدام بيجار، غسّالتها ، التي ماتت هذا الصباح بعد آلام مخيفة . وقالت بصوت عذب ورقيب

حدث ذلك بسبب رفسة أتتها من بيجار . وقد انتفخ بطنها . ومما لا شك فيه أنه كسر لها شيئاً في الداخل. يا الهي! في مدى ثلاثة أيام، كانت تتعذب... آه! في السجون انذال لم يفعلوا أكثر من ذلك . ولكن اذا اهتمت العدالة بالنســـاء اللواتي يقتلهن ازواجهن فسيصبح لديها الكثير من العمل . رفسة أكثر أو أقل ، أليس كذلك ؟ لا تحسب اذا تلقاها المرء كل يوم . وفضلاً عن ذلك فالمرأة المسكينة أرادت إنقاذ زوجها من المقصلة وأوضحت أنها اصيبت في بطنها من جراء سقوطها على وعاء الغسيل . لقد ظلت تصرخ طول الليل قبل أن تذهب .

كان الحداد صامتاً ينتزع العشب بأصابعه المتشنجة وتابعت جرفيز

– لم يمض خمسة عشر يوماً على فطامها لطفلها الاخير ، جول الصغير ؛ وهذا أيضاً يعتبر حظاً ، لأن الصغير لا يتألم لا يهم . إليك تلك الطفلة لالي المكلفة بطفلين . لم تبلغ الثامنة من عمرها ، وهي رزينة وعاقلة كأم

حقيقية . ومع هذا فوالدها يوهنها بالضرب   آه ! ما أكثر ما نلتقي بأناس خلقوا ليتعذبوا

ونظر إليها غوجيه وقال فجأة ، وشفتاه ترتجفان

– لقد سببت لي البارحة كثيراً من الغم   اوه ! نعم ، كثيراً من الغم ..

وشحب لون جرفيز وضمت يديها ، ولكنه تابع :

– أنا أعلم . هذا يجب أن يحدث.. فقط ، كان عليك أن تثقي بي ، وتعترفي لي بما حدث لكي لا تدعيني عرضة لأفكار ...

ولم يستطع ان يكمل . وكانت قد نهضت مدركة ان غوجيه يعتقد انها تصالحت مع لانتيه كما يؤكد سكان الحي . وصاحت مادّة ذراعيها

– كلا ، كلا ، اقسم لك .. لقد دفعني وكاد يقبلني ، هذا صحيح ، ولكن وجهه لم يلامس وجهي ، وهي المرة الاولى التي حاول فيها ذلك ... اوه ! .. اقسم على هذا بحياتي ، بحياة أولادي ، وبكل ما هو مقدس لدي

إلا أن الحداد هز رأسه . كان حذراً لأن النساء ينكرن دائماً   وعندئذ أصبحت جرفيز اكثر وقاراً ، وقالت بهدوء :

– أنت تعرفني يا سيد غوجيه ، لست كاذبة أبداً .. كلا هذا لم يحدث . قول شرف ! ابداً هذا لن يكون ، أتسمع ؟ أبداً ! وفي اليوم الذي يحدث ذلك أكون أخيرة الأخيرات ولن استحق صداقة رجل فاضل مثلك .

واصبح وجهها وهي تتكلم جميلاً جداً ، مليئاً بالصدق بحيث اخذ غوجيه يدها واجلسها . لقد اصبح الآن يتنفس مرتاحاً ويضحك في سره . كانت هي المرة الاولى التي يمسك بيدها هكذا ويشد عليها بين يديه . وظل الاثنان صامتين . وفي السماء طيران الغيوم البيضاء السابحة ببطء البجعة . وفي زاوية الحقل التفتت المعزاة نحوهما وكانت تنظر اليهما وتخرج في فترات طويلة منتظمة ثغاء كثير العذوبة . وبدون ان يتركا اصابع بعضهما البعض ، والعيون سابحة بالحب ، ضاعا في البعيد على منحدر مونمارتر القاتم وسط الغابة المرتفعة من مداخن المعامل التي تخطط الافق في تلك الضاحية الجبسية الحزينة ،

حيث الغابات الخضراء من الحانات تؤثر فيهما حتى الدموع
وقالت جرفيز بصوت منخفض :
- امك تكرهني . لا تقل كلا ... نحن مدينون لكم بكثير من المال .
ولكنه بدا عنيفاً ليسكتها . وهز يدها حتى كاد يحطمها . لم يكن يريد ان تتكلم عن المال . ثم تردد ، وتمتم اخيراً
- اسمعي . منذ وقت طويل وانا افكر في ان اعرض عليك امراً ... انت لست سعيدة ... وامي تؤكد ان حياتك تتحول الى اسوأ
وتوقف وقد ضاق نفسه قليلاً
- يجب ان نذهب معاً .
فتطلعت اليه غير فاهمة بوضوح في بادىء الامر ، لقد فاجأها هذا التصريح القاسي بحب لم تنفرج عنه شفتاه ابداً وسألت
- كيف هذا ؟
- نعم . سنذهب من هنا . وسنعيش في مكانٍ ما ، في بلجيكا اذا اردت ...
انها بلادي تقريباً .. واذا اشتغلنا نحن الاثنين نصبح بسرعة على خير حال.
عندئذ اصبحت كثيرة الاحمرار . ولو ضمّها اليه وقبلها لكان خجلها اقل من ذلك . انه مع هذا غلام عجيب يعرض عليها عملية اختطاف كما يحدث في الروايات وفي المجتمع العالي . لقد كانت ترى حولها عمالاً يغازلون نساء متزوجات ؛ ولكنهم لا يقودونهن الى سان دنيس ، بل كان ذلك يجري في نفس المكان ، وبحزم .
وتمتمت دون ان تجد شيئاً آخر
- آه ! يا سيد غوجيه ، يا سيد غوجيه
وتابع :
- واخيراً ، بذلك لا يبقى سوانا فالآخران يقلقانني . أتفهمين ؟ حين اشعر بصداقة لشخص فاني لا استطيع رؤيته مع آخرين .

ولكنها استعادت رباطة جأشها ورفضت بهيئة حكيمة :
– هذا غير ممكن يا سيد غوجيه هذا سيء جداً .. أنا متزوجة ، أليس كذلك ؟ ولي أولاد انا أعلم انـك صديق لي واني أسبب لك الغم . إلا اننا سنشعر بتوبيخ الضمير ، ولن نتذوق السرور ... وانا ايضاً أشعر بصداقة لك . وصداقتي العظيمة تمنعني من ان أدعك ترتكب حماقات ان هذه هي حماقات بالتأكيد . كلا : انت ترى ، من الأفضل أن نبقى كما نحن . اننا نتبادل الاحترام ومتفقان بالعاطفة . وهذا كثير ، وقد حفظني اكثر من مرة اذا ظللنا فضلاء في وضعيتنا فسنكافأ جيداً .

كان يهز رأسه وهو يستمع . وفجأة ، وفي وضح النهار ، اخذها بين ذراعيه وضمها بشدة وطبع قبلة هائجة على عنقها ، كما لو انه يريد ان يلتهم بشرتها ، ثم تركهـــا دون ان يطلب شيئاً آخر ؛ ولم يتكلم عن حبها . امـا هي فقد اهتزت ، ولم تغضب ، مدركة ان كلاً منهما ربح تلك اللذة الصغيرة .

الا ان الحداد ، وقد اجتاحته رعشة شديدة من الرأس حتى القدمين ، ابتعد عنها لئلا يخضع لرغبته في اخذها ثانية وحبا على ركبتيه ولا يدري بماذا يشغل يديه ، قاطفاً ازاهير الهندباء البرية ليلقيها من بعيد في سلتها.

وكان يوجد وسط بساط العشب المحروق هندباء برية صفراء رائعة . وهذا اللعب هدأ ثائرته تدريجياً وألهاه . وكان يقطف الزهور بدقة بأصابعه المتصلبة من شغل المطرقة ، ويقذفها دفعة واحدة . وعيناه ككلب الصيد ، تضحكان حين لا يخطيء السلة . وكانت الغسالة تسند ظهرها الى الشجرة اليابسة ، مرحة مرتاحة ، رافعة صوتها لتُسمع في لهاث المنشرة الآلية القوي . وحين تركا الأرض البور ، وهما يسيران جنباً إلى جنب ، متحدثين عن إتيين الذي كان مسروراً جداً في ليل ، حملت سلتها الملأى بزهور الهندباء البرية .

كانت جرفيز لا تشعر بنفسها انها شجاعة امام لانتيه كما قالت. ومن المؤكد انها كانت عازمة على الا تسمح له بلمسها بأطراف أصابعه ؛ ولكنها كانت خائفة من جبنها القديم اذا اقدم على لمسها ، من ذلك الاسترخاء وتلك المجاراة اللتين

تُسير بموجبها لتوفر السرور للناس . الا ان لانتيه لم يعد الى محاولته . وقد وُجد معها وحيداً عدة مرات وظل هادئاً وكان يبدو الآن انه مشغول ببائعة الأمعاء ، وهي امرأة في الخامســـة والأربعين ، محافظة جداً . وكانت جرفيز تتحدث مع غوجيه عن بائعة الأمعاء لتطمئنه . وتجيب فرحيني ومدام ليرا حين تمتدحان صانع القبعات ، ان بإمكانه الاستغناء عن إعجابها ما دامت جميع الجارات أصبحن عاشقات له .

وكان كوبو يقول في الحي ان لانتيه صديق حقيقي . وبإمكان الناس ان يثرثروا على حسابهم ما دام يعرف ما يعرف ولا يهتم بالثرثرة ، وما دام يملك النزاهة من ناحيته وحين كان الثلاثة يخرجون نهـــار الأحد كان يجبر صانع القبعات على تأبط ذراع زوجته والسير معها امامه وذلك ليتبجح في الشارع ؛ وكان ينظر الى الناس ، مستعداً لتلويثهم بالوحل اذا سمحوا لأنفسهم بأقل سخرية . وما من شك في انه كان يجد لانتيه متكبراً بشكل مضحك ، ويتهمه بالجبن أمام الكحول ، ويهزأ منه لأنه يقرأ ويكتب كمحام . ولكن فيما عدا ذلك كان يصرح انه شخصية ممتازة ، وانه لا يوجد اثنان أشداء مثله . واخيراً كانا يتفاهمان ، وقد خلق كل منهما للآخر والصداقة مع رجل اكثر مكانة من حب امرأة .

وهناك شيء يجب قوله . كان كوبو ولانتيه يدفعان معاً نفقات الحفلات . واصبح لانتيه الآن يستقرض نقـــوداً من جرفيز ، بعشرة فرنكات ، بعشرين فرنكا حين يشعر بوجود نقود في البيت . وكان كل ذلك لاجل اعماله العظيمة . ثم اصبح في تلك الايام يمنع كوبو من مواصلة عمله ، وكان يتحدث عن جـــولة كبيرة يصحبه فيها ؛ وكانا يأكلان ، وهما جالسان وجهاً لوجه في داخل مطعم مجاور ، الواناً من الطعام لا يستطيعان اكلها في البيت ، مسقاة بالنبيذ المختوم . وكان عامل الزنك يفضـــل الافراط في الاكل كسلوك طفل ، ولكنه متأثر بأذواق صانع القبعات الارستقراطية الذي وجد على اللائحة اسماء انواع مـــن الحساء غير عادية لم يكن هناك فكرة رجل سريع التأثر وصعب . ويبدو ان

الجميع هكذا في الجنوب . ولم يكن يريد شيئاً يبعث الدفء ، وكان يناقش كل طبخة من الناحية الصحية ، ويعيد اللحم اذا رآه كثير الملح او البهارات . والأردأ من ذلك هي مجاري الهواء ، فقد كان يخشاها جداً ، ويشتم المؤسسة بكاملها اذا بقي احد الابواب نصف مفتوح . ومع كل هذا فقد كان حريصاً ، ويعطي النادل فلسين في وليمة تبلغ نفقاتها من سبعة الى ثمانية فرنكات . وكانوا يرتجفون امامه ، ويعرفونه جيداً في الشوارع الخارجية ، من باتينيول الى بلفيل . وكانا يذهبان الى شارع باتينيول الكبير ويأكلان فوارغ على طريقة كان Caen يقدمونها لهما على مواقد صغيرة . وفي اسفل مونمارتر كانا يجدان افضل المحار في الحي ، في « فيل دي بار - لوديك » . وحين يجازفان بالصعود الى اعلى التلة حتى « مولان ديلا غاليت » كانوا يشوون لهما ارنباً . وفي شارع الشهداء كانت « الليلا » مختصة برأس العجل ؛ بينما في كلينيانكور يقدم مطعما « الاسد الذهبي » و « وشجرتا الكستنا » كلى مقلية تلحس الاصابع وراءها . ولكنهما في اغلب الاحيان كانا يدوران شمالاً ، الى ناحية بلفيل ، ولهما مائدة محفوظة في « فندنج دي بورغونيه » وفي « كادران بلو » وفي « الكبوشي » وهي محلات ثقة ، بامكان المرء فيها ان يطلب كل شيء وهو مغمض العينين . انها اعمال يقومان بها خفية ويتحدثان عنها صباح الغد بكلمات مغطاة ، رافضين بطاطا جرفيز وقد صدف ذات يوم ، تحت اشجار « مولان ديلا غاليت » ان اتى لانتيه بامرأة تركه كوبو معها اثناء تناول الحلوى بعد الطعام .

ومن الطبيعي ألا يكون الجمع بين اللهو والشغل ممكناً . وهكذا ، فمنذ دخول صانع القبعات الى البيت فان عامل الزنك الذي لم يكن يتوانى عن الكسل ، وصل الى درجة عدم لمس أية أداة عمل . وحين يستأجره أحد بعد أن يفلس ، كان رفيقه يوبخه في المشغل ، ويسخر منه جداً حين يجده مشنوقاً بطرف حبله المعقود كفخذ خنزير مقدد . ويصيح به لينزل ويتناول كأساً ، ويسوّي ذلك ويترك عامل الزنك الشغل . وكان يبدأ بسكرة تستمر أياماً

وأسابيع . أوه ! مثــلا ، سكرات شهيرة ، واعادة نظر عامة بجميع بائعي الخمر في الحي ، وسكر الصباح مخمّر في الظهيرة ومعاد في المساء . وتتتابع دورات الكؤوس وتضييع في الليل ، شبيهة بمصابيح حفلة ، ينطفىء فيها آخر مصباح مع آخر كأس ! وهذا الحيوان صانع القبعات لم يكن يتمادى في السكر الى النهاية ، كان يدع الآخر يلتهب ويتركه ليعود الى البيت مبتسماً بهيئتــه المحببة لقد كان يشرب دون ان يفطن أحد اليه وحين يُعرف فان ذلك يظهر في عينيه الكثيري الرقة ، وفي تصرفاته الأكثر جسارة حيــال النساء . أما عامل الزنك فبالعكس ، لقــد أصبح مقرفاً ، لا يستطيع أن يشرب دون أن يصبح في حالة مرذولة .

وهكذا ، ففي الأيام الأولى من تشرين الثاني قــام كوبو بسكرة انتهت بشكل قذر بالنسبة اليه والى الآخرين . لقد وجد عملاً بالأمس . وكان لانتيــه هذه المرة مليئــاً بالعواطف الطيبة ؛ كان يبشر بالشغل لان الشغل يشرف الانسان . وفي الصباح نهض على ضوء القنديل ، كان يريد مرافقة صديقــه الى المشغل ، مكرماً به العامل الجديد بهــذا الاسم . ولكن حين وصلا الى امام حانة « سيفيت الصغيرة » التي كانت قد فتحت أبوابها ، دخلا يتناولان شراب الخوخ ، لا شيء سوى قدح واحد لهدف واحد هو أن يسقيا معاً العزم الوطيد على السلوك الحميد . وكان بيبي لاغرياد مقابل منضدة البــائع ، مديراً ظهره للجدار وهو يدخن غليونه بهيئة عابسة . فقال كوبو :

– أنظر ! بيبي الذي يبدو كالفهد . أخامل اليوم أنت يا صديقي ؟

فأجاب الرفيق وقد مد ذراعيه

– كلا ، كلا ، ولكن أرباب العمل هم الذين يبعثون على الاشمئزاز . لقــد تركت معلمي البارحة كلهم أنذال سفلة

وقبل بيبي لاغرياد قدح شراب الخوخ . واضطر ان يبقى هناك على المقعد ، منتظراً دورة الكأس . الا ان لانتيه دافع عن أرباب العمــل ؛ انهم يصابون أحيانــاً بشرٍّ بالغ . وهو يعرف عن ذلك أموراً كثيرة ، هو الذي خرج من

الأعمال . والعمال من الرعاع ! دائماً في حالة لهو غير مبالين بالعمل ، يتركونك تماماً أثناء طلبية مستعجلة ويعودون الى الظهور حين تنفذ نقودهم . وهكذا ، فقد كان هناك بيكاردي صغير مهووس بالانتقال في العربة ؛ نعم ، فما يكاد يقبض اجرته الاسبوعية حتى يستأجر عربة طوال أيام . فهل هـذا ذوق شغيل ؟
ثم أخذ لانتيه فجأة يهاجم أرباب العمل أيضاً . اوه ! انه يرى واضحـاً ويقول الحقيقة عن كل فئة . عرق قـذر بعد كل شيء ، مستثمرون بدون حياء ، آكلو الناس وهو ، والحمد لله ، يستطيـع النوم مرتاح الضمير لانه كان دائماً يتصرف كصديق مع رجاله ، وكان يفضل الا يربح الملايين كالآخرين .

وقال موجهاً الكلام الى كوبو

– هيا بنا يا صغيري . يجب أن تكون عاقلاً . سوف نتأخر .

وخرج بيبي لاغرياد معهما ويداه تتأرجحان . وفي الخارج لمـّا يطلع النهار . نهار صغير ملوث بانعكاس البلاط الموحل ؛ فقد أمطرت أمس ، والطقس هادىء جداً . وأطفئت مصابيح الغاز ؛ وشارع بواسونيير ، حيث لا تزال تطفو فيه مزق من الليل خنقتها البيوت ، كان يمتلىء بوقع أقـدام العمال الهابطين نحو باريس

وكوبو ، وكيسه كعامل زنك معلق بكتفه ، كان يسير مندهشاً من الهواء الطلق كمواطن أصيب بعارض لأول مرة . وقد التفت وسأل :

– أتريد يا بيبي أن تشتغل؟ لقد قال لي المعلم ان آتي برفيق اذا استطعت .

فأجاب بيبي لاغرياد :

– شكراً . انني أستعفي ... يجب أن تعرض هذا على ميبوت الذي كان البارحة يبحث عن عمل . انتظر ، فميبوت هناك بالتأكيد .

وحين وصلوا الى أسفل الشارع شاهدوا بالفعل ميبوت عند الأب كولومب . ورغم الساعة الصباحية كانت الحانة تلتهب ، والمصاريـع مرفوعة والغـاز مشعل . وظل لانتيه على الباب طالباً من كوبو أن يسرع لانه لا يزال أمامهم عشر دقائق تماماً .

وصاح ميبوت حين حدثه عامل الزنك :

– كيف ! أتذهب الى عند هذا الحمار البرغوني ! لقد لدغت كثيراً من هذه العلبة ! كلا ، أفضل ان أسحب لساني حتى السنة القادمة ... ولكن يا صديقي لن تبقى هناك ثلاثة أيام . وأنا أقول لك ذلك

فسأل كوبو قلقاً

– أصحيح ؟ أهي علبة قذرة ؟

– اوه ! انها الأكثر قذارة ... لا يستطيع المرء أن يتحرك ... والقرد على ظهرك دون انقطاع . ومع كل هذا ، أساليب ، وبورجوازية تنعتك بالسكير ، ودكان حيث يمنع البصاق . وقد تركتهم منذ المساء الأول ، وأنت تفهم .

– حسناً ! ها أنا قد أُنذرت . لن آكل عندهم كيلة ملح . سأذهب وأجرب هذا الصباح ؛ ولكن اذا ضايقني رب العمـــل فسألتقطه لك وأجلسه على بورجوازيته ، ليصبحا ملتصقين كزوج من الأحذية !

وهز عامل الزنك يد رفيقه ليشكره على معلوماته القيمة وسار حين غضب ميبوت . يا لرعد الله ! هل يمنعه البورغوني من شرب خمرته ؟ اذن لن يكون الرجال رجالاً . بإمكان القرد ان ينتظر خمس دقائق . ودخل لانتيه ليقبـــل بدوره الخمر ، ووقف العمال الاربعة امام منضدة البائع . الا ان ميبوت بحذائه المطوي الى الداخل ، وبلوزته السوداء من الأوساخ ، وقبعته المسطحة على قمـة الجمجمة ، كان يصرخ عالياً ويجيل في الحانة عيني سيد . لقد نودي به امبراطوراً على السكارى وملكاً على الخنازير ، لأنه أكل سلطة من الخنافس الحية وقضم هراً ميتاً . وصاح بالأب كولومب

– قل اذن يا بورجيا اعطني من الشراب الاصفر ، من بولك كحمار ، رقم واحد .

وحين ملأ الأب كولومب الاقداح الأربعة وهو شديد الشحوب ، هادىء في دراعته الزرقاء ، افرغها هؤلاء السادة دفعة واحدة ، وذلك لئلا تمس الريح المائع .

وتمتم بيبي لاغرياد

– انه يحدث الخير أينما مر .

ولكن ذلـك الحيوان ميبوت روى لهم نكتة . كان نهار الجمعة مخموراً الى درجة ان رفاقه الصقوا له غليونـه بمنقاره بواسطة قبضة من الجبس . ولو كان غيره لمات ، اما هو فقد نفخ ظهره ومشى متبختراً كالطاووس .

وسأل الأب كولومب بصوته الدسم

– الا يجدد السادة ؟ ..

فقال لانتيه

– اجل ، ضاعف لنا . انه دوري .

واخذوا يتحدثون عن النساء . ففي نهار الاحد الاخير اخذ بيبي لاغرياد منشاره الى مونتروج عند عمة له . وكوبو سأل عن اخبار «لامال ديزاند »، وهي غسالة من شايو معروفة في المؤسسة . وكان على وشك الشرب حين نادى ميبوت بعنف غوجيه ولوريللو اللذين كانا مارين . وجــاء هذان حتى الباب ورفضا الدخــول . لم يكن الحداد يشعر بحاجة لتناول شيء وصانع السلاسل ، شاحب، مرتجف، يضم في جيبه االسلاسل الذهبية التي كان يحملها الى اصحابها ؛ وكان يسعل ويعتذر قائلاً ان قطرة من العرق تطرحه في الفراش .

ودمدم ميبوت :

– المراؤون !.. انهم يشربون في احدى الزوايا .

وحين وضع انفه في كأسه امسك بالاب كولومب وقال :

– ايها الهرم الرديء . لقد ابدلت الليتر ! انت تعــلم انه يجب الا تغش خمرتك معي !

وسطع النهار . وكان ضوء خفيف ينير الحانة التي أطفأ فيها صاحبها الغاز . الا ان كوبو اعتذر عن صهره الذي لا يستطيــع أن يشرب ، ويجب ألا يسببوا له جريمة . وامتدح غوجيه لأن من لا يشرب أبداً يعتــبر سعيداً وتكلم عن الذهاب للشغل حين لقنه لانتيه درساً بهيلته كرجل كما يجب على الأقل يجب

أن يدفع دوره قبل أن يذهب والمرء لا يترك أصدقـــاءه كخادم المروءة ليذهب الى واجبه .

وصاح ميبوت :

– هل سيزعجنا وقتاً طويلاً بشغله ؟

وسأل الأب كولومب كوبو

– هل هو دور السيد الآن ؟

ودفع هذا ثمن دوره . ولكن حين جاء دور بيبي لاغرياد المحنى على اذن صاحب الحانة الذي رفض باشارة بطيئة من رأسه وفهم ميبوت واخذ يشتم ذلك المفتول الأب كولومب . كيف ! حيوان من نوعه يسمح لنفسه بتصرفات رديئة حيال رفيق ! ان جميع باعة الخمر يتمنونهم ! كان يجب المجيء الى مناجم الفلفل لسماع الاهانة ! وظل صاحب الحانة هادئاً يؤرجح قبضتيه الضخمتين على حافة المنضدة ، مردداً بتهذيب

– اقرض السيد نقوداً . وسيصبح الأمر في غاية البساطة .

وعوى ميبوت :

– واسم الله ! نعم ، سأقرضه . خذ يا بيبي واقذف نقود هذا البائع من خلال فمه .

وازعجه في اندفاعه كيس كوبو المعلق في كتفه ، وتابع ، موجهاً الكلام الى عامل الزنك .

– انك تبدو كمرضعة . اترك رضيعك لانه يجعلك أحدب .

وتردد كوبو لحظة ، وبهدوء ، كأنه صمم على ذلك بعد تفكير ناضج ، وضع كيسه على الارض قائلا .

– اصبح الوقت الآن متأخراً . ســـأذهب الى البورغوني بعد الافطار . وسأقول ان زوجتي أصيبت بمغص ... اسمع يا أب كولومب . سأترك ادواتي تحت هذا المقعد وسأعود لأخذها ظهراً .

واستصوب لانتليه هذا التدبير بهزة رأسه . يجب على المرء ان يشتغل ، وهذا

لا يقبل الشك . الا ان المرء يجد نفسه مع اصدقاء ، فالتهذيب قبل كل شيء . وساورتهم تدريجياً رغبة الافراط بالشرب وخدّرتهم. وثقلت ايديهم فاعتمدوا على عيونهم . وحـــين بقي امامهم خمس ساعات من التسكع انتابهم سرور صاخب ، واطالوا التصفيق ، ووجهوا الى بعضهم البعض كلمات حبية . وكوبو على الخصوص ، وقد زالت كربته ، واستعاد شبـــابه ، كان يدعو الآخرين « يا غصني الحرم ! » وشربوا ايضاً دورة عامة ؛ ثم ساروا الى حانة « البرغوث الشاخر » ، وهي حانة صغيرة فيها بليار . واعترض صانع القبعات لحظة لأنها مكان غير لائق تماماً وليتر العرق الرديء فيها بفرنك ، والشوبين [1] لكأسين بعشرة فلوس . وقد لوث زبائن المكان البليار بكثير من الاوساخ مما جعـــل الكرات ان تبقى ملتصقة به . ولكن حين بدأوا باللعب ، فان لانتليه الذي كان ذا مزاج غريب استعاد ظرفه وبشاشته . ورفع نصفه الاعلى مصاحباً كل ضربة بليار بحركة من خصره .

وحين حلت ساعة الغداء خطرت لكوبو فكرة ، ففحص برجليه صارخاً .

– يجب ان نذهب لنأتي بالمنقار المملح . انا أعلم أين يشتغل سنأتي به ونأكل افخاذ دجاج عند الام لويس .

ونالت الفكرة الاستحسان .نعم ، فالمنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش يجب ان يكون بحاجة الى أكل افخاذ دجـــاج . وساروا ، وكانت الشوارع صفراء ويتساقـــط مطر خفيف ؛ ولكنهم كانوا يشعرون بكثير من الحر في الداخل فأحسوا بهذا الرش الخفيف على اجسادهم . وقادهم كوبو الى شارع ماركاديه ، الى مصنع البراغي . وبما انهم وصلوا قبل موعد خروج العمال بنصف ساعة،فان عامل الزنك اعطى ولداً فلسين ليدخل ويقول للمنقار المملح ان زوجته مريضة وهي تطلبه حالاً وظهر الحـداد على الاثر مترنحاً ، بهيئة هادئة وانف يشتمّ وليمة حافلة وقال حين شاهدهم مختبئين تحت احد الابواب

---

[1] - شوبين Chopine : كيل للموائع كان يستعمل قديماً في فرنسا وسعته نصف ليتر تقريباً .

– آه ! الخبثاء ! لقد احسست بذلك .. ها ؟ ماذا نأكل ؟..

وعند الام لويس،عادوا يتحدثون عن ارباب العمل وهم يمصون عظام الافخاذ الصغيرة . وقال المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش ان هناك طلبية مستعجلة في مكان عمله . اوه ! لقد تسامح القرد بربع الساعة . واصبح التغيب مستطاعاً عند مناداة الاسماء . وظل لطيفاً . ويجب ان يعتبر نفسه سعيداً إذا عاد المنقار المملح إليه. واولاً ليس هناك اي خطر في اقدام رب العمل على طرد المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش اذ لا يوجد ابداً عمال بمقدرته وبعد الافخاذ اكلوا عجة . وشرب كل منهم ليتره . والام لويس تجلب نبيذها من الاوفرنيه نبيذ بلون الدم يمكن قطعه بالسكين . وبدأ الامر يسوء ، وانهالت الشتائم . وصاح المنقار المملح اثناء تناول الحلوى بعد الطعام :

– ماذا يريد هذا القرد؟.. الم تخطر له فكرة تعليق جرس في مكان عمله ؟. الجرس ، هذا يصلح للعبيد ... آه ! بامكانه ان يرن اليوم ! يا للرعد اذا اعادوني الى السندان ! لقد تركته منذ خمسة ايام ، وبامكاني ان اسخر منه .. واذا طردوني فسارسله الى شايو .

فقال كوبو باهتمام :

– اما انا فمضطر ان اترككم . سأشتغل نعم ، لقد اقسمت لزوجتي .. تسلوا وسأبقى بقلبي مع الرفاق ، وانتم تعلمون .

وسخر الجميع . ولكنه كان يبدو مصمماً بحيث رافقه الجميع ، حين تكلم عن ذهابه ، ليأخذ ادواته من عند الاب كولومب . واخذ كيسه من تحت المقعد ووضعه امامه بينما كانوا يشربون آخر جرعة . وفي الساعة الواحدة قدموا دوراً ثانياً . وعندئذ اتى كوبو بحركة تدل على الضجر واعاد الادوات الى تحت المقعد ، فقد كانت تضايقه ولا يستطيع الاقتراب من منضدة البائع دون ان يصطدم في الداخل. لقد كان الأمر محرجاً، وسوف يذهب غداً الى البورغوني. والاربعة الآخرون الذين كانوا يتجادلون حول مسألة الاجور لم يدهشوا حين عرض عليهم عامل الزنك ، دون مقدمات ، القيام بجولة صغيرة على البولفار

ليزيلوا الصدأ عن سيقانهم . وكان المطر قد انقطـــع . واقتصرت الجولة الصغيرة على السير ملقي خطوة في نفس الصف ، واذرعهم متأرجحة ، ولم يفوهوا بكلمة، وقد فاجأهم الهواء، قلقين لوجودهم في الخارج. ودون ان يتشاوروا ولو بالمرافق، صعدوا ببطء ، وبدافع الغريزة ، شارع بواسونيير ودخلوا الى عنـــد فرنسوا ليتناولوا خمراً بالزجاجة . والصحيح انهم بحاجة الى ذلـك ليتمالكوا انفسهم . لقد جالوا كثيراً في الشارع مكتئبين ، فقد كان هناك وحل يمنع وقوف شرطي على الباب . ودفع لانتيه الرفـاق الى الغرفة ، وهي زاوية ضيقة تشغلها طاولة واحدة ، ويفصلها عن الغرفة المشتركة حاجز من الزجاج غير المصقول. وكان من عادته ان يسكر في الغرف الصغيرة لانها اكثر ملاءمة. الم يكن الرفاق على خير حال هناك ؟ .. سيعتقدون انهم في بيوتهم ، ويفعلون مـا يشاؤون دون اية مضايقة . وطلب جريدة ونشرها ، وتصفحها عابساً . وكان كوبو وميبوت قد اخذا يلعبان البيكيه *Piquet* . وعلى الطـــاولة ليتران وخمسة اقداح . وسأل ميبوت صانع القبعات :

– ايه ! ماذا يقولون في هذه الورقة ؟

فلم يجب حالاً ثم قال دون ان يرفع عينيه

– اني اقرأ عن مجلس النواب ها هم جمهوريون باربعة فلوس ، اولئـــك اليساريون الكسالى. هل عينهم الشعب ليشربوا ماءهم المحلّى ! .. هذا يؤمن بالله ويغازل اولئك الوزراء الاوباش ! ولو عُينت انا لصعدت الى المنبر وقلـــت قذارة ! نعم ، ليس اكثر . هذا رأي !

وقال المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش

– تعلمون ان بادنغيه [1] تضارب مع زوجته في ذلك المساء امام بلاطه كله. كلام شرف ! وبسبب لا شيء، وهما يتجادلان وكان بادنغيه في حـــالة سكر. فصاح عامل الزنك :

---

١ ـ يقصد نابليون الثالث .

- دعنا من سياستك واقرأ حوادث القتل ، فهذا افضل .

وعاد الى لعبه معلناً ان معه ثلاث تسمات وثلاث بنات .

- معي ثلاث اوراق ساقطة وثلاث يمامات .. فالفساتين لا تتركني .

وافرغت الكؤوس . واخذ لانتيه يقرأ بصوت مرتفع

- جريمة مروعة ألقت الذعر في مديرية غيون (سين - اي - واز) . ولد قتل والده بضربة رفش ، ليسرق منه ثلاثين فلساً

وصرخ الجميع اشمئزازاً . هذا واحد سيذهبون لرؤيته وهو يختصر الطريق بسرور ! كلا ، فالمقصلة لا تكفي ، بل يجب تقطيعه اربـاً . وقد اثارهم ايضاً مقتل طفل ، ولكن صانع القبعات ، وهو اخلاقي جداً ، عذر المرأة ، واضعاً جميع الاخطاء على من اغواها . لانه لو لم يكن هناك رجـل نذل يحمل تلك البائسة تضع طفلاً لما تمكنت من القائه في المرحاض . اما مـا أثار حماستهم فهي مآثر المركيز دي ت .. الخارج من حفلة راقصة في الساعة الثانية صباحاً وقـد دافع عن نفسه ضد ثلاثة صعاليك ارديا في شارع الانفاليد ، دون ان يخلع حتى قفازيه ، اذ تخلص من المجرمين الاولين بواسطة نطحات في البطن ، وقاد الثالث الى المخفر من اذنه . ها ؟ .. يا لهـا من قبضة قوية ! من المزعج ان يكون من النبلاء .

وتابع لانتيه

- اسمعوا هذا الآن . اني انتقل الى اخبار الطبقة العليا « الكونتس دي بريتيني تزوج ابنتها الكبرى من البارون الشاب دي فالانسي ياور جلالته . وكان في السلة اكثر من ثلاثماية الف فرنك من الدانتيل »

فقاطعه بيبي لاغرياد :

- وماذا يهمني هذا ! .. لن يسالوا عن ألوان قمصانهم .. وجميل ان تحصل الصغيرة على الدانتيل ، فلن ترى القمر من نفس الثقب الذي يراه الآخرون منه .

وبما ان لانتيه اظهر انه انهى قراءته فان المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش اختطف الجريدة منه وجلس فوقها قائلاً

– آه ! كلا . كفى . ها هي في مكانها .. الجريدة لا تصلح الا لهذا .

الا ان ميبوت الذي كان يتطلع الى لعبه ضرب على الطاولة ضربة انتصار . فقد جمع ثلاثة وتسعين . وصاح

– عندي ثورة [1]

وصاح الجميع بكوبو

– لقد غُلبت يا صديقي .

وطلبوا ليترين جديدين . ولم تكن الكؤوس تفرغ ، وارتفعت درجة السكر . وحوالي الساعة الخامسة بدأ الامر يصبح مقرفاً ، مع القول ان لانتيه كان صامتاً مفكراً بالهرب ؛ لانهم لا يعودون من نوعه حين يبدأون بالصياح ويسكبون الخمر على الارض . ونهض كوبو ليرسم اشـارة صليب السكارى . فلفظ مونبارناس على رأسـه ، ومانيلمونت على الكتف الايمن ، ولاكورتي على الكتف الايسر ، وبانيوليه على البطن ، وفي تجويف المعدة ثـلاث مرات ارنب مشوي . عندئذ اغتنم صانع القبعات الضوضاء المرتفعة بسبب هذا التمرين وبلغ الباب باطمئنان . ولم يفطن الرفاق لرحيله . وفي الخارج تحرك ، واستماد رباطة جأشه ، وبلغ الدكان مطمئناً . وقال لجرفيز ان كوبو موجود مع اصدقاء .

ومضى يومان ، ولم يظهر عامـل الزنك : كان يطوف في الحي ولكنهم لا يعرفون مكانه . الا ان بعض الاشخاص قالوا انهم رأوه عنـد الام باسكيه في حانة « الفراشة » وفي « الرجل الصغير العاطس » والبعض يؤكدون انه كان بمفرده بينما يؤكد البعض الآخر انهم رأوه برفقة سبعة او ثمانية من السكيرين على شاكلته . وكانت جرفيز تهز كتفيها مستسلمة . يا الهي ! انهـا عادة سيعتادها . ولم تكن تركض وراء زوجها . ولو رأته عند بائع خمر لقامت بدورة لئـلا تغضبه ، وتنتظر عودته ، مصغية ، في الليل لترى اذا كان يشخر على البـاب . كان ينام على كومة من الاقذار ، على مقعد ، في ارض بور ، خلال ساقية . وفي

---

١ ـ هنا يذكر اصطلاحات تتعلق بلعبة البيكيه ولا يمكن ترجمتها .

ألغد ، مع سكره المختمر البارحة بشكل سيء ، يذهب من جديد طارقاً ابواب الملاهي ، مرخياً العنان لنفسه من جديد في جولة هائجة وسط الكؤوس الصغيرة والكانونات Les Canons [1] والليترات ، يضيع اصدقاءه ويجدهم ، قائماً برحلات يعود منها مشبعاً بالبلادة ، مشاهداً رقص الشوارع ، وهبوط الليل ، وطلوع النهار ، دون اية فكرة سوى الشرب والاختمار في مكانه . وحين يختمر كان ينتهي كل شيء . الا ان جرفيز ذهبت في اليوم التالي الى حانة الاب كولومب لتستقي اخباره ، لقد رؤي فيها خمس مرات ، ولم يستطع احد ان يخبرها اكثر من ذلك وكانت تكتفي بحمل الادوات الباقية تحت المقعد . وفي المساء رأى لانتيه ان الغسالة قلقة فاقترح عليها الذهاب الى مقهى فيه غناء لتمضية فترة لطيفة . فرفضت اولاً ، لانها غير مستعدة للضحك . ولولا ذلك لما رفضت لأن صانع القبعات عرض عليها ذلك بهيئة نزيهة فلا تخاف الخيانة . وكان يظهر اهتمامه بمصيبتها ويبدو ابوياً حقيقياً . لم يسبق لكوبو ان نام ليلتين خارج البيت . وكانت ، بالرغم منها ، تأتي كل عشر دقائق وتقف على الباب دون ان تترك مكواتها ، متطلعة الى طرفي الشارع لترى اذا كان زوجها قد اتى وقد سبب لها ذلك حكاكاً في ساقيها ، كما كانت تقول ، يمنعها من البقاء في مكانها. من المؤكد ان من الممكن لكوبو ان يكسر عضواً ، ويسقط تحت عربة ويبقى هناك : وبهذا تكون قد تخلصت تماماً ، كانت تسعى لئلا تحفظ في قلبها اقل صداقة لشخص قذر من هذا النوع ولكن ، في النهاية ، اصبح من المقلق ان تتساءل دائماً اذا كان سيعود او لا يعود . وحين أولعت الغاز وكلمها لانتيه من جديد عن المقهى رضيت . وبعد ، فستكون حمقاء اذا رفضت مسرة ما دام زوجها يحيا حياة ماجن منذ ثلاثة ايام وبما انه لم يعد فهي ستخرج . سوف يشتعل الموقد اذا ارادت وسوف تشعل بنفسها النار في البيت ما دامت حماقة الحياة بدأت تظهر لها انفها

---

١ - مكيال للخمر يسع ١/٨ الليتر .

وتناولا الطعام بسرعة . وحين سارت جرفيز مستندة الى ذراع صانع القبعات في الساعة الثامنة ، طلبت من الام كوبو ونانا ان تناما حالاً . وكانت الدكان مقفلة ، فسارت من باب الباحة واعطت مدام بوش المفتاح قائلة لها ان خنزيرها سوف يعود وترجوها ان تنيمه

كان صانع القبعات ينتظرها عند الباب ، على اتم ما يرام ، وهو يصفر لحناً . وارتدت ثوبها الحريري وسارا على الرصيف بهدوء ، متلاصقين ، تنيرهما اضواء الدكاكين وتظهرهما وهما يتكلمان بصوت منخفض ، مبتسمين .

كان المقهى الغنائي في شارع روشيشوار ، وهو مقهى صغير قديم جرى توسيعه على ساحة بواسطة كوخ من الخشب . وعلى الباب حبل من الكرات الزجاجية يضيء رواقاً متوهجاً . واعلانات طويلة ملصقة على الواح خشبية وجدت ملقاة على الارض في مجرى الساقية . وقال لانتيه

– ها قد وصلنا . في هذا المساء تبدأ الآنسة أماندا ، وهي مغنية ذواقة .

ولكنه شاهد بيبي لاغرياد وكان يقرأ الاعلان ايضا . وكانت على عين بيبي هالة سوداء ناتجة عن لطمة تلقاها البارحة . فسأله صانع القبعات وهو يبحث حوله :

– وكوبو ؟ هل أضعت كوبو ؟

فأجاب الآخر

– اوه .. لقد مر وقت طويل منذ البارحة . جرى تبادل بعض الضربات عند خروجنا من عند الام باكيه . انا لا احب لعب الأيدي ... انت تعلم ، لقد جرى الحادث مع غلام الام باكيه بسبب ليتر اراد ان ندفع ثمنه مرتين ... عندئذ خرجت وذهبت لأنام

كان لا يزال يتثاءب . وقد نام ثماني عشرة ساعة ، ومع ذلك فقد صحا من سكره تماماً ، ولكنه ذا هيئة بليدة، وسترته القديمة ملأى بالزغب اذ يجب ان يكون قد نام في سريره بملابسه

وسألته الغسالة :

– ألا تعرف اين زوجي يا سيد ؟

– ولكن كلا ، ابداً ... كانت الساعة قد بلغت الخامسة حين تركنا الام باكيه . يمكن انه هبط الشارع .. نعم ، اظن اني رأيته داخلاً الى حانة « الفراشة » مع حوذي .. اوه .. يا لها من بلاهة .. صحيح ، يصبح المرء اهلاً للقتل .

وقضى لانتيه وجرفيز سهرة لطيفة جداً في المقهى . وفي الساعة الحادية عشرة ، حين اقفلت الابواب ، عادا يتمشيان، غير متعجلين . كان البرد قارساً قليلاً والناس تنسحب جماعات . وهناك فتيات يضحكن حتى الموت تحت الاشجار ، في الظل ، لان الرجال يمزحون معهن عن قرب . وكان لانتيه يغني بين اسنانه احدى اغنيات الآنسة أماندا : « لقد دغدغني في انفي » . وجرفيز متخدرة ، تعيد اللازمة وكأنها نشوى . كانت تشعر بالحر . ثم ان الكأسين اللذين شربتهما كانا يدوران على قلبها مع دخان الغلايين ورائحة كل اولئك الناس المتكدسين ولكنها كانت متأثرة بشكل حاد بالآنسة اماندا . انها لن تجرؤ ابداً على الوقوف عارية مثلها أمام الجمهور . ويجب ان يكون المرء عادلاً ، فلهذه السيدة بشرة تستوجب الحسد . وكانت تستمع بفضول حسي الى لانتيه وهو يعطيها التفاصيل عن تلك المغنية بهيئة سيد كان قد عدّ اضلاعها على الخصوص .

وقالت جرفيز بعد ان رنت الجرس ثلاث مرات قبل ان يشد آل بوش بالحبل

– الناس كلهم نائمون .

وفتح الباب ، وكان المدخل مظلماً . وحين ضربت على زجاج المنزل طالبة المفتاح فان زوجة البواب اخذت تصرخ وتحكي قصة لم تسمع منها شيئاً في بادىء الامر . واخيراً فهمت ان الشرطي بواسون جاء بكوبو بحالة عجيبة ، وان المفتاح يجب ان يكون في القفل .

وتمتم لانتيه حين دخلا :

– ماذا فعل هنا ؟ انها نتانة حقيقية .

وبالفعل ، فرائحه النتانة كانت قوية . وجرفيز التي كانت تبحث عن عود ثقاب مشت في شيء رطب . وحين توصلت الى اشمال شمعة رأيا امامهما منظراً جميلاً . كان كوبو قد تقيأ امعاءه ؛ وملأ الغرفة ، والسرير ملوث ، والطنفسة ايضاً ، حتى الخزانة ذات الادراج كانت ملطخة . ومع هذا ، فقد سقط كوبو عن السرير حيث القاه بواسون ، وكان يشخر بين اقذاره . كان منبطحاً هناك متمرغاً كالخنزير ، ملوث الخد ، متنفساً نفسه النتن من فمه المفتوح ، كانساً بشعره الرمادي المستنقع الموسّع حول رأسه

ورددت جرفيز متقززة ساخطة :

– اوه ! الخنزير ! الخنزير ! لقد لوث كل شيء ... كلا ، الكلب لا يفعل هذا ، كلب ميت اكثر نظافة منه .

ولم يجرؤ الاثنان على الحركة ، لم يكونا يعرفان اين يضعا ارجلهما . ابداً لم يسبق لعامل الزنك ان عاد بمثل هذه الحالة ولم يسبق له ان جعل الغرفة بهذا الخزي وقد وجه هذا المنظر ضربة قاسية للعاطفة التي يمكن لزوجته ان تشعر بها نحوه . حين كان يعود في الماضي منتوفاً او مخموراً كانت تبدي بعض الظرف ولا تشمئز . ولكن في هذه الساعة ، انه لكثير ، وقد انقبض قلبها . لم تكن لتلتقطه ولو بالملاقط . ومجرد الفكرة بأن بشرة هذا القذر ستقترب من بشرتها كانت تسبب لها قرفاً كما لو طُلب منها ان تتمدد بجانب ميت مات بمرض خبيث . وتمتمت

– ومع ذلك يجب ان انام ، اني لا استطيع ان اعود وانام في الشارع . اوه ! سأمر على جسده .

وحاولت المرور من فوق السكير واضطرت ان تتمسك بزاوية من الخزانة لئلا تتزحلق في القذارة . وكان كوبو يسد السرير تماماً . عندئذ ضحك لانتيه ضحكة خفيفة حين رأى انها لا تستطيع النوم على وسادتها في تلك الليلة ، وامسك بيدها قائلاً بصوت منخفض وحار :

– جرفيز ... أسمعي يا جرفيز ...

ولكنها ادركت مقصده ، فتخلصت منه والهة ، وخاطبته بصيغة المفرد كما في سابق عهدهما

– كلا .. دعني .. ارجوك . ادخل يا اوغست الى غرفتك . سأدبر امري، سأصعد الى السرير من ناحية الارجل .

فقال مكرراً

– هيا ياجرفيز . لا تكوني حمقاء . الرائحة سيئة ولن تستطيعي البقاء ... تعالي . مم تخافين ؟ انه لا يسمعنا . هيا !

وكانت تقاوم ، وتقول لا برأسها ولكي تظهر انها سوف تبقى هنـا ، خلعت ملابسها وهي في حالة اضطراب ، وألقت ثوبهـا الحريري على كرسي ، وظلت بالقميص والملابس الداخليـة ، بيضاء ، عارية العنق والذراعـين . ان سريرها لها ، اليس كذلك ؟ وتريـد ان تنام في سريرها وحاولت مرتـين ان تجـد زاوية نظيفة تمر منها . ولكن لانتيه لم يضجر ، فامسك بقامتهـا ، قائلاً اشياء ليشعل النار في دمائها آه ! آه ! انها تقف مع زوج امامها يمنعها من التدثر بغطائها لتظل عفيفة ، ومع رجل قذر وراءها يفكر فقط بالاستفادة من شقائها ليستعيدها وبما ان صانع القبعات كان يرفع صوته ، فقد رجته ان يصمت وأصغت ، موجهة اذنها نحو الغرفة التي تنام فيهـا نانا والام كوبو . يجب ان تكون الصغيرة والعجوز نائمتـين لأن تنفساً قوياً كان يتناهى اليهـا . وتابعت ويداها مضمومتان :

– دعني يا اوغست . ستوقظهما . كن عاقلاً . في يوم آخر في الخارج .. ليس هنا ، ليس امام ابنتي .

ولم يتكلم ، بل ظل مبتسماً ، وببطء ، قبلها في اذنها كما كان يقبلهـــا في السابق لمناكدتها وتخديرها . وعندئذ انهارت قوتها ، وشعرت بطنين شديد ، وبرعشة عظيمة تجتاح جسدها . الا انها خطت خطوة جديدة ، واضطرت الى التقهقر . ولم يكن ذلك ممكناً . كان القرف شديداً وتصاعدت الرائحة تنبىء

انها ستكون على شر حال في سريرها . وكوبو وكأنه على ريشة ، تعتعه السكر ، ينام مخموراً ميت الاعضاء ، وفمه معوج حتى ليستطيع الشارع كله ان يدخل ويقبل امرأته دون ان تتحرك شعرة في جسده . وتمتمت :

– لم يعد يهمني . انها غلطته لا استطيع .. آه . يا الهي . يا الهي . انه يطردني من سريري ، ليس لي سرير كلا ، لا استطيع . انها غلطته .

كانت ترتجف ، واضاعت صوابها وفيما كان لانتيه يدفعها الى الغرفة ، ظهر وجه نانا على باب الغرفة الصغيرة الزجاجي ، وراء الزجاج . فقد استيقظت ونهضت بهدوء ، بالقميص ، شاحبة من النعاس . ورأت والدها يتمرغ في قيئه ، ثم ظلت هناك ووجهها ملتصق بالزجاج منتظرة ان تختفي تنورة والدتها الداخلية عند الرجل الآخر في الجهة المقابلة . وكانت رزينة ، ذات عينين فاسدتين لطفلة ، تتوهجان بفضول شهواني .

٩

في ذلك الشتاء اشرفت الام كوبو على الموت في نوبـة ضيق نفس . وفي كل سنة ، في شهر كانون الاول ، كانت واثقة من ان الربو سوف يطرحها على ظهرها لاسبوعين او ثلاثة . وذلك منذ مـا كان عمرها خمس عشرة سنة وستبلغ الثالثة والسبعين في عيد القديس انطوان . يضاف الى ذلك انها معرضة للسقم ، وتحشرج للاشيء ، مع انها ضخمة وسمينة . وكان الطبيب يصرح انها سترحل في نوبة سعال ، الوقت الذي يستغرقه الصياح : مساء الخير يا جانيتون ، الشمعة مطفأة !

وحين تكون الام كوبو في سريرها تصبح رديئة كالجرب . ويجب القـول ان الحجرة الصغيرة التي تنام فيهـا مع نانا ليس فيها ما يبهج . وما بين سرير الصغيرة وسريرها يتسع لكرسيين . وورقة الجدران ، وهي ورقـة قديمة رمادية ناصلة اللون ، تتدلى مزقاً والكوة المستديرة قرب السقف تفسح المجـال لنور خفيف شاحب كنور القبو ان المرء يهرم هناك وخصوصاً شخص لا يستطيع التنفس . وفي الليل ايضاً ، حين يستولي عليهـا الارق ، كانت تسمع الصغيرة وهي تنام ، وفي ذلك ألهية لها . ولكن في النهار ، حين لا يكون هناك من يرافقها من الصباح الى المساء ، كانت تدمدم ، وتبكي وتردد ، وحيدة طوال ساعات ، مقلبة رأسها على الوسادة :

– ياالهي ! ما اتعسني ! ما اتعسني . في السجن ، نعم انـه سجن

سيميتونني فيه .

وحين يأتي احد لزيارتها ، فرجيني او مدام بوش ، ويسألها عن صحتها فانها لم تكن تجيب ، بل تبدأ حالاً بقراءة فصل شكاويها

- آه . الخبز الذي آكله هنا مرتفع الثمن ... كلا ، لم اكن لأتعذب كذلك عند الغرباء . اليكم مثلاً . اردت الحصول على فنجان من ماء الحشائش فأتوني بطاسة ماء ملأى . وهي طريقة لتوبيخي لأني شربت كثيراً . وناتا ، تلك الطفلة التي ربيتها ، تهرب صباحاً فلا اراها ابداً . حتى ليظن ان رائحتي سيئة . الا انها في الليل تنام نوماً عميقاً ولا تستيقظ ولو مرة واحدة لتسالني اذا كنت اتالم . واخيرا ، أقبلهم وهم ينتظرون موتي . اوه . هذا سيحدث قريباً . ليس لي ولد ، فقد اخذته مني تلك الغسالة النذلة . ولو لم تكن تخاف من القضاء لكانت تضربني وتقضي علي .

وبالفعل ، فان جرفيز كانت تبدو قاسية في بعض الاحيان . فالدكان تسير بشكل سيء . واصبح الناس يغضبون ويصرفونها لأول كلمة وكوبو ذات صباح ، وكان مريضاً حتى شعر رأسه ، اخذ يهتف : « تقول العجوز دائماً انها على وشك الموت ، ولا تموت ابداً » وهي عبارة أصابت الام كوبو في القلب. انهم يلومونها بسبب ما ينفقون عليها ، ويقولون مرتاحي البال انها لو لم تكن موجودة لحصلوا على وفر عظيم . والحقيقة ، انها لم تكن تتصرف كما يجب . فحين كانت ترى ابنتها الكبرى مدام ليرا ، كانت تشكو البؤس ، وتتهم ابنها وكنتها بانهما تركاها تموت جوعاً ، وكل ذلك لتستل منها قطعة بعشرين فرنكاً تنفقها على بطنتها . وكانت تقول لآل لوريللو نمائم مرذولة ، راوية لهم الى ماذا تتحول فرنكاتهم العشرة ، الى نزوات الغسالة ، الى قبعات جديدة ، وحلويات تؤكل في الزوايا ، واشياء اكثر قذارة لا تجرؤ على قولها . وقد ضربت العائلة بعضها ببعض مرتين او ثلاث . فتارة تكون مع هؤلاء وطوراً مع اولئك. واخيراً اصبح الامر ورطة حقيقية .

وفي اشد نوباتها ، في ذلك الشتاء ، وفي فترة ما بعد الظهر حيث

التقت مدام لوريللو ومدام ليرا امام سريرها ، طرفت الام كوبو بعينها لتقول لهما ان تنحنيا . وبما انها لا تكاد تستطيع الكلام ، فقد نفخت بصوت منخفض :

– الامر صحيح . لقد سمعتهما تلك الليلة . نعم ، نعم ، العرجاء وصانع القبعات .. كانا على خير ما يرام .

ورددت بعبارات قصيرة وهي ساعلة ضيقة النفس ، ان ولدها عاد البارحة الى البيت ثملاً حتى الموت وبما انها لم تكن نامت بعد ، فقد وعت على الضوضاء ، رجلي العرجاء العاريتين القافزتين على البلاط ، وصوت صانع القبعات الصافر الذي كان يدعوها ، وباب الاتصال الذي دفع بهدوء ، والباقي ودام ذلك حتى طلوع النهار . وهي لا تعرف الساعة تماماً لانها ، رغم جهودها ، نامت . وتابعت

– اما الاكثر اثارة للاشمئزاز فهو ان نانا استطاعت ان تسمع ، وكانت مضطربة طوال الليل هي التي من عادتها ان تنام مطبقة القبضتين ، فقد كانت تثب ، وتعود كما لو ان جمراً في فراشها .

ولم تبد المرأتان اية دهشة . واوضحت مدام ليرا وهي تعض على شفتيها :

– انا ، لو كنت هنا لأرعبتها ، لصرخت فيهما بأي شيء : « رأيتك .. او هاهم الدرك .. » واخبرني خادم طبيب ان سيده قال له ان بالامكان قتل المرأة في بعض اللحظات . واذا بقيت في نفس المكان يكون افضل ، لانها سوف تعاقب في المكان الذي اوتكبت فيه الخطيئة .

وعرف الحي كله ان جرفيز تذهب كل ليلة الى لانتيه . واظهرت مدام لوريللو امام الجيران غضباً مدوياً ؛ كانت ترثي لأخيها ، ذلك التافه الذي تدهنه زوجته بالاصفر من الرأس الى القدمين ؛ وتقول انها اذا دخلت في قضية كهذه فذلك فقط لاجل امها المسكينة المجبرة على العيش في وسط هذه الفواحش . وعندئذ سقط الحي كله على جرفيز . يجب ان تكون هي التي دفعت صانع القبعات الى الفجور وكان ذلك ظاهراً في عينيها . نعم ، لقد ظل ذلك المداجي

لانتيه محبوباً رغم الاشاعات القبيحة ، لأنه ظل محافظاً على مظاهره كرجل كما يجب مع جميع الناس ، يسير على الرصيف قارئاً جريدته ، مستميلاً النساء متظرفاً معهن ، ولديه دائماً ما يعطي من حلوى وزهور . يا الهي . انه يقوم بمهنته كديك ؛ الرجل هو رجل ، وليس لها اي عذر ؛ لقد لوثت شرف شارع القطرة الذهبية . وآل لوريللو ، كعراب وعرابة ، جذبا نانا الى بيتهما ليحصلا على التفاصيل وحين سألاها بطريق الحيلة تظاهرت الصغيرة بالحمق ، وكانت تجيب مطفئة لهيب عينيها تحت جفونها الطويلة المسترخية .

في وسط هذا السخط العام كانت جرفيز تعيش مطمئنة ، تعبة ونائمة قليلاً . وفي بداية الامر رأت نفسها مجرمة ، قذرة ، وكانت مشمئزة من نفسها . وحين كانت تخرج من غرفة لانتيه كانت تغسل يديها وتبلل ممسحة وتدعك كتفيها الى درجة خدشهما كأنها تنزع قذارتهما . واذا حاول كوبو ان يمزح فانها كانت تغضب وتركض مرتجفة لترتدي ثيابها في داخل الدكان ، وحين يقبلها زوجها فلا يزداد تساهلها الا اذا لمسها صانع القبعات . كانت تريد تغيير جلدها بتغيير رجلها. ولكنها اعتادت تدريجياً وكان من المتعب ان تغتسل كل مرة . فقد جعلها كسلها مسترخية . وحاجتها لتكون سعيدة جعلتها تستخرج كل سعادة ممكنة من منكداتها كانت لطيفة مع نفسها ومع الآخرين ، وتحاول فقط ان تسوي الامور بطريقة لا تصيب احداً بكثير من الغم. اليس كذلك؟ بشرط ان يكون زوجها وعشيقها مسرورين ، وان يسير البيت سيرته المنتظمة ، وان يمزحوا من الصباح الى المساء ، والكل مستمنون ، راضون عن الحياة ، يعيشون بهدوء ولا يكون هناك ما يُشتكى منه . وبعد ذلك ،يجب عليها الا تفعل شراً لان الامور تتسوى بطريقة حسنة ، وبرضا كل فرد ، وعادة يُعاقب من يفعل الشر اذن فقد تحول فسقها الى عادة ، وسوي ذلك كالشرب والأكل ، وفي كل مرة يعود كوبو ثملاً ، فانها كانت تذهب الى لانتيه ، الامر الذي كان يحدث على الاقل ايام الاثنين والثلاثاء والاربعاء من الاسبوع . وكانت تقسم لياليها ، حتى انها توصلت ، حين يكون عامل الزنك مستغرقاً في شخيره الشديد ، الى ان

تتركه نائماً وتذهب لتكمل نومها الهادىء على وسادة الجار وليس ذلك ناتجاً عن انها كانت تشعر بكثير من الصداقة لصانع القبعات. كلا ، بل كانت تجده فقط اكثر نظافة. انها ترتاح بشكل افضل في غرفته ، حيث كانت تعتقد أنها تستحم. واخيراً ، انها تشبه الهررة التي تحب ان تنام مكورة على قماش ابيض.

ولم تجرؤ الام كوبو ابداً على التحدث عن ذلك بوضوح، ولكن بعد مشاجرة، وحين احرجتها الغسالة ، لم توفر العجوز التلميحات ، فقالت انها تعرف رجالاً بلهاء جداً ونساء وغدات جداً ؛ وعلكت كلمات اخرى اكثر حدة بجفاء صانعة صداري قديمة. وفي المرات الاولى كانت جرفيز تنظر اليها دون ان تجيب. ثم دافعت عن نفسها باسباب قيلت بشكل عام، متجنبة التوضيح. حين يكون لامرأة زوج سكير ، قذر ، يعيش في الفساد فان تلك المرأة تُسامح اذا بحثت عن النظافة في الخارج. وسارت الى ابعد من ذلك ، فقد اسمعتهم ان لانتيه كان زوجاً لها ككوبو ، واكثر منه الم تعرفه وهي في سن الرابعة عشرة؟ اليس لها ولدان منه ؟ في تلك الظروف كل شيء مغفور ، وما من شخص يستطيع ان يقذفها بحجر. وكانت تدعي ان هذا من قانون الطبيعة. ثم يجب الا يزعجوها والا فسترسل الى كل فرد صرته بسرعة. ان شارع القطرة الذهبية ليس نظيفاً ! فمدام فيغوريه الصغيرة تظل تقفز في فحمها من الصباح الى المساء. ومدام ليهونغر ، زوجة البقال ، تنام مع شقيق زوجها. وهو كبير ذو لعاب سائل لا يُلتقط بمجرفة. والساعاتي المقابل ، ذلك السيد الجلف كاد يصل الى محكمة الجنايات بسبب الفاحشة ، كان يذهب مع ابنته ، وهي متهتكة تطوف الشوارع. واتسعت الحركة فأشارت الى الحي كله. وكانت تظل طوال ساعة لا عمل لها سوى نشر الغسيل القذر لكل هذا الشعب ، فالناس ينامون كالبهائم ، اكداساً ، آباءً وامهات واولاداً ، متمرغين في القذارة. انها تعرف كل شيء والفواحش تسيل من كل مكان ، وكان هذا يسمم البيوت المجاورة. نعم ، نعم ، فالرجل والمرأة شيء غريب في تلك الزاوية من باريس حيث

يتكدس البعض فوق البعض الآخر بسبب البؤس ! وكان يحب وضع الجنسين في مدفم ثم يطلق لسبب واحد هو تبخير اشجار الكرز في سهل سان دنيس . وكانت تصيح حين يثيرون غضبها

– من الافضل لهم الا يبصقوا في الهواء لئلا يعود البصاق الى السقوط على انوفهم .كل امرىء في بيته ، اليس كذلك ؟ ليتركوا افاضل الناس يعيشون على طريقتهم اذا ارادوا هم العيش على طريقتهم . . اما انا فأرى ان كل شيء جيد ، ولكن بشرط الا يُجَر المرء في الساقية ورأسه اولاً بواسطة اناس يتنزهون هناك .

وبدت الام كوبو ذات يوم اكثر وضوحاً . فقد قالت وهي تصر على اسنانها

– انت في سريرك ، وتستفيدين من ذلك ... اسمعي ، انت على خطأ . وترين جيداً انني لطيفة ، لأنني لم اقذف حياتك في وجهك ! اوه ! انا اعرف حياة جميلة لرجلين او ثلاثة في حياة الاب كوبو ... كلا ، لاتسعلي . لقد انهيت الحديث . وقلت ذلك فقط لأطلب منك ان تدعيني بسلام . هذا كل شيء .

وكانت العجوز قد نجت من ضيق النفس . وفي الغد جاء غوجيه يطلب غسيل امه اثناء غياب جرفيز ، فدعته الام كوبو وأبقته مدة طويلة جالساً امام سريرها . كانت تعرف جيداً صداقة الحداد ، وكانت تراه متجهماً بائساً منذ زمن بسبب شكه فيما يحدث من امور شنيعة . ولتثرثر وتثأر لمشاجرة البارحة أعلمته الحقيقة بقساوة وهي تبكي شاكية كما لو ان سلوك جرفيز السيء سبب لها الاذى . وحين خرج غوجيه من الغرفة كان يستند الى الجدران ، غاصاً بالحزن . وعند عودة الغسالة قالت لها الام كوبو انهم يطلبونها حالاً عند مدام غوجيه مع الغسيل سواء اكان مكوياً ام لا ، وكانت كثيرة الاحتداد بحيث تنسمت جرفيز ريح النميمة ، وادركت المشهد المحزن ، وانفطار القلب الذي تجد نفسها مهددة به .

وضعت الغسيل في سلة وذهبت ، كثيرة الشحوب ، محطمة الاعضاء مسبقاً.

فمنذ سنوات لم تـــدفع فلساً لآل غوجيه وارتفع الدين الى اربعماية وخمسة وعشرين فرنكاً . وكانت كل مرة تأخذ اجرة الغسيل ، متحدثة عن ضيقتها . وكان في ذلـك اعظم خجل لها لأنها تبدو انها تستغل صداقة الحداد لتخدعه وكوبو وقد اصبح الآن قليل الشكوك كان يضحك ، ويقول ان الحداد مضطر الآن الى هصر قامتهـا في الزوايا ، وبهـذا يكون قد استعاد دينه . ولكنها ، رغم معاشرتها للانتيه كانت تثور وتسأل زوجها اذا كان يريد ان يأكل من هذا الخبز . وعليـــه الا يتكلم بالسوء عن غوجيه . فقد ظل حبها للحداد كزاوية لشرفها وفي كل مرة كانت تعيد الغسيل الى بيت هؤلاء الناس الطيبين تشعر بانقباض قلبها منذ اول درجة من الدرج .

وقالت لها مدام غوجيه بنشوفة وهي تفتح الباب .

– آه ! هذا انت اخيراً . حين اكون بحاجة الى الموت فسأرسلك بطلبه .

ودخلت جرفيز حيرى ، دون ان تجرؤ عـــلى اللجلجة باعتذار لم تكن مضبوطة ، ولا تأتي في الســاعة المعينة ، وتجعلهم ينتظرونها ثمانية أيام . لقد استسلمت تدريجياً الى فوضى عظيمة

وتابعت صانعة المخرمات :

–منذ اسبوع وانا معتمدة عليك وانت تكذبين، وترسلين الي عاملتك لتروي لي الاكاذيب انهم يشتغلون بغسيلي ، سيجلبونه لي في المساء ، او ان حادثاً قد حدث ، الصرة التي سقطت في الدلو وانا اثناء ذلك اضيع يومي ، ولا يصلني شيء ، وأعذب نفسي كلا ، لست حكيمة ... لنر ، ماذا يوجد معك في هذه السلة ! هـــل الغسيل كـــله على الأقل ! هـــل اتيتني بزوج الشراشف الذي ابقيته عندك منذ شهر ، والقميص الذي بقي وراءك في الغسلة الاخيرة ؟

فتمتمت جرفيز

ـ نعم ، نعم القميص هنا ، هذا هو

ولكن مدام غوجيه عادت الى الصياح . فهذا القميص ليس لها. ولا تريده .

لقد ابدلوا غسيلها . وطفح الكيل ! في السابق ، في الاسبوع الماضي ، كان عندها منديلان لا يحملان شارتها هذا يذهب بشهيتها غسيل آت لا تدري من اين . ثم انها اصبحت اخيراً تقوم بأعمالها

وتابعت

– والشراشف ! ضاعت أليس كذلك ؟ حسناً يا صغيرتي ، يجب ان تتدبري الامر ، واريدها غداً صباحاً ، أتسمعين ؟

وساد صمت اما ما زاد من اضطراب جرفيز فهو احساسها بان باب غوجيه نصف مفتوح وراءها . يجب ان يكون الحداد هناك ، وقد أدركت ذلك ، اي غم اذا كان قد سمع كل هذه التوبيخات التي تستحقها ، والتي لا تستطيع الاجابة عليها ! لقد اصبحت كثيرة المرونة ، كثيرة اللطف ، حانية رأسها ، ووضعت الغسيل على السرير بالسرعة الممكنة ولكن الامور ساءت ايضاً حين اخذت مدام غوجيه تفحص القطع واحدة واحدة . وقد اخذتها والقتها وهي تقول

–آه ! لقد اضعت مهارتك . ليس بالمستطاع اطراؤك دائماً ... نعم ، انك الآن تدنسين الشغل وتلوثينه . انظري صدر هذا القميص ، أنه محروق ، وقد ظهر أثر المكواة على الطيّات . والازرار كلها منتزعة . لا ادري كيف تنظمين أمورك ، لم يبق أي زر ... اوه ! مثلا ، هذه صدرة لن أدفع اجرتها انظري هذا . لا يزال الوسخ موجوداً وقد نشرته بكل بساطة شكراً ! ولو لم يكن الغسيل نظيفاً

وتوقفت وهي تمد القطع ، وهتفت

–كيف ! اهذا ما اتيت به ؟ ينقص زوجان من الجوارب ، وست مناشف ، وغطاء مائدة ، ومماسح انت تسخرين مني اذن ! لقد ارسلت اقول لك ان تعيدي الي الغسيل كله ، مكوياً ام غير مكوي . واذا لم تكن خادمتك هنا في مدى ساعة حاملة الي ما بقي ، فسوف نتخاصم يا مدام كوبو ، اني انذرك .

في تلك اللحظة سعل غوجيه في غرفته ، وشعرت جرفيز برعشة خفيفة يا الهي ! كيف عوملت أمامه : وظلت في وسط الغرفة متضايقة ، مشوشة ، منتظرة الغسيل الوسخ . ولكن مدام غوجيه ، بعد ان اوقفت العد ، عادت الى مكانها بقرب النافذة تشتغل في رفو شال من المخرمات .

وسألت الغسالة بخجل

– والغسيل ؟

فأجابت العجوز

– كلا ، شكراً لا يوجد شيء هذا الاسبوع .

وشحب لون جرفيز . لقد سحبوا غسيلهم منها . عندئذ اضاعت صوابها واضطرت الى الجلوس على الكرسي لان ساقيها ضعفا تحتها ، ولم تحاول الدفاع عن نفسها ، بل وجدت فقط هذه العبارة

– هل السيد غوجيه مريض ؟

نعم ، كان يتألم ، وقد اضطر الى العودة الى البيت بدلاً من الذهاب الى مصنع الحديد ، وتمدد على سريره ليرتاح . وكانت مدام غوجيه تتحدث بوقار ، مرتدية ثوباً أسود كما هو أمرها دائماً ، ووجهها الأبيض محاط بقلنسوتها الرهبانية . وكانوا قد انقصوا ايضاً اجرة صانعي البراغي اليومية ، اذ هبطت من تسعة فرنكات الى سبعة ، بسبب الآلات التي تقوم الآن بعمل كل شيء . وقد اوضحت انها عمدت الى الاقتصاد بكل شيء ، وتريد من جديد ان تغسل غسيلها بنفسها . ومن الطبيعي ان يحسن آل كوبو عملاً اذا اعادوا النقود التي اعارها لهم ولدها ولكن ليست هي التي ترسل اليهم مباشري المحكمة اذا لم يستطيعوا الدفع. وحين بدأت تتكلم عن الدين فان جرفيز ،منخفضة الرأس، بدت انها تتابع حركة ابرتها الرشيقة ، وهي تصنع الحلقات واحدة واحدة وتابعت صانعة المخرمات

– ومع ذلك ، ولو ازعجتك قليلاً ، بامكانك التوصل الى وفاء الدين . لأنكم تأكلون جيداً وتنفقون كثيراً ، وأنا متأكدة من ذلك ... لو دفعتم عشرة

فرنكات فقط كل شهر .

وقاطعها صوت غوجيه منادياً

– امي ! امي !

وحين عادت وجلست ، بسرعة تقريباً ، غيرت الحديث . لقد رجاهـا الحداد دون شك ان لا تطلب النقود من جرفيز . ولكنها بعد خمس دقائق ، ورغماً عنها ، عادت تتكلم عن الدين من جديد . اوه ! لقد توقعت ما حدث ، ان عامل الزنك سيشرب الدكان ويقود زوجته بعيداً ولو أصغى ولدها اليها لما كان اقرض الخمسماية فرنك . وكان بامكانه اليوم ان يكون متزوجاً ولا يموت من الحزن ، مع توقعه ان يظل بائساً كل حياته . واحتدت ، واصبحت قاسية جداً ، واتهمت جرفيز بوضوح انها اتفقت مع كوبو على استغلال طيبة ولدها نعم ، هناك نساء يلعبن لعبة المداهنة طوال سنوات وينتهي سلوكهن السيء الى الانفجار في وضح النهار .

ونادى صوت غوجيه مرة ثانية بشكل اكثر عنفاً :

– امي ! امي !

فنهضت . وحين عادت قالت وهي تعود الى مخرماتها

– ادخلي . يريد ان يراك .

وتركت جرفيز الباب مفتوحاً وهي ترتجف . كان هـذا المشهد يزيد من تأثرها لأنه كاقرار بحبها امـام مدام غوجيه . ووجدت الغرفة الصغيرة هادئة مزينة بالصور، بسريرها الحديدي الضيق، شبيهة بغرفة غلام في الخامسة عشرة. وجسم غوجيه الضخم ، وقد تحطمت اعضاؤه من اعترافـات الام كوبو ، كان ممدداً على السرير ، والعينـان حمراوان ، ولحيته الجميلة الصفراء لا تزال مبللة ، ويجب ان يكون قد خرق وسادتـه بقبضتيه المخيفتين ، في اللحظة الاولى من هياجه ، لأن القماش المشقوق كان يتساقط الريش منه .

وقال للغسالة بصوت شبه منخفض :

– أسمعي أمي مخطئة ٠ لست مدينة لي بشيء . لا اريد ان يتكلم احـد عن ذلك

وكان قد نهض ، وتطلع اليهـا ، وتصاعدت دموع غزيرة الى عينيه ، فتمتمت

– اتتألم يا سيد غوجيه ؟ ما بك ؟ ارجوك .

– لا شيء ، شكراً . فقد تعبت البارحة كثيراً وسأنام

ثم انفطر قلبه فلم يستطع ان يمسك هذه الصرخة

– آه ! يا الهي ! يا الهي ! كان يجب الا يحصل هذا ابداً، ابداً. لقد اقسمت ، وها ان الأمر قد حصل ، قد حصل . آه ! يا الهي ان هـذا يسبب لي كثيراً من الألم .. اذهبي !

وطردها بيده ، وبلطف متوسل. فلم تقترب من السرير، وذهبت كما طلب، والهة ، ليس عندها ما تقوله لتخفف عنه . وفي الغرفة المجـاورة استعادت سلتها ، ولم تخرج . كانت تريد ان تجد كلمة . وتابعت مدام غوجيه عملية الرفو دون ان ترفع رأسها وقالت اخيراً

– اسعدت مساء ، ارسلي الي غسيلي وسنتحاسب فيما بعد .

واغلقت الباب ببطء مـع آخر نظرة الى ذلك البيت النظيف المرتب الذي بدا لها انها تركت فيه شيئاً من فضيلتها . وعادت الى الدكان بهيئة بلهاء كالبقر العائد الى حظيرته دون ان يهتم بالطريق . وكانت الام كوبو قد تركت سريرها لأول مرة وجلست على كرسي بقرب الجهاز الآلي ولكن الغسالة لم توجـه اليهـا اي لوم ، فقد كانت كثيرة التعب ، مريضة العظام كما لو انها ضُربت ، وفكرت ان الحياة كثيرة القساوة ، الا اذا ماتت حالاً . ولكن المرء لا يستطيع انتزاع قلبه بيده .

واصبحت جرفيز الآن تسخر من كل شيء . كانت تأتي بحركة مبهمـة من يدها لترسل جميع الناس الى النوم . ولدى كل هم جديد كانت تنهمك في لذتهـا الوحيدة في ان تأكل ثلاث وقعات باليوم . يمكن للدكان ان تنهار ، بشرط الا

تكون تحتها ، والا فستضطر الى السير دون قميص . وكانت الدكان تنهار ليس دفعة واحدة ، بل شيئاً فشيئاً صباحاً ومساءاً فقد غضبت الزبونات واحدة واحدة واخذن غسيلهن الي مكان آخر . وتحـــول السيد مادينيه والانسة ريمانجو وآل بوش انفسهم الى مدام فوكونيه حيث يجدون كثيراً من الدقة . وانتهت الى بذل الجهد في تلمس زوج من الجوارب طوال ثلاثة اسابيع ، وان تعيد قمصاناً من الاحد الماضي وعليها بقع شحم . وكانت جرفيز تدعـــو لهم برحلة موفقة ، دون ان تخفف من غلوائها ، وتمهد لهم بطريقة خاصة مدعية انها مسرورة جداً لتخلصها من البحث في نتانتهم . بامكان الحي كله ان يتركها ، فهذا ينقذها من كومة كبيرة من القذارة . وتناقص الشغل واحتفظت فقط بالاجور الرديئة ، وبالمتنقلات من غسالة الى اخرى ، وبالنساء امثال مـــدام فودرون اللواتي لا ترضى اية غسالة في الشارع الجديد ان تغسل غسيلهن بسبب نتنها لقد ضاعت الدكان ، واضطرت الى طرد عاملتها الاخيرة مدام بوتوا ، وظلت وحدها مع صانعتها ، تلك الحولاء اوغسطين التي كانت تزداد بلاهـــة كلما كبرت ؛ ولم يكن يوجد شغل لهما بشكل دائم فكانتا تسحبان مؤخرتيهما على المقعد المنخفض طوال فترات كاملة من بعد الظهر واخيراً غطسة كاملة . وهذا ما كان يشتم منه رائحة الخراب .

ومن الطبيعي ان يكون دخول القذارة بقدر دخول الكسل والبؤس . ان تلك الدكان الجميلة الزرقاء بلون السماء والتي كانت في الماضي موضـــع كبرياء جرفيز ، لم تعد تُعرف . فالخشبيات وزجاج الواجهـة التي نسوا غسلها كانت تظل من اعلى الى اسفل ملطخة بوحل العربات . وعلى الالواح ، عند المثلث من النحاس الاصفر ، كانت تنتشر ثلاث خرق رمادية ، تركهـــا زبائن ماتوا في المستشفى . اما في الداخل فأكثر اثارة للرثاء ، رطوبة الغسيل المجفف في السقف تنزع الاوراق ، واللون المتراوح بين الازرق والاخضر من طـــراز بومبادور اصبح خرقاً معلقة شبيهة بنسيج عناكب مثقل بالغبار ؛ والجهـــاز الآلي ، المحطم ، المثقوب من ضربات محراك الوقود ، يحتفظ في زاويته ببقايا حـــديد

مصبوب قديم كأنه حديد بائع خردوات . ومنضدة الشغل تبدو انها استعملت مائدة للجنود ، مبقعة بالقهوة والنبيذ ، ملوثة بالمربيات ، دهنية من بقايا طعام يوم الاثنين . يضاف الى ذلك رائحة حموضة نشا ، ونتانة صادرة عن التعفن ، وفضلات طعام ، وادران ولكن جرفيز كانت تجد نفسها على خير حال هناك . لم تكن ترى الدكان قذرة . فقد استسلمت لذلك واعتادت على الورق الممزق ، والخشبيات الملوثة بالدهن ، وبلغ بها الامر الى ارتداء تنورات مشقوقة والى ان لا تغسل اذنيها لقد اصبحت القذارة عشاً دافئاً تتمتع بالجلوس فيه وترك الاشياء مبعثرة ، وانتظار الغبار ليسد الفجوات ويضع مخمله في كل مكان ، والشعور بالبيت يثقل حولك في خدر كسول ، كل هذا كان لذة حقيقية تنتشي بها . طمأنينتها قبل كل شيء ، اما الباقي فتشمله بنظرة . ولم تكن ديونها المتزايدة على الدوام تعذبها ابداً . فقد فقدت نزاهتها وسواء دفعت الديون او لم تدفع فالامر يظل مبهماً وتفضل الا تعرف . وحين يقفلون حسابها في احد المحلات فأنها تفتح حساباً في محل الى جانبه . في كل مكان ما عدا شارع القطرة الذهبية ، لم تكن تجرؤ على المرور امام بائع الفحم ، ولا امام البقال ولا امام بائعة الفاكهة الامر الذي كان يجعلها تقوم بدورة من شارع بواسونيير حين تذهب الى المغسل ، مسافة عشر دقائق . وقد اطلق عليها الممونون اسم بالوعة . وذات مساء ، فأن الرجل الذي باع مفروشات لانتيه جمع الجيران ، وكان يصيح انه سوف يجمعها ويستوفي حقه اذا لم تعطه نقوده . ومن المؤكد ان احداثاً كهذه تصيبها بالارتجاف ، كانت تهتز ككلب مضروب ، وينتهي كل شيء ، وتتناول طعامها مساء كالعادة يا لهم من سفهاء يزعجونها ! لا مال لديها ولا يمكنها صنعه ! ثم ان التجار يسرقون كثيراً وقد خلقوا لينتظروا. لقد عادت الى النوم في حفرتها ، متجنبة التفكير بما سوف يحدث رغماً عنها ذات يوم . سوف تنتقل دون شك ! ولكنها كانت حتى الآن تتوقع الا ينكدوا عليها

وكانت الام كوبر قد شفيت . وظل البيت طوال سنة عائشاً بالتقتير ،

ومن الطبيعي ان يظل في الصيف بعض الشغل كالتنورات الداخلية البيضاء ، والاثواب القطنية الرقيقة لأفاقات الشارع الخارجي كان الأمر يسير نحـــو التدهور البطيء ، والانف يزداد انغماساً في الاقذار كل اسبوع ، مـــع الصعود والهبوط. امسيات يحكّون بطونهم فيها امام مقصف فارغ، وامسيات اخرى يأكلون فيها لحم عجل حتى التخمة ولم يكن يرى على الارصفة سوى الام كوبو مخبئة صرراً تحت مريلتها ، سائرة بخطى متنزهة الى محل الرهونات في شارع بولونسو . وكانت تكور ظهرها ، ولها هيئة سمينة نهمة ، لتقية ذاهبة الى القداس ، لانها لم تكن تكره ذلك ، فتبذير المال يسليها . وتلك الادوات الصغيرة عند بائعة ادوات الزينة كانت تدغـدغ عواطفها كعجوز هرمـة وأصبح مستخدمو شارع بولونسو يعرفونها جيداً ، ويطلقون عليها اسم « الام اربعة فرنكات » لانها كانت دائماً تطلب اربعة فرنكات حين يعرضون عليهـا ثلاثة مقابل صررها الكبيرة بقدر ما يساوي فلسين من الزبدة .

وجرفيز سوف تبيع البيت . فقد اجتاحتها فـورة الرهن ، ولو ارادوا اقراضها مقابل شعرها لجزت رأسها . وكان ذلك سهلاً جداً ، وليس بالمستطاع الامتناع عن الذهاب للبحث عن نقود حين يكون هناك من ينتظر العودة باربع ليبرات من الخبز . وهكذا ذهبت جميع الموجودات ، البياضات ، والالبسة ، حتى الادوات والمفروشات . كانت في اول الامر تغتنم فرصـــة الاسابيع الجيدة لتفك الرهن .ثم تعود فترهن في الاسبوع التالي . ثم سخرت من امتعتها ، وتركتها تضيع وباعت الايصالات . وهناك امر واحد فطر قلبها ، هو وضع ساعتها في المخطط لتدفع سنداً بعشرين فرنكاً لمباشر جاء يأخذها كانت حتى ذلك الوقت تقسم انها تموت مـــن الجوع ولا تمس ساعتها . وحين حملتها الام كوبو في صندوق صغير للقبعات ، سقطت على مقعد ، مـــرتخية الذراعين ، مبللة العينين ، كما لو انهم اختطفوا ثروتها منها . ولكن حين عــادت الام كوبو بخمسة وعشرين فرنكاً ، فـــان ذلك القرض غير المرتجى ، وتلك الفرنكات الخمسة من الربح ، قد بعثت في نفسها العزاء ؛ وكـــان ان ارسلت العجوز حالاً

لتشتري خمراً باربعة فلوس في كأس لتحتفل بالقطعة ذات المئة فلس .

وفي اغلب الاحيان ، حين تكونان على وفاق ، تشربان جرعة على احدى زوايا منضدة الشغل ، هي مزيج من العرق وشراب الكشمش مناصفة وكان للأم كوبو من المهارة ما يجعلها تحمل الكأس ملأى في جيب مريلتها دون ان تهرق منه قطرة . ويجب الا يعرف الجيران ، اليس كذلك ؟ والحقيقة هي ان الجيران كانوا يعرفون تمام المعرفة . فبائعة الفاكهة ، وبائعة الامعاء ، وغلمان البقال ، كانوا يقولون : « انظروا ! العجوز ذاهبة الى عمتي » او « انظروا ! العجوز تحمل شرابها في جيبها » والصحيح ، ان هذا كان يثير الحي ضد جرفيز انها تأكل كل شيء ، وسوف تلتهم مشغلها . نعم ، نعم ، ليس اكثر من ثلاث او اربع لقم ويصبح المكان نظيفاً كالممسحة

في وسط هذا الخراب العام كان كوبو يعيش سعيداً كان هذا العطشان الدائم يتمتع بصحة جيدة ، وقد زاد الشراب من سمنته . وكان يأكل كثيراً ويهزأ من ذلك النحيل لوريللو الذي يتهم المشروبات بانها تقتل الناس ، وكان يحييه ضارباً على بطنه ، وجلده مشدود بسبب الشحم شبيه بجلد طبل . كان يعزف عليه موسيقى ، وصلوات الحلق ، ودحرجات وضربات صندوق كبير تكسب ثروة لخالع اضراس

ولكن لوريللو ، وقد اغتاظ لعدم وجود بطن له ، كان يقول ان ذلك من الشحم الاصفر ، من الشحم الرديء لا يهم ، فكوبو كان يزيد من سكره لاجل صحته . وشعره الرمادي عند هبوب الريح كان يلتهب كالحراقة ووجهه كسكير ، بفكٍ كفك القرد ، كان يزداد سواداً ويصبح كالنبيذ الازرق. وظل ابناً للمرح ؛ فيوبخ زوجته حين يخطر لها ان تحدثه عن متاعبها وهل خُلق الرجال لينحدروا الى هذه المكدرات ؟ يمكن للمعجن ان يخلو من الخبز ، فهذا لا يعنيه . انه بحاجة الى الخبز صباحاً ومساءً ولا يهمه من اين يأتي. وحين يظل أسابيع دون شغل يصبح اكثر تطلباً . الا انه كان يربت على كتفي لانتيه بصداقة . ومن المؤكد انه يجهل سلوك زوجته السيء ؛ وهناك أشخاص أمثال

آل بوش وآل بواسون كانوا يقسمون على آلهتهم بأنه لا يرتاب بشيء وأن المصيبة ستكون كبيرة اذا عرف بالامر . ولكن مدام ليرا ، اخته ، كانت تهز رأسهـــا وتروي انها تعرف أزواجاً لا يرضيهم هذا . وذات ليلة ، فان جرفيز نفسها التي عادت من غرفة صانع القبعات ظلت متجمدة من البرد وهي تتلقى في الظلام ضربة على مؤخرتها ؛ ثم انتهت الى الإطمئنان ، وقد كانت تعتقد انها ستصطدم بأطراف السرير ، صحيح . كانت الوضعية مخيفة جداً ، ولن يستطيع زوجها ان يلهو بالسخرية منها

امـــا لانتيه فهو ايضاً لم يكن يصيبه التلف كان يمتني بنفسه كثيراً ، ويقيس بطنه بحزام بنطلونه ، مع الخوف الدائم من ان يشد الابزيم او يحـله كان على خير حال ولا يريد ان يسمن او ينحل وذلك بدافع من حبه للتزين . وهذا ما جعله صعباً من ناحية الطعام لانه كان يحسب جميع الجفان بنوع ان لا تتغير قـــامته . وحتى حين لا يكون في البيت أي فلس ، كان يلزمه بيض ، وأضلاع لحم ، وأشياء مغذية وخفيفة ومنذمــا اقتسم ربة البيت مع الزوج اصبح يعتبر نفسه نصف البيت ، وكان يلتقط قطع العشرين فرنكاً التي تقع ، ويقود جرفيز باصبع وبغمزة ، ويدمدم ، ويصيح وكأنه في بيته اكثر من عامل الزنك . وأخيراً انه بيت له سيدان ، والسيد اللقطة ، وهو اكثر خبثاً ، كان يسحب الغطاء كله لناحيته ، ويأخذ وجه السلة في كل شيء ، في المرأة ، وفي المائدة ، وفي الباقي . كان يستخرج زبدة آل كوبو ، ولا يتضايق ابداً من خضّ زبدته أمام الناس . وظلت نانا هي المفضلة عنده ، لأنه كان يحب الفتيـــات الصغيرات اللطيفات ، وقلّ اهتمامه تدريجياً باتيين ، فالغلمان في رأيه يجب ان يتعلموا كيف يتخلصون من جميـع الورطات وحين يأتي احد طالبـاً كوبو كان يجده هناك بالخف والقميص ، خارجـاً من مؤخر الدكان برأس قلق لزوجٍ أزعجوه . وكان يجيب عن كوبو ، ويقول انه وهو واحد .

ولم تكن جرفيز تضحـك في جميع الايام بين هذين السيدين . لم يكن في صحتها ما تشكو منه ، والحمد لله ! وقد زادت سمنتها ، ولكن وجود رجلين

على عاتقها تعتني بهما وتسرهما يتجاوز حدود قواهـا في اغلب الاحيان
آه ! يا رب الارباب ! ان زوجاً واحداً يعكر المزاج بشكل كاف . وأسوأ ما في الامر انهما كانا على تفاهم تام ، لا يتقاتلان أبداً ، ويضحكان لبعضهما البعض في المساء بعـد العشاء ومرافقهما على الطاولة ، ويحتك احدهما بالآخر كل النهار ، كالهررة التي تبحث عن لذتها وتغذيها . ويوم يعودان الى البيت غاضبين يسقطان عليها . هيا ! اضرب البهيمة ! وكان لها ظهر جيد . وصياحهما معاً يجعلهما أفضل رفيقين . ويجب الا يخطر ببالها ان تجيب بحدة . وفي أول الامر ، حين كان احدهما يصرخ كانت تناشد الآخر بزاوية عينها ليتكلم بكلام يدل على صداقة الا ان هذا لم ينجح ابداً. وهي الآن تعمل بهدوء ، وتطوي كتفيها الضخمتين مدركة انهما يلهوان بدفعها لانها مكورة ، كرة حقيقية . وكوبو ، وهو قليل التهذيب كان ينعتها بكلمات نابية ، اما لانتيه فبالعكس ، فهو يختار سفاهاته ويبحث عن كلمات لا يقولها احد وتزيد من جراحها . ومن حسن الحظ ان الانسان يعتاد على كل شيء . وكان الكلام البذيء ، ومظالم الرجلين تنتهي بالانزلاق على بشرتها الناعمة انزلاقها على قماش مشمع ، وقد توصلت الى ان تفضلهما في حالة الغضب ، لانهما في المرات التي يبديان فيها شيئاً من اللطف كانا يزيدان من ارهاقها ، ودائماً وراءها ، لا يتركانهـا تلوي قلنسوة باطمئنان ، ويطلبان منها صحوناً صغيرة ، ويجب أن تملّح او لا تملّح ، وتقول ابيض وتقول أسود ، ويغنجانها ، ويلفّانها بالقطن الواحد بعد الآخر . وفي نهاية الاسبوع تصبح محطمة الرأس والأعضاء . وتظل مشدوهة ، بعيني مجنونة ان مهنة كهذه تستهلك امرأة .

نعم ، كان كوبو ولانتيه يستهلكانها ، وهذه هي الكلمة الصحيحة كانا يحرقانها من الطرفين كما يقال عن الشمعة . ومن المؤكد ان عامل الزنك ينقصه التعليم ، اما صانع القبعات فعنده من ذلك كثير ، او على الأقل كان تعليمه كأناس قذرين لهم قميص ابيض ملطخ بالادران . وقد حلمت ذات ليلة انها على حافة بئر وكوبو يدفعها بلطمة ، بينما لانتيه يدغدغ خصرها ليحملها على القفز بسرعة . نعم هذا يشبه حياتها . آه ! لقد كانت في مدرسة حسنة ، وليس هناك ما يدهش

اذا تشوهت ولم يظهر أهـل الحي شيئاً من العدل بلومها على الطرق القبيحة التي تسير فيها ، لان شقاءها لم يأت منها . وأحياناً ، حين تفكر ، تسري على جلدها رعشة . ثم تفكر بأن الامور ربما كانت تسؤ . ومن الافضل ان يكون لها رجلان ، مثلاً ، من ان تخسر ذراعيها وكانت تجد وضعيتهـا طبيعية ، وضعيـة يوجد منها الكثير ، وكانت تحاول ان تحصل من ذلك على شيء من السعادة . امـا ما يثبت كم اصبحت ضيقة التفكير وساذجة فهو انها لم تكن تكره كوبو اكثر من لانتيه . وفي مسرحية في مسرح « المرح » رأت فاسقة تمقت زوجها وتدس له السم بسبب عشيقها ، وقد اغضبها ذلك لانها لا تشعر في نفسها بما يشبهه . الم يكن من العقل ان يعيش الثلاثة على وفاق ؟ كلا ، كلا. لتدع هذه الحماقات ، انها تنكد الحياة التي لم يكن فيها قبلاً شيء مستغرب. واخيراً، رغم الديون ورغم البؤس الذي يهددهم ، فانها تصرح بانها تكون مطمئنة جداً ومسرورة جداً ، لو خفف عامل الزنك وصانع القبعات من ضربها ومن شتمها.

ومما يدعو للأسف ان حالة البيت في الخريف قد تدهورت ايضاً . وزعم لانتيه انه اصيب بالهزال ، وأظهر انفاً كان يمتد كل يوم ، ويتذمر من كل شيء، ويشمئز من صحن البطاطا ، انه خليط لا يستطيع اكله ، كما كان يقول ، دون ان يصاب بالمغص واقل المشاجرات الآن اصبحت تنتهي بان يضع كل منهم حالة البيت المؤسفة على رأس غيره ، ولا يعود يصلح ذات البين سوى الشيطان، قبل ان يذهب كل منهم لينام . حين لا يوجد نخالة تتقاتل البهائم ، اليس كذلك؟ وتوقع لانتيه وقوف الحال فاغضبه ان يرى البيت قد ُخرب و ُنظف ، لانه رأى اقتراب النهار الذي سيضطر فيه الى ان يأخذ قبعته ليبحث في الخارج عن المسكن والمـأكل كان معتاداً على جحره ، واكتسب هنا عاداته الصغيرة ، بحيث يغنجه الجميع ، بلاد حقيقية كثيرة الخيرات لن يستبدل هدوءها ابداً . واسم السيدة !.. ليس بالامكان الامتلاء حتى الاذنين وبقـاء بعض القطع في الصحن . وقـد غضب على بطنه ، لان البيت في تلك الساعة كان في بطنه . ولكنه لم يفكر هكذا ، بل كان يحفظ للآخرين كراهية متكبرة لانهم تركوا

انفسهم يفلسون في سنتين . صحيح ، ان آل كوبو لم يكونوا ذوي اجساد ضخمة وعندئذ اخذ يصيح ان جرفيز ينقصها الاقتصاد يا لرعد الله ! ماذا سيحل بهم؟ لقد تركه الاصدقاء تماماً يوم اصبح على وشك الانتهاء من عمل رائع، ستة آلاف فرنك كمرتب في مصنع ، وهو مبلغ يمكنه من وضع العائلة الصغيرة كلها في الفخفخة .

وذات مساء من كانون الاول تناولوا عشاءهم عن ظاهر قلب . فلم يكن هناك فجلة. وقد خرج لانتيه باكراً متجهم الوجه ، يجوب الطريق لايجاد معجن آخر حيث رائحة المطبخ تزيل غضون الوجه . وكان قد ظل مفكراً بقرب الجهاز الآلي طوال ساعات . ثم ابدى فجأة صداقة عظيمة لآل بواسون . لم يعد يمازح الشرطي بتسميته بادنغ ، بل ذهب الى درجة التسليم بان الامبراطور كان غلاماً طيباً . واظهر على الخصوص انه يعتبر فرجيني امرأة مفكرة ، كما كان يقول ، تعرف ان تقود زورقها . وكان هذا ظاهراً ، فهو يتملقها ، حتى ليمكن الظن انه يريد ان يسكن عندها . ولكنه كان ذا رأس ضخم ذي قعر مزدوج اكثر تعقيداً من ذلك . فقد افصحت فرجيني عن رغبتها في ان تستقر بائعة لشيء ما ، فجرى امامها ، وصرح بان هذا المشروع قوي جداً . نعم ، يجب ان تكون قد خلقت للتجارة وهي الكبيرة البشوشة النشيطة . اوه ! سوف تربح ما تريد . وما دام المال جاهزاً منذ زمن طويل ، ميراث عمة ، فقد كانت على حق في ترك الاثواب الاربعة التي تخيطها على عجل كل فصل وذلك لتندفع في دنيا الاعمال ، وكان يذكر اسماء اناس كادوا يحققون ثروة ، كبائعة الفاكهة في زاوية الشارع ، وبائعة خزف صغيرة في الشارع الخارجي ، والالحظة مناسبة وتكاد تباع كناسات مناضد الباعة الا ان فرجيني كانت تتردد انها تبحث عن دكان تستأجرها ، وترغب الا تترك الحي . وعندئذ سار بها لانتيه الى الزاوية وتحدث معها بصوت بطيء منخفض طوال عشر دقائق . وكان يبدو انه يدخل في رأسها شيئاً بالقوة ، ولم تكن تقول كلا ، ودلت هيئتها على انها سمحت له بالعمل. وكان ذلك كسر بينهما ، بطرفات عيون ، وكلمات سريعة،

ودسيسة خفية تنبىء عن نفسها في قبضاتهما ومنذ تلك اللحظة اخذ صانع القبعات ، آكلاً خبزه الجاف ، يرصد آل كوبو بنظرته الخفية ، واصبح كثير الكلام ويزعجهم بشكاياته المستمرة

وكانت جرفيز تمشي طول النهار في هذا الشقاء الذي كان ينشره ملاطفاً . ولم يكن يتحدث لأجله ، الله اكبر ! انه سوف يموت جوعاً مع الاصدقاء الى ما شاء الله . الا ان الحكمة تقضي بتقدير الوضعية تماماً . فقد تأخر عليهم ، على اقل تقدير ، خمساية فرنكاً في الحي ، للخباز ، والفحام ، والبقال والآخرين . وفضلاً عن ذلك تأخر عليهم دفع بدلي اجار ، اي دفع مائتين وخمسين فرنكاً ايضاً ، وكان صاحب الملك ، السيد ماريسكو يتحدث عن طردهم اذا لم يدفعوا له قبل اول كانون الثاني . واخيراً ، فان محل الرهونات اخذ كل شيء. ولم يعد بامكانهم ان يحملوا اليه ما يساوي ثلاثة فرنكات من الامتعة الزهيدة القيمة . وقد تنظف المنزل بشكل جدي ، ولم يبق في الجدران سوى المسامير ، ويوجد منها ليبرتان بثلاثة فلوس

وجرفيز المشوشة ، المحطمة الذراعين من هذه الزيادة، كانت تغضب وتضرب بقبضتها على الطاولة ، او تنتهي بالبكاء كالبلهاء . وقد صرخت ذات مساء :

– انا ذاهبة غداً .. افضل ان اضع المفتاح تحت الباب وانام على الرصيف من ان استمر في العيش برعب كهذا

فقال لانتيه مداجياً

– تكونين اكثر تعقلاً لو تنازلت عن الاجـار اذا وُجد احد .. وحين تصممون على ترك الدكان ..

فقاطعته بكثير من العنف

– ولكن حالاً ! حالاً ! آه ! اكون قد تخلصت تماماً

حينئذ اظهر صانع القبعات انه عملي جداً . فبالتخلي عن الاجـار يحصلون دون شك من المستأجر الجديد على القيمة المتأخرة . وجازف بالكلام عن آل بواسون، وتذكر ان فرجيني كانت تبحث عن مخزن ويمكن للدكان ان تناسبها.

وتذكر انه سمعها تتمنى دكاناً مماثلة. ولكن الغسالة، لدى سماعها اسم فرجيني، استمادت هدوءها فجأة . سوف ترى ؛ في حالة الغضب يتكلم المرء دائماً عن مغـــادرته بيته فوراً . ولكن حين يفكر يجد ان الامر ليس كثير السهولة .

وفي الايام التالية اعاد لانتيه طلباته ، فكانت جرفيز تجيبه انهـــا كانت في حالة اسوأ وتخلصت منها. ياله من تقدم حين تخسر دكانها ! .. ان هذا لن يعطيها خبزاً . انها على العكس ، ستعيد العـاملات وتربح زبائن جدداً . وكانت تقول ذلك لتقاوم الاسباب الوجيهة التي يدلي بها صانع القبعات حين اظهرها ملقاة على الارض ، مسحوقة بالنفقات دون اقل امل في التغلب على صعوباتهـــا . ولكنه ارتكب حماقة بلفظ اسم فرجيني ايضاً . وعندئذ غضبت وركبها العناد . كلا، كلا ، اذا كانت فرجيني طامعة بالدكان فذلك لتحقيرها . يمكن ان تتخلى لأول امرأة في الشارع ولكن ليس لهذه المداجية التي كانت تنتظر منذ سنوات لتراها تنتقل . اوه ! هذا يوضح كل شيء . لقد ادركت الآن لمـاذا كانت الشرارات الصفراء تشتغل في عيني هذه الثرثارة كعيني الهر . نعم ، ان فرجيني لا تزال تذكر يوم جلدتها على إليتها في المغسل وظلت تطبخ حقدها على نار خفيفة . ويكون تصرفها حكيماً اذا وضعت مؤخرتهـا تحت الزجاج اذا لم تكن تريد ان تتلقى الضربات مرة ثانية ولن يكون هذا بعيداً وبامكانها ان تهيء لغمها . ولانتيه ، امام هذا الفيض من الكلام البذيء وبخ جرفيز اولا ، ودعاها بأسماء ، كرأس المعول ، وعلبة ثرثرة ، ومدام بيتزيك . وتمادى في جموحه الى حـــد انه نعت كوبو نفسه بالفلاح ، متهماً اياه بعدم معرفته كيف يجعل زوجته تحترم صديقه . وحين ادرك ان الغضب سيفسد كل شيء ، اقسم انه لن يهتم ابداً بأمور الآخرين لأنه كوفىء بشكل سيء ؛ وبدا فعـلاً انه لم يعد يلح على ترك الدكان ، مترقباً الفرصة ليعود الى الكلام في القضية ويقنع الغسالة

وجاء كانون الثاني طقس قذر ، رطب ، بارد وكانت الام كوبو تسعل ويضيق نفسها طوال شهر كانون الاول، واضطرت الى الالتصاق بالسرير بعد عيد الظهور . كان هذا هو ايرادها السنوي ؛ وتنتظره كل شتاء . ولكن في هـــذا

الشتاء كان يقال حولها انها لن تخرج من غرفتها الا ورجلاها الى الامام. والحقيقة، كانت حشرجتها ترن بشدة ، وهي ضخمة وسمينة ، بعين ميتة ونصف وجهها ملتوٍ وبالتأكيد لم يكن اولادها ليقضوا عليها ؛ الا انها كانت سقيمة منذ وقت طويل ، وكانت مزعجة جداً بحيث اصبحوا في سريرتهم يتمنون موتها كإنقاذ للجميع . وهي نفسها ستكون اكثر سعادة ، لانها عاشت زمنها، اليس كذلك ؟ وحين يعيش المرء زمنه فلا يبقى هناك ما يؤسف عليه. ودعي الطبيب مرة واحدة ولم يعد . وكانوا يسقونها ماء الحشائش لئلا يهملوها تماماً . وكانوا يدخلون كل ساعة ليروا اذا كانت لا تزال حية . لم تكن تتكلم ابداً ما دامت تختنق ، ولكنها تتطلع بالاشخاص بعينها التي ظلت سليمة حية ؛ وكان هناك كثير من الامور في تلك العين ، حسرات على الشباب ، واحزان لرؤية اولادها متعجلين ليتخلصوا منها ، وغضب على تلك الفاسدة نانا التي لا تتعب ابدا في الليل حين تذهب وتراقب من الباب الزجاجي وهي بقميص النوم .

ومساء الاثنين عاد كوبو ثملاً . لقد اصبح يعيش في حالة اشفاق مستمر منذ ما اصبحت والدته بخطر . وحين يكون نائماً ، شاخرا ، مطبق القبضتين ، كانت جرفيز تدور لحظة ، وتسهر على مدام كوبو جزءا من الليل . الا ان نانا كانت تبدو طيبة جدا ، وتنام دائماً بقرب العجوز ، قائلة انها ستنذر الجميع اذا سمعتها تموت . في تلك الليلة بينما كانت الصغيرة نائمة ، وتبدو المريضة انها تغفو بهدوء ، امتثلت الغسالة للانتيه الذي ناداها من غرفته واشار عليها بالذهاب للارتاح قليلاً ، واحتفظا فقط بشمعة مضاءة موضوعة وراء الخزانة على الارض . ولكن نحو الساعة الثالثة قفزت جرفيز فجأة عن السرير مرتجفة ، يجتاحها قلق، فقد اعتقدت انها شعرت بمرور نسمة باردة على جسدها . وكان طرف الشمعة قد احترق ، فأرتدت ملابسها في الظلام ، وهي متخدرة ، ويداها ساخنتان . ولم تستطع ان تشعل مصباحاً صغيرا الا في الغرفة الصغيرة بعد ان اصطدمت بالاثاث . وكان شخير عامل الزنك وحده ، وسط الصمت المثقل بالظلام ، يضع اشارتين خطيرتين . نانا نائمة على ظهرها وبين شفتيها المنتفختين نفخة صغيرة ،

وجرفيز ، وقد خفضت المصباح الذي ارقص ظلالا كثيرة ، فـأثار وجه الام كوبو ، ورأتها بيضاء شاحبة ، ورأسها متدحرج على الكتف بعينين مفتوحتين. كانت الام كوبو ميتة .

وبهدوء ، وبدون اية صرخة ، عادت الغسالة حذرة متجمدة الى غرفـة لانتيه ، وكان قد عاد الى النوم ، فانحنت وتمتمت

– لقد انتهى كل شيء . ماتت

فزمجر وقد أثقله النعاس واستيقظ بشكل سيء

– دعيني بسلام ونامي .. لا نستطيع ان نفعل لها شيئاً اذا كانت ميتة

ثم اتكأ على مرفقه وسأل :

– كم الساعة ؟

– الثالثة .

– الساعة الثالثة فقط ! نامي اذن . ستصابين بسوء . سنرى حين يطلـع النهار

ولكنها لم تصغ اليه ، فارتدت ثيابها . وعندئذ التصق بالغطـاء ثانية وانفه مقابل الجدار وهو يتكلم عن رأس النساء العنيد . فهل هناك مـا يدعو للعجلة لاخبار الناس بوجود ميت في البيت ؟ ان هذا يذهب بالبهجة في وسط الليل ، وكان ساخطا لافساد نومه بافكار سوداء. الا انها حين نقلت امتعتها الىغرفتها، حتى دبابيس شعرها ، جلست تبكي كما يحلو لها ، غير خائفة ان تفاجأ مع صانع القبعات كانت في اعماقها تحب الام كوبو ، وشعرت بحزن عظيم بعد ان كانت في اللحظة الاولىلا تشعر بسوى الخوف والغم حين رأتها لا تحسن اختيار ساعة الرحيل . وكـانت تبكي وحيدة ، وبشدة في الصمت ، دون ان يكف عامل الزنك عن الشخير ؛ انه لم يـسمع شيئاً ، وقد نادته وهزته ، ثم عزمت على تركه مرتاحاً ، مفكرة ان استيقاظه يخلق ارتباكاً جديداً وحين عادت الى جانب الجثة وجدت نانا جالسة تدعك عينيها . وفهمت الصغيرة ، ومدت ذقنها لترى جدتها بشكل أفضل ، بفضولها كطفلة فاسدة ؛ ولم تكن تقول شيئاً بل

كانت مضطربة قليلاً ، مندهشة ، راضية امام ذلك الموت الذي وعدت نفسها به منذ يومين، كشيء قبيح مخبأ وممنوع على الاولاد ؛وأمام ذلك القناع الابيض الذي استدق في الشهقة الاخيرة من آلام الحياة ، فان حدقتيها كهرة فتية كـــبرتا ، وأحست في صلبها بذلك الخدر الذي تشعر به حين تكون مسمرة وراء زجاج الباب ، حين كانت تذهب وتتجسس هناك على ما لا يعني الماخطات .

وقالت لها امها بصوت منخفض :

– هيا ، انهضي لا اريد ان تبقي .

وانسابت آسفة من السرير ، مديرة رأسها ، غير محولة نظرها عن الميتة . وكانت جرفيز متلبكة بها جداً ولا تعرف اين‌تضعها بانتظار النهار . فعزمت ان تجعلها ترتدي ملابسها حين انضم اليها لانتيه بالبنطلون والخف . لم يستطع ان ينام وكان قد خجل من سلوكه وحينئذٍ سوي كل شيء . وتمتم :

–لتنم في سريري . فهناك مكان لها .

ورفعت نانا الى امهـــا ولانتيه عينيها الكبيرتين الواضحتين ، متظاهرة بالبلاهة ، شأنها يوم عيد رأس السنة حين يعطونها حلوى وشوكولا ولم يكن هناك من حاجة لدفعها فقد أسرعت بقميص النوم ، ورجلاها الصغيرتان العاريتـــان لا تكادان تلامسان البلاط ، وانزلقت كالافعى في السرير الذي لا يزال دافئاً ، وتمددت فيه ، غارقة ، وجسدها النحيف لا يكاد يحدّب الغطاء . وفي كل مرة تدخل امها كانت تراها براقة العينين في وجهها الصامت ، غير نائمة غير متحركة ، كثيرة الاحمرار تبدو انها تفكر في بعض القضايا .

وأخذ لانتيه يعاون جرفيز على إلباس الام كوبو ، ولم يكن ذلك بالامـــر الهين ، لأن الميتة كانت ترمي بثقلها . ولم يكن احد يظن ان تلك العجوز بهذه السمنة وذلك البياض . وقد البساها جوارب ، وتنورة بيضـــاء ، وصدرة ، وقلنسوة ، وافضل ملابسها الداخلية . وكوبو لا يزال يشخر لحنين ، احـدهما خشن صاعد والآخر جاف هابط ؛ حتى ليقال انهـــا موسيقى كنسية ترافق

احتفالات الجمعة العظيمة . وحين ألبست الميتة ثيابها ومددت على سريرها ، سكب لانتيه لنفسه كأس نبيذ ليهدأ روعه ، لان قلبه كان منفطراً وبحثت جرفيز في الخزانة ذات الادراج عن صليب صغير من النحاس جاءت به من بلاسان . ولكنها تذكرت ان الام كوبو نفسها قد باعته . واشعلا الموقد ، وقضيا ما بقي من الليل نصف نائمين على كرسيين واكملا شرب الليتر الذي بدءا به ، منزعجين ، مستائين كأن ذلك حدث بسبب غلطتها .

وحوالي الساعة السابعة ، قبل طلوع النهار ، استيقظ كوبو أخيراً ، وحين عرف بالمصيبة ظل جاف العين اولاً ، متلجلجاً ، ظاناً بشكل غامض انهم يمزحون معه . ثم ارتمى على الارض ، وسقط أمام الميتة ، وقبلها ، وبكى كالعجل بدموع غزيرة بللت الغطاء حين مسح خديه به واخذت جرفيز تنتحب متأثرة جداً لألم زوجها ، وقد اصطلحت معه ؛ نعم ، كانت سريرته افضل مما تظن . وامتزج يأس كوبو بألم عنيف في منبت الشعر . وكان يدخل اصابعه في شعره . وكان فمه يظل خاثر الريق في غدوات سكرته ، ولا يزال ثملاً نوعاً رغم عشر ساعات من النوم . وكان يشكو ، وهو منكمش القبضتين . يا لاسم الرب ! امه المسكينة التي كان يحبها كثيراً ، ها هي قد رحلت ! آه !. انه يشعر بألم في جمجمته ، وهذا سوف يقضي عليه ! انها جزة حقيقية من الجمر على رأسه . وقد انتزع قلبه منه الآن كلا ، ليس القدر عادلاً بتكالبه هكذا على انسان !

وقال لانتيه وهو ينهضه

– هيا ، تشجع يا صديقي . يجب ان تهدأ .

وسكب له قدح نبيذ ، ولكن كوبو رفض ان يشرب :

– ماذا اصابني ؟ اشعر بالنار في احشائي ... انها امي ، وحين رأيتها شعرت بطعم النار ... امي . يا الهي ! امي ، امي ...

واخذ يبكي كالطفل . ومع ذلك فقد شرب كأس النبيذ ليطفىء النار التي تحرق صدره . وذهب لانتيه بعد ذلك بحجة إخبار العائلة والذهاب الى مكتب

المختار لتقديم التصريح . وكان بحاجة لاستنشاق الهـــواء . ومع ذلك فلم يسرع ، مدخناً السكاير ، متذوقاً برد الصباح القارس . وعند خروجه من عند مدام ليرا دخل الى دكان لبيع الحليب في الباتينيول ليشرب قدح قهوة ساخناً وظل هناك ساعة كاملة وهو يفكر

ومنذ الساعة التاسعة كانت العائلة مجتمعة في الدكان التي اقفلت مصاريعها . لم يكن لوريللو يبكي . وعنده شغل معجّل ، وقد صعد حالاً الى مشغله بعد ان تمايل لحظة بوجهٍ يكيفه حسب الظروف . وقد عانقت مدام لوريللو ومدام ليرا آل كوبو وغطتا عيونهما التي كانت تسيل منها دموع خفيفة ولكن حين القت الاولى نظرة سريعة حول الميتة رفعت صوتها فجأة لتقول ان ليس هناك شيء من حسن التصرف، وانه لا يترك قنديل مضاء بجانب جثة الميت، بل يجب وجود شموع ، وارسلت نانا لتشتري حزمة من الشموع الكبيرة . آه ! بامكانكم ان تموتوا عند العرجاء فهي ترتبكم بطريقة غريبة ! ما هذه البلهاء الـتي لا تعرف كيف تتصرف حيال ميت ! الم تدفن احداً في حياتها اذن ؟ واضطرت مدام ليرا الى الصعود عند الجيران لاستعارة صليب ، وجاءت بواحد كبير ، صليب من خشب اسود ُسمّـر عليه مسيح من كرتون مدهون غطى صدر الام كوبو كله ، وبدا ان ثقله يسحقها . وبعد ذلك طلبوا ماء مقدساً فلم يجدوا عند احد، وكانت نانا هي التي اسرعت من جديد الى الكنيسة وجاءت منها بزجاجة . وبدورة يد اصبح للغرفة وجه آخر . فعلى طاولة صغيره شمعة تشتعل بجانب قدح مليء بالماء المقدس ، غمس فيه غصن بقس *Buis* . واذا جاء احد الآن فقد اصبح الامر مرتباً على الاقـــل . ونظمت الكراسي بشكل دائرة في الدكان لاستقبال الناس .

وعاد لانتيه حوالي الساعة الحادية عشرة . وكان قـد طلب معلومات من مكتب دفن الموتى . وقال :

ـ التابوت باثني عشر فرنكاً. واذا اردتم قداساً فسيزداد المبلغ عشرة فرنكات وأخيراً هناك مركبة الموتى ويُدفع لها وفقاً للزينة

فتمتمت مدام لوريللو رافعة رأسها بهيئة مندهشة وقلقة :

ـ اوه ! لا فائدة من ذلك   انهم لن يرجعوا والدتي ، اليس كذلـك ؟ يجب العمل وفقاً لمحافظة النقود

فقال صانع القبعات

ـ دون شك . هذا ما افكر به   لقد جئت فقط بالارقام وفقاً للعادة . اخبروني بما ترغبون وبعد الغداء اذهب وأطلبه

كانوا يتكلمون بصوت منخفض ، في الضوء الخفيـف الذي ينير الغرفة من شقوق المصاريع . وبقي باب الغرفة الصغيرة مفتوحاً   ومن تلك الفتحة الفاغرة فاها كان يخرج صمت الموت الكبير   وكانت ضحكات بعض الاولاد تتصـاعد في الساحة ، انها دبكة اطفال تدور في شمس الشتاء الشاحبة . وفجأة سمعت نانا التي هربت من عند آل بوش حيث أرسلوها ، تأمر بصوتها الحاد ، والاقدام تضرب البلاط بينما يتطاير ذلك الكلام المغنى مع جلبة عصافير صاخبة

حمارنا ، حمارنا ،

حافره يؤلمه ،

والسيدة صنعت له

دواء لحافره

واحذية ليلكية ، لا لا ،

وأحذية ليلكية !

وانتظرت جرفيز لتقول بدورها

ـ نحن لسنا اغنياء ، بالتأكيد ؛ ولكننا نريد ان نتصرف تصرفاً سليماً... وإذا كانت الام كوبو لم تترك لنا شيئـــاً فليس هذا سبباً لالقائها في الارض كالكلب ... كلا ، يجب ان يقام قداس ، مع عربة موتى لطيفة ...

وسألت مدام لوريللو بعنف

ـ ومن سيدفع ؟ ليس نحن وقد خسرنا مالاً في الاسبوع الماضي ؛ ولا أنتم ايضاً لانكم (على الحديدة)   آه ! ولكن عليكم ان تروا الى اين يقودكم

ذلك حين تحاولون ادهاش الناس .

واستشير كوبو فتلجلج، واتى بحركة لا مبالاة عميقة ، وعاد الى النوم على كرسيه . وقالت مدام ليرا انها ستدفع نصيبها . وكانت من رأي جرفيز، ويجب ان يظهروا بالمظهر اللائق وعندئذ حسب الاثنتان على قصاصة ورق : تبلغ النفقات كلها التسمين فرنكاً تقريباً ، لانهما عزمتا بعد شرح طويل على وجود عربة مزينة بغطاء ضيق .

واستنتجت الغسالة :

– نحن ثلاث وكل واحدة منا تدفع ثلاثين فرنكاً وليس في هذا خراب .

ولكن مدام لوريللو انفجرت غاضبة

– انا ارفض ، نعم أرفض ! لا لأجل الثلاثين فرنكاً ولو كان معي ، ولو كان في ذلك بعث امي ، لدفعت مئة الف الا اني لا احب المتكبرين .. ان عندك دكاناً ، وتفكرين بالفخر أمام الحي . ولكننا لا ندخل في ذلك ، ولا نضع ... اوه ! سترتبين أمورك . وضعي ريشاً على عربة الموتى اذا كان في ذلك سلوى لك .

فأجابت جرفيز :

– لم يطلب احد منك شيئاً . لا اريد ان يوجه احد الي لوماً ولو اضطررت الى بيع نفسي . كنت اطعم الام كوبو بدونك وسأدفنها بدونك . والآن ، مرة اخرى ، لن أتركها لك ؛ اني التقط الهررة الضائعة ولن أترك امك في الوحل

عندئذ بكت مدام لوريللو، واضطر لانتيه الى منعها من الذهاب. واضحت المشاجرة داوية مما دعا مدام ليرا الى طلب الصمت بعنف ، معتقدة ان من الواجب الذهاب بهدوء الى الغرفة الصغيرة . وذلك لالقاء نظرة غاضبة وقلقة على الميتة كما لو انها تخشى ان تجدها مستيقظة مصغية الى المناقشة بجانبها .

وفي تلك اللحظة عادت دبكة الاطفال في الساحة الى ما كانت عليه . وكان صوت نانا الخفيف النافذ يسيطر على الاصوات الاخرى :

حمارنا ، حمارنا ،

بطنه يؤلمه ،
والسيدة صنعت له
دواء لبطنه .
وأحذية ليلكية ، لا ، لا ،
وأحذية ليلكية !

وقال لانتيه لجرفيز المهتزة الموشكة على النحيب من الملل والحزن :
– يا الهي ! كم يثير هؤلاء الاولاد الاعصاب بأغنيتهم ! اسكتيهم وخذي نانا الى زوجة البواب رفساً .

وذهبت مدام ليرا ومدام لوريللو لتناول طعام الغداء ووعدتا بالعودة . وجلس آل كوبو الى المائدة ليأكلوا لحم خنزير ، ولكن بدون جوع ، غير متجرئين على تحريك شوكاتهم . كانوا قلقين جدا ، والهين ، على تلك المسكينة الام كوبو التي كانت تثقل على اكتافهم وتملأ جميع الغرف . لقد تشوش نظام حياتهم . وفي اللحظة الاولى كانوا يسيرون دون ان يجدوا الامتعة التي يبحثون عنها ، وكانوا مصابين بتشنج كما يحدث غداة حفلة . وبلغ لانتيه الباب حالا ليعود الى جماعة دفن الموتى حاملا الثلاثين فرنكاً من مدام ليرا والستين فرنكاً التي استمارتها جرفيز من غوجيه، حين ذهبت اليه مشعثة الشعر كالمجنونة. وبعد الظهر حدثت بعض الزيارات ، انهن جارات يدفعهن الفضول ، جئن متأوهات ، مجيلات عيوناً باكية ، وقد دخلن الى الغرفة الصغيرة ، ونظرن الى الميتة راسمات اشارات الصليب ، هازّات فرع البقس المغمس بالماء المقدس، ثم جلسن في الدكان حيث تحدثن عن المرأة العزيزة ، بشكل لا ينتهي ، ودون ان يتعبن من ترديد العبارة نفسها طوال ساعات . ولاحظت الآنسة ريمانجو ان عينها اليمنى ظلت مفتوحة . وأصرّت مدام غودرون على انها وجدت بشرتها جميلة بالنسبة الى سنها ، وظلت مدام فوكونيه مندهشة لأنها رأتها تشرب قهوتها قبل ثلاثة ايام . صحيح ، اصبح الناس يموتون بسرعة ، وبامكان كل واحد ان يجهز نفسه . وعند المساء بدأ آل كوبو يشعرون ان الكيل قد طفح ، وان حفظ جثة الميت طويلاً

بهذا الشكل مدعاة لغم العائلة . ويجب على الحكومة ان تسن قانوناً غير هذا ايضاً امسية كاملة ، وليلة كاملة ، وصباح بكامله . كلا ، هذا لن ينتهي ابدا . والحزن يتحول الى مضايقة اذا لم يكن هناك بكاء ، اليس كذلك ؟ وينتهي الأمر الى تصرف سيء . لقد اخذت الام كوبو الصامتة ، المتصلبة داخل الغرفة الصغيرة الضيقة ، تنتشر تدريجياً في المنزل ، واصبحت ذات ثقل يقتل الناس ، واستعادت العائلة سيرتها المعتادة رغماً عنها وفقدت من احترامها .

وقالت جرفيز لمدام ليرا ومدام لوريللو حين ظهرتا ثانية

– ستأكلان لقمة معنا . ان حزننا كبير ولن نترك بعضنا بعضاً

ووضع الغطاء على منضدة الشغل . وحين رأى كل واحد الصحون تذكر الوليمة التي اقيمت هنا . وعاد لانتيه . ونزل لوريللو . وجاء حلواني يحمل القطايف لأن الغسالة لم تكن على ما يرام لتقوم باعمال الطبخ. وما كادوا يجلسون حتى دخل بوش يقول ان السيد ماريسكو يريد الحضور. وحضر صاحب الملك، كثير الوقار ووسامه العريض على معطفه ، فحيا صامتاً ، وذهب رأساً الى الغرفة الصغيرة حيث ركع .

كان كثير التقوى . وقد صلى بهيئة متأمل كخوري ، ورسم اشارة الصليب في الهواء راشاً الجثة بغصن البقس . وتركت العائلة كلها الطاولة ووقفت بتأثر كبير . وبعد ان انهى السيد ماريسكو ورعه جاء الى الدكان وقال لآل كوبو :

– لقد اتيت بسبب بدلي الاجار المتأخرين . هل انتم على استعداد للدفع ؟

فتمتمت جرفيز وقد اقلقها ان تسمع كلاماً عن ذلك امام آل لوريللو

– كلا يا سيد ، ليس تماماً . انت تعلم ، مع المصيبة التي حلت بنا .

فأجاب المالك موسعاً اصابعه الطويلة كمامل قديم

– بدون شك ، ولكن لكل انسان همومه ، انا غاضب ، ولا استطيع الانتظار اكثر من ذلك ... واذا لم اقبض بعد غد فسأضطر الى اللجوء الى الطرد .

وضمت جرفيز يديها متوسلة اليه ، والدموع في عينيها . ولكنه بهزة عنيفة

من رأسه الضخم العظمي أفهمها ان التوسل لا يجدي ، الا ان احترام الموتى يمنع كل مناقشة ، وانسحب متقهقراً برصانة وهو يتمتم

– عفواً الف مرة لأنني ازعجتكم بعدغد صباحاً . لا تنسي .

وعند ذهابه مر من جديد امام الغرفة الصغيرة وحيا الجثة المــــرة الاخيرة بركوع ورع ، من خلال الباب المفتوح على مصراعيه .

وأكلوا بسرعة لئلا يظهروا بمظهر من يتلذذ بالأكل. وحين وصلوا الى الحلويات بعد الطعام تأخروا ، وقد اجتـــاحتهم الحاجة لحسن التصرف . وبين لحظة وأخرى ، والفم ملآن ، فــان جرفيز او احدى الاختين ، كانت تنهض وتلقي نظرة على الغرفة الصغيرة دون ان تترك منشفتها . وحين تعود الى الجلوس وتكمل لقمتها تنظر الاخريات اليها لحظة ليتاكدوا من ان كل شيء على ما يرام في الناحية الثانية ثم تنوسيت الام كوبو لان السيدات قليلاً ما يزعجن انفسهن . وصنعوا قهوة قوية جداً لتبقيهن ساهرات طوال الليل . وجاء آل بواسون حوالي الساعة الثامنة ، فدعوهم ليشربوا قدحـــاً . ولانتيه الذي كان يراقب وجه جرفيز اغتنم عندئذ فرصة كان ينتظرها منذ الصباح . وذلك بصدد قذارة اصحاب الاملاك الذين يدخلدن ويطلبون نقوداً من البيوت التي فيها ميت ، وقال :

– انه جزويتي ، هذا القذر بهيئته كأنه يخدم القداس ! ولكنني لو كنت مكانك لتركت له دكانه .

وكانت جرفيز منهوكة من التعب ، مرتجفة وعصبية ، فاجابت مستسلمة :

– نعم ، بالتاكيد ، لن انتظر رجال القانون آه ظهري مثقل ، ظهري مثقل !

اما آل لوريللو الذين اغتبطوا لفكرة ان العرجاء لن يبقى لهـــا دكان فقد استصوبوا الفكرة كثيراً . ولن يحدس احد بما تكلفه الدكان . اذا لم تربح سوى ثلاثة فرنكات بعملها عند الآخرين فلن يكون عليها على الاقــل نفقات ، ولن تجازف بخسارة مبالغ كبيرة. وقد رددوا هذه البراهين على كوبو وهم يدفعونه ، وكان قد اكثر من الشراب ، ولازمته رقة القلب فكان يبقى وحده في ضيقته .

وحين بدت الغسالة انها مقتنعة اخذ لانتيه يطرف بعينه وهو يتطلع الى آل بواسون . وتدخلت فرجيني الكبيرة ، وابدت كثيراً من المحبة

– انت تعلمين ان التفاهم مستطاع . سوف آخذ على عاتقي بقية الاجار واسوّي قضيتك مع صاحب الملك . واخيراً سوف تصبحين اكثر اطمئناناً

فاعلنت جرفيز ، وقد تحركت كانها اصيبت برعشة :

– كلا ، شكراً انا اعرف اين اجد بدلات الاجار لو اردت ساشتغل ؛ لي ذراعاي والحمد لله ! لأنقذ نفسي من الورطة

واسرع صانع القبعات يقول

– سنتحدث بذلك فيما بعد . ليس مناسباً هذا المساء . فيما بعد ، غداً مثلاً .

في تلك اللحظة ، فان مدام ليرا التي كانت قد ذهبت الى الغرفة الصغيرة ، أطلقت صرخة خفيفة كانت خائفة لانها وجدت شمعة مطفأة « محروقة حتى النهاية » واهتم الجميع باشعال شمعة اخرى ، وهزوا رؤوسهم مرددين ان هذه ليست علامة حسنة حين ينطفىء النور بقرب الميت.

وبدأت السهرة . وكان كوبو قد تمدد ، لا لكي ينام كما قال ، بل ليفكر ؛ وأخذ يشخر بعد خمس دقائق . وحين ارسلوا نانا لتنام عند آل بوش اخذت تبكي ؛ فقد شبعت منذ الصباح آملة ان تحصل على الدفء في السرير الكبير لصديقها الطيب لانتيه . وظل آل بواسون حتى منتصف الليل وانتهوا الى شرب النبيذ على الطريقة الفرنسية ، في صحن السلطة لأن القهوة كانت تؤثر كثيراً على اعصاب اولئك السيدات. ودار الحديث حول أمور مؤثرة. فتحدثت فرجيني عن الريف وكانت تتمنى ان تدفن في احدى زوايا غاب، وزهور الحقول على قبرها. ومدام ليرا كانت تحتفظ في خزانتها بالشرشف لتكفينها، وهي تعطره بباقة من الخزامى ؛ وتحرص على ان تكون تحت أنفها رائحة طيبة حين تأكل الهندباء البرية من جذورها . ثم روى الشرطي ، دون أي رابط ، انه اوقف في الصباح فتاة كبيرة جميلة كانت تسرق من دكان بائع لحم خنزير ، وحين عريت

من ملابسها عند المفوض وجدوا عشرة حبال مقانق معلقة حول جسدها ، من خلف ومن أمام . وقالت مدام لوريللو متقززة بانها لن تأكل من هذه المقانق. وأخذ الجميع يضحكون بهدوء . وابتهج الساهرون محتفظين باللياقات . ولكن حين أنهوا النبيذ على الطريقة الفرنسية خرج من الغرفة الصغيرة ضجة غريبة ، انسياب خفيف ، فرفع الجميع رؤوسهم وتطلعوا .وقال لانتيه بهدوء وقد خفض رأسه

– ليس هذا بشيء . انها تفرغ !

وجعلهم الايضاح يهزون رؤوسهم مطمئنين وأراح الجميع كؤوسهم على الطاولة .

وأخيراً انسحب آل بواسون . وذهب لانتيه معهم . انه ذاهب الى بيت صديقه كما كان يقول ليترك سريره للسيدات اللواتي يستطعن الاستراحة عليه ساعة ، كل منهن بدورها . وصعد لوريللو وحده ، مردداً ان هذا لم يحدث معه منذ زواجه .

وظلت جرفيز والاختان مع كوبو النائم ، ورتبن انفسهن حول الموقد الذي ابقين عليه قهوة ساخنة كن هناك ، مكومات ، منطويات الى نصفين ، وايديهن تحت مريلاتهن والانف فوق النار ، يتحدثن بصوت منخفض، في صمت الحي الكبير . وكانت مدام لوريللو تتأوه : ليس عندها ثوب أسود ، وتريد ان تتجنب شراء واحد لانهم متضايقون جداً ، متضايقون جداً . وسألت جرفيز اذا كانت الام كوبو لم تترك تنورة سوداء ، تلك التنورة التي اعطوها اياها بسبب عيدها . واضطرت جرفيز الى الذهاب للبحث عن التنورة . من الممكن استعمالها مع طية على القامة . ولكن مدام لوريللو كانت تريد أيضاً الملابس القديمة . وتكلمت عن السرير والخزانة والكرسيين ، وبحثت بعينيها عن الاشياء التافهة التي يجب اقتسامها .واعوزها الغضب. فأقرت مدام ليرا السلام، وكانت اكثر عدلاً كان عبء الام على آل كوبو ، ومن حقهم ان يربحوا خرقها البالية . وتمطى الثلاث من جديد فوق الموقد في ثرثرة رتيبة . ويبدو لهن

الليل طويلاً بشكل مخيف وبين لحظة واخرى كن يتحركن ، ويشربن القهوة ويمددن الرأس الى الغرفة الصغيرة حيث الشمعة التي يجب الا تنطفىء كانت تشتعل بلهبة حمراء كئيبة كبرت بسبب ما تفحم على الفتيل . وعند الصباح كن يرتجفن من البرد رغم حر الموقد الشديد . وقد خنقهن القلق النفسي والعيـــاء لكثرة ما تكلمن ، وجفت السنتهن ، ومرضت عيونهن وارتمت مـدام ليرا على سرير لانتيه وصارت تشخر كرجل ، بينما نامت الاثنتان الاخريان أمام النار وقد سقط رأساهما ولامسا ركبهن . وعند اول النهار ايقظتهن رعشة . لقد انطفأت أيضاً شمعة الام كوبو وكما حدث في الظلام فان السيلان الخفي قد عاد من جديد ، وأوضحت مدام لوريللو الامر بصوت مرتفع لتطمئن نفسها .

ورددت وهي تشعل شمعة اخرى :

– انها تفرغ .

وعيّـن موعد الدفن في الساعة العاشرة والنصف . انه نهار جميل يضاف الى الليل والى نهار البارحة ! يعني ان جرفيز ، مع انها لا تملك اي فلس ، كان عليها ان تدفع مئة فرنك لمن يأتي ويأخذ الام كوبو قبل الموعد بثلاث ساعات. كلا ، مهما احببنا الناس فانهم يصبحون ثقلاء جداً حين يموتون . وكذلـك نريد الاسراع بالتخلص منهم بقدر ما نحبهم .

ومن حسن الحظ ان صباح الدفن مليء بشرود الفكر . فهناك جميع انواع التجهيزات يجب عملها . ولكنهم يتناولون فطورهم اولاً ثم جـاء الاب بازوج حانوتي الطابق السادس بالنعش وكيس النخالة . ان هذا الرجل لا يتعب . وفي الساعة الثامنة من ذلك النهار كان لا يزال مضحكاً من سكرة البارحة ، وقال

– الميت هنا ، اليس كذلك ؟

ووضع النعش الذي كان يطقطق كعلبة جديدة .

ولكن حين القى كيس النخالة جانباً ظل جاحظ العينين ، مفتوح الفم حين شاهد جرفيز امامه . وقال متلجلجاً

عفواً ، عذراً اخطأت . قيل لي ان الميت عندكم .

واستعاد الكيس ، فاضطرت الغسالة الى الصياح به

ـ دعه . انه هنا .

فقال وهو يضرب على فخذه

ـ آه ! ورعد الله ! يجب الايضاح ! لقد فهمت انها العجوز .

وشحب لون جرفيز . فقد حمل الاب بازوج النعش لها . وتابع كلامه ، متظاهراً بالتظرف ومحاولاً الاعتذار :

ـ اليس كذلك ؟ .. قيل البارحة ان هناك ميتة في الطابق الارضي ،عندئذ ظننت .. وانت تعلمين .. في مهنتنا .. هذه الامور . هذا يدخل من اذن ويخرج من الاخرى .. ومهما كان فاني اقدم اليك تحياتي ، ها ؟ الافضل هو الاكثر تأخراً مع ان الحياة لا تكون دائماً جميلة . آه ! .. كلا ، مثلا ...

لم تكن تسمع ، وقد رجعت القهقرى ، خائفة ان يمسكها بيديه القذرتين ليحملها الى تابوته . فقد قال لها ذات مرة ، في السابق ، مساء عرسها ، انه يعرف نساء سوف يشكرنه اذا صعد لأخذهن ! انها ليست منهن . وهذا يبعث القشعريرة في ظهرها . لقد فسدت حياتها ولكنها لا تريد الرحيل بسرعة ،نعم ، كانت تحب ان تموت من الجوع طوال سنوات لا ان يأخذها الموت في ثانية . وتمتمت بهيئة تقزز ممزوج بالرعب :

ـ انه سكير . كان على الادارة الا ترسل سكيرين على الاقل . اننا ندفع غالياً .

وعندئذ بدا الحانوتي هازئاً سفيهاً وقال :

ـ قولي اذن يا امي الصغيرة . سيكون هذا في مرة ثانية ، دائماً بخدمتك ، اتسمعين ؟ ليس عليك الا ان تشيري الي ، فأنا هو مخفف مصائب السيدات .. لا تبصقي على الاب بازوج فقدحمل بين ذراعيه من هنا من هنّ اكثر اناقة منك ، وتركنني ارتب امورهن دون شكوى ، مسرورات باكمال نومهن في الظل .

فقال لوريللو بصرامة ، وقد ركض على جلبة الاصوات :

– اسكت يا اب بازوج ! هذه ليست مزحـــات ملائمة .. اذا شكوك فستطرد .. هيا ، اخرج من هنا ما دمت لا تحترم المبادىء .

فابتعد الحانوتي ، ولكنهم سمعوه وهو يتمتم لمدة طويلة على الرصيف

– ماذا ، المبادىء ! لا يوجد مبادىء .. لا يوجد مبادىء .. لا يوجد سوى النزاهة ..

واخيراً دقت الساعة العاشرة . وقد تأخرت عربة الموتى . وكان في الدكان اناس ، اصدقاء وجيران ، السيد مادينيه ، ميبوت ، مدام غودرون ، الآنسة ريمانجو ،وفي كل دقيقة ، ومن بين المصاريع المغلقة ، من فتحـــة الباب ، كان يطل رأس رجل او امرأة ، ليروا اذا كانت تلك العربة البطيئة لم تأت بعد . والعائلة المجتمعة في الغرفة الداخلية كانت تمد اليد للمصافحة ، وكانت تحـــدث فترات صمت قصيرة تقطعها همسات سريعة ، وانتظار قلق محموم مع حركات ثوب فجائية ، مدام لوريللو التي نسيت منديلها ، او مدام ليرا التي تبحث عن كتاب صلاة لتستعيره . وكان كل فرد يشاهد ، حين وصوله ، النعش المفتـوح في وسط الغرفة امام السرير ، ويظل يدرس هذا النعش بزاوية عينه،ورغماعنه ، حاسباً ان الام كوبو لا يمكن ابداً ان تدخل فيه . وكان الجميع يتطلعون الى بعضهم البعض وهـذه الفكرة في عيونهم ، دون ان يفصحوا عن شكوكهم . ولكن هناك من دفع باب الشارع . فقد جاء السيد مادينيه يعلن بصوت وقور متالك ، مكوراً ذراعيه

– ها هم

ولم تكن هي عربة الموتى . فقد دخل اربعـــة من الدفانين (الحانوتية) بالصف ، وبخطـــوة مسرعة ، بوجوههم الحمراء وايديهم المتخدرة كحمالين ، وسواد ثيابهم المتسخة ، المهترئة ، المبيضة من احتكاك النعش وكان الاب بازوج يسير في المقدمة ، مخموراً ولائقاً ، لانه يستعيد رباطة جأشه حين يكون في عمله ولم يلفظوا اية كلمة ، بل صاروا يزنون الام كوبو بنظرهم وهم منخفضو

الرؤوس . ولم يطل الامر فقد حزموا الام كوبو بوقت لا يتجاوز العطسة . واصغرهم ، وهو شاب احول ، كان قد افرغ النخالة في التابوت ونشرها وأخذ يعجنها كما لو انه يريد ان يصنع خبزاً . وآخر ، وهو هزيل كبير ، ذو هيئة مازحة ، نشر الغطاء فوقه . ثم ، واحد ، اثنان ، هيا ! وأمسك الاربعة بالجثة ورفعوها ، اثنان من القدمين واثنان من الرأس . ولا يطوى نسيج بأسرع من ذلك . والناس الذين كانوا يتلعون اعناقهم بامكانهم الظن ان الام كوبو قفزت من تلقاء نفسها الى التابوت . وقد زحلقت هناك كما في بيتها ، اوه !.. تماماً ، حتى سمعت خشخشتها في الخشب الجديد ولمست الخشب من جميع الجهات ، كأنها لوحة حقيقية في اطار ولكنها نزلت فيه اخيراً وهذا ما ادهش الحاضرين ، ومن المؤكد انها نقصت منذ السهرة ونهض الدفانون وانتظروا ، واخذ الأحول الصغير الغطاء ليدعوا العائلة الى القيام بالوداع الاخير . بينما كان بازوج يضع مسامير في فمه ويهيء المطرقة . وعندئذ ارتمى كوبو ، واختاه ، وجرفيز ، وآخرون راكعين وقبلوا الام الراحلة بدموع غزيرة كانت قطراتها الحارة تسقط وتتدحرج على ذلك الوجه المتصلب البارد كالجليد . وكانت ضجة طويلة من النحيب . وسقط الغطاء ، وغرز الاب بازوج مساميره بمهارة حازم بضائع ، بمعدل ضربتين على كل مسمار . ولم يزد احد من بكائه في جلبة تلك القطعة من الموبيليا التي ترمم . وانتهى ذلك . وساروا .

وقالت مدام لوريللو لزوجها ، حين شاهدت عربة الموتى امام الباب :

– لو كان بالامكان زيادة الكثير من الأبهة في لحظة كهذه !..

وأثارت عربة الموتى الحي وقادت بائعة الامعاء غلمان البقال ، وخرج الساعاتي الصغير الى الرصيف ، وانحنى الجيران في النوافذ . وكل هؤلاء الناس كانوا يتحدثون عن الغطاء ذي الشراريب من القطن الابيض . آه ! كان من الافضل لآل كوبو ان يدفعوا ديونهم !.. ولكن ، كما صرح آل لوريللو ، هذا يحدث في كل مكان ومهما كان الامر حين يكون هناك كبرياء

وفي اللحظة نفسها كانت جرفيز تقول وهي تتحدث عن صانع السلاسل

وزوجته

– هذا مخجل ! لم يجلب هذان الجشمان حتى باقة بنفسج لوالدتهما !

وبالفعل فقد جاء آل لوريللو صفر الايدي . و كانت مدام ليرا قد قدمت اكليلاً من الزهور الاصطناعية . ووضع أيضاً على النعش اكيل من زهر ذهب الشمس وباقة اشتراهما كوبو. واضطر الدفانون الى بذل كثير من الجهد بأكتافهم لرفع الجثة وتحميلها . وتنظم الموكب كوبو ولوريللو بالمعطف ، والقبعة باليد، يسيران امام الجنازة ، وكان الاول من رقة قلبه ، وقد شرب كأسين في الصباح من النبيذ الابيض ، يستند الى ذراع صهره مرتخي الساقين ، مشعث الشعر ثم مشى الرجال ، السيد مادينيه كثير الوقار يرتدي السواد ، وميبوت ويرتدي سترة عـــلى بلوزته ، وبوش الذي يسبب بنطلونه الاصفر فضيحة ، ولانتيه ، وغودرون ، وبيبي لاغرياد ، وبواسون وآخرون وبعد ذلك جاء النساء ، في الصف الاول مدام لوريللو المرتدية تنورة المتوفاة بعد اصلاحها، ومدام ليرا التي تخفي حدادها المرتجل تحت شالها ، وهو عبارة عن صدرة مجهزة بالليلـكي . وفي الصف فرجيني ، ومدام غودرون ، ومدام فوكونيه ، والآنسة ريمانجو ، وكل الساقة . وحين اهتزت العربة وهبطت ببطء شارع القطرة الذهبية ، وسط اشارات الصليب والتلويح بالقبعات ، سار الدفانون الاربعة في المقدمة ، اثنان من أمام والآخران على اليمين والشمال . وكانت جرفيز قد بقيت لتقفل الدكان، وأوكلت امر نانا الى مدام بوش ولحقت بالجنازة راكضة ، بينما كانت الصغيرة التي تمسكها زوجة البواب تحت المدخل، تنظر بعين مهتمة الى جدتها وهي تختفي في أعماق الشارع ، في تلك العربة الجميلة

ووصل غوجيه من ناحيته في الوقت الذي ادركت فيه جرفيز ساقة الموكب وهي تلهث وسار مع الرجال ، ولكنه التفت وحيّاها باشارة من رأسه ، وبشكل لطيف ، بحيث شعرت فجأة انها بالسة وانخرطت بالبكاء . لم تكن تبكي الام كوبو فقط ، بل كانت تبكي شيئاً مرذولاً ليس بامكانها قولـــه ويكاد يخنقها . وكانت طوال المسيرة تمسك منديلها على عينيها . وكانت

مدام لوريللو ملتهبة الخدين تنظر اليها نظرة جانبية كأنهـــا تتهمها بتصنع الحزن .

وفي الكنيسة جرى الاحتفال بسرعة الا ان الجناز استطال قليلاً لأن الكاهن كان هرماً جداً وفضل ميبوت وبيبي لاغرياد البقاء خارجاً هرباً من الصدقات . وكان السيد مادينيه يدرس الكهنة طوال الوقت وينقل ملاحظاته الى لانتيه هؤلاء المجّان حين يبصقون لاتينيتهم لا يعرفون ماذا قالوا . انهم يدفنون لك شخصاً كما يعمدونه او يزوجونه دون ان يعرفوا أية عاطفة في قلوبهم. ثم انحى السيد مادينيه باللائمة على هذه الكدسة من الاحتفالات، وتلك الاضواء، وتلك الاصوات الحزينة ، وذلك العرض امام العائلات . صحيح ، ان المرء يفقد موتاه مرتين ، في بيته وفي الكنيسة وكل الناس يوافقون على قوله لان لحظة انتهاء القداس تعد لحظة مؤلمة .وهناك ايغال في الصلاة، ويضطر الحاضرون الى السير امام الجثة وهم يلقون الماء المقدس .ومن حسن الحظ لم تكن المقبرة بعيدة، مقبرة لاشابيل الصغيرة ، طرف حديقة تفتح على شارع ماركاديه . ووصل اليها الموكب مبعثراً، ونفض الناس ارجلهم ،وأخذ كل فرد يتحدث عن أعماله .وكانت الارض القاسية تطن ، فقد اضطر كل فرد الى نفض نعليه وكانت الحفرة الفاغرة فاها التي وضع النعش بقربها متجمدة شاحبة ، حجرية كمقلع للجبس ؛ والحاضرون ، وقـــد وقفوا بالصف حول تلال الانقاض لم يساورهم العجب ان ينتظروا في برد كهذا ، متكدرين من النظر الى الحفرة . وأخيراً خرج كاهن بثوب اكليركي من بيت صغير . وكان يرتجف من البرد ، وقد شوهدت انفاسه تتصاعد بخاراً لدى كل كلمة يقولها . وعند آخر اشارة صليب ذهب دون رغبة بـــاعادة الكرة وأخذ الحفـــار بجرفته ، ولكنه لم يستطع بسبب الجليد ان يفصل سوى مدر كبيرة كانت تعزف موسيقى جميلة في الداخل ، قذف حقيقي بالقنابل على التابوت ، وطلقات مدافع متلاحقة حتى ليظن ان الخشب قد تشقق ، ومهما كنت أنانيـــاً فهذه الموسيقى تحطم معدتك وبدأت الدموع تنهمر . وذهب الناس ، وأصبحوا خارجاً ولا يزالون يسمعون الدوي وميبوت النافخ في

أصابعه ابدي ملاحظة آه ! ورعد الله ! كلا ، الام كوبو المسكينة لن تجد الدفء .

وقال عامل الزنك لبعض الاصدقاء الباقين في الشارع مع العائلة :

– أيتها السيدات والرفاق كلهم ، لو تسمحون لي ان اقدم لكم شيئاً

ودخل قبل الجميع الى دكان بائع الخمر في شارع ماركاديه « عند منحدر المقبرة » . وجرفيز التي ظلت على الرصيف نادت غوجيه الذي كان يبتعد بعد ان حياها باشارة جديدة من رأسه . لماذا لا يقبل كأساً من الخمر ؟ ولكنه كان مسرعا وسيعود الى المشغل . وعندئذ تطلعا ببعضهما البعض دون اية كلمة . وتمتمت الغسالة اخيراً :

– عفواً لاجل الستين فرنكاً . كنت كالمجنونة وفكرت بك

فقاطعها الحداد

– اوه ! ليس هناك شيء. انت مسامحة . وانت تعلمين ان كل شيء في خدمتك اذا اصابك مكروه ... ولكن لا تقولي شيئاً لامي لأن لها افكارها الخاصة ولا اريد معاكستها .

وكانت تتطلع اليه دائماً ، وحين رأته كثير الطيبة ، كثير الكآبة ، بلحيته الجميلة الصفراء ، أصبحت على وشك القبول باقتراحه القديم بأن تذهب معه ليكونا سعيدين معاً في احدى النواحي ثم ساورتها فكرة سيئة اخرى ، فكرة استدانة بدلي الاجار المتأخرين . ولا يهم بأي ثمن . وارتجفت ، وقالت بصوت مداعب

– لسنا غاضبين ، أليس كذلك ؟

فهز رأسه وأجاب

– كلا ، بالتأكيد . لن نغضب أبداً ، فقط ، انت تعلمين ان كل شيء قد انتهى

وسار بخطى واسعة تاركاً جرفيز طائشة ، ولا يزال كلامه الاخير يضرب اذنيها بطنين جرس . وحين دخلت الى دكان بائع الخمر كانت تسمع في داخلها

صوتاً خفياً يقول : « انتهى كل شيء ، اجل ، انتهى كل شيء ، ليس عندي ما افعله ، انا ، اذا كان كل شيء قد انتهى ! » وجلست والتهمت لقمة خبز وجبن، وافرغت قدحاً مليئاً وجدته أمامها

وكان ذلك في الطابق الارضي ، وهي غرفة طويلة ذات سقف منخفض ، تشغلها طاولتان كبيرتان . ولبترات ، وأرباع خبز ، ومثلثات عريضة من الجبن مع ثلاثة صحون مصفوفة .

وكان الناس يأكلون وقوفاً على عجل ، دون سماط او ادوات مائدة . وفي مكان اكثر بعداً ، بالقرب من الوجاق الذي كان يزفر ، جلس الدفانون الاربعة يكملون فطورهم .

وقال السيد مادينيه موضحاً

– يا الهي ! كل بدوره . الشيوخ يفسحون المكان للشباب . سيبدو لكم منزلكم فارغاً حين تعودون .

وقالت مدام لوريللو بحرارة

– اوه ! استرح يا اخي . تلك الدكان خراب .

ولعبوا بعقل كوبو . واخذ الجميع يدفعونه للقبول بالتخلي عن عقد الاجار . ومدام ليرا نفسها ، وهي على خير حال مع لانتيه وفرجيني منذ زمن وقد دغدغتها فكرة تعاشقهما ، فتكلمت عن الافلاس والسجن، متخذة هيئة مرتعبة . وفجأة غضب عامل الزنك، وتحولت شفقته الى سخط وقد كرع كثيراً من الخمر، وصرخ في انف امرأته :

– اسمعي . اريد ان تصغي الي. لقد كان رأسك يفعل كل ما يحول فيداخله . ولكن ، هذه المرة ، سأتبع ارادتي ، واني احذرك !

وقال لانتيه

– آه ! لو كان من الممكن تحويلها بالكلام الطيب ! .. ولكن يلزم مطرقة خشبية لادخال ذلك في جمجمتها

وحمل الاثنان عليها لحظة . على ان هذا لم يمنع الفكوك من ان تقوم بعملها .

واختفى الجبن ، وسالت الليترات كالصنابير . وارتمت جرفيز تحت الحملات فلم تجب بشيء ، مليئة الفم دائماً ، متعجلة ، كما لو انها كانت شديدة الجوع . وحين تعبوا ، رفعت رأسها بهدوء وقالت

– كفى ها ؟ لا اهتم بالدكان ! لا اريدها ... اتفهمون ، لا تهمني ! لقد انتهى كل شيء .

وعندئذ طلبوا من جديد جبناً وخبزاً ، واخذوا يتكلمون بشكل جدي . فأخذ آل بواسون الاجار وتكفلوا بالبدلين المتأخرين . وقبل بوش بالتسوية باسم صاحب الملك بعد ان اكسب وجهه اهمية ، حتى انه أجّر آل كوبو منزلا اثناء جلستهم تلك ، وهو المنزل الشاغر في الطابق السادس ، في رواق آل لوريللو . اما لانتيه ، يا الهي ! فكان يريد الاحتفاظ بغرفته اذا كان ذلـــك لا يزعج آل بواسون . ورضي الشرطي ، فهذا لا يزعجه ابداً وبالامكان التفاهم دائمـاً بين الاصدقـاء رغم الافكار السياسية . ولانتيه ، دون ان يزيد من تدخله في تخلية البيت كرجل حـل اخيراً قضيته الصغيرة ، صنع لنفسه قطعة خبز ضخمة بجبن بري *Brie* . وانقلب الى الوراء ، واخذ يأكلها بورع ، ودمه تحت الجلد يشتعل بسرور مداج ، طارفاً بعينيه ليلحظ دورياً جرفيز وفرجيني .

ونادى كوبو

– ايه ! يا اب بازوج ! تعال واشرب جرعة نحن لسنا متكبرين ، فكلنا عمال .

والدفانون الاربعة الذين ذهبوا عادوا ليقرعوا كؤوسهم بكؤوس الجماعة . وليس ذلك لوماً ، ولكن السيدة التي دفنوها منذ برهة لا تزال تثقل بوزنهـــا وتساوي قدح نبيذ . وكان بازوج يتطلع الى الغسالة دون ان يلفظ كلمة في غير مكانها . وقد نهضت متعكرة المزاج ، وتركت الرجال يكملون شرابهم وكوبو الثمل كطائر السماني بدأ ينتحب ويقول ان هذا هو الغم .

وفي المساء حين عادت جرفيز الى بيتها ، ظلت متلبدة على كرسي . فقـد كان يبدو لها ان الغرف مقفرة وفسيحة . صحيح ان في ذلـــك تخلصاً من عبء

ثقيل . ولكنها لم تترك سوى الام كوبو في داخل الحفرة ، في الحديقة الصغيرة من شارع ماركاديه . وكان ينقصها كثير من الاشياء . لقد دفنت اليوم قطعة من حياتها ، ودكانها ، وكبرياءها كربة عمل ، وعواطف اخرى ايضاً . نعم ، كانت الجدران عارية ، وقلبها ايضاً انه انتقال كامل ، وتدحرج في الحفرة . وشعرت بكثير من التعب ، انها ستصلح امورها فيما بعد اذا استطاعت .

في الساعة العاشرة ، اخذت نانا تبكي وتفحص برجلها وهي تخلع ملابسها . انها تريد ان تنام في فراش الام كوبو . وحاولت امها ان تخيفها . ولكن الصغيرة كانت ناضجة قبل اوانها والاموات يسببون لها فقط فضولا عظيماً . وانتهوا اخيراً الى السماح لها بالنوم مكان الام كوبو وذلك للحصول على السلام . وكانت تلك الطفلة تحب الاسرة الكبيرة ، وتنام على طولها ، وتتقلب . وفي تلك الليلة نامت جيداً في الدفء ودغدغات الفراش المحشو بالريش .

١٠

يقع مسكن آل كوبو الجديد في الطابق السادس درج ب . وحين يمر المرء من امام باب الآنسة ريمانجو ، يسير في الرواق يساراً . ثم عليه ان يدور ايضاً . فالباب الاول هو باب آل بيجار . وفي الجهة المقـابلة تقريباً ، في جحر دون هواء ، تحت درج صاعد الى السطح ، كان ينـام الاب برو . وبعد منزلين نصل الى منزل بازوج وكان آل كوبو في الجهة المقـابلة لبازوج . غرفة واخرى صغيرة تفتحان على الدار . ولا يوجد في داخل الرواق سوى عائلتين قبل الوصول الى آل لوريللو في آخر الرواق .

غرفة ، واخرى صغيرة ليس اكثر . هناك يسكن آل كوبو الآن . وايضاً كانت الغرفة بعرض الكف . وعليهم ان يعملوا فيهـا كل شيء ، وينامون ويأكلون ، ويقومون بالاعمال الباقية . والغرفة الصغيرة تسع سرير نانا تماماً . اما ملابسها فتخلعها عند ابيها وامها . وكانوا يتركون البـاب مفتوحاً ليلاً لئلا يختنقوا . والغرفة من الصغر بحيث تخلت جرفيز عن بعض امتعتها لآل بواسون عندما تركت الدكان لأنها لا تستوعب كل شيء . سرير ، وطاولة ، واربع كراسي ، وامتلأ المنزل . لقد انفطر قلبها حين لم تجد الشجاعة لتتخلى عن خزانتها ذات الادراج فجاءت بها ووضعتها على بلاط الغرفة فسدت نصف النافذة . واصبح احد مصاريعها بدون فائدة . لقد انتزعت النور والبهجة . وحين كانت تريد التطلع الى فناء الدار ، وقد اصبحت سمينة ، لم تكن تجد مكاناً لمرفقيها ،

فتنحني بانحراف وتموج عنقها لترى .

في الايام الاولى كانت الغسالة تجلس وتبكي، لأن عدم قدرتها على التحرك في بيتها كان قاسياً جداً عليها بعد ان كانت دائماً في سعة . كانت تختنق ، وتظل طوال ساعات في النافذة ، محصورة بين الجدار والخزانة ، معرضة للاصابة بالروماتيزم ، وهناك فقط كانت تتنفس . ومع ذلك فباحة الدار لم تكن توحي لها سوى افكار حزينة . فأمامها ، من ناحية الشمس ، كانت تشاهد حلمها القديم ، تلك النافذة في الطابق الخامس ، حيث لوبياء اسبانيا في كل فصل ربيع تلف سوقها الدقيقة على مهد من الخيوط . وغرفتها من ناحية الظل يبست فيها اصص الفاغية *Réséda* في ثمانية ايام آه ! كلا ، فالحيـــاة لا تدور بلطف . وليست هي الحياة التي كانت تأمل بها. وبدلا من الزهور على شيخوختهااصبحت تتمرغ في اشياء ليست نظيفة ؟

وذات يوم ، وهي منحنية احست باحساس غريب ، فقـد ظنت انها ترى نفسها شخصيا في اسفل ، تحت المدخل ، بقرب منزل البواب وقد رفعت انفها تتفحص البيت لأول مرة . وهذه القفزة ثلاث عشرة سنة الى الوراء احدثت في قلبها عواطف حارة . فالباحة لم تتغير ، والواجهات العارية تكاد تكون اكثر سواداً واكثر وضحا. والعفونة تتصاعد من الرصاص الذي أكله الصدأ. وعلى حبال النوافذ يجفف غسيل ، وفرش اطفال ملوثة بالقذارة . وفي اسفل فـان البلاط المنتزع ظل ملوثا ببقايا فحم صانـع الاقفال ونشارة النجـار . وحتى في زاوية الصنبور الرطبة مستنقع جار من المصبغة ذو صبغة زرقاء جميلة ، زرقة اكثر نضارة من زرقة الماضي . ولكنها تبدو الآن متغيرة جداً وناصلة انها لم تعد تحت كما كانت اولا ، وجهها نحو السماء ، مسرورة باسلة طـامعة بشقة جميلة . لكنهـا اصبحت تحت السقوف ، في الزاوية المهملة ، في الوكر الاكثر قذارة ، في المكان الذي لا يزورها فيه اي شعاع شمس . وهذا ما يوضح سبب دموعها . ليس بامكانها ان تكون مسرورة بمصيرها .

وحين اعتادت جرفيز قليلاً لم تكن البداية في المنزل الجديد سيئة فقـد كاد

الشتاء ينتهي والنقود التي قبضتها ثمنـــاً للأثاث الذي تركته لفرجيني سهلت الاقامة ثم منذ الايام الجميلة جاءها حظ ، فقــد استؤجر كوبو ليذهب ويشتغل في الاقـــاليم ، في ايتامب ؛ وهناك ظل ثلاثة اشهر تقريباً دون ان يسكر ، فقد شفي لحظة بواسطة هواء الريف . وما من احد يعرف كم ان ترك هواء باريس يروح عن السكيرين ، لان شوارع باريس مقعمة برائحة العرق والنبيذ الحقيقية . وعند عودته كان ناضراً كالوردة ، وجــاء بأربعماية فرنك دفعوا منها بدلي اجار الدكان المتأخرين اللذين تعهد بهما آل بواسون ، وكذلك بعض الديون الطفيفة الأخرى في الحي ثمناً للمآكل وما أشبه وخرجت جرفيز الى شارعين او ثلاثة لم تكن تمر بهـــا . وكان من الطبيعي ان تشتغل كواءة ميــاومة . ومدام فوكونيــه ، وهي امرأة طيبــه جداً بشرط ان تُمتــدح ، ارجعتها الى العمل بطيبة خاطر ، حتى انها دفعت لها ثلاثة فرنكات كما تدفـع لعاملة اولى ، وذلك نظراً لوضعيتها القديمة كربة عمل وهكذا رأى الزوجان ان عليهما العيش بتقتير ، و حتى مع الشغل والتوفير كانت جرفيز ترى النهــار الذي تستطيع فيـــه ان تـدفع كل شيء وتنظم حياة محتمـــلة . كانت تعد نفسها بذلك في حمّى المبلغ الكبير الذي ربحه زوجها وكانت تقبل الزمن كما يأتي وتقول ان الاشياء الجميلة لا تدوم .

وكان اكــثر ما يؤلم آل كوبو هو رؤيتهم لآل بواسون وهم يستقرون في دكانهم . ولم يكونوا كثيري الغيرة بطبعهم ، ولكن هناك من أزعجهم وتصنع الدهشة امامهم بسبب الزخارف الذي اجراها من أتى بعدهم . فآل بوش على الخصوص ، وآل لوريللو ، لم يكفوا عن الاطناب ، ومن يسمعهم يعتقد انه لا يمكن رؤية دكان أجمل من دكان آل بواسون . وكانوا يتكلمون عن الحالة القذرة التي وجدها آل بواسون في البيت وقالوا ان نفقات غسل هذه القذارة وحدها بلغت الثلاثين فرنكاً . وقد صممت فرجيني ، بعد كثير من التردد على تجارة صغيرة من البقالة الدقيقة ، ملبّس ، وشوكولا ، وقهوة ، وشاي . وقد نصحها لانتيه بحرارة بهذه التجارة لان هناك مبالغ ضخمة يمكن ربحها من الحلويات ،

كما كان يقال . ودهنت الدكان بالأسود ، ودهن فوقه خطوط صفراء ، وهما لونان متميزان ، واشتغل ثلاثة نجارين ثمانية أيام في تنظيم الخزائن ، والواجهات الزجاجية ، ومنضدة البيع ، ورفوف لوضع الآنية ، كما هو الامر عند بائع الحلوى . ويجب ان يكون الميراث الصغير الذي احتفظ به بواسون قد نقص كثيراً ولكن فرجيني كانت تفتخر ، وآل لوريللو ، وقد عاونهم بعض الحمالين لم يوفروا لجرفيز رفاً ولا واجهة زجاجية ولا اناء ، مسرورين حين يلاحظون تغير وجهها جميل الا يكون المرء حسوداً، ولكنه يغضب حين يرى الآخرين قد انتعلوا حذاءه ويحاولون سحقه به .

وكان في الامر أيضاً قضية رجل . فقد كانوا يؤكدون ان لانتيه ترك جرفيز . وصرح الحي كله بذلك بشكل واضح . وأخيراً ، فهذا يحمل للشارع شيئاً من الاخلاق . وصرف الانفصال كله يعود الى ذلك الاريب صانع القبعات الذي تسرع النساء بتصديقه دائماً وهناك تفاصيل قد اعطيت انه اضطر الى ضرب الغسالة ليجعلها تهدأ بعد ان تكالبت في الركض وراءه. ومن الطبيعي الا يقول احد الحقيقة الصحيحة اما اولئك الذين يستطيعون معرفة هذه الحقيقة فكانوا يرونها بسيطة جداً وليست شائقة كثيراً . فلانتيه ترك جرفيز فعلاً بمعنى أنه لم يعد يبقيها تحت تصرفه ليلاً ونهاراً ، ولكنه كان يصعد ليراها في الطابق السادس حين تدفعه الرغبة ، لأن الآنسة ريمانجو التقت به وهو خارج من عند آل كوبو في وقت غير طبيعي. وأخيراً فان الملاقات استمرت بوسائل شتى ، وكيفما اتفق دون ان يشعر احدهما بكثير من السرور . انها بقية عادة ، وملاطفات متبادلة ليس اكثر . اما ما كان يعقد الوضعية فهو ان الحي الآن قد لف لانتيه وفرجيني بالاغطية نفسها وهنا ايضاً فان الحي قد تعجل كثيراً ومما لا شك فيه ان صانع القبعات كان يُعِدّ السمراء الكبيرة ، وهذا مفروغ منه ما دامت قد حلت محل جرفيز في كل شيء ،ولكل شيء في المنزل. وشاعت كذبة . فقد زعموا انه ذهب ذات ليلة باحثاً عن جرفيز على وسادة الجار ، وانه جاء بفرجيني واحتفظ بها دون ان يعرفها الى ما قبل الفجر بسبب الظلام .

وأثارت الحكاية الضحك ولكنه بالحقيقة لم يكن قد تقدم الى هذا الحد لانه لم يكد يسمح لنفسه ان يقرص خصرها . وكان آل لوريللو يكثرون من الكلام امام الغسالة عن غراميات لانتيه ومدام بواسون بكثير من الشفقة ، آملين ان يثيروا غيرتها وآل بوش ايضاً كانوا يقولون انه لا يوجد زوجان اجمل منهما . والغريب في كل ذلك هو ان شارع القطرة الذهبية لم يشكل بيتاً زوجياً مؤلفاً من ثلاثة كلا فالاخلاق القاسية مع جرفيز بدت لطيفة مع فرجيني . ومن الممكن ان تساهل الشارع المبتسم قد نشأ عن كون الزوج شرطياً .

ومن حسن الحظ لم تكن الغيرة تعذب جرفيز ابداً وخيانات لانتيه جعلتها هادئة لأن قلبها لم يكن ذا شأن في علاقتها منذ زمن طويل . وكانت تعرف ، دون ان تحاول الاستيضاح ، حكايات قذرة عن علاقات صانع القبعات مع جميع انواع الفتيات واول كلاب مغطاة الرأس تمر في الشارع . وكان لهذا تأثير قليل عليها بحيث ظلت تلاطفه دون ان تجد في نفسها من الغضب ما يكفي لقطع علاقتها به الا انها لم تقبل بسهولة هذا الغرام الجديد لعشيقها . ومع فرجيني فالأمر يختلف . اذ ابتكر الاثنان ذلك لهدف واحد ، هو مناكدتها؛ واذا كانت تسخر من هذا الأمر التافه فانها تهتم بالاعتبارات. وايضاً حين تتظاهر مدام لوريللو او اية بهيمة اخرى بالقول امامها ان بواسون لا يستطيع المرور تحت باب سان دنيس فانها تصبح شاحبة اللون ، منتزعة القلب، محروقة المعدة ، وكانت تعض على شفتيها وتتجنب اظهار الغضب لانها لا تريد ان تسر اعداءها . ولكنها كانت تضطر الى المشاجره مع لانتيه لان الآنسة ريمانجو تعتقد انها سمعت صوت صفعة في فترة ما بعد الظهر وهناك خلاف بالتأكيد لان لانتيه انقطع عن التكلم معها طوال خمسة عشر يوماً ثم عاد هو أولاً ، وبدا ان الحياة عادت سيرتها الاولى كأن شيئاً لم يكن ، وكانت الغسالة تفضل ان تنال نصيبها ، متقهقرة امام مماسكة بالشعر ، راغبة في الا تزيد من افساد حياتها آه ! لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها حين كفت عن محبة الرجال الى درجة توزيع الضربات على المؤخرات في سبيل عيونهم الجميلة والمجازفة

بمركزها الا انها كانت تجمع ذلك مع الباقي

وكان كوبو يهزأ . فذلك الزوج الخافض الجناح الذي لم يكن يريد ان يرى الديانة في بيته صار يهزأ حتى الموت من قرنيّ بواسون . في بيته ، لم يكن هذا ذا قيمة ، اما في بيوت الآخرين فقد بدا له مضحكاً ، وتظاهر بمرض الشيطان ليراقب هذه الحوادث بينما كان نساء الجيران ينظرن الى الورقة من الجهة الاخرى . يا له من ابله هذا البواسون ! انه يتقلد سيفاً ، ويسمح لنفسه بدفع الناس على الارصفة ! ثم ان كوبو بلغت به الوقاحة الى ان يمازح جرفيز . فقد تركها عشيقها بطريقة سيئة ! ليس لها حظ . ففي المرة الاولى لم ينجح الحدادون معها . وفي المرة الثانية كان صانعو القبعات هم الذين ضربوا على يدها . ثم انها كانت تقصد اناساً غير جديين . فلماذا لم تأخذ بنّاء ، رجل ارتباط ، معتاداً على الصاق جبسه بشكل متين؟ ومن المؤكد انه كان يقول هذه الاشياء ساخراً ، ولكن جرفيز كان يشحب لونها لأنه كان يتفحصها بعينيه الصغيرتين الرماديتين كأنه يريد ادخال الكلام اليها بواسطة مثقب . وحين كان يتصدى للحديث عن القذارة لم تكن تعرف اذا كان يتكلم ليضحك او بشكل جدي. والرجل الذي يسكر من اول السنة الى آخرها لا يبقى له رأس يفكر . وهناك ازواج كثيرو الغيرة في سن العشرين يجعلهم الشراب متساهلين جداً في سن الثلاثين حول موضوع الامانة الزوجية .

ومن اللازم رؤية كوبو وهو يتباهى في شارع القطرة الذهبية ! فهو يدعو بواسون بالديوث . وهذا ما كان يقفل مناقير الثرثارات ! ليس هو الديوث . اوه ! فهو يعرف ما يعرف . واذا تظاهر بعدم السماع في الماضي فلأنه لا يحب القال والقيل . وكل فرد يعرف ما عنده ويحك في المكان الذي يرعاه . وهذا لا يرعاه هو ؛ ولا يستطيع ان يحك ليسر الناس . ايه ! الشرطي ، هل كان يسمع؟ والامر جدي هذه المرة ، فقد شوهد العاشقان ، ولا يتعلق الامر بنميمة في الهواء . وكان يغضب ولا يفهم كيف ان رجلا ، موظفاً في الحكومة ، يحتمل في بيته فضيحة كهذه . يجب ان يكون الشرطي يحب فضلة الآخرين ، هذا كل

شيء . وفي الامسيات التي كان كوبو يضجر فيها مع زوجته في جحرهما ، تحت السقوف ، لم يكن هذا يمنعه من النزول للبحث عن لانتيه وجلبه بالقوة . فقد كان يجد البيت كئيباً منذ ما لم يعد الرفيق اليه . وكان يصلحه مع جرفيز اذا رآهما متنافرين ورعد الله ! الا يُرسل الناس الى الارجوحة ، وهل يمنع المرء من اللهو كما يشاء ؟ كان يضحك ، وتتوهج افكـار واسعة في عينيه المرتجفتين كسكير ، وحاجة الى اقتسام كل شيء مع صانع القبعات ليملأ الحياة . في هذه الامسيات على الخصوص لم تكن جرفـيز تعرف اذا كان يتكلم ضاحكا او بشكل جدي

في خضم هذه الحكايات كان لانتيه واسع الصدر، وقد بدا ابوياً ذا جدارة. لقـد منع الخصام في مناسبات ثلاث بين آل كوبو وآل بواسون . وكان اتفاق البيتين يدخل ضمن ما يسره . وبفضل النظرات الحنون الثابتة التي كان يراقب بها جرفيز وفرجيني ، اصبحتا تتظاهران دائماً بصداقة عظيمة لبعضهما البعض . وهو ، المسيطر على الشقراء والسمراء بطمأنينة باشا ، كان يسمن من مهارته . كان هذا الفارغ البال لا يزال يهضم آل كوبو بيـنما بدأ يأكل آل بواسون . اوه ! لم يكن هذا يزعجه ابداً ! لقد أكل دكاناً وشرع يأكل دكان ثانية . واخيراً لا يواكب الحظ سوى رجال من هذا النوع .

في حزيران من هذه السنة تناولت نانا القربان لأول مرة . لقد بلغت الثالثة عشرة ، كبيرة كهليون نامٍ ، ذات هيئة وقحة ؛ وقد طردت في السنة الماضية من درس التعليم المسيحي بسبب سلوكها واذا كان الخوري قد قبلها هذه المرة فذلك خوفاً من ان لا تعود ومن ان تزداد وثنيـات الشارع واحدة . وكانت نانـا ترقص من الفرح وهي تفكر بالثوب الابيض . وآل لوريللو ، كعرّاب وعرابة ، وعدا بالثوب كهدية اخذا يتحدثان عنها في جميع البيوت . وكان على مدام ليرا ان تعطيها القناع والقبعة ، وفرجيني المحفظة ، ولانتيه كتاب الصلاة بنوع ان آل كوبو كانوا ينتظرون موعد الحفلة دون ان يهتموا كثيراً . وحتى آل بواسون اللذان كانا يريدان اقامة وليمة تدشن مسكنهما الجديد، فقد اختارا

هذه المناسبة بناء على نصيحة صانع القبعات دون شك . وقد وجّهها الدعوة الى آل كوبو وآل بوش بمناسبة المناولة الاولى لابنتهم ايضاً. وسوف يأكلون عندهم في المساء فخذ خروف وشيئاً آخر معه

وفي السهرة ، حين كانت نانا مندهشة تنظر الى الهدايا المنشورة على الخزانة ذات الادراج ، دخل كوبو بحالة مخزية . لقد استعاده هواء باريس . وانهال على امرأته وابنته بكلمات بذيئة لا يصح ان تقال في وضعية كهذه ، منتحلاً اعذار سكير . ولكن نانا نفسها اصبح كلامها رديئاً وسط الاحاديث القذرة التي كانت تسمعها باستمرار . وكانت في ايام المشاجرات تنعت امها بالجمل والبقرة .

وصاح عامل الزنك :

– والخبز. اريد حسائي. فنجان سم ! يا لهن من اناث بأسمالهن !.. سأجلس على الزينة اذا لم انل حسائي .

وتكلمت جرفيز متململة :

– ما أقذره حين يكون ثملاً !

والتفتت نحوه وقالت :

– انها تسخّن . لقد ازعجتنا

واظهرت نانا الاحتشام لأنها رأت ذلك لائقاً في ذلك اليوم . وتابعت النظر الى الهدايا على الخزانة ، متظاهرة بخفض عينيها وبعدم فهم مقاصد والدها الشنيعة . ولكن عامل الزنك يصبح كثير التنكيد في امسيات الشراب المفرط فأدنى فمه من عنقها وقال :

– سأريحك منها ، ملابس بيضاء ، ها ؟ هل هذا ايضاً ليضعوا لك كرات من الورق في صدرك كما فعلوا نهار الاحد الماضي ؟ نعم ، نعم ، انتظري قليلاً . لقد رأيتك وانت تفتلين مؤخرتك . ان الاسمال الجميلة تدغدغك . اتريدين الذهاب من هنا ايتها الدودة الحقيرة ! اسحبي يدك وضعي هذا في احد الادراج ، والا ارحتك منه .

وكانت نانا قد خفضت راسها ولم تجب ، واخذت قبعة التول الصغيرة

وسألت امها كم يبلغ ثمنها. وحين مد كوبو يده لينتزع القلنسوة منها دفعته جرفيز قائلة :

– ولكن اترك هذه الطفلة ! انها لطيفة لم تفعل أي شر

عندئذ أفرغ عامل الزنك كل ما في جعبته

– آه ! الفاجرتان ! الام والابنة تشكلان زوجاً. انه لعمل لطيف ان تذهبا لتأكلا الرب وتتطلعا الى الرجال . تجاسري على قول العكس ايتها القذرة الصغيرة ! سألبسك كيساً ، وسنرى اذا كان سيخدش جلدك نعم ، كيس لاجملك تقرفين انت وخوارنتك . وهل انا بحاجة لتكتسبي عيباً جديداً! واسم الله ! اتريدان ان تسمعاني !

وغضبت نانا والتفتت ، بينما كانت جرفيز تمد ذراعيها لتحمي الامتعة التي يتكلم كوبو عن تمزيقها . وتطلعت الابنة الى ابيها ، ثم نسيت حشمتها التي امرها بها معرّفها ، وقالت وهي تصر على اسنانها

– خنزير !

وما ان أكل عامل الزنك حساءه حتى اخذ يشخر. وفي الغد استيقظ كطفل طيب فقد ظلت فيه من سكرة البارحة بقية جعلته محبوباً . وحضر زينة الصغيرة . ورق قلبه لرؤية الثوب الابيض ، وقد وجد ان بالامكان اكساب هذه الرديئة هيئة آنسة بلا شيء واخيراً ، كما كان يقول ، فان من الطبيعي ان يكون الاب في يوم كهذا فخور بابنته وكان يحب رؤية اناقة نانا التي كانت تبتسم ابتسامة حائره حروس في ثوبها القصير . وحين نزلوا وشاهدت بولين على عتبة المنزل مرتدية ملابسها ايضاً ، توقفت وشملتها بنظرة فاحصة ، ثم بدت مسرورة حين رأتها اقل اناقة منها ، وكأنها صرة . وذهبت العائلتان معاً الى الكنيسة ،ونانا وبولين في المقدمة ، وكتاب الصلاة في ايديهما،وهما تمسكان بقناعيهما اللذين ينفخهما الهواء ، ولم تكونا تتحدثان ، الا انهما مسرورتان جداً لرؤية الناس يخرجون من الدكاكين ، وتتصنعان هيئة ورعة ليقول الناس عند مرورهما انهما لطيفتان . وتأخرت مدام بوش ومدام لوريللو لتتبادلا افكارهما عن العرجاء

التي اكلت كل شيء ، والتي ما كانت ابنتها لتستطيع مناولة القربان لو لم يعطها اقرباؤها كل شيء حتى القميص الجديد احتراماً للطاولة المقدسة وكانت مدام لوريللو على الخصوص مهتمة بالثوب ، بهديتها ، مرهقة نانا ، وتدعوها « القذرة الكبيرة » في كل مرة تلتقط فيها الطفلة الغبار بتنورتها عند اقترابها من المتاجر .

وفي الكنيسة بكى كوبو كل الوقت . وهذه بلاهة ، ولكنه لم يستطع امتلاك نفسه فقد اثر فيه ذلك ، وحين مد الخوري يديه الطويلتين مشت الفتاتان الشبيهتان بالملائكة بالصف وايديهما مضمومة ؛ وقد تغلغلت موسيقى الارغن في بطنه ، واضطرته رائحة البخور الزكية الى الاستنشاق ، كأنهم دفعوا في وجهه باقة زهر واخيراً فقد كان يرى كل شيء ازرق ، وقد أصيب في قلبه . وكان هناك ترتيل ، شيء عذب ، بينما كانت الطفلتان تأكلان جسد الرب ، بدا له انه يسيل في عنقه ويحدث رعشة في ظهره . ومن حوله الاشخاص الحسّاسون يغمسون مناديلهم ايضاً . صحيح ، انه يوم جميل ، اجمل ايام الحياة . الا انه حين خرج من الكنيسة وراح يشرب كأساً مع لوريللو الذي ظل جاف العينين وكان يسخر منه ، غضب واتهم الغربان بأنهم يحرقون في بيوتهم عشب الشيطان لتلين قلوب الرجال . ثم بعد كل شيء فهو لم يكن يخفي ذلك ، وقد ذابت عيناه، وهذا بكل بساطة دليل على انه لا يوجد في صدره بلاطة . وطلب دورة شراب اخرى

وفي المساء كانت الوليمة مرحة جداً عند آل بواسون . فقد سيطرت الصداقة دون صعوبة في الوليمة من أولها الى آخرها حين تأتي الايام السيئة تأتي في الامسيات الحلوة ساعات يصبح فيها المتباغضون متحابين . ولانتيه الذي كانت جرفيز عن شماله وفرجيني عن يمينه بدا لطيفاً مع الاثنتين ، وقد افاض عليهما حنو ديك يريد السلام في خمّه . وفي الجهة المقابلة كان بواسون يحتفظ بأحلامه الهادئة الرصينة كشرطي ، وبعادته بألا يفكر بشيء ، والعينان محجوبتان ، اثناء حراسته الطويلة على الارصفة اما ملكتا الحفلة فكانتا

الصغيرتين نانا وبولـين اللتين نالتا وعداً بألا تنتزع ملابسهما . فظلتا متصلبتين خوفاً من تلويث فستانيهما الابيضين . وكانوا يصيحون بهما لدى كل لقمة ، ان يرفعا الذقن ليأكلا بنظافة . وضجرت نانا فرالت كل نبيذها على صدرها ، وكانت مشكلة واضطروها الى خلع ملابسها وغسل صدر الفستان في قدح ماء .

وعند تناول الحلوى جرى الحديث جدّياً حول مستقبل الاولاد . اما مدام بوش فقد وقع اختيارها على ادخال بولين الى مشغل يثقب فيه الذهب والفضة حيث تربح من خمسة الى ستة فرنكات اما جرفيز فلم تكن تعرف بعد ، ونانا لا تبدي اي ميل اوه ! كانت تتواقح ، وتبدي ميلها لذلك امـا فيما عداه فقد كانت يداها من زبدة وقالت مدام ليرا

– لو كنت مكانك لجعلت منها صانعة ازهار . وهي حالة نظيفة ولطيفة فتمتم لوريللو

– صانعات الأزهار كلهن فاسقات

فقالت الارملة الكبيرة وقد عضت على شفتيها

– ايه ، وأنا ! انت ظريف . وانت تعلم انني لست كلبة ، ولا ارفع قوائمي حين يصفرون لي .

ولكن الجميع أسكتوها قائلين :

– يا مدام ليرا ، اوه ! يا مدام ليرا

وأشاروا بزاوية عيونهم الى المتناولتين الجديدتـين اللتين وضعتا انفيهما في كأسيهما لئلا تضحكا . وكان الرجال انفسهم يختارون الكلمات المناسبة حتى الآن بدافع اللياقة . ولكن مدام ليرا لم تقبل الدرس ، وما قالته سمعته من أفضل المجتمعات وكانت تتباهى بمعرفة لغتها . وفي اغلب الاحيان يثنى عليها بسبب الطريقة التي تتكلم بها عن كل شيء حتى امام الاولاد دون ان تجرح الحشمة . وصاحت

– هناك نساء صالحات جداً بين صانعات الازهار ، ويجب ان تتعلم ذلك وقد جبلن كالنساء الاخريات . وبالتأكيد ليس كلهن مصونات في كل مكان .

الا انهن يسكن انفسهن، ويخترن بذوق حين يكون هنـــاك خطأ يرتكبنه .. نعم ، وهذا متأتٍ لهن من الزهور . وهذا ما حفظني انا ...

فقاطعت جرفيز

– يا الهي ! انا لا أكره الزهور الا ان هذا يجب ان يعجب نانا ، ليس اكثر . وعلينا الا نعاكس الاولاد في ميولهم لنر ، هيا يا نانا ، لا تكوني حمقاء . اجيبي . هل تعجبك الزهور ؟..

كانت الصغيرة منحنية على صحنها ، تلتقط فتات الحلوى باصبعهـــا المبلل وتمصّه بعد ذلك ، ولم تسرع، بل ضحكت ضحكتها الفاسدة وصرخت في النهاية .

– ولكن نعم يا امي .

عندئذ سوّي الامر حالاً وكان كوبو يريد من مدام ليرا ان تصحب الطفلة الى مشغلهـا في شارع القاهرة منذ الغد . وتحدث الجميع برصانة عن واجبات الحياة وقال بواسون ان عليهما من الآن فصاعداً تعلم الطبخ ورفو الجوارب وادارة البيت وقـــد جرى الحديث أيضاً عن زواجهما وعن الاطفال الذين ستقومان بتربيتهم ذات يوم. وكانت الطفلتان تسمعان وتسخران خفية، وتحتك الواحـدة بالاخرى ، وقد انفتح قلباهـما لكونهما امرأتين ، واحمر وجهاهما وتضايقتـا بثوبيهما الابيضين. اما ما زاد من دغدغتهما فهو سؤال لانتيه ممازحاً اذا لم يكن لهما في السابق ازواج صغار ، وقد جعل نانا تعترف انها كانت تحب فكتور فوكونيه ابن معلمة امها .

وقالت مدام لوريللو امام آل بوش :

– انـها فليونتنا ! ولكن حين تشتغل صانعة ازهار لا نعود نريد سماع اي حديث عنها جوابة شوارع ايضاً ! انها سترشهم بالفلفل قبل ستة اشهر .

وحين صعد آل كوبو للنوم اقتنعوا ان كل شيء سار على ما يرام ، وان آل بواسون ليسوا اناساً أردياء. حتى ان جرفيز رأت الدكان مرتبة بشكل نظيف. وكانت تنتظر ان تتألم بتمضية السهرة في مسكنها القديم حيث يستريح فيـــه

آخرون، وظلت مندهشة لأنها لم تغضب ثانية واحدة . ونانا التي خلعت ملابسها سألت أمها اذا كان ثوب الآنسة في الطابق الثاني ، والتي زُوجت في الشهر الفائت ، كان من الموسلين كثوبها

ولكنه كان آخر يوم جميل للزوجين . فقد مضت سنتان كان انحدارهما يزداد تدريجياً ، وفصول الشتاء على الخصوص كانت تنظف جيوبهما. واذا كانوا يأكلون الخبز في الطقس الجيد فقد جاءهم الجوع الشديد مع المطر والبرد ، والرقص امام المقصف ، والغداء عن ظاهر قلب ، في سيبيريا منزلهم الصغير ان شهر كانون الأول النذل دخل الى عندهم من تحت الباب حاملاً جميع الشرور ، وبطالة المعامل ، والكسل المتخدر من الجليد ، والبؤس الأسود للطقس الرطب . لقد كان عندهم شيء من النار احياناً في الشتاء الأول وكانوا يتكومون حول الموقد مفضلين الدفء على الأكل ، وفي الشتاء الثاني لم يكتف الموقد بعدم زوال الصدأ عنه ، بل كان يجمد الغرفة بهيئته المأتمية كنصب من حديد مصبوب . اما ما كان يكسر سيقانهم ويقضي عليهم فهو قبل كل شيء دفع بدل الايجار . اوه ! بدل كانون الثاني ، وليس في البيت فجلة ، والاب بوش يقدم لهم الايصال ! كان هذا يزيد من هبة البرد . انه عاصفة شمالية وجاء السيد ماريسكو نهار السبت التالي ، مرتدياً سترة جيدة ، وكفاه الضخمتان داخلان في قفازين من الصوف ، وكلمة الطرد دائماً في فمه ، والثلج يتساقط في الخارج كأنه يعد لهم سريراً على الرصيف بأغطية بيضاء . يجب ان يبيعوا من لحمهم ليدفعوا بدل الاجار وبدل الآجار هو الذي افرغ خزانة الطعام والموقد. وقد تصاعدت الشكوى في البيت كله . كانوا يبكون في جميع الطوابق ، موسيقى من البؤس تشخر في جميع الادراج والأروقة ولو كان لدى كل واحد ميتاً لما نتج عن ذلك نغم ارغن اكثر استهجاناً انه يوم دينونة حقيقي ، نهاية النهايات ، والحياة المستحيلة ، سحق عالم الفقراء . والمرأة القاطنة في الطابق الثالث ذهبت لتقضي ثمانية ايام في زاوية شارع بلهوم . وهناك احد العمال ، البنّاء القاطن في الطابق الخامس ، طار الى معلمه

وما من شك في ان آل كوبو يجب ان يهتموا بانفسهم . فالحيـــاة قاسية وبالامكان التغلب عليها دائماً اذا كان هناك نظام وتوفير . والشاهد على ذلـــك آل لوريللو الذين يدفعون بدلات اجارهم بصورة منتظمة ، ملفوفة في قصاصات ورق وسخ. والحقيقة ان هؤلاء يعيشون عيشة عناكب هزيلة تعدم شهية الشغل. ونانا لم تكن تربح شيئاً بعد من الزهور ، بل كانت تنفق جيـــداً على نفسها واصبحوا عند مدام فوكونيه ينظرون الى جرفيز نظرة سيئة ، فقـد اضاعت مهارتها شيئاً فشيئاً ، واصبحت تقوم بعملها بدون اعتناء الى درجـــة ان ربة العمل انقصت اجرها الى اربعين فلساً ، اجرة العاملات المهملات ومع كل هذا كانت متكبرة جداً ، سريعة التأثر ، مزعجة رؤوس الجميع بالكلام عن وضعيتها القديمة كربة عمل . وكانت تخسر اياماً من عملهـا وتترك المشغل بسبب نزوة : وقد تكدرت ذات مرة لرؤية مدام فوكونيه تشغل عندها مدام بوتوا . اتشتغل هكذا جنباً الى جنب مع عاملتها القديمة ! وكان ان غابت خمسة عشر يومـاً وبعد هذه النزوات العابرة كانوا يعيدونها الى الشغل بدافـــع الاحسان ، الامر الذي كان يزيد من سخطها . ومن الطبيعي ان يكون الدفع في نهـاية الاسبوع غير سمين ، وكانت تقول بمرارة انه سيأتي يوم سبت تكون فيه مدينة لربـــة العمل

اما كوبو ، فربما كان يشتغل ، ولكنه كان يجعل من عمله هدية للحكومة لأن جرفيز لم تر لون عملته منذ استخدامه في ايتامب ، وفي ايام القبض المقدس لم تكن تنظر الى يديه حين عودته الى البيت . فقد كان يأتي ملوحا بذراعيه ، فارغ الجيوب ، واحيانا بدون منديل . يا الهي ، نعم ، لقـد فقد منشفته ، او ان احد الصماليك من رفـــاقه اخذها منه وفي المرات الاولى كان يصفي حسابات ، ويخترع اكاذيب ، عشرة فرنكات اكتتاب ، وعشرون فرنكـــا سقطت من ثقب في جيبه اراها اياه ، وخمسون فرنكا وفى بهـا ديونا وهمية ثم لم يعد يهتم ابدا ، كانت النقود تتبخر ، هذا كل شيء ! انه لا يحملها في جيبه، بل في بطنه ، طريقة اخرى ليست سيئة يحملها بها الى زوجته . وكانت الغسالة،

بناء على نصائح مدام بوش ، تذهب احيانا لتراقب زوجهـــا عند خروجه من المشغل لتأخذ المال وقد بيض طازجا ولكن هـــذا لم يقدم في الأمر شيئاً ، فهناك رفاق كانوا ينذرون كوبو ، وهكذا تنسلُّ النقود الى الحـــذاء ، او في حافظة نقود قذرة . وكانت مدام بوش ماكرة جداً حول هذا العمل لأن بوش كان يخفي عنها قطعا بعشرة فرنكات في مخابىء مخصصة لدفع ثمن ارانب لنساء محبوبات من معارفه . وكانت تفتش اصغر زاوية من ملابسه ، وبشكل عام تجد القطعة الناقصة في حافة قبعته ، مخاطة بين الجلد والقماش . آه ! ليس عـــامل الزنك هو الذي يحشو اسماله بالذهب . بل يضمه تحت لحمه. ولا تستطيع جرفيز ان تأخذ مقصها وتفتق له جلد بطنه .

نعم،ان تدهور الزوجين من فصل الىفصل كانبسببغلطتهما.ولكنهما امور لا يُعترف بها ابداً خصوصا عندما يكون المرء في الطين . وكانوا يتهمون سوء الحظ ، ويزعمون ان الله يحقد عليهم . وكانوا في ذلك الوقت يحدثون ضوضاء حقيقية ، ويقاتلون طول النهار ، الا انهم لم يكونوا يتضاربون ، ما عدا بعض ضربات قليلة تحدث تلقائيا في المشاجرات الشديدة والاسوأ من ذلـــك انهم فتحوا قفص المحبة ، وكانت العواطف تطير منه كالعصافير . والحرارة الجيدة ، حرارة الآباء والامهات والاولاد ، حين يظل هذا العالم الصغير متماسكا ، قد انسحبت منهم وتركتهم يرتجفون من البرد ، كل في زاويته . واصبـــح الثلاثة ، كوبو وجرفيز ونانا ، سريعي الغضب يلتهمون بعضهم بعضا لأجل كلمة ، مـــع كراهية تملأ العيون . وكان يبدو ان هناك شيئا قد تحطم ، النـــابض الكبير للعائلة ، الجهاز الذي يجعل القلوب تنبض معا عند الناس السعداء.آه! بالتأكيد، لم تكن جرفيز لتتحرك كما في الماضي حين كانت ترى كوبو على حافة الميازيب ، على ارتفاع اثني عشر او خمسة عشر متراً عن الرصيف لم تكن تود دفعـــه بنفسها ، ولكن لو سقط سقطة طبيعية لتخلص سطح الارض من شيء لا قيمة له . وفي الايام التي يحتدم الامر فيها كانت تصرخ لأنهم لم يأتوها به على نقالة . انها تنتظر ذلك. واذا اتوها به محمولاً ففي ذلك سعادتها. ما فائدة هذا السكير؟

ليجعلها تبكي ، ليأكلها كلها ، ليدفعها الى الشر . ايه ! رجال قليلو النفع بهذا الشكل يلقون في حفرة بأسرع ما يمكن وُترقص بولكا الخلاص فوقهم وحين كانت الام تقول « قتل ! » تجيب الابنة « قتل بالنبوت ! » . كانت نانا تقرأ الحوادث في الصحيفة ، مع تفكير فتاة عادمة العواطف الطبيعية . وكان من حظ والدها ان مركبة قلبته دون ان توقظه من سكرته . متى يموت اذن هذا التافه ؟

في خضم تلك الحياة التي اهاجها الشقاء كانت جرفيز لا تزال تتألم من الجوع الذي تسمعه يحشرج حولها فتلك الزاوية من البيت كانت زاوية المقملين حيث تعاهدت ثلاث او أربع عائلات على ان لا تحصل على خبز في جميع الأيام. وكانت الابواب تفتح دون ان تخرج منهـــا في غالب الاحيان رائحة مطبخ . وصمت الموت على طول الرواق ، والجدران ترن جوفاء كالبطون الفارغة وبين لحظة واخرى ، ترتفع توبيخات ، ودموع نساء ، وشكاوى اطفال جياع ، وعائلات تأكل بعضها بعضاً لتخدع المعدة. كانوا هناك في حالة انقباض في الحلقوم العام، متثـــائبين من جميع الأفواه الممدودة . وكانت الصدور تتقعـر ، ولا شيء سوى تنفس ذلك الهواء ، حيث الذباب الصغير نفسه لا يستطيـع العيش لعدم وجود الغذاء ولكن شفقة جرفيز الكبرى كانت تنصب على الاب برو بشكل خـــاص ، في وكره تحت الدرج الصغير وكان ينسحب اليه كالمرموط [1] ، ويتكور فيه ليخفف من وطأة البرد ، ويبقى أياماً دون ان يتحرك ، على كومة قش. حتى الجوع لم يكن يدفعه الى الخروج ، اذ لا فائدة من الذهاب لاكتساب الشهية في الخارج ، حين لا يدعوه احد في المدينة وحين لا يظهر طوال ثلاثة او اربعة أيام ، كان الجيران يفتحون بابه وينظرون اذا لم يكن قد مات كلا ، انه مع ذلك لا يزال يعيش ، ليس كثيراً ، بل قليلاً ، وبعين واحدة فقط . حتى الموت قد نسيه .وما ان تحصل جرفيز على خبز حتى تلقي اليه ببعض الكسرات. واذا كانت قد اصبحت رديئة وتكره الرجال بسبب زوجها فقد كانت دائمة

---

١ - مرموط *Marmotte* : من الحيوانات القارضة ينام طول الشتاء .

الشفقة على الحيوانات وبصدق ، والاب برو ، ذلـــك الهرم المسكين ، المتروك ليموت لأنه لا يستطيع الامساك بأية اداة عمـل ، كان ينظرهـــا كالكلب ، كحيوان خارج الخدمة لا يريد القصابون ان يشتروا جلده ولا شحمه . كانت تحتفظ به كعبء على قلبها حين تعرف انه دائماً هناك ، في الناحية الاخرى من الرواق ، تخلى عنه الله والناس ، يتغذى فقط من نفسه ، ويعود جسمه كجسم طفل ، متغضناً ، جافاً كالليمون الذي يجف على المواقد .

وكـــانت الغسالة تتألم ايضاً من مجاورتها لبازوج الحانوتي . فهناك حاجز بسيط ، رقيق جداً ، يفصل بين الغرفتين . لم يكن يستطيع ان يضع أصبعاً في فمه دون ان تسمعه وما ان يعود في المساء ، حتى كانت تتبع رغماً عنها منزله الصغير ، القبعة الجلدية السوداء التي تطن بشكل خفي على الخزانة ذات الادراج كمجرفة تراب ، والمعطف الاسود المعلق الذي يلامس الحائط بحفيف عصفور ليلي ، وكل الملابس الرثة السوداء الملقـــاة في وسط الغرفة كأنها بضاعة مأتمية معروضة كانت تسمعه يمشي ، وتقلق لأقل حركة من حركاته ، وتثب اذا اصطدم بقطعة أثاث او اذا قلب صحنه . كان هذا السكير شاغلها الشاغل ، خوف خفي ممزوج برغبة في المعرفة . اما هو ، فما جن . وكيسه ملآن في جميع الأيام ، يسعل ويبصق ، ويغني الام غوديشون ، ويفلت كلمات نابية ، ويصطدم بالجدران الاربعة قبل ان يجد سريره . وكانت تظل شاحبة ، متسائلة اية تجارة يقوم بها . وكانت ذات تخيلات فظيعة ، فتعتقد انه جاء بميت ووضعه في سريره يا الهي ! لقد روت الصحف حكاية مستخدم في موكب دفن كان يجمع عنـــده توابيت الاطفال الصغار ليتجنب التعب . فيسير الى المقبرة مرة واحدة . وحين كان يأتي بأزوج كانت تشتمّ رائحة الموت من خلال الحاجز . حتى ليظن المرء انه قاطن امام الأب –لاشيز في مملكة المناجذ. كان هذا الحيوان مخيفاً بضحكه المستمر وهو وحيد ، كما لو ان مهنته تبعث فيه البهجة . وحين ينهي ضوضاءه ويستلقي على ظهره فقد كان يشخر بطريقـة غير عادية تقطع تنفس الغسالة . وتظل طوال ساعات تمد اذنها ، معتقدة ان هناك عمليـــات دفن متوالية

عند الجسار .

نعم ، واسوأ ما في ذلك ان جرفيز في مخاوفها كانت تجد نفسها منجذبة الى الصاق اذنها بالجدار لتتأكد بصورة افضل . فقد احدث بازوج عليها تأثيراً بان الرجال الجميلين خلقوا لفضليات النساء انهن يردن لمسهم ولكنهن لا يجرؤن ؟ لان التربية الصالحة تمسكهن . وجرفيز لو لم يمسكها الخوف لارادت ملامسة الموت لترى كيف هو مبني . وكانت في بعض الفترات تصبح غريبة ، معلقة النفس ، منتبهة ، منتظرة كلمة السر في حركة من بازوج ، حتى ان كوبو كان يسألها ضاحكاً اذا كانت قد وقعت بغرام الحانوتي المجاور . وكانت تغضب ، وتتكلم عن الانتقال لان هذه الجيرة تثير اشمئزازها ، وما ان يصل الهرم حاملاً رائحة المقبرة حتى تستغرق في تأملاتها رغماً عنها ، ويكتسب وجهها هيئة متوهجة خائفة لزوجة تحلم في ان تمزق العقد بطاعنات سكين . الم يعرض عليها مرتين ان يحزمها ويأخذها معه الى احدى النواحي وهي في حالة نوم تكون فيها متعة النعاس قوية تنسيها جميع انوع الشقاء ؟ ومن الممكن ان يكون هذا خيراً لها فعلاً . وانتابها شيئاً فشيئاً ميل حار الى تذوق ذلك . كانت تريد ان تجرب طوال خمسة عشر يوماً ، طوال شهر ! اوه ! النوم طوال شهر ، خصوصاً في الشتاء ، شهر بدل الاجار حين تنهكها حماقات الحياة ! ولكن هذا لم يكن ممكناً ، بل يجب الاستمرار في النوم دائماً اذا بدىء بالنوم لمدة ساعة وهذه الفكرة كانت تجمدها ، فقد ذهب حبها للموت امام الصداقة الابدية الصارمة التي تتطلبها الارض

ومع ذلك ، فذات مساء من كانون الثاني ضربت بقبضتها على الحاجز ، وكانت قد امضت اسبوعاً مخيفاً ، مدفوعة من جميع الناس ، دون اي فلس ، وقد خارت قواها . في ذلك المساء لم تكن على ما يرام . كانت ترتجف من الحمى وترى تراقص اللهب وعندئذ ، بدلاً من ان تلقي بنفسها من النافذة كما رغبت في احدى اللحظات ، اخذت تضرب وتنادي :

— يا اب بازوج ! يا اب بازوج !

وكان الحانوتي قد خلع حذاءه وهو يغني : « كان هناك ثلاث فتيات جميلات » . لقد كان عمله حسناً في النهار لانه يبدو اكثر تأثراً من المعتاد .

وصرخت جرفيز رافعة صوتها :

– يا اب بازوج ! يا اب بازوج !

الم يسمعها اذن ؟ كانت مسلسلة حالاً وباستطاعته اخذها من عنقها وحملها الى حيث كان يحمل نساءه الاخريات الفقيرات ، والفتيات اللواتي يخفف عنهن . كانت تتألم من اغنيته « كان هناك ثلاث فتيات جميلات » لانها رأت فيها احتقار رجل له عاشقات كثيرات .

وتلجلج الاب بازوج

– ماذا اذن ؟ .. ماذا اذن ؟ من هو المصاب ؟ انا آت ايتها الام الصغيرة

ولكن جرفيز افاقت كأنها تستيقظ من كابوس لدى سماعها هذا الصوت الابح . ماذا فعلت ؟ لقد ضربت على الحاجز دون شك عندئذ احست بضربة عصا حقيقية على ظهرها ، وضغط الخوف على اليتيها ، فتقهقرت معتقدة انها ترى يدي الحانوتي الكبيرتين تمران من خلال الجدار لتمسكا بشعرها . كلا ، كلا ، انها لا تريد ، انها غير مستعدة . واذا كانت قد طرقت الحاجز فذلك يجب ان يكون بمرفقها وهي تلتفت ، دون ان تفكر بذلك . وتصاعد الرعب من ركبتيها الى كتفيها لفكرة رؤيتها محمولة بين ذراعي الهرم ، متصلبة بيضاء الوجه كالصحن .

وقال بازوج في الصمت

– ايه ! اليس هناك اي شخص ؟.. انتظري اني لطيف مع النساء .

وقالت الغسالة اخيراً بصوت مختنق :

– لا شيء . لا احتاج شيئاً . شكراً .

وحين كان الحانوتي ينام مدمدماً ، كانت تظل قلقة ، مصغية اليه ولا تجرؤ على الحركة خوفاً من ان يتخيلها انها عادت الى الضرب من جديد . لقد

اقسمت الآن على الانتباه ، وبامكانها ان تخشرج فلن تطلب نجدة من الجـار .
وكانت تقول ذلك لتطمئن ، لانها في بعض الساعات ، ورغم عزمها ، كانت تحتفظ بعشقها الخائف العابر .

في زاويتها البائسة ، وبين همومها وهموم الآخرين ، كانت جرفيز تجـد المثل الصالح في شجاعة آل بيجار . فلالي الصغيرة ، تلك الطفلة بنت الثامنة ، الكبيرة بقدر ما يساوي فلسين من الزبدة ، كانت تعتني بالبيت بنظافة شخص كبير ؛ وكان الشغل قاسياً ، فهي تحمل عبء طفلين ، اخيها جـول وشقيقتها هنرييت ، وهما في سن الثالثة والخامسة ، عليها ان تسهر عليهما طوال النهار ، حتى وهي تكنس وتغسل آنية المطبخ . ومنذ ما قتل الاب بيجار زوجتـه برفسة في بطنها ، قامت لالي بدور الام الصغيرة لكل عالمها هذا وبدون ان تقول شيئاً عن نفسها اخذت مكان الميتة الى درجة ان اباها الحيوان اصبح اليوم يضرب الابنة كما كان يضرب الام في الماضي ، وذلـك ليكمل التشابه دون شك . فحين يعود ثملا ، يصبح بحاجة الى نساء يقتلهن الا انه لم يفطن الى ان لالي صغيرة جداً ؛ فلم يكن يضرب بشدة اكثر على جلد قديم وبضربة واحدة كان يغطي وجهها بكامله ، ولحمها لا يزال رقيقاً بحيث ان الاصابع الخمس كانت تظل مطبوعة طوال يومين . لقد كانت ضربات متواترة غير مستحقة ، ورفسات لأجل نعم ولأجل لا ، انه ذئب مسعور يسقط عـلى هر صغير ، مسكين ، خائف ، رقيق ، هزيل الى درجة تستدعي البكاء ، فيستقبل ذلـك بعينيه الجميلتين الخاضعتين ، دون شكوى كلا ، ان لالي لم تتمرد ابداً كانت تحني عنقها قليلاً لتحمي وجهها ؛ وتمسك نفسها عن الصراخ لئلا تثير البيت ثم حين يتعب والدها من ارسالها تتنزه في زوايا البيت الاربع برفسات حذائه ، كانت تنتظر استعادة قوتها لتلملم نفسها ثم تعود الى الشغل ، وتنظف اولادهـا ، وتطهو الحساء غير تاركة ذرة من الغبار على الاثاث . لقد كانت عملية ضربها داخلة ضمن مهمتها كل يوم

وعقدت جرفيز صداقة عظيمة مع جارتها . وكانت تعاملها كمثيلة لهـا ،

كامرأة كبيرة تعرف الحياة . ويجب القول ان لالي كانت ذات قسمات شاحبة ورصينة مع امائر بنت كبيرة . واذا سُمعت وهي تتحدث تعطى ثلاثين سنة . كانت تعرف جيداً ان تشتري ، وترفو الثياب ، وتدير بيتها ، وتتحدث عن الولدين كما لو انها ولدت مرتين او ثلاث في حياتها . ان هذا يبعث الناس على الابتسام عند سماعها ، لانها في الثامنة من عمرها ، ثم يحملهم يشدون على اعناقهم لئلا يبكوا وكانت جرفيز تجتذبها بقدر الامكان وتعطيها ما تستطيع ، من طعام ، ومن ثياب قديمة . وذات يوم ، بينما كانت تجرب عليها صدرة لنانا ، غصت بريقها حين رأت ظهرها ازرق ، ومرفقها مخدشاً ولا يزال دامياً ، وكذلك كل لحمها لاصق بالعظم كشهيدة بريئة . ايه ! بامكان الاب بازوج ان يهيىء علبته ، فهي لن تذهب بعيداً . ولكن الصغيرة رجتها الا تقول شيئاً . فهي لا تريد ان يصاب والدها بأذى بسببها كانت تدافع عنه وتؤكد انه لو لم يشرب لما كان رديئاً انه مجنون ولا يعرف شيئاً . اوه ! انها تسامحه يجب ان نسامح المجانين بكل شيء .

ومنذ ذلك الوقت اخذت جرفيز تسهر ، وتحاول التدخل ، منذ ان تسمع الاب بيجار يصعد الدرج. ولكن في معظم الاوقات كان ينالها بعض الضربات. وحين تدخل في النهار كانت ترى لالي في اغلب الاحيان مربوطة برجل السرير الحديدي . وهي فكرة لصانع الاقفال اوحت اليه قبل ان يخرج ان يربط ساقيها وبطنها بحبل كبير دون ان يستطيع احد معرفة السبب . انه هوس دماغ مختل من الشراب ، ووسيلة لظلم الصغيرة اثناء غيابه . ولالي ، متصلبة كالوتد ، مع تنميل في ساقيها ، كانت تظل مربوطة بالوتد اياماً بكاملها. وظلت طوال ليلة ايضاً لأن بيجار نسي ان يعود وحين كلمتها جرفيز عن اطلاق سراحها ، رجتها هذه الا تخل بترتيب الحبل لان والدها يغضب اذا لم يجد العقد مربوطة بالطريقة نفسها . صحيح ، فالعملية لم تكن سيئة ، فهي تريحها . وكانت تقول ذلك مبتسمة ، وساقاها القصيران كطفلة منتفخان وميتان . أما ما كان يغمها فهو ان بقاءها ملتصقة بهذا السرير امام اختلال البيت لا يقدم

الشغل . وبامكان والدها ان يبتكر شيئاً آخر . ومع كل هـذا كانت تراقب ولديها وتجعلها يطيعانها وتدعو هنرييت وجول الى جانبها لتمخطهما . وبما ان يديها حرتان ، فقد كانت تعمل بالتطريز منتظرة انقاذها ، وذلك لئـلا تضيع وقتها بكامله . وكانت تتعذب بشكل خاص حين يحل بيجار وثاقها . فقد كانت تظل ربع ساعة تجر نفسها على الارض ، غـير قادرة على الوقوف بسبب الدم الذي لم يكن يدور

وابتكر صانع الاقفال ايضاً لعبة صغيرة اخرى . كان يضع فلوساً في الموقد الى ان تحمر من الحرارة ثم يضعها على زاوية المدخنـة . وينادي لالي ، ويطلب منها ان تذهب لشراء ليبرتين من الخبز ، فتقبض الصغيرة على الفلوس دون حذر ، وتصرخ ، وتلقي بالفلوس وهي تهز يدها المحترقة . وعندئذ يغضب ما الذي دعاها الى القيام بهذه القذارة ؟ لقد اضاعت النقود الآن ! وكان يهددهـا باقتلاع اظافرها اذا لم تلتقط النقود في الحال ، وحـين تتردد الصغيرة كانت تتلقى اول انذار بشكل صفعة ذات قوة تجعلها ترى فيها ستاً وثلاثين شمعة . وتلتقط النقود صامتة ، مع دمعتين كبيرتين على حافة عينيها ، وتذهب وهي تحمل النقود تثب في تجويف يدها لتبريدها

كلا ، ليس هناك ارتياب في الافكار الوحشية التي يمكن ان تثبت في داخـل دمـاغ سكير . ففي فترة ما بعـد الظهر مثلاً ، وبعد ان رتبت لالي كل شيء ، اخذت تلعب مع ولديها . وكانت النافذة مفتوحـة ، وهناك مجرى هواء ، والهواء الداخل في الرواق كان يدفع الباب بهزات خفيفة وقالت الصغيرة

– انه السيد هاردي ، ادخل اذن يا سيد هاردي ! تفضل بالدخول .

وقامت ببعض الانحناءات الدالة على الاحترام . وكانت تحيي الهـواء وهنرييت وجول وراءها يحييان مثلهـا ايضاً ، منتشيين بهذا اللعب ، واخـذا يضحكان كأن احداً يدغدغهما وكانت مبتهجة جدا لرؤيتهما يلهيان بطيبة خاطر ونالها أيضاً شيء من السرور الامر الذي كان يحدث معها نهـار السادس

والثلاثين من كل شهر [1]

– صباح الخير يا سيد هاردي ، كيف صحتك يا سيد هاردي ؟

ولكن يدا عنيفة دفعت الباب ، ودخل الاب بيجار وعندئذ تغير المشهد ، وسقطت هنرييت وجول على مؤخرتيهما على الجدار ، بينما لالي ظلت مرتعبة في منتصف حركة الاحترام . وكان صانع الاقفال يمسك سوطاً كبيرا وجديدا لسائق عربة ، ذا قبضة طويلة من الخشب الابيض ، وسير جلدي ينتهي بقطعة خيط دقيق . ووضع هذا السوط على زاوية السرير ولم يوجه ضربته المعتادة بحذائه الى الصغيرة التي تنحت وقدمت ظهرها وقهقه فقهقهة اظهرت اسنانه السوداء ، وكان كثير المرح ، كثير السكر ، ووجهه متوهج بفكرة مزاح وقال

– ها ؟ اتفعلين كفاجرة ايتها النفاية ! لقد سمعتك من اسفل وانت ترقصين.. هيا ، تقدمي ! اكثر قرباً ، واسم الرب ! امامي ؛ لست بحاجة لاستنشاق رائحتك . هل لمستك لترتجفي ؟ اخلعي حذائي .

ولالي المرتعبة لانها لم تتلق نصيبها المعتاد من الضرب شحب لونها ونزعت له حذاءه . وكان جالساً على حافة السرير ، ثم نام بملابسه وظل مفتوح العينين يتتبع حركة الصغيرة في الغرفة. كانت تدور مشدوهة تحت نظراته،واعضاؤها تشتغل شيئاً فشيئاً بخوف جعلها تكسر فنجاناً . وعندئذ اخذ السوط دون ان يزعج نفسه واراها اياه وقال :

– ايتها العجلة الصغيرة ، انظري الى هذا انه هدية لك . نعم ، لقد كلفتني خمسين فلسا ايضا .. وبهذا ، لن اكون اليوم مضطراً الى الركض وانت تختبئين في الزوايا . أتريدين ان تجربي ؟ آه ! تكسرين الفناجين ! هيا ، هوب ! ارقصي اذن ، قومي بالتشريفات للسيد هاري

ولم ينهض ، بل ظل مستلقياً على ظهره ، ورأسه غارز في الوسادة ، جاعلاً

---

١ – يريد زولا هنا ان يقول انها لم تكن تشعر بالسرور ابداً .

السوط الكبير يفرقع في الغرفة بجلبة سائق عربة يدفع جيـاده الى السرعة ثم اهوى بذراعه واصاب لالي في وسط جسمها ، فلفهـــا ، وحلها كالدوامة . فسقطت ، وارادت ان تهرب على اربع ولكنه اصابها مرة ثانية وجعلها تقف ، وصرخ

– هوب ، هوب ! انه ركض الأتان . ها ؟ ايتهـا البومة . في الصباح ، في الشتـــاء سأنام ولن اصاب بزكام . اني اصيد العجول من بعيد دون ان اخدش التهابات قدمي في تلك الزاوية ، اصيبك ، وفي تلك الزاوية الاخرى اصيبك ايضا ! وفي تلـــك الاخرى ، اصيبك ايضاً ! آه ! واذا دخلت تحت السرير اضربك بالقبضة .. هوب ! هو ! رويداً !

وتصاعد الى شفتيه زبـد خفيف ، وخرجت عيناه الصفراوان من محجريهما الاسودين ، ولالي ، مجنونة ، عاوية ، تقفز الى زوايا الغرفة الاربـع ، وتتكوم على الأرض ، وتلتصق بالجدران. ولكن الخيط الدقيق في السوط الكبير كان يصل اليها في كل مكان، مفرقعاً في اذنيها كصوت البارود ، قارصاً لحمها بحروق طويـلة . انه رقص حقيقي لحيوان يعلمونه ألعاباً كان ذلك الهر الصغير المسكين يرقص، ورجلاه في الهواء كالبنات اللواتي يلعبن على الحبل ويصرخن: خل !.. لم تكن تستطيع التنفس ، قافزة من تلقاء نفسها ككرة من المطاط ، متعرضة للضرب ، عميـاء ، في البحث عن وكر . وأبوها الذئب كان ينتصر ، ويدعوها بالفاجرة ، ويسألها اذا اكتفت واذا كانت قد فهمت كفاية بأن لا أمل لها بالتخلص منه في تلك الساعة

لكن جرفيز دخلت فجأة وقد اجتذبها صراخ الصغيرة . واجتاحها غضب هائج امام لوحة كهذه وصرخت

– آه ! يا قذارة الرجال . اتريد ان تتركها ايها اللص ! سأخبر الشرطة عنك .

فزمجر بيجار زمجرة حيوان قد أزعج وقال متلعثماً

– قولي انت ايتها العوجـــاء ! اهتمي بشؤونك . يجب ان اضع قفازات

لألمسك . اني افعل ذلك فقط لأنذرها ، لأريها ببساطة ان ذراعي طويل كما ترين .

وقذف آخر ضربة سوط اصابت لالي في وجهها ، فانشقت الشفة العليا ، وسال الدم وكانت جرفيز قد أخذت كرسياً وارادت الهجوم على صانع الأقفال ولكن الصغيرة مدت نحوها يدين متوسلتين ، قائلة ان هذا لا شيء ، وانه انتهى . ومسحت الدم بزاوية مريلتها ، واسكتت ولديها الباكيين كأنهما تلقيا ضربات السوط المتلاحقة

حين كانت جرفيز تفكر بلالي لم تكن تجرؤ على الشكوى . انها تود لو كانت تملك شجاعة تلك الطفلة بنت الثماني سنوات ، والتي تتحمل وحدها اكثر مما تتحمله نساء الدرج كله مجتمعات . كانت تراها تعيش على الخبز الحاف طوال ثلاثة اشهر ، وتأكل كسرات الخبز دون ان تشبع ، كثيرة الهزال ، كثيرة الضعف ، تستند الى الجدار لتسير . وحين كانت تحمل اليها بقايا قطعة لحم سراً ، فقد كانت تشعر بقلبها ينفطر وهي تراها تأكل باكية صامتة ، بقطع صغيرة لان فمها المتقلص لا يفسح المجال لمرور الطعام . ورغم كل هذا تظل حنوناً دائمة الاخلاص ، بعقل يتجاوز سنها ، قائمة بواجباتها كأم صغيرة ، حتى الموت في سبيل امومتها ، مستيقظة باكراً في براءتها الهشة كطفلة . وكذلك اتخذت جرفيز مثلاً من تلك المخلوقة العزيزة بالعذاب والغفران ، محاولة ان تتعلم منها السكوت على استشهادها . كانت لالي تحتفظ فقط بنظراتها الصامتة وبعينيها الكبيرتين السوداوين الخاضعتين اللتين لا يُرى داخلهما سوى ليل من الاحتضار والشقاء . لا كلمة ، لا شيء سوى عينيها الكبيرتين السوداوين المفتوحتين .

ذلك لأن خمر الحانة بدأ يفتك في بيت كوبو . فقد كانت الغسالة ترى الساعة التي يأخذ زوجها فيها سوطاً كبيجار ليقود الرقص . والمصيبة التي تهددها جعلتها بحكم الطبيعة اكثر احساساً بمصيبة الصغيرة . نعم ، كان كوبو يغزل قطناً رديئاً . فقد مضت الساعة التي كان الخمر فيها يكسبه لوناً فهو لا يستطيع ان يضرب على صدره ويفتخر قائلاً ان الشراب يسمنه . لأن شحمه

الشنيع الاصفر قد ذاب في السنوات الأولى ، وتحول الى الهزال ، واتخـذ لوناً رصاصياً ، بصبغة خضراء لجثة تعفنت في مستنقع . وذهبت شهيته ايضـاً . وشيئاً فشيئاً فقد تذوقه للخبز . وتوصل ايضـاً الى ان يبصق على الطبخ . ولو قدم اليه الطعام الاكثر نضجاً لانسدّت معدته ، ولرفضت اسنانه المسترخية ان تمضغ . وكان يلزمه شوبين من الخمر كل يوم ليقف على رجليه فهو جرايتـه ، وطعامه وشرابه ، والغذاء الوحيد الذي يهضمه . وفي الصباح حـين ينهض من السرير ، كان يظل ربع ساعة منطوياً ، ساعلاً ، مقضقضاً عظامـه ، ممسكاً رأسه ، باصقاً نخامه ، وهو شيء مر كعصارة تنظف حلقومه . ولم يكن يهبط عمودياً على قدميه الا بعد كأسه الاول الذي هو تعزيته ، ودواء حقيقي تكوي ناره امعاءه . ولكن كانت تعود قواه في النهار . وكان أولاً يشعر بدغدغـة ، بحكاك على جلده ورجليه ويديه . وكان يمزح ، ويقول ان زوجته يمكن انهـا وضعت وبراً للحكاك بين الأغطيـة . ثم أصبحت ساقاه ثقيلتـين ، وانتهت الدغدغة بان تحولت الى مغص كريه يقرص لحمه كأنه ممسوك بكماشـة . وكان هذا يبدو له اقل غرابة . ولم يكن يضحك ، ويقف على الرصيف متخدراً ، واذناه تطنان ، وعيناه معميتان بالشرر . وكل شيء كان يبدو له اصفر اللون . والبيوت ترقص . وكان يرتجف ثلاث ثوان خائفاً ان يقع . وفي مرات اخرى ، وظهره لناحية الشمس، كان يشعر برعشة كأن ماء مثلوجاً قد سال من الكتفين الى المؤخرة. اما الاكثر اقلاقاً له فهو ارتعاش يديه ، فاليد اليمنى على الخصوص يجب ان تكون قد ارتكبت ضربة خاطئة اثناء كابوس واسم الله ! اذن ليس هو برجل ، فقد تحول الى امرأة عجوز ! وكان يمد عضلاته بغضب ، ويقبض على كأسه ، ويتأكد من بقائه جامداً كأنه ممسوك بيد من رخام. ولكن الكأس رغم جهوده ، كان يرقص ، ويقفز الى اليمين ، ويقفز الى الشمال برجفة مسرعة ومنتظمة . وعندئذ كان يفرغه في جوفه ، غاضباً ، صائحاً انه يلزمه دزينات من الكؤوس وانه بعد ذلك يقوم بحمل برميل دون ان يحرك اصبعاً وكانت جرفيز تقول له العكس ، بألا يشرب اذا اراد ان يكف عن الارتجـاف . ولم

يكن يهتم بها ، ويشرب ليترات ليماود التجربة ، هائجاً ، متهماً العربات التي تمر أمامه بانها قلبت شرابه .

وذات مساء من شهر اذار عاد كوبو الى البيت مبللاً حتى العظم ؛ فقد عاد مع ميبوت من مونتروج حيث اكلا اكلة مشبعة من الشورباء بالحنكليس ، وتلقى وابلاً من المطر امتد من حاجز فورنو الى حاجز بواسونيير ، وفي الليل انتابه السعال ، واصبح كثير الاحمرار تصول الحمّى فيه وتجول كالجواد لاطمة الخواصر لطمات تعبة . وحين رآه طبيب آل بوش في الصباح ، ووضع السماعة على ظهره ، هز رأسه ، وانتحى بجرفيز ناحية لينصحها بأن تنقل زوجها حالاً الى المستشفى. فكوبو مصاب بالتهاب الرئة .

ومن المؤكد ان جرفيز لم تغضب ، ففي الماضي كانت تود ان يقطع رأسها ولا تكل امر زوجها الى تلامذة الطب ويوم حادث شارع الامة استنفدت ما معها من مال لتعالجه . ولكن هذه العواطف الطيبة تزول مع الزمن عندما ينهمك الرجال بالسكر كلا ، كلا ، انها لا تنوي الانصياع الى طنين كهذا . بامكانهم ان يأخذوه ولا يعيدونه ابداً ، وسوف تشكرهم شكراً جزيلاً . ومع ذلك فمند وصول النقّالة ووضع كوبو عليها كقطعة اثاث ، شحب لونها ، وعضت على شفتيها ؛ مهما تذمرت ورأت انها احسنت عملاً فقلبها لم يكن كذلك . كانت تود فقط ان يكون معها عشرة فرنكات في خزانتها لكي لا تتركه يذهب وقد رافقته الى لاريبوازيير ، ورأت المرضين وهم ينيمونه في آخر قاعة كبيرة صف فيها مرضى بهيئة الموتى ، كانوا ينهضون ويتبعون بنظرهم الرفيق الذي جيء به انه موت جميل هناك ، رائحة حمى تضيق النفس وموسيقى صدرية تجعلك تبصق رئتيك ؛ دون ان نذكر ان للقاعة هيئة بير — لاشايز صغيرة محاطة بالأسرة البيضاء ، كممر حقيقي للقبور ولما كان قد ظل مسطحاً على وسادته فقد ذهبت دون ان تجد كلمة تقولها ، ومع الاسف لا يوجد في جيبها شيء لتخفف عنه . وفي الخارج ، مقابل المستشفى ، التفتت والقت نظرة على البناء الاثري . وفكرت بالأيام الماضية حين كان كوبو منحنياً على

حافة الميازيب ليضع هناك صفائح الزنك ، مغنيـاً في الشمس . لم يكن يشرب آنذاك . لقد كان كالفتاة . وهي كانت تبحث عنه من نافذتها في فندق بونكور وتشاهده في وسط السماء ؛ فيلوح الاثنان بالمناديل ، ويرسلان الى بعضهما البعض ابتسامات بواسطة التلغراف . نعم ، كان كوبو يشتغـــل فوق . والآن ، لم يكن على السطوح شبيهاً بعصفور دوري مازحٍ مزقزق ؛ لقـــد كان تحت ، وبنى عشه في المستشفى وجاء يموت فيه بالي الجـلد . يا الهي كم اصبح اليوم زمن الحب بعيداً !

وبعد غد ، حين حضرت الغسالة لتتسقط الاخبار ، وجدت السرير فارغاً . واوضحت لها احدى الراهبات ان زوجها نقل الى مأوى القديسة آن . لقـــد ذهب البارحة الى الارياف . اوه ! انتقــــال كامل ، وافكار لتحطيم رأسه بالجدار ، وصياح منع المرضى الآخرين من النوم ويبدو ان هـــذا ناتج عن الشراب . فالشراب الذي كمن في جسده اغتنم الفرصة ليهاجمــه ويهيج اعصابه في اللحظة التي يلقيه فيهـــا الالتهاب الرئوي على ظهره فاقد القوى . وعادت الغسالة الى البيت مضطربة . لقد اصبح زوجها مجنوناً الآن ! وستصبح الحياة صعبة لو افلتوه وكانت نانا تقول بضرورة تركه في المستشفى لأنـــه سينتهي بقتل الاثنتين .

ونهار الاحد فقط استطاعت جرفيز الذهاب الى مأوى القديسة آن . انهـا رحلة حقيقية . ومن حسن الحظ فان العربـة السائرة من شارع روشيشوار الى غلاسيير تمر بقرب المأوى . ونزلت في شارع الصحة ، واشترت ليمونتين لكي لا تدخل فارغة اليدين . انه بناء اثري ايضاً ، مع ساحات رمادية وأروقـة لا تنتهي ورائحة ادوية قديمة زنخة لا توحي بالبهجة ولكن حين ادخلوها الى غرفة صغيرة دهشت لرؤية كوبو نشيطاً تقريباً . كان على عرشه تمـــاماً ، صندوق خشبي نظيف جـــداً لا تصدر عنه اية رائحة ؛ وظلا يضحكان لأنها وجدته بخير وكلنا نعرف ما هو المريض كان يتربع هناك فوق كبابا ، بثرثرته الوقحة السابقة . اوه ! انه يسير الى احسن ما دامت ثرثرته استعادت

مجراها

وسألت الغسالة

– والالتهاب الرئوي ؟

فأجاب :

– ذهب . لقد سحبوه مني باليد . اني لا ازال اسعل قليلاً ولكنها نهاية التنظيف .

ثم قال مازحاً من جديد حين ترك العرش ليندس في سريره :

– ان انفك متين . فأنت لا تخشين العدوى

وازداد ابتهاجهما ، وكانا في اعماقهما مسرورين ، ويمزحان معاً بطريقة تشهد على سرورهما دون رصف عبارات ويجب ان يكون لدى المرء مرضى ليعرف السرور الذي يشعر به لدى رؤيتهم يشتغلون من جميع الجهات .

وحين صار في سريره اعطته الليمونتين فرقّ قلبه وعاد لطيفاً منذ اصبح يشرب ماء الحشائش ولم يعد باستطاعته ترك قلبه على مناضد باعـــة الخمر . وتجرأت على سؤاله عن ضربة مطرقته ودهشت لسماعــه يتكلم بعقل كما كان في زمن الخير .

وقال ساخراً من نفسه

– آه !. نعم ، اكرر اقوالي بــلا فائـــدة !.. تصوري انني كنت ارى جرذاناً ، وقد دببت على اربع لأضع لها حبة ملح تحت ذيلها . وانت ، كنت تناديني ، فهناك رجـــال كانوا يريدون منك الذهاب . واخيراً ، جميع انواع الحماقات ، واشباح في وضح النهار ... اوه ! اذكر جيداً ، كنت احلم وانا نائم ، واصابتني كوابيس ، ولكن الناس كلهم يصابون بالكوابيس .

وظلت جرفيز بقربه حتى المساء . وحين جاء الطبيب لزيارته في الساعـــة السادسة ، جعله يمد يديه ؛ فلم ترتجفا ابداً ، باستثناء رعشة خفيفة تحرك رؤوس الاصابع . الا ان كوبو عند هبوط الليل انتابه قلق تـــدريجي ، فنهض مرتين جالساً ، متطلعاً الى الارض ، في زوايا الغرفة المظلمة ، وفجأة مد ذراعه واخذ

يسحق حيواناً على الجدار . فسألت جرفيز خائفة

– ما هذا ؟ . .

فتمتم

– الجرذان ، الجرذان

ثم انساب لينام بعد صمت ، واخذ ينتفض ويلفظ كلمات متقطعة

– واسم الرب ! لقد ثقبت جلدي ! اوه ! الحيوانات القذرة ! تماسكي ، ضمي تنورتك ! احذري فالقذارة وراءك ! يا للرعـــد ، ها هو ينقلب ، واولئك الغلاظ الساخرون ! كومة من الغلاظ ! كومة من الرعاع ! كومة من اللصوص !

وقذف عدة ضربات في الفراغ . وسحب غطاءه ولفه مكوماً الى صـــدره كأنه يريد ان يحميه من عنف الرجال الملتحين الذين يراهم . وعندئذ ركض احد الحراس ، وانسحبت جرفيز وقد تجمدت من هذا المشهد . ولكن حين عادت بعد بضعة ايام وجدت كوبو قد شفي تماماً . فقد ذهبت الكوابيس ؛ واصبـــح يغفو إغفاءة طفل ، وينام ساعاته العشر دون ان يحرك عضواً . وسُمح لزوجته ايضاً ان تأخذه معها . الا ان الطبيب قال لها عنـــد الخروج الكلمات الحسنة المعتادة ونصحها بان تفكر بها اذا عاود الشراب فسيقع ويموت . نعم ، هـذا يتوقف عليه فقط وها هو قد رأى كيف عاد نشيطاً ولطيفـاً حين أقلع عن السكر عليه ان يثابر على الحياة العاقـــلة التي عاشها في مأوى القديسة آن وليتخيل انه محجوز عليه وان بائعي الخمر لا وجود لهم

وقالت جرفيز في العربة التي اعادتها الى شارع القطره الذهبية

– ان ذلك السيد على حق

فأجاب كوبو

– انه على حق دون شك .

ثم تابع بعد ان فكر دقيقة :

– اوه ! انت تعلمين ، ان كأساً صغيراً من هنا ومن هناك لا يمكنه قتـــل

رجل ، فهو يساعد على الهضم

وفي المساء نفسه شرب قدحاً صغيراً من الخمر لأجل الهضم . وظل عاقــلاً طوال ثمانية ايام .كان في داخله خائفاً، ولا يبالي بان ينتهي في بيساتر[1] Bicétre. ولكن اهواءه استولت عليه ، والكأس الاول الصغير قــاده رغماً عنه الى ثانٍ وثالثٍ ورابع ؛ وفي نهاية نصف الشهر استعاد جرايتــه المعتادة وشوبينه الذي يكوي الامعاء كل يوم . وصُدمت جرفيز وسخطت . لقــد كانت حمقاء حين فكرت من جديد بحياة فاضلة يوم رأته في المأوى متمتعاً بحسه السليم . انهــا ساعة اخرى من السرور قد انقضت ، وهي الاخيرة بالتأكيد . اوه ! والآن ، ما دام لا يصلحه شيء حتى ولا الخوف من موته القريب ، فقد اقسمت الا تزعج نفسها بسببه . فالبيت سائر الى الخراب ، وقد رفتّت عينها بذلــك وقالت هي ايضاً انها ستحصل على المتعة انشى وجدتها.وعندئذ بدأ الجحيم ،حياة تزداد نغماساً في الوحل ، دون زاوية امل مفتوح على فصل أفضل . وناتا ، حين كان والدها يصفعها ، كانت تسأل بغضب لماذا لم يبق هذا التافه في المستشفى .وكانت تنتظر ان تربح نقوداً ، كما كانت تقول ، لتدفع له ثمن العرق وتجعــله يموت بسرعة . وجرفيز من ناحيتها استشاطت غضبــاً لان كوبو اسف ذات يوم على زواجها ، آه ! لقد حملت اليه فضلة الآخرين . آه ! لقد التقطها عن الرصيف بعدما تراءت له بهيئة فتاة فاضلة ! واسم الكلب ! لم تعوزه رباطة الجأش ! كثير من الكلام وكثير من الاكاذيب انها لم تكن تريده ، هــذه هي الحقيقة . كان يزحف على قدميه ليقنعها بقبوله بينما كانت تنصحه بأن يفكر جيــداً . ولو عاد الامر من جديــد وقالت لا ، لكان قطع ذراعه . نعم ، لقــد فقدت عذريتها قبله ؛ ولكن امرأة فقدت عذريتها وتشتغل هي افضل من رجــل كسول لوث شرفه وشرف عائلته عند جميع بائعي الخمر . وفي ذلــك النهار ، ولأول مرة

---

[1] ـ بيساتر : مأوى للشيوخ وفاقدي الاهلية في مقاطعة السين ، بنــاه لويس الثالث عشر عام ١٦٣٢

حصل اصطدام عند آل كوبو، وحدث ضرب شديد تحطمت فيه مظلة قديمة ومكنسة.

وحافظت جرفيز على كلامها، وتراخت في عملها ايضاً. ولم تعد تذهب الى المشغل في اغلب الاحيان، وكانت تثرثر اياماً بكاملها، واصبحت مسترخية في الشغل كالخرقة. وحين كان يسقط شيء من يديها، فـانه يظل على الارض لأن ليست هي التي تنحني لتلتقطه. وكانت اضلاعها تنمو طولا. وتريد انقـــاذ سمنتها، فتفعل ما يحلو لها ولا تحرك مكنسة الا حين تتكوم الاقذار. واكتفى آل لوريللو الآن بسد الانف حين يمرون امام غرفتهـــا، انه سم حقيقي، كما يقولون. وهم يعيشون مستورين في داخل الرواق، منتحين عن كل هذا البؤس الذي يشكو في تلك الزاوية من البيت، ويغلقون على انفسهم لئلا يقرضوا قطعا بعشرين فلساً اوه! يا لها من قلوب طيبة، ويا لهم من جيران محسنين! نعم، انهم كالهر! وليس لك الا ان تقرع الباب وتطلب ناراً، او حفنـة ملح، او زجاجة ماء حتى تتلقى الباب حالا في انفك. يضاف الى كل هذا ألسنة افاعي. كانوا يقولون انهم يهتمون بالآخرين حـــين تتعلق القضية باغاثـــة القريب ولكنهم يهتمون به من الصبـــاح الى المساء حين يكون المقصود نهش الناس بأسنان جيدة مزلاج يدفع، وغطاء معلق يسد الشقوق وثقب القفل وكانوا يتلهون باغتياب الناس دون ان يتركوا خيوطهم الذهبية ثانية واحدة. وتدهور العرجاء على الخصوص جعلهم يموؤن طول النهـار كهررة تداعَب اي بؤس، واي شحوب يا اصدقائي! كانوا يترصدونها وهي ذاهبة لجلب المؤونـة ويسخرون من قطعة خبز صغيرة تحملها تحت مريلتها وكانوا يحسبون الايام التي كانت ترقص فيها امام خزانة الطعام، ويعرفون سماكة الغبار عندهـا، وعدد الصحون المتسخة المتروكة، وكل اهمال يزيد من الشقاء ومن الكسل. وزينتهـا عبارة عن اسمال مقرفة لا تلتقطها لاقطة الخرق! يا رب الارباب! كانت تمطر بشكل عجيب على اسمالها، على تلك الشقراء التي كانت تفتل مؤخرتها في الماضي في دكانها الجميلة الزرقاء. هذا ما يقود اليه حب الطعام والشراب والولائم الوافرة. وكانت جرفيز ترتاب بما يقولون عنها، ولذلك كانت تخلع حذاءها وتلصق اذنها

ببابهم ، ولكن الغطاء كان يمنعها من السماع . الا انها فاجأتهم فقط وهم يدعونها « الضفدعة الكبيرة » لأن مقدم صدرتها كان نافراً قوياً رغم سوء التغذية الذي افرغ جلدها . وكانت تلتقي بهم في بعض الاماكن فتكلمهم لتتجنب التعليقات، غير منتظرة من هؤلاء القذرين سوى الاهانات ولكنها لا تمتلك القوة حتى على اجابتهم ، وتركهم هناك كصرة من الحماقات ثم انهـا كانت تطلب مسرتها ، وتبقى مكومة ، وتدير ابهاميها ، وتتحرك عندمـا يكون المقصود ان تقضي وقتاً طيباً ، ليس اكثر .

وفي يوم سبت وعدها كوبو باصطحابها الى السيرك . فرؤية نساء يسرعن على الخيول ويقفزن في حلقات من ورق تستحق على الاقل ان يخل المرء برقابة حياته . لقد اشتغل كوبو خمسة عشر يوماً وبامكانه ان يتفتق عن اربعين فلساً. وعليهما ايضاً ان يأكلا في الخارج ، وكانت نانا ستتأخر في السهرة هذا المساء عند معلمها بسبب طلبية مستعجلة . ولكن في الساعة السابعة لم يأت كوبو ، وفي الثامنة لم يأت احد . وغضبت جرفيز ، فقد أنفق سكيرها اجرة نصف الشهر دون شك مع الرفاق ، عند بائعي الخمرة في الحي . وكانـت قد غسلت قبعة ، وبذلت جهدها منذ الصباح في اصلاح ثقوب ثوب قديم لتكون حسنة المظهر . واخيراً، نحو الساعة التاسعة ، وقد فرغت معدتها واصبحت زرقاء من الغضب ، عزمت على النزول للبحث عن كوبو في الجوار .

وصاحت بها مدام بوش ، وقد رأتها مقلوبة الوجه

– زوجك يدعوك . فهو عند الآب كولومب . وقد تناول بوش معه بعض الكرز .

فشكرت وسارت متصلبة على الرصيف. وتجول في نفسها فكرة الوثوب الى عيني كوبو وكان يتساقط مطر خفيف يجعل النزهة اقل تسلية . ولكن حين وصلت الى امام الحانة هدأت فجأة خوفاً من عاقبة التنكيد على زوجها . واصبحت حذرة . وكانت الدكان تشتعل ، والغاز مضاء ، والزجـاج ابيض كالشموس ، والزجاجات والآنية تنير الجدران بزجاجها الملون وقـد ظلت

هناك برهة ، مادة ظهرها ، وعينها على الزجاج ، بين زجاجتين من البضاعة المنشورة ، تراقب كوبو في داخل القاعة كان جالساً مع بعض الرفاق حول طاولة صغيرة من الزنك . وكل شيء مشوش وازرق من دخان الغلايين . وبما ان صياحهم لم يكن يسمع فان تبمترهم احدث تأثيراً غريباً. الذقن بارزة الى الامام، والعيون خارجة من الوجه . هل من الممكن ان يترك رجال نساءهم وبيوتهم ليتعلبوا هنا في وكر يختنقون فيه! لقد تساقط المطر على طول عنقها، فنهضت، وسارت على البولفار الخارجي مفكرة ولا تجرؤ على الدخول آه ، حسناً ! لقد استقبلها كوبو استقبالا حارا هو الذي لم يكن يريد ان يسمع لوماً ! ثم، صحيح ، فهذا المكان لا يبدو لها مكاناً لامرأة فاضلة . الا انها تحت الاشجار المبللة اجتاحتها رعشة خفيفة ، وفكرت ، وهي لا تزال مترددة انها على وشك التقاط مرض خطير . وعادت مرتين للوقوف امام الزجاج ، وعينها ملتصقة من جديد ، ساخطة لانها وجدت هؤلاء السكارى في مأمن،صائحين دائماً وشاربين وكان ضوء الحانة ينعكس علىمستنقعات البلاط حيث المطراحدث فيها ارتعاش غليان قليل . وهربت ، وسارت في الوحل حين فتح الباب واغلق من جديد مع قرقعة عصاباته النحاسية واخيرا دعت نفسها بالحمقاء . ودفعت الباب وسارت رأساً الى طاولة كوبو . وبعد ، فهو زوجها الذي جاءت في طلبه ، اليس كذلك ؟ وهذا مسموح لها به ما دام قد وعدها ، هذا المساء ، ان يصحبها الى السيرك . لا يهم ! لم تكن راغبة في ان تذوب على الرصيف كرقاق الصابون .

وصاح عامل الزنك الذي كانت تخنقه ضحكة

– هذا انت ، ايتها العجوز ! آه! انها مضحكة ، مثلا! ها ! اليس صحيحاً انها مضحكة !

وضحك الجميع ، ميبوت ، وبيبي لاغرياد ، والمنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش ، نعم ، فقد بدا لهم ذلك مضحكا . ولم يوضحوا لماذا وظلت جرفيز واقفة ، متخدرة قليلا. وبدا لها كوبو كثير اللطف . وجازفت بالقول:

– انت تعلم اننا سنذهب الى هناك يجب ان نسرع . يجب ان نصل على الوقت لنرى شيئاً .

فقال كوبو الساخر دائماً

– لا استطيع النهوض . انا ملصق هنـــا اوه ، بدون كذب ، جرّبي لتعلمي اسحبي ذراعي بكل قواك . يا لاسم الرب ! بقوة اكثر ، اوهيـه ، هس ! ها انت ترين ان هذا الحصان الاب كولومب قد سمرني على المقعد .

كانت جرفيز مستعدة لهذا اللعب . وحين تركت ذراعه وجد الرفاق المزحة جيدة ، فارتموا على بعضهم البعض صائحين واكتافهم تحتك ببعضها البعض كالحمير التي تحس . وكان فم عامل الزنك مشقوقاً بضحكة تري قصبة الرئة وقال أخيراً :

– يا للبهيمة الرديئة ! بامكانك الجلوس دقيقة . هنا افضل من السير في الوحل خارجاً ... نعم ، لم اعد الى البيت ، كان لدي اعمال .. وحين تدسين انفك في شؤوني فان هذا لا يقدم في الامر شيئاً .. ارجعوا اذن ، انتم الآخرون .

وقال ميبوت متظرفاً :

– لو ارادت السيدة ان تقبل بالجلوس على ركبتي يكون اكثر طراوة

وأخذت جرفيز كرسياً وجلست على بعد ثلاث خطوات عن الطاولة لئلا يلاحظوها . ونظرت الى ما يشربه الرجال من الشراب اللامع في الكؤوس كالذهب . وهناك مستنقع صغير سال على الطاولة ، والمنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش ، وهو يتحدث ، كان يغمس اصبعـــه ويكتب اسم امـرأة « اولالي » ، بحروف كبيرة . ورأت بيبي لاغرياد وقد أصابه التلف فاصبح اكثر هزالاً من مئة مسمار . وكان لميبوت انف يزهر كفرسة دهليـة *Dahlia* زرقاء حقيقية من بورغونيه . وكان الأربعة في منتهى القذارة بلحـام المتسخة المتصلبة البائلة كمكانس غرفة مغموسة في وعاء ماء ، ناشرين بلوزات مهلهـلة ، مادين كفوفاً سوداء ذات اظافر حدادية . ولكن الصحيـح ، لا يزال بالامكان الظهور في مجتمعهم لانهم ولو كانوا يشربون منذ الساعة السادسة فقـــد ظلوا كما

يجب ورأت جرفيز اثنين آخرين امام منضدة البائع يتفرغران وقد تمتعها السكر الى درجة تقاذفهما بالكؤوس تحت ذقنيهما ، وبللا قميصيهما ، معتقدين انهما يغسلان البلاط والاب كولومب الكبير الذي كان يمد ذراعيه الضخمتين اللذين يكسبان مؤسسته الاحترام ، كان يسكب دورة الخمر بهدوء . وكان الطقس حاراً جداً ، ودخان الغلايين يصعد في ضوء الغاز الذي يعمي العيون حيث كان يدور كالغبار ، مغرقاً الشاربين بضباب يتكاثف ببطء . وعيوم ، وجلبة مصمّة ، مشوشة ، خارجة من اصوات بحاء ، وقرع كؤوس ، وتجديفات وضربات بالقبضات شبيهة بالدوي . ولفتت جرفيز وجهها الى زاوية الشارع لان منظراً كهذا ليس مضحكاً لامرأة ، خصوصاً اذا لم تكن معتادة عليه . كانت انفاسها تضيق ، وعيناها تلتهبان ، ورأسها متخدر من رائحة الكحول العابقة في القاعة كلها . ثم ، فجأة ، احست بشيء اكثر مجلبة للقلق وراء ظهرها . والتفتت وشاهدت الانبيق ، آلة السكر ، تقوم بعملها تحت زجاج الباحة الضيقة ، محدثة رجة عميقة لمطبخها الجحيمي . كان النحاس في المساء اكثر جهامة . وهو منار فقط بنجمة كبيرة حمراء على استدارته ، وظل الجهاز على الجدار في الداخل يرسم اشياء مقيتة ، وصوراً ذات ذيل ، وممسوخاً تفتح فكوكها كأنها تريد التهام العالم .

وصاح كوبو :

– قولي اذن ، لا تغضبي يا ماري ذات المنقار الجميل ! ماذا تريدين ان تشربي؟

فأجابت الغسالة

– لا شيء بالتأكيد . لم اتناول عشائي بعد .

– حسناً ، هذا سبب لتشربي ، فالشراب يقيت . قطرة من شراب ما

ولما لم تقبل بدا ميبوت متظرفاً من جديد وقال

– يجب ان تكون السيدة تحب الملاطفات .

فأجابت غاضبة

– احب الرجال الذين لا يسكرون . نعم ، احب الرجل الذي يأتي بأجرة

حمله الى بيته ، وان يحافظ على كلامه حين يعد
فقال عامل الزنك ولم ينقطع عن القهقهة :
– آه ! اهذا ما يغضبك ! انت تريدين نصيبك . اذن ايتهـا الجرة الكبيرة لماذا ترفضين الشراب ؟.. خذي اذن ، فهذا كله ربح .
وتطلعت اليه بهيئة صارمة ، مع غضن يجتاز جبهتها بخط اسود ، واجابت بصوت بطيء .
– انت على حق . انها فكرة حسنة . بهذا نشرب النقود معاً .
ونهض بيبي لاغرياد ليذهب ويأتيها بكأس من الأنيسون ، وأدنت كرسيها ، وجلست الى الطاولة . وحين كانت تحسو شرابها عاودتها الذكرى فجأة ، لقد تذكرت الخوخة التي اكلتهـا مع كوبو ، في السابق ، بقرب الباب حين كان يغازلها . في ذلـــك الوقت كانت تترك مرق الثمرة . والآن ها هي تستأنف المشروبات الكحولية اوه ! كانت تعرف نفسها ولم يكن عندها من الارادة ما يساوي نصف فلس . وليس لهم الا ان يدفعوها بطرف السبابة في ظهرهـا لتضيع نفسها في الشراب حتى هذا بدا لها حسناً جداً ، شراب الأنيسون ، يمكن انه اكثر حلاوة ، واقل تقززاً . كانت تحسو كأسها ، مصغية الى المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش وهو يتحدث عن علاقته مع اولالي الكبيرة ، تلك التي تبيع السمك في الشارع ، وهي امرأة خبيثة جداً ، تستشمّه عند بائعي الخمر وهي تدفع عربتها على طول الارصفة ؛ وكان الرفاق ينذرونه ويخبئونه ، وغالباً ما كانت تقبض عليه ، وفي المساء تضرب وجهه بسمكة لتعلمه كيف يترك المشغل لقد كان هذا غريباً . وكان بيبي لاغرياد وميبوت ، وقد تحطمت اضلاعهما من الضحك ، يربتان على كتفي جرفيز التي اخذت تمزح اخيراً كأن هناك من يدغدغها رغماً عنها . وقد اشارا عليها بأن تحذو حذو اولالي الكبيرة فتحمل مكاويها وتكوي اذني كوبو على زنك بائعي الخمر .
وصاح كوبو وقد اعاد كأس الأنيسون الذي افرغته امرأته
– آه ! شكراً . انت تشربين جيـداً . انظروا اذن ايهـا الدساسون ،

فكلامكم لا يجدي نفعاً .

وسأل المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش :

– أتريد السيدة كأساً ثانياً ؟

كلا ، فقد اكتفت ومع ذلك ترددت . كان شراب الأنيسون قد لوث قلبها واصبحت تود لو تتناول شيئاً كثيفاً لمداواة معدتهـــا . والقت نظرة جانبية على آلة السكر وراءها تلك القدر المقدسة ، المكورة كبطن صانعة قدور سمينة ، بأنفها الذي يمتد ويلتف وينفخ لهـا الرعشة في كتفيها ، وخوفاً ممزوجاً برغبة . نعم ، كأنه الملاق المعدني لحيزبون كبيرة ، لساحرة تقطر نار احشائها قطرة قطرة . انه نبع جميل من السم ، وعملية يجب دفنهـــا في قبو مادامت مرذولة ومستهجنة ! ولكن هـــذا لم يكن يمنع ، فقد كانت تود ان تحشر انفها هناك في الداخل ، وتتنشق الرائحة ، وتتذوق القــذارة حتى ولو تقشر لسانها المحروق كالليمونة .

وسألت الرجال مداهنة ، وعينها ملتهبة بلون ذهب كؤوسهم الجميل :

– ماذا تشربون هناك ؟

فأجاب كوبو

– هذا يا عجوزي كافور الاب كولومب..لا تظهري الغباء ، اليس كذلك ؟ ستذوقينه

وحين جاؤوها بكأس من العرق وتقلص فكها لدى اول جرعة ، قال عامل الزنك ، ضارباً على فخذيه

– ها ! هذا يصقل حنجرتك ! اشربي بجرعات كبـــيرة . ان كل دورة تسحب ستة فرنكات من جيب الطبيب

وعند الكأس الثانية لم تعد جرفيز تشعر بالجوع الذي كان يعذبها . ولم تعد تحقد عليه لإخلاله بوعده سيذهبان الى السيرك في وقت ثان ؛ وليست عجيبة رؤية صانعي الحيل وهم يركضون على الجياد. ولم تكن تمطر عند الاب كولومب. واذا كانت اجرة كوبو قد ذابت في دورات الشراب فانها على الأقل انفقت على

الجسد . وشربوها صافية ، مشعشعة كالذهب الجميل المائع آه ! ليزمر الناس كما يشاؤون ! فالحياة لم تقدم لها الكثير من المسرات . وهذا يبدو لها كتعزية لأنها شاركت في تنظيف نصف النقود . وما دامت بخير فلماذا لا تبقى ؟.. بامكانهم اطلاق المدفع ، فانها لا تحب ان تتحرك حين تكون قد قامت بنصيبها. كانت تنعم بدفء جيد ، ومشدّها ملتصق بظهرها ، واستولت عليها حالة راحة خدرت اعضاءها . وكانت تضحك وحدها ، ومرفقاها على الطاولة ، والعينان ضائعتان ، متسلية باثنين من الزبائن احدهما كبير غليظ والآخر قصير ، على طاولة مجاورة ، يتعانقان كالخبز ماداما قد سكرا . نعم ، كانت تضحك في الحانة ، في ضوء قمر الاب كولومب . انها مثانة حقيقية من الشحم المذاب ، بسكارى يدخنون غلايينهم ، صارخين ، باصقين ، ولهبات غاز كبيرة تنير المرايا وزجاجات الشراب . لم تكن الرائحة تزعجها ؛ بالعكس ، كانت تحس بدغدغة في انفها ، وتجدها رائحة جيدة . وانطبقت جفونها قليلاً بينما اصبحت تتنفس نفساً قصيراً جداً دون اختناق ، متذوقة متعة النوم البطيء الذي اجتاحها . ثم بعد كأسها الصغير الثالث ، اسقطت ذقنها على يديها ولم تر سوى كوبو والرفاق . وظلت معهم وجهاً لوجه ، قريبة ، وخداها يلتهبان بحرارة انفاسهم ، متطلعة الى لحاهم القذرة كأنها تعد شعرها كانوا ثملين جداً في تلك الساعة . وكان ميبوت سائل اللعاب وغليونه بين اسنانه ، ذا هيئة صامتة رصينة لثور يغفو . وكان بيبي لاغرياد يسرد حكاية عن الطريقة التي شرب فيها ليتراً بجرعة واحدة

الا ان المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش كان قد ذهب باحثاً عن لعبة « التورنيكيه » على منضدة البائع ولعب مع كوبو على ثمن الشراب .

– مثنان ... انت عظيم لقد اتيت بالارقام الكبيرة في كل الضربات

وكانت ريشة التورنيكيه تصر ، وصورة الحظ ، وهي امرأة كبيرة حمراء موضوعة تحت الزجاج ، كانت تدور ولا تترك في الوسط سوى بقعة مستديرة شبيهة ببقعة النبيذ .

– ثلاثمئة وخمسون ! اذن فقد مشيت في الداخل ، آه ! كفى ، لن ألعب !

واثارت لعبة التورنيكيه اهتمام جرفيز وكانت قد شربت كثيراً وصارت تدعو ميبوت « ولدي » . ووراءها لا تزال آلة السكر تعمل بخرير يشبه خرير ساقية تحت الارض . ويئست من ايقافها ، من استنفادها ، وأحست نحوهـا بغضب قاتم ، وشعرت بالرغبة في الوثوب على الانبيق الكبير كما تثب على حيوان ، لترفسه وتبقر بطنه . لقـد تشوش كل شيء ، واصبحت ترى الآلة تتحرك ، وشعرت انها تمسكها بيديها النحاسيتين ، بينما تسيل الساقية الآن خلال جسدها.

ثم رقصت القاعة مع صنابير الغاز التي كانت تسري كالنجوم. وكانت جرفيز سكرى . وسمعت مناقشة صاخبة بين المنقار المملح الملقب بالشرب دون عطش والاب كولومب . يا له من صاحب عمل لص ! نحن لسنا في بوندي . وفجأة حدث تدافع ، وصياح ، وجلبة طاولات مقلوبة . انه الاب كولومب الذي يطرد الناس خارجاً دون ان يزعج نفسه بان يدير يده . وكانوا أمـام الباب يصيحون بـه ، وينادونه بالصعلوك . والمطر لايزال يتساقط ، وتنفخ ريح خفيفة جليدية . وجرفيز اضاعت كوبو ، ووجدته ، واضاعته ايضاً . انها تريد العودة الى البيت ، وصارت تتلمس الدكاكين لتعرف طريقها. لقد ادهشتها كثيراً تلك الليلة المباغتة . وفي زاوية شارع بواسونيير جلست في الساقية وظنت نفسها في المغسل وفتل رأسها الماء الجاري وجعلها مريضة . واخيراً وصلت ، وشددت نفسها امام باب بواب البناية حيث رأت هناك آل لوريللو وآل بواسون يجلسون الى طاولة مظهرين كشرات اشمئزاز حين رآها بهذه الحالة الجميلة .

لم تعرف ابداً كيف صعدت الطوابـق الستة . وفوق ، حين وصلت الى الرواق ، سمعت لالي الصغيرة وقع خطاها فركضت مفتوحة الذراعين بحركة لطيفة ، ضاحكة قائلة :

– يا سيدة جرفيز لم يعد ابي بعد . تعالي اذن وانظري كيف ينام ولداي. اوه ! ما ألطفهما !

ولكنها تراجعت في وجه الغسالة المشدوه وارتجفت . كانت تعرف رائحة العرق تلك ، وتينك العينين الشاحبتين ، وذلك الفم المتشنج . ومرت جرفيز متعثرة دون ان تفوه بكلمة بينما كانت الصغيرة واقفة على عتبة بابها تتبعهـــا بنظرها الاسود الصامت الوقور .

١١

وكبرت نانا ، واصبحت صبية . وفي سن الخامسة عشرة نمت كالعجل ، لحمها كثير البياض ، سمينة جداً ومكورة كمكب الغزل . نعم ، انه لكذلك، خمسة عشر سنة ، كل اسنانها وبدون مشد . وجه حقيقي لامرأة ، ، مغمسة بالحليب وقشرة دراقن مخملية ، وانف غريب ، وفم وردي ، وقنديلان لامعـان كان الرجال يحبون اشعال غلايينهم منهما . وشعرها الأشقر ، بلون الشوفان الناضر ، يبدو كأنه يلقي نثار الذهب على الصدغين ، وبقع من النمش تضع لها تاجـاً من الشمس . آه ! دمية جميلة ، كما كان يقول آل لوريللو ، ماخطة لا تزال بحاجة الى من يمخطها مع ان لكتفيها استدارة ملأى ، ورائحة ناضجة لامرأة تامة .

ونانا الآن لم تعد تضع كرات الورق في صدرها فقد جاءها عشان، وكنتان من الساتان الابيض ، جديدتان . ولم يقلقها هـذا ابداً فقد كانت تود الحصول عليهما ، وكانت تحلم بارضاع طفل ، ما دام الشباب نهماً عديم التبصر اما مـا جعلها لذيذة على الخصوص فهي عادة قبيحة اعتادتها باخراج طرف لسانها من بين اسنانها البيضاء وما من شك في انها كانت تجد نفسها لطيفة هكذا حين تتطلع في المرآة وعندئذ اصبحت تخرج لسانها طول النهار لتبدو جميلة

وكانت امها تصيح بها

– خبئي لسانك الكذوب !

وفي اغلب الاحيان كان الامر يحتاج الى تدخل كوبو ، ضارباً بقبضتـه ،

صائحاً ، مجدفاً :

– اتريدين ادخال خرقتك الحمراء !

واظهرت نانا حباً كثيراً للتزين ولم تكن تغسل قدميهـــا بشكل دائم ، ولكنها كانت تنتعل حذاءها ضيقاً بحيث تتألم كشهيد في سجن القديس كريبان واذا سئلت ، حين يرونها قد اصبحت بنفسجية اللون ، كانت تجيب بأنها مصابة بمغص ، وذلك لئلا تعترف بحبها للتزين ، وحين يحتاج البيت الى خـــبز يصبح صعباً عليها ان تتزين ، وعندئذ تجترح المعجزات ، وتأتي بأشرطة من المشغـل وتصلح من شأن زينتها ، اثواب قذرة مغطاة بعقد وشراريب. وكان الصيف هو فصل انتصاراتها . وكانت تقضي كل ايام الاحد بثوب قطني بستـــة فرنكات، وتملأ حي القطرة الذهبية بجمالهـا الاشقر . نعم ، كانوا يعرفونهـا ، من الشوارع الخارجية حتى التحصينات، ومن طريق كلينيانكور الى شارع لاشابيل الكبير. وكانوا يسمونها « الدجاجة الصغيرة » لانها كانت حقيقة ذات لحم طري وهيئـة نضرة كدجاجة صغيرة

هناك ثوب كان يلائمها تمام الملاءمة. انه ثوب ابيض ذو حبوب وردية ، بسيط جداً ، دون اية زينة . التنورة قصيرة قليلاً تظهر قدميها ؛ والاكمام مفتوحـــة كثيراً ومتهدلة ، تكشف ذراعيها حتى المرفقـــين . وعنق القسم الاعلى الذي فتحته بشكل قلب بواسطة دبابيس ، في زاوية مظلمة من الدرج لتتجنب ضربات الاب كوبو ، يظهر ثلج عنقها والظل المذهب لنحرها . ولا شيء آخر ، لا شيء سوى شريط وردي معقود حول شعرها الاشقر ، شريط طرفاه يحومان على نقرتها . وكان لها بذلك نضارة الباقـة ، تشعر بالشباب ، وعري الولد والمرأة.

وكانت ايام الآحاد لها في ذلك الوقت ايام مواعيد مع الجمهور ، مـع جميع الرجال الذين يمرون والذين ينظرون اليهـا بداعي الفضول كانت تنتظرهم الاسبوع بكامله ، وتدغدغها رغبات صغيرة ، مختنقة ، بحاجة الى الهواء الطلق، الى نزهات في الشمس ، بين الجموع الغفيرة المحتشدة في الضاحية نهـار الاحـد . ومنذ الصباح ترتدي ثيابها ، وتظل ساعات بالقميص امام قطعة مرآة معلقة في

الخزانة ذات الادراج . وبما ان البيت كله يستطيع رؤيتها من النافذة فان امها كانت تغضب ، وتسألها اذا لم تكن قد انتهت من نزهتها بالقميص ، ولكنها كانت تلصق باطمئنان خصل شعر معقوفة على مقدمة الجبهة بماء محلى بالسكر . وتعيد خياطة ازرار حذائها او تصنع نقطة على ثوبها ، وساقاها عاريان ، والقميص منزلق عن الكتفين ، في فوضى شعرها الاشعث آه ! لقد اصبحت هكذا كالبومة ، كما كان يقول الاب كوبو الذي يضحك ويسخر منها انها مادلين الحزينة الحقيقية !.. بامكانها ان تفعل كامرأة وحشية وتظهر نفسها بفلسين . وكان يصيح بها :

– خبئي لحمك لآكل خبزي .

وكانت فاتنة ، بيضاء وناعمة تحت تهدل جزتها الشقراء ، وتغتاظ بشدة بحيث تصبح بشرتها وردية ، ولا تجرؤ على اجابة والدها ، وتقطع خيطها بأسنانها بعضة شديدة وغاضبة تهز عريها برعشة كفتاة جميلة .

وكانت تسير بعد الغداء ، وتهبط الى الفناء . والسلام الحار يوم الاحد ينيم البيت. وتحت ، كانت المشاغل مقفلة ، والمساكن تتثاءب من نوافذها المفتوحة ، وتظهر مناضد وضعت قبلاً لاجل المساء ، وتنتظر اصحاب البيوت المواظبين على اكتساب الشهية عند التحصينات . وهناك امرأة في الطابق السادس كانت تستعمل نهار الاحد لغسل غرفتها ، فتكركرج سريرها ، وتقلب الاثاث ، مغنية الاغنية نفسها طوال ساعات بلحن هادىء باكٍ وفي استراحة ارباب الحرف ، وسط الساحة الفارغة الرنانة فان العاباً بالكجة كانت تجري بين نانا وبولين واخريات من الفتيات الكبيرات . وكن خمساً او ستاً ناميات معاً واصبحن ملكات البيت يتقاسمن نظرات الرجال وحين يجتاز رجل فناء الدار تتصاعد ضحكة منغمة وحفيف تنوراتهن المنشاة يمر كنسمة ريح . وفوقهن يتوهج هواء ايام الاعياد ، محرقاً وثقيلاً كأنه مسترخ من الكسل وابيض من غبار النزهات

ولكن العاب الكجة لم تكن سوى خدعة للتملص . فقد خيم الصمت فجأة

على البيت ، وانزلقن في الشارع وبلغن الجادات الخارجية . وعندئذ تتشابك اذرع البنات الست ويشغلن عرض الطريق ، ذاهبات بملابس زاهية وشرائطهن معقودة حول شعرهن العاري وعيونهن حية تخرج نظرات دقيقة من زاوية الجفون وكن ينظرن الى كل شيء ، ويقلبن العنق ضاحكات ، مظهرات دسامة الذقن . وحين يمر احدب ، في فورات مرحهن ، او تنتظر عجوز كلبها في زاوية احد الانصاب ، كان خطهن يتكسر ، ويظل بعضهن وراء بينما الاخريات يجذبنهن بعنف . ويؤرجحن الخصور ، ويتجممن ، ويتخلعن ليحشدن الناس ولتقضقض اعلى فساتينهن على صدورهن النامية . لقد كان الشارع لهن ، اذ كبرن فيه ، رافعات تنوراتهن امام الدكاكين ، ويشمرنها حتى الافخاذ ليربطن رباط الساق . وفي وسط الجمهور المتمهل الشاحب ، بين اشجار الجادات ، كن يسرن متفرقات من حاجز روشيشوار الى حاجز سان دنيس ، يدفعن الناس ، ويفرقن الجماهير بسير غير مستقيم ، ملتفتات ، مفلتات كلمات في جلبة ضحكهن. وكانت فساتينهن الطائرة تترك وراءها وقاحة شبابهن . وكن ينتشرن في الهواء الطلق ، تحت النور الساطع ، بخشونة زعران قذرة ، مرغوبات ، ناضرات كالعذارى العائدات من الحمام ورؤوسهن مبللة بالماء

وكانت نانا تحتل الوسط ، بثوبها الوردي المتوهج في الشمس . وتقدم ذراعها لبولين التي كان ثوبها ذو الزهور الصفراء على ارضية بيضاء يتوهج ايضاً ، وهو منقط بشرارات صغيرة ولما كانت الاثنتان هما الاكثر نمواً ، والاكثر نضجاً والاكثر وقاحة ، فقد كانتا تقودان العصابة ، وتنتفخان تحت النظرات والمجاملات . اما الاخريات الصغيرات فيشكلن ذيلاً الى اليمين والشمال ويحاولن الانتفاخ ليحملن الناس على محمل الجد. وكان في نفس نانا وبولين مخططات معقدة جداً من الحيل المغناجة . فاذا ركضتا لتنقطع انفاسهما فذلك لتظهرا جواربهما البيضاء ولتجعلا شرائط شعرهما تطير في الهواء وحين تقفان ، متظاهرتين بضيق النفس ، والعنق منقلب ومختلج ، فمن المؤكد ان هناك إحدى معارفهما ، او احد غلمان الحي ؛ وعندئذ تمشيان ببوهن ، هامستين وضاحكتين فيما بينهما ،

رأصدتين ، وعيونهما منخفضة ، وتسرعان بشكل خاص الى هذه المواعيد غير المنتظرة وسط تدافع الناس في منعطفات الطرق . وكان هناك غلمان كبار بأثواب الاحد، بسترة وقبعة مستديرة، كانوا يمسكونهن لحظة على حافة الساقية ، فيمازحونهن ويفرحونهن وهناك عمال في العشرين من سنهم ، ببلوزات رمادية غير لائقة ، كانوا يتحدثون معهن ببطء ، متصالبي الاذرع ، وينفخون في انوفهن دخان غلايينهم القصيرة . ولكن كل هذا لم يصل الى نتيجة فهؤلاء الغلمان يسرن مثلهن في نفس الوقت في الشارع ولكنهن كن يخترن قبلا . فبولين كانت تلتقي دائماً بأحد ابناء مدام غودرون ، وهو نجار في السابعة عشرة من عمره ، يدفع لها ثمن التفاح . ونانا كانت تشاهد ،من اول الشارع الى آخره ، فكتور فوكونيه ابن الغسالة وكانا يتعانقان في الزوايا المظلمة . ولم يكن الأمر يسير الى ابعد من ذلك . فقد كن كثيرات العيوب فلا يقمن بحماقة دون ان يدرين . الا انه كان يقال عنهن انهن متشددات .

وحين تسقط الشمس كان اعظم سرور لهؤلاء الخاليات من الهموم هو ان يقفن على المشعوذين فقد كان يأتي مشعوذون ورجال جبابرة باجسامهم ، يفرشون على ارض الشارع طنفسة ابلاها الاستعمال وعندئذ يحتشد مضيعو الوقت ، وتتشكل دائرة ، بينما المهرجون في الوسط يلاعبون عضلاتهم في مايوهاتهم البالية وكانت نانا وبولين تمكثان واقفتين طوال ساعات في المكان الأكثر حشداً . وثوباهما القصيران يضيعان بين المعاطف والبلوزات القصيرة القذرة . اذرعهما عارية والعنق عار ، والشعر عار ، تشعران بسخونة الانفاس النتنة ورائحة النبيذ والعرق وكانتا تضحكان ، لاهيتين دون اشمئزاز ، ويزداد احمرارهما كأنهما على مزبلتهما الطبيعية وكانت الكلمات البذيئة تلفظ حولهما ، والقذارات الفجة ، وتعليقات رجال سكارى . لقد كانت هذه هي لغتهما ، انهما تعرفان كل شيء ، وتلتفتان بابتسامة ،مطمئنتين للسفاهة ،محتفظتين بشحوب بشرتهما الحريرية الدقيق .

اما الشيء الوحيد الذي يغيظهما فهو ان تلتقيا بوالديهما ، وخصوصاً اذا كانا

مخمورين . فقد كانتا تحذران ذلك وتنذران بعضهما البعض .

وكانت بولين تصيح فجأة

– هوذا الاب كوبو يا نانا

فتقول نانا متحامقة

– آه ! انه ليس ثملا ، كلا ، هذا ما اراه ! انت تعلمين انني اراقب . ولست راغبة بأن يضربني . انه يصدع الرأس ! يا رب الارباب ، لو يتحطم فمه

وفي بعض المرات ، حين يصل كوبو رأساً اليها دون ان يترك لها الوقت لتهرب ، فقد كانت تجثم وتتمتم :

– خبئوني ! انه يبحث عني . لقد وعدني بسلخ جلدي لو رآني هنا .

وحين يتجاوزها السكير كانت تنهض ويتبعها الجميع ضاحكات . سيجدها ! لن يجدها !انها لعبة استفهامية حقيقية . وذات يوم جاء بوش يجر بولين من اذنيها ، وكوبو اعاد نانا الى البيت بالرفسات على قفاها

وفي نهاية النهار كانتا تقومان بآخر دورة للنزهة ، وتعودان الى البيت في الغسق الشاحب بين جمهور منهوك . ويصبح غبار الهواء كثيفاً ويجعل لون السماء شاحباً . وشارع القطرة الذهبية يصبح وكأنه زاوية من الأرياف بالنساء العجائز على الابواب ، والاصوات التي تقطع الصمت الفاتر للحي الخالي من العربات . فتقفان لحظة في باحة الدار ، وتستعيدان مضارب الكجة وتحاولان ان تدخلا في الروع انهما لم تتحركا من هناك . وتصعدان الى بيتيهما ،وتختلقان حكاية لا تلجآن الى استعمالها في اغلب الأحيان حين تجدان اهلهما مشغولين بتبادل الضربات لاجل شورباء غير مملحة جيداً او غير ناضجة .

لقد اصبحت نانا الآن عاملة . تربح اربعين فلساً عند تيترفيل ، المؤسسة الموجودة في شارع القاهرة حيث تدربت . ولم يشأ آل كوبو تغييرها لتبقى تحت رقابة مدام ليرا التي كانت الرئيسة في المشغل منذ عشر سنوات ، ففي الصباح ، حين تنظر الام الى ساعة الكوكو ، تذهب الصغيرة وحدها ، بهيئة لطيفة ، مصرورة حتى الكتفين بثوبها القديم الاسود الضيق جداً والقصير جداً ؛

وكانت مدام ليرا مكلفة بالتأكد من ساعة وصولها لتقول لجرفيز حالاً وكانوا يعطونها عشرين دقيقة للذهاب من شارع القطرة الذهبية الى شارع القاهرة ،وهو وقت كاف ، لان لهؤلاء الفتيات الملفوفات سيقان أيائل . وفي عدة مرات كانت تصل على الوقت الا انها كثيرة الاحمرار ، لاهثة ، بحيث يكون من المؤكد انها تدحرجت من الحاجز بعشر دقائق بعد ان لهت على الطريق. وفي اغلب الاحيان تتأخر سبع او ثمان دقائق ؛ وتظل حتى المساء مظهرة كثيراً من الرقة لعمتها ، بعينين متوسلتين ، محاولة بذلك التأثير عليها ومنعها من الكلام . ومدام ليرا التي تفهم الشباب كانت تكذب على آل كوبو ولكن بعد ان تجعل نانا تقسم بانها لن تعود الى ذلك ، بثرثرات لا تنتهي تتحدث فيها عن مسؤوليتها وعن الخطر الذي تتعرض له الفتاة في شوارع باريس . آه ! يا رب الارباب ! لقد لوحقت هي نفسها كثيراً ! كانت تشمل ابنة اخيها بعينيها المضطرمتين بشواغل خلاعية دائمة ، وتبقى متحمسة لفكرة المحافظة على تلك الهرة الصغيرة المسكينة وتدليلها

وكانت تكرر عليها القول :

– اترين، يجب ان تقولي لي كل شيء. انا كثيرة الطيبة معك . واذا اصبتك مصيبة فلا يبقى امامي سوى إلقاء نفسي في السين ... اسمعي يا هرتي الصغيرة . اذا كلمك رجال فيجب ان تعيدي على مسمعي كل ما قالوه دون ان تنسي كلمة الم يقل لك احد شيئاً بعد ، اتقسمين على ذلك ؟

وكانت نانا تضحك آنذاك ضحكة تشنج فمها بشكل غريب كلا ، كلا ، لم يكلمها الرجال لانها تمشي بسرعة . ثم ماذا يمكن ان يقولوا لها ؟ انها لا تتكلم معهم . وكانت تشرح سبب تأخرها متظاهرة بالغباوة . فلقد توقفت لترى الصور ، او انها رافقت بولين التي تقص عليها حكايات . واذا لم يصدقوها فليتبعوها : حتى انها لم تترك الرصيف الايسر وتمشي بسرعة ، وتسبق كل البنات الاخريات، كالعربة . وذات يوم فاجأتها مدام ليرا في شارع البتي – كارو تتطلع الى فوق وتضحك مع ثلاث من صانعات الازهار لان رجلاً كان يظهر

لحيته من النافذة ! ولكن الصغيرة غضبت، مقسمة انها ادخلت رأسها الى دكان الخباز في الزاوية لتشتري خبزاً بفلس .

وقالت الارملة الكبيرة لآل كوبو

– اوه ! اني ساهرة لا تخافا انا اضمنها امامكم كما اضمن نفسي . ولو اراد احد الزعران معاكسها لاعترضته

وكان المشغل عند تيترفيل عبارة عن غرفة كبيرة فوق الطابق الارضي، فيها منضدة واسعة منتصبة على قوائم تشغل وسط الغرفة . وعلى طول الجدران الاربعة الفارغة ، حيث الاوراق الرمادية الممزقة تظهر الكلس من اماكن تمزقها تمتد الرفوف ملأى بالكرتون القديم ، وصرر ، ونماذج نفايات منسية هناك تحت طبقة كثيفة من الغبار . وفي السقف اصبح الغاز كطلاء من السناج . والنافذتان تفتحان فتحة عريضة تتيح للعاملات رؤية تتابع الناس على الرصيف المقابل دون ان يتركن المنضدة .

ولكي تكون مدام ليرا قدوة كانت تصل قبل الجميع . ثم يظل الباب يضرب مدة ربع ساعة وتدخل جميع قبعات صانعات الازهار مبعثرة ، وهن يرشحن عرقاً ورؤوسهن عارية . وذات صباح من تموز جاءت نانا آخر الجميع، الأمر الذي كان كثير الحدوث في عاداتها . وقالت

– آه ! لن يكون الأمر سيئاً اذا حصلت على عربة .

وبدون ان تخلع قبعتها ، وهي قطعة سوداء تدعوها قبعة وقد تعبت من رتقها ، اقتربت من النافذة ، وانحنت الى اليمين والى اليسار لترى الشارع . فسألتها مدام ليرا حذرة :

– ماذا تنتظرين اذن ؟ هل رافقك والداك؟

فأجابت نانا بهدوء :

– كلا ، بالتأكيد . لا انظر الى شيء ... ارى ان الحر شديد . صحيح ، هناك ما يسبب لك الشر بان يجعلك تركضين هكذا

وكانت فترة الصباح ذات حرارة خانقة وكانت العاملات قد اسقطن

شعريات النوافذ التي كن يرقبن حركة الشارع من خلالها ، وانهمكن اخيراً في الشغل ، مصفوفات على جانبي المنضدة ، بينما مدام ليرا تشغل وحدها الطرف الاعلى . كن ثمان عاملات ، وأمام كل منهن علبة الصمغ ، وملقطها ، واوراقها ، ولفافتها التي يجب ان تشتغل بها وعلى منضدة الشغل خليط من الاشرطة الحديدية ، ومكبات ، وقطن ، او ورق اخضر وكستنائي ، واوراق وتويجات زهر مفصلة من الحرير او الساتان او المخمل. وفي الوسط ، في عنق اناء ، ادخلت عاملة الزهور باقة صغيرة بفلسين كانت قد ذبلت في صدرها منذ السهرة

وقالت ليوني ، وهي سمراء جميلة منحنية على مكبها لتغرز فيه تويجات الورد

– آه ! انتم لا تعرفون . تلك المسكينة كارولين تعيسة جداً مع ذلك الغلام الذي يأتي وينتظرها في المساء .

وكانت نانا تقطع قصاصات رقيقة من الورق الاخضر فهتفت

– بالتأكيد !.. رجل يضع لها ذيولاً في جميع الايام .

واجتاح المشغل مرح مداهن واضطرت مدام ليرا الى اظهار الصرامة . فرفعت انفها متمتمة

– انت نظيفة يا ابنتي ، لك كلمات جميلة ! سانقل هذا الى والدك ، وسنرى اذا كان هذا يعجبه

فنفخت نانا خديها ، وقالت بصوت منخفض وبسرعة

– ايه ! احذرن ! جاءت ربة العمل .

وبالفعل ، دخلت مدام تيترفيل ، وهي امرأة طويلة جافة . وتكون عادة تحت في المخزن . وكانت العاملات يخشينها كثيراً لانها لا تمزح ابداً .

وقد دارت متمهلة حول المنضدة التي اصبحت الرؤوس الآن منحنية فوقها ، صامتة ، عاملة . ونعتت احدى العاملات بالقبقاب ، واجبرتها على إعادة عمل زهرة مرغريت ثم ذهبت بهيئتها المتشددة التي جاءت بها

ورددت نانا وسط دمدمة عامة

هوب ! هوب !

وقالت مدام ليرا التي تريد إكساب وجهها هيئة الصرامة

– آنسات ، حقيقة آنسات ! ستجبرنني على اتخاذ اجراءات

ولكنهن لم يصغين اليها ، فهن لا يخشينها . وكانت تبدو كثيرة التساهل ، مسرورة بين هؤلاء الصغيرات اللواتي يملأ المجون اعينهن ، فتنتحي بهن جانباً لتستلّ منهن اخبار عشاقهن ، راسمة لهن الخرائط حين يكون احد اطراف المنضدة فارغاً . وجلدها القاسي ، جسدها الذي يشبه جسد الشرطي ، كان يهتز سروراً كسرور عجوز ، حين يتحدث الفتيات امامها عن غرامياتهن . الا ان الكلمات البذيئة كانت تجرحها . وبالامكان قول كل شيء بشرط عدم استعمال الكلمات البذيئة

والصحيح ان نانا أتمت في المشغل تربية جميلة ! اوه ! ومن المؤكد ان لديها استعداداً ، وقد كمل هذا الاستعداد بمباشرة جماعة من الفتيات اضناهن الشقاء والعيوب . كن هناك بعضهن فوق بعض يفسدن معاً كحكاية سلة التفاح حين يكون فيها تفاح متعفن فالفتاة تتمالك امام المجتمع ، وتتجنب اظهار صفات ضعيفة ذات تعبير يبعث على الاشمئزاز . وأخيراً تصنف كفتاة كما يجب . ولكن القذارات تسير سيراً حسناً في الاذن ، وفي الزوايا ، بحيث لا يمكن ان توجد اثنتان معاً دون ان تستغرقا بالضحك وهما تقولان الفواحش . ثم تترافقان في المساء ؛ وعندئذ تحدث مسارات وحكايات توقف الشعر ، وتتأخر الفتاتان على الارصفة ، مبتهجتين وسط دفع مرافق الجمهور . وكان يوجد في المشغل ايضاً ، للبنات اللواتي ظللن عاقلات كنانا ، جو فاسد ، ورائحة الحانات والليالي غير الكاثوليكية التي جاءت بها العاملات المتسكعات في شعرهن غير المضفور جيداً ، وفي تنوراتهن البالية التي بدت انهن نمن بها . والكسل الذي يبعث على الاسترخاء في غد الحفلات ، والعيون المطبقة ، وسواد العيون الذي تسميه مدام ليرا بسذاجة لطمة الحب ، وتخلع الاوراك ، والاصوات البحاء ، تنفث كلها الفساد فوق منضدة الشغل ، بين شظايا وهشاشة الزهور الاصطناعية وكانت

ثقف طويلاً بقرب ليزا الكبيرة ، لكي يقال كبيرة ؛ وكانت تلقي نظرات متألقة على جارتها ، كما لو انها تنتظر ان تراها تنتفخ وتنفجر دفعة واحدة وكان من الصعب ان تتعلم شيئاً جديداً ، فالوعدة تعرف كل شيء وتعلمت كل شيء على بلاط شارع القطرة الذهبية . في المشغل كانت ترى ، بكل بساطة ، كيف يكون العمل ، فدفعتها الرغبة والجرأة شيئاً فشيئاً لتعمل بدورها

وتمتمت وهي تقترب من النافذة كأنها تريد إسدال الشعرية :

– اكاد اختنق .

ولكنها انحنت وتطلعت من جديد يمناً وشمالاً . وفي اللحظة نفسها ، هتفت ليوني التي كانت ترصد رجلاً على الرصيف المقابل

– ماذا يفعل هناك ذلك الرجل ؟ منذ ربع ساعة وهو يتطلع الى هنا

فقالت مدام ليرا

– احد السفلة . أتريدين يا نانا ان تأتي وتجلسي ! لقد منعتك من البقاء في النافذة

واستعادت نانا سيقان البنفسج التي كانت تفتلها. واهتم المشغل كله بالرجل لقد كان سيداً حسن الهندام ، يرتدي سترة ، وفي حوالي الخمسين من سنه وكان ذا وجه شاحب ، كثير الرزانة ، وكثير الوقار ، بلحية رمادية مشذبة باحكام . وقد ظل طوال ساعة امام دكان بائع عقاقير ، رافعاً عينيه نحو شعريات المشغل . وكانت صانعات الازهار يضحكن ضحكة خفيفة تختفي في جلبة الشارع . وكنّ ينحنين فوق عملهن منهمكات ، ويلقين نظرة لئلا يغيب الرجل عن ابصارهن .

وقالت ليوني

– انظرن . انه يضع نظارات . اوه ! انه رجل انيق . من المؤكد انه ينتظر اوغسطين .

ولكن اوغسطين ، وهي شقراء كبيرة ، قبيحة ، اجابت بنشوفة انها لا تحب الشيوخ . وهزت مدام ليرا رأسها وتمتمت بابتسامتها اللاذعة المـلأى

بالتلميحات

– انت على خطأ يا عزيزتي فالشيوخ هم اكثر رقة

في تلك اللحظة همست جارة ليوني عبارة في اذنها ، وهي صغيرة سمينة وانقلبت ليوني فجأة عن كرسيها، وانتابتها عاصفة من الضحك المجنون، والتوت، والقت نظرات على الرجل وهي تضحك بشكل اشد ، وقالت متلعثمة

– انه لكذلك ، اوه انه لكذلك! آه ! يا لها من قذرة ، صوفي تلك !

وسأل المشغل كله وقد التهب بالفضول

– ماذا قالت ؟ ماذا قالت ؟

فمسحت ليوني دموع عينيها دون ان تجيب وحين هدأت قليلاً عادت الى عملها معلنة

ـ هذا لا يمكن ان يعاد .

وألححن عليها فرفضت بهزة من رأسها ، واجتاحتها نسمة من المرح . وعندئذ توسلت اليها اوغسطين ، الجارة التي على يسارها ، ان تقول لها بصوت منخفض. واخيراً رضيت ليوني ان تقول لها وشفتاها على اذنهـا . وانقلبت اوغسطين والتوت بدورها. ثم اعادت هي نفسها العبارة وهكذا انتقلت من اذن الى اذن، وسط التعجب والضحك المكبوت . وحين عـرف الجميع قذارة صوفي تطلعن الى بعضهن البعض ، وانفجرن ضـاحكات معاً ، محمرات قليلاً ومضطربات .

ومدام ليرا وحدها لم تكن تعرف فاغتاظت جداً وقالت

– ان ما تفعلنه يا آنسات عمل غير مهذب . والوشوشات لاتجوز بوجـود الناس . كلام بذيء ، اليس كذلك ؟ آه ! ما انظف هذا ! ..

ومع ذلك لم تجرؤ ان تطلب سماع قذارة صوفي ، رغم رغبتها الشديدة في معرفتها . ولكنها ، وهي منخفضة الانف متصنعة الوقار طوال فترة ، شبعت من أحاديث العاملات . ولم تكن اية واحـدة منهن تفلت كلمة ، الكلمة الاكثر براءة ، بصدد عملهـا مثلاً ، دون ان تفهم الاخـريات منها خبثاً ؛ كن يحرفن الكلمة عن معناها ويعطينها معنى بذيئاً . ويجعلن كنايات غير عـادية لكلمات

بسيطة مثل : « لقد انكسر ملقطي » او « من بحث في إنائي ؟ » ويجعلن لكل شيء علاقة بالرجل الذي ينتظر قائماً في الجهة المقابلة ، ان الرجل هو الذي كان يصل الى نهاية الكنايات مهما كان الامر آه ! يجب ان تكون اذناه مدويتين ! كن يصلن في النهاية الى قول اشياء قبيحة مادمن يردن ان يكن خبيثات. ولكن هذا لم يمنعهن من رؤية هـــذا اللعب مسلياً ، وينتقلن الى شيء اكثر شدة بعد ان أثارهن الحماس وُجّنت عيونهن . ولم يكن في ذلك ما يغضب مدام ليرا ، فهن لا يلفظن كلمات بذيئة وهي نفسها تجعل الجميع ينقلبن ضاحكات حين تسأل :

– لقد انطفأت ناري يا آنسة ليزا ، اعطني نارك ..

ويصرخ المشغل :

– آه ! يا لنار مدام ليرا التي انطفأت !

وكانت تريد ان تبدأ بايضاح :

ـ حين تصبحن في سني يا آنسات

ولكنهن لم يصغين اليها ، واخذن يتكلمن عن دعوة الرجل لاشعـــال نار مدام ليرا

وفي هذا الضحك الشديد كانت نانا تمزح ، ويجب ان ترى ! ولم تغب عنهـا كلمة ذات معنيين ، وهي نفسها كانت تلفظ كلمات نابية ، مستندة الى ذقنهـا ، وهي منتفخة مرتاحة . وكانت في العيب كسمكة في الماء وكانت تفتل سيقان البنفسج بشكل جيد وهي تتلوى على كرسيها . اوه ! مهارة مدهشة ، بوقت لا يستغرق لف سيكارة. لاشيء سوى حركة اخذ شريط دقيق من الورق الاخضر. وهيا ! الورقة تلف وتغلف النحاس الاصفر ، ثم قطرة صمغ في الاعلى لتلصق ، وانتهى الامـــر ، انها قشة خضراء فاخرة ودقيقة ، صالحة لتوضع على مغريات السيدات . كانت المهارة في اصابعها الدقيقة ، كأصابع داعـــرة ، تبدو بدون عظام ، مـــرنة ، ناعمة ، ولم تستطع ان تتعلم من المهنة سوى ذلـك . وكانت تكلف بصنع جميع سيقان الزهور في المصنع لانها تصنعها جيداً

وكان رجل الرصيف المقابل قـد ذهب . وهدأ المشغل ، واخذ يشتغل في

الحرارة الشديدة . وحين دقت ساعة الظهر ، ساعة الغذاء ، تحرك الجميع . ونانا التي اسرعت نحو النافذة صاحت بهن انها ستنزل وتـأتي بطلباتهن اذا شئن . فطلبت منها ليوني قـريدس بفلسين ، واوغسطين قرطاساً من البطاطا المقلوة ، وليزا حزمة فجل ، وصوفي قطعة مقانق . وحين ارادت النزول فان مدام ليرا التي استغربت محبتها للنافذة في ذلك النهار قالت وهي تمسك بساقيها الطويلين :

– انتظري ، انا ذاهبة معك انى بحاجة الى بعض الاشياء .

ولكن ها هي تشاهد في الممر ذلك الرجل واقفاً كالشمعة على وشك تبادل الغمزات مع نانا ! واحمر وجه الصغيرة وهزت عمتها ذراعها وجعلتها تنط على البلاط بينما ضاعف الرجل خطواته. آه! اذن فالوغد جاء لأجل نانا! حسناً. ما الطف هذا ! ابنة خمسة عشرة سنة ونصف وتجر الرجال هكذا وراء تنورتها ! وسألتها مـدام ليرا بحدة . اوه ! يا الهي ! نانا لاتعرف شيئاً ، انه يتبعها منذ خمسة ايام فقط .ولا تستطيع ان تضع انفها خارجاً دون ان تراه يسير وراءها، كانت تظنه يشتغل بالتجارة . نعم ، انه صاحب مصنع ازرار عظمية وتأثرت مدام ليرا جداً ، والتفتت ، وتطلعت الى الرجل بزاوية عينها وتمتمت

– يبدو انه غني . اسمعي يا هــرتي الصغيرة يجب ان تقولي كل شيء . وليس لك الآن ما تخافينه

كانتا تركضان من دكان الى اخرى وهما تتحدثان ، الى بائع لحم الخنزير . وبائعة الفواكه ، والشواء وتتكدس الطلبات في اوراق دهنية على ايديهما ولكنهما ظلتا لطيفتين ، تتمايلان وتلقيان وراءهما ضحكات خـفيفة ونظرات متألقة ومدام ليرا نفسها اخذت تتظرف وتفعل كفتاة صغيرة بسبب صانـع الازرار الذي مازال يتبعهما

وصرخت وهي تدخل الى الرواق :

– انه ممتاز جداً ، بشرط ان تكون مقاصده شريفة

وحين اخذتا تصعدان الدرج بدت فجأة انها تذكرت :

– بالمناسبة ، اخبريني ماذا كانت اولئك الآنسات يتهامسن ، انت تعرفين

ولم تبد نانا اي عذر . الا انها امسكت بعنق مـــدام ليرا واضطرتها الى النزول درجتين لأن ما سوف تقوله لايمكن ترديده بصوت مرتفع، حتى ولا على درج وهمست الكلمة كانت كبيرة بحيث ان العمة اكتفت بهـــز رأسها ، مديرة عينيها ، لاوية فمها . لقد عرفت اخيراً ولم يعد الفضول ينخسها

وكانت صانعات الازهار يتناولن غذاءهن على ركبهـــن لئلا يلوثن منضدة الشغل . كن يسرعن بالالتهـام ، متضجرات من الأكل ، يفضلن استعمال ساعة الطعام في النظر الى الناس الذين يمرون ، او ان يتساررن في الزوايا . وفي ذلـك النهار حاولن ان يعرفن مكان اختباء الرجل الذي كان موجوداً في الصباح . لقد اختفى بالتأكيد. وكانت مدام ليرا ونانا تلقيان بعض النظرات وشفاههن مطبقة . وبلغت الساعة الواحدة وعشر دقائق ، ولم تظهر العاملات انهن متعجلات لتناول ملاقطهن حين اخرجت ليوني صوتاً من شفتيها: بروت! . . كما يتنادى عمال الدهان ، مشيرة بذلك الى مجيء ربة العمل. وجلس الجميع على كراسيهن بسرعة، وانوفهن في الشغل ، ودخلت مدام تيترفيل وقامت بدورتها بشكل رصين .

ابتداء من ذلك اليوم شبعت مدام ليرا من قصة ابنة اخيها الاولى . فلم تعد تتركها ابداً، واصبحت ترافقها صباحاً ومساءاً واضعة مسؤوليتها قبل كل شيء. وقليلاً ما كان هذا يقلق نانا . بل كان يزيدهـــا نفخة لانها محروسة كالكنز . والاحاديث التي كانت الاثنتان تعقدانها في الشوارع ، وصانع الازرار وراءهما ، كانت تثيرها وتحرك فيها الرغبة في الوثوب . اوه ! كانت عمتها تفهم العاطفة ، وصانع الازرار نفسه ، ذلك السيد المسن المناسب جـداً كان يرقق قلبها لأن للعاطفة عند الاشخاص الناضجين جذوراً اكثر عمقاً . الا انهـا كانت ساهرة . نعم ، سوف يمر على جثتها قبل ان يصل الى الصغيرة . وذات مساء اقتربت من الرجل وأطلقت عليه كلاماً كالقنبلة بأن ما يفعله غير لائـق . فحياها بتهذيب دون ان يجيب ، كاجن عريق معتاد على سوء استقبـــال الاهل . وبالحقيقة لم تستطع ان تغضب ، فقد كان ذا تصرفات حسنة جداً . وكان ان ألقيت على نانا

نصائح عملية حول الحب ، وتلميحات حول الفسّاق من الرجـال وجميع انواع حكايات الثرثارات اللواتي تبن ، خرجت منها فاترة النشاط بعيني فاسقة تتألقان في وجهها الابيض .

ولكن ذات يوم ، في شارع فوبور – بواسونيير ، تجرأ صانع الازرار ان يمد انفه بين بنت الأخ والعمة ليتمتم بأشياء لا تقال وهال مدام ليرا ذلـك فردت انها غير مرتاحة من ناحيتها ، وتركت الحمل على اخيها . وعندئذ صار هنـاك طريقة أخرى . وثارت ضجة استياء عند آل كوبو وانهال عامـل الزنك اولاً على نانا بالضرب . ماذا قيل له ؟ .. اتفعل هـذه الحقيرة كالكبيرات ! آه ! لو فاجأها في الخارج تقوم بعمل مخجل فسوف يقطع رأسها ! وهل رؤيت ماخطة ضالعة في تلويث شرف العائلة ! وكان يهزها قائلاً ، واسم الرب ! عليها ان تسير مستقيمة لأنه هو الذي سيراقبها في المستقبل . ومـا ان تعود من عملها حتى كان يتفقدها ، ويتطلع في وجهها ليرى اذا كانت لم تأت بفأرة على عينهـا ، احدى تلك القبلات الصغيرة التي تطبع هناك دون ضجة وكان يشمها ، ويديرهـا . وذات مساء ضربها ايضاً لانه وجد بقعة سوداء على عنقهـا . وتجرأت ان تقول بأن هذه ليست مصة ! نعم ، كانت تدعو ذلك زرقة ، بكل بساطة ، اصابتها بها ليوني وهي تلعب . سوف يجعل لها كثيراً من البقع الزرقاء ، وسوف يمنعها من الخروج حين يضطر الى كسر رجليها . وفي مرات اخرى ، حين يكون ذا مزاج رائق ، كان يسخر منها ، ويهزأ بالحقيقة انها قطعة جميلة تصلح للرجال ، مسطحة كسمكة السول . وفي الكتفين نقرتان كبيرتان تدخـل القبضة فيهما ! ونانا التي ضُربت لأشياء شنيعة لم ترتكبها ، وصُبت عليها بذاءة اتهامات ابيها المستهجنة ، كانت تظهر خضوعاً مداجياً وغاضباً كالبهائم المطاردة .

وكانت جرفيز تردد ، وهي اكثر حكمة

– دعها بسلام .. ستنتهي بأن تجعلها راغبة بذلك لكثرة ما تكلمها عنه

آه ! نعم ، لقد جاءتها الرغبة . يعني ان هذا الأمر اخذ يحـك جسدها ، ويدفعها الى الهرب ، وان تذهب اليه كما كان يقول الاب كوبو . لقد جعلهـا

تعيش كثيراً في هذه الفكرة ، ومهما كانت الابنة فاضلة فستلتهب . وحتى في طريقته بالصياح ، فقد علمها اشياء لم تكن تعرفها بعد ، الامر الذي كان مثار دهشة . وعندئذ ، وشيئاً فشيئاً ، اخذت تقوم بتصرفات غريبة . وقد شاهدها ذات صباح تبحث في ورقة لتلصق شيئاً ما على وجهها . انها بودرة ارز كانت تلصقها بذوق فاسد على حرير بشرتها الناعمة . فلوث وجهها بالورقة الى درجة تخديشه وهو ينعتها بأبنة طحان ومرة اخرى جاءت بأشرطة حمراء لاصلاح قبعتها ، تلك القبعة القديمة السوداء التي طالما خجلت بها . وسالها غاضبا من اين اتت هذه الشرائط ؟ .. هل ربحتها بتعبها ام انها سرقتها ؟ اما قذرة واما سارقة ، ومن الممكن انها الاثنتان معاً . وفي عدة مناسبات كان يرى في يديها اشياء لطيفة ، خاتماً من العقيق ، كمّين من التخاريم ، احد تلك القلوب المبطنة ، وأشياء اخرى . وكان كوبو يريد ان يسلبها كل شيء ولكنها كانت تدافع عن امتعتها بهياج انها لها ، وقد اعطتها اياها احدى السيدات فالقلب مثلاً وجدته في شارع ابوقير . وحين سحق والدها القلب بضربة من رجله ظلت منتصبة ، شاحبة ، متشنجة ، بينما كان تمرد داخلي يدفعها للانقضاض عليه وانتزاع اشيائها منه . منذ سنتين كانت تحلم بالحصول على هذا القلب ، وها هو قد سحقه لها ! كلا ، هذا كثير . وسينتهي اخيراً

ومع ذلك ، ففي الطريقة التي يقود بها كوبو ابنته نانا من المناكدة اكثر من النزاهة . وكان في اغلب الاحيان على خطأ وكانت مظالمه تثير سخط الصغيرة الى درجة انها توصلت الى عدم الذهاب الى المشغل وحين يضربها عامل الزنك كانت تسخر منه ، وتجيب بانها لا تريد العودة الى مشغل تيترفيل لانهم وضعوها بجانب اوغسطين التي من المؤكد انها ستقع على رأسها ما دامت تسير على غير استقامة وحينئذ قادها كوبو بنفسه الى شارع القاهرة ، راجياً ربة العمل ان تلصقها دائماً الى جانب اوغسطين قصاصاً لها . وظل كل صباح ، ولمدة خمسة عشر يوماً ، يتجشم عناء النزول من حاجز البواسونيير ليرافق نانا حتى باب المشغل . ويظل خمس دقائق على الرصيف ليتاكد من دخولها .

ولكن ذات صباح ، وكان واقفاً مع احد رفاقه عند بائـــع خمر في شارع سان دنيس ، شاهد الوغدة ، بعد عشر دقائق ، تسير بسرعة نحو اسفل الشـــارع ، ضاربةً سلتها بالوحل . منذ خمسة عشر يوماً وهي تسخر منه ، فتصعد طابقين بدلاً من ان تدخل الى مشغل تيترفيل ، وتجلس على درجـــة منتظرة ذهابه . وحين اراد كوبو معاتبة مدام ليرا ، صرخت هذه بأنها لن تقبل الدرس ، وقد قالت لابنة اخيها كل ما يجب قوله ضد الرجـــال وليس الخطأ خطأها اذا كانت الابنة تتذوق هؤلاء القذرين ؛ والآن فقد غسلت يديها منها وأقسمت الا تتدخل بشيء لأنها تعرف ما تعرف ، وهناك نمائم تشاع في العائلة ، نعم ، هناك اشخاص تجرأوا على اتهامها بالضياع مع نانا وانها تتذوق لذة كبرى حين تراها ترتكب الخطيئة الكبرى تحت بصرها . يضاف الى ذلك ان كوبو علم من ربـة العمل ان نانا انقطعت عن الشغل بواسطة عاملة اخرى ، تلك الناقـــة الصغيرة ليوني التي تترك الزهور لتذهب الى الفجور . وما من شك في ان الطفلة ، وهي الشرهة فقط للكعكة وزريبة البقر في الشوارع، بامكانها الزواج ايضاً مع اكليل الليمون على رأسها ولكن يجب الاستعجال الشديد اذا اريد اعطاؤها لزوج دون اي شيء ممزق ، نظيفة وبحالة جيدة ، واخيراً كاملة كالآنسات اللواتي يحترمن انفسهن

وفي البناية ، في شارع القطرة الذهبية ، كانوا يتحدثون عن عجوز نانا كسيد يعرفه الجميع . اوه ! لقد ظل كثير التهذيب ، وعلى شيء من الخجـل ايضاً ، ولكنه عنيد وصبور ، يتبعها على مسافة عشر خطوات ككلب مطيع وقد دخل عدة مرات الى باحة البنـــاية ، والتقت به مدام غودرون ذات مساء على سطح درج الطابق الثـــاني ، على طول الدرابزين ، منخفض الانف ، مضطرباً وخائفاً . وهدد آل لوريللو بالانتقال اذا ظلت ابنة اخيهم القذره تجلب الرجال وراءها ، لأن الامر اصبح مقرفاً ، واصبح الدرج مليئاً بهم ولا يستطيع احد النزول دون ان يراهم على جميع الدرجات يشخرون وينتظرون ؛ صحيح ، حتى ليظن ان هناك دابة في حالة جنون في تلك الزاوية من البيت . وكان آل بوش

يشفقون على ذلك الرجل المسكين ، انه رجل محترم جـــداً ، مجنون بأناقة صغيرة . واخيراً ، فهو تاجر ، وقـد رأوا مصنعه للأزرار في شارع ديلافييت وباستطاعته توفير السعادة للمرأة لو كان وقع على فتاة فاضلة . وبفصل التفاصيل التي ادلى بها البواب وزوجته فان جميع اهل الحي ، وآل لوريللو انفسهم، كانوا يظهرون اعظم الاعتبار للهرم حين يمر في اثر نانا، وشفته مدلاة في وجهه الشاحب مع لحيته الرمادية التي تشبه الطوق والمشذّبة باتقان .

اثناء الشهر الاول لهت نانا كثـــيراً بعجوزها . ويجب ان نراه وهو يدور حولها دائماً انه مدقق حقيقي يتحسس تنورتها من الوراء بين الجمهور دون ان يبدو عليه شيء . وساقاه ! حزمتا حطب عند فحام ، عودا ثقاب ! كثير من الطحلب على حصاة ، وأربع شعرات مجعدة في العنق ، مع انهـــا كانت تحاول دائماً ان تطلب منـــه عنوان سمكة البوري *Merlan* التي تصنع له سمكة اللمّا *Raie* . آه ! يا له من عجوز هرم ! انه لم يكن لعوباً !

ثم لم يعد يبدو لها غريباً بعد ان اصبحت تراه دون انقطاع ، وكانت تشعر بخوف خفي منه ، وستصرخ لو اقترب منها . وحـــين كانت تقف امام دكان جوهري كانت تسمعه في اغلب الاحيان وهو يتلعثم بكلمات وراءها . وكان ما يقوله صحيحاً ؛ فهي طالما ودت ان تحصل على صليب مع مخمـل في العنق ، او ايضاً على اقراط من المرجان ، صغيرة بحيث يظن انها قطرات دم . وبدون ان تطمع بالجوهرات فلم يكن باستطاعتها البقاء بالأسمال البالية . كانت تعبة من اصلاح نفسها بقشطة مشاغل شارع القـــاهرة ، وسئمت من قبعتها التي تحدث عليها الازهار المسروقة من عند تيترفيل تأثير بقايا كالجلاجل في قفا رجل فقير . وعندئذ ، وهي تخب في الوحل ، وتلطخهـا العربات ، ويعميها تألق البضائـع المعروضة ، كان لديها رغبات تكويها في معدتها ، وجوع شديد، ورغبات في ان تكون على خير حال ، وان تأكل في المطاعم ، وتـذهب الى المسرح ، وتكون لها غرفة خاصة مع اثاث جميل وكانت تقف شاحبة من الرغبـــة ، وتشعر بتصاعد حرارة من شوارع باريس على طول ساقيها ، وبشهية ضارية للانهماك في

المتع التي كانت تُدفع عنها ، بين جمهور الارصفة الغفير. وهذا لا ينقصها في تلك اللحظة لأن عجوزها سكب في اذنها عروضاً . آه ! كم تود ان تضرب على يده لو لم تكن تخاف منه ؛ انه تمرد داخلي جعلها تتشدد في رفضها، غاضبة، مشمئزة من الرجل المجهول ، رغم كل عيبها .

ولكن حين جاء الشتاء اصبحت الحياة مستحيلة عند ال كوبو . ففي كل مساء كانت نانا تتلقى نصيبها من الضرب . وحين يتعب والدها من ضربها كانت امها تلطمها لتعلمها كيف تحسن سلوكها . وفي الغالب يكون الشجار عاماً . فما ان يضربها الواحد حتى يدافع عنها الآخر، بنوع ان الثلاثة ينتهون الى التدحرج على البلاط بين آنية المطبخ المحطمة . ومع هذا فلم يكونوا يأكلون عند الجوع، ويموتون من البرد . واذا اشترت الصغيرة شيئاً لطيفاً ، كعقـــدة شريط ، او ازرار اكام ، يصادره الاهل ويبيعونه. لم يكن لديها شيء خاص سوى مدخولها من الضرب قبل ان تدفن نفسها تحت الغطاء البالي حيث ترتجف من البرد تحت تنورتها الداخلية الصغيرة السوداء التي كانت تنشرها كغطاء وحيد . كلا ، هذه الحياة لا يمكن ان تستمر . وهي لا تريد ان تموت وأبوها ليس له اي حساب منذ زمن طويل . وحين يسكر الاب كما يسكر ابوها ، فلا يكون اباً ، انه بهيمة قذرة يتمنى المرء التخلص منها وها ان امها الآن قد تدهورت بدورها فأصبحت تشرب هي ايضاً . كانت تدخل الى حـانة الاب كولومب متظاهرة بالبحث عن زوجها ، وهي ذريعـــة لتتناول الشراب وصارت تجلس على الطاولة جيداً دون ان تظهر اشمئزازاً كما في المرة الاولى ، جارعة الكأس دفعة واحدة ، جارّةً مرفقيها طوال ساعات وتخرج من هناك وعيناها خارج رأسها. وحين كانت نانا ترى امها في الداخل ، وهي تمر امام الحانة ، وانفها في الكأس. مسترخية بين صياح الرجال ، كان يستولي عليهـا غضب شديد ، لأن الشباب الذي يـــدير منقاره الى حلويات اخرى ، لا يفهم المشروبـات . في تلك الايام يصبح عندها لوحة جميلة ، الاب ثمل ، والام سكرى ، ورعد الرب في غرفـة المؤونة حيث لا يوجد خبز ولا ما يسمم الشراب. واخيراً ، فان قديسة لا يمكن

أن تبقى في هذه الحالة لن تسأل عن شيء ! واذا هربت ذات يوم فباستطاعة اهلها ان يقولوا انهم طردوها خارجاً

وفي نهار سبت ، حين عادت نانا الى البيت ، رأت اباها وامها في حـــالة فظيعة كوبو ساقط على عرض السرير وهو يشخر ، وجـــرفيز متكومة على كرسي تدير رأسها بعينين مشوشتين ومفتوحتين على الفراغ بشكل مقلق . لقد نسيت ان تسخن طعام العشاء ، بقية من طعام متبل وهنــاك شمعة لم تقطعها كانت تنير البؤس المخزي لهذا البيت المشوش .

وقالت جرفيز متلجلجة :

– اهذا انت ايتها الدودة ! آه ، حسناً ! سيلتقطك والدك .

فـلم تجب نانا ، وظلت شاحبة اللون تنظر الى الو جـاق البارد ، والطاولة بدون صحون ، والغرفة المأتمية التي ينشر فيها هذان السكيران رعب حماقتهما القـــاتم . ولم تخلع قبعتها ، ودارت في الغرفة ثم فتحت الباب وهي تصر على اسنانها وذهبت

وسألت امها دون ان تستطيع الالتفات :

– انزلت ِ ؟

– نعم ، نسيت شيئاً سأعود . اسعدت مساءً

ولم تعد . وفي الغد ، وقد صحا آل كوبو من سكرهما ، تضاربا ، واتهم كل منهما الآخر بذهاب نانا آه ! لقد اصبحت بعيدة اذا كانت لا تزال تركض ! وكما يقال للاولاد بشأن عصافير الدوري ، كان باستطاعة الأهل الذهاب ووضع حبة ملح في المؤخرة ، فـربما قبضوا عليها . كانت ضربة جديدة زادت من تحطيم جرفيز لانها كانت تشعر جيداً ، رغم تعبها ، ان سقوط ابنتها التي اصبحت على وشك التردي في الحمأة ، زاد من انهيارها . فقد اصبحت الآن وحيدة ، ليس لها ولد يحترمها وباستطاعتها التمادي في الانحدار . نعم ، ان تلــك الابنة العديمة العواطف الطبيعية قـد اخذت في تنورتها القذرة آخر قطعة مـن فضيلتها وظلت سكرى ثلاثة ايام ، تضم قبضتها وتفتح فمها بكلمات قبيحة بحق ابنتها

الفاجرة اما كوبو ، فبعد ان طاف الشوارع الخارجية ، ورأى جميع المماسح التي تمر ، عاد الى تدخين غليونه ، مطمئناً كبابتيست الا انه حين يكون جالساً الى طاولة ، فقد كان ينهض احياناً ، رافعاً ذراعيه وفي يده سكين ، صائحاً ان شرفه قد انتهك ، ثم يعود الى الجلوس ليكمل حساءه

وفي البيت ، حيث تطير كل شهر فتيات كالعصافير ويتركن الاقفاص فارغة ، فان حادث آل كوبو لم يدهش احداً ولكن آل لوريللو انتصروا آه ؟ كانوا يتوقعون ان تلوث الصغيرة شرفهم ! انه جزاء وفاق ، فكل صانعات الازهار يملن الى السوء . وكذلك فان آل بوش وآل بواسون كانوا يضحكون متحدثين كثيراً عن الفضيلة ، باستثناء لانتيه الذي كان يدافع عن نانا مداجياً. ياالهي ! لقد صرح بهيئته المتزمتة ان الفتاة التي تهرب تنتهك جميع القوانين؛ ثم اضاف ، وزاوية عينه تتوهج ، ان الفتاة كثيرة الجمال ومن حقها ان تهرب من الشقاء في مثل سنها

وذات يوم قالت مدام لوريللو في منزل آل بوش حيث كانت عصبة المغتابين تتناول القهوة

— الا تعلمون؟ان الامر صحيح كشمس النهار التي تضيء علينا. فالعرجاء هي التي باعت ابنتها نعم باعتها ، ولدى براهين ! ان ذلك الهرم الذي كنا نلتقي به على الدرج صباحاً ومساءً كان يصعد ويدفع الاقساط . وهذا ما يبهر العين . وهناك من رآهما البارحة معاً في الأمبيغو ، الآنسة ورجلها كلام شرف ! انهما معاً . اترون جيداً !

وأنهوا شرب القهوة وهم يناقشون الامر وبعد ، فهذا ممكن ، وتحدث امور اعظم من ذلك وفي الحي ، انتهى افضل الناس الى القول ان جرفيز باعت ابنتها .

لقد اصبحت جرفيز الآن تجر خطاها غير مهتمة بالناس. وكانوا في الشارع يدعونها سارقة لئلا تعود اليه . ومنذ شهر لم تعد تشتغل عند مدام فوكونيه التي اضطرت الى طردها لتتجنب المشاجرات . وببضعة اسابيع دخلت الى عند ثمان

غسالات وكانت تعمل يومين او ثلاثة في كل مشغل ، ثم تتسلم صرتها لأنها كانت تتلف الشغل ، بدون اعتناء ، قذرة ، اضاعت صوابها الى درجة انها نسيت مهنتها واخيراً شعرت انها سقطت في الوحل فتركت مهنة الكوي ، وصارت تغسل مياومة في مغسل الشارع الجديد . انها تغوص في الوحل ، وتصارع الاوساخ ، وتنحدر الى ما في المهنة من قاس وسهل ، فهذا لا يزال يسير ، وذاك يهبط بها خطوة على منحدر تدهورها حتى المغسل لم يعد باستطاعته تنظيفها ، فقد كانت ككلب حقيقي ملوث بالطين حين تخرج من هناك ، مبللة ، مظهرة لحمها الازرق ، ومع هذا كانت لا تزال تسمن ، رغم وقوفها امام خزانة الطعام الفارغة ، واصبح ساقها يلتوي بشدة بحيث لم تعد تستطيع السير بجانب احد دون ان يتمرض لأن تلقي به ارضاً بسبب عرجها .

ومن الطبيعي ان يذهب كبرياء المرأة حين تصل الى هذه الحالة . فقد وضعت جرفيز تحتها كبرياءها القديم ، ودلالها ، وحاجتها للحب واللياقة والمراعاة واصبح بالامكان ضربها بالحذاء في كل مكان ، ومن امام ومن وراء، فلا تشعر بذلك ، واصبحت كثيرة الترهل ، كثيرة الرخاوة وتركها لانتيه تماماً ، حتى انه لم يعد يقرصها ولو لمجرد الشكليات وكانت تبدو غير مهتمة بهذه النهاية للعلاقة الطويلة التي جرت ببطء وانحلت في سأم متبادل . وكان هذا بالنسبة اليها سخرة على الاقل حتى انها ظلت هادئة تماماً لدى علاقة لانتيه بفرجيني لأنها تشعر بكثير من اللامبالاة نحو هذه الحماقات التي كانت تغضبها بشدة في الماضي . وسوف تحمل لهما الشمعة اذا ارادا . وليس هناك الآن من يجهل الامر ، فصانع القبعات وبائعة البقالة على افضل ما يرام . وكان الامر سهلاً عليهما ايضاً لأن ذلك الأقرن بواسون كان يقوم بوظيفة ليلية كل يومين تجعله يرتجف من البرد على الارصفة المقفرة ، بينما تكون أرجل زوجته والجار دافئة في البيت . اوه ! لم يكونا يتعجلان ، وكانا يسمعان رنين جزمته في طول الدكان ، وفي الشارع الاسود الفارغ دون ان يجازفا بمد انفيهما خارج الغطاء . فالشرطي لا يعرف سوى واجبه ، أليس كذلك ؟.. ويظلان مطمئنين حتى

النهار وهما يعيشان فساداً في ملكيته بينما يكون ذلك الرجل الصارم يسهر على ملكية الآخرين . وكان حي القطرة الذهبية كله يهزأ من هذه المزحة الجميلة ، فقد رأوا ان بروز قرنين للسلطة يُعدّ امراً غريباً . ومع ذلك فقد اكتسح لانتيه هذه الزاوية ، واصبحت الدكان وصاحبتها تسيران معاً . وقد اكل غسالة وهو الآن يقضم بائعة بقالة . واذا قرر السير وراء بائعات الخردة ، وبائعات الورق ، وبائعات الثياب ففكاه واسعان لالتهامهن .

كلا ، ما رؤي ابداً رجل مثله يتمرغ بالسكر لقد احسن لانتيه اختيار عمله بأن اشار على فرجيني بتجارة الحلوى. كان ريفياً صميماً يحب الحلاوة ، يعني انه يود ان يعيش على اقراص السكر ، وكرات الكوم *Gomme* ، والملبس والشوكولا والملبس بشكل خاص ، ويسميه « اللوز المحلى » ، كان يحمل له شيئاً من الرغوة على شفتيه لانه يدغدغ لهاته ومنذ سنة لم يكن يعيش الا على الملبس . كان يفتح الادراج ، ولا يبالي بالخسارة حين كانت فرجيني ترجوه ان يحرس الدكان وفي اغلب الاحيان ، وهو يتحدث ، وامام خمسة او ستة اشخاص ، كان يرفع غطاء وعاء على المنضدة ، ويغمس يده ، ويقضم شيئاً ما . ويظل الوعاء مفتوحاً ويفرغ . ولم يكن ينتبه احد الى ذلك ، انها عادة كما كان يقول ثم تخيل وجود رشح دائم ، تهيج في الحنجرة كان يتحدث عن تلطيفه ولم يكن يشتغل ابداً . ولكنه يكشوف اعمالاً تزداد اهميتها تدريجياً ، فهو على وشك القيام باختراع رائع ، القبعة – المظلة ، قبعة تتحول على الرأس الى مظلة كبيرة عند اولى قطرات وابل المطر ؛وقد وعد بواسون بنصف الارباح، واستقرض منه قطعة نقدية بعشرين فرنكاً لأجل التجارب . وبانتظار ذلك ، كانت الدكان تذوب على لسانه ؛ اذ كانت تمر عليه جميع البضاعة ، حتى سكاير الشوكولا وغلايين الكاراميل الحمراء . وحين يصاب بالتخمة من السكر ، وتأخذه الشفقة ، يعود ويستوفي آخر لعقة من شفاه صاحبة الدكان في احدى الزوايا ، وكانت هذه تجده مشبعاً بالسكر وشفتاه كالملبس . رجل لطيف جداً للعناق ! فقد اصبح كله عسلا . وكان آل بوش يقولون انه يكفيه ان يغمس

أصبعاً في قهوته حتى يجعل منها شراباً حقيقياً .
ورق قلب لانتيه من هـــذه الحلويات المستمرة وبدا مشفقا على جرفيز وأسداها النصائح ، ووبخها لأنها لا تحب الشغل . يا للشيطان ! ان امرأة في مثل سنها يجب ان تعرف كيف تتصرف . واتهمها بأنها كانت شرهة دائما ولمـــا كان من اللازم مساعدة الناس ، ولو كانوا لا يستحقون ، فقد حاول ان يجد لها اعمالا صغيرة . وهكذا جعل فرجيني تـــأتي بجرفيز مرة بالاسبوع لغسل الدكان والغرف ؛ وهذا ما جعلها تعرف ماء البوتاس ؛ وكانت تربح في كل مرة ثلاثين فلســا . وكانت جرفيز تصل صباح السبت مع دلو وفرشاة دون ان تبدو انها تتألم من العودة الى القيام بعمل قذر ومهين ، عمل مماسح آنية المطبخ ، في ذلك المنزل الذي جلست فيه على العرش كربة عمل شقراء جميلة . كان ذلك منتهى التمرغ ونهاية كبريائها
وذات سبت اصابها كثير من الضرر . فمنذ اكثر من ثلاثة ايام وارجـــل الزبائن تحمل الى الدكان كل وحل الحي . وكانت فرجيني امام منضدة البيع ، تظهر بمظهر السيدة ، مسرحة الشعر بشكل جيد مع طوق صغير واكمـام من المخرمات . والى جانبها ، على مقعد صغير من المخمل الاحمر ، لانتيه في وضع مريح ، كأنه في بيته ، كصاحب المحل الحقيقي ؛ وكان يرسل يده باهمال في وعاء يحتوي على اقراص نعناع ليقرقش السكر بداعي العادة .
وصاحت فرجيني التي كانت تتابع عمل الغسالة ، وقد عضت على شفتيها :
– انت يا مدام كوبو . لقد تركت وسخاً هناك في تلك الزاوية . ادعكي بشكل افضل .
واطاعت جرفيز وعادت الى الزاوية وبدأت تغسل من جـــديد . وكانت راكعة على الارض ، وسط الماء القذر ، منطوية ، وكتفاها بارزان ، والذراعان متوتران بلون بنفسجي . وكانت تنورتها الداخلية المبللة القديمة تلتصق بإليتيها ، وتحدث على الارض الخشبية شيئاً غير نظيف ، مشعثة الشعر ، مظهرة من ثقوب صدرتها تورم جسدها ، فيضاً مـن اللحم الرخو ، يسيل ، ويفتل ، ويثب تحت

هزات عملها القاسي. وكانت ترشح عرقاً ويتساقط مـــن وجهها المبلل قطرات كبيرة .

وقال لانتيه بحكمة، وفمه مليء بأقراص الحلوى

– بقدر ما يوضع زيت يزداد اللمعان

وفرجيني المنقلبة الى الوراء كأميرة ، وعيناهـــا نصف مطبقتين ، كانت تتابع عملية الغسل ، وتفلت بعض المـلاحظات

– قليلاً ايضاً الى اليمين . الآن ، انتبهي جيداً للخشبيات .. انت تعلمين ، لم اكن مسرورة في السبت الماضي فقد ظلت البقع مكانها

واستراح الاثنان، صانع القبعات وبائعة البقالة، في جلستهما كأنهما على عرش، بينما كانت جرفيز تنسحب على اقدامها في الوحل الاسود. وكانت فرجيني تتمتع لأن عينيها اللتين تشبهان عيني الهر تألقتـا لحظـــة بشرر اصفر ؛ ونظرت الى لانتيه بابتسامة رقيقة . لقد كان هذا ثأراً لها من الصفعات القديمة على قفاهـــا في المغسل ، والتي لا تزال تذكرها .

الا ان ضجة خفيفة لمنشار جاءت من الغرفة الداخلية، حين انقطعت جرفيز عـن الدعك وكان يشاهد من الباب المفتوح وجه بواسون الجانبي منفصلاً على ضوء الساحة الشاحب ، وكان في اجازة في ذلك النهار فاغتنم فرصة عطلته لينصرف الى هوايته في صنع العلب الصغيرة . كان جالساً امام طاولة يقطع بعنـــاية غير عادية اوراقا مشتبكة (ارابيسك) من خشب صندوق سكاير .

وصاح لانتيه الذي صار يطلق عليه هذا اللقب بدافع الصداقة

– اسمع يا بادنغ ؛ اني احتفظ بعلبتك هدية لاحدى الاوانس .

فقرصته فرجيني ، ولكن صانع القبعات ، دون ان يكف عن الابتسام ، وبطريقة ظريفة ، بادلها الخير بالشر بأن أمرّ يده على طول ساقها تحت المنضدة ؛ وسحب يده بطريقة طبيعية ، حين رفع الزوج رأسه ، مظهراً عثنونه وشاربيه الاحمرين المنتفشين في وجهه الترابي

وقال الشرطي

– تماماً كنت اشتغل وفقاً لطلبك يا اوغست انها تذكار صداقة
فقال لانتيه ضاحكاً
– آه ! سأحتفظ اذن بــــآلمك الصغيرة ! انت تعلم اني سأضعها في عنقي معلقة بشريط .
ثم هتف فجأة ، كما لو ان هذه الفكرة ايقظت اخرى
– بالمناسبة . لقد التقيت بنانا مساء البارحة
وفجأة ، جعل التأثر الناتج عن هذا الخبر جرفيز تجلس في بركة الماء القذر الذي يملأ الدكان . وظلت ترشح عرقاً ، لاهثة ، والفرشاة في يــــدها وتمتمت ببساطة
– آه !
نعم ، كنت اهبط شارع الشهداء فرأيت فتاة صغيرة تتلوى وهي متعلقة بذراع رجل هرم امامي ، فقلت لنفسي « هــــذا شكل اعرفه » . وعندئذ ضاعفت الخطى ووجدت نفسي وجها لوجه مع نانا . هيا . ليس لك ان تشكي منها . انها سعيدة جداً ، وثوب جميل صوفي على جسدهــــا ، وصليب ذهبي في عنقها ، يضاف الى ذلك هيئة جميلة .
ورددت جرفيز بصوت مكتوم : آه !
وتابع لانتيه بعدما أنهى اقراص الحلوى واخذ قطعة سكر من وعاء آخر
– هناك عيب عند هذه الطفلة تصوري انها اشارت الي ان أتبعها برباطة جأش ثم تركت عجوزهــا في احدى النواحي ، في مقهى .. اوه ! يا للعجوز المدهش ! يا للعجوز الفارغ ! وجاءت تلاقيني تحت احـد الابواب . انها افعى حقيقية ! لطيفة ! تتمسح بك وتلحسك ككلب صغير ! نعم ، قبلتني ، وارادت ان تعرف اخبار الجميع .. اخيراً سررت لالتقائي بها
وقالت جرفيز للمرة الثالثة : آه !
وتكومت ، وانتظرت . اذن لم يكن لدى ابنتهــا كلمة لها ؟ .. وفي فترة الصمت عاد صوت منشار بواسون يتناهى الى السمع ولانتيه المبتهج اخذ يمص

بسرعة قطعة السكر محدثاً صفيراً من الشفتين

وقالت فرجيني وقد قرصت صانع القبعات بيد ضارية

– ايه ، انا لو رأيتها لذهبت من الناحية الاخرى للشارع نعم ، ان الاحمرار سيتصاعد الى جبهتي اذا حيتني واحدة من هذه الفتيات امام الناس .. لا لأنك هنا يا مدام كوبو ، ولكن ابنتك عفونة وبواسون يلتقط منهن كل يوم ما يفيض عن الحاجة

ولم تقل جرفيز شيئاً ، لم تحرك عينيها المحدقتين في الفراغ . فقد انتهت بأن هزت رأسها ببطء كأنها تجيب على الافكار التي تحتفظ بها لنفسها ، بينما تمتم صانع القبعات بهيئة نهمة

– بهذه العفونة يبعد المرء عسر الهضم . انها طريئة كالفرخة ..

ولكن بائعة البقالة تطلعت اليه بهيئة مخيفة بحيث اضطر الى مقاطعتها وتهدئتها بشيء من الملاطفة . وراقب الشرطي فرآه منهمكا بعلبته الصغيرة ، واغتنم الفرصة ليضع قطعة السكر في فم فرجيني. عندئذ ضحكت هذه ضحكة ملاطفة ، وحولت غضبتها الى الغاسلة .

– اسرعي قليلاً ان بقاءك هكذا كالنصب لا يقدم الشغل هيا ، تحركي ، لست راغبة في السير في الماء حتى المساء

وأضافت بصوت منخفض ، وبرداءة

– هل هي غلطتي اذا كانت ابنتك داعرة

مما لا شك فيه ان جرفيز لم تسمع . فقد كانت منهمكة في دعك الارض ، محطمة الظهر ، منبطحة على الارض تجر نفسها بحركات ضفدعة متخدرة . وبيديها الاثنتين ، المتشنجتين على خشب الفرشاة كانت تدفع امامها موجة سوداء يلوثها طينها بالوحل حتي شعرها. لم يبق عليها الا ان تغسل بدون صابون بعد ان كنست الماء الوسخ الى الساقية

الا ان لانتيه الذي احس بالضجر رفع صوته صائحاً بعد فترة صمت

– انت لا تعلم يا بادنغ . رأيت معلمك البارحة في شارع ريفولي . انه تألف

بشكل شيطاني ليس في جسده ما يبقيه حياً ستة اشهر ، مع الحياة التي يحياها

كان يتكلم عن الامبراطور واجاب الشرطي بلهجة جافة دون ان يرفع عينيه

– لو كنت انت الحكومة لما كنت اكثر سمنة منه

فأجاب صانع القبعات متكلفاً وقاراً فجائياً

– اوه ، يا صاحبي . لو كنت الحكومة لسارت الامور بشكل افضل . وسأوضح لك كل شيء .. هكذا ، سياستهم الخارجية ، صحيح ! انها تجعل العرق يتصبب منذ زمن . وانا . انا الذي اكلمك، لو كنت فقط اعرف صحفيا لأوحي اليه بافكاري

وتحمس . ولما كان قد انتهى من قرقشة قطعة السكر ، فقد فتح درجاً اخذ منه قطعاً من حلويات معجون الخطمية ازدردها ، وقال وهو يكثر من حركاته

– الامر بسيط جداً .. قبل كل شيء اعيد انشاء الدولة البولونية ، وانشاء دولة اسكندينافية كبرى تجبر عملاق الشمال على احترامها .. وبعد ذلك اجعل من جميع الممالك الالمانية جمهورية ... اما انكلترا فلا خوف منها ، واذا تحركت فاني ارسل مئة الف رجل الى الهند . يضاف الى ذلك انني ساقود سلطان الترك الى مكة والبابا الى القدس بالعصا ... ها ؟ وتصبح اوروبا نظيفة بسرعة . تأمل يابادنغ ، انظر قليلاً

وقاطع نفسه ليأخذ قبضة من خمس او ست قطع من حلوى معجون الخطمية

– وهذا لا يدوم اكثر من الوقت الذي احتاجه لا بتلاع هذه القطع .

وألقى في فمه المفتوح القطع ، الواحدة بعد الاخرى .

وقال الشرطي بعد دقيقتين من التفكير

– ان للامبراطور خطة اخرى .

فقال صانع القبعات بعنف:

– دعك من هذا .. ان خطته معروفة اوروبا لا تهتم بنا . وخدم التويلري يلتقطون معلمك كل يوم من تحت المنضدة بين قمامتين من الطبقة العالية .

ولكن بواسون نهض ، وتقدم ووضع يده على قلبه قائلا

– انت تجرحني يا اوغست . ناقش دون التعرض للشخصيات .

وعندئذ تدخلت فرجيني ورجتهما اقرار السلام فاوروبا كانت بعيدة عنها . وكيف يمكن لرجلين يتقاسمان كل ما بقي ان يتشاجرا دائماً بسبب السياسة ؟ لقد مضغا لحظة بعض الكلمات الخفية ، ثم ان الشرطي ، ليبرهن على انه لايحمل حقداً ، اتى بغطاء علبته الصغيرة التي انتهى منها ، وقد كتب على الغطاء بحروف منقوشة : « الى اوغست ، تذكار صداقة » . فانقلب لانتيه الى الوراء وقد ارضاه التملق ، واستلقى على قفاه بحيث اصبح تقريباً على فرجيني . وكان الزوج يرى ذلك بوجهه الذي يشبه لون الجدار ، والمحتوي على عينين لا تقولان شيئاً ، ولكن شعر شاربيه الاحمر كان يتحرك وحده بين فترة واخرى ، بطريقة غريبة ، الامر الذي يقلق رجلا اقل ثقة بعمله من صانع القبعات .

وكان لدى ذلك الحيوان لانتيه تلك الوقاحة المطمئنة التي تعجب السيدات ، فحين ادار بواسون ظهره جاءته فكرة طبع قبلة على عين مدام بواسون اليسرى . وكان عادة يظهر حذراً مداجياً ولكن حين يخاصم بالسياسة فانه يجازف بكل شيء على اعتبار ان له حقاً على المرأة وتلك المداعبات النهمة ، المسروقة بوقاحة من وراء الشرطي كانت تثأر له من الامبراطورية التي جعلت من فرنسا بيتاً ذا رقم ضخم . الا انه نسي هذه المرة وجود جرفيز . فقد غسلت الدكان ونشفتها ووقفت بقرب المنضدة منتظرة ان تقبض الثلاثين فلساً . اما القبلة على العين فقد جعلتها هادئة جداً ، كشيء طبيعي ليس عليها ان تتدخل به . وبدت فرجيني متكدرة قليلا ، فألقت الثلاثين فلساً على المنضدة ، امام جرفيز ، ولم

تتحرك هذه وبدت انها لا تزال تنتظر وكانت تعبة من الغسل ، مبللة وقبيحة ككلب سُحب من بالوعة .

واخيراً سألت صانع القبعات :

– اذن لم تقل لك شيئاً ؟

فصاح

– من هي ؟ آه ! نعم ، نانا ! ولكن كلا ، لا شيء . ان للصعلوكة فماً كوعاء الفريز

وذهبت جرفيز والثلاثون فلساً في يدها ، ونعلها المطوي الى الداخل يبصق كالطلمبة ، حذاء حقيقي موسيقي يعزف لحناً ، تاركاً على الرصيف الطوابع المبللة لنعليه المريضين .

وفي الحي ، كانت السكيرات امثالها يقلن انها تشرب الآن لتتعزى عن انهيار ابنتها وهي نفسها ، حين تحتسي كأس الخمر على المنضدة كانت تكسب وجهها هيئة المأساة وتقذف الخمرة في جوفها متمنية ان تميتها وفي الايام التي تعود فيها الى البيت مدورة كالأتان كانت تقول متلعثمة ان هذا ناتج عن الحزن . ولكن الناس الفضلاء كانوا يهزون اكتافهم ؛ فهم يعرفونها ، انها تسكر على حساب الحزن ، وعلى كل حال ، فان هذا كان يدعى حزناً في قنينة . ومما لا شك فيه انها في بادىء الامر لم تستسغ هرب نانا ، اذ تمرد ما بقي عندها من فضيلة ؛ وبشكل عام ، فليس هناك ام تحب ان يقال ان ابنتها تستسلم لأول آت . ولكنها كانت متبلدة كثيراً ، مريضة الرأس ، مسحوقة القلب فلا تحتفظ طويلاً بهذا العار . ولم تكن تهتم بمن يدخل ويخرج . وظلت على خير حال طوال ثمانية ايام دون ان تفكر بداعرتها . وفجأة ، يستولي عليها حنو او غضب ، وتكون مرة على الطوى ، ومرة كيسها مليء ، وتحدو بها حاجة غاضبة لتقبض على نانا في احد الامكنة ، وربما تعانقها او تضربها حسب رغبتها الآنية . وكانت تنتهي الى ان لا يبقى عندها اية فكرة واضحة عن الفضيلة . الا ان نانا لها ، أليس كذلك ؟ اذن ، حين يكون للمرء ملك فانه لا يريد ان يراه يتبخر .

وحين تنتاب جرفيز هذه الافكـــار تتطلع في الشوارع بعيني دركي . آه ! لو اتيح لها ان ترى قذارتهـــا لرافقتها الى البيت . كانوا في تلك السنة قد قلبوا الحي رأساً على عقب وشقوا شـــارع ماجنتا وشارع اورنانو اللذين كانا يحملان حاجز بواسونيير القديم ، وخرقوا الشارع الخارجي . حتى ان المعالم قد اختفت ولم تعد تُعرف والآن نستطيع ان نرى من شارع القطرة الذهبيـــة فجوة فسيحة مضاءة ، شعاع شمس وهواء حراً ؛ وفي مكان المساكن الحقيرة التي كانت تحجب النظر في تلك الجهة ارتفع في شارع اورنانو بنـــاء حقيقي ، بيت بست طبقات ، منحوت كالكنيسة ، ونوافده المضيئة ، المغطاة بستائر مطرزة ، تشعر بالغنى . وذلك البيت الابيض القائم في وجه الشارع تمامـاً يبدو انه ينيره بصف من الأضواء . وحتى هذا كان يثير الخصام كل يوم بين لانتيـه وبواسون . فصانع القبعات كان يسهب بالكلام عن خراب باريس ، ويتهم الامبراطور ببناء القصور في كل مكان ليطرد العمال الى الارياف . والشرطي الشاحب الوجـه من الغضب البارد كان يجيب العكس ، فالامبراطور يفكر بالعمال قبـل كل شيء . وهو يهدم باريس اذا لزم الامر في سبيل هدف واحـد ، هو ان يجد لهم عملا وجرفيز نفسها بدت قلقة من هذه التجميلات الـــتي ستزعج الزاوية السوداء من الضاحية التي اعتادت عليها . ونتج قلقها عن ان الحي اخذ يتجمل ساعة مالت هي الى الخراب والمرء حين يكون غارقاً في القذارة فيجب الا يتلقى شعاعـاً على رأسه . وكذلك ، ففي الايام التي كانت تبحث فيها عن نانا كان يغضبها ان تقفز فوق المواد ، وان تغوص في الوحل على طول الأرصفة التي هي قيـــد البناء ، وان تصطدم بالحواجز لقد اثارت غضبها ابنية شارع اورنانو الجميـلة ، لان ابنية كهذه هي للفاسقات امثال نانا

وقد تلقت اخباراً عن الصغيرة عدة مرات. فهناك دائماً ألسنة حسنة تكون متعجلة لتقدم اليك تحية سيئة . نعم ، فقد روي لها ان الصغيرة تركت رجلهـا الهرم ، وهي ضربة جميلة لفتاة دون تجربة لقد كانت على خير حال عند ذلك الهرم ، مدللة ، معبودة ، وحرة ايضـاً لو عرفت ان تتصرف بمهـارة . ولكن

الشباب احمق . ويجب ان تكون قد ذهبت مع احد الفتيان المتظرفين ، ولا يُعرف بالضبط . أما ما يبدو اكيداً فهو انه بعد ظهر احد الايام ، وفي ساحة الباستيل ، طلبت من عجوزها ثلاثة فلوس لحاجة صغيرة ، وان العجوز لا يزال بانتظارها . وهذا يسمى البول على الطريقة الانكليزية في افضل المجتمعات . ويقسم اشخاص آخرون انهم رأوها منذ مدة ترقص في « صالة الجنون الكبرى» في شارع لاشابيل. وكان ان فكرت جرفيز آنذاك ان تختلف الى حانات الحي. ولم تكن تمر امام باب مرقص دون ان تدخل ، وكان كوبو يرافقها . وكانا أولاً يقومان بدورة على القاعات، متصفحين وجوه النساء الساقطات اللواتي يرقصن . ثم جلسا ذات مساء الى طاولة ، وكان معهما نقود ، فشربا خمراً على الطريقة الفرنسية بحجة استعادة النشاط والانتظار اذا كانت نانا ستأتي وفي نهاية الشهر نسيا نانا ، واصبحا يدفعان ثمن الخمرة في الحانة لمجرد سرورهما ، ويحبان النظر الى الرقص . ويظلان طوال ساعات ، دون ان يتحدثا بشيء ، ومرافقهما على الطاولة ، مشدوهين بين اهتزاز الالواح الخشبية ، متسلين دون شك بأن يتبعا بأعينهما الشاحبة تصدع الحاجز ، في اختناق وضوء القاعة الأحمر .

وفي مساء من تشرين الثاني ، دخلا الى «صالة الجنون الكبرى» طلباً للدفء. كان في الخارج برد خفيف يقطع وجوه المارة . ولكن القاعة كانت ملأى وفي الداخل قرقرة ورعد ، واناس على جميع الطاولات ، واناس في الوسط ، واناس في الهواء ، كومة حقيقية من لحم الخنزير نعم ، ان اولئك الذين يحبون الامعاء على نسق كان *Caen* يستطيعون الشبع وحين دارا مرتين دون ان يجدا منضدة ، قررا البقاء واقفين بانتظار ذهاب بعض الناس وكان كوبو يترنح على رجليه ، ببلوزة قذرة ، وقبعة قديمة من القماش بدون حافة ، مسطحة في قمة الرأس وبما انه كان يسد الممر فقد رأى شاباً صغيراً هزيلاً يمسح كم سترته بعد ان دفعه بمرفقه ، فصرخ غاضباً ، ساحباً غليونه من فمه الاسود

— قل اذن ! الا تستطيع ان تطلب الصفح ؟ وقد قرفت ايضاً لانني ارتدي بلوزة !..

فالتفت الشاب واخذ يقيس بنظره عامل الزنك الذي تابع

– تعلّم ان البلوزة هي اجمل الملابس . نعم ، ملابس الشغل ... انا سأمسح لك اذا اردت ، بصفعتين وهل هنال من رأى خالات بهذا الشكل يوجهن الاهانة الى عامل ؟

وحاولت جرفيز عبثاً ان تهدئه . فقد كان منبسطاً في اسماله ، ضارباً على بلوزته ، صائحاً

– هنا ، يوجد صدر رجل !

عندئذ اختفى الشاب بين الجمهور متمتماً

– يا له من صعلوك قذر !

واراد كوبو اللحاق به

في اغلب الاحيان حين كانت تداعبه سترة،لم يكن يثأر فقط، بل كان يعتبرها فرصة ليوجه الى نفسه نظر امرأة دون ان يدفع سنتيماً سيجعله يركع حين يجده ليقدم التحية للبلوزة ولكن ضيق النفس كان شديداً وليس السير بمستطاع. وكان هو وجرفيز يدوران متمهلين حول حلقات الرقص ؟ وكان هناك ثلاثة صفوف من الفضوليين يزحم بعضهم بعضاً ، وتتوهج الوجوه حين يستلقي رجل او تظهر امرأة ساقها وهي ترفعه ؛ وبما انهما قصيرا القامة فقد كانا يقفان على رؤوس اصابعهما ليريا شيئاً ، الشعر والقبعات الواثبة ، والاوركسترا بآلتها النحاسية المشققة كانت تعزف رباعية بكثير من الحماسة ، انها عاصفة كانت القاعة ترتج منها بينما يثير الراقصون ، وهم يضربون بأرجلهم ، غباراً يثقل توهج الغاز . وكان الحر قاتلاً .

وقالت جرفيز فجأة

– انظر اذن .

– ماذا ؟

– قبعة مخملية هناك .

واستطالا كانت الى الناحية اليسرى قبعة قديمة من المخمل الاسود، تتأرجح

عليها ريشتان باليتان ، ريشة حقيقة لمركبة موتى . ولكنهما لم يكونا يشاهدان بشكل دائم سوى هذه القبعة ، راقصة رقصة جميـــع الشياطين ، واثبة ، مزوبعة ، غاطسة ، متفجرة . وكانوا يضيعونها بين بعثرة الرؤوس الهـائجة ثم يجدونها تتأرجح فوق غيرها بوقاحة غريبة بحيث ان الناس حولهم كانوا يزحمون ولا عمل لهم سوى النظر الى تلك القبعة وهي ترقص، دون ان يعرفوا ما تحتها

وسأل كوبو

– وبعد ؟

فتمتمت جرفيز مختنقة

– الم تعرف هذا الشعر ؟ اراهن بقطع رأسي انها هي

وبدفعة واحدة فرق عامل الزنك الجمهور واسم الله ! نعم ، انهـا نانا ، وبزينة جميلة ايضاً ! لم يكن عليها سوى ثوب قديم من الحرير ملطخ بالزفت من جراء مسح مناضد مقاهي الطبقة الدنيا ، وقد انتزعت دوائره وانتشرت في كل مكان ، وليس على كتفهـــا اي شال ، مظهرة صدرها العـــاري بسبب العرى التالفة وكان يقال انه كان لهذه الحقيرة رجـل عجوز يعتني بهـا جيداً ، وانها تركته لتلحق بأحد الفتيان التـافهين الذي يضربها . الا انها ظلت ناضرة ، حلوة ، مشعثة الشعر ككلب ذي وبر طويل بجعد ، وفمها وردي تحت قبعتها الكبيرة .

وقال كوبو

– انتظري ، سأجعلك ترقصين

ومن الطبيعي ان نانا لم تكن متحذرة كانت تتلوى ، وتضرب بمؤخرتهـــا يميناً ، وتضرب يساراً ، وتقوم بانحناءات تطويها نصفين ، وتضرب بقدميهاوجه فارسها كأنها تكاد تنشق ! وقد احيطت بدائرة ، وصفقوا لهـــا ، والتقطت تنورتها وهي مندفعـــة ، وشمرتها الى الركبتين ، متأثرة من اهتزاز الرقص ، مهتاجة ودائرة كالدوامة ، ساقطة على الارض في الانحرافات الكبيرة التي تسطحها ، ثم تعود الى رقصة صغيرة محتشمة مـع دوران الخصر والعنق باناقة مذهلة . ان

هذا يدفع الى حملها الى احدى الزوايا وا كلها بالمداعبات .

الا ان كوبو ارتمى في حلبة الرقص مشوش الوجه ، متلقياً الكلام اللاذع . وكان يصيح

– اقول لكم انها ابنتي . دعوني امر .

وكانت نانا تتقهقر كانسة الأرض بريشها ، مكورة مؤخرتها وهي تهزها هزاً خفيفاً لتكون اكثر لطافة وتلقت ضربة حذاء محكمة في المكان المناسب تماماً. فنهضت وقد شحب لونها حين عرفت اباها وامها ليس هناك حظ !

وصاح الراقصون :

– اخرجا .

ولكن كوبو الذي رأى في فارس ابنته ذلك الشاب الهزيـــل ذا السترة لم يهتم بالناس وصاح

– نعم ، هذا نحن . ها ! لم تكوني تنتظرين ... آه ! اذن هنا يقرصونك. ومع ذلك ، فهذا الفر الذي اهانني منذ لحظة .

ودفعته جرفيز وهي تصر على اسنانها وتقول :

– اسكت ، لا حاجة لكثير من الايضاح .

وتقدمت وصفعت نانا صفعتين باحكام فألقـــت الاولى القبعة ذات الريش جانباً ، وظلت الثانية مطبوعة بالاحمر على الخد الابيض الذي يشبه قطعة بياض. وتلقتهما نانا الرعناء دون ان تبكي ، ودون عصيــان . وكانت الاوركسترا مستمرة . وغضب الجمهور واخذ يردد بعنف

– اخرجا ! اخرجا !

فقالت جرفيز .

– هيا ، سيري . امشي امامنا ! .. لا تحــاولي الهرب والا جعلتك تنامين في السجن .

وكان الشاب الصغير قد اختفى . وعندئذ مشت نانا في المقدمة ، ولا تزال

في حالة ذهول من حظها السيء وحين كان العبوس يظهر على وجهها فان ضربة من الوراء كانت تضعها في طريق الباب وهكـذا خرج الثلاثة وسط مزحات وصراخ القاعة الهازىء ، بينما انهت الاوركسترا الرقص بهزيم رعد بـدت فيه الابواق كأنها القنابل .

وعادت الحيـاة سيرتها الاولى . وبعد ان نامت نانا اثنتي عشرة ساعة في غرفتها الصغيرة القديمة ابدت كثيراً من اللطف طوال اسبوع . وكانت قد رتقت ثوباً صغيراً متواضعاً ، واعتمرت قلنسوة تعقد اشرطتها تحت شعرها من الوراء، واجتاحتها عاطفة طيبة فصرحت انها ستشتغل في البيت . والمرء باستطاعته ان يربح ما يشاء في بيته ، ثم انهـا تبعد سمعها عن قذارة المشغل . وبحثت عن شغل ، وجلست الى منضدة مع ادواتها ، ناهضة في الساعة الخامسة لتفتل سوق البنفسج ، وذلك في الايام الاولى ، ولكنها كانت حين تنهي بعض الدزينـات منها تلتوي يداها من التعب ، ونسيت عادة صنع هذه السوق ، مختنقة لبقائهـا محتجزة ، هي التي ظلت في مجرى هواء جميل طوال ستة اشهر وهكـذا جف وعاء الصمغ ، ونال التويجات والورق الاخضر بقع شحم وجاء صاحب العمل ثلاث مرات بنفسه فاحدث مشاجرة وقال ان ما قدمه من مواد قد اصابهـا التلف وكانت نانا تتلقى الاهانات من ابيها ، وتتعارك مع امهـا صباح مساء مشاجرات كانت المرأتان فيها تفحشان القول . وهذا لا يمكن ان يدوم. ففي اليوم الثاني عشر رحلت الابنة حاملة امتعتها المؤلفة من ثوب متواضع على جسدها وقلنسوتها على اذنيها اما آل لوريللو الذين ساءتهم عودة الفتاة وتوبتها فقد استلقوا على ظهورهم وكادوا يموتون من الضحك مشهد تمثيلي ثان ، كسوف نمرة ثانية ، الآنسات الى سان لازار بالعربة ! كلا ، هذا مضحك جـداً . لقد كانت نانا مضطرة الى الهرب . واذا اراد آل كوبو الاحتفاظ بها فما عليهم الا ان يضعوها في قفص .

وكان آل كوبو يتظاهرون امام الناس انهم تخلصوا منها اما في سريرتهم فكانوا غاضبين . ولكن زمن الغضب قصـير . واصبحوا يعلمون ان نانا تجول في

الحي دون ان تطرف عيونهم . وجرفيز الـــتي كانت تتهمها بأن فعلتها تلوث شرفهم ترفعت عن الاقاويل ، واصبح باستطاعتها ان تلتقي بابنتهـا في الشارع دون ان تلوث يدها بصفعها نعم ، هذا أمر قد انتهى ، ولو وجدتها تموت على الارض وجثتها على البلاط لمرت دون ان تقول ان هــذه الابنة خرجت من احشائها . وكانت نانا تبعث الحياة في جميع الحفلات الراقصة في الجوار . وكانوا يعرفونها من صالة « الملكة البيضاء » حتى « صالة الجنون الكبرى » . وحين تدخل الى « الاليزه – مونمارتر » كانوا يصعدون على الطاولات ليروها وهي تقوم في الرقص بدور السرطان الشاخر . وبما انها طردت مرتين من « القصر الاحمر » فقد كانت تجول امام الباب فقط منتظرة اشخاصاً تعرفهم أمـــا « الكرة السوداء » على البولفار ، و «سلطان الترك» في شارع بواسونيير فكانتا قاعتين ممتازتين تذهب نانا اليهما حين يكون معها نقود . ولكنها من بين جميع حانات الحي كـــانت تفضل حانة « رقص الصومعة » في باحـــة رطبة ، و « رقص روبير » في طريق كادران ، وهما صالتان صغيرتان نتنتان تنيرهما نصف دزينة من القناديل ، وفيهما سرور وحرية بحيث يتعانق الفرسان والسيدات دون ان يزعجهم احد وكان لنانا ارتفاع وهبوط ، وضربات عصا حقيقية ، تارة مجهزة كامرأة انيقة ، وطوراً تكنس الاقذار كغاسلة مطبخ ! آه ! انها تحيا حياة جميلة ؟

وقد رأى آل كوبو ابنتهم عدة مرات في أماكن غـــير نظيفة ، فأداروا ظهورهم وساروا من الناحية الاخرى لئلا يضطروا الى معرفتها وليس من اللائق ان تسخر منهم صالة بكاملها ليعيدوا الى بيتهم قذارة كهذه . ولكن ذات مساء ، وحوالي الساعة العاشرة ، بينما كانوا نائمين ، طرق البـــاب . لقد كانت نانا ، وقد جاءت بكل اطمئنان تريد ان تنـــام . وبأية حالة ! عارية الرأس ، بثوب ممزق ، وحذاء مطوي الى الداخل ، وزينةٍ لتلتقط وتلقى في المستودع . ومن الطبيعي ان تتلقى عدة ضربات ، ثم انقضّت بنهم على كسرة خبز يابسة ، ونامت منهوكة مع آخر لقمة بين اسنانها وعندئذ تابعت الحيـــاة

سيرها . وحين شعرت بشيء من التحسن تبخرت ذات صباح دون ان يراها او يعرفها احد . لقد ذهب العصفور . ومضت اسابيع ، وشهور وما ان يُظن انها ضاعت حتى تعود فجأة الى الظهور دون أن تقول من اين اتت ، وفي مرات تكون قذرة حتى ليتعذر التقاطها بملقط ، مخدشة الجسد من اعلى الى أسفل ، وفي مرات اخرى تكون على خير حال ، ولكنها مسترخية فارغة بسبب الفسق بحيث لا تستطيع الوقوف . واعتاد الاهل على ذلك ولم تكن الضربات تؤثر بها . وكانوا يرفسونها ولكن هذا لم يمنعها من ان تتخذ البيت كفندق تنام فيه اسبوعياً . وكانت تعرف انها تدفع اجرة سريرها توبيخاً ، وكانت تتعافى وتأتي لتتلقى التوبيخ اذا كان فيه ربح لها . الا انهم تعبوا من الضرب ، وانتهى آل كوبو الى القبول بمجيء نانا . تعود الى البيت او لا تعود . بشرط الا تترك الباب مفتوحاً ، وكان هذا يكفي يا إلهي ! ان العادة تبلي الفضيلة كالاشياء الاخرى .

وهناك شيء واحد يخرج جرفيز عن طورها ، هو عندما تظهر ابنتها بأثواب ذات ذيل وقبعات مغطاة بالريش . كلا ، فهذه الفخفخة لا تستطيع قبولها . لتفسق نانا اذا ارادت، ولكن حين تأتي الى عند امها يجب ان ترتدي كما ترتدي العاملة على الاقل . والاثواب ذات الذيل كانت تحدث ثورة في البناية آل لوريللو يضحكون ، ولانتيه بدافع المرح يدور حول الصغيرة يشم رائحتها الطيبة وآل بوش منعوا بولين من معاشرة هذه الفلاحة الشمالية ذات الاثواب المزخرفة . وكانت جرفيز تغضب ايضاً من استغراق نانا في النوم حين تنام بعد احدى عمليات هربها حتى الظهر ، مكشوفة الصدر ، وشعرها مشوش لا يزال مليئاً بالدبابيس ، كثيرة الشحوب ، تتنفس تنفساً قصيراً بحيث تبدو ميتة . وكانت تهزها خمس أو ست مرات في الصباح ، وتهددها بأن تسكب على بطنها وعاء ماء . ان تلك الفتاة الجميلة ، الكسولة ، نصف العارية ، المشبعة بالعيب كانت تثير سخطها من قيامها بعملية الحب هكذا بحيث يبدو لحمها منتفخاً ولا تستطيع ان تستيقظ . وكانت نانا تفتح عينيها وتغمضهما ، وتزداد تمدداً .

وذات يوم ، فان جرفيز التي كانت توبخها بقساوة على حياتها وتسألها اذا كانت تقضي ليالي حمراء لتعود الى البيت محطمة الى هذه الدرجة ، نفذت اخيراً تهديدها وهزت يدها المبللة على جسدها ففضبت الصغيرة ولفّت نفسها بالغطاء صارخة

– يكفي ، اليس كذلك يا امي ؟ لندع الحديث عن الرجال ، فهذا افضل . لقد فعلتِ ما تريدين وانا أفعل ما اريد .

فتلجلجت الام

– كيف ؟ كيف ؟

– نعم ، لم اكلمك عن ذلك ابداً لان هذا لا يعنيني ولكن لا تقلقي ، فقد كنت اراك وانت تتنزهين غالباً بالقميص ، تحت ، حين يكون ابي نائماً هذا لا يعجبك الآن ، ولكنه يعجب الآخرين . دعيني بسلام ويجب الا تعطيني مثلا

وظلت جرفيز شاحبة ، مرتجفة اليدين ، تدور دون ان تعرف ماذا تفعل ، بينما كانت نانا تضع عنقها على الوسادة بين ذراعيها لتعود الى خدر ذلك النوم العميق .

وكان كوبو يدمدم الا انه لم يفكر بالضرب ، فقد اضاع صوابه تماماً . والحقيقة ، لم يكن هناك ما يؤاخذ عليه كأب بدون اخلاق لان الشراب نزع منه كل شعور بالخير والشر

والآن ، وقد سوي الامر ، لم ينقطع عن الشراب طوال ستة اشهر ، ثم سقط ودخل الى مأوى القديسة آنّ ، وهو قسم من الريف له . اما آل لوريللو فكانوا يقولون ان السيد الدوق دي تور ـ بوبو عاد الى املاكه . وبعد بضعة اسابيع كان يخرج من المأوى مرمماً ، مسمراً ثانية ليعود الى هدم نفسه ، الى اليوم الذي يصبح فيه بحاجة الى ترقيع ، بعد ان يسقط ارضاً . وفي مدى ثلاث سنوات دخل سبع مرات الى مأوى القديسة آن . وكان اهالي الحي يقولون انهم يحتفظون له بغرفته هناك . ولكن افظع ما في القصة هو ان السكير العنيد

كان يزداد تحطماً كل مرة بحيث يصبح بالامكان توقع حدوث الوثبة النهائية وهو يسير مـن سيء الى اسوأ ، وتوقـع القضقضة الاخيرة لهذا البرميل المريض الذي تتشقق اطاراته الواحد بعد الآخر

ومع هذا ، فقد كان ينسى ان يصلح من شأنه ، كأنه طيف خيال ! فقد فعل السم فعله فيه بقساوة، وتغضن جسده المشبع بالكحول كالأجنة التي توضع في اوعية عند الصيادلة . وحين يقف امام نافذة كان النهار يُرى مـن خـلال ضلوعه لشدة هزاله. الخدان متقمران، والعينان مقرفتان، يسيل منهما من الشمع ما يكفي لتمويل كنيسة ، ولم يكن يحتفظ بسوى انفه المزهر ، الجميل الاحمر ، الشبيه بقرنفلة في وسط وجهه المخمور الخرب واولئك الذين يعرفون عمره ، وقد اشرف على الاربعين ، يشعرون برعشة خفيفة حين يمر ، منحنياً ، مترنحاً ، هرماً كالشوارع وقد تضاعف اهتزاز يديه . ويده اليمنى على الخصوص كانت ترتجف كملاقة في سلسلة. حتى انه يضطر في بعض الايام الى امساك كأسه بكلتا يديه ليحمله الى شفتيه . اوه ! هذه الرجفة ! انها الشيء الوحيد الذي لا يزال ينكد عليه وسط زريبته العمومية ! وكان يدمدم بتجديفات عنيفة ضد يديه . وفي مرات اخرى كان يظل طوال ساعات وهو يتأمل يديه اللتين ترقصان ، وينظر اليهما وهما تثبان كالضفادع ، دون ان يقول شيئاً ، ولا يبدو غاضباً الا انه يبدو باحثاً عن اي جهاز آلي داخلي استطاع ان يعمل منهما لعبة بهذا الشكل . وذات مساء وجدته جرفيز هكذا وتسيل دمعتان كبيرتان على خديه المحروقين ، خدي السكير .

والصيف الاخير ، حيث كانت نانا تقضي عند اهلها بقايا لياليها ، كان سيئاً جداً بالنسبة لكوبو فقد تغير صوته تماماً كما لو ان الوتر الرباعي وضـع موسيقي جديدة في حنجرته . واصبح اصم من اذن واحدة . ثم ضعف بصره في بضعة ايام ، واصبح بحـاجة الى الامساك بحاجز الدرج اذا لم يشأ ان يتدحرج . اما صحته فقد كانت ترتاح كما يقال وكـانت آلام رأسه شديدة بحيث ان الدوار يجعله يرى ستاً وثلاثين شمعة وفجأة ، احس بآلام

حادة في ذراعيه وفي ساقيه . حتى انه ، بعد احدى هذه النوبات كان يظل مشلول الذراع طول النهار وقد لزم الفراش عدة مرات وكان يتكوم ، ويختبىء تحت الغطاء ويتنفس تنفساً قوياً ومستمراً لحيوان يتعذب وعندئذ يعاوده جنون مأوى القديسة آن ، ويبدو حذراً ، قلقاً ، معذباً بحمى شديدة ويتقلب في هياج مجنون ، ويمزق بلوزته ، ويعض على الاثاث بفكه المتشنج . او يرق قلبه فيجأر بشكوى فتاة ، منتحباً ، شاكياً بأن احداً لا يحبه وذات مساء ، وقد عادت نانا وجرفيز الى البيت معاً ، لم يجداه في سريره ، فقد وضع الوسادة مكانه . وحين اكتشفاه مختبئاً بين السرير والجدار ، صر بأسنانه وقال ان رجالاً سيأتون لقتله . فاعادته المرأتان الى سريره وطمأناه كطفل .

ولم يكن كوبو يعرف سوى دواء وحيد ، هو ان يشرب كأسه فضربة عصا في معدته تجعله ينتصب واقفاً . وكان كل صباح يشفي نخامه بهذه الطريقة . وذاكرته ذهبت منذ وقت طويل ، وجمجمته اصبحت فارغة وما ان يرى نفسه منتصباً على قدميه حتى يهزأ بالمرض انه لم يكن مريضاً ابداً . نعم ، لقد وصل الى هذه الدرجة بحيث يشرف على الموت ويقول انه على خير حال . وكان يغيب وعيه عن كل شيء وحين كانت نانا تعود الى البيت بعد ستة اسابيع من النزهة ، كان يعتقد انها عائدة من مهمة في الحي وفي اغلب الاحيان تلتقي به متعلقة بذراع رجل ، فتهزأ منه دون ان يعرفها . واخيراً لم يعد له أي حساب ، حتى انها تجلس عليه ان لم تجد كرسياً

وفي أول البرد هربت نانا مرة اخرى متذرعة بالذهاب الى بائعة الفاكهة لترى اذا كان لديها اجاص ناضج . فقد احست بالشتاء ولا تريد ان تصطك اسنانها أمام الموقد المنطفىء وكان آل كوبو ينعتونها بكل بساطة بالتافهة ، فهم لا يزالون بانتظار الاجاص وسوف تعود دون شك . وفي الشتاء الماضي ظلت ثلاثة اسابيع وقد نزلت لتشتري تبغاً بفلسين . ولكن الأشهر مرت والصغيرة لم تظهر . لقد اضطرت هذه المرة ان تعدو بعيداً وحين جاء حزيران لم تعد ايضاً مع عودة الشمس . بالتأكيد لقد انتهى كل شيء ، فقد وجدت خبزاً

ابيض في أحدى النواحي وباع آل كوبو في أحد ايام الشقاء سرير الابنة الحديدي بستة فرنكات مستديرة شربوا بها في سان - اوان . لقد كان هذا السرير يضايقهما

وذات مساء من تموز كانت جرفيز تمر فنادتها فرجيني ورجتها ان تساعدها على غسل الصحون لان لانتيه اتى البارحة باثنين من اصدقائه لتناول الطعام . وبينما كانت جرفيز تغسل صحوناً ملأى بالدهن من وليمة صانع القبعات ، وكان هذا لا يزال يهضم طعامه في الدكان ، اذ صاح فجأة

- الا تدرين ايتها الأم ؟ لقد رأيت نانا البارحة .

وكانت فرجيني جالسة الى المنضدة مثقلة بالهم امام الآنية والادراج التي اخذت تفرغ ، وتهز رأسها بغضب . وكانت تمسك نفسها لئلا تنهار لان الأمر يُشعر بالسوء كان لانتيه يرى نانا في اغلب الاحيان . اوه ! لم يكن عليها ان تضع يدها في النار ، لانه كان رجلاً يفعل السوء حين تخب تنورة في رأسه . ومدام ليرا التي دخلت في تلك اللحظة ، وهي على علاقة وثيقة بفرجيني لانها تتلقى منها الاعترافات ، اطالت شفتيها بشكل مرح وسألت

- في اي اتجاه رأيتها ؟

فاجاب صانع القبعات متبجحاً ، ضاحكا ، لامساً شاربيه

- اوه ! في الاتجاه السليم كانت في عربة ؛ وكنت سائراً في الشارع . صحيح ، واقسم لكنّ لم يكن هناك ما يدعو للدفاع فأبناء العائلات الذين يرفعون معها الكلفة سعداء جداً

وتألقت نظرته ، والتفت نحو جرفيز الواقفة في داخل الدكان تنشف صحناً كبيراً .

- نعم ، كانت في عربة ، بزينة انيقة ! .. لم اعرفها لانها تشبه سيدة من الطبقة العليا ، الاسنان بيضاء في وجهها النضر كالزهرة وقد اشارت الي بقفازها ... كانت مع فيكونت كما اعتقد . اوه ! لقد تقدمت ! بامكانها أن تهزأ بنا جميعاً . هناك سعادة فوق رأس هذه الصعلوكة .. حب الهر الصغير !

كلا ، ليس لديكن فكرة عن هر صغير كهذا !

وكانت جرفيز لا تزال تمسح الصحن مع انه اصبح نظيفاً ولامعاً منذ زمن . وكانت فرجيني تفكر ، قلقةً بسبب سندين لا تعرف كيف تدفعهما غداً بينما لانتيه الضخم السمين يرشح بالسكّر الذي تغذى به ويمتلىء حماسة للبقايا القليلة الموجودة في دكان البقالة التي أكل ثلاثة ارباعها واصبحت تفوح منها رائحة الخراب . نعم لم يعد هناك سوى بضع حبات ملبس على لوز يقضمها ، وبعض قطع من السكر المعجون بماء الشمير يمصها حتى ينظف تجارة آل بواسون . وفجأة شاهد على الرصيف المقابل الشرطي الذي يقوم بوظيفته ، وكان يمر مستتراً وسيفه يضرب فخذه ، فازداد بهجة وطلب من فرجيني ان تنظر الى زوجها وتمتم :

– آه ! ان لبادنغ رأساً حسناً هذا الصباح ! انتبهي انه يحصر إليتيه كثيراً. وعليه ان يلصق عيناً من زجاج في احدى النواحي ليفاجىء جماعته .

حين صعدت جرفيز الى بيتها ألفت كوبو جالساً على حافة السرير ، في بلاهة احدى نوباته كان ينظر الى البلاط بعينيه الميلتين وعندئذ جلست على كرسي ، محطمة الاعضاء ويداها ملقاتان على طول تنورتها القذرة . وظلت ربع ساعة امامه دون ان تقول شيئاً .

وتمتمت اخيراً

– لدي اخبار . فهناك من رأى ابنتك .. نعم ، ابنتك في منتهى الاناقة وليست بحاجة اليك انها سعيدة جداً آه ! يا رب الارباب ! اني أبذل جهدي لأكون مكانها

وكان كوبو لا يزال يتطلع الى البلاط . ثم رفع وجهه المضطرب وضحك ضحكة بلهاء وقال متلعثماً

– قولي اذن يا غزالتي ، لن امسك بك انت لست كثيرة القبح حين تغسلين وجهك . وانت تعلمين ، كما يقال ، بأن ليس هناك طنجرة قديمة لا تجد غطاءً لها ... واسم السيدة ! اذا كان هذا يأتيك بفائدة !

١٢

يجب ان يكون ذلك قد جرى نهار سبت بعد موعد قبض الاجـــرة ، في الثاني عشر او الثالث عشر من كانون الثاني ، وجرفيز لم تكن تعرف بالضبط . فقد فقدت الادراك لأن قروناً قد مضت دون ان تضع شيئاً حاراً في جوفها . آه ! ياله من اسبوع جهنمي ! انه جرف كامل ، رغيفان وزنها اربع ليبرات نهار الاثنين داما حتى نهار الخميس ، ثم كسرة خبز يابسة وُجدت في المساء . انهـا ست وثلاثون ساعة دون اية فتيتة . رقص حقيقي امام خزانة الطعام ! اما مـا كانت تعرفه ، ومـــا تشعر به على جسدها ، فهو طقس الكلب ، برد اسود ، وسماء ملوثة كمقعد الوجاق ، مثقلة بثلوج تأبى ان تتساقط . وحين يجتمع الشتاء والجوع في الامعاء ، فبالامكان شد الحزام ولكن هذا لا يغذيك ابداً .

ربما جاء كوبو في المساء ببعض النقود . كان يقول انـــه يشتغل . كل شيء ممكن ، اليس كذلك ؟ وجرفيز التي وقعت في هذا الفـخ مرات عديدة انتهت الى الاعتماد على تلك النقود لأنها لم تجـد ممسحة للغسيل في الحي بعد جميع انواع الاعذار حتى ان سيدة هرمة كانت تنظف لها بيتها ، طردتها خارجاً واتهمتها بشرب كحولها . لم يكن يقبلها احد في اي مكان، فقد احترقت وهذا ما لامها في سريرتها لانها انحدرت الى تلك الدرجة من الخبـل حيث اصبحت تفضل ان تموت على ان تحرك اصابعها العشرة واخيراً ، ستأكل شيئاً حاراً اذا جاء كوبو بأجرته . وبانتظار ذلك ، وبما ان ساعة الظهر لم تدق بعد ، فقد ظللت ممددة

على فراش القش لأن المرء حين يتمدد يصبح اقل جوعاً واقل برداً

كانت جرفيز تسمي ذلك فراشاً من قش ؛ ولكنه بالحقيقة ليس سوى كومة من القش في زاوية فقد ذهب النوم شيئاً فشيئاً الى باعة الحي . اذ فتقت الفراش اولاً في ايام الحالة المؤسفة . وكانت تأخذ منه قبضات من الصوف تحملها في مريلتها وتخرج وتبيع الليبرة منها بعشرة فلوس، في شارع بلهوم. ولما فرغ الفراش باعت القماش بثلاثين فلساً ذات صباح لتدفع ثمن القهوة والوسادة تبعت ذلك ، ثم المخدات . وظل خشب السرير الذي لا تستطيع وضعه تحت ابطها بسبب آل بوش الذين يثيرون البناية اذا رأوا ضمانة صاحب الملك تطير . ومع ذلك فقد راقبت آل بوش ذات مساء اثناء تناولهم الطعام ، وساعدها كوبو ، فنقلت السرير بطمأنينة ، قطعة قطعة ، الاطراف ، والمساند ، والاطار . وبالفرنكات العشرة التي قبضاها ثمن كل ذلك انفقا ثلاثة ايام . الا يكفيهم القش ؟ حتى القماش فقد راح ينضم الى قماش الفراش ؛ وهكذا انهوا اكل نومهم، مستسلمين الى عسر هضم الخبز بعد جوع شديد استمر اربعاً وعشرين ساعة . وكان القش يُدفع بالمكنسة ويعود الغبار دائماً وليس هذا اكثر قذارة من غيره .

كانت جرفيز جاثمة على كومة القش كاسورة البندقية بملابسها ، وقد وضعت رجليها تحت تنورتها البالية لتنال المزيد من الدفء وكانت مكومة ، مفتوحة العينين ، تجيل في راسها افكاراً ليست عجيبة في ذلك النهار . آه ! كلا ، ليس بالامكان ان يستمر العيش هكذا بدون طعام ولم تكن تشعر بجوعها ، فقط كان في معدتها رصاص ، بينما يبدو لها رأسها فارغاً . بالتأكيد ، ليس في زوايا البيت الاربع تجد مواضيع للمرح ! بيت كلب حقيقي حيث لا يمكن للكلاب السلوقية التي ترتدي المعاطف في الشوارع ان تسكنه . وكانت عيناها الشاحبتان تنظران الى الجدران العارية . لقد اخذت عمتي كل شيء منذ زمن طويل . وبقيت الخزانة ذات الادراج ، والطاولة، والكرسي ، ولكن الرخامة وادراج الخزانة تبخرت في نفس الطريق الذي تبخر به خشب السرير. لايمكن

للحريق ان ينظف اكثر من ذلك ، وذابت الاشياء الصغيرة ، ابتداء مـــن الساعة ، ساعة صغيرة باثني عشر فرنكا ، حتى صور العائلة ، اذ اشترت احدى البائعات أطرهـــا بائعة لطيفة حملت اليها طنجرة ومكواة ومشطاً فأعطتها خمسة فلوس وثلاثة فلوس وفلسين وفقاً للشيء ، اي مـا يحملها تصعد الى بيتها بقطعة خبز . اما الآن فلم يكن قد بقي سوى زوج قديم محطم من المقصّات رفضت البائعة ان تدفع فيها فلساً واحداً. اوه الو كانت تعرف لمن تبيع الاقذار ، والغبار ، والوسخ ، لفتحت دكاناً بسرعة لان الغرفة كانت ذات قذارة جميلة ! فلا يشاهد فيها سوى نسيج العناكب في الزوايا ، ونسيج العناكب يمكن ان يصلح للجراح ولكن ليس هناك تاجر يشتريه . وعندئذ زادت من انطوائها على القش ، وقد ادارت رأسها وتركت الامل بالتجارة وكانت تفضل ان ترى من النافذة السماء المثقلة بالغيوم ، ويوماً كئيباً يجمد مخ عظامها

ما اكثر الحماقات ! وما فائدة البقاء في كل هذه الحلات وعذاب الدماغ ؟ لو تستطيع النوم على الاقل ! ولكن بيتها يشغل بالها ، فالسيد ماريسكو صاحب الملك جاء بنفسه البارحة ليقول لهم انه سوف يطردهم اذا لم يدفعوا بدلي الاجار المتأخرين في مدى ثمانية ايام . سوف يطردهم ولن يكونوا في الشارع اكثر بؤساً ! اترون هذا القذر بمعطفه وقفازيه الصوفيين ، الذي يصعد ليكلمهم عـن بدلات الآجار كأن عندهم مبلغاً مدخراً مخبأ في احدى النواحي ! انه كحيوانها العديم التهذيب كـــوبو الذي لايستطيع العودة الى البيت دون ان يرهقها . انها تضعه في نفس المركز الذي تضع فيه صاحب الملك وفي هذه الساعة فان مكانه يجب ان يكون واسعاً جداً لانها كانت ترسل اليه جميع الناس ما دامت تريـد التخلص من الناس ومن الحياة . لقد اصبحت اهراء حقيقية من اللطمات . وكان يروّح بها عن زوجته انها ارتشاحات مقيتة كانت تخرج منها سباحة امـا هي فلم تكن كثيرة الطيبة اذا كانت تعض وتخدش . اذن كانا يترافسان في الغرفة الفارغة ، ويتبادلان ضرباً ينسيهم طعم الخبز . ولكنها كانت تنتهي الى عدم الاهتمام بالضرب المتواصل كما لا تهتم بغيره . وكان كوبو يستطيع ان يجعل

من الاثنين المقدس اسابيع كاملة ، ويطلق مذائف تدوم شهوراً ، ويعـود الى البيت مجنوناً من الشراب ويريد ان يضربها ، وقد اعتادت على ذلك ، واصبحت تجده مملاً ليس اكثر . وفي تلك الأيام كانت تضمه في مؤخرتها نعم ، زوجها الخنزير في مؤخرتهـا ! وآل لوريللو وآل بوش وآل بواسون في مؤخرتها ، وكذلك الحي الذي كان يحتقرها ! وقد دخلت كل باريس في هـذه المؤخرة ، وكانت تدخلها بضربة عليها وبحركة لامبالاة متناهية، فهي سعيدة ثأرت لنفسها بادخاله الى هناك .

ومن سوء الحظ ، فان المرء اذا اعتاد كل شيء فليس بامكانه الاعتيـاد على عدم الاكل . وكان هذا هو الأمر الذي يخيب جرفيز . لقـد كانت تسخر من كونها اخيرة الاخيرات ، في اعماق الساقية ، وان ترى النـاس يمسحون ايديهم حين تمر بقربهم ، فالتصرفات السيئة لم تكن تقلقها ابداً ، بينما الجوع الذي يلوي امعاءها . اوه ! لقد ودعت الصحون الصغيرة ، وانحدرت الى درجة التهام كل ما تجده . واصبحت ايام الحفلات عندها الآن هي الايام التي تشتري فيهـا من الجزار فضلات لحم بأربعة فلوس الليبرة بعد ان اسودت من بقائهـا في صحن ، وتضعها على شيء من البطاطا وتحركها في مقلاة . او انها تقطع قلب ثور وتجعل منه اكلة تلحس شفاهها بعدها . وفي مرات اخرى ، وحين يكون لديها نبيذ، كانت تشتري قطعـة خبز ، وحساء حقيقياً . بفلسين من جـبن ايطاليـا ، وبواسو [1] من التفاح الابيض ، وارباع من اللوبياء الجافـة المسلوقة بالعصير ، كانت ولائم لا تستطيع الوصول اليها في اغلب الاحيان . كانت تقع على الأطعمة الخليطة من اصناف متعددة (كطبيخ النوَر) ، او الفضلات بحيث يصبح لديها، بفلس ، اكوام من حسك السمك الممزوج ببقايا الشواء الفـاسد ثم زادت انحداراً ، فأخذت تتسول فتات موائد الزبائن عنـد صاحب مطعم محسن وتصنع خبزاً منقوعاً بالماء والزبدة بان تطبخه اطول وقت ممكن على موقـد

---

١ بواسو *Boisseau* : مكيال قديم للحبوب وغيرها ويسع نحو ١٣ ليتراً .

الجيران . وتوصلت في صباح ايام الجوع الشديد الى الطواف مع الكلاب باحثة على ابواب الباعة قبل مرور الكناسين ؛ وهكذا يصبح عندها احياناً طعام اغنياء ، وبطيخ اصفر متعفن، وسمك واضلاع كانت تتفحصها خوفاً من الذباب. نعم ، لقد وصلت الى هذه الحالة ؛ وانها لفكرة تبعث المترفين على التقزز ؛ ولكن اذا كان المترفون لم يأكلوا شيئاً منذ ثلاثة ايام فسنرى اذا كانوا يتمردون على بطونهم ؛ انهم سوف يدبون على أربع ويأكلون القذارات كرفاقهم . آه ! موت الفقراء ، الاحشاء فارغة تعوي من الجوع ، حاجة البهائم الصارّة بأسنانها والمتشبعة باشياء دنسة في باريس الكبرى المذهبة كثيراً والملتهبة كثيراً ! كانت جرفيز تسخر من المالئين بطونهم بالأوز السمين ! وتستطيع الآن ان تمسح انفها. وذات يوم سرق منها كوبو رغيفين ليبيعهما ويشرب بثمنهما ، وكادت تقتله بضربة بجرفة ، فقد كانت جائعة ، غاضبة بسبب سرقة تلك القطعة من الخبز .

الا انها نامت نوماً خفيفاً متعباً لكثرة ما تطلعت الى السماء الشاحبة . كانت تحلم بأن هذه السماء المحملة بالثلوج تهبط عليها لكثرة ما قرصها البرد وفجأة وقفت ، وقد استيقظت مرتجفة تنتابها رعشة شديدة من القلق يا الهي ! هل هي على وشك الموت ؟ وكانت ترتجف من البرد وتثرثر ، ورأت بأن الوقت لا يزال نهاراً . الا يأتي الليل اذن !.. ما اطول الوقت حين لا يكون في البطن شيء ! لقد استيقظت معدتها ايضاً واخذت تعذبها. وسقطت على كرسي منحنية الرأس ، ويداها بين ركبتيها لتدفئهما . وكانت قد عددت قبلاً اصناف طعام الغداء حين يأتي كوبو بالمال خبز ، ليتر نبيذ ، وجبتان مزدوجتان على الطريقة الليونية . ودقت الساعة الثالثة . وعندئذ بكت . لن تبقى لديها القوة لتنتظر حتى الساعة السابعة . كانت تشعر بارتجاف في كل جسمها ، ترنح فتاة تهدهد ألمها العظيم ، وهي منطوية الى نصفين ، تشد على معدتها لئلا تشعر بها . آه ! ان الولادة افضل من الجوع ! ولم تجد ما يخفف عنها فانتابها هياج ، ونهضت ، وحركت رجليها ، آملة ان تنيم جوعها كطفل ينزهونه وطوال نصف ساعة اصطدمت بزوايا الغرفة الفارغة الاربع . ثم توقفت فجأة وعيناها

ثابلتان . لا يهم ! ليقولوا ما يقولون . وسوف تلحس اقدامها اذا ارادا ، ولكنها ستذهب لتستقرض منها عشرة فلوس .

لقد كان الشتاء في هذا الدرج من البناية ، درج المقملين ، استعارة مستمرة لعشرة فلوس ، لعشرين فلساً ، وخدمات صغيرة يقوم بهـا الميتون من الجوع بعضهم لبعض ، الا انهم يموتون ولا يطلبون ذلك من آل لوريللو لانهم يعرفونهم قاسين جداً في اعارة الدراهم . وجرفيز بذهابها تطرق بابهما كانت تظهر شجاعة عظيمة وكانت خائفة جداً في الرواق بحيث شعرت بتلك التعزية الفجائية الـتي يشعر بها الناس الذين يقرعون باب اطباء الاسنان .

وصاح صوت صانع السلاسل الخشن

– ادخل

ما احسن الحال في الداخـل ! كان الكور يلتهب ويضيء المشغل الضيق بلهبته البيضاء ، بينما مدام لوريللو تعيد تسخين مكب من الخيوط الذهبيـة . ولوريللو امام منضدته يرشح عرقاً من كثرة الحرارة ويلحم حلقات بواسطـة الانبوب وكان الجو ينبيء بالخير ، فهناك شورباء الملفوف تطبخ على الوجاق وتصعد بخاراً يدير قلب جرفيز ويجعلها تقع مغمى عليها

ودمدمت مدام لوريللو دون ان تدعوها الى الجلوس على الاقل :

– آه ! اهذا انت ! ماذا تريدين ؟

ولم تجب جرفيز . ولم تكن على خلاف كبير هذا الاسبوع مع آل لوريللو . ولكن طلب الفلوس العشرة ظل عالقـاً في حلقومها لأنها رأت بوش جالساً متربعاً بقرب الموقد يدلي بنمائمه . لقد كان لهذا الحيوان هيئة من لا يهتم بالناس ؛ وكان يضحك كالإست ، وثقب فمه مستدير ، والخدان منتفخان يخبئان انفه . اخيراً ، انه إست حقيقية .

وردد لوريللو

– ماذا تريدين ؟

فقالت متلجلجة :

– الم تروا كوبو ؟ لقد ظننته هنا .

وضحك صانع السلاسل والبواب . كلا ، بالتأكيد لم يشاهدوا كوبو . انهم لا يقدمون اقداحاً صغيرة من الخمر ليروا كوبو . وبذلت جرفيز جهداً وقالت متلعثمة

– ذلك لانه وعدني بالعودة ... نعم ، يجب ان يأتي بنقود . وبما انني بحاجة ماسة الى شيء ما

وخيم صمت ، واخذت مدام لوريللو تنفخ نار الكور ، وخفض لوريللو انفه على طرف سلسلة كانت تمتد بين اصابعه ، بينما احتفظ بوش بضحكته المستديرة ، وبثقب فمه مستديراً بحيث يشعر المرء بالرغبة في إدخال الاصبع فيه ليرى .

وتمتمت جرفيز بصوت منخفض :

– لو كان لدي عشرة فلوس فقط .

واستمر الصمت

– الا تستطيعون ان تقرضوني عشرة فلوس ؟ اوه ! سأعيدها اليكم هذا المساء .

والتفتت مدام لوريللو وحدقت بها هذه مداجية جاءت تتملقهم . اليوم تستدين منهم عشرة فلوس ، وغداً تصبح عشرين ، وليس هناك سبب للتوقف. كلا كلا . ليس من هذا نهار الاثنين اذا كان الطقس حاراً . وصاحت

– ولكن يا عزيزتي ، انت تعلمين انه ليس لدينا نقود . انظري ، هذه بطانة جيبي ، بامكانك تفتيشها . ومن الطبيعي ان ادعك تفعلين ذلك بطيبة خاطر .

ودمدم لوريللو

– العاطفة موجودة دائماً . ولكن حين لا نستطيع فلا نستطيع .

ورضيت جرفيز خاضعة وهزت رأسها ، الا انها لم تذهب ، فقد كانت ترمق الذهب بزاوية عينها ، رزمة اوراق ذهبية معلقة في الجدار ، والسلك الذهبي الذي تسحبه المرأة من الآلة التي تصنع بها الاسلاك بكل ما في ذراعيها الصغيرين

من قوة ، والحلقات الذهبية المكومة تحت اصابع الزوج المقدة . وفكرت بأن قطعة صغيرة من هذا المعدن الشنيع المسود تكفي لدفع ثمن غذاء جيد . في ذلك النهار كان المشغل قذراً جداً ، بحدائده القديمة ، وغباره الفحمي ، وبقع الزيت التي لم تمسح جيداً . الا انها كانت تراه متألقاً بالثروة كدكان صراف . وجازفت بأن رددت بهدوء :

– سأعيدها اليكم ، سأعيدها اليكم بالتأكيد ... عشرة فلوس ، انها لا تزعجكم .

كانت منتفخة القلب ، ولاتريد الاعتراف ان بطنها فارغ منذ البارحة . ثم شعرت بساقيها يتكسران ، وخافت ان تنخرط بالبكاء فقالت بلجلجة

– انه لطف منكم ! لاتستطيعون ان تعرفوا ... نعم ، انا هنا ، يا الهي ، انا هنا

عندئذ عض آل لوريللو على الشفاه وتبادلا نظـرة خفيفة . كانت العرجـاء تتسول في تلك الساعة ! حسناً ، لقـد اكتمل النقل بالزعرور . انهم لايحبون التسول ، ولو علموا لوضعوا الحواجز حول بيتهم لان المرء يجب ان يظل دائماً على حذر مـن المتسولين ، لانهم اناس يدخلون البيوت بأعذار مختلفة ويذهبون حاملين الاشياء الثمينة . وفضلاً عن ذلك فعندهم ما يُسرق ؛ وبالامكان ان تدس الاصابع في كل مكان لتعود بثلاثين او باربعين فرنكاً دون عمل اي شيء سوى إطباق القبضة . وقد حذروا عدة مرات في السابق وهم يلاحظون وجه جرفيز الغريب حين تقف امام الذهب . وهذه المرة سيراقبونها وبما انها كانت تزيد من اقترابها ، وقـدماها على القضبان الخشبية المشتبكة ، صـرخ صانع السلاسل بحدة دون ان يجيب على طلبها

– انتبهي قـليلا تكادين تحملين برادة الذهب في نعليك . صحيح ، يقال انك تضعين عليهما شحماً ليلصق الذهب .

وتراجعت جرفيز بهدوء . لقد استندت لحظة الى رف ، ورأت مدام لوريللو لتفحص يـديها ، ففتحتهما واظهرتهما قائلة بصوت رخو ، دون ان تغضب ،

كامرأة ساقطة تقبل كل شيء :
– لم آخذ شيئاً ، بامكانكم ان تنظروا
وذهبت ، لأن رائحة شورباء الملفوف الشديدة ، وحـــراره المشغل الجيدة أمرضتاها .
آه ! لم يطلب آل لوريللو منها ان تبقى رحـــلة موفقة الى الشيطان لو فتحوا لها الباب مـــرة ثانية ! لقد اكتفوا من رؤية وجـهها ولا يريدون ان يروا عندهم بؤس الآخرين حين يكون هذا البؤس قد جاء عن استحقاق . وقـــد انصرفوا الى متعة عظيمة من الانانية حين رأوا انفسهم ثابتين دافئين ، مـــع رؤية شورباء جيدة . وكان بوش ايضاً قد تمدد ، نافخاً خـديه ، مـــع ان ضحكته اصبحت قذرة . لقدرأوا انهم ثأروا بشدة من تصرفات العرجاء القديمة ، ومن الدكان الزرقاء ، والولائم الفخمة ، ومن غير ذلك . لقد كان نجاحاً عظيماً يثبت الى اين يمكن ان يقود حب الطبيخ يجب اهمال النهمات والكسولات وخالعات العذار !
وهتفت مدام لوريللو وراء ظهر جرفيز
– ياله من نوع قذر ! جاءت تتسول عشرة فلوس ! نعم ، شيء مضحك اقرضها عشرة فلوس لتذهب حالاً وتشرب بها خمراً .
وجرّت جرفيز نعليها في الرواق ، مثقلة ،طـاوية كتفيها وحـــين صارت امام بابها لم تدخل ، فغرفتها تخيفها وبقدر ما تمشي تنبعث فيها الحرارة وتتجلبب بالصبر . ومدت عنقها وهي تمر الى عش الاب برو ، تحت الدرج ، انه واحد جديد من ذوي الشهية الحسنة لانه يفطر ويتعشى عن ظاهر قلب منـــذ ثلاثة ايام ؛ ولكنه لم يكن موجوداً ، ولا يوجد سوى وكره . وشعرت بغيرة ، متخيلة ان من الممكن انه دعي الى مكان ما . وحين وصلت الى امام بيت بيجار سمعت الشكاوى ، فدخلت لان المفتاح في القفل دائماً ، وسألت
– ما الأمر ؟
كانت الغرفة نظيفة جداً . فقد كنست لالي في الصباح ايضاً ونظمت الامور .

وكان البؤس يهب في الداخل ويحمل الاثاث الرث ويوالي نشر قذاراته . فجاءت لالي وراء ذلك ونفضت كل شيء واكسبت الاشياء هيئة نظيفة . كان كل شيء يشعر بوجود ربة بيت ممتازة وان لم تكن غنية . في ذلك اليوم وجد ولداهـا ، هنرييت وجول ، صوراً قديمة قطعاها بهدوء في احدى الزوايا ولكن جرفيز فوجئت بوجود لالي نائمة على سريرها الضيق ذي السيور ، ومغطاة حتى الذقن ، كثيرة الشحوب . ونومها يعني انها مريضة جداً .

ورددت جرفيز قلقة

– ما بك ؟

ولم تبد لالي اية شكوى ، بل رفعت جفونهـا البيضاء ببطء وارادت ان تبتسم بشفتيها اللتين كانت تشنجهما رعشة . وهمست بصوت منخفض :

– ليس بي شيء . اوه ! بالتأكيد لا شيء ابداً .

ثم اطبقت عينيها وقالت بجهد

– تعبت كثيراً في هذه الايام . وعندئذ ركنت الى الكسل ، وها انا اتدلل كما ترين

ولكن وجهها الطفولي الرخامي المبقع ببقع زرقاء ضاربة الى السواد كان يرتسم عليه تعبير الم عظيم ، بحيث ان جرفيز نسيت اشرافها على الموت جوعاً، وضمت يديها وسقطت راكعة بجانبها . منذ شهر وهي تراها تستند الى الجدران لتمشي ، منطوية الى نصفين بسبب سعال يرن بشدة كالتابوت . لم تكن الصغيرة تستطيع حتى السعال . وكانت تصاب بشهقـة ، وخيوط من الدم تسيل من زاويتي فمها

وتمتمت كأنها تعتزت :

– ليس الخطأ مني . لم اكن اشعر انني قوية ، فجررت نفسي ، وقمت بشيء من الترتيب انه نظيف كفاية ، اليس كذلك ؟ واردت ان انظف الزجـاج ولكن ساقيَّ التويا ، يا لها من حماقة ! .. واخيراً ، عندما ينتهي المرء ينام .

وقاطعت نفسها لتقول :

– انظري اذا كان ولداي يجرحان نفسيهما بعصاتها .

وسكتت مرتجفة ، فقد سمعت خطوة ثقيلة تصعد الدرج. ودفع الاب بيجار الباب بعنف . كان مخموراً كعادته ، وعيناه متوهجتان بجنون الخمرة الغاضب . وحين رأى لالي نائمة ، ضرب على ركبته ضاحكاً واخذ السوط الكبير مزمجراً:

– آه ! واسم الله ! هذا كثير . سنضحك ! .. البقر تتمدد على القش في عز الظهر ، الآن .. اتسخرين من الرعية ايتها الكسولة ؟ هيا ، هوب !

وفرقع السوط فوق السرير . ولكن الطفلة كانت تردد متوسلة

– كلا يا ابي ، ارجوك ، لا تضرب . اقسم لك انك ستفتم .. لا تضرب .

فصرخ بشدة

– اتريدين النهوض او ادغدغ اضلاعك ! اتريدين النهوض ايتها الفاجرة !

عندئذ قالت بهدوء

– لا استطيع . اتفهم ؟ اني اموت .

وكانت جرفيز قد انقضت على بيجار وانتزعت السوط منه . أما هو فشده ، وظل امام سرير السيور ماذا تقول هذه الماخطة ؟ وهل يموت المرء صغيراً اذا لم يكن مريضاً ! انها خدعة لتنال قطعة من السكر ! آه ! انه سيستعلم ، اما اذا كانت تكذب ...

وتابعت قائلة

– سترى ، انها الحقيقة . لقد جنبتكم الهم ما دمت قادرة على ذلك كن لطيفاً في هذه الساعة ، وقل لي وداعاً يا ابي .

ولوى بيجار انفه خوفاً من ان يكون الامر صحيحاً . ولكنه صحيح ، فلها وجه غريب ، وجه مستطيل صارم كوجه شخص كبير وذهبت بسكرته نسمة الموت التي تمر في الغرفة ، فأجال نظرة حوله ، بهيئة رجل أفاق من نوم طويل ، ورأى البيت مرتباً والطفلين نظيفين يلعبان ويضحكان ، فسقط على كرسي متمتماً

– يا امنا الصغيرة ، يا امنا الصغيرة .

ولم يجد سوى هذه العبارة . وهي عبارة رقيقة جداً بنظر لالي . لقد كانت قلقة على الخصوص من ذهابها قبل ان تتم تربية ولديها . سوف يعتني بهما ، اليس كذلك ؟.. واعطت بصوتها المحتضر تفاصيل عن طريقـــة تنظيم امورهـــا ، وابقائها نظيفين . اما هو ، المخبول ، وقد استماده دخان السكر ، فكان يدير رأسه وهو يراها ترحل بعينيها المستديرتين لقد حرك هذا في نفسه جميع انواع الأشياء ، ولكنه لم يكن يجد شيئاً ، وجلده كثير الاحتراق فلا يبكي .

وقالت لالي بعد صمت

– اسمع ايضاً . نحن مدينون بأربعة فرنكات وسبعة فلوس للخباز ، فيجب دفعها .. ولنا عند مدام غودرون مكواة فعليك ان تستعيدها . وهــذا المساء لم استطع ان اصنع شورباء . ولكن بقي خبز ، وعليك ان تسخن البطاطا .

لقد ظلت هذه الهرة الصغيرة حتى النزع الاخير هي الام الصغـيرة لكل عالمها انها لا تستعاض بالتأكيد . وهي تموت لانها تملـك عقل ام حقيقية في مثل سنها . والصدر لا يزال رخصاً وضيقـاً ليحتوي على امومة عظيمة كهذه . واذا ضاع هذا الكنز فالخطأ كله يقع على والدها الحيوان الضاري . الم يقتـل البنت بعد ان قتل الأم برفسة ؟ .. سوف يصبح الملاكان الصالحان في الحفرة ولا يبقى عليه الا ان يموت كالكلب على زاوية احد الانصاب .

وملكت جرفيز نفسها لئلا تنفجر باكية . كانت تمد يـديها راغبة في ان تخفف عن الابنة . وبما ان خرقة الغطاء كانت تنزلق ، فقـــد ارادت اصلاحها وترتيب السرير . وعندئذ ظـــهر جسد المحتضرة الصغير المسكين . آه ! .. يا رب ! اي شقاء واي شفقة ! ان ذلك يبعث الحجارة على البكاء . كانت لالي عارية ، بقية من صدرة على الكتفين كقميص ، نعم ، عارية تماماً . ذات عري ناتىء ومؤلم لشهيد . لم يكن عليها شيء من اللحم ، فالعظام كانت تثقب الجلد وعلى الاضلاع خطوط دقيقة بنفسجية تنحدر حتى الفخـذين . فضربات السوط مطبوعة هناك بشكل حي وبقعة زرقاء تحيط بالذراع الأيسر كأن فك كماشة قد سحق هذا العضو الطري الذي لا يزيد حجمه عن عود ثقاب . والساق الايمن

يظهر شقاً التأم بشكل سيء وأعيد فتحه ببعض الضربات الوحشية كل صباح وهي تخب اثناء قيامها بأعمال البيت . ولم تكن من القدمين الى الرأس سوى سواد . اوه ! تلك المجزرة للطفولة ، وتلك الاقدام الثقيلة لرجل تسحق هذا الحب العظيم ، هذا المقت للضعف المحشرج تحت صليب كهذا ! في الكنائس يعبدون قديسات ضُربن بالسوط وعريهن اقل طهارة . لقد جثمت جرفيز من جديد غير مفكرة بسحب الغطاء ، وقد قلب كيانها هذا المنظر الذي ليس مثله ادعى للشفقة ، والمسطح على السرير . وشفتاها المرتجفتان كانتا تحاولان الصلاة . وتمتمت الصغيرة :

– ارجوك يا مدام كوبو .

وكانت تحاول اعادة الغطاء بذراعيها القصيرين ، حيية ، خجلة من والدها وبيجار متبلد وعيناه على هذه الجثة التي صنعها ، مديراً رأسه بحركة بطيئة لحيوان قد أزعج .

وحين أعادت جرفيز الغطاء على لالي لم تستطع البقاء اكثر من ذلك . فالمحتضرة قد وهنت ، فهي لا تتكلم ابداً ، وليس لها سوى نظرتها ، نظرتها القديمة السوداء لفتاة صغيرة مستسلمة وحالمة ، كانت تلقيها على ولديها اللذين يقطعان صورهما . وامتلأت الغرفة بالظلام ، وأوقف بيجار شتائمه في بلادة هذا الاحتضار كلا ، كلا ، كانت الحياة مقيتة جداً ! آه ! يا له من شيء قذر ! وذهبت جرفيز ، وهبطت الدرج دون ان تدري ورأسها ضائع ، مليئة بالقرف بحيث انها سوف تتمدد مختارة تحت عجلات مركبة لتنتهي من الحياة .

واثناء ركضها متذمرة من هذا المصير ، وجدت نفسها امام باب المعلم الذي يزعم كوبو انه يشتغل عنده . لقد قادها ساقاها الى هناك ، واستعادت معدتها اغنيتها ، اغنية الجوع في تسعين دوراً ، والتي تحفظها عن ظاهر قلب . وبهذه الطريقة تضع يدها على النقود اذا قبضت على كوبو عند الخروج ، وتشتري مؤونة . ساعة من الانتظار على الاكثر ، وبامكانها ان تهضم تلك الساعة ، هي التي ظلت تمص ابهاميها منذ البارحة .

كان ذلك في شارع لاشاربونيير ، على زاوية شارع شارتر ، وهو مفرق طرق يلعب الهواء فيه في الزوايا الاربع . واسم الكلب ! ... لم يكن الطقس حاراً لاجتياز الشارع. آه لو كان هناك فراء! وقد ظلت السماء بلون الرصاص الشنيع، والثلج المتراكم فوق يغطي رأس الحي بقلنسوة من الجليد. لم يكن يتساقط شيء ولكن هناك صمت في الهواء يهيء لباريس لباس تنكر كامل ، ثوب رقص جميل ابيض وجديد . وكانت جرفيز ترفع انفها متوسلة الى الله ان لا يفلت موسلينه حالا كانت تحرك رجليها وتتطلع الى دكان بقال في الجهة المقابلة ، ثم تدير اعقابها لأن لا فائدة من الاستسلام للجوع مقدماً . ولم يكن مفرق الطرق يقدم اية علالة . والمارة القلائل كانوا يسيرون متصلبين ، متلوين، في اغطية وجوههم. لأن من الطبيعي الا تتسكع حين يضغط البرد على إليتيك . الا ان جرفيز شاهدت اربع او خمس نساء يقفن للحراسة مثلها على باب معمل اشغال الزنك . بائسات ايضاً ، بالتأكيد ، زوجات يترقبن دفع الاجرة ليمنعنها من الطيران عند بائع الخمر . وكانت هناك امرأة كالفرس الهزيلة ، بوجه دركي، ملتصقة بالحائط، مستعدة للوثوب على ظهر زوجها . وأخرى صغيرة سوداء، ذات هيئة متواضعة ورقيقة ، تتنزه في الناحية الاخرى من الطريق ، واخرى فاترة النشاط ، جاءت بولديها تجرهما على يمينها ويسارها ، وهما يرتجفان من البرد ويبكيان . والجميع ، وجرفيز كرفيقاتها بالانتظار ، يرحن ويجئن ملقيات نظرات جانبية دون ان يتحدثن . انه لقاء لطيف آه . نعم ، لسن بحاجة الى تعارف ليعرفن ادوارهن . كان الجميع يسكنّ في نفس العنوان عند الشقاء وشركائه . وكان مما يزيد من شدة البرد رؤيتهن وهن يتحركن ويتلاقين بصمت في ذلك الطقس المخيف من كانون الثاني

ومع ذلك ، فما من هر خرج من عند المعلم . واخيراً ظهر احد العمال ، ثم اثنان ، ثم ثلاثة ، ولكن هؤلاء كانوا دون شك من الرجال الصالحين الذين يحملون اجورهم بأمانة ، لانهم هزوا رؤوسهم حين رأوا الاشباح تروح وتجيء امام المشغل . وكانت الفرس الهزيلة لا تزال ملتصقة بجانب الباب ؛ وفجأة ،

أنقضت على رجل صغير قليل الاصفرار ، كان يمد رأسه بحذر . اوه ! لقد سوي الامر بسرعة ! فقد فتشته و كنست النقود ولم يبق معه اية جذوة ولا ما يشرب به قطرة . وعندئذ تبع الرجل الصغير شرطيه مغتاظاً ، يائساً ، باكياً بدموع غزيرة كطفل . وكان العمال لايزالون يخرجون ، وحين اقتربت المرأة مع ولديها ، فان رجلاً اسمر كبيراً ذا هيئة ما كرة، ما ان شاهدهم حتى عاد الى الدخول بسرعة لينذر الزوج ، وحين جاء هذا متمايلاً . كان قد اخفى قطعتين جميلتين بمئة فلس جديد ، كل قطعة في فردة حذاء . واخذ احد اولاده على ذراعه ، وسار وهو يلفق الاكاذيب لزوجته التي كانت تتشاجر معه . وكان هناك ماجنون ، يثبون الى الشارع بقفزة واحدة ، مسرعين لينفقوا اجرة نصف الشهر مع الاصدقاء . وهناك ايضاً رجال بوجوه حزينة ، وهيئة عاصفة ، يضمون قبضاتهم المتشنجة على اجرة الثلاثة او اربعة ايام التي اشتغلوا فيها من اصل خمسة عشرة يوماً ، وهم ينعتون بعضهم البعض بالكسل ويقسمون ايمان سكيرين . اما الأدعى للحزن فهو ألم المرأة الصغيرة السوداء الوضيعة الرقيقة فرجلها ، وهو غلام جميل ، قد افلت منها بعنف وكاد يلقيها ارضاً ؛ وعادت وحدها مترنحة على طول الدكاكين ، باكية بكل ما في جسدها من دموع

واخيراً انقطع خروج العمال وجرفيز لا تزال منتصبة في وسط الشارع تنظر الى الباب . لقد بدأ الأمر ينذر بالشر . وظهر عاملان متأخران ولكن كوبو لم يظهر . وحين سألت العاملين اذا كان كوبو لن يخرج اجاباها كاذبين ، وهما عالمان بالامر ، ان الرفيق خرج مع لانتيميش *Lantiméche* من باب خلفي ليسير بالدجاجات الى المرحاض . وفهمت جرفيز . انها كذبة جديدة من كوبو . بامكانها الذهاب لترى اذا كانت تمطر ! عندئذ جرت نعليها المشوهين ببطء ، وهبطت شارع لاشاربونيير . وغذاؤها يجري امامها بسرعة، وكانت تراه يركض في الغسق الاصفر ، برعشة خفيفة . لقد انتهى الامر هذه المرة لا فلس ، ولا امل ، لا شيء سوى الليل والجوع . آه ! انها لليلة جميلة من الاحتضار تلك الليلة التي سقطت على كتفها .

وكانت تصعد بتثاقل في شارع بواسونيير حين سمعت صوت كوبو ، نعم ، كان هناك في حانة « سيفيت الصغيرة » على وشك ان يدفع ثمن دورة خمر طلبها ميبوت منه . ان ذلك الماجن ميبوت ، حوالي منتصف الصيف ، ابتكر حيلة الزواج من سيدة ، كبيرة السن جداً ، ولكنها تملك بقايا جميلة ؛ اوه ! سيدة من شارع الشهداء وليست من تافهات محلة التحصينات وكان يجب رؤية هذا الانسان السعيد يعيش كبورجوازي ، يداه في جيوبه ، حسن الملبس ، جيـد التغذية لم يكن يُعرف بقدر ما اصبح سميناً . وكان الرفاق يقولون ان زوجته تجد عملاً بقدر ما تريد عند رجال من معارفها. زوجة كهذه ، وبيت في الريف، هذا كل ما يمكن ان يتمناه المرء ليجمّل حياته . وكان كوبو ايضاً يرمق ميبوت باعجاب . فقد كان الفتى الشجاع يحمل في اصبعه الصغير خاتماً ذهبياً .

ووضعت جرفيز يدهـا على كتف كوبو في اللحظة التي خرج فيها من حانة « سيفيت الصغيرة »

– اني انتظر . انا جائعة . هذا كل ما تدفعه

ولكنه اسكتها بطريقة فضلى قائلاً

– انت جائعة ، كلي كفك ! واحتفظي بالكف الآخر ليوم غد .

انه هو الذي وجد الامر مضحكاً ، بأن يمثل المأساة امام الناس ، ماذا !.. انه لم يشتغل ومع ذلك فالخبازون لا يزالون يعجنون . ربمـا كانت تظنه احدى المرضعات لتأتي وتخجله بمشا كلها

وتمتمت بصوت اصم :

– اذن تريدني ان اسرق .

وكان ميبوت يداعب ذقنه بهيئة مصلح فقال

– كلا ، فهذا ممنوع ولكن حين تعرف امرأة ان تنحرف ...

وقاطعه كوبو ليصرخ برافو ! نعـم ان امرأة يجب ان تعرف كيف تنحرف . ولكن زوجته كانت دائماً عربة سيئة ، كومة سيكون الخطأ خطأها اذا ماتت على القش . ثم استغرق في اعجابه بميبوت. هل الحيوان مطلي بالشمع !

انه كصاحب املاك حقيقي ؛ ثياب بيضاء ، وحذاء على شيء من الاناقة ! ليس هذا مزيجاً من عدة اشياء انه واحد على الاقل تقود زوجته الزورق جيداً .

وهبط الرجلان نحو الشارع الخـارجي وتبعتهما جرفيز . وبعد فترة صمت قالت من وراء كوبو

– انا جائعة . وانت تعلم .. لقد اعتمدت عليك . يجب ان تجـد لي شيئاً آكله

فلم يجب . وكررت بلهجة احتضار محزنة

– اذن ، اهذا كل ما تدفعه ؟

فصرخ وهو يلتفت غاضباً

– ولكن ، يا الهي ! ما دام ليس معي شيء . اتركيني او اضرب

وكان قد رفع قبضته ، فتراجعت وبدت انها صممت على امر

– اذهب . اني اتركك . وسأجد رجلاً .

فسخر عامل الزنك ، وتظاهر انه يحمل الامر على محمل الكذب ودفعها دون ان يبدو ذلك عليه انهـا لفكرة غنية ! في المساء . وتحت الاضواء ، لا يزال بامكانها القيام بفتوحات . ولو نظرت الى رجـل لأشار عليها بمطعم « الكبوشي » حيث يوجد غرف صغيرة يستطيع المرء فيها ان يأكل أكلاً تاماً . وحين كانت تسير على البولفار الخارجي شاحبة وغاضبة صاح بها ايضاً .

– اسمعي اذن . اجلبي لي معك حلويات ، فانا احب الحلوى ... واذا كان رجلك مجهزاً بالثياب فاطلبي منه معطفاً قديماً لأنال نصيبي .

وجرفيز التي لاحقتها هذه الثرثرة الجهنمية كانت تسير بسرعة . ثم وجدت نفسها وحيدة بين الجمهور ، فخففت خطاهـا . لقد كانت مصممة . ولو خيرت بين السرقة وهذا العمل لفضلت هذا العمل لأنها على الأقـل لا تؤذي احداً ولن تتصرف بسوى ملكها . ومما لا شك فيه انه ليس عملاً نظيفاً . ولكن النظيف وغير النظيف قد اختلطا في رأسها في تلك الساعة ! وحين يموت المرء من الجوع فلا يكثر الحديث بالفلسفة ، بل يأكل الخبز الذي يقدم اليه . وكانت قد صعدت

حتى شارع كلينيانكور ، والليل على وشك الهبوط . عندئذ تبعت الشوارع كسيدة تشم الهواء قبل ان تعود الى البيت لتتناول الحساء .

هذا الحي الذي تشعر فيه بالخجل وهو يتجمل ، قد انفتح الآن من جميع النواحي للهواء الطلق وشارع ماجنتا الصاعد من قلب باريس وشارع اورنانو الذاهب الى الحقول ، قد ثقبتاه عند الحاجز القديم ، انقاض فخورة لبيوت ، وجادتان واسعتان لاتزالان بيضاوين من الجبس وتحفظان على جوانبهما شارعي فوبور بواسونيير وبواسونيه اللذين تتغلغل اطرافهما مكسرة ، مقطعة ، ملتوية كممرات ضيقة قاتمة . وهدم جدار الجمرك منذ وقت طويل وسع الشوارع الخارجية ، مع الطرق الجانبية . والتراب المركوم في الوسط لاجل المشاة ، مغروس باشجار الدلب على اربعة صفوف . انه مفترق طرق واسع ينفتح على الافق البعيد بطرق لا نهاية لها ، تعج بالجمهور ، وغارق في اختلاط البنيان الضائع . ولكن بين البيوت الجديدة ، يوجد كثير من المساكن الحقيرة المهتزة قد ظلت واقفة ، وبين واجهات البيوت المنحوتة تتقعر وحدات سوداء ، وبيوت قذرة تتثاءب ، ناشرة الخرق من نوافذها . وتحت فخامة باريس الصاعدة يصدع بؤس الضواحي ويلوث هذا المكان لمدينة جديدة بنيت بسرعة .

وجرفيز الضائعة بين الجموع الغفيرة على الرصيف العريض وعلى طول اشجار الدلب ، كانت تشعر انها وحيدة مهملة . وكان منظر الشارع يزيد من فراغ معدتها ، وبين هذه الامواج من الناس ، حيث يوجد اناس انعم الله عليهم ، لا يمكن لأي مسيحي يعرف وضعيتها ولا يضع في يديها عشرة فلوس ! نعم ، كان الامر كبيراً ، فقد كان رأسها يدور وساقاها تسيران تحت ذلك الذيل المتجاوز الحد في السماء الرمادية ، والممتد فوق فضاء واسع كهذا وكان للشفق ذلك اللون القذر الاصفر للأشفاق الباريسية ، لون يغري بالموت حالاً لكثرة ما تبدو حياة الشوارع قبيحة واكفهرت الشمس ، وكانت الاماكن البعيدة مشوشة بصبغة وحلية . وكانت جرفيز قد تعبت وسقطت عند عودة العمال . في تلك الساعة كانت السيدات اللواتي يعتمرن القبعات ، والرجال المتأنقون الذين

يسكنون البيوت الجديدة ، غارقين بين جماهير الشعب ، مواكب من الرجال والنساء شاحبة من هـواء المشاغل الفـاسد . وبولفار ماجنتا وشارع فوبور – بـواسونيير كانا يفلتان عصابات لاهثة مـن أثر الصعود . وفي سير المـركبات والعربات التي تصم الآذان، بين عجلات النقل وعربات نقل الاثاث وعجلات نقل الاحمال الثقيلة التي تعود فارغة ومسرعة ، فان تفريخاً دائم التزايد من البلوزات كان يغطي الطريق . وكان عمال نقل البضائع يعودون وكلاليبهم على اكتافهم. وهناك عاملان يسرعان الخطى ويقومان جنباً الى جنب بخطوات واسعة وهمـا يتحدثان بحدة ويقومان بحركات دون ان يتطلعا ببعضهما البعض . وآخرون ، وحـدهم ، بمعطف وقبعة ، يسيرون على حـافة الرصيف منخفضي الانف ، وآخرون يأتون مؤلفين من خمسة او ستة ، يتبعون بعضهم بعضاً ولا يتبادلون كلمة ، وايديهم في جيوبهم وعيونهم شاحبة . والبعض يحتفظون بغلايينهم بين اسنانهم . وبناؤن في عربة استأجروها لأربعة وترقص ادواتهـم عليها ، كانوا يمرون مظهرين وجوههم البيضاء من ابواب العربة . ورسامون يلوحون بأوعية الوانهم ، وعامل زنك يحمل سلماً طويلاً ويتحاشى ان يعور عيون الناس ، بينما ناطور الينابيع العمومية متأخر وعلبته على ظهره ، ويعزف لحن الملك الطيب داعوبير ببوقه الصغير ، لحن كئيب في اعمـــاق الغسق الحزين . آه ! الموسيقى الحزينة التي تبدو انها ترافق تحرك القطيع ، ودواب الركوب تمشي منهوكة ! يوم آخـر قد انقضى ! صحيح ، كانت الايام طويلة ، وفي اغلب الاحيان تعيد نفسها لايكاد الوقت يتسع للامتلاء واكل الطعام حتى يطلع النهار ويستعيد المرء طوق الشقاء . ومع ذلك فالنشيطون يصفرون محركين ارجلهم ، سائرين مشتدين ، والمنقار ملتفت نحو الحساء

وتركت جرفيز الجموع تسير غير مبالية بالصدمات ، مدفوعة بالمرافق يميناً ، ومدفوعة بالمرافق شمالاً ، متدحرجة في وسط الموجـة ، لان الرجـال ليس لديهم الوقت لاظهار التظرف حين يكونون ملتوين من التعب ويدفعهم الجوع الى العدو .

وفجأة ، حين كانت الغسالة ترفع عينيها ، شاهدت امامها فندق بونكور القديم . فالبيت الصغير بعد ان كان مقهى صغيراً مشبوهاً اقفله البوليس واصبح مهملاً ، المصاريع مغطاة بالاعلانات ، والقنديل محطم ، متفتتاً ومتعفناً من اعلى الى اسفل تحت المطر ، مع تعفن طلائه الرديء من ثمالة الخمر ما من شيء يبدو متغيراً حولها ، فــالور"اق وبائع التبغ لا يزالان هناك. وخلف، فوق الابنية المنخفضة لاتزال تشاهد الواجهات المبرقشة لبيوت ذات خمس طبقات ، رافعة خيالاتها الكبرى الخربة . ولكن مرقص « الشرفة الكبرى » وحــده لم يكن موجوداً ؛ ففي القاعة ذات النوافذ العشر المتألقة وضعت منشرة يُسمع صفيرها المستمر . وهناك في داخل تلك الحجرة الصغيرة مــن فندق بونكور بدأت كل الحياة المقدسة . لقد ظلت واقفة متطلعة الى النافذة في الطابق الاول ، حيث مصراع منتزع ومعلق، وتذكرت شبابها مع لانتيه ، وعــلاقاتهما الاولى ، والطريقة المقرفة التي تركها بها لا يهم ، فقد كانت فتية ، وكل ذلك كان يبدو لها بهيجاً ، منظوراً مــن بعيد . عشرون سنة فقط ، يا الهي ! وسقطت على الرصيف لقد سبب لها منظر الفندق الاذى . وصعدت في الشارع من ناحية مونمارتر .

كان هناك اولاد على اكوام الرمل وبين المقاعد لا يزالون يلعبون مع ازدياد الظلام . واستمر سير الناس . وكان العمال يمرون مهملجين، مسرعين ليستعيدوا الوقت الضائع في عمليات العرض ؛ وهناك امرأة كبيرة وقفت وتركت يدها في يد غلام كانت ترافقه على مسافة ثلاثة ابواب من منزلها ؛ وآخرون حين يتركون بعضهم البعض يتواعــدون على اللقاء ليلاً في « صــالة الجنون الكبرى » او في « الكرة السوداء » . وفي وسط الجماعات عمال على اهبة العودة ، وملابسهم مطوية تحت آباطهم. ومصلّح مداخن مربوط بسيور ويجر عربة ملأى بالانقاض متحاشياً ان تسحقه مركبته ومع ذلك فبين الجمهور القليل كانت نساء تركض عاريات الرأس ، وقد نزلن بعد ان اشعلن النار واسرعن لتناول العشاء ؛ كن يدفعن الناس ، ويسرن الى الخبازين وبائعي لحم الخنزير ، ويعدن دون تعب

والمؤنة بأيديهن . وهناك فتيات صغيرات في الثامنة من العمر ، مرسلات بمهمة وكن يسرن على طول صف الدكاكين ضامات الى صدورهن ارغفة كبيرة من وزن اربع ليبرات طويلة مثلهن ، وتشبه دمى جميلة صفراء ، وكن ينسين انفسهن خمس دقائق امام الصور ، والخد مستند الى الارغفة الكبيرة ثم استنفدت الموجة ، وتفرقت الجماعات ، وأُدخل الشغل الى البيت ؛ وعلى سطوح لهب الغاز ، بعد النهار المنتهي ، جاء دور الكسل واستيقظت الاعراس .

آه ! نعم لقد انهت جرفيز نهارها كانت اكثر عياءً من كل هؤلاء العمال الذين هزها مرورهم . وكان بامكانها ان تنام هناك وتموت لان الشغل لا يقبلها ، وقد تعبت في حياتها ما فيه الكفاية لكي تقول « لمن الدور ؟ انا نلت نصيبي ! » ان جميع الناس يأكلون في هذه الساعة انها النهاية ، فالشمس اطفأت شمعتها ، والليل سيكون طويلاً يا الهي ! ان تتمدد كما تشاء ولا تنهض ابداً ، وان تفكر بانها ألقت ادواتها الى الابد ! .. ما احسن هذا بعد تعب عشرين سنة ! وكانت جرفيز ، مع المغص الذي يلوي معدتها ، تفكر رغماً عنها بأيام الحفلات ، والولائم ومسرات حياتها . ومرة بشكل خاص ، في برد قارس ، وفي يوم خميس في نصف الصوم ، أكلت بكثرة . وكانت لطيفة جداً ، شقراء وناضرة في ذلك الوقت . ومغسلها في الشارع الجديد جعل منها ملكة رغم ساقها . وكانت ، عندئذ تسير على غير هـــدى في الشوارع ، وفي عـــربات مزينة بالخضرة ، وسط عالم جميل كان ينظر اليها بفضول وهناك رجال يضعون المنظار على عيونهم كما يفعلون لرؤية ملكة حقيقية ثم في المساء أقيمت وليمة لكسر كل شيء ، وظلوا حتى النهار يحركون سيقانهم . ملكة ، نعم ملكة ! مع تاج وشال ، لمدة اربع وعشرين ساعة . دورة ميناء الساعة مرتين ! لـــقد اثقل عليها عذاب جوعها فكانت تنظر الى الارض كأنها تبحث عن الساقية التي اسقطت فيها جلالتها المنهارة

ورفعت عينيها مـــن جديد فوجدت نفسها امـــام المسالخ التي يهدمونها ؛ والواجهة المبقورة تكشف ساحات داكنة ، نتنة ، لا تزال رطبة من الدم

وحين هبطت الشارع رأت ايضاً مستشفى لاريبوازيير بجداره الكبير الرمادي تنتشر فوقه الاجنحة الجاهمة كالمروحة ، والمثقوبة بنوافذ منتظمة ؛ وهناك باب في الجدار كان يرعب الحي ، باب الاموات ، حيث لخشبه السنديانى المتين الخالي من اي شق صرامة وصمت انصاب القبور . وحينئذ سارت بعيداً لكي تهرب ، وهبطت حتى جسر الخط الحديدي وكانت الحواجز العالية ، ذات الحديد المصفح المتين المثبت بالمسامير ، تحجب الطريق ؛ كانت تميز فقط افق باريس المتألق ، والزاوية الموسعة لمحطة سكة الحديد ، والسقف الواسع الاسود من غبار الفحم ، وكانت تسمع في ذلك الفضاء الواسع صفير القاطرات ، والارتجاجات الموقعة للصفائح الدائرة ، انها فعالية عملاقة مخبأة ثم مر قطار ، خارجاً من باريس ، ووصل مع التهاث انفاسه وسيره المتزايد شيئاً فشيئاً . ولم تشاهد من هذا القطار سوى دخان متصاعد ابيض ، نفخة عنيفة تفيض عن الحواجز وتختفي . ولكن الجسر اهتز ، وهي نفسها ظلت تتابع تحرك القطار عند الرحيل بكل قوة البخار والتفتت كأنها تتبع القاطرة غير المنظورة التي اخذت زمجرتها تختفي . لقد عرفت من هذه الناحية الحقول ، والسماء الحرة ، في داخل فتحة ، مع بيوت مرتفعة الى اليمين والشمال ، منعزلة ، مقامة بدون نظام ، تبرز واجهات وجدراناً غير مجصصة ، وجدراناً مدهونة باعلانات كبيرة ، ملونة بنفس الصبغة الصفراء من سناج الآلات ، اوه ! لو كان باستطاعتها الرحيل هكذا ! الذهاب الى هناك ، الى خارج بيوت البؤس والعذاب ! ربما يتاح لها ان تبدأ العيش من جديد ، ثم التفتت لتقرأ ، بغباوة ، الاعلانات الملصقة على صفائح الحديد . وكان يوجد منها من جميع الالوان ، وبينها واحد صغير ، ذو لون ازرق جميل ، يعد بخمسين فرنكاً كمكافأة لمن يجد كلبة ضائعة . هذا حيوان يجب ان يكون محبوباً !

وتابعت جرفيز سيرها متمهلة . وقد اضيئت مصابيح الغاز في ضباب الظلال الداخنة الساقط ؛ وتلك الجادات الطويلة الغارقة شيئاً فشيئاً لتصبح سوداء ، كانت تبدو متألقة ، ممتدة ، قاطعة الليل حتى ظلمات الافق الضائعة وهبت

نسمة شديدة ، والحي الموسع يبعث فتائل مـــن اللهبات الصغيرة تحت السماء الفسيحة دون قمر انها الساعة التي يلتهب فيها بمرح ، مـــن اول الشارع الى آخره ، باعة الخمر ، والحانات ، والقبعات في لهو دورات الخمر الاولى ، وفي اولى الرقصات ان قبض اجرة نصف الشهر كان يملأ الرصيف بتدافع رائدي الحانات وهذا يُشعر بجو اللهو الملعون ، ولكنه لطيف . بدء سكرة ليس الا. انهم يأكلون في داخل الحانات ، وكان يرى اناس يأكلون من جميع زجاج النوافذ المضاءة ، الفم ملآن وهم يضحكون دون ان يهتموا حتى بالابتـلاع . وعند باعة الخمر كان هناك سكارى يجلسون صائحين متحركين . وتتصاعد ضجة كهزيم الرعد من اصوات عاوية ، اصوات قوية ، خلال سير الاقدام الدائم على الرصيف . « قل اذن ، اتأتي لنشرب ؟ .. تعال . انا ادفع ثمن الزجاجة ... انظر ! هذه بولين ! آه ! كلا ، اكاد اموت جوعاً ! » وكانت الابـواب تقرع وتخرج منها روائح الخمر ونفخات البوق . وهناك صف طويل امام حانة الاب كولومب المنارة ككاتدرائية لاجل قداس احتفالي ، يا لاسم الله ! حتى ليمكن القول انه احتفال حقيقي ، لأن الرفاق الطيبين كانوا يغنون في الداخل بهيئة مرتلين في مكان الترتيل في الكنيسة ، وهم منتفخو الخدود ، متكورو البطون . انهم يحتفلون بيوم القديس قبض الاجرة ، ماذا ! انه قديس محبوب جداً ويجب ان يكون اميناً للصندوق في الجنة . وكان اصحاب المـــداخيل الصغار ينزهون زوجاتهم ويرددون هازين رؤوسهم امام هذه البشاشة التي بديء بها السكر ، بأن هناك كثيراً من الرجال السكارى في باريس هذه الليلة . وكان الليل شديد الظلام ، ميتاً ، جليدياً ، فوق هذه الضوضاء ، تثقبه فقط خطوط اضواء الشوارع في زوايا السماء الاربع

وكانت جرفيز تفكر وهي واقفة امام الحانة لو كان معها فلسان لدخلت وشربت كأساً صغيراً ربما سدّ الكأس الصغير جوعها آه ! لقد شربت فيها كؤوساً. ومهما كان الامر فقد كان هذا يبدو لها حسناً. واخذت من بعيد تتأمل جهاز السكر ، شاعرة ان مصيبتها اتتها من هنا ، حالمة بانها ستنتهي مع الخمر

يوم يصبح لديها منه ما تشربه ولكن رعشة سرت في شعرها ، فقد رأت ان الليل شديد الظلام هيا ، لقـد اتت الساعة الملائمة انها اللحظة التي يجب ان تكون فيها شجاعة ولطيفة اذا لم تكن تريد ان تموت وسط الفرح العام ان رؤية الآخرين يأكلون لا تملأ لهـا بطنها . وزادت من بطء سيرها ، متطلعة حولها . وكان تحت الاشجار ظل اكثر كثافة . ويمر قليل مـن الناس ، اناس متعجلون يجتازون الشارع بحيوية وعلى ذلك الرصيف العريض الداكن المقفر ، حيث تموت بهجات الطرق المجاورة ، كان هناك نساء واقفات ينتظرن . لقـد ظللن لحظات طويلة جامدات ، صابرات ، متصلبات كأشجار الدلب الهزيلة ؛ ثم اخذن يتحركن ببطء ، جارّات نعالهن على التراب المتجمد ، يسرن عشر خطوات ويقفن من جديد، ملتصقات بالارض. وكانت هناك واحدة ذات جذع ضخم ، بساقي وذراعي حشرة ، ممتلئة ومكورة ، في اسمال من الحرير الاسود، تضع على رأسها منديلاً اصفر . وهناك واحده اخرى كبيرة ، جـافة ، ذات شعر طويل ،بمريلة خادمة . واخريات ايضاً ، وعجائز اصلحن من شأن انفسهن، وفتيات قذرات جداً ، قـذرات فقيرات لايلتقطهن جامع الخرق . الا ان جرفيز لم تكن تعرف شيئاً ، وكانت تحاول ان تتعلم بان تفعـل مثلهن . كانت متأثرة كفتاة صغيرة ، ولم تكن تشعر بالخجل ، لانها تتحرك في حـلم شنيع . وقد ظلت واقفة منتصبة طوال ربع ساعة

وكان رجال يسيرون دون ان يلتفتوا . عندئذ تحركت بدورها ، وجرؤت على الاقتراب من رجل كان يصفر ويداه في جيوبه ، وتمتمت بصوت مختنق

— اصغ الي ياسيد

فتطلع اليها الرجل جانبياً وسار وهو يصفر بشدة.

وازدادت جرفيز جرأة، ونسيت نفسها في خشونة هذا الصيد،فارغة البطن متهالكة وراء عشائها الذي لايزال يركض لقد حركت رجليها طويلاً جاهلة الساعة والطريق وحولها ، كانت النساء الصامتات السوداوات تحت الاشجار، يتمشين مقتصرات في سيرهـن على رواح ومجيء منتظم لحيوان في قفص . كـن

يخرجن من الظلام متمهلات ، ويمررن في ضوء قنديل غـاز حيث يظهر قناعهن الشاحب ، ثم يغرقن من جديد ، عـائدات الى الظل ، مؤرجحات خط تنوراتهن الابيض ، مهتديات مرة ثانية الى الروعة الراعشة لظلمات الرصيف . وكان رجال يتوقفون ويتحدثون بقصد التسلية ويعودون الى الذهاب ضاحكين . وآخرون ، رصينون ، مستترون ، كانوا يبتعدون على مسافة عشر خطوات وراء امرأة . وكان هناك ضوضاء ، ومشاجرات باصوات مختنقة ، ومساومات غاضبة كانت كلها تسقط في الصمت فجأة وجرفيز البعيدة بقدر تغلغلها ، كانت ترى هذه الجماعة من النساء تتوسع في الليل ، وهناك نساء واقفـات في الشوارع الخارجية من طرف الى طرف . وعلى بعد عشرين خطوة من امـرأة تقف امرأة اخرى . ويغيب الخط ، فباريس كلها محروسة اما هي المحتقرة فكانت تهتاج وتغير المكان ، وتسير من شارع كلينيانكور الى شارع لاشابيل الكبير .

– اصغ الي يا سيد ..

ولكن الرجال كانوا يمضون. وذهبت من المسالخ لان الانقاض قد نتن فيها الدم. وألقت نظرة على فندق بونكور القديم ، المغلق المبهم . ومرت امام مستشفى لاريبوازيير واخذت تعد بصورة آلية وعلى طول الواجهة ، النوافذ المضاءة ، المشتعلة كقنديل يحتضر ، بألق شاحب وهادىء واجتازت جسر الخط الحديدي مع اهتزاز القطارات وهي تزمجر ممزقة الهواء بصرخة يائسة من صافراتها . اوه ! كم ان الليل يجعل كل هذه الاشياء كئيبة ! ثم رجعت على عقبيها وملأت عينيها من البيوت نفسها ، ومن مسير الناس المتشابه في هذا الطرف من الشارع ، وتكرر ذلك عشر مرات ، عشرين مرة ، دون انقطاع ، دون استراحة دقيقة واحدة على مقعد . كلا ، ما من شخص اعارها اهتماماً . وبدا لها ان خجلها قد ازداد من هذا الازدراء . وهبطت ايضاً نحو المستشفى ، وصعدت نحو المسالخ ، كانت هذه نزهتها الاخيرة ، ساحات دامية حيث يقتلون ، وفي القاعات القاتمة حيث الموت يلف الناس في اغطية جميع العالم .

لقد استقرت حياتها هناك .

– اصغ الي يا سيد ...

وفجأة شاهدت ظلها على الارض. حين اقتربت من مصباح غاز تجمع ظلها المبهم وتوضح . ظل ضخم ، ربعة ، مضحك مـــا دام مكوراً . وقد اظهر نفسه . والبطن والنحر والخصران تجري وتطفو معاً . كانت تمرج بشدة حتى ان الظل على الارض كـان ينقلب لدى كل خطوة ؛ كركوز حقيقي ! وحين تبتعد يكبر الكركوز ويصبح عملاقاً ، ويملأ الشارع بانحناءات احترام تحطم انفه على الاشجار والبيوت . يا الهي ! كم كانت عجيبة ومخيفة ! ابداً لم تفطن الى عاهتها كهذه المرة وعندئذ لم تستطـع الامتناع عن التطلع الى ذلك منتظرة مصابيح الغاز ، متبعة بعينيها رقص ظلها آه ! ان امرأة ساقطة جميلة تسير بجانبها ! يا له من منظر ! انه سيجتذب الرجال حالاً . وخفضت صوتها ولم تجرؤ الا على ان تقول متلجلجة وراء المارة

– اصغ الي يا سيد ...

الا ان الوقت يجب ان يكون قد اصبح متأخراً . وقد تشوش الامر في الحي ، وكانت الحانات قد اقفلت ، والغاز احمرّ عند باعة الخمر حيث تخرج اصوات مثقلة بالسكر وانقلب المزاح الى شجار وضرب وكان هناك شيطان كبير بثياب مهلهلة يصيح : « سوف ادمرك واحطـم عظامك ! » وهناك فتاة تتشاجر مع عشيقها على باب حانة ، وتدعوه فظاً قذراً وخنزيراً مريضاً ، بينما كان العشيق يجيب « وأختك ؟ » دون ان يجد شيئاً آخـــر وكان السكر ينفث في الخارج حاجة للقتل ، شيئاً وحشياً يكسب المارة القلائل وجوهـــا شاحبة متشنجة . وكانت معركة ، وسقط احد السكارى مكوماً ، وقوائمه في الهواء ، بينما رفيقه هرب وهو يصفق بنعليه الكبيرين بعدما ظن انه سوّى حسابه معه وهنال عصابة تعوي بأغاني قذرة ، وخيم صمت شديد تقطعه شهقات وسقطات السكارى . وكانت حفلة نصف الشهر تنتهي دائماً هكذا ، فالخمر يسيل بكثرة منذ السادسة ابان التنزه على الارصفة. اوه ! صواريخ جميلة ،

وذيول ثعلب موسعة في وسط الشارع ، بحيث ان الناس المتأخرين الناعمين كانوا مضطرين الى القفز مـن فوقها لئلا يسيروا في داخلها . صحيح ، كان الحـي نظيفاً . ولو ان رجلاً غريباً اتى يزوره قبل الكناسة في الصباح لحمل عنه فكرة جميلة . ولكن في تلك الساعة كان السكارى في بيوتهم غير مهتمين باوروبا يا لاسم الله ! كانت السكاكين تخرج من الجيوب ، وانتهت الحفلة الصغيرة بالدم . وهناك نساء كن يسرن بسرعة ، ورجال يسيرون بعيون ذئب ،وتكثف الليل متخماً بالموبقات .

وجرفيز لا تزال تسير ، محركة رجليها ، صاعدة وهابطة ، تلازمها فكرة وحيدة في ان تمشي دون انقطاع . واجتاحهـا نعاس ، فكانت تنام يهدهدها ساقها ، ثم تتطلع حولها مرتجفة وترى بأنها مشت مئة خطوة بـدون وعي كالميتة . واتسع قدماها في حذائها المثقوب مـن النوم وهي واقفة . ولم تكن تشعر بنفسها ما دامت منهوكة فارغة . والفكرة الواضحة التي كانت تشغلها هي ان ابنتها الفاسقة في هـذه اللحظة نفسها كانت تأكل . ومن الممكن انها تأكل المحار . ثم اختلط كل شيء . وظلت مفتوحة العينين ، ولكن كان يلزمها بذل جهد كبير لتفكر . والاحساس الوحيد الذي استمر فيها خلال تلاشي كيانها هو الاحساس بالبرد القارس ، ببرد حـاد مميت لم تشعر بمثله في حياتها ابداً . بالتأكيد لا يشعر الاموات ببرد كهذا على الارض ورفعت رأسها بتثاقل ، وتلقت قرصة جليدية في وجهها انه الثلج الذي صمم اخيراً على السقوط مـن السماء الداخنة ، ثلج ناعم ، مغداق جعلته نسمة ريح خفيفة يدور كالاعصار . لقد كان منتظراً منذ ثلاثة ايام ، وقد سقط في اللحظة المناسبة

عندئذ ، في هبة الريح الاولى هذه ، مشت جرفيز مستيقظة ، بمزيد مـن السرعة . وهناك رجـال يركضون ويسرعون بالعودة الى بيوتهم ، واكتافهم اصبحت بيضاء وبما انها رأت واحداً جـاء متمهلاً الى تحت الاشجار ، فقد اقتربت وقالت ايضاً

– اصغ الي يا سيد

وتوقف الرجل . ولكنه لم يبد انه سمع . فمد يده وتمتم بصوت منخفض :
– حسنة ، من فضلك

وتطلع الاثنان احدهما بالآخر . آه ! يا الهي ! لقد كانا هناك ، الاب برو يتسول ومدام كوبو من نساء الارصفة ! وظلا فاغري الفم واحدهما في وجه الآخر . كان باستطاعتهما في تلك الساعة ان يتصافحا . فقد طاف العامل الهرم طوال السهرة ، غير متجرىء على الاقتراب مـن الناس ، راول شخص اوقفه كانت واحدة ميتة مـن الجوع مثله . يا رب ! الا يستحق هـذا شفقة ؟ يشتغل خمسين سنة ثم يتسول ! وهي ترى نفسها واحدة من اشد غسالات شارع القطرة الذهبية قوة ، وتنتهي على حافة ساقية ! وظلا يتطلعان ببعضهما البعض ثم سار كل منهما من ناحيته دون ان يقولا شيئاً تحت الثلج الذي كان يسوطهما

انها عاصفة حقيقية . فعلى تلك الارتفاعـات في وسط ذلك الفضاء المفتوح بشكل واسع ، كان الثلج يدور ويبدو انه ينفخ من جوانب السماء الاربعة دفعة واحدة . ولم تعد الرؤية متيسرة على بعد عشر خطوات ، وكل شيء كان يغرق في ذلك الغبار الطائر . واختفى الحي ، وبـدا الشارع ميتاً ، كما لو ان هبة الريح ألقت صمت غطائها الابيض على شهقات السكارى الآخرين . وكانت جـرفيز لا تزال تسير منهوكة ، عمياء ، ضائعة . كانت تتلمس الاشجار لتهتدي . وبمقدار تقدمها كانت مصابيح الغاز تخرج من شحوبة الهواء شبيهة بمشاعل مطفأة . ثم فقدت هذا الألق فجأة حين اجتازت مفترق طرق ، فقد اجتاحها إعصار قاتم وقتلها دون ان تميز شيئاً يكون دليلاً لها . وكان التراب يغوص تحتها ببياض مبهم . وسجنتها جدران رمادية وحين توقفت ، مترددة ، مديرة رأسها ، فطنت الى ان وراء هذا القناع الجليدي امتداد الشوارع ، والصفوف التي لا تنتهي من مصابيح الغاز ، وكل تلك اللانهاية السوداء المقفرة من باريس النائمة

كانت هناك عند تلاقي الشارع الخارجي وشارعي ماجنتا واورنانو ، حالمة ان تنام على الأرض ، حين سمعت وقع خطوات فركضت ولكن الثلج اقفل عينيها ، وابتعدت الخطوات دون ان تعرف اذا كانت سارت يميناً ام يساراً

واخيراً شاهدت كتفي رجل عريضين، بقمة داكنة راقصة ، متوغلة في الضباب.
اوه ! هذا ، انها تريده ، لن تتركه ! وركضت بقوة فأدركته وامسكت ببلوزته
وقالت

– يا سيد ، يا سيد ، اصغ الي

والتفت الرجل . لقد كان غوجيه

ها هي تتعلق الآن من جديد بالحلقوم الذهبي ! ولكن ماذا فعلت للــرب لتتعذب هكذا حتى النهاية ؟ انهــا الضربة الاخيرة الارتماء على رجلي الحداد ، وان يراها في صف سافلات الحواجز ، شاحبة متوسلة . وكان ذلك تحت مصباح غاز ، فشاهدت ظلها المشوه الذي يبدو انه يمزح على الثلج ككاريكاتور حقيقي ، حتى كأنها امرأه سكرى . يا الهي ! أتؤخذ كامرأة سكرى ولا يوجــد في جسدها كسرة خبز ولا قطرة خمر ؟ .. انه خطأها . لمــاذا كانت تسكر . بالتأكيد ، يعتقد غوجيه انها شربت وانها قامت بحفلة قذرة .

وكان غوجيه ينظر اليها بينما كان الثلج ينثر لآلىء صغيرة في لحيته الصفراء . ثم امسك بها حين خفضت رأسها وتقهقرت وقال :

– تعالي .

ومشى امامها فتبعته واجتاز الاثنان الحي الصامت ، سائرين دون ضجة على طول الجدران . كانت مدام غوجيه المسكينة قد ماتت في تشرين الاول ، بروماتيزم حــاد وغوجيه لا يزال يسكن البيت الصغير في الشارع الجديد ، متجهماً ووحيداً وكان قد تأخر في هــذا النهار ساهراً على رفيق مجروح . وحين فتح الباب واضاء القنديل التفت نحو جرفيز التي ظلت على سطح الدرج . وقال بصوت منخفض كما لو ان والدته لاتزال تستطيع سماعه :

– ادخلي

الغرفة الاولى ، غــرفة مدام غوجيه ، كانت محفوظة بورع على الحالة التي تركتها فيها . وعلى مقعد بقرب النافذة ، كان المنسج موضوعاً بجــانب الكنبة الكبيرة التي تبدو كأنها تنتظر صانعة المخرمــات العجوز . وكان السرير مرتباً

وباستطاعتها النوم عليه لو تركت المقبرة واتت لتقضي الامسية مع ولدها :
كانت الغرفة تحتفظ بالراحة ، وبرائحة النزاهة والطيبة
وردد الحداد بصوت اكثر ارتفاعاً
– ادخلي .

ودخلت خائفة ، بهيئة فتاة تدخل خفية الى مكان محترم . اما هو فكان شاحباً مرتجفاً لادخاله امرأة الى حرم امه الميتة . واجتازا الغرفة بخطى مكتومة كأنهما يتجنبان الخجل من ان يسمعهما احد . وحين دفع جرفيز الى غرفته اقفل الباب . وهنا كان في غرفته انها الغرفة الصغيرة الضيقة التي تعرفها ، غرفة تلميذ داخلي بسرير صغير حديدي مجهز بستائر بيضاء . وعلى الجدران كانت الصور المقطعة لا تزال منشورة وصاعدة حتى السقف . ولم تستطع جرفيز ان تتقدم في هذه الطهارة ، وانسحبت بعيداً عن القنديل . فلم يفه بكلمة ، واجتاحته فورة هياج فاراد امساكها وسحقها بين ذراعيه. ولكنها خارت وتمتمت

– اوه ! يا الهي ! اوه ! يا الهي !

وكان الوجاق المغطى بغبار الكوك لا يزال يشتعل وبقية من طعام تركها الحداد ساخنة ، معتقداً انه سيعود، لا يزال يتصاعد منها الدخان امام المرمدة . وجرفيز المتخدرة من الدفء ودت لو تقف على قوائمها الاربع لتأكلها من المقلاة . كان ذلك اكثر قوة منها ، فمعدتها تكاد تتمزق . وانحنت متأوهة وفطن غوجيه فوضع الطعام على المنضدة وقطع خبزاً وسكب لها ما تشربه فقالت

– شكراً ، شكراً . ما اطيب قلبك ! شكراً .

وكانت تتلعثم . ولم تكن تستطيع لفظ الكلام . وحين امسكت بالشوكة كانت ترتجف بحيث اسقطتها . فالجوع الذي امسك بخناقها اكسبها ارتجافاً كارتجاف الشيخوخة . واضطرت ان تتناول بالاصابع . وعند اول قطعة بطاطا ادخلتها في فمها انفجرت بالبكاء وسالت دموع غزيرة على خديها وسقطت على

الخبز . كانت لاتزال تأكل وتبتلع بنهم خبزها المغمس بدموعها ، نافخة بشدة ، متشنجة الذقن . واجبرها غوجيه ان تشرب لئلا تختنق وكان لكأسها صرير خفيف على اسنانها .

وسأل بصوت منخفض

– اتريدين مزيداً من الخبز ؟

كانت تبكي ، وتقول نعم ، وتقول لا ، ولا تدري . آه ! يا رب ! كم هو حسن ومحزن ان يأ كل المرء حين يشرف على الموت جوعاً .

وكان واقفاً امامها يتأملها . لقد رآها الآن جيداً تحت ضوء عاكس النور القوي . لكم هرمت ونصلت ! وقد اذابت الحرارة الثلج عن شعرها وملابسها واخذت ترشح ماء . وكان رأسها البائس المهتز رمادياً ، وهناك خصلات شهباء جعلتها الريح تطير ، والعنق غائر بين الكتفين . وكانت متكومة ، قبيحة ، سمينة ، تبعث على البكاء . وتذكر حبهما ، حين كانت وردية اللون وهو يطرق الحديد ، ويظهر ثنية الوليد التي كانت تشكل له طوقاً جميلاً في العنق . وكان في ذلك الزمن يذهب لينظر اليها طوال ساعات ، مسروراً برؤيتها وبعد ذلك كانت تأتي الى مصنع الحديد . وهناك تذوقا متعة عظيمة بينما كان يضرب على حديدته وكانت تبقى في رقص مطرقته كم من مرة آنذاك عض على وسادته في الليل ،متمنياً ان يمسكها هكذا في غرفته ! اوه ! لو احتضنها لحطمها من كثرة ما يشتهيها ! انها له في هذه الساعة ، ويستطيع اخذها . وكانت تتم اكل خبزها ، وقد مسحت دموعها من اعماق المقلاة ، دموعها الغزيرة الصامتة التي لا تزال تسقط في طعامها

ونهضت جرفيز . فقد انتهت وظلت لحظة منخفضة الرأس ، قلقة غير عارفة اذا كان يريدها . ثم اعتقدت انها رأت لهباً يشتعل في عينيه ، فرفعت يدها الى صدرتها وفكت اول زر . ولكن غوجيه ركع على ركبتيه وامسك بيديها قائلاً بهدوء

– اني احبك يا مدام جرفيز. اوه ! لاازال احبك رغم كل شيء. واقسم لك !

فهتفت وقد جنت لرؤيته هكذا على قدميها :

– لا تقل هذا يا سيد غوجيه كلا ، لا تقل هذا انت تعذبني .

وازداد يأسها حين اخذ يردد انه لا يستطيع ان يكون في حياته حبّان :

– كلا ، كلا ، لا اريد . انا خجلى لأجل الله ، انهض انه مكاني ان اكون على الارض

فنهض وهو مرتعش ، وقال بصوت متلعثم

– اتسمحين لي بتقبيلك ؟

فلم تجد ما تقوله بعد ان شدهت من المفاجأةوالتأثر ، وقالت نعم باشارة من رأسها . يا الهي ! لقد كانت له ، وباستطاعته ان يفعل بها ما يريد ، ولكنه مد شفتيه فقط وقال متمتماً

– هذا يكفي بيننا يا مدام جرفيز انها كل صداقتنا ، اليس كذلك ؟

وقبل جبهتها على احدى خصل شعرها الرمادي . لم يكن قد قبل شخصاً منذ ماتت امه ان صديقته الطيبة جرفيز هي التي بقيت وحدها له في الحياة . وحين قبلها بكثير من الاحترام عـاد القهقرى ليسقط على عـرض سريره ، وحنجرته مختنقة بالبكاء . ولم تستطع جرفيز ان تبقى هناك طويلاً ؛ لقد كانت الوضعية كئيبة ومستهجنة ان يجدا نفسيهما في مثل هذه الاوضـاع عندمـا يكونان متحابين . وهتفت به

– احبك يا سيد غـوجيه . احبك . اوه ! ليس هـذا ممكن . انا فاهمة . وداعاً ، وداعاً لان هذا سيخنقنا نحن الاثنين .

واجتازت غرفة مدام غوجيه راكضة ووجدت نفسها في الشارع . وحـين عاد صوابها اليها عادت الى شارع القطرة الذهبية ورنت الجرس ، وسحب بوش الابزيم . لقد كان البيت غارقاً في الظلام . ودخلت كأنها في حـالة حداد . وفي تلك الساعة من الليل كان مدخل البيت الفاغر فاه ، الخرب ، يشبه حلقومـاً مفتوحاً لقد طمعت في الماضي بزاوية من هذه الثكنة ، وكانت اذناهـا مسدودتين بحيث لم تسمع في ذلك الزمن موسيقى اليأس الشاخرة وراء الجدران !

وقــد اخذت تتدهور منذ اليوم الذي وضعت قدمها فيه نعم ان وجودهم هكذا متكومون فــوق بعضهم البعض يجلب المصيبة الى بيوت العمال الحقيرة الكبيرة تلك ، انهم يلتقطون فيها كوليرا الشقاء في هذا المساء بدا جميع الناس انهم يموتون . وقــد سمعت فقط آل بوش يشخرون الى اليمين ، بينما لانتيه وفرجيني الى اليسار يموءان كالهررة التي لا تنام والتي تنعم بالدفء وعيونها مطبقة. وفي الساحة ظنت نفسها وسط مقبرة حقيقية ، لقد صنع الثلج على الارض مربعاً شاحباً : الواجهات العالية يعلوها لون رمادي ضارب الى السواد ، دون ضوء ، تشبه شققاً متهدمة ، وليس هناك اية آهة ، دفن قــرية بكاملها متصلبة من البرد والجـوع . وقد اضطرت الى اجتياز ساقية سوداء ، مستنقع تركته المصبغة ، داخن متكشف عن سرير موحل في بياض الثلج انه ماء بلون تفكيرها . وقد سال جميلاً ازرق ووردياً نضراً .

وبصعودها الطبقات الست في الظلام لم تستطع ان تمنع نفسها من الضحك ، ضحك شنيع كان يسبب لها الأذى . وتذكرت مثلها الاعلى القديم ان تشتغل باطمئنان ، ويتيسر لها اكل الخبز دائماً ، ويكون لها جحر نظيف لتنام ، وان تربي اولادهــا جيداً ، وان لا تُضرب ، وتموت في سريرها . كلا ، صحيح ، انه مضحك كيف تحقق كل ذلك ! انها لم تكن تشتغل ، ولا تأكل ، وتنام على الاقذار ، وابنتها تتردد الى الاماكن المشبوهة ، وزوجها يطردها ، ولم يبق لها الا ان تموت على الطريق وهذا سوف يتم حالاً اذا وجــدت الشجاعة لتلقي نفسها من النافذة عندما تعود الى بيتها الم يقولوا انهــا طلبت من السماء ثلاثين الف فرنك كمدخول واكراميات ؟ آه ! صحيح ، جميل ان يكون المرء قنوعاً في هذه الحياة . باستطاعتها البحث ، فلن تجد حتى ولا طعام الكلاب ، ولا كسرة خبز ، هذا هو المصير المشترك اما مـــا ضاعف ضحكتها الرديئة فهو تذكرها املها الجميل بالانسحاب الى الريف ، بعد عشرين سنة مــن الكوي . ايه ! . . لقد ذهبت الى الريف . كانت تريد زاويتها الخضراء في بير – لاشيز . وحين دخلت في الرواق كانت كالمجنونة . وكان رأسها البائس يدور . وفي

اعماقها فان ألمها العظيم كان متأتياً من وداعها الابدي للحدّاد . لقد انتهى الامر بينهما ، ولن يشاهدا بعضهما البعض ابداً . ثم جاءت هناك ، فـــوق ، جميع افكار المصائب لتكمل تحطيم جمجمتها . ومدت انفها الى بيت بيجار وهي تمر ، فرأت لآلي ميتة ، بهيئة راضية لانها مُددت لتدلل الى الابد آه ! ان للاطفال حظاً اكثر من الاشخاص الكبار ! ولما كان باب الاب بازوج يخـرج منه شعاع نور فقد دخلت رأساً الى عنده مهتاجة لتذهب في نفس الرحلة التي ذهبت فيها الصغيرة .

ان هذا الماجن الهرم الاب بازوج كان قد عاد في هذه الليلة في حالة من المرح غير العادي ، بحيث انه نام على الارض رغم البرد ؛ وهذا لم يكن يمنعه دون شك من ان يحلم احلاماً جميلة ، لانه بدا انه يضحك من بطنه وهو نائم . وقـد ظل القنديل مضاء ، وكان يضيء ثيابه الرثة ، وقبعته السوداء المسطحة في احدى الزوايا ، ومعطفه الاسود الذي سحبه على ركبتيه كطرف غطاء .

وحين شاهدته جرفيز اخذت تبكي بشدة بحيث استيقظ وقال

– اسم الله ! اغلقي الباب ! انه يجلب البرد ! ها ! اهذا انت ! ماذا هناك؟ ماذا تريدين ؟

فمدت جـــرفيز ذراعها ولم تعرف ماذا تمتمت ، واخذت تتوسل اليه بحرارة

– اوه ! اذهب بي ، فقد اكتفيت ، اريد ان ارحل . يجب الا تحقد علي. يا الهي ، انا لا ادري حين لا يكون المرء مستعداً فلا يعرف شيئــاً .. اوه ، نعم ، يفرح المرء لأنه سيرحـل ذات يوم .. أذهب بي ، اذهب بي ، وسأكون شاكرة

وركعت ، واجتاحتها رغبة اكسبتها شحوباً انها لم تقع ابـداً على قدمي رجل ان وجه الاب بازوج ، بفمه المعوج وجلده الملوث بغبار الدفن ، بدا لها جميلاً متألقاً كالشمس . الا ان الهرم ، وقد استيقظ بشكل سيء ، كان يعتقد ان هناك مزحة سيئة ، فتمتم :

– قولي اذن ، يجب الا تزعجيني

فرددت بكثير من الحرارة

– اذهب بي اتذكر ذات مساء يوم ضربت على الحاجز ؟ ثم قلت ان هذا ليس صحيحاً لأنني كنت لا ازال حمقاء ولكن خذ ! اعطني يديك ، فأنا غير خائفة ! اذهب بي لأنام ، وستشعر اذا كنت اتحرك .. اوه ! ليس لي سوى هذه الرغبة ، اوه ! وسوف احبك

ففكر بازوج الدائم الظرف انه يجب الا يطرد سيدة تحمل له مثل هذا الحب .

كانت راحلة ولكن لا تزال ذات بقايا جميلة حين تصلح من شأن نفسها ، فقال بهيئة مقتنعة

– انت على حق فقد حزمت اليوم ثلاث نساء كان من الممكن ان آخذ منهن اكرامية ممتازة لو كان باستطاعتهن مد ايديهن الى جيوبهن . فقط يا امي الصغيره ، لا يمكن ان يسوّى الأمر هكذا .

وصاحت جرفيز

– اذهب بي ، اذهب بي . اريد الرحيل

– ولكنك تعلمين ان هناك عملية صغيرة قبل ذلك ... يجب ان تموتي اولاً.

وبذل جهداً من حنجرته كأنه ابتلع لسانه . ثم ضحك حين رأى المزحة جيدة .

وكانت جرفيز قد نهضت ببطء اذن لا يستطيع ان يصنع لها شيئاً ؟ وعادت الى غرفتها ، متبلدة ، وارتمت على القش آسفة لأنها أكلت . آه ! كلا ، ان البؤس لا يقتل بسرعة

١٣

لقد اطلق كوبو وابلاً من قذائفه تلك الليلة . وفي الغد تلقت جرفيز عشرة فرنكات من ولدها اتيين الذي اصبح ميكانيكياً في سكة الحديد ، وكان الصغير يرسل اليها قطعاً بمئة فلس من وقت لآخر ، عالماً بان الحالة سيئة في البيت . وأعدت شورباء خضار مع لحم واكلت وحدها ، لأن ذالك التافه كوبو لم يأت في الغد . ونهار الاثنين لا احد ، والثلاثاء ، لا احد ايضاً . ومضى الاسبوع كله. آه ! واسم الكلب ! لو اختطفته امرأة لكان هذا ما يسمى حظاً ولكن جرفيز تلقت نهار الاحد ورقة مطبوعة اخافتها اولاً لأنها ظنت انها رسالة من مفوض الشرطة ، ثم اطمأنت . انها تخبرها فقط ان خنزيرها يعاني سكرات الموت في مأوى القديسة آن . ان الورقة تقول ذلك بطريقة مؤدبة . ولكنه نفس الشيء. نعم ، انها سيدة هي التي اختطفت كوبو ، وهذه السيدة تدعى صوفي تورن — ديلاي [١] ، آخر صديقة طيبة للسكيرين

لعمري ! ان جرفيز لم تنزعج . كانت تعرف الطريق وسوف تعود وحدها من المأوى ، لقد شفوه اكثر من مرة بحيث يمكن ان يعيدوا المزحة السيئة معه فيوقفونه على قدميه . الم تعلم في الصباح نفسه ان كوبو شوهد طوال ثمانية ايام مكوراً كالكرة ، يدور على باعة الخمر في بلفيل ، برفقة ميبوت ! لقد كان ميبوت

---

١ - يقصد بها المـوت .

المول ؛ فقد استولى على ثروة زوجته ، مـــدخرات ربحها بواسطة اللعبة التي تعرفون آه ! كانا يشربان هناك بالاموال الخاصة القادرة على قـــذف جميع الامــراض الرديئة ! واذا اصيب كوبو بالمغص فهنيئاً له . ولكن جرفيز كانت غاضبة بشكل خاص لان هذين الاثانيين لم يفكرا بالمجيء لأخذها ودفع ثمن كأس لها . وهل رؤي امر كهذا ؟ حفلة تدوم ثمـانية ايام بدون اية مـــلاطفة للسيدات ! حين يشرب المرء وحده يموت وحده

الا ان جرفيز كان لديها نهـــار الاثنين شيء من الطعام للمساء . بقايا لوبياء وكأس من الخمر . وقد وجدت لنفسها عذراً بان النزهة تفتح شهيتها . ورسالة المأوى على الخزانة كانت تزعجها وكان الثلج قد ذاب ، والطقس بين رمادي وهادىء مـــع حيوية في الهواء تعيد النشاط . وذهبت عند الظهر لان المسافة طويلة ، وعليها ان تجتاز باريس . وساقها يؤخرها دائماً . وكان هناك جمع من الناس في الشوارع . ولكن الناس يسلـّونها . وقـــد وصلت بشكل لطيف ، وحين ذكـــرت اسمها رووا لها رواية مستغربة : يبدو انهم التقطوا كوبو على الجسر الجديد ، فقد قذف نفسه من فوق الحاجز معتقداً انه رأى رجلاً ملتحياً يسد طريقه . قفزة جميلة ، اليس كذلك ؟ امـــا كيفية معرفة وجود كوبو على الجسر الجديد فهذا امر لا يستطيع هو نفسه ان يوضحه .

الا ان احد الحراس قاد جرفيز . فصعدت درجاً حين سمعت صياحاً بعث الثلج في اعضائها . وقال الحارس

– ها ؟ انه يعزف موسيقى !

وسألت

– من اذن ؟

– ولكن زوجك ! انه يصيح هكذا منذ اول البارحـة . وهو يرقص . وسترين .

يا الهي ! يا له من منظر ! فقــد ظلت جالسة . وكانت الغرفـــة مغطاة بالحشايا من أعلى الى اسفل ؛ وعلى الارض فراشان من قش ، الواحد فوق الآخر ؛

وفي زاوية ، مُدّ فراش ووسادة ليس اكثر . وهنـــاك في الداخل كوبو يرقص ويصيح . تنكر حقيقي من كورتيليا ، ببلوزته الممزقة واعضائـه التي تلوح في الهواء ؛ ولكنه تنكر ليس عجيباً ، اوه ! كلا ، تنكرٌ حيث الرقص المخيف يوقف شعر الجسد كان متنكراً بهيئة رجل محتضر . ياله من فارس وحيد ! .. كان يصطدم بالنافذة ، ويعود القهقرى ، وذراعاه تسجلان القياس ، هازاً يديه كأنه يريد تحطيمهما وقذفهما في وجه العالم . وكان يُلتقى في الحانات مهرجون يقلدون ذلك ؛ الا انهـــم يقلدونه بشكل سيء ويجب رؤية رقص هؤلاء السكارى اذا ارادوا ان يعرفوا اية روعة يمكن الحصول عليها حين تنفذ هـــذه الرقصة بشكل جيد . وللأغنية طابعها ايضاً . صياح مستمر لعيـد المساخر . فم مفتوح جيداً يفلت انغام البوق الأبح طوال ساعات . وكان لكوبو صرخة حيوان سحق قدمه الى الامام ايتها الاوركسترا ، وأرقصي سيداتك !

وردت جرفيز وقد انتابها الهلع

– يا رب ! ما به ! ما به اذن ؟

وكان هناك تلميذ طبيب ، وهو غلام اشقر مورد الوجه ، يضع مريلة بيضاء ويجلس بهدوء وكان يسجل ملاحظات . كانت الحالة عجيبة والتلميذ لم يترك المريض وقال للغسالة :

– ابقي لحظة اذا اردت ولكن كوني مطمئنة ... حاولي ان تكلميه فلن يعرفك .

وكوبو بالفعل لم يبد انه شاهد زوجته . فقد رآها بشكل سيء وهي داخلة لأنه كان يتخلع . وحين رآته امامها سقط ذراعاها . أيمكن يا رب ان يوجد وجه بهذا الشكل ، مع دم في العيـــين وتورم في الشفتين ؟ بالتأكيد لم تكن لتعرفه . كان في اول الامر يرسم كثيراً من الكشرات دون ان يقول لمـــاذا ، والفم مقـــلوب ، والانف متغضن ، والخدان متقعران ، انه حلقوم حقيقي لحيوان . كانت بشرته ساخنة كالهواء المفعم بالدخان حوله ؛ وجلدة كأنه مطلي بالبرنيق ، يرشح بعرق ثقيل مع ألم في الاعضاء .

واقتربت جرفيز من تلميذ الطبيب الذي كان يعزف لحناً بطرف اصابعه على مسند مقعده وقالت

– قل يا سيدي . اذن فالامر جدي هذه المرة ؟..

فهز التلميذ رأسه دون ان يجيب .

– قل اذن ، ألا يثرثر بصوت منخفض ؟.. ها ؟.. أتسمع ، ما هذا ؟..

فتمتم الشاب :

– اشياء يراها اسكتي دعيني اسمع .

كان يتكلم بصوت متقطع . الا ان لهباً غريباً كان ينير عينيه . وكان يتطلع الى الارض ، والى اليمين والى اليسار ، ويدور ، كما لو انه يهيم على وجهه في غابة فانسين ، متكلماً وحده

– آه ! ما ألطف هذا ! انه تام .. هنـــاك بيوت ، سوق عامة حقيقية وموسيقى حسنة قليلاً ؛ يا لها من وليمة . انهم يكسرون الآنية في الداخل .. جميل جداً ! انه يهلل الوجه ؛ بالونات حمراء في الهواء ، هـــذا ينفجر وهذا يسير .. اوه . اوه كم هناك من قناديل في الاشجار .. ما أحسن هذا . مياه تسيل من كل مكان ، ينابيع ، شلالات ، مياه تغني ، اوه . بصوت احد غلمان الجوقة ... الشلالات مدهشة

وانتصب كأنه يريد ان يسمع اغنيـــة الماء اللذيذة بشكل افضل ؛ وتنشق الهواء بقوة ظاناً انه يشرب المطر البارد المتطاير من العيون . ولكن وجهه اتخذ شيئاً فشيئاً تعبير القلق . وعندئذ انحنى وسار بسرعة على طول جدار الغرفـة مهدداً بشكل لا يرحم .

– كل هذا خليط . اني احاذر ... صمتاً ايها الصعاليك .. نعم ، انـتم لا تبالون بي . انكم تشربون وتغنون في الداخل مع فاسقاتكم لتسخروا مني . سأحطمكم ، انا ، في بيوتكم . أتريدون ان تتركوني بسلام ؟

وضم قبضتيه ، وأطلق صرخة بحّاء ، وانبطح وهو يركض . واخذ يتمتم متلعثماً وأسنانه تصر من الرعب :

– هذا لكي اقتل نفسي . كلا ، لن ألقي بنفسي   كل هذا الماء يعني انني بدون قلب   كلا ، لن القي بنفسي

والشلالات التي كانت تهرب عندما يقترب كانت تتقدم حين يتراجع. وفجأة تطلع حوله ببلاهة وتمتم بصوت لا يكاد يبين :

– ليس هذا ممكناً   لقد استأجروا علماء الطبيعيات ضدي .

وقالت جرفيز لتلميذ الطب

– انا ذاهبة يا سيدي . اسعدت مساء . ان هذا يؤلمني   وسوف اعود

وكان لونها قد شحب . وتابع كوبو رقصه وحيداً ، من النافذة الى الفراش، ومن الفراش الى النافذة ، راشحاً بالعرق ، منهوكاً ، ضارباً على نفس النغم . وعندئذ نجت . ولكنها وهي متدحرجة على الدرج كانت تسمع رقص زوجها. آه . يا الهي . ما احسن الحال في الخارج . بامكان المرء ان يتنفس .

وفي المساء كانت البناية كلها في حي القطرة الذهبية   تتحدث عن مرض الأب كوبو الغريب . فآل بوش الذين كانوا يتكلمون سوءاً بحق العرجاء قدموا اليها شراب الكشمش في منزلهم ، وذلك لكي يعرفوا مزيداً من التفاصيل . ووصلت مدام لوريللو ومدام بواسون ايضاً   وكانت تعليقات لا نهاية لها ، وكان بوش قد عرف نجاراً وُضع عارياً في شارع سان مارتان ومات وهو يرقص البولكا ، وكان يشرب الأبسنت . والتوت السيدات من الضحك لأن الامر بدا لهن غريباً ، مع انه محزن   وبما انهم لم يفهموا شيئاً فان جرفيز دفعت الناس وصرخت لتجد مكاناً لها ؛ وفي وسط المنزل ، بينما كان الآخرون ينظرون ، قلدت كوبو ، صائحاً، واثباً ، متبختراً مكشراً كشرات مستهجنة. نعم ، كلام شرف . ان الامر كذلك . ودهش الآخرون . غير ممكن .. فالرجل لا يستطيع ان يظل ثلاث ساعات في عمل كهذا . فأقسمت بكل ما هو مقدس لديها ان كوبو استمر منذ البارحة، ستاً وثلاثين ساعة على هذه الحالة. وبامكانهم الذهاب لرؤيته اذا كانوا لا يصدقون. ولكن مدام لوريللو صرحت انها عائدة من مأوى القديسة آن ؛ وسوف تمنع لوريللو من ان يضع قدميه

هناك . اما فرجيني التي تنتقل دكانها من سيء الى اسوأ وكانت ذات وجه مأتمي فقد اكتفت بالتمتمة ان الحياة ليست مرحة دائماً . آه . كلا . وبعد ان أنهت جرفيز شراب الكشمش تمنت ليلة سعيدة للرفاق . وكانت حين تنقطع عن الكلام تتخذ هيئة رأس ذاهل من شايو ، وعيناها مفتوحتان . مما لا شك فيه انها كانت تتخيل زوجها راقصاً . وعندما نهضت في الغد عزمت على ألا تذهب الى هناك . ما الفائدة ؟.. انها لا تريد ان تفقد عقلها . الا انهـا كانت تستغرق في افكارها كل عشر دقائق ومع ذلك فسيكون ادعى للعجب اذا كان لا يزال يرقص وحين دقت ساعة الظهر لم تستطع ان تمسك نفسهـا ، ولم تفطن لطول الطريق لأن الرغبة والخوف مما ينتظرها يشغلان دماغها .

اوه لم تكن بحاجة لتتسقط الاخبار ، فقد سمعت اغنية كوبو منذ اسفل الدرج . نفس اللحن ونفس الرقص . بامكانها الاعتقاد انها نزلت منذ دقيقة ثم صعدت وحارس الامس الذي يحمل آنية ماء الحشائش في الرواق طرف بعينه حين التقى بها ليبدو محبوباً ، فقالت

— اذن كما كان ؟..

فأجاب دون توقف :

— اوه . كما كان .

ودخلت . ولكنها وقفت في زاوية الباب لأن هناك اناساً مع كوبو . تلميذ الطب الاشقر الوردي كان واقفاً وقد تخلى عن كرسيه لسيد عجوز يحمـل وساماً ، اصلع ووجـهه كحلقوم نمس . انه الطبيب الرئيس بالتأكيد لأنه كان ذا نظرات دقيقة وثاقبة كالمثاقب . ان لجميع تجار الموت الفجائي هـذه النظرات .

الا ان جرفيز لم تأت لأجل هذا السيد وقد رفعت نفسها من فوق جمجمته ، آكلة كوبو بعينيها كان هـذا المسعور يرقص ويصيح بصوت اشد قوة من الامس . وكانت قد رأت في السابق ، في حفلات رقص نصف الصوم ، غلمـان المغسل الاشداء يستسلمون للرقص طوال ليلة بكاملها ؛ ولكنها لم تتخيـل ابداً

ان رجلاً يستطيع ان يغرف من السرور هذا الوقت الطويل ؛ وقولها يغرف من السرور طريقة في الكلام لأن ليس هناك اي سرور في ان يقوم المرء رغماً عنه بوثبات سمك الشبوط ، كما لو انه ابتلع معمل بارود . وكان كوبو مغمساً بالعرق ويزيد من التدخين ، هذا كل شيء . وكان فمه يبدو اكثر كبراً لكثرة الصياح. اوه .. ان النساء الحبالى يحسنّ صنعاً ببقائهن خارجاً . لقد مشي كثيراً من الفراش الى النافذة حيث كان يرى طريقه الصغير على الارض . اما فراش القش فقد تآكل من حذائه .

كلا ، صحيح . ان هذا لا يأتي بشيء حسن . وجرفيز المرتجفة ، كانت تتساءل لماذا عادت . لقد اُتهمت مساء البارحة عند آل بوش بأنها بالغت في الصورة آه .. انها لم تنقل منها النصف . وها هي الآن ترى بصورة افضل كيف يفعل كوبو ولن تنسى ابداً ، فالعينان مفتوحتان على الفراغ وقد التقطت عبارات تبادلها التلميذ مع الطبيب كان الاول يعطي تفاصيل عن الليل بكلمات لم تفهمها لقد ظل كل الليل يتكلم ويرقص ، هذا ما كان يعنيه كلامهما . ثم ان السيد الهرم الاصلع ، غير المهذب كثيراً ، بدا اخيراً انه فطن لوجودها ؛ وحين قال له التلميذ انها زوجة المريض اخذ يسألها بهيئة رديئة لمفوض شرطة

– هل كان والد هذا الرجل يشرب ؟

– نعم يا سيدي ، قليلاً ، كجميع الناس ومات متدهوراً من سطح في يوم افرط فيه بالشرب

– وهل كانت والدته تشرب ؟

– كجميع الناس يا سيدي ، انت تعلم . قطرة من هنا وقطرة من هناك .. اوه . العائلة جيدة ... وكان هناك اخ مات صغيراً جداً في ازمة تشنج .

وتطلع الطبيب اليها بعينه الثاقبة وقال بصوت عنيف :

– وانت ، اتشربين ايضاً ؟

فتلعثمت جرفيز ،وأنكرت ، ووضعت يدها على قلبها لتعطي كلمتها المقدسة.

– انت تشربين . احذري ، وانظري الى اين يقود الشراب . في يوم او في آخر ستموتين هكذا

وظلت ملتصقة بالجدار وادار الطبيب ظهره ، وجثم دون ان يهتم اذا كان سيلتقط بمعطفه غبار فراش القش ؛ ودرس طويلاً ارتجافات كوبو ، وانتظره اثناء مروره ، وتبعه بنظره . في هذا النهار كان الساقان يقفزان بدورهما ، فقد سقط الارتجاف من اليدين الى الرجلين ، كركوز حقيقي سحبت خيوطه اعضاؤه متحركة ، والجذع متصلب كالخشب . وكان التلف يسير فيه شيئاً فشيئاً كأن موسيقى موجودة تحت الجلد ؛ وكان الارتجاف يذهب كل ثلاث او اربع ثوان ، ويدور لحظة ، ثم يتوقف ، ثم يعود ، كالرعشة الصغيرة التي تهز الكلاب الشاردة حين تشعر بالبرد في الشتاء تحت احد الابواب . ان للبطن والكتفين رجفة ماء على وشك الغليان .

الا انه كان تلفاً غريباً . سير ملتو كفتاة احدثت الدغدغات تأثيرها فيها .

وكان كوبو يئن بصوت خفي . ويبدو انه يتألم اكثر من البارحة . وانينه المتقطع يفصح عن جميع انواع الآلام كانت الوف من الدبابيس تنخسه ، وعلى كل مكان من جلده شيء يثقل عليه ؛ حيوان بارد ومبلل يزحف على ركبتيه ويغرز الكلاليب في لحمه . ثم ، كانت حيوانات اخرى ملتصقة بكتفيه منتزعة ظهره بخدش الاظافر

وكان يدمدم باستمرار

– انا عطشان ، اوه ! انا عطشان !

واخذ التلميذ اناء فيه ليموناضة من لوح واعطاه اياه . فأمسك الإناء بكلتا يديه ، وشرب جرعة بنهم ساكباً نصف المائع على نفسه ؛ ولكنه بصق الجرعة حالاً بتقزز غاضب ، صارخاً

– واسم الله ، انه خمر ! ..

عندئذ اراد التلميذ باشارة من الطبيب ان يجعله يشرب الماء دون ان يترك الاناء . فابتلع الجرعة هذه المرة عاوياً كأنه ابتلع النار

– انه خمر . واسم الله !.. انه خمر !

منذ البارحــة كان كل مـــا يشربه خمراً . وكان هــذا يضاعف عطشه ولا يستطيع ان يشرب لان كل شيء كان يحرقه . وقــد جيء له بثريدة ، ولكنهم بالتأكيد يحاولون تسميمه لان هذه الثريدة تفوح منها رائحة الخمر والخـــبز حامض ومتعفن . لا يوجد حوله سوى سم . والغرفة تفوح بالكبريت . حتى انه كان يتهم الناس بحك عيدان ثقاب تحت انفه ليؤذوه

وكان الطبيب قد نهض ليستمع الى كوبو الذي اصبح الآن يرى اشباحــاً في عز الظهر . ألم يكن يعتقد انه يرى على الجدران نسيج عناكب كبير كشراع المركب ! .. ثم يصبح هذا النسيج شباكاً بحلقات تضيق وتمتد كلعبة عجيبة ! وكرات سوداء تسير في الحلقات ، كرات حقيقية لمشعوذ ، أولاً كبيرة ككرة البليار ، ثم كبيرة ككرة المدفع ؛ وكانت تنتفخ ، وتهزل ، وكل ذلك ببساطة لكي تزعجه ، وصرخ فجأة :

– اوه ! الجرذان ! اليكم الجرذان ، وفي هذه الساعة .

ان الكرات هي التي اصبحت جرذاناً تلك الحيوانات القذرة كانت تكبر وتمر من خلال الشبكة ، وتقفز على الفراش حيث تتبخر . وهناك ايضاً قرد كان يخرج من الجدار ، ويعود الى الدخول في الجدار ، مقترباً منه كل مرة فيتراجع خوفاً من قضم انفه . وفجأة تغير هذا ايضاً ؛ فالجدران تكاد تنقلب ، لانه كان يردد مختنقاً من الرعب والهياج

– هكذا ، هيا اذن .. هزوني فلا يهمني . هيا اذن .. البيت ! هيا اذن ! الى الارض نعم ، دقــوا الاجراس ايهـــا الغربان ! اعزفوا على الارغن لتمنعوني من مناداة الحرس .. ان اولئك السفلة وضعوا آلة خلف الجدار . اني اسمعها جيداً فهي تزفر ، سيجعلوننا ننفجر الى النـــار .. اسم الرب .. الى النار .. انهم يصرخون الى النار انظروا لقد اشتعل . اوه ! لقد انار، انار، السماء كلها تحترق ، نيران حمراء ، نـيران خضراء ، نـــيران صفراء .. الي .. النجدة .. الى النار ..

وكان صراخه يضيع في حشرجة. ولم يكن يهمهم بسوى كلمات لا بقية لها. الزبد على فمه، والذقن مبلل بالريق وكان الطبيب يحك انفه باصبعه، وهي حركة اعتيادية عنده دون شك أمام الحالات الخطيرة، والتفت نحو التلميذ وسأله بصوت منخفض:

– والحرارة، دائماً اربعون درجة. اليس كذلك؟

– نعم يا سيدي

ومط الطبيب شفتيه استياء، وظل هناك دقيقتين وعيناه محدقتان بكوبو. ثم هز كتفيه وأضاف

– نفس العلاج شيء من المرق، حليب، ليموناضة بحامض الليمون، ومستخرج رخو من الكينا يعطى بالملعقة على جرعات لا تتركه، ونادني.

وخرج، وتبعته جرفيز لتسأله اذا لم يكن هناك أمل، ولكنه كان يسير متصلباً في الرواق بحيث لم تجرؤ على الاقتراب منه. وظلت واقفة هناك برهة، مترددة بالعودة لترى زوجها. لقد بدا لها الاجتماع قاسياً جداً ولما كانت لا تزال تسمعه يصيح قائلاً ان الليموناضة تعبق برائحة الخمر فقد سارت مكتفية بما سمعته. وفي الشوارع كان عدو الخيول وجلبة العربات تدخل في روعها ان كل مأوى القديسة آن يتعقبها. وهذا الطبيب الذي هددها صحيح، كانت تعتقد قبلاً انها اصيبت بالمرض.

ومن الطبيعي، في شارع القطرة الذهبية ان يكون آل بوش والآخرون بانتظارها. وما ان ظهرت بالباب حتى نوديت الى المنزل. ايه هل الاب كوبو لا يزال حياً؟ يا الهي .. نعم لا يزال حياً وبدا بوش منذهلاً واجماً فقد راهن على ليتر من الخمر ان الاب كوبو لن يبقى حتى المساء. كيف .. انه لا يزال حياً ودهش الجميع ضاربين على افخاذهم. يا له من نشيط لا يزال يقاوم. وحسبت مدام لوريللو الساعات؛ ست وثلاثون ساعة، واربع وعشرون ساعة، الكل ستون ساعة. يا له من مزعج .. ستون ساعة مضت وهو ينط ويصيح .. ما من أحد رأى قوة كهذه. ولكن بوش الذي كان يضحك ضحكة صفراء بسبب ليتر الخمر سأل جرفيز متشككاً اذا كانت متأكدة من انه لم يمت حين

أدارت ظهرها . اوه .. كلا ، كان يقفز بمزيد من القوة ويبدو انه ليس راغباً بالموت عندئذ زاد بوش من الحاحه ورجاها ان تعيد ما كان يفعله وذلك لكي يرى نعم ، نعم ، قليلا بعد .. بناء على طلب عام فقد قال الجميع لها انها تكون لطيفة لو اعادت ذلك لان هناك جارين لم يريا شيئاً بالامس وقد نزلا عمداً ليشاهدا اللوحة . وكان البواب يصيح في الناس ان يقفوا بالصف. واخلى الناس منتصف المنزل متدافعين بالمرافق مع رعشة فضول . الا ان جرفيز خفضت رأسها كانت تخاف حقيقة ان تصبح مريضة . ومع ذلك فانها راغبة في ان تثبت ان القضية ليست فقط في ان يتوسلوا اليها ، اذ بدأت بقفزتين أو ثلاث ؛ ولكنها انقلبت الى الوراء قول شرف ، فهي لا تستطيع ومرت تمتمة خيبة أمل : كان الامر مؤسفاً ، فقد قلدت ذلك تقليداً متقناً واخيراً ، اذا لم يكن باستطاعتها ان تفعل ذلك .. ولما كانت فرجيني قد عادت الى دكانها فقد نسي الاب كوبو في معرض الخوض في حديث بيت بواسون . الفوضى تشمله الآن : وقد جاء المباشرون البارحة ، والشرطي يكاد يخسر وظيفته ؛ بينما لانتليه يدور حول فتاة المطعم المجاور ، وهي امرأة بديعة كانت تحدث انها ستفتح محلا لبيع الامعاء . انها لمزحة ان تستقر بائعة أمعاء في الدكان ؛ أشياء جامدة بعد الحلوى وذلك الاقرن بواسون لا يفطن لشيء في كل هذا . فكيف بحق الشيطان ان رجلا تفرض عليه مهنته ان يكون اريباً يبدو غبياً في بيته ولكنهم سكتوا فجأة حين شاهدوا جرفيز التي كانت جالسة وحدها في داخل المنزل ، مرتجفة القدمين واليدين ، مقلدة كوبو . برافو .. انه لكذلك . ولم يكونوا يطلبون زيادة على ذلك . وظلت مشدوهة كأنها خارجة من حلم . ثم ذهبت بعدما القت تحية المساء على الجماعة وصعدت لتحاول ان تنام .

وفي الغد رآها آل بوش تذهب عند الظهر كاليومين الآخرين ، فتمنوا لها التوفيق . وفي ذلك النهار ، في مأوى القديسة آن ، كان الرواق يرتج من صياح كوبو ورفساته . وكانت لا تزال ممسكة بحاجز الدرج حين سمعته يعوي :

– اليكم البق .. عودوا من هنا لأعرق عظامكم .. آه.. انهم يريدون قتلي..

آه .. البق .. انا افضل منكم كلكم . ابتعدوا .

وبعد لحظة كانت تلهث امام الباب اذن كان يحارب جيشاً وحين دخلت رأت الامر قد تفاقم ، فقد كان كوبو مجنوناً غاضباً ، كأنه هارب من شارانتون .. كان يتحرك في داخل غرفته ، مرسلاً يديه في كل مكان ، على نفسه ، على الجدران ، على الارض ، متقلباً ، ضارباً في الفراغ ؛ وكان يريد فتح النافذة ، ويختبىء ويدافع عن نفسه ، وينادي ، ويجيب وحده ليقوم بهذه الضوضاء ، بهيئة ساخط لرجل اصابه كابوس . ثم فهمت جرفيز انه يتخيل نفسه على سطح يضع الواح زنك . كان يقلد المنفاخ بفمه ، ويحرك المكاوي في الموقد ، ويركع ليدخل ابهامه في حافة فراش القش ، معتقداً انه يجري عملية اللحام. نعم ، لقد عادت اليه مهنته عند اقتراب اجله ؛ واذا كان يصيح بشدة ، ويتعلق بالسطح ، فذلك لان هناك اناساً ثقلاء يمنعونه من تنفيذ شغله بشكل جيد. وكان يوجد على جميع السطوح المجاورة جماعة من الرعاع يمازحونه وبهذا ، فان هؤلاء الهازئين افلتوا على ساقيه عصابات من الجرذان آه .. يا للحيوانات القذرة.. انه يراها دائماً.. ويفعل حسناً بسحقها وذلك بأن يحك قدمه بالارض بكل قواه. وكانت تتوالى بكثرة بحيث اصبح السطح اسود . الم يكن يوجد عناكب ايضاً كان يضم بنطلونه بشدة ليقتل على فخذه العناكب الكبيرة المتغلغلة هناك . يا للرعد! لن ينهي يومه . انهم يريدون قتله . ومعلمه سيرسله الى مازاس . عندئذ كان يظن ان هناك آلة بخارية في بطنه وهو يسرع ؛ الفم مفتوح ينفخ الدخان ، انه دخان كثيف يملأ الغرفة ويخرج من النافذة ؛ وهو منحن ، نافخ دائماً ، ينظر في الخارج شريط الدخان ينتشر ويصعد في السماء حيث يخفي الشمس . وصاح :

– انظروا . انها عصابة شارع كلينيانكور متنكرة بشكل دببة .

وظل مقعياً امام النافذة كأنه يتابع موكباً في شارع من أعلى سطح .

– انظروا الكوكبة ، اسود وفهود تكشر .. وهناك اطفال متنكرون كالكلاب والهررة ... وهناك كليمانس الكبيرة بشعرها المليء بالريش . آه ! انها

تتقلب وتري كل ما عندهـــا ... قولي اذن يا غزالتي ، يجب ان نتفق .. ايه ..
يا معشر الشرطة ، اتريدون ان لا تأخذوها ، لا تطلقوا النار . يا للرعد .. لا
تطلقوا النار .

وكان صوته يتصاعـــد أبحّ خائفاً ، والحـــنى بشدة مكرراً ان الشقراء
والبنطلونات الحمر كانت تحت ، وان رجالاً يصوبون بنادقهم اليه وكان يرى
في الجدار فوهة مسدس مصوبة الى صدره . لقد جاؤا يأخذون الفتاة منه

– لا تطلقوا النار ، بحق اسم الله ، لا تطلقوا النار .

ثم انهارت البيوت ، واخذ يقلد قضقضة حي ينهار ؛ واختفى كل شيء ،
وطار كل شيء . ولكن وقته لا يتسع للتنفس ، فقد كانت تمر لوحات اخرى
بسهولة حركة غير عادية . وملأت فمه حاجة غاضبة الى التكلم بالكلمات التي
اطلقها دون بقية ، مع غرغرة بالحنجرة . وكان يرفع صوته دائماً :

– هذا انت ، صباح الخير .. بدون مزاح .. لا تأكل شعري .

وأمرّ يده من أمام وجهه ، ونفخ ليبعد الشعر ، فسأله تلميذ الطب

– من ترى ؟

– زوجتي بالتأكيد .

ونظر الى الجوار مديراً ظهره لجرفيز .

وكانت هذه تشعر بخوف شديد . وتفحصت الجدار لترى اذا كانت تشاهد
نفسها . أما هو فقد استمر بالكلام :

– انت تعلمين . لا تتركيني ... لا اريد ان أُربط . ها انت جميلة زينتك
انيقة ، من اين اتيت بهذا ايتها البقرة ؟ لقد اتيت من محل الترميم ايتهـــا الناقة !
انتظري قليلاً لأسوّي امورك . ها ! انت تخبئين عشيقك وراء تنورتك . من هو
هذا ؟ انحني لأرى . واسم الله ! انه هو ايضاً .

وبقفزة مخيفة راح يصدم رأسه بالجـــدار ، ولكن الطنفسة المحشوة خففت
الصدمة وسُمع فقط قفز جسده على فراش القش الذي القته الهزة عليه

وردد تلميذ الطب

– من ترى ؟ . .

فعوى كوبو

– صانع القبعات ! صانع القبعات !

واستفهم تلميذ الطب من جرفيز فتلعثمت دون ان تستطيع الاجابة لأن هذا المشهد حرك فيها جميع حماقات حياتها . وكان عامل الزنك يمد قبضتيه

– هيا يا صاحبي . يجب ان انظفك في النهاية . . آه ! لقد اتيت متأبطاً ذراع هذه النفاية لتهينني امام الناس . حسناً ، سوف اخنقك . نعم ، نعم ، انا ! ودون ان اضع قفازات ايضاً لا تهرب . خذ هذه ، وهذه ، وهذه .

وكان يقذف قبضته في الفراغ . واستولى عليه الغضب . والتقى بالحائط وهو يتقهقر فظن انهم يهاجمونه من الوراء . والتفت واستضرى على الطنفسة . وكان يقفز ، ويثب من زاوية الى أخرى ، ضارباً على بطنه ، وإليتيه ، وكتفه ، متدحرجاً ، ناهضاً . وارتخت عظامه وكان للحمه صوت مشاقة مبللة . وكان يصحب هذا اللعب الجميل بتهديدات شرسة وصرخات وحشية . الا ان المعركة يجب ان تكون قد تحولت لغير صالحه لأن تنفسه اصبح قصيراً ، وخرجت عيناه من محجريهما ، وبدا انه قد اجتيح شيئاً فشيئاً بجبن ولد :

– الى القاتل ، الى القاتل ! اهربا كلاكما . اوه ! القذرون ، انهم يسخرون . ها هي الفاجرة ترفع قوائمها الاربع في الهواء ! يجب ان تمر من هنا. هذا مفروغ منه . . آه ! اللص انه يقتلها . . لقد قطع لها ساقاً بسكينه ، والساق الاخرى على الارض ، والبطن مبقور . انه مليء بالدم . . . اوه . يا رب . اوه . يا رب . اوه . يا رب .

وسبح بالعرق ، ووقف شعره على جبهته ، وكان مخيفاً . وعاد القهقرى محركاً ذراعيه بعنف كأنه يريد ان يبعد المشهد المقيت . واطلق شكايتين تمزقان القلب ، وانقلب على ظهره على الفراش الذي علقت رجلاه به

وصاحت جرفيز وقد ضمت يديها

– يا سيد ، يا سيد ، لقد مات .

وكان تلميذ الطب قد تقدم وسحب كوبو الى وسط الفراش . كلا ، لم يكن ميتاً ، ونزعوا نعليه ؛ ووصل قدمـاه العاريان الى الطرف ، وصارا يرقصان وحدهما ، الواحد بجانب الآخر ، رقصة صغيرة سريعة ومنتظمة .

ودخل الطبيب ، وقد جاء معه بزميلين ، احدهما هزيـل والآخر سمين ، يحملان اوسمة مثله . وانحنى الثلاثة دون ان يقولوا شيئاً ، وتطلعوا في كل مكان من جسد الرجل ، ثم صارا يتحدثان بسرعة وبصوت منخفض . لقـد كشفوا الرجل من الفخذين الى الكتفين ، ووقفت جرفيز على رؤوس اصابعهـا لترى ذلك الجذع المنبسط . لقد تم الامر فالارتجـاف هبط من الذراعين وصعد الى الساقين . وبدأ الجذع نفسه يهتز في تلك الساعة . وبالتأكيـد فالكركوز كان يلهو بالبطن ايضاً انها تموجات خفيفة على طول الاضلاع ، والتهاث كمن يبدو انـه يموت من الضحك وكان كل شيء يسير ، وليس هناك مـا يقال ؛ العضلات تتمرن مقابل بعضها البعض ، والجلد يرن كالطبل ، والوبر يرقص محيياً بعضه البعض . واخيراً انها الهزة الكبرى او ركض النهاية كما يقال ، حين يطلع النهار ويمسك الراقصون كلهم بأرجل بعضهم البعض وهم يضربون بالاعقاب .

وتمتم الطبيب الرئيس

– انه ينام .

وابدى ملاحظة عن وجه الرجـل للاثنين الآخرين . لقد كان كوبو ، وهو مطبق الجفون ، يصاب بهزات عصبية خفيفة تجـذب كل وجهه . وكان اكثر بشاعة وهو محطم هكذا ، بارز الفك ، بقناع مشوه لميت كان يصاب بالكابوس . ولكن الاطباء بعد ما شاهدوا القدمين جاؤا يضعون انوفهم فوقهما باهتمام عميق . كان القدمان يرقصان دائماً اوه يستطيع صاحبهما ان يشخر فهـذا لا يعنيهما لأنهما استمرا في رقصهما دون عجلة او بطء قدمان آليان حقيقيان ، قدمـان يأخذان لذتهما انى وجداها .

وحين رأت جرفيز الاطباء يضعون ايديهم على وسط زوجهـا ارادت ان تجس هي ايضاً، فاقتربت بهدوء ووضعت يدها على احد الكتفين وتركتهادقيقة .

يا الهي . ماذا يحدث في الداخل ؟ ان كل شيء يرقص حتى اعماق اللحم ؛ العظام نفسها تكاد تثب . واختلاجات وتموجات تأتي من بعيد وتجري كالنهر تحت جلده وحين شدت قليلاً شعرت بصرخات الألم الصادرة عن النخاع الشوكي وبالعين المجردة تُرى فقط التموجات الصغيرة تحفر حفراً كما على صفحة اعصار ؛ ولكن يجب ان يكون هناك خراب كبير في الداخل . يا له من شغل . شغل خلد انه خمر الحانة الذي يحفر هناك بمعوله . والجسم بكامله مبلل به . وكان يجب ان ينتهي هذا العمل مفتتاً، حاملاً كوبو في الارتجاف العام المستمر للهيكل العظمي كله

وكان الاطباء قد ذهبوا وفي مدى ساعة ظلت جرفيز مع تلميذ الطب ، ورددت بصوت منخفض

– سيدي ، سيدي ، لقد مات .

ولكن التلميذ الذي كان يتطلع الى القدمين قال لا برأسه . وكان القدمان لا يزالان يرقصان خارج السرير ولم يكونا نظيفين واظافرهما طويلة . ومضت ساعات . وفجأة جمدا . عندئذ التفت التلميذ الى جرفيز قائلاً

– الآن مات .

ان الموت وحده اوقف القدمين عن الحركة .

وحين عادت جرفيز الى شارع القطرة الذهبية، وجدت عند آل بوش حشداً من النساء يثرثرن بصوت محتدم ، فظنت انهن ينتظرنها ليعرفن الاخبار كالايام الماضية . وقالت وهي تدفع الباب بهدوء ، تعبة متبلدة :

– لقد مات

ولكنهم لم يسمعوها . وكان المنزل قائماً قاعداً . اوه . حكاية تستوجب الضحك لقد فاجأ بواسون زوجته مع لانتيه . ولكن الأمر لم يُعرف تماماً لأن كل واحد يروي القصة على طريقته . اخيراً سقط عليهما بينما كانا لا ينتظران مجيئه . وكانت تضاف تفاصيل ايضاً ترددها النساء عاضات على شفاههن . ومن الطبيعي ان منظراً كهذا يخرج بواسون عن طوره انه نمر حقيقي ... فهذا

الرجل القليل الكلام ، والذي يبدو انه يسير وفي قفاه عصا ، أخذ يزأر ويثب ثم لم يعد يُسمع شيء . واضطر الى توضيح الامر للزوج لا يهم . فالأمـــر لن يتطور . وكان بوش يعلن ان فتاة المطعم المجاور اخذت الدكان بالتأكيد لتبيع فيها الامعاء . ان صانع القبعات الاريب هذا كان يحب الامعاء كثيراً .

الا ان جرفيز رددت بتراخ حين جاءت مدام لوريللو مع مدام ليرا ؟

– لقد مات ... يا الهي . اربعة ايام وهو يرقص ويصيح .

عندئذ لم تستطع الاختان ان تفعلا شيئاً آخر سوى سحب منديليهما لقد كان لأخيهما اخطاء كثيرة ، ولكنه اخوهما وهز بوش كتفيه قائـــلا بصوت مرتفع يسمعه الجميع

– بالتأكيد . لقد نقص السكارى واحداً

ومنذ ذلك اليوم كانت جرفيز تضيع صوابها في اغلب الاحيان. وكانت احدى الرغبات الحارة لساكني البناية ان يروها وهي تقلد كوبو . ولم يكونوا بحاجة لطلب ذلك منها ، فقد كانت تقدم اللوحة مجانـاً . هز القدمين واليدين ، وهي تطلق صرخة خفيفة لاارادية . ومما لا شك فيه انهـا اكتسبت هذه العادة المضحكة في مأوى القديسة آن وهي تنظر طويلاً الى زوجها . ولكنها لم تكن محظوظة لانها لم تمت مثله . وكان الأمر يصل الى حدود كشرات القرد الهارب التي كانت تجعل الاولاد يقذفونها ببقايا الملفوف في الشوارع

وظلت جرفيز هكذا عدة شهور . وكانت حـــالتها تسوء وتتقبل اسوأ الاهانات وتموت من الجوع شيئاً فشيئاً كل يوم . وما ان تحصل على اربعة فلوس حتى تشرب وتضرب الجدران . وكانوا يكلفونها في الحي بأعمال قذرة . وقـد تراهنوا ذات مساء على انها لن تأكل شيئاً مقرفاً ، ولكنها اكلته لتربح عشرة فلوس . وقرر السيد ماربسكو ان يطردها من غرفة الطابق السادس . ولكن حين وجدوا الاب برو ميتاً في جحره تحت الدرج رضي صاحب البيت ان يترك لها هـذا العش . وهي الآن تسكن في عش الاب برو . وهناك على القش القديم كانت تصطك اسنانها وهي فارغة البطن متجمدة العظام . والظاهر ان

الارض لا تريـدها . واصبحت بلهاء ، ولم تفكر حتى بالقاء نفسها مـن الطابق السادس على بلاط الساحة لتنتهي . بـــل يجب ان يأخذها الموت شيئاً فشيئاً ، قطعة قطعة ، وهو يجرها هكذا حتى نهاية الحياة التي عـــاشتها . ولم يعرفوا بالضبط سبب موتها فقد تحدثوا عـــن الحر والبرد . ولكن الحقيقة هي انها ماتت من البؤس ، والقذارات ،وتعب حياتها الفاسدة.لقد ماتت من الاسترخاء وفقاً لكلمة آل لوريللو. فذات صباح، وقد تصاعدت رائحة كريهة في الرواق ، تذكروا انهم لم يروها منذ يومين ، وهـــكذا اكتشفوها خضراء اللـــون في عشها

والاب بازوج هو الذي جاء حاملاً تابوت الفقراء تحت ابطه ليجهزها . وقد كان مخموراً جداً في ذلك النهار ولكنه رجـل طيب على كل حال ومرح كالأوز . وحين عرف الشغل المطلوب منه لفظ بعض التعليقات الفلسفية محضراً عمله الصغير

– الناس كلهم يذهبون.. وما من حاجة للتدافع فهناك مكان للجميع ... والعجلة من الحماقة لأن من يتعجل يصل متأخراً .. وانا لا اطلب افضل من ان اسبب السرور للناس . البعض يريدون والآخرون لا يريدون .. رتب لي هذا لأرى ... هذه واحدة لم تكن تريد ، ثم ارادت ، حينئذ جعلناها تنتظر ... اخيراً ماتت ، صحيح ، لقد وصلت الى الموت . هيا ، وبمرح !

وحين امسك جرفيز بيديه الكبيرتين السوداوين ، رق قلبه ورفع بهـدوء تلك المرأة التي احبته طويلاً . ثم قال متلعثماً بين شهقتين وهو يمددها داخـل النعش بعناية ابوية :

– انت تعلمين ، اصغي جيداً .. هذا انا ، بيبي المرح الملقب بمخفف آلام السيدات ... اذهبي . انت سعيدة . نامي يا جميلتي ...

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
منشورات عويدات - ص . ب ٦٢٨
بيروت - لبنان تلفون ٢٧٢٧١٤
في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩

منشورات عويدات ١٩٦٩/٩/١٤٤

Emile ZOLA

L'ASSOMMOIR

Texte traduit en arabe
par
BAHIGE CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban